بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ ٱلنَّاشِرِ

الحمد لله ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما ، وملء ما شئت - يارب - من شيء بعد . والصلاة والسلام على حبيبنا محمد وآله وأصحابه والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ...

إنني وأنا أكتب هذه الكلمات تقديماً لهذا التفسير الجليل ، أزداد إيماناً على إيمان ، وثقة على ثقة ، بقول الصادق المصدوق - صلى الله عليه وسلم - لابن عباس - رضي الله عنه - : « ... واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ... » . ذلك لأنني منذ أسست (دار السلام) عام ١٣٩٣ هـ وأنا أطمع وأطمح .. أطمع - من قرارة نفسي - في أن أقدم عملاً قيماً ، أخدم به كتاب الله - تبارك وتعالى - وأنفع به أمتي التي أنتمي إليها .. وأطمح - في نفس الوقت - إلى أن يكون هذا العمل جديدا كل الجدة ، لم يسبقني أحد إليه ؛ فإني أكره منافسة الناس في أرزاقهم فأُحب أن أنشر ما لم أُسْبق إليه .

وفي عام ١٣٩٨ هـ أرسل إليَّ المؤلف الكريم هذا المصنف التفسيري الضخم الذي بين أيديكم . وأحسست - ساعتها - أن العمل أكبر من إمكانياتي ، إلا أنني استعنت بالله وهو خير معين ، وأعددت العدة النفسية لهذا العمل الذي كنت أطمح لمثله .

وبعد بضعة أشهر حضر إليَّ ناشر كريم من بيروت ، أقدر مني في هذا المجال وأطول باعاً . حضر إليَّ وهو يحمل رغبة الشيخ المؤلف - أعزه الله - في أن يشاركني جهدي في هذا العمل ، رغبة من فضيلته في أن يخرج هذا الكتاب مخدوماً خدمة تامة تليق بمقام كتاب الله تعالى . فتنازلت عن حقي كاملا للأخ الناشر متمنياً له - من كل قلبي - التوفيق والسداد .

ودارت الأيام دورتها ، وقدر الله أن يحدث ببيروت ما حدث ، بحيث أصبح متعذراً على الأخ الناشر إتمام هذا العمل بعد أن قطع شوطاً كبيراً في تنضيد حرفه . فاعتذر الأخ الناشر عن إتمام العمل لظروف خارجة عن إرادته - ومرة أخرى - أدبا ولطفاً من فضيلة الشيخ المؤلف - يرسل إليَّ مستشيراً ، ماذا يفعل ؟ وكأنه يرشحني من جديد لهذا العمل . وشاءت أقدار الله أن يصيبني هذا الخير بعد أن أخطأني في المرة الأولى ، وعاد إليَّ هذا التفسير لكي أقوم بطبعه ، ويكون أول عمل لي في مجال خدمة كتاب الله العزيز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

ولعل من حكمة الله العزيز في هذا العمل أن أخطأني في المرة الأولى ؛ لأنني لم أكن على مستوى

القدرة الكاملة لإتمام مثل هذا العمل الكبير القيم ، الذي هو جزء من أساس تبني أمتنا الحبيبة بناءها عليه صرحاً شامخاً عالياً . هذا الأساس هو الفهم الدقيق لكتاب الله والوعي العميق بأبعاده ومتطلباته ، حتى يكون ثمرة ذلك الفهمِ الإيمانَ العميقَ بالله تعالى والالتزام بما أوجب بعد ذلك .

وهذا المصنَّف التفسيري غني عن القول بأن فيه من الجديد الكثير ، فإنه قد تفرد بأشياء لم يُسْبَق إليها ، خاصة مسألة تقديم أول نظرية متكاملة عن الوحدة القرآنية في القرآن الكريم . كما أنه استفاد من القديم وأُعمل فيه بعض التهذيب بما يناسب حاجة عصرنا ، فلكل عصر حاجته ومشاكله التي يواجهها . ولن أطيل الحديث عن هذا التفسير ، وأترك الحكم للقارىء الكريم ولأولي العلم بخاصة .

وأما عن المؤلف فلن أعرِّف أو أمتدح الرجل ، فهو غني عن التعريف على مستوى العالم الإسلامي وغيره ، وما أقول إلا دعاءً من كل قلبي له بالتوفيق والسداد والرشاد في كل أمر من أموره .

وأود أن أوجه الكلمة لكل من يقرأ أو يطالع هذا التفسير ألا يألو جهداً في النصيحة . فإن وجد تقصيرا أو نقصا في أي جانب من جوانب التفسير فليتصل بالناشر مباشرة ، فإن النقص يعتري كل البشر ، وقد جعل رسولنا الكريم – صلى الله عليه وسلم – النصيحة هي الدين ، وليثق القارىء الكريم في أن أي ملاحظة مهما كان حجمها ومهما كانت لهجتها ، ستؤخذ في الاعتبار وستكون محط عناية وتقدير ؛ ذلك أن المؤمن مرآة أخيه فكونوا لنا مرآة حتى نصل – إن شاء الله – بهذا العمل وبغيره من الأعمال إلى أقصى ما يصل إليه البشر من الدقة والإحكام .

ولا أنسى في هذا المقام أن أقدم شكري وتقديري ومحبتي لأسرة دار السلام من مصححين وإلى أقسام المونتاج والتصوير والجمع وإلى مندوبي المبيعات والمحاسبين ، لما قدموا ، فهم نعم الإخوة ، حاولوا جهدهم إخراج هذا التفسير على أفضل ما يستطيعون ، جزاهم الله خيراً وأحسن إليهم .

وأخيراً وليس آخراً .. أقول : اللهم إن أحسنت فمن فضلك وكرمك ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي . أرجوك حسن العاقبة وأن ألقاك وأنت راضٍ عني ، فاجعل اللهم هذا العمل ذخراً لي إلى يوم ألقاك ، يوم لا ينفع مال ولا بنون . وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الناشر

عبد القادر البكار

مُقَدِّمَة سِلْسِلَة
الأَسَاس فِي المَنْهَج

هذه السلسلة تتألف من ثلاثة أقسام :

القســم الأول : الأساس في التفسير .

القسم الثاني : الأساس في السنّة وفقهها .

القسم الثالث : الأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم للنصوص .

وهذا القسم الأخير بمثابة المفاتيح لأمهات القضايا ، التي تلزم دارس الكتاب والسنّة ، أو تصلح كمقدمات لدراسة الكتاب والسنّة ، سواء كانت هذه القضايا مرتبطة بأصول الفقه ، وكيفية انبثاق الأحكام عن الكتاب والسنّة ، أو كانت مرتبطة بقضايا اختلاف الفقهاء ، وأسباب اختلاف الفرق الإسلامية ، فضلا عن الكلام في قضايا الحكم العقلي والعادي والشرعي ، ومحل كلٍ « وَصِلة كلٍ » من الثلاثة بالآخر ، إلى غير ذلك .

ولا يظنَنَّ ظانٌّ أن تسميتي لهذه السلسلة باسم الأساس في المنهج ، وكذلك في استعمالي كلمة الأساس في كل من أقسامها الثلاثة أن ذلك تزكية لها وإشعار بإحاطتها ، فالأمر ليس كذلك ، بل كل ما أحلم به هو أن أقدم لإخواني المسلمين أساساً يبنون عليه ، ولكن حرصت على أن يكون أساساً غاية في القوة والمتانة .

(الأساس في التفسير) و (الأساس في السنّة وفقهها) و (الأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم للنصوص)

أولاً : بالنسبة للقرآن :

أ - **دندن** علماؤنا حول الصلة بين آيات السورة الواحدة وحول الصلة بين سور القرآن وحول السياق القرآني ؛ وجاءت نصوص تتحدث عن أقسام القرآن : قسم الطوال ، وقسم المئين ، وقسم المثاني ، وقسم المُفَصَّل . ولم يستوعب أحد من المؤلفين الحديث عن هذه القضايا - في علمي - بما يغطيها تغطية مستوعبة . وفي عصرنا - الذي كثر فيه السؤال عن كل شيء - أخذ كثيرون من الناس يتساءلون عن الصلة بين آيات القرآن الكريم وسوره ، وعن السر في تسلسل سور القرآن على هذه الشاكلة المعروفة . فأصبح الكلام في هذا الموضوع من فروض العصر الذي نحن فيه . ولقد منَّ الله عليَّ في أن أسُدّ هذه الثغرة مصححاً الكثير من الغلط في هذا الشأن ، ومضيفاً أشياء كثيرة لم يسبق أن طرقها أحد .

ب - **في عصرنا** وُجدت علوم كثيرة ، هذه العلوم قدمت فُهوماً جديدة للنصوص ، أو أنها رجحت فُهوماً قديمة ، وبسبب من هذه العلوم وبسبب من الوقائع التي انبثقت عنها ، طُرحت تساؤلات حول كثير من معاني القرآن ، وكأثرٍ عن ذلك كله كان لابد من عرض للقرآن الكريم يغطي ذلك كله .. ولقد حاولت في قسم التفسير أن أقدِّم جواباً لتساؤلات وتبياناً لنصوص ، وإقامة حجة في شأنها بالنسبة لقضايا العلوم والدراسات الحديثة بحسب الإمكان .

جـ - **وفي عصرنا** كثرت الشُّبه والاعتراضات على القرآن ، وعلى إمكانية انبثاق الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية عنه ، ووجدت مفاهيم واتجاهات مزخرفة ومعاكسة ، محلياً وعالمياً ، ضد بناء الحياة المعاصرة على أساس قرآني ، والمسلمون الحقيقيون يتحركون حركتهم الصعبة في البيان والتبيين ، لإقناع هذا العالم بأن القرآن هو الكتاب الرباني الوحيد ، الذي تكلف به البشرية بحق ، وهذا يقتضي عملاً وجهداً يكافئان ذلك . ونرجو أن يكون قسم التفسير من هذه السلسلة قد أعطى هذا الموضوع حقه .

د - **ولقد ابتعدت** الشخصية المسلمة كثيراً عن التحقق بمعاني القرآن ، وابتعدت الأمة الإسلامية كثيراً عن تمثل كتاب الله ، ولابد من بذل جهدٍ لإعادة المطابقة بحيث تعود الشخصية الإسلامية إلى أن يكون القرآن خلقها ، وبحيث يعود القرآن إلى الظهور في حياة الأمة المسلمة ، فتكون تجسيداً لمعانيه . وذلك موضوع متشعب الجوانب ولعل هذا التفسير يؤدي دوراً فيه فإنه من أهم ماينبغي أن يشتغل به ذهن المسلم المعاصر .

هـ - **والمسلم المعاصر** يعجبه أن يأخذ خلاصة التحقيق بأدلته المباشرة في أمر ما ، أما التحقيق نفسه فإنه يُولَع به طبقة من الناس . ومن ثَمَّ فحتى أُمهات كتب التفسير كثيراً ما يضيق المسلم العادي ذرعاً وهو يقرؤها ، وكثيراً ما يضيع وهو يرى أقوالاً متعددة ، وروايات كثيرة ومناقشاتٍ لا حصر لها ، وهذا كله ينبغي أن يختصر للمسلم غير المختص ليكون فهم كتاب الله متيسراً للجميع . ولقد راعيت في قسم التفسير هذه الضرورة بحيث لم أقدم فيه إلا ما له مساس مباشر في فهم القرآن دون مخالط كثير .

و - **وفي عصرنا** هناك قضايا إسلامية مطروحة ، ومناقشات تدور بين المسلمين أنفسهم ، بعض هذه القضايا استمرار لمناقشات قديمة ، سببها الاختلاف المذهبي أو الخلاف الاعتقادي ، وبعضها وليد عصرنا ، وهذا موضوع لابد من الاستقرار فيه على شيء ، وقد حاولت في هذه السلسلة كلها أن أغطي هذا الموضوع في كل مناسبة ذات صلة بشيء من ذلك . هذه أبرز النقاط التي تعتبر احتياجات عصر ، والتي استهدفتها في قسم التفسير وبعضها مستهدف في السلسلة كلها .

وهناك نقاط أخرى لم تكن هدفاً في حد ذاتها بل جاءت بسبب ظروفي التي بدأتُ فيها العمل في التفسير :

إنه من الواضح أن كل من يرغب في أن يشتغل بالتفسير سيجد نفسه بين أمرين :

- **الأول** : أن قسماً من التفسير الذي يريده سيجده في أي تفسير معتمد ، وهو بالتالي لا يحتاج إلّا إلى نقله وأحياناً إلى تبسيطه .

☆ ☆ ☆

– **الثاني** : أن الأغراض الخاصة التي يجب المفسِّرُ أن يحققها في تفسيره عليه أن يبذل جهداً خاصاً من أجلها ، حتى إنه ليحتاج أن يقرأ مئات الصفحات ، من أجل أن يغطي نقطة صغيرة جداً . ولم يكن باختياري أنني لتحقيق النوع الأول اعتمدت في الابتداء على تفسيرين فقط هما : تفسير ابن كثير وتفسير النسفي ، إذ لم يتوفر لي في سجني في المرحلة التي ابتدأت فيها العمل إلا هذان التفسيران ، وهما تفسيران مشهوران يغلب على الأول التفسير بالمأثور ، ويغلب على الثاني قضايا التحقيق المختصر لأمور اعتقادية أو مذهبية ، مع محاولة كل من التفسيرين أن يغطي المعنى الحرفي لآيات القرآن الكريم ، فأقبلت على هذين التفسيرين محاولاً من خلالهما أن أغطي المعاني الحرفية لكتاب الله تعالى ، وأحياناً المعاني الإجمالية ، ومحققاً خلال ذلك ما أستطيع تحقيقه من أغراض هذا التفسير ، على أن أكمل فيما بعد – إذا تغيرت ظروفي – كل ما استهدفته من هذا التفسير . ولقد حاولت في المرحلة الأولى من العمل أن أُضَمِّن هذا التفسير خلاصة التفسيرين ومجمل الفوائد الموجودة فيهما تاركاً ما لا يتفق وأهداف هذا التفسير ، وكنت أرى حرص الكثيرين من المسلمين على استيعاب تفسير ابن كثير ، ولم أزل أرى فشل الكثيرين في استيعاب هذا التفسير ، بسببٍ هو ميزة في حق العالِم ، ومتعبٌ في حق الرجل العادي ، وهو ذكر ابن كثير للأسانيد والروايات المتعددة والأقوال الكثيرة في الموضوع الواحد ، ومن ثَمَّ فقد حاولت أن أريح القارىء العادي من مثل هذا فأخذت خلاصة ما في هذا التفسير من معان إجمالية ، أو معان حرفية ، أو فوائد مذكورة فيه ؛ حتى إنه ليستطيع قارىء تفسيري هذا أن يطمئن إلى أنه أخذ تفسير ابن كثير دون ما يمله الرجل العادي منه ، مضافاً إليه تحقيقات وفوائد كثيرة مبثوثة في تفسير النسفي ، حتى ليكاد أن يكون هذا التفسير كذلك مستوعباً الكثير مما هو موجود في تفسير النسفي ، تاركاً نقل أمور كثيرة لا تتمشى مع أهداف هذا التفسير ؛ فكانت هذه القضايا ميزة لهذا التفسير ، ولكنها ميزة لم تكن مستهدفة في الأصل ، ومن خلال هذين التفسيرين وضعت الأساس الذي بنيت عليه هذا التفسير ، ثم بعد ذلك بدأ العمل الذي تم به هذا التفسير كما يراه القارىء .

وسيرى القارىء أنني كعادتي في كل ما أجمعه ، لا أُكلِّف نفسي عناء صياغة شيء يحتاجه كتابي ، إذا كان غيري قد صاغه الصياغة التي أرضاها ، أو التي تقصر عنها صياغتي أصلاً . فليس الهدف إلا وجه الله عز وجل ، وما سوى ذلك فإنني أرجو أن أتجاوزه . ولم يزل علماؤنا ينقلون في كتبهم الفصول الطويلة ، وأحيانا لا ينسبونها إلى أصحابها ، معتمدين فكرة أن أي تجديدٍ في علم أو فن تعطي صاحبه حق النقل دون

العزو ؛ على أنني لا أفعل ذلك بل أنقل وأعزو ؛ وإنما ذكرت هذا من باب الاعتذار ، ومن باب الاعتذار كذلك أقول :

إنه من الظلم لهذا التفسير أن يقول قائل : إن هذا التفسير هو خلاصة لكتابين ، كما **أنه من الظلم أن يقول قائل** : إن إحياء علوم الدين للغزالي هو مجرد دمج لكتابَي : قوت القلوب ، والرعاية . على أنني لا أدعي أن لهذا التفسير ميزة على تفسير ابن كثير أو تفسير النسفي بل أريد أن أقول : إن في هذا التفسير شيئاً آخر ، هو من الكثرة بمكان مما يحقق أهداف هذا التفسير ولم يكن هدفاً أصلاً لابن كثير أو للنسفي رحمهما الله .

وبعد هذا الاستطراد الذي اضطرنا إليه استكمال ميزات هذا التفسير ، في سياق الكلام عن بعض احتياجات عصرنا في شأن عرض القرآن في هذا العصر ؛ نرجع إلى ذكر الأسباب الموجبة ، التي أدت إلى إيجاد هذه السلسلة والتي هي احتياجات العصر كما ذكرنا ، فنذكر بالنسبة للسنّة بعض ما نراه احتياجاتِ عصر .



ثانياً : بالنسبة للسنَّة :

أما بالنسبة للسنَّة ، فإنني أرى أن احتياجات عصرنا في شأنها مجموعة أمور :

١ - **المسلم المعاصر** عنده رغبة في أن يتعرف على السنَّة المتواترة والصحيحة والحسنة السند ، ويحتاج إلى كتاب جامع لذلك كلِّه ، على أن يكون هذا الكتاب مضبوطاً شكلُه مشروحاً غريبُه .

٢ - **والمسلم غير المتخصص** بالحديث يهمه كذلك أن يأخذ الجوهر - دون ما احتاجه هذا الجوهر لحمايته - أي هو يحرص على أن يقرأ متون السُنّة دون أسانيدها .

٣ - **والمسلم المعاصر** بحاجة إلى أن يفهم السنَّة فهماً صحيحاً وأن يأخذ الجواب الشافي على كثير من الإشكالات ، وأن يعرف كثيراً من الأمور التي يتلجلج في قلبه سؤال عنها .

٤ - **وهناك شبهات** حول السنّة يثيرها أعداء الله عز وجل ، وهناك مناقشات حادة حول الكثير من الأمور بين المسلمين أنفسهم في شأن فهم الكثير من متون السنّة ، وكل ذلك يحتاج المسلم المعاصر إلى أن يرتاح قلبه في شأنه .

وقد كنت أحسُّ بضرورة وجود الكتاب الذي يخدم في هذه الشؤون ، وغيرها مما رأيناه وسنراه ، ولكن ما العمل ؟ ولم أكن أستطيع وخاصة في المراحل الأولى من سجني أن أصل إلى أي كتاب إلا بصعوبة شديدة ، ومن ثَمَّ لم أكن أطمع في أن أقدِّم خدمة مستوعبة في شأن السنة تحقق كل الأمور التي أعتبرها احتياجات عصرنا ، كما لم يكن بإمكاني أن أقدم التحقيق المناسب الذي يخدم أغراض هذه الاحتياجات ، ومن ثَمَّ فقد رأيت أن أعمل بقدر المستطاع المتاح ، مما سنرى حدوده في مقدمة الكلام عن القسم الثاني من هذه السلسلة ، وهو بفضل الله كثير طيب . هذه مجمل أمور في شأن الكتاب والسنّة أعتبرها من احتياجات عصرنا ، وأرجو أن أكون قد قدمت خدمة لا بأس بها فيها ويأتي القسم الثالث ليضع الأساس في ضبط مسار الفهم .



ولئن كان المشتغلون قديماً في خدمة الكتاب والسنّة يفترضون في الغالب أنهم يخاطبون إيماناً كاملاً ، وبالتالي فإنهم لا يتكلفون كثيراً لما يخدم قضية الإيمان ؛ فإنني أعتبر أن من واجبات العصر أن نلاحظ قضية الإيمان : إنْ في عرض المعاني ، أو إبراز ما يلزم لذلك .

ففيما يتعلق بعرض السنّة فإنه ينبغي على الباحث أن يلاحظ هذا الموضوع حتى في عملية ترتيب أبحاث السـنّة .

وأما بالنسبة للتفسير فإذا لم تخدم قضية الإيمان فيه في عصرنا المادي والشهواني فكأن المفسر لم يفعل شيئاً ، إن الله عز وجل يقول : ﴿ **وإذا تُلِيت عليهم آياته زادتهم إيماناً** ﴾ . فالأصل الأصيل هو أن يتعمق الإيمان بتلاوة الآيات ، وعلى المفسر أن يساعد في ذلك .

إن كثيراً من التفاسير – كما قلنا – يفترض سلامة الإيمان وكماله ، ومن ثَمَّ يركِّز على النكت والشروح والفوائد ومناقشة الخصوم ، وكل ذلك له فوائده ، ولكن هذا التفسير يريد صاحبه أن يكون أداة لرفع درجات اليقين ، بحيث لا يخلص القارىء من صفحة إلى صفحة إلا وقد ارتقى يقينه ، هذا مع تصحيح التصورات وزيادة العلم .

إن من أهداف هذه السلسلة خدمة قضية زيادة الإيمان ، وإصلاح الاعتقاد والعمل .

ولقد حرصت على أن أربط بين أقسام هذه السلسة برباط ، مع أنه جرت عادة المؤلفين أن يخصوا الكتاب بالتأليف وكذلك السنّة وكذلك الأصول دون أن يتكلف

الواحد منهم لتأليف متسلسل يضمها مكتفياً بما استقر في ضمير المسلم من أنه سيأخذ حظه من الكتاب ومن السنّة ومن الأصول كلٌّ من مصادره . لكني وجدت أن الربط بين الكلام عن الكتاب والسنة والأصول في سلسلة واحدة مفيد لأسباب متعددة ، **أولها** : الاختصار ، فبدلاً من أن يبحث الباحث قضية واحدة فيفصِّلها ههنا وههنا فإنه يكتفي بالتفصيل في مكان واحد . ثم إن السنّة هي المبينة للكتاب ، فالوضع الكامل أن تُدْرَسَ معه . ولكي أضمن الاقتراب من الكمال في الفهم ، حرصت على أن تكون السلسلة شاملة لعرض نصوص الكتاب والسنّة ، ثم إن الحركة الإسلامية وهي تنطلق مصححة لأوضاعٍ محلية أو لأوضاع عالمية أو لإرث موروث أو لدَخَنٍ مختلط أو وهي تقيم الحجة على الناس كل الناس مسلمين وغير مسلمين ، لابد أن تقدم الفهم الحق للكتاب والسنّة ، اللذين هما أصل الإسلام على طريقة سواء وضوابط هذا الفهم كل ذلك وغيره من معان متعددة كلها يصب في كون المسلم لابد له من معرفة بنصوص الكتاب والسنّة ، ولابد له لتحقيق كمالاته من الاطلاع على الكتاب والسنّة ، ولابد له من فهم لنصوص الكتاب والسنّة فهماً صحيحاً يحفظه من الخطأ ، كل ذلك دعاني لإصدار هذه السلسلة تحت عنوان واحد (**الأساس في المنهج**) لأن منهج الحق يتمثل في الكتاب والسنّة كليهما .

وشيء بدهي أن أوضِّح في هذه السلسلة موضوع أن الإسلام تغطيةٌ كاملةٌ لشؤون الحياة ، وأن أُبيِّن أنه يستحيل شيء مما وصل إليه الإنسان من حقائق علمية ينقضه نص من نصوص الكتاب والسنّة ، بل إن الكثير مما وصل إليه الإنسان من حقائق علمية قطعية كان لصالح إثبات أن الكتاب والسنّة حق خالص ، وكيف أن عصرنا قد أبرز من معجزات الكتاب والسنّة ما تقوم به الحجة على أهل جيلنا أكثر من أي جيل مضى ، كل ذلك شيء عادي أن أُبرزه في هذه السلسلة .

وفي سلسلتنا (في البناء) أشرنا أكثر من مرة إلى هذه السلسلة ووعدنا هناك أن نحقق هنا نعاني بعينها ، ونرجو أن نفي بوعودنا كلها في هذه السلسلة بإذن الله .

ومن المعلوم أنه ينبثق عن نصوص الكتاب والسنة كثير من المواضيع ، ومن ثَمَّ فلا نطمع أن نخص كل موضوع بعنوان . على أننا سنستعين بالفهارس للدلالة على وجود بعض المواضيع التي تعتبر أهم من غيرها .

وسنعطي قضايا الحكم العقلي والشرعي والعادي ، وأصول ذلك وصلة ذلك بالنصوص أهمية خاصة .

هذا كله مراعى في تأليف هذه السلسلة ودافع نحو تأليفها غير أن هناك أسباباً بعينها كانت هي الأقوى في الدفع نحو هذا التأليف وهذه هي :

١

تعتبر العصور المتأخرة ومنها عصرنا عصور الامتحان لكل شيء ؛ لأن الإنسان في الغالب قد شك في كل شيء ، خاصة وأن الشعوب التي ملكت السيطرة المادية على العالم ، والتي أصبحت نتيجة لذلك هي التي تصدر الأفكار وتدعو إليها وتفلسفها ، وتحاول – سواء كانت رأسمالية أو شيوعية – أن تصوغ الأمور بالقالب الذي تريد .

إن هذه الحكومات والشعوب جعلت كل شيء محل امتحان في الظاهر ، ولكنها في الواقع قد أصدرت أحكامها سلفاً في كثير من الأمور ، وتحاول باسم الامتحان أن توصل الناس إلى ما تريد في الاعتقاد والسلوك وغير ذلك ، وارتبط ذلك كله بعملية تناحر هائلة جبارة على المواد الخام وعلى السيطرة على العالم ، وبقضية الصراع من أجل البقاء ، ومن ثَمَّ فقد سخر في عملية الامتحان الظاهري للأشياء وفي عملية صبغ الأشياء بالفِكَرِ المسبقة ، سخر لهذا الموضوع من الإمكانات والطاقات مالا يخطر بالبال، فأصبحت الأشياء كلها محل امتحان وكادت تتغير كل المسلمات القديمة لدى أكثر الناس ، والقليل من الناس هم الذين بقوا في مثل هذا الجو الضاغط الفظيع محتفظين بمسلَّماتهم ، وقليل من هذا القليل هو الذي احتفظ بالمسلمات على بصيرة . وأمام هذا كله لابد من عرض شامل واستعراض كامل لنصوص الإسلام التي هي بالدليل والبرهان تشكل المُسَلَّمات الوحيدة الصحيحة في هذا العالم ، أو أنها وحدها الميزان الصحيح الذي توزن به المسلمات .

هذه النصوص التي هذا شأنها والتي ليس أمام أحد خيار إلا قبولها والتسليم لها ، وهذا العرض الشامل والاستعراض الكامل هما أول دافع قوي نحو إصدار هذه السلسلة ؛ لأنه بدون العرض الشامل والاستعراض الكامل تبقى ثغرات كبيرة يمكن أن ينفذ من خلالها المشككون ، فتسهل بدون ذلك عملية سقوط المتشككين ، فضلاً عن كون ذلك واجب العصر ، إذ لكل عصر واجبات على أهل الحق ، يقتضيها حق العصر وهذه إحدى أهم واجبات هذا العصر .

٢

وفي عصرنا طرحت كثير من الأمور نفسها بشكل حاد ، فأصبح لابد من إجابة شافية كاملة عنها ، واختلط الأمر واختلطت الإجابات ، فكان لابد من عملية تمييز شاملة كاملة للإجابة الصحيحة من ناحية ، وللتوضيح من ناحية أخرى ، وإذا كانت نصوص الإسلام هي الإجابة الشاملة والكاملة على كل قضية تخطر ببال الإنسان ، وهي التي من خلالها يتم التمييز الشامل الكامل ، فإن هذه النصوص لابد أن تفهم في إطارها الصحيح لتعطي الجواب ، ويتم التمييز ويكون الوضوح . إن كل تساؤل حاد لا يحتمل عصرنا تأخير الإجابة عليه أو السكوت عنه ، وإجابة شاملة على كل الأمور لن تتم إلا من خلال عرض شامل لكل النصوص لأن الله عز وجل جعل كتابه تبياناً لكل شيء ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء** ﴾ وبدون السنَّة التي هي بيان للقرآن ، لا يتم البيان قال تعالى ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانُزِّلَ إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾ . وبدون علم الأصول لا يستطيع الإنسان أن يضع الأمور في مواضعها .

٣

وفي عصرنا انطلق كل شيء من عقاله بحرية كاملة دون أي التزام مسبق في الظاهر كما رأينا . ولكِنَّ الأمر العجيب أن كل شيء يخدم قضية الحق أُبْعِدَ لصالح الهوى ، وكل شيء يخدم قضية اليقين أُبْعِدَ لصالح الظنون . وكل ذلك يُعْطَى صفةً علميةً يتم الإيهام بأنها قطعية ، وهي باطل في جوهرها .

فعلى سبيل المثال : لقد انطلق علم الجيولوجيا والبيُولوجيا والمستحاثات وغير ذلك من العلوم ، وبدأت الحفريات عن الآثار وعن غيرها للوصول إلى حقائق ، فإذا جاءت النتائج تؤيد النصوص الدينية استبعدت ، وإذا جاءت لغير صالح نوع من النصوص الدينية المحرفة تُبنيت وحمل بسببها على كل دين ، حتى ولو كانت نصوصه لا تتناقض مع هذه المكتشفات ، وأصاب الإسلام من ذلك الكثير .

نجد مثلاً دارسي التاريخ الفرعوني في مصر يرجِّحون أن جثة فرعون الذي عاصر موسى موجودة حتى الآن . والقرآن يذكر النجاة البدنية لفرعون من الغرق مع إثباته الغرق . وفي ذلك دليل على أن القرآن هو الذي أعطى الجواب الكامل الصحيح على هذا

الموضوع ، وأن القرآن ليس مستمداً من روايات الكتب السابقة كما يزعم الزاعمون ؛ لأن ما يسمى بالتوراة - الحالية - تذكر غرق فرعون دون أن تذكر نجاة جثته . فبدلاً من أن يُرى فيما ذكره القرآن دليلاً على الوحي وعلى أن القرآن وحي إلهي ، تكون المسألة أن يشكك في كل الوحي الإلهي ، بسبب أن ما يسمى بالتوارة حالياً - وهي محرفة كما سنرى بالدليل - عارضت مكتشفات أثرية .

والحفريات التي تمت في العراق أوصلت إلى ملحمة جلجامش التي تحدثت عن نوح عليه السلام وعن الطوفان ، وأوصلتنا هي وغيرها إلى أن الطوفان كان مشهوراً معروفاً ، وأن قصة نوح عليه السلام كانت معلومة معروفة ، ثم تذكر هذه الحفريات كما يقول أنطون مورتكات في تاريخ الشرق الأدنى القديم الذي عرّبه توفيق سليمان وآخران :

(لقد صنفت المصادر المحلية التي ترجع إلى مابعد الطوفان سلالة كيش الأولى في ثلاثة وعشرين ملكاً بلغ مجموع حكمهم (٢٤) ألف سنة . ثم تتبعها سلالة أوروك الأولى باثني عشر ملكاً وصل مجموع حكمهم مدة زادت عن ألفي سنة) .

هذا ما أوصلت إليه الحفريات وفيه دليل على أن الناس في الماضي كانوا يُعمّرون فعندما يحكم ثلاثة وعشرون ملكـاً أربعة وعشرين ألف سنة فذلك دليل على أن ما ذكره القرآن من رقم (٩٥٠) سنة في حق نوح عليه السلام تسنده الحفريات ، وأن الإنسان في الماضي كان يُعمَّر أكثر من إنساننا الحالي ، ولكن هذه القضية نفسها تُعرض على أنها مستبعدة أصلاً فما أوصلت إليه الحفريات مرفوض إذاً ! ولماذا الحفريات إذاً ! إن هذا يؤكد أن الإنسان الحالي في الغالب عنده أحكام مسبقة يحاول أن يفسر الأشياء بها لا أن يصل إلى الحق . ويذكر الدكتور حسن زينو المتخصص في الجيولوجيا في كتابه (التطور والإنسان) كيف أن الحفريات أوصلت إلى اكتشاف الإنسان العملاق ، وكيف أن الحفريات أعطتنا جثة إنسان أضخم من إنساننا الحالي بست مرات وهذا يؤيد النصوص التي تذكر أن الخلق لم يزل يتناقص منذ خلق آدم كما سنرى ، ولكن بدلاً من أن يكون مثل هذا الاكتشاف يخدم قضية الإيمان فإنه يصاغ صياغة تخدم قضية الكفر . وقل ذلك في أمور كثيرة .

لقد انطلق الإنسان بحرية كاملة في كل شأن فوصل إلى حقائق تخدم قضية الإيمان فرفضها ، ووصل وأوصل إلى تخريب وضلال في العقل والوجدان ، وفي السلوك والاجتماع وفي السياسة والاقتصاد ، وهو مصرٌّ على أن يستمر في هذا الطريق . ومن ثم فقد آن الأوان أن يقول المسلم لهذا العالم كلمته الحاسمة ، وبداية ذلك العرضُ الشامل لنصوص الإسلام وإقامة الحجة في شأنها على أنها الحق الخالص .

لقد آن الأوان للمسلم أن يرجع الأمورَ إلى نصابها في هذا العالم ، الذي انطلق كل شيء فيه في غير مساره الصحيح ، ليرجع الأشياء كلها إلى المسار الصحيح ، بأن تصبح كلمة الله هي العليا ، وبداية ذلك كله أن تُفهم كلمة الله فهماً صحيحاً ، وأن تُفهم كلمة رسول الله ﷺ فهماً صحيحاً ، وأن تُقام الحجةُ بكلمات الله ورسوله ﷺ على العالم .

٤

إن الوحي الإلهي في صيغته الصحيحة الوحيدة حالياً ، يتمثل بالدليل والبرهان بما أنزل الله عز وجل على محمد ﷺ من قرآن وحكمة ، هذا القرآن الذي كانت مهمة محمد ﷺ فيه البلاغ والبيان هو حجة الله على خلقه ، وهو حجة الله على أن محمداً عبده ورسوله . هذا القرآن الذي هذا شأنه ؛ لابد من إبراز كمال الحجيَّة فيه ، وما أكثر الحجج وأكبرها ، إنه كلمات الله إلى هذا العالم ، فلابد من إقامة الحجة فيه ، ولابد من الإجابة على شبهات الخلق في شأنه . ومن آخر هذه الشبه وأعجبها ماتثيره الآن أكثر دوائر الكفر بشكل مهذب أو وقح حول الوحدة القرآنية والصلة بين سور القرآن بعضها ببعض ، أو آيات القرآن بعضها ببعض ، كما ترى نموذج ذلك في مقدمة (كلود كاهن) في تاريخه ، مع أن هذا الموضوع وحده هو من أعظم مظاهر الإعجاز في القرآن كما سنرى في هذه السلسلة ، ولكن الأمر يحتاج إلى بيان ، فكانت هذه السلسلة وخاصة جزؤها الأول هي هذا البيان . ومع البيان لمثل هذا الشأن وغيره مماتندفع به الشبه وتقوم به الحجة ، فهناك محاولة الفهم الصحيح لكلمة الله وكلمة رسول الله ﷺ في عصر أصبحت فيه كثير من النصوص تفهم فهماً خاطئاً ويبنى على هذا الفهم الخاطىء أحكام خاطئة .

٥

ثم إنه منذ العصور الأولى وجدت عقلية حرفية ، تحاول أن تفهم نصوص الكتاب والسنة غير مراعية طرائق العرب في الخطاب والفهم ، كما وجدت عقلية تأويلية تنطلق بالتأويل بدون ضوابط ، وهناك عقلية تريد أن تفهم الأصل على ضوء الفرع ، وعقلية تنسى الأصل وتستيقظ على الفرع ، وكل ذلك لا يسع المسلمين أن يبقوا على غفلة عنه في عصر المخاض لميلاد الدولة الإسلامية العالمية بإذن الله تعالى .

هذه النقاط الخمس تشكل الدوافع الأقوى لإصدار هذه السلسلة ، ولكن هل استطعت أن أحقق هذه الأحلام ؟ لا أقول ههنا شيئاً فلي كلمة في الختام ، ولكن أستعين بالله عز وجل وأبدأ ، وأرجو ألا يندم أحد سهر الليالي في قراءة هذه السلسلة ، بل إنني لأرجو أن ينتهي القارىء منها وقد شعر أنه بحاجة إلى أن يقرأها مرة ومرة . وإني لأعتبر السلاسل الأربع التي أصدرتها : سلسلة الأصول الثلاثة ، وسلسلة في البناء وسلسلة إحياء الربانية ، وهذه السلسة مما لاينبغي أن يتجاوزها طالب علم إلا وقرأها ، فضلا عن إنسان له دور الداعية أو المربّي في هذه الأمة ، لأنني أعتبرها جميعاً احتياجات عصر .

وإني لأرجو أن أكون بهذه السلاسل قد أجبت على كل شبهة ، وأعطيت جواب الحركة الإسلامية على كل المسائل المعاصرة . ومن ثم فإنني أرجو أن تكون نقاط علام مضيئة على طريق طويل ، وضع النقاط الأولى فيه حسن البنا ، ووضع النقاط التالية فيه حسن الهضيبي، ووضع نقاطاً مضيئة كثيرة فيه سيد قطب وغيره من أبناء هذه الحركة في الشرق الإسلامي وعلى امتداد هذا العالم ؛ فإن الكثيرين قد وضعوا من هذه النقاط على هذا الطريق ، وأخص بالذكر منهم الأستاذ أبا الأعلى المودودي ، وشيخنا أبا الحسن الندوي ، فجزى الله الجميع خيراً . ولئن وضعت اسمي بين هذه الأسماء اللامعة ، فما ذلك إلا لتشجيع القارىء على قراءة هذه السلاسل ، وإلا فإنني بفضل الله أعرف مكاني وهو الجندية الخالصة لهذه الدعوة الربانية .

هذا ونسأل الله أن يعين وأن يتقبل إنه سميع مجيب . اللهم آمين . ولنبدأ في القسم الأول من هذه السلسلة مبتدئين بالمقدمة المباشرة لقسم الأساس في التفسير .

مقدمة

الأساس في التفسير

رأينا في مقدمة هذه السلسلة (الأساس في المنهج) مجموعة من الأمور لها صلة بالسلسلة كلها . ولاشك أن قسماً مما ذكرنا هناك هو بمثابة مقدمة لهذا التفسير ، غير أنا رأينا أن نقدم مقدمة خاصة لهذا التفسير ولو تكررت بعض المعاني لإبراز بعض خصائصه ، ليدرك القارىء أن هذا التفسير – وإن كان في بعض جوانبه – لا يحوي جديداً إلا أنه في جوانب أخرى كان جديداً ، وما ذلك إلا من فضل الله عز وجل .

إن الخاصية الأولى لهذا التفسير وقد تكون ميزته الرئيسية أنه قدم لأول مرة – فيما أعلم – نظرية جديدة في موضوع الوحدة القرآنية ، وهو موضوع حاوله كثيرون وألّفوا فيه الكتب ووصلوا فيه إلى أشياء كثيرة ، ولكن أكثر ما اشتغلوا فيه ، كان يدور إما حول مناسبة الآية في السورة الواحدة ، أو مناسبة آخر السورة السابقة لبداية السورة اللاحقة ، ولم يزيدوا على ذلك – فيما أعلم – هذا مع ملاحظة أن الموضوع الأول نادراً من استوعبه والتزم به في تفسير كامل للقرآن ، وإذا التزم به فلم يكن ذلك على ضوء نظرية شاملة تحتوي مفاتيح الوحدة القرآنية .

ولقد منَّ الله عليَّ منذ الصغر أنني كنت كثير التفكير في أسرار الصلة بين الآيات والسور ووقع في قلبي منذ الصغر مفتاح للصلة بين سورة البقرة والسور السبع التي جاءت بعدها وهي بمجموعها تشكل القسم الأول من أقسام القرآن كما سنرى ذلك في حديث حسن .

فقد لاحظتُ مثلا أن الآيات الأولى في سورة البقرة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ** ﴾ ومنتهية بقوله تعالي : ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ وأن سورة آل عمران مبدوءة بـ : ﴿ **الٓمٓ** ﴾ ومنتهية بقوله تعالى : ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ **فقلت** في نفسي هل سورة آل عمران تفصيل للآيات الأولى من سورة البقرة ؟

ثم لاحظت أنه بعد مقدمة سورة البقرة يأتي قوله تعالى :
﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خَلَقَكُمْ والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وأن سورة النساء الآتية بعد سورة آل عمران مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم ..** ﴾ .

فتساءلت عما إذا كانت سورة النساء تفصيلاً لآيات تقابلها من سورة البقرة . **ثم** لاحظت أنه بعد آيات من سورة البقرة يأتي قوله تعالى :

﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ... ﴾ وأن سورة المائدة الآتية بعد سورة النساء مبدوءة بقوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ .

فتساءلت عما إذا كانت سورة المائدة تفصيلاً لشيء يقابلها في سورة البقرة .

ثم لاحظت أنه بعد ذلك في سورة البقرة يأتي قوله تعالى :

﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ .

وأن سورة الأنعام تفصل هذا المعني ولذلك تتكرر فيها الآيات المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وهو** ﴾ . بل آخر آية فيها هي قوله تعالى :

﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض** ... ﴾ وصلة ذلك بآية البقرة واضحة فتساءلت عما إذا كانت سورة الأنعام تفصيلاً لآية أو لأكثر تقابلها في سورة البقرة ؟

ثم لاحظت أنه بعد ذلك في سورة البقرة ، تأتي قصة آدم وهي منتهية بقوله تعالى : ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ... ﴾ .

وأن الآية الثانية في سورة الأعراف هي قوله تعالى : ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ . وأن قصة آدم معروضة فيها منذ بدايتها ، فهل لسورة الأعراف صلة بآيات تقابلها في سورة البقرة ؟

ثم بعد ذلك بآيات كثير في سورة البقرة ، تأتي الآية التي يُفرض بها القتال ﴿ **كُتب عليكم القتال** ... ﴾ وبعدها مباشرة آية فيها سؤال عن قضية لها صلة بالقتال ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه** .. ﴾ . وأن سورة الأنفال وبراءة – وهما في موضوع واحد : وهو القتال – قد بدئتا بقوله تعالى : ﴿ **يسألونك** ﴾ فكأنهما تفصيل لقضايا متعلقة بالقتال .

وهكذا وجدنا **أن السور السبع التي جاءت بعد البقرة ، وهي التي تشكل مع سورة البقرة القسم الأول من أقسام القرآن كما سنرى ، هذه السور التي جاءت بعد سورة البقرة مباشرة أتت على تسلسل مُعَيّن هو نفس التسلسل الذي جاءت به**

المعاني في سورة البقرة ، وأن لكل سورة منها محوراً موجوداً في سورة البقرة

هذه الملاحظة وقعت في قلبي منذ الصغر وسجلتها في كتاب (الرسول) ﷺ في فصل المعجزة القرآنية ، ورأيتني بعد استعراضات كثيرة لكتاب الله قد عثرت فعلا على مفتاح من مفاتيح الوحدة القرآنية ، وتفتحت لديّ من آفاق الفهم معانٍ كثيرة بخصوص السياق العام للقرآن والسياق الخاص داخل السورة الواحدة . وكلما سرت في عرض القرآن الكريم تبين لي من الأدلة على سلامة سيْري الكثير الكثير . وليست هذه المقدمة هي محل عرض هذا الاتجاه في موضوع فهم الوحدة القرآنية ، ولكنها نموذج على عملي في التفسير أكملت فيه بناءً أو حققت فيه أملا ، فلقد دندن علماؤنا حول هذا الموضوع ولم يستوعبوه ، واستوعبته بفضل الله ، وأشاروا إليه ولم يفصلوا فيه ، ولقد فصلت فيه تفصيلا استوعب الآيات في السورة الواحدة والسور في القرآن كله على ضوء نظرية شاملة أثبت البحث صحتها ، وهي تعطي الجواب على كثير من الأمور مما له صلة بوحدة السورة ، ووحدة المجموعة القرآنية ، ووحدة القسم القرآني ، ثم في الوحدة القرآنية كلها . وبدون هذه النظرية فإن كثيراً من الصلات التي تحدث عنها المتحدثون ، إنما تتحقق بنوع من الاستكراه . ولئن توسعت في هذا الشأن بما لم يتوسع به أحد ، فلأنه كما ذكرت احتياج عصر وضرورته ، أما الماضون فلم يكونوا يستشعرون ضرورته ، فاكتفوا بالتلميح إليه مع اعتقادهم أنه موجود . **قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره لسورة البقرة ما نصه :**

« ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته . ولعل الذين قالوا : إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك ، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار . وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل : والنجم تستصغر الأبصار رُؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر » ا.هـ

وقال الشيخ ولي الدين الملَّوي : « وقد وهم من قال : لايطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة ، وفصل الخطاب : أنها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلا ، فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سُوَرُه كلها وآياته بالتوقيف ، كما أنزل جملة إلى بيت العزة ، ومن المعجز البيِّن أسلوبه ونظمه الباهر ، والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما

قبلها أو مستقلة ، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففي ذلك علم جمٌّ وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له .. ا هـ . »

هذان النقلان نقلهما صاحب (مناهل العرفان) في الصفحة ٧٣ - ٧٤ من كتابه في طبعته الثانية

من هذين النقلين ندرك أن علماءنا قد دندنوا حول ضرورة البحث عن الصلة والمناسبة بين الآيات في السورة الواحدة . بل كان البقاعي الذي يطبع تفسيره الآن ولم أطلع عليه ، يلوم علماء بغداد لإهمالهم الكلام في هذا الشأن . وكما دندنوا حول المناسبة بين الآيات في السورة الواحدة ، بحثوا عن الصلة والمناسبة بين سور القرآن عامة . وهذه قضايا بمجموعها نادراً ما تجد تفسيراً قد خلا عن طرف منها ، ونادراً ما تجد مفسراً إلا وقد عرَّج عليها مابين مكثر ومُقِلٍّ . ويبدو أن بعض الصحابة قد عرَّج عليها فقد ذكر ابن كثير : « قال الأعمش عن أبي وائل : استخلف عليٌّ عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة وفي رواية سورة النور ، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا » ، ترى ما هو هذا التفسير الذي فسره ابن عباس حتى لو سمعه هؤلاء لأسلموا إلا أن يكون من جملته ذكر معانٍ دقيقة زائدة على ما يفهم الرجل العادي من مجرد النظرة البادهة لسورة البقرة ، ولا شك أن هذا احتمال ولكنه احتمال له حظه من النظر .

ولكن لئن عرَّج بعض المفسرين على هذا الموضوع ، فإن أحداً منهم لم يستوعب القرآن كله بذكر الربط والمناسبة بين الآيات في السورة الواحدة وبين سور القرآن بعضها مع بعض على ضوء نظرية شاملة ، وقد بُذل حتى الآن الجهد الأكبر في الربط بين الآيات في السورة الواحدة ، ولكن النقطة الثانية لم يُبذل فيها جهد إلا ضمن حدود ضيقة وكلا الجهدين فاتته إلى حد كبير بعض أسرار الوحدة الشاملة . ولقد حاولت في هذا التفسير أن أسُدَّ هذه الثغرة مع اعتقادي أن أسرار الوحدة القرآنية لا يحاط بها ، ولكن وإذْ أصبح الكلام عن هذا الموضوع مطلباً خاصاً وعاماً حتى جعلها بعض المستشرقين مدخلاً يلج من خلاله إلى تشكيك المسلمين أو اتهام القرآن أو اتهام علماء المسلمين بالقصور ، إذ أصبح الأمر كذلك فقد أصبحتُ على يقين من أن هذا الموضوع لابد من تغطيته ، وسيرى قارىء هذا التفسير أنني بفضل الله غطيت هذا الموضوع تغطية تامة ، وسيرى قارىء هذا التفسير صحة سيرنا في هذه التغطية كلما قرأ صفحة جديدة من صفحات هذا التفسير .

هذه التغطية لهذا الموضوع كما أنها تلبي مطلباً من مطالب عصرنا ، فإنها تروي ظمأ طلاب المعرفة والباحثين عن دقائق أسرار هذا القرآن ، كما أنها تضع لبنة في صرح الحديث عن إعجاز القرآن ومعجزاته ، كما أنها تجيب على تساؤلات كثيرة من جملتها موضوع فواتح السور ، سواء منها المصدرة بالأحرف الهجائية أو المصدرة بما سوى ذلك ، ومن خلالها يزداد ترجيح بعض الجوانب التي وقع فيها خلاف كقضية : إن ترتيب سور القرآن توقيفي وليس اجتهادياً . فمع أن جماهير الأمة ذهبت إلى هذا ، فإن هذا التفسير سيبرهن على هذا الموضوع بشكل عملي ، كما أنه بإبرازنا الوحدة القرآنية ، بإبراز الصلة بين سور القرآن والصلة بين الآيات في السورة الواحدة ، سنأخذ الجواب على السؤال : لماذا لم تكن المعاني ذات المضمون الواحد موجودة بجانب بعضها ؟ وسنجد لذلك حِكَماً كثيرة ، وسيرى القارىء لهذا التفسير أن هذا الترتيب ما بين سور القرآن على هذه الشاكلة التي رتبها الله عز وجل في كتابه ، شيء به وَحده تقوم الحجة على كل من يتصور أن هذا القرآن يمكن أن يكون بشري المصدر . وذلك من جانب ترتيبه فقط ، فكيف بما سوى ذلك من عشرات الظواهر التي فى كل واحدة منها الدليل من خلال عشرات الأمثلة ، على أن هذا القرآن يستحيل أن يكون بشري المصدر . ثم إنه بعملنا هذا نكون قد زدنا بعض حجج الكاتبين عن القرآن وضوحاً . فمثلاً ذكر صاحب (مناهل العرفان) في باب حكم نزول القرآن مُنجَّماً هذه الحكمة التي هي الحكمة الرابعة في عرضه فقال :

« الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنه كلام الله وحده وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه » .

وبيان ذلك أن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد ، دقيق السبك ، متين الأسلوب قوي الاتصال آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجُمله ، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة ، وعقد فريد يأخذ بالأبصار ، نظمت حروفه وكلماته ونسقت جمله وآياته وجاء آخره مساوقاً لأوله وبدا أوله مواتياً لآخره . **وهنا نتساءل** : كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز ؟ وكيف استقام هذا التناسق المدهش على حين أنه لم يتنزل جملة واحدة ، بل تنزل آحاداً مفرقة تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عاماً ؟

الجواب : أننا نلمح هنا سراً جديداً من أسرار الإعجاز .. ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن وأنه كلام الواحد الديان ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه**

اختلافاً كثيراً ﴾ .. وإلا فحدثني بربك كيف تستطيع أنت أم كيف يستطيع الخلق جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط ، متين النسج والسرد ، متآلف البدايات والنهايات ، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر ، وهي وقائع الزمن وأحداثه ، التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها ومتحدثاً عنها سبباً بعد سبب ، وداعية إثر داعية ، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي ، وتغاير ما بين تلك الأسباب ، ومع تراخي زمان هذا التأليف وتطاول آماد هذه النجوم إلى أكثر من عشرين عاماً !!! .

لا ريب أن هذا الانفصال الزماني وذاك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي ، يستلزمان في مجرى العادة التفكك والانحلال ، ولا يدعان مجالاً للارتباط والاتصال بين نجوم هذا الكلام . أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضاً : نزل مفرقاً منجَّماً ، ولكنه تم مترابطاً محكماً ، وتفرقت نجومه تفرق الأسباب ، ولكن اجتمع نظمه اجتماع شمل الأحباب ، ولم يتكامل نزوله إلا بعد أكثر من عشرين عاماً ولَكِنْ تكامل انسجامه بداية وختاماً .

أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القُوى والقُدَر ، ومالك الأسباب والمسببات ومدبر الخلق والكائنات ، وقيُّوم الأرض والسمٰوات ، العليم بما كان وما سيكون الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون .

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية أو آيات قال : (ضعوها في مكان كذا من سورة كذا) وهو بشر لا يدري – طبعاً – ما ستجيء به الأيام ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان ، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث ، فضلاً عما سينزل من الله فيها . وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول ﷺ على هذا العهد ، يأتيه الوحي بالقرآن نجماً بعد نجم ، وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم وينتظم ويتآخى ويأتلف ويلتئم ، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت بل يعجز الخلق طراً بما فيه من انسجام ووحدة وترابط ﴿ **كِتَاب أُحْكِمَت آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيم خَبِير** ﴾ . وإنه ليستبين لك سر هذا الإعجاز ، إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتساق والانسجام لا يمكن أن يأتي على مثل هذا النمط الذي نزل به القرآن ولا على قريب من هذا النمط لا في كلام الرسول ﷺ ولا كلام غيره من البلغاء ، خذ مثلاً حديث النبي ﷺ وهو ما هو في روعته وبلاغته وطهره وسموه : لقد قال الرسول ﷺ في مناسبات مختلفة لدواع متباينة في أزمان متطاولة ، فهل في مُكْتَبَتِكَ

وَمُكْنَةِ البشر معك أن ينظموا مثله أو يزيدوا عليه أو يتصرفوا فيه ؟ ذلك ما لن يكون ولا يمكن أن يكون ...

إذن فالقرآن الكريم ينطق نزوله منجماً بأنه كلام الله وحده . وتلك حكمة جليلة الشأن تدل الخلق على الحق في مصدر القرآن ﴿ **قل أنزله الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً** ﴾ (سورة الفرقان) أ هـ .

إن هذه الحكمة التي ذكرها المؤلف تتضح أبعادها بشكل أقوى وأكثر بياناً عندما يقرأ الإنسان تفسيرنا هذا ، ليجد من عجائب الصلة بين الآيات والسور ما لا يمكن أن يخطر ببال بشر ، بحيث يجد أنواعاً من الوحدة الشاملة التي تضم معاني القرآن وآياته وسوره بما يحيِّر الألباب ويدهش الأبصار والبصائر . ولا يستعجلنَّ القارىءُ علينا وهو يرى هذا الكلام قبل أن يقرأ هذا التفسير . فإن وجد الأمر كما ذكرنا فليدعُ لنا بحسن الخاتمة وبالمغفرة . وإذا لم يجد ما نقلناه هنا فإني أسامحه في كل ما يقول .

ولقد سئلت أكثر من مرة مِنْ بعض مَنْ عرضت عليه وجهة نظري في فهمي للصلة بين الآيات والسور عن فائدة هذا الموضوع ، وكنت أجيبه بمثل ما ذكرته فيما مضى من هذه المقدمة ، في أن الإجابة على هذا الموضوع تخدم رد شبهة أن هذا القرآن لا يجمع آياته في السورة الواحدة جامع ولا يجمع بين سوره رابط ، وذلك لا يليق في كلام البشر فكيف بكلام رب العالمين ، إنها لشبهة فظيعة جداً أن يحاول محاول إشعار المسلم بأن كتاب الله ينزل عن كتب البشر في هذا الشأن . ولقد استطعت بتوفيق الله أن أبرهن على أن كمال القرآن في وحدة آياته في السورة الواحدة ، وكماله في الوحدة الجامعة التي تجمع ما بين سوره وآياته على طريقة لم يعرف لها العالم مثيلاً ولا يمكن أن تخطر على قلب بشر . لقد استطعت خلال هذا أن أرد السهم إلى كبد راميه من أعداء الله في هذه النقطة بالذات .

على أن الإجابة على هذا الموضوع كما قلنا تخدم قضايا أخرى : منها قضية تأكيد إعجاز القرآن ، ومنها قضية دحض شبهة أن هناك افتراقاً بين القرآن المكي والمدني ، ومنها أنها تخدم في معرفة بعض أسرار القرآن ، ومنها أنها تخدم قضية الفهم للكثير من المعاني التي يدل عليها السياق .

إن هذه النقطة التي هي في بعض جوانبها تُميز هذا التفسير عن غيره لا تخدم فقط فيما ذكرناه ، بل تخدم في رؤية كثير من المعاني ، ومحل هذه المعاني في البرهان

على كثير من القضايا . كما أنها تُرينا أن هذا القرآن من خلال سياق الآية في السورة ومن خلال سياق الآيات بالنسبة لمجموع القرآن ومن خلال صلات السور بعضها ببعض ، ومن خلال نواح أخرى ، يعطينا معاني لانهاية لها ولا يمكن الإحاطة بها وهو موضوع سنراه كثيراً في هذا التفسير .

وكأثرٍ من آثار هذه النظرة الشاملة التي على ضوئها فهمت الوحدة القرآنية تكشفت لي إحدى الحِكَم في كون بعض السور مفتتحة ببعض الحروف ، فكانت ملاحظة جديدة تضاف إلى ملاحظات كثيرة ، سجلها علماء المسلمين خلال العصور حول أسرار هذه الأحرف .

لقد أقمت على هذا الاتجاه الذي اتجهته في موضوع الوحدة القرآنية من الحجج الكثير ، بحيث لا يرتاب عالم منصف بعد الاطلاع عليها بأن اتجاهي في ذلك كان صحيحاً . ولكني تعمدت ألا أذكر حججي كلها في مكان واحد بل وزعتها في الكتاب كله عندما تأتي مناسبتها ، ولولا ذلك لاقتضى إبراز كل الحجج مجلداً كاملاً من مجلدات هذا التفسير ، ثم هي في هذه الحالة لا تُستوعَبُ كما لو جاءت في مناسبتها . وهذا جوابي على من يقول: إنه كان بالإمكان أن أكتفي بإبراز هذه القضية من خلال كتاب مستقل بدلاً من كتابة تفسير كامل . إنه لم يكن بالإمكان أن أعرض لهذا الموضوع منفصلاً عن تفسير آيات القرآن على اعتبار أن هذا الاتجاه له صلة بفهم القرآن كله ، فلو أنني ذكرته منفصلاً لكان عملي ناقصاً ؛ ولذلك جعلت هذا الموضوع جزءاً من تفسير ، فلِكيْ تتجلى الوحدة القرآينة بشكل واضح لا بد أن يكون النص القرآني مفسرا وواضحاً ، ثم إن الهدف من إصدار هذه السلسلة متعدد أصلاً كما رأينا .

إني أتمنى لإخواني المسلمين ألّا يتسرعوا في الحكم على هذا الاتجاه الذي اتجهته إلا بعد أن يقرؤوا التفسير كله وأظن أن أشدهم إنكاراً عليَّ سيكون أكثرهم حماساً لما ذهبت إليه . ولا أدعي العصمة ، ولكن فضل الله كبير ، وعلى كل الأحوال فهذا موضوع لم يعد بالإمكان السكوت عن الإجابة عليه وهذا اجتهادي فيه ، وأرجو أن أكون مصيباً في هذا الاجتهاد ، وأتمنى لكل من عنده رأي آخر أن يناقشني فيه ولكن بعد أن يقرأ هذا التفسير كلَّه .

ولئن كانت هذه هي المزية الرئيسية لهذا التفسير فإن له مميزات أخرى ذكرنا بعضها من قبل :

فمن مميزاته أنه حاول أن يستفيد من المراجع التي توفرت لدينا حالياً من كتب دينية قديمة وأن ينقل عنها مباشرة مع العزو إليها مضافاً إلى ذلك قضية نقد ما ينبغي نقده ، ومضافاً إلى ذلك تبيان نقاط الضعف فيها .

ومن مميزاته أنه حاول التبسيط والتقريب ولكن مع الاحتفاظ إلى حد كبير بعبارات المفسرين أو بدقة طرائقهم في الأداء ، وهو موضوع لا يدرك صعوبته إلا مَنْ عاناه ، إذ إن كثيراً من العبارات لم تستقر على ما هي عليه إلا بعد عمليات تنقيح أجريت عليها خلال العصور ، وكل من حاول التقريب أو التبسيط أو الانطلاق في التعبير وقع في محاذير ينتقده عليها العلماء ، ومن ثَمَّ فقد حاولت في هذا التفسير أن أتقيّد بعبارات العلماء ومصطلحاتهم . وفي الحالات التي وجدت أنه لابد من التبسيط والتقريب فيها فقد حاولت ما استطعت أن أُبَسِّط مع الاحتفاظ بمقاصد العلماء نفسِها وملاحظة احترازاتهم وهم يتخيرون اللفظ المناسب والمعنىٰ المناسب .

ومن مميزاته أنه ليس فيه حشو وليس فيه إلا ما له علاقة بصلب التفسير وقد استبعدت منه كل قضية لم أعتبرها علمية .

ومن مميزاته أنه حاول الاستفادة بقدر المستطاع من مزية العصر الكبرى : التخصص وما ترتب عليه من علوم ودقائق وحقائق في كل جانب من جوانب الحياة والكون والإنسان . إنه في عصرنا إذ توفرت لنا معانٍ وتيسرت لنا علومٌ وأصبح بإمكاننا من خلالها أن نلحظ كثيراً من المعجزات القرآنية وأن نلحظ كثيراً من أسرار هذا القرآن فقد أصبح مما لا يحسُن لمشتغل بالتفسير ألا يعطي هذا الموضوع حقه مع كونه مرهِقاً جداً ، فقد تحتاج أن تقرأ مئات الصفحات للوصول إلى كلمة ، أو لالتقاط حجة ، ولقد حاولت أن أبذل جهداً في هذا السبيل ، وأرجو أن يتضح ذلك للقارىء شيئاً فشيئاً ، وكأثر من آثار هذه المزية والتي قبلها فقد حررت هذا التفسير من تأثير ثقافات خاطئة على فهم القرآن ، مما نجده عند كثير من المفسرين وحاولت ألا أقع في مثل أخطائهم ، بحيث أحمل النصوص القرآنية على فرضيات أو نظريات لم تثبت .

ومن مميزات هذا التفسير أنه حاول ربط المسلم بقرآنه وحاول تبصير المسلم بواقعه ، وإذا كان للمسلم الحق في عصرنا معارك متعددة وعلى جبهات متعددة ، وإذا كان المسلم لابد أن يخوض معاركه على أساس القرآن من خلال توضيح الفارق بين ما يجري في هذا العالم وما بين أحكام القرآن ، وإذا كان لا يَحْسُنُ بكتاب معاصر للتفسير

أن يغمض مؤلفه عينيه عن هذه المعارك كلِّها ، وإذا كان هذا كله يقتضي تربية مكافئة لهذه الأمور كلها على ضوء القرآن فقد راعيت أن يكون هذا بارزاً في هذا التفسير .

ومن مميزات هذا التفسير أنه حاول أن يبين مَنْ هي جماعة المسلمين ، وما هي مدارسها الاعتقادية والفقهية والروحية والسلوكية والأصولية ، ومَنْ يقرب من ذلك ومَنْ يبعد عنه ، وما خالط ذلك مِن دَخَن في العصور المتأخرة ، وأصول الخلاف وأمهات مسائل الخلاف ، وما هو الخلاف المرفوض والاختلاف المقبول ؟ وما هو إطار ذلك ؟ وما ينبغي أن يترتب عليه سلباً أو إيجاباً ؟

ومن مميزاته أنه حاول أن يبين كيف أن القرآن أعطى الجواب على كل شيء إما بشكل مباشر أو بما أحال عليه من سُنّة أو بما أحال القرآن والسنّة على طرائق ووسائل يعرف بها حكم الله .

ومن مميزاته أنه كتاب علم ودعوة وتربية وجهاد بآنٍ واحدٍ ، فهو كتاب تبصير للمسلم في هذه الدوائر كلها ، وكيف ينبغي أن يتصرف في كل دائرة منها على بصيرة بما لا يطغى فيه حق العلم على حق المعركة ، أو حق المعركة على حق العلم ، أو حق العلم والمعركة على حقوق الدعوة وطرائق التربية .

✫ ✫ ✫

على أنني وإن حاولت أن ألاحظ في هذا التفسير مجموعة من القضايا التي لابد منها في تفسير معاصر ، إلا أنني أحب أن أُذكِّر بأن القصور عن المستوى المطلوب كثير ، والعلة فيَّ أولاً ، ولكن قد يكون من العذر أنني كتبت مسودة هذا التفسير في سجن كان يصعب عليَّ فيه - في بعض المراحل - أن أصل إلى كتاب أصلاً . ثم إنني كتبت مبيضته في غربة وعزلة ، وكل ذلك يحول دون الكمال المطلوب . ورحم الله امرءاً دلَّني على خطأ أو كمال . وأسأل الله أن يتقبل ، وأن يرزقني العفو والعافية وحسن الختام .

✫ ✫ ✫

ملاحظة حول اصطلاحات في هذا التفسير :

اعتماداً على حديث حسن سنراه اعتبرنا أن القرآن **يتألف من أربعة أقسام : قسم الطوال ، وقسم المئين ، وقسم المثاني ، وقسم المفصَّل** ، وبناءً على معانٍ سنراها اعتبرنا أن السبع الطوال تنتهي بانتهاء سورة براءة ، وأن قسم المئين ينتهي بانتهاء سورة (القصص) ، وأن قسم المثاني ينتهي بانتهاء سورة (ق) ، وأن قسم المفصَّل ينتهي بانتهاء

القرآن ، وبناءً على تتبع المعاني رأينا أن كلاً من القسم الثاني والثالث والرابع يتألف من مجموعات متعددة من السور ، كل مجموعة تشكل وحدة في قسمها ، هذا بالنسبة لسور القرآن ، فإننا نستعمل كلمة قسم وكلمة مجموعة ، أما بالنسبة للآيات في السورة الواحدة فإننا نستعمل كلمة قسم وكلمة مقطع وكلمة فقرة وكلمة مجموعة . فكلمة قسم أوسع مما بعدها ولا نستعملها إلا في السور الطويلة حيث يكون عندنا عدة مقاطع يجمعها جامع ، وكلمة مقطع أوسع من كلمة فقرة ونستعلمها حيث تكون الآيات ذات الموضوع الواحد كثيرة ، وكلمة فقرة أوسع من كلمة مجموعة ونستعملها عندما يكون عندنا مقطع ذو موضوع واحد ولكنه يتألف من مجموعة معانٍ رئيسية فنستعمل لكل معنى رئيسي في المقطع كلمة فقرة ، وكلمة مجموعة أضيق من كلمة فقرة ، ونستعملها إذا كان في الفقرة داخل المقطع أكثر من معنى يحسن أن نشرحه منفصلا عما قبله وعما بعده . وإذا كانت السورة طويلة فقد يرد لفظ القسم والمقطع والفقرة والمجموعة ، ولكن إذا لم تكن كذلك فقد يرد في تقسيماتها لفظ المقطع والفقرة والمجموعة ، أو لفظ الفقرة والمجموعة ، أو لفظ الفقرة فقط ، وسيكون دليلنا في هذا كله المعاني والمعالم ، وسنحاول بإذن الله ألا نتكلَّف في شيء لا توصلنا إليه المعاني والمعالم معاً . وأحياناً نجد سوراً تضمها خاصية واحدة مع أنها تنتسب لأكثر من مجموعة داخل القسم فنستعمل لها تعبير الزمرة ، وكل ذلك سنرى دواعية أثناء العرض فلينتبه القارىء لذلك ، ثم لينتبه القارىء إلى أن هذا التفسير مبناه على قراءة (حفص) في الأصل وقد نتعرض أحياناً لبعض القراءات الأخرى ولكن الأصل هو ما ذكرناه حتى لا نشتت القارىء . ثم إننا قد نذكر أثناء العرض المعنى العام ثم المعنى الحرفي ثم نعقب بفوائد ثم نَعْقِدُ فصولا ويتكامل العرض بذلك كله . فعلى القارىء أن ينتبه لمثل هذا إذا كان يبحث عن شيء بعينه .

ولقد جرت عادة الكثيرين من المفسرين أن يقدموا مقدمات كثيرة لها صلة بالتفسير وعلومه وقواعده ، أو لها صلة بالقرآن وقراءاته وعلومه . غير أنني أحببت أن أبدأ بالتفسير مباشرة لأنه هو المقصود المباشر للقارىء ، على أنني سأحاول أن أذكر في آخر القسم الثالث ما يغطي كل ما يلزم في هذه الشئون .

ولنبدأ التفسير على بركة الله .

سُورَةُ الفَاتِحَة

وَهِيَ السُّورَةُ الأُولَى بِحَسَبِ الرَّسْمِ القُرآنِي

وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ

وَهِيَ مَكِّيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

١ - فقرات السورة

تتألف سورة الفاتحة من البسملة على القول بأنها آية من الفاتحة ، ومن ثلاث فقرات : الفقرة الأولى وهي ثلاث آيات ، والفقرة الثانية وهي آية واحدة ، والفقرة الثالثة وهي ثلاث آيات على رأي من اعتبر أن البسملة ليست من السورة ، وآيتان على رأي من يرى أن البسملة من السورة وهذه هي مع ملاحظة ما مر :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

والاستعاذة و (آمين) ليستا من السورة إجماعاً

٢ - تعريفات

قال ابن كثير : « يقال لها الفاتحة أي فاتحة الكتاب خطّاً وبها تفتح القراءة في الصلوات ويقال لها أيضاً أُمّ الكتاب عند الجمهور .... ويقال لها (الحمد) ويقال لها الصلاة لقوله ﷺ عن ربه : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين قال الله : حمدني عبدي .. إلخ » ... ويقال لها الشفاء لما رواه الدارمي عن أبي سعيد مرفوعاً .. فاتحة الكتاب شفاء من كل سم .. ويقال لها الرقية لحديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم فقال له رسول الله ﷺ وما يدريك أنها رقية .. وروى الشعبي عن ابن عباس أنه سمّاها أساس القرآن قال :

وأساسها بسم الله الرحمن الرحيم ، وسماها سفيان بن عيينة بالواقية ، وسماها يحيى بن أبي كثير : الكافية لأنها تكفي عما عداها ولا يكفي ما سواها عنها كما جاء في بعض الأحاديث المرسلة « أم القرآن عوض من غيرها وليس من غيرها عوض منها .. ويقال لها سورة الصلاة والكنز ذكرهما الزمخشري في كشافه » .

وسورة الفاتحة مكية على القول الراجح وهي سبع آيات بلا خلاف وإنما اختلفوا في البسملة هل هي آية مستقلة من أولها أو بعض آية أو لا تعد من أولها بالكلّية ؟ .

قال ابن كثير : « قالوا : وكلماتها خمس وعشرون كلمة وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفاً قال البخاري في أول كتاب التفسير : وسُميت أمّ الكتاب لأنه يُبدأ بكتابتها في المصاحف ويبدأ بقراءتها في الصلاة ، وقيل إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته » .

٣ – بعض ما ورد في الفاتحة

أخرج البخاري وغيره عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال : « كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صليت قال : فأتيته فقال : ما منعك أن تأتيني ؟ قال ، قلت : يارسول الله إني كنت أصلي قال : ألم يقل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ . ثم قال : لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد قال : فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يارسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قال : نعم ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » . وفي حادثة مشابهة مع أبي بن كعب يقول أُبَيٌّ : « فلما دنونا من الباب قلت : أي رسول الله ما السورة التي وعدتني ؟ قال : ما تقرأ في الصلاة ؟ قال : فقرأت عليه أمّ القرآن قال : والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها إنها السبع المثاني » . أخرجه الإمام أحمد . وفي معناه مع زيادة أخرج الترمذي بإسناد حسن صحيح وفي حديث بإسناد جيد كما ذكر ابن كثير عن عبد الله بن جابر عن رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبرك ياعبد الله بن جابر بأخير سورة في القرآن ؟ قلت : بلى يارسول الله قال : اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها .. أخرجه الإمام أحمد . قال ابن كثير : واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض كما هو المحكي عن كثير من العلماء ... وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل في ذلك لأن الجميع كلام الله ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه وإن كان الجميع فاضلاً ... »

أقول : فليلاحظ المحذور والمفاضلة جاءت بالنص .

أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : كنا في سير لنا فنزلنا فجاءت جارية فقالت : إن سيد الحي سليم (أي لديغ) وإنَّ نَفَرنا غُيَّبٌ فهل منكم راقٍ ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبُنُهُ (أي نعرفه) برقية ، فرقاه فبَرَأ ، فأمر له بثلاثين شاة وسقانا لبناً . فلما رجع قلنا له : أكنت تُحسن رقية أو كنت ترقي ؟ قال : لا ما رقيت إلا بأمِّ الكتاب قلنا لا تُحْدِثُوا شيئاً حتى نأتي أو نسأل النبي ﷺ فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال : وما كان يدريه أنها رقية ؟ اقسموا واضربوا لي بسهم » .

أخرج الإمام مسلم والنسائي وهذا لفظه عن ابن عباس قال : « بينما رسول الله ﷺ وعنده جبريل ، إذ سمع نقيضاً فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط . قال : فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيّ قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لم تقرأ حرفاً منهما إلا أعطيته » .

أخرج الإمام مسلم والنسائي وغيرهما وهذه رواية النسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خداج (ثلاثاً) ، غير تمام ، فقيل لأبي هريرة : إنا نكون خلف الإمام فقال : اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ قال الله حمدني عبدي وإذا قال : ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ قال الله : أثنى عليَّ عبدي فإذا قال : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ قال الله مجدني عبدي وقال مرة فوَّض إليَّ عبدي فإذا قال ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ قال الله : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل » .

أقول وفي سؤال سامعي الحديث أبا هريرة : إنا نكون خلف الإمام وفي إجابته : اقرأ بها في نفسك « ما يدل على أنه كان مشهوراً في جيل الصحابة أن الصلاة وراء الإمام لها أحكامها الخاصة في موضوع القراءة ، وذلك يُستأنس به لمذهب الحنفية إذ لا يقرؤون وراء الإمام شيئاً من القرآن » .

أخرج البزار عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب (وقل هو الله أحد) فقد أمنت من كل شيء إلا الموت » .

٤ – المعاني العامة والكلية

إذ كانت الفاتحة هي مقدمة القرآن فقد تجمعت فيها مقاصده ومعانيه . فالقرآن يدور حديثه حول العقائد والعبادات ومناهج الحياة ، وقد بدأت السورة بذكر العقائد : ﴿ **الحمد لله رب العالمين ° الرحمن الرحيم ° مالك يوم الدين** ﴾ . وثنَّت بالعبادات ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ . وثلثت بمناهج الحياة ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ .

والقرآن دعوة إلى العقيدة أولاً ، ثم إلى العبادة ، ثم إلى مناهج الحياة ، وقد تسلسلت المعاني في هذه السورة على هذا الترتيب .

والعقيدة في الإسلام ليست فكرة مجردة ، بل إنّ لها ثمارها وآثارها وواجباتها ، فكونك تعرف لله الربوبية والرحمة والحساب فهذا يقتضي منك عملاً . ومن ثَمَّ بدأت السورة بالحمد ثمّ علمتنا العبادة والاستعانة وطلب الهداية والسير في صراط الله عز وجل ، لقد عرفتنا السورة على الله وربوبيته ، وعرفتنا أن مقامنا هو العبودية له ، وأن مقام العبودية مضمونه الحمد لله والعبادة له والاستعانة به وطلب الهداية منه والسير في منهاجه . والإسلام مداره على معرفة الله ومن ثَمَّ عرّفتنا السورة على الله في مقدمتها وفي وسطها وفي نهايتها : فهو رب العالمين ذو الرحمة ، وهو المعين وهو الهادي .

وأساس العقيدة الإسلامية الإيمان بالله واليوم الآخر ، وقد ذكرت السورة ذلك ﴿ **رب العالمين .. مالك يوم الدين** ﴾ .

وأساس العبادة إخلاصها لله ، وقد أشارت السورة إلى ذلك ﴿ **إياك نعبد** ﴾ إذ تقديم الضمير ﴿ **إياك** ﴾ على الفعل يفيد ذلك .

وأساس الطريق إلى الله القدوة الحسنة المتمثلة في النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد أشارت السورة إلى ذلك .

وأساس الانحراف القدوة السيئة ، وقد أشارت السورة إلى ذلك .

ابتدأت السورة بذكر الحقيق بالحمد والثناء ووصفته بالصفات العظام فتعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع ، والاستعانة في المهمات فخوطب ذلك المعلوم المتميز بهذه الصفات العظام فقيل ﴿ **إياك** ﴾ يا من هذه صفاته نعبد ونستعين لا غيرك وقدمت العبادة على الاستعانة لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة وأطلقت الاستعانة لتتناول كل ما يطلب العون من الله فيه . ثم قيل ﴿ **اهدنا** ﴾ ، بياناً للمطلوب الأول من المعونة فكأنهم سئلوا عن ماهية المعونة التي يريدونها فقالوا : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم ..** ﴾ فالاهتداء إلى الصراط المستقيم لا يكون إلا بالله ، ولا تنال عطايا الله بالهداية إلا بالافتقار إليه ومظهر ذلك طلب المعونة منه ولا يوصل إلى الافتقار مثل دوام العبادة ، ولا عبادة إلا بمعرفة ، ومعرفة لا يعطَى فيها الحمد كله لله معرفة قاصرة ، ينظر العبد ما أعطي فيقول : الحمد لله ، فإذا ما استقرت معرفته خاطب ربه ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ ثم دعاه بما هو الأهم والأعظم وهو الاهتداء في الأمر كله .

* **من المعاني الكبرى في الإسلام** : موضوع لزوم الجماعة « أن تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » . « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه .. » والسورة دلتنا من خلال الخطاب الجماعي ﴿ **إياك نعبد** ﴾ ﴿ **اهدنا ..** ﴾ على أن الأصل في المسلم أن يكون جزءاً من كل هو جماعة المسلمين وأن الأصل في التربية الإسلامية أنها تقوم على التربية الجماعية .

ويلاحظ من السورة أن الصراط المستقيم مظهره شيئان السير في طريق المنعَم عليهم وتنكب صراط المغضوب عليهم والضالين . والمنعَم عليهم فصَّل الله فيهم في الآية : ﴿ **فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين** ﴾ ، وهناك نص ستراه ذكر أن المغضوب عليهم هم اليهود ، والضالين هم النصارى . وإذا كان هؤلاء وهؤلاء كذلك فمن باب أولى غيرهم . وكثيراً ما ينسى الناس هذه المعاني فلا يفطنون أن الشهداء هم القدوة ، وأن الصدِّيقين هم القدوة ، وأن الصالحين هم القدوة ، فضلاً عن النبيين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، وبعضهم يفطن لذلك ، ولكنهم ينسَوْن تنكب طرق الضالين والمغضوبِ عليهم ، ومن ثَمَّ فإن على المسلم وهو يقرأ كتاب الله أن يتفطن لهذا وهذا ، فالقرآن فصَّل هذا كله ، والمسلم عليه أن ينتبه لأخطاء أهل الضلال وأهل الغضب فيتخلى عنها ، بل عليه من الأصل ألّا يقربها وعليه أن يفطن لمظاهر القدوة فيسير فيها .

وبعد هذه الجولة عن المعاني العامة والكلية في سورة الفاتحة نقول مختصرين :
اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات على حمد الله تعالى وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا ، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين ، وعلى إرشاد عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرِّي من حولهم وقوتهم ، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية وتنزيهه من أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل ، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهو الدين القويم ، وتثبيتهم عليه حتى يفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط المفضي بهم يوم القيامة إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين كانوا محل القدوة ، فاشتملت السورة على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكون الإنسان مع أهلها يوم القيامة ، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشر الإنسان مع سالكيها يوم القيامة .

٥ - المعنى الحرفي

﴿ **بسم الله** ﴾ تعلقت الباء بمحذوف تقديره : أقرأ أو أتلو لأن الذي يلي التسمية مقروء « وكذلك يُضْمر كل فاعل ما يجعل التسمية مبدءًا له » وإنما قدرنا الفعل متأخراً لأن ذلك أقوى لدلالته على الاختصاص والمعنى : متبركاً باسم الله أقرأ ففيه تعليم الله عباده كيف يتبركون باسمه وكيف يعظمونه و (الله) هو الإله ولكن كلمة الإله تطلق على كل معبود بحق أو بباطل ثم غُلِّب على المعبود بحق ، وأما اسم (الله) فمختص بالمعبود الحق لم يطلق على غيره وهو اسم غير صفة لأنك تصفه ولا تصف به فصفاته تعالى لابد لها من موصوف تجري عليه وهو اسم الله جل جلاله .

﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ صفتان واسمان يعبران عن رحمة الله تعالى التي مظهرها إنعامه على عباده ﴿ **فانظر إلى آثار رحمة الله** ﴾ (سورة الروم) وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، ولذلك لا يسمى ولا يوصف بالرحمن غير الله ويسمى ويوصف بالرحيم غيره ، ومن ثَمَّ ذهب بعضهم إلى أن الرحمة في اسم الرحمن تشمل الكافر والمؤمن ، والرحمة في اسم الرحيم تخص المؤمنين ﴿ **الحمد لله** ﴾ الحمد هو الوصف بالجميل على جهة التفضيل وهو أحد شعب الشكر لأن الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح وإنما يكون باللسان الحمد ونقيض الحمد الذم ونقيض الشكر الكفران ، وإنما يستحق الحمد إما بكمال الذات والصفات والأفعال أو بكثرة الإنعام ، والله عز وجل لا أكمل من ذاته وصفاته وأسمائه ، ولا إنعام إلا منه مباشرة أو بالواسطة فله في الحقيقة الحمد كله .

﴿ **رب العالمين** ﴾ الربُّ هو المالك ومنه قول صفوان بن أُميَّة : « لأن يربني رجل من قريش أحب إليَّ من أن يربني رجل من هوازن » ولا يطلق إلا على الله وحده وهو في العبيد مع التقييد ﴿ **إنه ربي أحسن مثواي** ﴾﴿**قال ارجع إلى ربك** ﴾ (سورة يوسف) قال الواسطي في تفسير كلمة الرب : (هو الخالق ابتداءً والمربي غذاءً والغافر انتهاءً وهو اسم الله الأعظم) والعالَم هو كل ما سوى الله تعالى لأنه علم على وجود ربنا تعالى ، إذ يُعرف الخالق بما خلق . ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ مر الكلام عليهما .

﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ يوم الدين هو يوم الجزاء ولذلك قالوا : كما تدين تدان أي كما تفعل تُجازى ، والله تعالى مالك الأمر كلِّه في يوم الدين وغيره ، وإنما كان التخصيص بيوم الدين لأن الأمر فيه لله وحده ﴿ **لمن الملك اليوم لله الواحد القهار** ﴾ .



هذه الأوصاف التي أجريت على الله سبحانه وتعالى من كونه رباً للعالمين ومنعماً بالنعم كلِّها ومالكاً للأمر كلِّه يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به في قوله : الحمد لله دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه .

﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ العبادة هي أقصى غاية الخضوع والتذلل ، والاستعانة هي طلب المعونة ، وتقديم ﴿ **إياك** ﴾ على ﴿ **نعبد** ﴾ و ﴿ **نستعين** ﴾ لقصد الاختصاص فيكون المعنى : نخصك بالعبادة ونخصك بطلب المعونة .

﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ أي ثبّتنا على المنهاج الواضح أو اهدنا في الاستقبال كما هديتنا في الحال ، والصراط هو الطريق والمراد : طريق الحق وهو ملَّة الإسلام ، والمستقيم هو الذي لا عوج فيه .

﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ أي صراط المسلمين ، وفائدة تكرار كلمة الصراط مع هذه الزيادة التأكيد والإشعار بأن الصراط المستقيم هو صراط المسلمين ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده ؛ والذين أنعم الله عليهم هم مجموع من ذكرهم الله بقوله : ﴿ **فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً** ﴾ (سورة النساء) وإذن فهم المؤمنون الكاملون ﴿ **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ يعني : أن المُنعَم

عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضلال فجمعوا بين النعمة المطلقة وهي نعمة الإيمان وبين السلامة من غضب الله والضلال . و (**آمين**) بالإجماع ليست من القرآن ، وهي اسم فعل بمعنى (استجب) .

ملاحظة : في حديث حسن غريب رواه أحمد عن عَدي بن حاتم أن رسول الله ﷺ قال : إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى .. وفي هذا المعنى وردت أكثر من رواية ولذلك قال ابن أبي حاتم : ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً قال ابن كثير : (فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به ، واليهود فقدوا العمل ، والنصارى فقدوا العلم ، ولهذا كان الغضب لليهود ، والضلال للنصارى ، لأن من علم وترك استحق الغضب بخلاف من لم يعلم ، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه ، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه وهو اتباع الحق ضلوا . وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم : ﴿ **من لعنه الله وغضب عليه** ﴾ (سورة المائدة) وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم : ﴿ **قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل ..** ﴾ (سورة المائدة) .

أقول : إذا كنا نُهينا أن نسير في طريق اليهود والنصارى وهم أهل كتاب فكيف نتابع غيرهم ونجعلهم قدوتنا ؟! وانظر الآن إلى حال الكثيرين من أبناء المسلمين فإنك تجدهم إما مقلدين للغربيين وهم على بقية من كتاب ، وإما متابعين للشيوعيين وهم يكفرون بالكتاب كله .

٦ – فصول شتى ..

فصل في البسملة : افتتح بها الصحابة كتاب الله واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل ، ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة ، أو من أول كل سورة كُتبت في أولها ، أو أنها بعض آية من كل سورة ، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها ، أو أنها كتبت للفصل لا أنها آية ، على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً . والجهر بها في الصلاة مفرَّع على هذا الخلاف ، فمَن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها وكذا من قال : إنها آية في أولها . وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا ؛ فذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة ، وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة ، وهو مذهب أبي حنيفة ، والثوري ، وأحمد . وعن الإمام مالك أنه لا يقرأ

البسملة بالكلية لا جهراً ولا سراً . قال ابن كثير بعد أن عرض مآخذ الأئمة في هذه المسألة : « وهي قريبة لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسرَّ » .

... **ومِن ابتداء الله عز وجل** كتابه بالتسمية ندرك فضلها ، ونأخذ منه أدباً عاماً في ألا ننسى التسمية حيث تُستحب التسمية فللابتداء باسم الله بركة ، ولذكر الله عامة بركة .

أخرج الإمام أحمد والنسائي وابن مردويه « عثر النبي ﷺ فقلت : (القائل هو أسامة بن عمير رديف النبي ﷺ) : تَعِس الشيطان . فقال النبي ﷺ : لا تقل تَعِس الشيطان ، فإنك إذا قلت تَعِس الشيطان تعاظم وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت باسم الله تصّاغر حتى يصير مثل الذباب » قال ابن كثير : فهذا من تأثير بركة باسم الله ، ولهذا تُستحب في أول كل عمل وقول ، فُتستحب في أول الخطبة كما جاء « كل أمر لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم » ، وتُستحب عند دخول الخلاء كما ورد من الحديث في ذلك ، وتُستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد والسنن .. مرفوعاً : « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » وهو حديث حسن .... وكذا تُستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة ، وأوجبها آخرون عند الذبح ، ومطلقاً في قول بعضهم ... وهكذا تُستحب عند الأكل كما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبه عمر بن أبي سلمة « قل باسم الله وكُلْ بيمينك وكل مما يليك » ومن العلماء مَن أوجبها والحالة هذه ، وكذا تُستحب عند الجماع كما في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدّر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً » .

فصل في الاستعاذة : سيأتي الكلام عن الاستعاذة عند الآيات التي تذكرها وههنا ننقل ما له صلة بالصلاة والتلاوة بشكل مختصر .

قال ابن كثير : وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مُستحبة وليست بمتحتمة يأثم تاركها وحكى الرازي عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة . قال : وقال ابن سيرين : إذا تعوذ مرة واحدة في عمره فقد كفى في إسقاط الوجوب .. أقول على رأي ابن سيرين : إنها واجبة في العمر مرة ، وما سوى ذلك فهي مُستحبة .

قال ابن كثير : وقال الشافعي في الإملاء : يُجهر بالتعوذ وإن أُسرّ فلا يضرُّ وقال في الأم بالتخيير ... واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى هل يستحب التعوذ فيها على قولين ورجح عدم الاستحباب .. فإذا قال المستعيذ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة ...

... ثم الاستعاذة في الصلاة إنما هي للتلاوة وهو قول أبي حنيفة ومحمد وقال أبو يوسف بل للصلاة ، فعلى هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ ، ويتعوذ في العيد بعد تكبيرة الإحرام وقبل تكبيرات العيدين ، والجمهور يعدها قبل القراءة/. ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث ، وتطييب له وهو لتلاوة كلام الله ، وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة ، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه ، ولا يقبل مُصانعة ولا يُدارى بالإحسان ، بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني ... » .

فصل في الحمد : عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » .. أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب . وإنما كان الحمد أفضل الدعاء ، لأنها رأس الشكر والله عز وجل يقول ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ وفي الحديث الذي رواه ابن جرير « إذا : قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فزادك » . وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطي أفضل مما أخذ » ، وقال القرطبي في تفسيره : وفي نوادر الأصول عن أنس عن النبي ﷺ قال : « لو أن الدنيا بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال : الحمد لله لكان الحمد أفضل من ذلك » قال القرطبي وغيره : أي لكان إلهامه الحمد لله أكثر نعمة من نعم الدنيا لأن ثواب الحمد لا يفنى ، ونعيم الدنيا لا يبقى وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ حدثهم : أن عبدا من عباد الله قال يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى الله تعالى فقالا : ياربنا إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها قال الله : — وهو أعلم بما قال عبده — ماذا قال عبدي ؟ قالا : يارب إنه قال لك الحمد يارب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها » . وأخرج الإمام أحمد والنسائي عن الأسود بن سريع قال : قلت يارسول الله ألا أنشدك محامد

حمدت بها ربي تبارك وتعالى ؟ فقال : « أما إن ربك يحب الحمد » أقول : وفي هذا الحديث إشارة إلى الشعر ، وعلى من يعالج قضية الإنشاد في المجتمع الإسلامي أن يضعه في حسابه ولنا جولة في هذا الموضوع في آخر سورة الشعراء .

فصل في التأمين : يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين ، ومعناها اللهم استجب سواء كان ذلك في الصلاة أو خارجها ، ويتأكد في حق المصلي سواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً . وقال أصحاب مالك : لا يؤمِّن الإمام ويؤمِّن المأموم . واختلفوا في الجهر بالتأمين في الصلاة الجهرية . قال الشافعية : إن نسي الإمام التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً ، وإن أمَّن جهراً فالجديد أنه لا يجهر المأموم والقديم أنه يجهر . ومذهب الحنفية عدم الجهر للإمام وهو رواية عن مالك ، وقال الحنابلة بالجهر وهو رواية أخرى عن مالك .

والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داوود والترمذي عن وائل بن حجر قال : سمعت رسول الله ﷺ قرأ ﴿ **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ فقال آمين مد بها صوته . ولأبي داود رفع بها صوته . قال الترمذي : هذا حديث حسن وعن أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا تلا ﴿ **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ قال آمين حتى يسمع من يليه من الصف الأول . رواه أبو داود وابن ماجه وزاد فيه فيرتجُّ بها المسجد . قال الدارقطني : هذا إسناد حسن وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا فانه مَنْ وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » ، ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إذا قال أحدكم في الصلاة : آمين ، والملائكة في السماء : آمين ، فوافقت إحداهما الأخرى ، غفر له ما تقدم من ذنبه » قال ابن كثير : « قيل : بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان وقيل في الإجابة في صفة الإخلاص وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعاً إذا قال — يعني الإمام — ولا الضالين فقولوا : آمين يحبكم الله » .

فصل في قراءة الفاتحة في الصلاة : اختلف الأئمة في أنه هل تتعين فاتحة الكتاب في الصلاة ؟أم تجزىء هي أو غيرها ؟ ففي ذلك قولان مشهوران فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه أن قراءة الفاتحة أو سورة قصيرة ، أو ما يعادلها واجب في كل ركعات النفل وواجب في الركعتين الأوليين من الفرض إلا أنه لو لم يقرأ الإمام أو المنفرد الفاتحة وقرأ شيئاً من القرآن فإن الصلاة صحيحة مع الكراهة ، فعندهم أن قراءة أي شيء من القرآن

في الصلاة هو الركن لقوله تعالى ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾ وأما الفاتحة فإنها واجبة كما رأينا . وعند الشافعي ومالك وأحمد أنها تتعين قراءتها للصلاة ولا تجزىء الصلاة بدونها ، واختلف هؤلاء هل تجب قراءتها في كل الركعات ؟ أو في معظم الركعات ؟ أو في بعضها ؟ فمذهب الشافعي وجوب قراءتها في كل الركعات ، ومذهب الحسن وأكثر البصريين أنها تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلاة .

واختلف الأئمة : هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم ؟ ففيه ثلاثة أقوال للعلماء : أنه تجب عليه قراءتها كما تجب على إمامه ، والثاني لا تجب على المأموم بل تكره ، والثالث لا تجب قراءتها في الجهرية وتجب في السرية . ومحل التفصيل في هذا الشأن وغيره من اتجاهات الفقهاء هو في القسم الثاني من هذه السلسلة الأساس في السنَّة وفقهها .

فصل في كيفية أداء الفاتحة : في مسند الإمام أحمد وسنن أبي داوود وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين** ... ﴾ قال الدار قطني : إسناده صحيح ، أقول : والوقوف على رؤوس الآي سُنَّة متبعة ولكنها من نوع المستحبات في الصلاة وغيرها .

فصل في أن الصراط المستقيم هو الإسلام أخرج الإمام أحمد عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داعٍ يقول : يأيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تَعْوجُّوا ، وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحْه تلجه ، فالصراط هو الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المُفتّحة محارم الله ، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله ، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم » .

إن صراطك أيها المسلم هو الإسلام وله داعيتان داعية الفطرة وداعية الوحي الإلهي ، فلا تفرط في هذا الإسلام بأن ترتكب الحرام فتدخل في متاهات طرق الشيطان .

فصل : في أن المالكية العليا لله : في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله قال : يقبض الله الأرض بيمينه ثم يقول : « أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون » فالله عز وجل مالك يوم الدين وهو رب العالمين وكل منازعة لله عز وجل في

ربوبيته أو مالكيته العليا لاتصح ولو في التسمية . ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « أبغض اسم عند الله رجل تَسمّى بملك الأملاك ولا مالك إلا الله » ، وقد وقع في هذا الغلط الكثيرون ممن حكموا المسلمين .

فصل في رد مزاعم : - مما ذهبت إليه الفلسفة اليونانية أن الله عز وجل لا يتدخل في شؤون الخلق ، والآن تجد أكثر الخلق لا يعتبرون أن من حق الله عزّ وجل أن يتدخل في أمر الناس ، وليست فكرة فصل الدين عن الدولة إلا مظهراً من مظاهر هذه العقلية ، وفي سورة الفاتحة تصحيح لهذه المعاني كلّها : فالله رب العالمين هو الخالق وهو المربي وهو المالك ، وعلى الناس أن يعبدوه وأن يسيروا في طريقه طالبين العون والهداية .

زعم بعض المستشرقين أن الدين الإسلامي لا يعرف أهله فيه عن الله عزَّ وجلَّ إلا صفات القسوة وأي زعم أظهر في البطلان من هذا الزعم ؟! فالإسلام الذي يبتدىء كتابه بقوله تعالى ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ والذي تثنى فيه كلمتا ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ بعد آية من ذلك ، هل يدّعي ما ادعَوْه إلا مجنون ؟! ألا إنه العمى عن الحق ليس إلا . فالله غفور رحيم ، وهو عزيز ذو انتقام ، ولله الأسماء الحسنى . في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ، ما طمع في جنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ، ما قنط من رحمته أحد » ، ولكن الله عز وجل حدد في كتابه المرحومين وغيرهم فحيثما كان له حكم فعنده نقف .

فصل في مسألة اعتقادية : من المسائل التي وقع فيها خلاف كثير بين أهل ا لسنّة والجماعة وبين المعتزلة مسألة تسمى بمسألة خلق الأفعال . فأهل السنَّة يروْن أن كل شيء يجري في هذا الكون إنما هو بعلم الله وإرادة الله وقدرة الله ، وذلك لا ينافي اختيار الإنسان وهو موضوع سنبسطه في أكثر من مكان . والمعتزلة يقولون بالقوة المودعة ، وأن الإنسان يخلق أفعال نفسه الاختيارية . وهو كلام ظاهره براق لأنه يتفق مع النظرة الحسيَّة ، ولكنه منقوض عقلاً ونقلاً كما سنرى . ومناقشات أهل السنَّة والجماعة لهم في هذا الموضوع كثيرة ، ونادراً ما تجد سورة من سور القرآن إلا ولأهل السنَّة حجة فيها على المعتزلة في هذا الشأن ، ومما استدلوا به على المعتزلة من سورة الفاتحة كلمة الحمد لله فإن الألف واللام للاستغراق ، وهذا يفيد أن كل أنواع الحمد لله . وهذا لا يتأتى إلا إذا كان الله هو الفاعل لكل شيء قال ابن كثير : والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع

أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى كما جاء في الحديث « اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخير كله وإليك يرجع الأمر كله » ، واستدلوا من الفاتحة على المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ **وإياك نستعين** ﴾ وبقوله تعالى ﴿ **اهدنا** ﴾ فلولا أن الله هو الخالق فكيف يُستعان ؟ وكيف تُطلب الهداية منه ؟ وهذا موضوع سنرى حيثياته في أمكنة أخرى .

ملاحظة في قضايا اختلاف الأئمة :

يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح « إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنَّ كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه .... » ، إن كل مناقشات أئمة أهل السنَّة والجماعة مع بعضهم إنما تدور حول أمور مشتبهات ، وكل منهم على بصيرة حاول أن يعطي حكم الله في هذه الأمور ، ومن ثَمَّ فالأمر واسع ؛ فمهما كان الواحد منا على مذهب إمام في مثل هذه الشؤون فإنه لا حرج عليه ، ولكن الخلاف بين أهل السنَّة والجماعة ، وبين الفِرَق المنشقة عن جسم الأمة الإسلامية ، كالمعتزلة وأنواع من المرجئة ، وطوائف من الشيعة والخوارج ليس فيما ذكرنا ، وإنما هو خلاف حيث لا ينبغي أن يكون خلاف لكثرة النصوص ووضوحها ، ولذلك في قسم التفسير قد لا نعتني بعرض أدلة الأئمة في اختلافاتهم ولكننا نعتني بعرض الأدلة في أي خلاف بين أهل السنَّة والجماعة ومن خالفهم .

٧ - فوائد

أ - **من أساليب العرب في الكلام** : الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، والعرب يستكثرون منه ، ويرون أن الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع ، وأحسن تطرية لنشاطه ، وأملأ لاستلذاذ إصغائه ، وتختص مواقعه بفوائد ولطائف يراعيها القائل وتتضح للحذَّاق المهرة . والقرآن جاء على أساليب العرب في الخطاب ومن ثَمَّ تجد فيه هذا النوع من طرق البيان على أدقها وأرقاها وأعظمها فوائد ولطائف وقد رأينا ذلك في سورة الفاتحة . إذ عدل عن لفظ الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى ﴿ **إياك نعبد** ﴾ بعد قوله تعالى ﴿ **الحمد لله** .. ﴾ قال صاحب الكشاف : هذا يسمى الالتفات في علم البيان ، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه** ﴾ . وقد التفت امرؤ القيس ثلاثة التفاتات في ثلاثة أبيات :

تطاولَ ليلُكَ بالأَثْمَدِ ونام الخليُّ ولم ترقدِ
وباتَ وباتتْ له ليلةٌ كَلَيْلة ذي العائر الأرمدِ
وذلك من نبإٍ جاءني وَخُبِّرْتُهُ عن أبي الأسود

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه .. وقد رأينا عند عرض المعاني العامة حكمة الالتفات في سورة الفاتحة .

ب - **مما يدل** على أن كلمة الدين تأتي بمعنى الحساب والجزاء الحديث الذي رواه أحمد والترمذي :« الكيِّس من دان نفسه - أي حاسب نفسه - وعمل لما بعد الموت » واستطراداً ننقل كلمة عمر (رضي الله عنه) : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وَزِنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم » ﴿ **يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية** ﴾ .

ج - **أكمل أحوال الداعي** أن يبدأ بالحمد ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين ومن ثَمَّ جاء قوله تعالى ﴿**اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ بعد الثناء ، فالسؤال بعد الثناء أنجح للحاجة وأنجع للإجابة ، ولهذا أرشد الله إليه لأنه الأكمل ، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه كما قال موسى عليه السلام : ﴿ **رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير** ﴾ . وقد يتقدم مع ذلك وصف المسؤول كقول ذي النون ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ .

د - **يتشدد كثير من الناس** في أمر تحرير مخارج الحروف أثناء تلاوة القرآن وذلك شيء جيد ، ولكن بعضهم يعتبر الإخلال بالتحرير مبطلاً للصلاة ، وذلك خطأ ولتصحيح مثل هذا ننقل كلام ابن كثير . يقول ابن كثير : « الصحيح من مذاهب العلماء أنه يُغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما » ، وكلامنا كله عندما لا يخرج الحرف صافياً ، أما إذا استُبدِل حرف بحرف فلذلك أحكامه التي سنراها .

هـ - **رأينا من خلال سورة الفاتحة** : أن الأصل في المسلم أن يكون جزءاً من كل هو الجماعة ، وأن الأصل في التربية الإسلامية أنها تقوم على التربية الجماعية ، وهذا يجعلنا نفكر كثيراً في الأسباب والأمراض التي تحول دون وجود هذه الروح عند الأكثرين من المسلمين ويجعلنا نتفطن لأهمية معالجة هذه الأسباب والأمراض التي تحول بين المسلم وبين مشاركته جماعة المسلمين فيما تفترض المشاركة فيه ، ولا شك أن هذه

الأسباب إما مرجعها لمرض عام مثل انعدام الثقة أو لمرض فردي مثل حب الدنيا وإيثار العافية والشح والإعجاب بالرأي واتباع الهوى والحسد وغير ذلك من أمراض .

و - **يردد المسلم سورة الفاتحة** سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة على الحد الأدنى . وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنَّة ، وإلى غير حد إذا هو رغب في أن يقف بين يدي ربه متنفلاً غير الفرائض والسنَّة ... لما ورد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ من حديث عبادة بن الصامت : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » ، « إن في هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية ، وكليات التصور الإسلامي ، وكليات المشاعر والتوجيهات ما يشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة » عن الظلال بتصرف . وقد رأينا الخلاف في قراءتها وراء الإمام .

٨ - كلمة في السياق

هذه السورة كما رأينا هي مقدمة القرآن ، ولذلك فقد تجمعت فيها معانيه وهذا أول مظهر من مظاهر ارتباط هذه السورة بالقرآن كله ، وقد رأيت بأكثر من وجه كيف تسلسلت معانيها تسلسلاً خاصاً هذا التسلسل ظهرت فيه أكثر من حكمة من حكم تسلسل المعاني في القرآن ، فلا سير في الصراط بلا عبادة ، ولا عبادة بلا عقيدة ومعرفة بالله .

والآن انتبه إلى الصلة بين آخر فقرة في سورة الفاتحة وبين أول آية في سورة البقرة تبدأ الفقرة الأخيرة في سورة الفاتحة بقول الله تعالى معلماً لنا : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ... ﴾ وتبدأ سورة البقرة بقول الله تعالى : ﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ لاحظ الصلة بين ﴿ **اهدنا** ﴾ وبين ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ فبعد أن علَّمنا الله تعالى أن نطلب الهداية منه إلى الصراط المستقيم عرَّفنا على أن هذا القرآن هو محل الهدى ، وهكذا نجد الصلة على أقواها بين خاتمة الفاتحة وبداية سورة البقرة ، ولننتقل الآن للكلام عن القسم الأول من أقسام القرآن وهو قسم السبع الطوال .

☆ ☆ ☆

القسم الأول من أقسام القرآن
قسم الطّوال
وتضمّن سُوَر

البقرة ، آل عمران ، النّساء ، المائدة ، الأنعام

الأعراف ، الأنفال

التوبة

كلمة في هذا القسم :

هناك أكثر من أثر وخبر يذكر السبع السور الطويلة الأولى من القرآن ويخصها بالذكر ، وقد عقد ابن كثير لذلك فصلاً تحت عنوان (ذِكْر ما ورد في فضل السبع الطِوال) وذكر بهذه المناسبة حديثاً له أكثر من سند هو :

عن النبي ﷺ : « أُعطيت السبع الطوال مكان التوراة ، وأُعطيت المئين مكان الإنجيل ، وأعطيت المثاني مكان الزبور وفُصِّلتُ بالمفصَّل » ، قال الشيخ المحدث عبد الله الغماري في كتابه (جواهر البيان في تناسب سور القرآن) عن هذا الحديث : فهذا الحديث حسن .

هذا الحديث ذكر أن القرآن أربعة أقسام القسم الأول هو السبع الطوال ، ونحن سنرى في هذا التفسير كيف أن واقع القرآن يصدق هذا التقسيم من خلال المعاني ، وكثير من الأمور التي سنراها .

وذكر ابن كثير : أن أبا عبيد ، والإمام أحمد كل منهما أخرج عن أبي هريرة وعن عائشة (رضي الله عنهما) عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أخذ السبع الاول من القرآن فهو حَبْر » . ليس هناك نص يحدد السبع الطوال ، بل المتبادر أنها السور الأول الطويلة من القرآن . ورواية عائشة وأبي هريرة تذكر السبع الأول فالمفروض أن تكون : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، والأنفال ومعها براءة ؛ لأنهما بحكم السورة الواحدة ولذلك لم يفصل الصحابة بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم :

أخرج الترمذي عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المئين وقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر : « بسم الله الرحمن الرحيم » ؟ ووضعتموها في السبع الطوال ! وما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان (الطويل) وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يُذْكَر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول مانزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها وحَسِبْت أنها منها ، وقُبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر : « بسم الله الرحمن الرحيم » فوضعتها في السبع

الطوال » فهذا نص في أنّ الأنفال وبراءة من السبع الطوال وإذا كان ما قبلهما ست سور الأعراف فالأنعام فالمائدة فالنساء فآل عمران فالبقرة ، فذلك دليل على أن الأنفال وبراءة هما السورة الطويلة السابعة وأن براءة هي نهاية قسم الطوال . قال الشيخ الغماري في كتابه (جواهر البيان) : (السبع الطوال أولها البقرة وآخرها براءة) ، وإذن فبعد الفاتحة التي هي مقدمة القرآن يأتي القسم الأول من أقسام القرآن الذي يبدأ بالبقرة وينتهي بسورة براءة .

☆ ☆ ☆

وقد ذكر ابن كثير اتجاهاً في تفسير السبع الطوال بأن السورة السابعة بعد الأعراف هي يونس ولكن ذكره على أنه قول في تفسير قوله تعالى ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** ﴾ . فقد نقل عن مجاهد وغيره أن المراد بها السبع الطوال ، وفسرها بأنها البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس . وسنرى عند تفسير هذه الآية أن هذا القول ليس هو الأقوى في تفسيرها ، فمن باب أولى ألّا يصلح تفسيرا للسبع الطوال . خاصة وكثير من الأدلة تشير إلى أن سورة يونس من القسم الثاني من أقسام القرآن وليست من القسم الأول .

فسورة يونس مبدوءة بـ ﴿ **الر** ﴾ ، وكذلك سورة هود بعدها ، وهذا يشير إلى أن هذه السور من زمرة واحدة ومجموعة واحدة ، ثم إن سورة يونس آياتها (١٠٩) ، وسورة هود بعدها آياتها (١٢٣) ، بينما سورة براءة وحدها (١٢٩) آية ، فهي أطول من سورة هود التي هي أطول من سورة يونس ، فإذا عرفنا أن سورة الأنفال خمس وسبعون آية ، فإن مجموع آيات سورة الأنفال وبراءة يكون مئتين وأربع آيات ، ثم هما بالنص عن الصحابة كما رأينا في رواية الترمذي من السبع الطوال ، فلم يبق بعد هذا إلا أن نرد اتجاه مجاهد ومن وافقه من أن سورة يونس هي السباعة في قسم الطوال .

☆ ☆ ☆

لاحظنا من قبل أنه ما بين آخر فقرة في الفاتحة ، وما بين أول سورة البقرة صلة ففي الفاتحة ﴿ **اهدنا** ﴾ وفي البقرة عن القرآن ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ . وسنرى أن الصلة بين الفاتحة والبقرة ليست ضمن هذه الحدود فقبل الفقرة الأخيرة من الفاتحة قوله تعالى ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ ، وسنرى أن القسم الأول من سورة البقرة يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ وينتهي بقوله تعالى ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً** ﴾ ، فمقدمة سورة البقرة مرتبطة بآخر فقرة في الفاتحة ، والقسم

الأول من سورة البقرة مرتبط بالفقرة الثانية ، وسنرى أن القسم الثاني في البقرة مرتبط بالفقرة الأولى من الفاتحة ﴿ **الحمد لله** ... ﴾ .. ﴿ **واشكروا لله إن كنتم إيَّاه تعبدُون** ﴾ ، والكلام في هذه المعاني قبل مجيء أوانها يبدو معقداً فلنقتصر على هذه الإشارة ، ومع هذا الترابط بين سورة البقرة والفاتحة ، فإن سورة البقرة ككل سورة في القرآن لها ذاتيتها الخاصة وتسلسلها الخاص ، وسنرى أنه تسلسل عجيب معجز ، ثم إننا سنرى كما ذكرنا في مقدمة هذا التفسير كيف أن السور الست الطوال الآتية بعد البقرة كل سورة منها تفصّل في محور على نفس التسلسل الموجود في سورة البقرة ، وكل ذلك سنراه ، وسنرى فيه أن مثل هذا الربط ، ومثل هذه الصلات لا يمكن أن تخطر بقلب بشر فضلاً عن أن يستطيعها بشر وهذا بعض الأمر وليس كل الأمر ، والشرح سيأتي ، وتكفي ههنا الإشارات ولنبدأ عرض سورة البقرة .



سُورَةُ البَقَرة

وَهِيَ السُّورَةُ الثَّانِيَةُ بِحَسَبِ الرَّسْمِ القُرْآنِي

وَهِيَ السُّورَةُ الأُولَى مِنْ قِسْمِ الطِّوَالِ

وَآيَاتُهَا مِئَتَانِ وَسِتٌّ وَثَمَانُونَ

وَهِيَ مَدَنِيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

نصوص ونُقُول :

أخرج الإمام أحمد والإمام مسلم عن أبي أُمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اقرءوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيامة ، اقرءوا الزهراوين : البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فِرْقان من طير صوافّ يحاجان عن أهلهما ، ثم قال : اقرءوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة » .

قال ابن كثير : الزهراوان : المنيرتان والغياية : ما أظلك من **فوقك** .

والفِرْق القطعة من الشيء والصوافُّ : المصطفة المتضامة ، والبطلة : السحرة ومعنى لا تستطيعها : أي لا يمكنهم حفظها وقيل لا تستطيع النفوذ في قارئها .

– أخرج الإمام أحمد عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : سورة البقرة سَنَام القرآن وذروته . نزل مع كل آية منها ثمانون ملَكاً واستخرجت ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ من تحت العرش فوصلت بها أو فوصلت بسورة البقرة ، ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له واقرءوها على موتاكم » .

وفي مسند أحمد وصحيح مسلم وفي الترمذي والنسائي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، فإن البيت الذي يُقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان » قال الترمذي : حسن صحيح .

وأخرج ابن مردويه والنسائي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أُلْفَيَنَّ أحدكم يضع إحدى رجليه على الأخرى يتغنى ويدع سورة البقرة يقرؤها ، فإن الشيطان ينفر من البيت تُقرأ فيه سورة البقرة ، وإن أصفر البيوت الجوف الصفر (أي الخالي)من كتاب الله » .

وأخرج الطبراني وأبو حاتم وابن حِبّان في صحيحه ، وابن مردويه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شيء سَنَاماً ، وإن سَنَام القرآن البقرة ، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال ، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام » .

وأخرج الدارمي في مسنده عن طريق الشعبي قال : قال عبد الله بن مسعود : من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة : أربع من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث آيات من آخرها ، وفي رواية : لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه ولا يقرأن على مجنون إلا أفاق » .

وأخرج النسائي وابن ماجه والترمذي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد فاستقرأهم ، فاستقرأ كل واحد منهم ما معه من القرآن ، فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال : ما معك يا فلان فقال : معي كذا وكذا وسورة البقرة . فقال : أمعك سورة البقرة ؟ قال نعم قال : اذهب فأنت أميرهم فقال رجل من أشرافهم والله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا أني خشيت أن لا أقوم بها . فقال رسول الله ﷺ : تعلموا القرآن واقرءوه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح ريحه في كل مكان ، ومثل مَن تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكي على مسك » . هذا لفظ الترمذي وقال عنه : حديث حسن .

وأخرج البخاري عن أسيد بن حضير (رضي الله عنه) قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة – وفرسه مربوطة عنده – إذ جالت الفرس فَسَكَتَ فسكَنَتْ ، فقرأ فجالت الفرس فسكت فسكَنَت ، ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه ، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدَّث النبي ﷺ فقال : اقرأ يا ابن حضير قال : قد أشفقت يا رسول الله على يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي وانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظُلّة ، فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها قال : « وتدري ما ذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبَحَتْ ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم » .

قالوا والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف وهي من أوائل ما نزل بالمدينة ، لكن قوله تعالى فيها : ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم تُوفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ . آخر ما نزل من القرآن . وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل ، وكان خالد بن معدان يسمي البقرة فسطاط القرآن . وقد رد ابن كثير الرواية التي تنهى عن

التسمية بسورة البقرة ، وقال عن أحد رواتها : وهو ضعيف الرواية لا يحتج به ثم قال : وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود « أنه رمى الجمرة من بطن الوادي ، فجعل البيت عن يساره ومِنَى عن يمينه ، ثم قال : هذا مقام من أنزلت عليه سورة البقرة .... » وروى ابن مردويه ... عن عتبة بن مرثد قال : « رأى النبي ﷺ في أصحابه تأخراً فقال : يا أصحاب سورة البقرة » قال ابن كثير : وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم : « يا أصحاب الشجرة يعني أهل بيعة الرضوان وفي رواية : يا أصحاب سورة البقرة » لينشطهم بذلك ، فجعلوا يقبلون من كل وجه . وكذلك يوم اليمامة ، مع أصحاب مسيلمة ، جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة ، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادَوْن : يا أصحاب سورة البقرة حتى فتح الله عليهم .

أخرج أبو عبيد .. « أن رجلاً قرأ البقرة وآل عمران فلما قضى صلاته قال له كعب أقرأت البقرة وآل عمران قال : نعم . قال : فوالذي نفسي بيده إن فيهما اسم الله الذي إذا دُعِيَ به استجاب قال : فأخبرني به قال : لا ، والله لا أخبرك به . ولو أخبرتك به لأوشكت أن تدعوه بدعوة أهلكُ فيها أنا وأنت » ذكره ابن كثير .

وأخرج أبو عبيد عن سعيد بن جبير قال : قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) « من قرأ البقرة وآل عمران في ليلة كان –أو كُتِب – من القانتين » قال ابن كثير : « فيه انقطاع ولكن ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ ، قرأ بهما في ركعة واحدة » .

كلمة في سورة البقرة وسياقها :

تتألف سورة البقرة – في اجتهادي – من مقدمة وثلاثة أقسام وخاتمة ، أما المقدمة فعشرون آية وفيها كلام عن المتقين وصفاتهم ، ثم عن الكافرين وأوضح علاماتهم ، ثم عن المنافقين وحقيقتهم وعلاماتهم ، وتوضيحات في شأنهم ، وبعد أن تقسِّم مقدمة السورة الناس إلى أقسام ثلاثة هم : المتقون ، والكافرون ، والمنافقون ، وتحدد السمات الرئيسية لكلٍ من هؤلاء ، يأتي القسم الأول ويمتد من الآية الحادية والعشرين إلى نهاية الآية السابعة والستين بعد المائة .

يبدأ القسم الأول من السورة بأمر ونهي :

أما الأمر فهو قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ .

وأما النهي فهو قوله تعالى : ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ الأمر والنهي واردان في الآيتين الأُولَيين من القسم الأول ، وينتهي القسم الأول بفقرة هي قوله تعالى ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ...** ﴾ .

لاحظ الصلة بين قوله تعالى ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً** ﴾ في بداية القسم ، وبين آخر فقرة في القسم ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً** ﴾ وبعد ذلك يأتي القسم الثاني ويمتد من الآية الثامنة والستين بعد المائة إلى نهاية الآية السابعة بعد المئتين .

لاحظنا أن القسم الأول بدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ ثم لم تذكر كلمة ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ إلا بعد الآية السابعة والستين بعد المائة ، حيث تظهر مرة أخرى وأخيرة في سورة البقرة :

﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ .

فكما بدأ القسم الأول بـ ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ **فإن القسم الثاني** بدأ كذلك وكما انتهى بفقرة مبدوءة بقوله تعالى :

﴿ **ومن الناس** ﴾ فإن الثاني ينتهي بفقرة مبدوءة بقوله تعالى ﴿ **ومن الناس** ﴾ .

﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا** ﴾

﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله** ﴾ .

وهكذا نجد أن مقدمة سورة البقرة مختومة بفقرة بدايتها : ﴿ **ومن الناس** ﴾ .

﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر** ﴾ .

وأن القسم الأول مختوم بفقرة بدايتها : ﴿ **ومن الناس** ﴾

﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً** ﴾ .

وأن القسم الثاني منتهٍ بفقرة تتكرر فيها ﴿ **ومن الناس** ﴾ مرتين :

﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ﴾

﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾

ثم يأتي القسم الثالث ويمتد من الآية الثامنة بعد المائتين إلى نهاية الآية الرابعة والثمانين بعد المئتين .

يبدأ القسم الثالث بأمر ونهي ، أما الأمر : فهو في موضوع الدخول في الإسلام كله . وأما النهي : فعن اتِّباع خطوات الشيطان وهو نفس النهي الذي جاء في ابتداء القسم الثاني .

لاحظ أن بداية القسم الثاني كانت : **﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾** وأن بداية القسم الثالث :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾ أي في الإسلام جميعاً كما فسرها ابن عباس **﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾** .

ومن المعلوم أن الآيتين الأخيرتين في سورة البقرة قد ورد فيهما أكثر من نص يخصهما بالذكر فهما خاتمة السورة وبدايتهما : **﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ... ﴾** .

لاحظ صلة ذلك ببداية السورة : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾

☆ ☆ ☆

هذه نقاط عَلام كبيرة على معالم السورة ، ونحن نعلم أننا الآن ونحن نذكر مثل هذه المعاني كأننا نبني على فراغ في حق من لا يحفظ السورة أو لا يمسك بيده مصحفا يتتبع ما نقول ، ولكن أحببنا في هذه الكلمة أن نضع أساساً يبني عليه القارئ ونحن نسير معه فقرة فقرة ، ومقطعا مقطعاً وقسماً قسماً ونحن نعرض الترابط والصلات بين أجزاء السورة ، وإلا فإن الكلام المختصر هنا لا يغني ولكنه ينفع ، ولذلك فلنستمر به على ملاحظتنا عليه :

تبدأ المقدمة بتقسيم الناس إلى ثلاثة أقسام : متقين ، وكافرين ، ومنافقين . **ثم يأتي القسم الأول** مبتدئاً بدعوة الناس لسلوك طريق العبادة والتوحيد كطريق موصل إلى التقوى ، ثم يسير القسم ليناقش الكفر ، وليعمِّق قضية السير في التقوى ، من خلال تأكيد طاعة الأمر واجتناب النهي ، ومن خلال عرض الآثار الخطيرة لمخالفة الأمر .

والوقوع في النهي ، ومن خلال عرض نماذج الانحراف في قصة بني إسرائيل ، ومن خلال عرض نماذج الاستقامة في قصة إبراهيم عليه السلام . ولا ينتهي القسم إلا وتأكدت قضية التقوى وقضية السير فيها وقضية العبادة والتوحيد ومظاهر ذلك .

ثم يأتي القسم الثاني : فيؤكد قضية التقوى ، ويرسم طرائق التحقيق بها على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة ، ويعمّق مفهوم الشكر وطرائق الشكر ، ولا نكاد ننتهي من هذا القسم إلا وقد وضحت قضية التقوى وقضية العبادة وقضية الشكر ، وقضية الصراط المستقيم وقضية الانحراف عنه ، واتجاهات المنحرفين ، وخلال ذلك يتم الكلام عن كل أركان الإسلام : الإيمان والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، فتصبح أرضية النفس والقلب والعقل جاهزة للسير في الإسلام كله . وههنا يأتي **القسم الثالث** : داعياً إلى الدخول في الإسلام كله فيعرض قضايا في الحرب والعلاقات الاجتماعية في محيط الأسرة وغيرها ويعرض أمهات في قضايا السياسة والاقتصاد ، ثم تأتي خاتمة السورة رابطة كل شيء بقضايا الإيمان والتوجه إلى الله معلمة في ذلك مربية عليه مُفصّلة فيه .

وفيما بين ذلك وخلاله نعرض القضايا الكثيرة ، وكل واحدة في محلها تؤدي دورها في بناء الذات ، وفي بناء الأمة بعد المقدمات التي تناسب ذلك ، وتتولد المعاني الكثيرة في هذا السياق الكبير من خلال المعنى الحرفي للآية ، ومن خلال محل الآية في السياق القريب ، ومن خلال محلها في السياق البعيد ، ومن خلال محل المقطع في القسم ، ومحل القسم في السورة ، ومحل السورة مع ما قبلها ، وما بعدها ، وفي هذا السير نجد كثرة الروابط والوشائج والصلات فيما بين الأقسام والمقدمة والخاتمة ، وكل ذلك يجري على تسلسل معيَّن وعلى طريقة عجيبة لم يألفها البشر وليس الخبر كالمعاينة فلنبدأ عرض مقدمة السورة :

مقدمة سورة البقرة :

تتألف مقدمة سورة البقرة من عشرين آية :

الأحرف ﴿ الٓمٓ ﴾ وبعضهم يعتبرها آية ثم أربع آيات في وصف المتقين واثنتين في وصف الكافرين وثلاث عشرة آية في المنافقين :

قال مجاهد : أربع آيات من أول سورة البقرة في نعت المؤمنين ، وآيتان في نعت الكافرين ، وثلاث عشرة في المنافقين .. وعلى هذا فالمقدمة تتألف من ثلاث فقرات وهذه هي :

الفقرة الأولى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾

ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ

وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

الفقرة الثانية :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

الفقرة الثالثة :

وتتألف من ثلاث مجموعات : مجموعة في تبيان حقيقة المنافقين ، ومجموعة في ذكر نماذج من أقوالهم ، ومواقفهم ليُعْرَفوا بها . ومجموعة فيها مثلان يبينان ويوضحان شأنهم :

المجموعة الأولى :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ

فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾

المجموعة الثانية :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ

قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾

أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ

قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ

أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾

وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا

وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾

ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾

المجموعة الثالثة :

مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ

وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

١ – المعاني العامة لمقدمة السورة

قَسّمت المقدمة الناس إلى أصناف ثلاثة : متقين وكافرين ومنافقين ، ويفهم من ذلك : أن هذا هو التقسيم المعتبر شرعاً ، والذي تترتب عليه آثاره في المواقف والمواقع ، ومن المقدمة نعرف أن التقوى قضية محددة مفصَّلة ، والكفر قضية محددة واضحة المعالم ومفصَّلة ، والنفاق قضية محددة ومفصَّلة وله علاماته ، ومقدمة سورة البقرة ذكرت الصفات الرئيسية لأهل الإيمان ، من إيمان بالغيب ، وصلاة ، وإنفاق ، واهتداءٍ بكتاب الله في الشأن كله ، وذكرت المظهر الأجلى للكفر في كون الكافر لا يؤثِّر فيه الإنذار من أهله ، وذكرت حقيقة النفاق في أن أهله يكذبون في ادعائهم الإيمان بالله واليوم الآخر ، وأن علة ذلك هي الخداع وأن سبب ذلك مرض القلب ، ثم ذكرت نماذج ثلاثة من مواقفهم ، نتعرف عليهم من خلالها ، ثم ضربت لهم مثلين ، مثلاً للمنافق الخالص ، ومثلاً للمنافق الذي لا زال في قلبه بقية من إيمان .

٢ – المعنى الحرفي للمقدمة

﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ ، في هذا النص أربع جمل : ﴿ **الٓمٓ** ﴾ جملة برأسها ، و ﴿ **ذلك الكتاب** ﴾ جملة ثانية ، و ﴿ **لاريب فيه** ﴾ جملة ثالثة و﴿ **هدى للمتقين** ﴾ جملة رابعة ، وجيء بها هكذا متناسقة بلا حرف عطف لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض ، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة . ونبَّه بـ ﴿ **الٓمٓ** ﴾ على أنه الكلام المتحدَّى به ، ثم أُشير إليه بأنه الكتاب

المنعوت بغاية الكمال من خلال استعمال لفظ الإشارة ﴿ **ذلك** ﴾ فكان تقريراً لجهة التحدي ، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلاً بكماله لأنه لا كمال أكمل كالحق واليقين ، ولا نقص أنقص كالباطل والشبهة . ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين ، فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله ، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فـ ﴿ **ذلك الكتاب** ﴾ معناه : هذا الكتاب الكامل لأن كلمة ﴿ **ذلك** ﴾ فيها إشارة إلى بُعده عن أن يكون على اقتراب في المستوى من غيره و ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ معناه لاشك فيه ، وإنما نفى الريب على سبيل الاستغراق وقد ارتاب فيه كثير ، لأن المنفي كونه متعلَّقاً للريب ومظنة له ، لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي أن يرتاب فيه أحد ، لا أن أحداً لا يرتاب ، والهدى : هو الدلالة الموصلة إلى البغية ، والمتقي : هو من يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك ، وإنما خُص المتقون بالاهتداء لأنهم وحدهم المهتدون بكتاب الله .

﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ وُصف المتقون بالإيمان والصلاة والصدقة ، فالإيمان أساس لكل شيء من الحسنات والخيرات ، والصلاة والصدقة معيار العبادات البدنية والمالية ، فكان من شأنهما استتباع سائر العبادات ، ولذلك اختصر الكلام بأن استغني عن عد الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها ، والإيمان هو التصديق ، والغيب هو المغيَّب عنهم مما أتاهم به النبي ﷺ من كل ما غاب عنهم ، سواء في ذلك أمر البعث والنشور والحساب والخلق إلى غير ذلك ، وإقامة الصلاة : أداؤها حساً ومعنى ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ أي ومما أعطيناهم يتصدقون ثم أكمل الله وصف المتقين بقوله : ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك** ﴾ أي بالقرآن ﴿ **وما أُنزل من قبلك** ﴾ ، أي سائر الكتب المنزلة على النبيين ، وهذه وإن كانت داخلة في قضية الإيمان بالغيب من وجه لكن لها مظهراً محسوساً من جهة أخرى ، ولأن للآخرة معنى استقبالياً زائداً على كونها من الغيب ، فقد خُصت بالذكر ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ الإيقان هو رسوخ العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه . ﴿**وأولئك هم المفلحون** ﴾ : أي الظافرون بما طلبوا ، الناجون مما هربوا ، فالفلاح إدراك البغية والمفلح الفائز بالبغية وفي ذكر الحرف ﴿ **على** ﴾ في قوله تعالى : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم** ﴾ ما يدل على تمكنهم من الهدى ، واستقرارهم عليه وتمسكهم به بحيث شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه ، ودخل في قوله تعالى : ﴿ **يقيمون الصلاة** ﴾ إقامة فروضها وإتمام ركوعها وسجودها وتلاوتها وخشوعها والإقبال عليها فيها ، والمحافظة على مواقيتها

وإسباغ الطهور فيها ، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ فيها ، كما دخل في ذلك فرضها ونفلها ودخل في قوله تعالى : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ النفقات الواجبة والزكاة المفروضة وأنواع الصدقات .

في هذه الآيات قضيتان : أساس وبناء ، الأساس هو : الإيمان والصلاة والإنفاق والبناء هو : اتّباع الكتاب ، ومجموع ذلك هو التقوى ، وقد غفل الكثيرون عن هذا فعطّل بعضهم كتاب الله وهم يظنون أنهم متقون ، وعطلوا الصلاة والإنفاق وأخلوا بالإيمان وهم يظنون أنهم متقون ، وليفهم على ضوء ذلك كله حديث رسول الله ﷺ المتفق عليه « بني الإسلام على خمس ... » فهناك أساس فوقه بناء ، والأساس وإن كان جزءاً من البناء لكنه ركنه ، والبناء هو الأركان وما فوقها وذلك هو الإسلام .

ثم وبعد أن ذكَّر الله أولياءه بصفاتهم المقربة إليه ، وبيَّن أن الكتاب هدى لهم قفَّى على أثره بذكر أضدادهم وهم العتاة المردة الذين لا ينفع فيهم الهدى ، ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ . الكفر : ستر الحق بالجحود ، والإنذار : التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصي ، والحكمة في الإنذار مع العلم بالإصرار : إقامة الحجة ، وليكون الإرسال عامًّا وليثاب الرسول ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** ﴾ والختم هو : التغطية ، والختم والطبع واحد ، والغشاوة : الغطاء ، والأسماع داخلة في حكم الختم لا في حكم التغشية . ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ العذاب هو : النكال والعظيم يقابل الحقير ، والمراد بالذين كفروا هنا : أناس علم الله أنهم لا يؤمنون فهؤلاء يستوي عليهم الإنذار وعدمه . قال الشيخ أبو منصور الماتريدي : « الكافر لما لم يسمع قول الحق ، ولم ينظر في نفسه وغيره من المخلوقات ليرى آثار الحدوث ، فيعلم أنه لابد له من صانع جُعل كأن على بصره غشاوة » .



وبعد أن قدّم الله عز وجل وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات ، ثم عرَّف حال الكافرين بآيتين ، ذكر حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس ، أطنب في ذكرهم بصفات متعددة هنا ، كما أنزل سورة براءة وسورة المنافقين فيهم ، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور تعريفاً لِأحوالهم لتُجتنب ، ويُجتنب من تلبس بها أيضاً ، لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون ،

فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر ، وهذا من المحذورات الكبار أن يُظن بأهل الفجور خير . ولما كنا لا نعرف المنافق إلا من سيماه وفلتات لسانه كما قال تعالى : ﴿ **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنَّهم في لحن القول** ﴾ (سورة محمد) فقد بيَّن الله لنا هنا حقيقة المنافق ، وأعطانا نماذج من كلامه وتصرفاته ، ثم ضرب لنا الأمثلة عليه لتتضح الحال تماماً ، لأن النفاق أخطر شيء على الأمة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان ... » ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر** ﴾ : ادعى المنافقون إحاطتهم بجانبي الإيمان أوله وآخره ، وهذا لأن حاصل المسائل الاعتقادية يرجع إلى المبدأ ، وهي العلم بالخالق وصفاته وأسمائه وأفعاله ومسائل المعاد وهي : العلم بالنشور والبعث من القبور والصراط والميزان وسائر أحوال الآخرة . وفي تكرار الباء إشارة إلى أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام ، وقد نفي الله عز وجل إيمانهم على أبلغ وجه ، إذ أخرج ذواتهم من أن تكون من المؤمنين ، فقال : ﴿ **وما هم بمؤمنين** ﴾ . **ولليوم الآخر تعريفان** :

الأول : هو الوقت الذي لا حد له ، وهو الابد الدائم الذي لا ينقطع ، وإنما سمي بالآخر لتأخره عن الأوقات المنقضية .

الثاني : هو الوقت المعهود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا** ﴾ الخداع : إظهار غير ما في النفس على نية الغش ﴿ **وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ النفس : ذات الشيء وحقيقته ، ثم قيل للقلب والروح نفس لأن النفس بهما ، وقيل للدم نفس لأن قوام النفس بالدم ، وقيل للماء نفس لفرط حاجة النفس إليه ، والمراد بالأنفس ههنا ذواتهم ، **والمعنى** أنهم بمخادعتهم الله والمؤمنين لا يخدعون في الحقيقة إلا أنفسهم لعود أضرار ذلك عليهم ، فالخداع لاحقٌ بهم لا يعدوهم إلى غيرهم ولكنهم لا يشعرون أن حاصل خداعهم يرجع إليهم ، والشعور : علمُ الشئ علما حسياً ، ومشاعر الإنسان في الأصل حواسه لأنها آلات الشعور . والمعنى أن لحوق ضرر الخداع بهم كالمحسوس ، وهم للتمادي في غفلتهم كالذي لا حس له . ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ : المرض هنا هو الشك والنفاق ، لأن الشك تردد بين الأمرين والمنافق متردد ، كما أن المريض متردد بين الحياة والموت ولأن

المرض ضد الصحة ، والفساد يقابل الصحة فصار المرض اسماً لكل فساد ، والشك ، والنفاق فساد في القلب ﴿ **فزادهم الله مرضاً** ﴾ : أي فزادهم الله رجساً وشراً إلى شرهم عقوبة لهم . ﴿ **ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ : أي بكذبهم في قولهم ﴿ **آمنا بالله وباليوم الآخر** ﴾ خداعاً للمؤمنين . والكذب هو الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو به . وبهذه الآيات الثلاث عرفنا حقيقة النفاق وأسبابه ثم بعد أن بين الله لنا ذلك ، ذكر لنا ثلاثة نماذج من أقوالهم ومواقفهم لنعرفهم بها :

١ - ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ، قالوا : إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾ الفساد : خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به،وضده الصلاح وهو : الحصول على الحال المستقيمة النافعة والمراد بالفساد في الآية الكريمة - والله أعلم - الكفر والعمل بالمعصية ، فهؤلاء المنافقون يعملون بالكفر والمعصية ويدعون إليهما ، ويزعمون أن ما يفعلون وما يدعون إليه إصلاح وهو عين الفساد ، ولكن من جهلهم لا يشعرون أنه فساد و (إنما) في اللغة العربية تفيد : قصر الحكم على شيء أو قصر الشيء على حكم ، وقد استعملوها في تعبيرهم . ﴿ **إنما نحن مصلحون** ﴾ فذلك يدل على أنهم يتصورون أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة تقدح فيها من وجه من وجوه الفساد ، ولم يظهر أهل هذه الآية في عصر كما ظهروا في عصرنا - في القرن الخامس عشر الهجري - إذ تجد الدعاة إلى الكفر والمعصية والعاملين بهما ممن لهم أسماء إسلامية ، ويتظاهرون بأنهم مسلمون ، ويخلعون على أنفسهم ودعواتهم الكافرة أسماء براقة تعطيهم صفة المصلحين ، كالتقدمية والتقدميين ، والحرية والأحرار ، وقد روي من غير طريق ذكره ابن كثير عن سلمان الفارسي ، في قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون** ﴾ : ما جاء هؤلاء . لم يجيء أهل هذه الآية بعد .. أقول : قد جاءوا في عصرنا ورأيناهم ونسأل الله أن يطهِّر الأرض منهم . قال ابن جرير : يحتمل أن سلمان (رضي الله عنه) أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا في زمن النبي ﷺ لا أنه عنى أنه لم يمض ممن تلك **صفته** أحد .

٢ - ﴿ **وإذا قِيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾ السفه : سخافة العقل وخفة الحلم . والناس في الآية هم الكاملون في الإنسانية وهم المؤمنون ، لأنهم هم الناس على الحقيقة ومن عداهم كالبهائم .

نصحهم أهل الإيمان النصيحة الأولى كما رأينا بتقبيح ما كانوا عليه ؛ لبعده عن الصواب وجرِّه للفساد ، فردوا عليهم كما رأينا ، ونصحوهم النصحية الثانية كما في هذه الآية بأن بصّروهم بالطريق الأسدّ من اتّباع ذوي الأحلام ، فكان جوابهم أن سفهوهم للتمادي في جهلهم ، وفيه تسلية للعالم مما يلقى من الجهلة .

ولم يظهر أهل هذه الآية كذلك في عصر كما ظهروا في عصرنا ، إذ ترى المنافقين يحتقرون أهل الإيمان من علماء وربانيين ودعاة وعُبادٍ ويعتبرونهم ضعاف العقول ، ويصفونهم بالرجعية والجمود وضيق الأفق وأمثال ذلك ، فهم أبعد الناس عن احترامهم ، فضلاً عن متابعتهم والاقتداء بهم فيما هم فيه من خير ، وقد تولى الله سبحانه الجواب الذي يفضح حقيقة أمرهم فقال : ﴿ **ألا إنهم هم السفهاء** ﴾ ، فأكّد وحصر السفاهة فيهم ، ﴿ **ولكن لا يعلمون** ﴾ يعني : ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون أن ما هم فيه ضلال وجهل وسفه ، وذلك أردى وأبلغ في العمي والبعد عن الهدى ، وإنما وصفهم في الآية الأولى بأنهم لا يشعرون ، وفي الآية الثانية بأنهم لا يعلمون ، لأنه ذكر في الآية الثانية السفه وهو الجهل فكان ذكر العلم هو الأحسن طباقاً له ، ولأن الإيمان يحتاج إلى نظر واستدلال ليكتسب الناظر المعرفة ، فناسب ذلك ذكر العلم ، أما الفساد في الأرض فأمر مبني على العادات فهو كالمحسوس فناسب هناك أن يذكر عدم الشعور .

٣ - ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزءون الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ .

يزيدنا الله بياناً في توضيح حال المنافقين من خلال أقوالهم ، ومواقفهم ، فذكر لنا أن هؤلاء المنافقين إذا لقوا المؤمنين ﴿ **قالوا آمنَّا** ﴾ وأظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة تغريرًا منهم للمؤمنين ونفاقا ومصانعة وتقية ، وإذا خلَوْا إلى سادتهم وكبرائهم ورؤسائهم وأصحابهم من الكافرين والمشركين والمنافقين ﴿ **قالوا إنا معكم** ﴾ أي إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿ **إنما نحن مستهزئون** ﴾ أي : إنما نحن نسخر بالقوم ونستهزىء منهم ونلعب بهم ، ولم يظهر أهل هذه الآية في عصر كما ظهروا في عصرنا ، إذ كثرت المؤسسات الكافرة من محافل ماسونية وأحزاب ضالة ، أو مؤسسات خائنة ، أو جمعيات فاجرة ، أو تكتلات على أسس فاسدة . وتجد كثيراً من أبناء المسلمين يتظاهرون مع أهل الإيمان بالإيمان ولكنهم مع زعمائهم في هذه المؤسسات وأمثالها على غاية من المتابعة والولاء . وليس أبلغ من كلام الله في وصف حالهم ومقالهم للمؤمنين ولزعمائهم ،

ولكن الله أكبر ، والله محيط بهم وبأعمالهم ، وهو يتولى أمر المؤمنين ، ويدافع عنهم ، ويعاقب هؤلاء وينتقم منهم . ﴿ **الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ ، فهذا تطمين للمؤمنين وتهديد للمنافقين والمعنى أنه تعالى مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع . قال ابن كثير نقلاً عن ابن جرير : « لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتفٍ عن الله عز وجل بالإجماع ، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك » . فيملي لهم تعالى ويزيدهم من نعمه على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم ؛ ليستمروا في طغيانهم يترددون ؛ فتقوم عليهم الحجة باستحقاقهم عقوبة الدنيا والآخرة . والطغيان : مجاوزة الحد والإمداد : الإملاء ، والعمَه : هو الضلال والضياع ، وقال بعضهم العمى في العين والعَمَه في القلب .

ثم بيَّن الله عز وجل واقع هؤلاء المنافقين الذين بدأ الكلام عنهم بقوله ﴿ **ومن الناس** ﴾ **فقال** : ﴿ **أولئك الذين اشتَروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** ﴾ بيَّن الله عز وجل في هذه الآية : أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال ، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة ، أي بذلوا الهدى الذي هو الإيمان ثمناً للضلالة التي هي الكفر ، سواء في ذلك من كان منهم حصل له الإيمان ثم رجع إلى الكفر ، أو من كان منهم استحب الضلالة على الهدى ، دون أن يكون الإيمان قد أصاب قلوبهم من قبل مع تظاهر الجميع بالإيمان ؛ فما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ، وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك . **قال قتادة** : « قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ومن الجماعة إلى الفرقة ومن الأمن إلى الخوف ومن السنَّة إلى البدعة » ، فليحصِّلوا ما حصَّلوا من أمر الدنيا فإنهم الخاسرون .

☆ ☆ ☆

وبعد هذا البيان عن حقيقة المنافقين وبعد أن أعطانا الله عز وجل نماذج من أقوالهم ومواقفهم نعرفهم بها ، يضرب الله لنا مثلين نعرف بهما حال المنافقين معرفة تامة :

المثل الأول : لنوع من المنافقين وصلوا إلى النفاق الخالص بعد أن كانوا مؤمنين .

والمثل الثاني : لنوع من المنافقين لازالوا مترددين ، الأولون لم يعد فيهم أمل للرجوع إلى الإيمان ، أما الآخرون فلم يقنطوا ، وبعض المفسرين اعتبر المثلين لنوع واحد ، وهذا خطأ ، لأن أهل المثل الأول قال الله عنهم ﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ ، وقال ﴿ **صُم بُكم عُمي فهم لا يرجعون** ﴾ بينما قال عن الآخرين ﴿ **كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم** ﴾ ، وابن كثير وضح

ذلك ، لذلك قال عن **المثل الثاني** : هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين وهم : قوم يظهر لهم الحق تارة، ويَشكُّون تارة أخرى ، فقلوبهم في حال شكِّهم وكفرهم وترددهم كصيِّب ..

المثل الأول : قال تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يُبصرون صُم بُكم عُمي فهم لا يرجعون ﴾ المثل هو القول السائر ، ثم استعير للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة . ويضرب المثل زيادة في الكشف ، وتتميماً للبيان ، وتقدير هذا المثل : إن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى : بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله فبينا هو كذلك إذ أُطْفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي ، وهو مع هذا أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق ، أعمى لو كان ضياء لما أبصر ، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك . فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى واستحبابهم الغي على الرشد ، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا **قال الرازي** : « والتشبيه هنا في غاية الصحة لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولاً نوراً ، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك فوقعوا في حيرة عظيمة ، فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين » فصار المعنى :

﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ أي ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور ، نور الإسلام الذي يرون به الأشياء كلها على حقائقها . ﴿ **وتركهم في ظلمات** ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق . ﴿ **لا يبصرون** ﴾ أي لا يهتدون إلى سبيل خير ، ولا يعرفونها وهم مع ذلك ﴿ **صُم** ﴾ لا يسمعون خيراً ، ﴿ **بُكم** ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ، ﴿ **عُمي** ﴾ عن رؤية الحق ، فبصيرتهم عمياء وهم في ضلالة . ﴿ **فهم لا يرجعون** ﴾ أي فلذلك لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة ، وهذا المثل نجده منطبقاً على كثير من أبناء المسلمين في عصرنا ممن مرَّت عليهم فترات استغرقوا فيها بالعبادة والإسلام ، ثم انتظموا في سلك أهل الكفر والضلال ، ساخرين من حالهم الأول ، مزدادين كل يوم كفراً على كفر ، وقد دل المثل على أن الإنسان الذي لا يرى الأشياء بنور الإيمان منافق ، ومن لم تكن منطلقاته في الحكم على الأشياء منطلقات إسلامية ، فإنه : منافق لا يرى الأشياء بنور الله على ما هي عليه في الحقيقة ، ثم ضرب الله مثلاً آخر لنوع آخر من النفاق :

المثل الثاني : ﴿ أو كصيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حَذَرَ الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مَشَوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

قال ابن كثير : « هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضَرْبٍ آخر من المنافقين ، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكُّون تارة أخرى » .

شبه دين الإسلام في المثل بالصيِّب أي : بالمطر لأن القلوب تحيا به ، حياة الأرض بالمطر ، والشبهات والشكوك في قلب هذا الضرب من المنافقين شبهها بالظلمات ، والوعيد الموجود في دين الله سواء كان الوعيد بالفضيحة أو بالعذاب الأُخروي أو بانتصار المؤمنين بالرعد ، وبقايا الفطرة في قلوب هؤلاء بالبرق ، وما يصيبهم من الأفزاع والبلايا بالصواعق .

الصيِّب : المطر ، **والرعد** : هو الصوت الذي يُسمع من السحب لاصطكاك أجرامه ، **والبرق** : هو الذي يلمع من السحاب . **وظلمات المطر** : ظلمة تكاثفه بتتابع القطر ، وظلمة إظلال غمامه مع ظلمة الليل ، والإسلام والقرآن في المثل هو المطر وحده ، وأما الظلمات ففي القلب والنفس ظلمات الشبهات والشكوك والشهوات . وذكر في المثل الأصابع - ولم تذكر الأنامل مع أن رؤوس الأصابع هي التي تجعل في الآذان : اتساعاً كقوله تعالى : ﴿ **فاقطعوا أيديهما** ﴾ (سورة النور) والمراد إلى الرسغ ، ولأن في ذكر الأصابع من الإشعار بمخالفتهم ما ليس في ذكر الأنامل ، وإنما لم يذكر الأصبع الخاص الذي تسد به الأذن لأن السبابة من السب ، فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن . ولم يذكر المسبحة لأنها مستحدثة غير مشهورة ، والصاعقة : قصفة رعد تَنْقَض ، **والخطف** : الأخذ بسرعة ، وإحاطة الله بالكافرين تعني : أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط . وكل ما علاك فهو سماء ، وتطلق السماء على السحاب أو على المطر لنزوله من السحاب فصار المعنى :

مثل المنافقين كمثل أصحاب مطر نزل من السماء في حال ظلمات ، وهي الشكوك والشبهات ، ورعد وهو ما يزعج القلوب من الخوف ، وبرق وهو ما يلمع في قلوب ذلك الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان ، فهم يسدون آذانهم فلا يرغبون أن يسمعوا التهديد والوعيد وأخبار أيام الله ، ولكن ذلك لا يجديهم فإن سد

الأذن لا يغني من الصاعقة شيئاً ، ومع شدة لمعان البرق فينقدح في قلوبهم نور إضافي فإنهم لا يستفيدون منه إلا قليلاً لما يعقبه من ظلام . فهؤلاء إذا ظهر لهم شيء من الإيمان استأنسوا به واتبعوه ، ثم تَعْرض لهم الشكوك فتُظلم قلوبهم ، فيقفون حائرين ، وقد حذر الله المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير فإن الله على كل ما أراد بعباده من نعمة أو نقمة أو عفو أو عقاب أو غير ذلك قدير .

ويمكن أن يقال في المثل :

المطر يحيي الأرض وينزل من السماء ، والإسلام يحيي القلوب وقد نزل من السماء ، والمطر في الليل يرافقه ظلمات ورعد وبرق ، وهؤلاء المنافقون بسبب ليل قلوبهم ؛ صار الإسلام بالنسبة لهم ظلمة ورعداً وبرقاً ، فَشُبِّه الكافرين والمنافقين ظلمات تحيط بهم والتهديدات تقرع آذانهم فتخيفهم ، ولشدة ضوء الحق فإنه يظهر لهم نور فيسيرون به قليلاً ثم تحيط بهم الظلمة من جديد فيقفون .

هذا المثل من غوامض الأمثال القرآنية ، والأمثال في القرآن كما قال الله تعالى في سورة (العنكبوت) : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ ونادراً ما تجد شرحاً مبسطاً في كتب التفسير لهذا المثل ، وإذ كان ظهور هذا المثل في عصرنا أكثر من ظهوره في بقية العصور فإننا نستطيع أن نقول :

إن هناك مسلمين بحكم النشأة والبيئة ، وُجدوا في عصرنا المليء بالشبه والدعوات الضالة ، ولم يُتَح لهم أن يسيروا في طريق الإيمان حتى يحققوه في قلوبهم ، فبقيت قلوبهم فيها إيمان ونفاق ، أو إيمان وكفر ، فتارة تأتيهم حجة من حجج الإسلام القوية فتضيء جوانب قلوبهم بالإيمان فيسيرون على زاد ذلك قليلاً ، ثم تحيط بهم شبهة من الشبهات فينطفيء النور في قلوبهم فيقفون حائرين ، وهم في هذه الحالة على غاية من الخوف من انكشاف أمرهم للمؤمنين ، أو من سلطان الكافرين ، أو من عقوبة الله لهم على ما هم فيه . هذا حال الكثيرين من أبناء المسلمين في عصرنا ، ولعل ما هم فيه يجعلنا نفهم المثل من خلال واقعهم .

وقد حاول بعض المفسرين أن يجعل لكل كلمة وردت في المثل ما يقابلها على انفراد ، ثم قابلوا ذلك بمفردات ، فالمطر الإسلام ، والظلمات الآيات المتشابهات ، والرعد آيات الوعيد ، والبرق الآيات المحكمات ، أو غير ذلك على اعتبار أنهم ظنوا أن للعرب طريقة

واحدة في هذا السبيل ، وهو أن تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها عن بعض لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها . ولكن الواقع أن للعرب طريقة أخرى ، وهي أن تشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامَّت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً بأخرى مثلها كما هنا . فالمراد العام هنا تشبيه حال المنافقين في ضلالتهم ، وماخبطوا فيه من الحيرة والدهشة كحال من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق .

٣ - حديث شريف كاشف

إن هناك حديثاً شريفاً يكشف لنا هذين المثلين ويبين لنا أهلهما كما يكشف لنا مقدمة سورة البقرة كلها فلنره :

عن أبي سعيد (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ :
« **القلوب أربعة** : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفَّح ، فأما القلب الأجرد ، فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف ، فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عَرَف ثم أنكر ، وأما القلب المصفَّح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » قال ابن كثير : رواه الإمام أحمد بإسناد جيد حسن .

لا شك أن القلب الأول هو : قلب المؤمنين المتقين الذين وردت صفاتهم في الفقرة الأولى من مقدمة سورة البقرة ، وأن القلب الثاني هو قلب الكافرين الذين وردت صفاتهم في الفقرة الثانية من مقدمة سورة البقرة ، وأن القلبين الثالث والرابع هما في مَنْ وردت صفاتهم في الفقرة الثالثة من مقدمة سورة البقرة ، وأن القلب الثالث مثله هو المثل الأول وأن القلب الرابع مثله هو المثل الثاني .

والملاحظ أن القلب الرابع لازال فيه أمل ، وذلك إذا أصبح مدد الإيمان أكثر من مدد النفاق ، وذلك بالإقبال على الأعمال الصالحة وترك السيئات وخُلْطة أهل الباطل .

وسنرى كيف أن سورة البقرة بأقسامها كلها ، إنما تدل على الطريق ليكون الإنسان من الفئة الأولى . فئة الإيمان والتقوى ، ولذلك فإن القسم الأول يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وهذا حديث سيأتي فلنبقَ الآن في أجواء مقدمة سورة البقرة .

٤ - (فصول شتى)

فصل في فواتح السور :

لو أنك تأملت فواتح سور القرآن ، فإنك تجد أن نوعاً من الفواتح يتكرر ، فمثلاً تجد أكثر من سورة مبدوءة بـ ﴿ **الٓمٓ** ﴾ أو ﴿ **الٓر** ﴾ أو ﴿ **حمٓ** ﴾ أو ﴿ **إنا** ﴾ أو ﴿ **إذا** ﴾ أو ﴿ **هل** ﴾ أو ﴿ **ويل** ﴾ وتجد سورا كثيرة مبدوءة بقَسَمٍ ، ثم إنك تلاحظ أحياناً أن مجموعة من السور لها بدايات معينة تشبهها مجموعة أخرى لها نفس البدايات فمثلاً : نلاحظ أن سورتي البقرة وآل عمران مبدوءتان بـ ﴿ **الٓمٓ** ﴾ وتأتي بعدهما سورتا النساء والمائدة وكل منهما مبدوءة بـ ﴿ **يا أيها** ﴾ ثم تأتي سورة الأنعام وهي مبدوءة بـ ﴿ **الحمد لله** ﴾ .

ونلاحظ بعد ذلك بسور كثيرة : أنه تأتي سورة العنكبوت ، وهي والسور الثلاث بعدها مبدوءة بـ ﴿ **الٓمٓ** ﴾ ، ثم تأتي بعد ذلك سورة الأحزاب وهي مبدوءة بـ ﴿ **يا أيها** ﴾ ثم تأتي بعد ذلك سورتا سبأ وفاطر وكل منهما تبدأ بـ ﴿ **الحمد لله** ﴾ .

لاحظ التشابه بين بدايات هذه المجموعة ، وبين بدايات المجموعة الأولى مع الاختلاف في عدد السور التي بدأت بالنوع الواحد من الفواتح .

ولنأخذ مثلا آخر :

بعد سورة المدثر : تأتي سورة القيامة ، وهي مبدوءة بقسم ، وتأتي بعدها سورة الدهر وهي مبدوءة باستفهام :

﴿ **لا أقسم بيوم القيامة** ﴾ ، ﴿ **هل أتى على الإنسان ؟** ﴾

ثم تأتي بعد سورة الدهر سورة مبدوءة بقسم ، وبعدها سورة مبدوءة باستفهام :

﴿ **والمرسلات عرفاً** ﴾

﴿**عم يتساءلون** ﴾

لاحظ القسم والاستفهام في كل من النموذجين الأول والثاني

وبعد سور كثيرة تأتي خمس سور متتالية مبدوءة بقسم ، ثم تأتي سورة مبدوءة باستفهام :

﴿ **والفجر** ﴾ ، ﴿ **لا أقسم بهذا البلد** ﴾ ، ﴿ **والشمس وضحاها** ﴾ ، ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ ، ﴿ **والضحى** ﴾ . ثم سورة مبدوءة باستفهام ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ .

فهل هناك تعليل شامل لهذه الظاهرة

إننا الآن نقول باختصار : (وسنرى الدليل على ذلك شيئاً فشيئاً) :

إن فواتح السور هي بعض المفاتيح التي تتعرف بها على الرابطة بين أقسام القرآن ، وبين مجموعات هذه الأقسام ، وبين تسلسل السور ضمن القسم الأول أو المجموعة الواحدة ، فهي من مفاتيح الوحدة القرآنية المعجزة ، ولو أننا أردنا أن ندلل على هذا الموضوع ههنا لتَعثّر القارىء ولطال البحث وتعقد ، ولذلك فإننا سنعرض لأدلة هذا الموضوع شيئاً فشيئاً ، فإنه موضوع يصعب التدليل عليه إلا من خلال السير الشامل والوقوف عند كل سورة وبدايتها ، والتدليل آتٍ بإذن الله تعالى .

فصل في الحروف التي بدأت بها بعض السور :

هذه الحروف التي بدأت بها بعض سور القرآن مثل (**الٓمٓ**) أو (**الٓمٓصٓ**) أو (**الٓر**) أو (**صٓ**) وقف عندها بعض المفسرين كثيراً ، وبعضهم لم يقف واكتفى بأن يذكر بعد الواحدة منها : الله أعلم بمراده . والذين وقفوا عندها إما واحد أراد أن يعطيها تفسيراً فاعتبر كل حرف هو جزء لكلمة تدل عليها ، ثم حاول أن يجد الكلمة التي يدل عليها الحرف ، وإما واحد اعتبرها رموزاً على أزمنة ، وحاول من خلال ما اعتاده العرب أن يعطوا كل حرف رقمه الحسابي وأن يستخرج نبوءات زمنية ، وإما واحد اكتفى بأن يسجل ملاحظة حول هذه الأحرف ، ومن أهم الملاحظات التي سُجِّلت خلال العُصور أنه حيث وردت هذه الأحرف في سورة فإن السورة لها صلة في الحديث عن القرآن .

ومن ثَمَّ اعتبروا أن ذكر هذه الأحرف فيه إشارة إلى الإعجاز ، وفيه مظهر من مظاهر التحدي ، وقد عبَّر سيد قطب – رحمه الله – في ظلاله عن هذا المعنى تعبيراً طيباً .

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – في ظلاله عند الكلام عن (الٓمٓ) في سورة البقرة : « ومثل هذه الأحرف يجيء في مقدمة بعض السور القرآنية وقد وردت في

تفسيرها وجوه كثيرة نختار منها وجهاً : أنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف وهي في متناول المخاطبين به من العرب ، ولكنه مع هذا هو ذلك الكتاب المعجز الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله . الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، فلا يملكون لهذا التحدي جواباً .

والشأن في هذا الإعجاز : هو الشأن في خلق الله جميعاً ، وهو مثل صنع الله في كل شيء وصنع الناس . إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات ، فإذا أخذ الناس هذه الذرات فقصارى ما يصوغونه منها لبنة ، أو آجرة ، أو آنية ، أو أسطوانة ، أو هيكل ، أو جهاز كائناً في دقته ما يكون ، ولكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة ؛ حياة نابضة خافقة تنطوي على ذلك السر الإلهي المعجز ، سر الحياة . السر الذي لا يستطيعه بشر ولا يعرف سرَّه بشر ، وهكذا القرآن حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاما وأوزاناً ويجعل منها الله قرآناً وفرقاناً . والفرق بين صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض ، هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة » .

أقول وصدق الله العظيم ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا** ﴾

(سورة الشورى)

هذه الملاحظة التي سجلها صاحب الظلال ببيانه المشرق سجّلها علماء المسلمين قديماً ، إلا أنه في عصرنا – فيما أعلم – سُجِّلت ملاحظة أخرى إضافية حول هذه الأحرف وهي ما ذكرناه في الفصل السابق من أن فواتح السور – ومنها الأحرف – هي مفتاح من مفاتيح الوحدة القرآنية ، وهذا الموضوع سيتضح لنا شيئاً فشيئاً في هذا التفسير . ولنكتف هنا بتسجيل هاتين الملاحظتين حول الأحرف التي افتتحت بها بعض السور ، ولنا عودة على ما قيل في هذه الأحرف في أول سورة يونس حيث أول القسم الثاني من أقسام القرآن .

فصل في القلوب في المصطلح الشرعي : ورد في مقدمة سورة البقرة قوله تعالى عن الكافرين : ﴿ **ختم الله على قلوبهم** ﴾ وورد قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ وترد كلمة القلب في الكتاب والسنَّة كثيراً ، وكثيرون من الناس يغلطون في شأنها . وباختصار نقول : إن هناك قلباً محسوساً لكل الناس يشترك فيه الإنسان مع كثير من المخلوقات هو القلب الدموي ، هذا القلب الذي له وظيفة المضخة الدموية هو مركز لقلب آخر هو مركز الأحاسيس الوجدانية ، من حب وبغض وحقد وسماحة وخوف وأمن ، وهذه القضايا كذلك محسوسة لكل الناس ، إذ كل الناس يحسون بشيء من هذه المعاني في قلوبهم . هذا القلب الثاني هو محل الإيمان الذوقي ، وهو محل الكفر والنفاق كذلك ، وههنا نجد أموراً مُحَسَّةً عند بعض الناس وغير مُحَسَّة عند آخرين ، فأهل الإيمان - مثلاً يحسون بمعانٍ كثيرة في قلوبهم ، هذه المعاني لا يحس بها الكافرون لأن هذا الجانب في قلوبهم ميت ، هذا القلب المرتبط بالقلب الدموي ليس هو عين القلب الدموي ، بدليل أن الذين أجريت لهم عمليات استئصال لقلوبهم ، وأعطوا قلبا آخر ، لم تتغير أحاسيسهم ، وفي التفريق بين القلب الدموي والقلب الآخر يقول صاحب حاشية الجمل على تفسير الجلالين : « وحيث أطلق القلب في لسان الشرع فليس المراد به الجسم الصنوبري الشكل فإنه للبهائم وللأموات ، بل المراد به معنى آخر يسمى بالقلب أيضاً ، وهو جسم لطيف قائم بالقلب اللحماني قيام العَرَض بمحله أو قيام الحرارة بالفحم ، وهذا القلب هو الذي يحصل منه الإدراك وترتسم فيه العلوم والمعارف » . هذا القلب في المصطلح الشرعي يمرض ويصح ويموت ويعمى ويصم . ومن ثَمَّ رأينا في الكلام عن الكافرين في الفقرة كيف أن الله عز وجل قال ﴿ **ختم الله على قلوبهم** ﴾ وقال عن المنافقين ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ ووصفهم بقوله : ﴿ **صُم بُكم عُمي** ﴾ .

هذا القلب في المصطلح الشرعي مقره الصدر لا كما توهم بعضهم ، من أنَ مقره الدماغ ، قال تعالى ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ (الحج : ٤٦) فحدد مكانها في الصدور . وقد فصلنا في كتابنا (تربيتنا الروحية) في هذه المعاني فليُراجع .

وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ختم الله على قلوبهم** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ ننقل هذه النقول :

قال مجاهد : « الران أيسر من الطبع ، والطبع أيسر من الأقفال ، والأقفال أشد من ذلك كله » .

وقال مجاهد : « ثبتت الذنوب على القلب ، فحفَّت به من كل جوانبه حتى تلتقي عليه فالتقاؤها عليه الطبع ، والطبع : الختم »:

وقال : « كانوا يرون أن القلب في مثل هذه – يعني الكف – فإذا أذنب العبد ذنباً ضم منه وقال : بأصبعه الخنصر هكذا ، فإذا أذنب ضم وقال : بأصبع أخرى ، فإذا أذنب ضم ، وقال : بأصبع أخرى ، هكذا ، حتى ضم أصابعه كلها ثم قال : يطبع عليه بطابع . وقال مجاهد : كانوا يرون أن ذلك عين الران » .

وفي الحديث الصحيح عن حذيفة عن رسول الله ﷺ قال : تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً ، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير القلوب على قلبين قلب أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة مادامت السمٰوات والأرض ، والآخر أسود مِرباداًّ كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً » .

وأخرج الترمذي وغيره عن رسول الله ﷺ قوله : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه . وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي قال الله تعالى ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ (المطففين : ١٤) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

قال ابن جرير : فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص ، فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى : ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم** ﴾ نظير الختم والطبع على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمه وحل رباطه » اهـ .

فإذا علم الإنسان هذا وفهم قوله تعالى ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** ﴾ وما أشبه ذلك من الآيات ، أدرك أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقاً على تماديهم في الباطل وتركهم الحق .

وبمناسبة ما مرّ أقول : إن التركيز على قضية القلب من أهم ملامح التربية القرآنية والنبوية ، وقد أهمل الناس هذا إلا القليل ، والقليل عنده دَخَن كثير إلا أقل القليل . ولأن الجزء الأكبر من التكاليف الربانية منوط بالقلب ، فإن على الإنسان أن ينتبه لذلك . ونحن – في هذه السلسلة – سنعطي هذا الموضوع حقه ، كلما جاءت مناسبته بإذن الله .

فصل في الكفر الذي لا يؤمن أهله :

يلاحظ أن كثيرين من الناس يكونون كافرين ثم يدخلون في الإسلام ، وقد ذكرت الفقرة التي تحدثت عن الكافرين في مقدمة سورة البقرة أن الكافرين يستوي عليهم الإنذار وعدمه فهم لا يؤمنون فكيف نجمع بين هذا وهذا ؟ قال بعض المفسرين في هذا : والمراد بالذين كفروا هنا أناس علم الله أنهم لا يؤمنون فهؤلاء يستوي عليهم الإنذار وعدمه ، روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم ..** ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له السعادة في الذكر الأول ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول » . وأقول : سنرى في التفسير ، أن هاتين الآيتين قد فصلت فيهما سور في كتاب الله ، ومن خلال دراسة هذه السور سنرى أن الكفر الكامل هو ما انعدمت فيه قضية الفطرة في قلب الإنسان ، وأن هذا له علاماته وله حقيقته وثمراته . فمن اجتمعت له الحقيقة والثمرات والعلامات فهذا الذي لم تعد فيه بقية من الفطرة ، وهذا الذي لم يعد ينفع معه إنذار . ولكون هذا لا يعلمه إلا الله فإننا مكلفون بالإنذار لإقامة الحجة ، أما الكافرون الذين لم يصلوا إلى مثل تلك الدرجة ، فهؤلاء لازال في شأنهم أمل أن يهتدوا بإذن الله ﴿ **أوَ من كان ميْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس** ﴾ (الأنعام : ١٢٢) ولا يصل الإنسان إلى الكفر الذي لا أمل معه في الإيمان إلا بسيره في طريق ذلك كما رأينا . في الفصل السابق ، وهذا موضوع سنراه كثيراً . وبكلامنا هذا لا نردُّ على من ذهب إلى أن الآيتين وردتا في شأن كفار علم الله أنهم لا يؤمنون ، بل كلامنا تبيان لأسباب هداية بعض الكافرين وعدم هداية بعضهم ، وإلا فالآيتان حتماً واردتان في كفار علم الله أنهم لا يهتدون .

٥ - فوائد

(أ) أخرج الترمذي وابن ماجه عن رسول الله ﷺ قال : (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس) قال الترمذي عنه : حديث حسن غريب . وذكر ابن كثير أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سأل أبيّ بن كعب عن التقوى فقال له : أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال : بلى ، قال : فما عملت ؟ قال : شمرت واجتهدت قال : فذلك التقوى .. » وفي سنن ابن ماجه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : (ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة إن نظر إليها سرته وإن أمرها أطاعته وإن أقسم عليها أبرَّته وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله) ، دلّ الحديث على أن تقوى الله هي أعظم ما يعطاه عبد .

(ب) مما أورده ابن كثير بمناسبة قوله تعالى ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾

- **قال أبو العالية** في تفسير الإيمان بالغيب : « الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث » .

- **عن عبد الرحمن بن يزيد** قال : كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً فذكرنا أصحاب النبي ﷺ وما سبقونا به فقال عبد الله : إن أمر محمد ﷺ كان بيّناً لمن رآه والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ ﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب** .. إلى قوله : **المفلحون** ﴾ قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وعن صالح بن جبير قال : « قدم علينا أبو جمعة الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ ببيت المقدس يصلي فيه ، ومعنا يومئذٍ رجاء بن حيوة ، فلما انصرف خرجنا نشيِّعه فلما أراد الانصراف قال : إن لكم جائزة وحقاً أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ قلنا : هات رحمك الله . قال : كنا مع رسول الله ﷺ ومعنا معاذ بن جبل - عاشر عشرة - فقلنا : يا رسول الله : هل من قوم أعظم منا أجراً ؟ آمنّا بالله واتبعناك . قال : ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء ، بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين ، يؤمنون به ويعملون بما فيه ، أولئك أعظم منكم أجراً ، أولئك أعظم منكم أجراً » .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ :

« أي الخلق أعجب إليكم إيماناً ؟ قالوا : الملائكة ، قال : وما لهم لا يؤمنون وهم

عند ربهم ؟ قالوا : فالنبيون ، قال : وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ قالوا : فنحن ، قال : وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : ألا إن أعجب الخلق إليَّ إيماناً ، لَقَومٌ يكونون من بعدكم يجدون صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها » . قال ابن كثير : قال الحاكم : صحيح الإسناد دلت هذه النصوص على فضل إيمان من جاء بعد الصحابة من المسلمين ، ولا يعني ذلك أن من جاء بعد الصحابة أفضل منهم بل من جاء بعدهم أعظم أجراً من هذه الحيثية لا مطلقاً .

(جـ) أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قيل له : يا رسول الله : إنا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ من القرآن فنكاد أن نيأس أو كما قال . قال : أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ... قال : ﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **المفلحون** ﴾ هؤلاء أهل الجنة ، قالوا : إنا نرجو أن نكون هؤلاء . ثم قال : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم ... ولهم عذاب عظيم** ﴾ هؤلاء أهل النار . قالوا : لسنا هم يا رسول الله .. قال : أجل .

(د) فهم بعضهم أن الفقرة الأولى من مقدمة سورة البقرة ذكرت صنفين من أهل الإيمان ، **الأول** : هم الذين آمنوا بالقرآن دون أن يكونوا على دين سماوي سابق ، وهؤلاء هم الذين ذكروا في قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ .

والثاني : هم الذين كانوا على دين سماوي سابق ثم آمنوا بالقرآن وهم الذين ذكروا في قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ ونحن في التفسير الحرفي لم نعتمد هذا الاتجاه ، بل اعتبرنا أن المتكلَّم عنهم في الفقرة صنف واحد ، فالناس كلهم مطالبون بالإيمان بالغيب والإيمان بالوحي كله وباليوم الآخر ، وقد ذكرنا حكمة التفصيل بذكر الإيمان بالوحي كله وباليوم الآخر مع أنهما داخلان في الإيمان بالغيب ؛ نعم قد يكون من حكمة ذكر قوله تعالى ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ البيان لأهل الكتاب ولأصناف من الناس قد لا يعتبرون الإيمان بالآخرة ضرورياً ، قد يكون من جملة الحكم في التفصيل البيان لهؤلاء جميعاً أن التقوى لابد فيها من إيمان بالوحي كله وباليوم الآخر هذا مع الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق والاهتداء بكتاب الله .

(هـ) في قوله تعالى ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ يصح الوقوف على قوله تعالى ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب** ﴾ كما يصح الوقوف على ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ فإذا وقفنا على ﴿ **لاريب** ﴾ كان المعنى : هذا القرآن الذي لا يدانيه كتاب بلاشك ، فيه هدى للمتقين وفي هذه الحالة يكون في الآية إشارة إلى أن المتقين يأخذون هداية أخرى نفهمها من نصوص الكتاب ذاته إذ المتقون مكلفون بالاهتداء بالسنَّة مع الكتاب ، وبما أحال عليه الكتاب والسنَّة من طرق الاهتداء إلى حكم الله . أما الوقوف على قوله تعالى : ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ فإنه يفيد أن أصل الريب منفي عن هذا الكتاب ، بينما على الوقف الأول ، فإن الشك منفي عن أن هذا الكتاب يدانيه كتاب آخر ، ثم إن قوله تعالى : ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ في الوقف على ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ يعطينا أن هداية المتقين محصورة في الكتاب ، ولا تنافي بين المعاني فهداية المتقين محصورة في الكتاب . ولكن الكتاب هداهم إلى اعتماد السنَّة والاهتداء بها ، وإلى اعتماد الإجماع والاهتداء به ، وإلى اعتماد القياس وغيره . وهكذا نرى أنه من خلال الوقف فقط عرفنا معاني متعددة يكمل بعضها بعضاً ويفسر بعضها بعضاً ، وسنرى هذا وغيره فندرك كيف أنه من خلال الوقف ، ومن خلال القراءات المتعددة ، ومن خلال السياق الخاص ، ومن خلال السياق العام ، تتولّد عن هذا القرآن معاني لا نهاية لها ، وكل هذا مع تيسير الفهم لكتاب الله ، لكل طبقات الناس ، بحيث يأخذ كل من مائدة القرآن ثم هي تبقى بلا نفاد .

(و) **قال قتادة** في نعت المنافق : « خَنِع الأخلاق يصدق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله ، يصبح على حال ويمسي على غيره ، ويمسي على حال ويصبح على غيره ، ويتكفَّأ تكفأ السفينة كلما هبت ريح هبت معها » .

وقال مالك : المنافق في عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم ..

ونقل ابن كثير – عن بعض العلماء – أن المنافقين بعد رسول الله ﷺ إذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون أنهم يقتلون ...

وقال ابن كثير : « وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر ، هل يستتاب أم لا ؟ أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا ؟ أو يتكرر منه ارتداده أم لا ؟ أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظهر عليه ؟ » وسنتحدث عن هذا

الموضوع في سورة الأحزاب عند قوله تعالى : ﴿ **لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثُقِفوا أخذوا وقُتّلوا تقتيلاً** ﴾ .

(ز) فرّق بعض العلماء بين النفاق الاعتقادي والنفاق العملي ، والحقيقة أن النفاق حالة قلبية تنبثق عنها أخلاقيتها ، كما أن الكفر حالة قلبية تنبثق عنها أخلاقيتها ، وكذلك الإيمان حالة قلبية تنبثق عنها أخلاقيتها . فمن أخلاقية النفاق ما ذكره لنا رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة « آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » . وكذلك ما أخرجه البخاري وغيره عن عبد الله بن عمرو : أن النبي ﷺ قال : « أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خَصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان . وإذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » ، فهذه أخلاقيات النفاق التي تدل على وجوده ، ومن الحديث الأخير ندرك أن علينا أن نفرق بين النفاق الخالص والنفاق المخالط ، وفي الأصل فإن علينا أن نفرق بين الزَلَّة العارضة والخلق الدائم .

(هـ) من ذكر التجارة في قوله تعالى : ﴿ **أُولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** ﴾ نفهم فهماً بعيداً لا ينصب عليه السياق أن من عوامل النفاق وأسبابه الرغبة في الدنيا ، والحرص عليها ، وأنهم باعوا دينهم بمنفعة أو مصلحة .

٦ - كلمة في السياق

(أ) جاءت مقدمة سورة البقرة بعد سورة الفاتحة مباشرة فأرتنا النموذج الذي ينبغي أن نكونه ، وعرفتنا على نموذجين لا ينبغي أن نكون من أهلهما ، ولنلاحظ خاتمة سورة الفاتحة :

﴿ **اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾فهؤلاء رأينا نموذجهم الفقرة الأولى عن المتقين .

﴿ **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ . وقد رأينا نماذج ذلك في الفقرتين الثانية والثالثة من مقدمة سورة البقرة ، فالكافرون مغضوب عليهم وضالون ، والمنافقون مغضوب عليهم وضالون ، ولا يتعارض هذا مع كون المغضوب عليهم على الأخص

اليهود ، والضالون على الوجه الأخص هم النصارى ، لأن جميع الكافرين والمنافقين على الوجه العام مغضوب عليهم وضالون .

(ب) وقبل الفقرة الأخيرة من الفاتحة يأتي قوله تعالى ﴿ **إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين** ﴾ وسنرى أن القسم الأول من أقسام البقرة مبدوء بدعوة الناس جميعاً إلى العبادة ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ فالصلة بين سورة البقرة والفاتحة على أكثر ما تكون وأدق ما تكون .

(جـ) يلاحظ أنه بعد أن قسَّم الله عز وجل الناس إلى أصناف ثلاثة ، يأتي القسم الأول من أقسام سورة البقرة ليدعو إلى سلوك الطريق الذي يحررهم من أن يكونوا كافرين ، أو منافقين ، ويجعلهم مؤمنين متقين فلننتقل للكلام عن القسم الأول من أقسام سورة البقرة :

☆ ☆ ☆

القسم الأول من أقسام سورة البقرة :

ويمتد من الآية (٢١) إلى نهاية الآية (١٦٧) حيث يأتي قوله تعالى :

﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾

كلمة في القسم الأول من أقسام سورة البقرة :

ترد كلمة ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ مرتين في سورة البقرة : مرة في بداية القسم الأول : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ ، ومرة في بداية القسم الثاني : ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً** ﴾ ، وهذا الابتداء هو إحدى العلامات التي دلتنا على القسم الأول والثاني .

والعلامة الثانية التي دلتنا على نهاية القسم الأول ، هو انتهاؤه بنفس معاني الابتداء .

البداية هي قوله تعالى :

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ .

والنهاية هي قوله تعالى :

﴿ وإلـهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ .

لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى في البداية : ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ قال ابن عباس في تفسيرها : وحِّدوا ربكم .

– **﴿ إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثَّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .**

لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى في البداية ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾

وبعد آية الخلق يأتي قوله تعالى في نهاية القسم : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبِّ الله والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب * إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطَّعت بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار** ﴾ .

لاحظ صلة قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً** ﴾ هنا بقوله تعالى في بداية القسم ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ فهذه العلامة الثانية التي دلتنا على أن ههنا نهاية القسم الأول من سورة البقرة .

والعلامة الثالثة هي :

أننا لاحظنا أن مقدمة سورة البقرة وهي تشكل كلا بالنسبة للسورة انتهت بفقرة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس** ﴾

ونلاحظ هنا أنه لأول مرة في سورة البقرة بعد المقدمة يأتي قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس** ﴾ في الآيات التي مرت معنا ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً** ﴾ ، فهذا كذلك مما دلنا على أن القسم الأول من سورة البقرة ينتهي هنا .

والعلامة الرابعة التي دلتنا على القسم الأول بداية ونهاية هي المعاني : فهذا القسم كما سنرى من خلال المعاني يتألف من ستة مقاطع كل مقطع مرتبط بما قبله وبما بعده بوشائج وصلات فلنستعرض بعض معاني المقاطع لنرى كيف أنها تدلنا على أنها مع بعضها تشكل قسماً من الأقسام : يبدأ المقطع الأول بدعوة الناس جميعاً إلى سلوك طريق العبادة والتوحيد ، ليكونوا من المتقين ، مقيماً عليهم الحجة من خلال إعجاز القرآن محذراً ومنذراً ومبشراً ، ثم يبين لهم العوامل التي تحول بين الإنسان وبين الهداية ، مقيماً الحجة على الكافرين بكفرهم ، ثم يأتي المقطع الثاني : وفيه قصة آدم التي نهايتها ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون *** ﴾ وهي تبين أن الوضع العادي للإنسان أن يكون مهتدياً بهدى الله ، وبالتالي فشيء عادي أن يكون الإنسان من المتقين بسلوك طريق ذلك .

ثم بعد ذلك يأتي مقطعان :

مقطع فيه قصة بني إسرائيل ، وهي لأمة جاءها وحي ففرطت فيه ، ومقطع فيه قصة إبراهيم (عليه السلام) وفيه نموذج على من قام بحق الوحي قياماً كاملاً : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن** ﴾ أي قام بهن كلهن وفي كل من المقطعين تأخذ هذه الأمة دروساً .

وقصة إبراهيم (عليه السلام) التي فيها بناء الكعبة ، تصل بنا إلى مقطع جديد حول

قبلة المسلمين ودروس ذلك ، وذلك هو المقطع الخامس .

ثم يأتي المقطع السادس ، وفيه توجيهات مباشرة للمسلمين لها صلة بكل ما مرَّ قبل ذلك في السورة .

فالمعاني إذن هي العلامة الرابعة التي دلتنا على القسم ابتداءً وانتهاءً ولئن اختصرنا وبسطنا فمن أجل مجرد وضع أساس وسيتضح الأمر لنا شيئاً فشيئاً .

ومما مرَّ ندرك أن القسم الأول يتألف من ستة مقاطع - ذلك اجتهادنا - فلنبدأ بعرض المقطع الأول .

المقطع الأول من القسم الأول :

يمتد هذا المقطع من الآية (٢١) إلى نهاية الآية (٢٩) وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً

وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا

لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم

مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟

ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ

كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟

بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

١ - كلمة إجمالية في هذا المقطع وسياقه

بعد أن عدَّد الله في مقدمة السورة فِرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين ، وذكر صفاتهم وأحوالهم وما اختصت به كل فرقة أقبل عليهم بالخطاب داعياً إياهم إلى عبادته وتوحيده دالاً لهم على طريق الكون من المتقين مقيماً عليهم الحجة ، على أن كتابه لا ريب فيه ، مبشراً المستجيبين له بما أعدَّه لهم مبيناً الأسباب الحقيقية لضلال الضالين من كافرين ومنافقين ، ومناقشاً الكافرين مقيماً عليهم الحجة ، فإذا كانت مقدمة البقرة قد قررت بعض المعاني تقريراً فهذا المقطع كان دعوة وإقامة حجة .

٢ - المعنى الحرفي

وسنعرض فيه المقطع على ثلاث مراحل كل مرحلة نعرض فقرة **وتعقيباً** على محل الفقرة في السياق .

الفقرة الأولى :

﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ أي اعرفوه ووحدوه وأدّوا له حقوق الربوبية بعبادتكم إياه. قال ابن عباس : كل عبادة في القرآن توحيد . أقول : ولا توحيد إلا

بمعرفة ، والمعرفة تقتضي القيام بحقوق المعبود . ﴿ **الذي خلقكم والذين من قبلكم** ﴾ . الخلق هو إيجاد المعدوم على تقدير واستواء ، وتذكيره إيانا بخلقنا وخلق مَن قبلنا في سياق الأمر بالعبادة تهييج لنا على العبادة وتبيان أن من خلق هو الذي يستحق العبادة . ﴿**لعلكم تتقون** ﴾ لعل في أصل اللغة للترجي والإطماع ولكنه في القرآن إطماع من كريم ، فيجري مجرى وعده المحتوم وفاؤه ، فمن عرف الله حق المعرفة ووحَّده حق التوحيد ، وعبده حق العبادة ، وحققه الله عز وجل بالتقوى كان من المفلحين ، ففي الآية دعوة للناس جميعاً أن يكونوا من الفئة الأولى التي ذكرت في مقدمة سورة البقرة - فئة المتقين - وذلك بسلوك طريق ذلك ، وطريق ذلك معرفة الله وتوحيده وعبادته . وقد عرفهم على ذاته بأنه خالقهم وخالق من قبلهم ، ثم أكمل التعريف على ذاته بقوله : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً** ﴾ معنى جعل : صيَّر . والفراش كالبساط قال الألوسي : ومعنى صيَّرها فراشا أي كالفراش فى صحة القعود والنوم عليها قال السيوطي : أي بساطاً يفترش لا غاية في الصلابة أو الليونة فلا يمكن الاستقرار عليها ، قال القرطبي : وما ليس بفراش كالجبال والأوعار والبحار فهي من مصالح ما يفترش منها لأن الجبال كالأوتاد .. والبحار تركب إلى سائر منافعها ، ﴿ **والسماء بناءً** ﴾ . قال القرطبي : وكل ما علا فأظل قيل له سماء أقول : وقد شبهت السماء بالبناء في الآية لدقة إحكامها وكمال ترتيبها ﴿ **وأنزل من السماء ماء** ﴾ أي من السحاب ﴿ **فأخرج به** ﴾ أي بالماء ﴿ **من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ ، وهذا يقتضي منكم معرفة وعبادة وتوحيداً . ولذلك قال تعالى ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً** ﴾ الند : المثل ، ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوىء ﴿ **وأنتم تعلمون** ﴾ أنها لا تخلق شيئاً ولا ترزق ، وأن الله هو الخالق والرازق فهو صاحب الحق بالعبادة ويمكن أن يكون التقدير : فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم من أهل العلم بأصل الفطرة بأن الله هو المستحق للعبادة وحده .

ثم بعد أن عرّفهم على ذاته من خلال ظاهرتي الخلق والعناية ، بما يثبت الوحدانية ويبطل الإشراك ويستوجب العبادة ويستأهل التقوى ذكر ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ وما يقرر إعجاز القرآن مما يستوجب السير على هداه لتحقيق التقوى وذلك في قوله تعالى :﴿ **وإن كنتم في ريب** ﴾ أي في شك ﴿ **مما نزّلنا على عبدنا** ﴾ العبد اسم لمملوك من جنس العقلاء والمراد به في الآية محمد ﷺ وكلمة ﴿ **نزّلنا**﴾ تفيد التنزيل التدريجي المنجم ﴿**فأتوا بسورة من مثله**﴾ السورة هي : الطائفة من القرآن المترجمة أي المعنونة

التي أقلها ثلاث آيات ﴿ **وادعوا شهداءكم** ﴾ الشهيد هو : الحاضر أو القائم بالشهادة ﴿ **من دون الله** ﴾ أي غير الله ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ في دعواكم ، ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا** ﴾ : بأن تأتوا بسورة من مثله ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة** ﴾ . الوقود : ما توقد به النار من مثل الحطب ، ومعنى وقودها الناس والحجارة : أنها نار ممتازة عن غيرها من النيران ، بأنها تتقد بالناس والحجارة وهي إما حجارة الكبريت فهي أشد توقداً ، وأبطأ خموداً ، وأنتن رائحة ، وألصق بالبدن ، وإما الأصنام المعبودة فهي أشد تحسيراً ، أو هي هذه وهذه وكل ذلك اتجاهات للمفسرين ﴿ **أُعِدَّت للكافرين** ﴾ أي هُيئت لهم ، وفي ذلك دليل أن النار مخلوقة موجودة الآن ، وبعد أن بيَّن الله عز وجل طريق تقواه ، وأقام الحجة على وجوبها ، وبين أن هذا القرآن لا ريب فيه ، وتوعد الكافرين ، فكأنه لم يعد هناك مبرر لإنسان في ألا يؤمن ويعمل صالحاً ، ومن ثَمَّ فقد توجه الخطاب لرسول الله ﷺ أن يبشر هؤلاء العاملين :

﴿ **وبشِّر** ﴾ الأمر لرسول الله ﷺ ابتداءً ولكل مسلم انتهاءً بحكم أن للمؤمنين أسوة برسول الله فهو قدوتهم ، والبشارة : الإخبار بما يظهر سرور المخبَر به ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ : الذين آمنوا بالغيب ، وآمنوا بما أنزل على محمد ﷺ ، وما أُنْزل من قبل ، وآمنوا بالآخرة وعملوا الصالحات ؛ من إقامة صلاة وإنفاق وذلك كله قُرِّرَ من قبل والصالحات في الاصطلاح الشرعي : كل ما استقام من الأعمال بدليل الكتاب والسنَّة ، وعطف العمل الصالح على الإيمان دليل على أن الإيمان غير العمل الصالح . ﴿ **أَنَّ لهم جَنّاتٍ** ﴾ . الجنة في اللغة : البستان من الشجر المتكاثف وسميت دار الثواب جنة لما فيها من الأشجار ، وقد جمعت في الآية ونكرت لاشتمالها على جنان كثيرة مرتبة مراتب بحسب أعمال العاملين ، لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان ودار الثواب مخلوقة من قبل موجودة الآن . رزقنا الله إياها ، قال علماء أصول الدين : ولا نجعل للمؤمن العاصي صاحب الكبيرة بشارة مطلقة بل نثبت بشارة مقيدة بمشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ثم يدخله الجنة ﴿ **تجري من تحتها الأنهار** ﴾ النهر هو : المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر والجري : الاطراد . قالوا : وأنهار الجنة تجري في غير أخدود من تحت أشجار الجنة وأنزه البساتين ما كانت أشجارها مظلة والأنهار في خلالها مطردة ، والماء الجاري من النعمة العظمى واللذة الكبرى ولذا قرن الله تعالى الجنات بذكر الأنهار الجارية وقدمه على سائر نعوتها ﴿ **كلما رُزِقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رُزِقنا من قبل وأُتوا به متشابهاً** ﴾ هذه الجنات لها ثمار أجناسها

أجناس ثمرات الدنيا وإن تفاوتت إلى غاية لا يعلمها إلا الله ، وإنما كانت ثمار الجنة مثل ثمار الدنيا ، ولم تكن أجناساً أُخرى لأن الإنسان بالمألوف آنسُ وإلى المعهود أميل ، وإذا رأى فيه مزية ظاهرة وتفاوتاً بيِّناً كان تعجبه أكثر واستغرابه أوفر . وقوله تعالى ﴿ **من قبلُ** ﴾ أي من قبل ذلك مما رزقوه في الدنيا والآخرة ﴿ **وأتوا به متشابهاً** ﴾ يشبه بعضه بعضاً في المنظر والطعم مختلف ﴿ **ولهم فيها أزواج مطهرة** ﴾ من مساوىء الأخلاق ، ومما يختص بالنساء في الدنيا من حيض واستحاضة ، ومما لا يختص بالمرأة من البول والغائط وسائر الأقذار والأدناس ، ومطهرة أبلغ من طاهرة لأنها تكون للتكثير وفيها إشعار بأن مُطهراً طهرهن وما ذلك إلا الله ﴿ **وهم فيها خالدون** ﴾ الخلد والخلود البقاء الدائم الذي لا ينقطع ، فالجنة باقية ولكنها مخلوقة ، وهي باقية بإبقاء الله ، والله باقٍ وبقاؤه واجب وليس لوجوده ابتداء فهو الأول .

عن ابن عباس قال : لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا الأسماء « وفي رواية : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء » **وعن ابن مسعود** في قوله تعالى ﴿ **وأُتوا به متشابهاً** ﴾ قال : في اللون والمرأى وليس يشتبه في الطعم ، وقال يحيى بن كثير فيها : يؤتى أحدهم بالصحفة من الشيء فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيقول هذا الذي أتينا به من قبل فتقول الملائكة : كُلْ فاللون واحد والطعم مختلف ، وقال مجاهد في تفسير قوله تعالى ﴿ **ولهم فيها أزواج مطهره** ﴾ من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد .. نسأل الله أن يجعلنا من أهل جنته وأن يقينا ناره .

كلمة في السياق :

- قَسَّمتْ مقدمة سورة البقرة الناس إلى ثلاثة أقسام ثم جاءت الآيتان التاليتان للمقدمة تدعوان الناس إلى أن يكونوا من المتقين بسلوك طريق ذلك ، فأقامتا الحجة عليهم بلزوم السير في هذا الطريق من خلال ظاهرتي الخلق والعناية ، ثم في الآية اللاحقة أقامت عليهم الحجة في أن هذا القرآن من عند الله ، فأكملت الحجة على ضرورة السير ليكون الإنسان من المتقين ، ويُلاحظ أن بداية سورة البقرة كانت : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه** ﴾ وأن ههنا قد جاء قوله تعالى ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ فههنا يأتي الدليل على أن القرآن لا ريب فيه ، ويأتي الدليل الملزم على وجوب الإيمان بالوحي المنزل على محمد ﷺ وهي إحدى النقاط المذكورة في المقدمة ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك** ﴾ .

- وفي المقدمة ذكرت الآيات استحقاق الكافرين للعذاب ، واستحقاق المنافقين

للعذاب ، فقالت عن الكافرين ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ وعن المنافقين ﴿ **ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ . وفي الآيات التي جاءت بعد المقدمة ذكر فيها ماهية هذا العذاب ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعِدَّت للكافرين** ﴾ والمنافقون كفار بل هم شرُّ الكفار .

– لاحظ الصلة بين الأمر بالعبادة بعد المقدمة ، وبين صفات المتقين التي وردت في المقدمة ثم لاحظ الصلة بين قوله تعالى ﴿ **وممَّا رزقناهم ينفقون** ﴾ في المقدمة ، وبين قوله تعالى فيما بعد ﴿ **فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ ثم لاحظ أن مقدمة سورة البقرة بعد أن قررت أن القرآن لا ريب فيه ذكرت أن المهتدين به هم ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ ، وههنا بعد أن أقامت الآيتان السابقتان على آية الأمر بالبشارة الحجةَ على أن القرآن لا ريب فيه ، بَشَّر أهل الإيمان والعمل الصالح أي : الذين آمنوا بالغيب وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة واتبعوا الكتاب ، وبهذا عرفنا مظهر الفلاح الذي ورد في مقدمة سورة البقرة في حق المتقين ، وهو أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ..

وإذا عرفنا الصلة بين مقدمة سورة البقرة والفقرة الأولى من المقطع الأول من القسم الأول من أقسام سورة البقرة فلننتقل إلى الفقرة الثانية من المقطع :

الفقرة الثانية :

﴿ **إن الله لا يستحْيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها** ﴾

قال قتادة : أي إن الله لا يستحيي من الحق أن يذكر شيئاً مما قل أو كثر وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة : ما أراد الله من ذكر هذا ؟ فأنزل الله : ﴿ **إن الله لا يستحْيي أن يضرب مثلاً ..** ﴾ . فالمعنى إذن : أن الله لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها ، و ﴿ **ما** ﴾ في الآية إبهامية وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادته عموماً ﴿ **فما فوقها** ﴾ : أي فما تجاوزها في المعنى الذي ضربت فيه مثلاً وهو القلة والحقارة أو فما زاد عليها في الحجم ﴿ **فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم** ﴾ أي يعلمون أن المثل هو الحق من عند الله والحق هو : الثابت الذي لا يصح إنكاره . ﴿ **وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا** ﴾ أشعر سؤالهم الاستحقار ، وذلك من جهلهم بالله ،

والإرادة طلب النفس وميل القلب بالنسبة للإنسان ، وهي عند المتكلمين معنى يقتضي تخصيص الممكنات بوجه دون وجه ، والله تعالى موصوف بالإرادة : على الحقيقة عند أهل السنَّة . ﴿ **يُضِل به** ﴾ أي بالمثل ﴿ **كثيراً ويهدي به كثيراً** ﴾ دلت على أن فريق العالمين بأنه الحق ، وفريق الجاهلين المستهزئين به كلاهما موصوف بالكثرة ، وأن العلم بكونه حقاً من باب الهدى ، وأن الجهل بحسن مورده من باب الضلالة ، وأهل الهدى كثيرون في أنفسهم وإنما يوصفون بالقلة بالقياس إلى أهل الضلال ، والإضلال : خلق فعل الضلال في العبد ، والهداية : خلق فعل الاهتداء عند أهل السنَّة . ﴿ **وما يُضِلُّ به** ﴾ ، أي بالمثل ﴿ **إلا الفاسقين** ﴾ الفاسق في اصطلاح الفقهاء هو : الخارج عن الأمر بارتكاب كبيرة أو بإصرار على صغيرة وأما في الاصطلاح القرآني فإذا جاء في سياق الكلام عن الكافرين والمنافقين فالمراد به الكافر ، وإذا جاء حديثاً عن المسلمين العاصين فالمراد به المقصِّرون في الفعل أو في الترك . وههنا المراد به الكافرون والمنافقون ، وينسحب الكلام على المؤمنين ، لأنه كثيراً ما ينسحب الوعيد في حق الكافرين والمنافقين على عصاة هذه الأمة ممّن يوافقون الكافرين أو المنافقين في أمر هو معصية . ثم وصف الله – عز وجل – هؤلاء الذين يستحقون الإضلال بسبب فسوقهم فقال :

﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ النقض هو الفسخ وفك التركيب ، والعهد الموثق ، والضمير في ﴿ **ميثاقه** ﴾ يعود إلى العهد أو لله تعالى ، والميثاق من الوثاقة وهي : إحكام الشيء ، فإذا كان الضمير للعهد صار المعنى ينقضون عهد الله من بعد ما وثقوه به من قبوله وإلزامه أنفسهم ، وإذا كان الضمير (لله) صار المعنى : ينقضون عهد الله من بعد توثقته عليهم ، وعهد الله هو : إما ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد كأنه أمرٌ وصاهم به ، ووثقه عليهم ، وإما الميثاق بأنه إذا بعث رسولاً يصدقه بالمعجزات أن يؤمنوا ويتابعوا ، وإما أخذ الله العهد على ألا يُسفك دمٌ ظلماً وألا يكون بغي وفساد وتقطيع أرحام .

﴿ **ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ هو : قطعهم الأرحام وقطعهم موالاة المؤمنين ومن باب أولى موالاة الرسل ، فمن قطع ما بين الأنبياء من الوصلة والاجتماع على الحق فآمن ببعض وكفر ببعض فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل ، والأمر : طلب الفعل بقول مخصوص على سبيل الاستعلاء .

﴿ **ويفسدون في الأرض** ﴾ من أظهر مظاهر الإفساد في الأرض الدعوة إلى الكفر

والمعصية والفواحش ، والتعويق عن الإيمان .

﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ الخاسر هو : المغبون وهؤلاء مغبونون حيث استبدلوا النقض بالوفاء والقطع بالوصل والفساد بالصلاح والعقاب بالثواب .

كلمة في السياق :

١ - في مقدمة سورة البقرة ذُكر المتقون ، وذُكر أنهم هم المفلحون ، وذُكر الكافرون وأن لهم عذاباً عظيماً ، وذُكر المنافقون وأن لهم عذاباً أليماً ، وأنهم اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ، وههنا ذُكر أن من اجتمعت لهم صفات بعينها هم الخاسرون ، فدل ذلك على أن هذه الصفات التي ذكرت هنا صفات مشتركة بين المنافقين والكافرين ، وأنهم جميعاً فاسقون ، وفي الكلام عن الكافرين ذكر الله عز وجل أنه ختم على قلوبهم . وفي الكلام عن المنافقين ذكر الله عز وجل أنه ذهب بنورهم . وههنا بين الله عز وجل أنه لا يضل إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ، فعرفنا أنه ما ختم على قلوب الكافرين ولا ذهب بنور المنافقين إلا بسبب من أعمال ارتكبوها وطريق ساروا فيها فاستحقوا من الله ما استحقوا ، فهذا أول مظهر من مظاهر صلة الآيتين بما قبلهما .

٢ - مقدمة سورة البقرة ذكرت الذين يهتدون بالكتاب ، وهم من اجتمع لهم الإيمان بالغيب ، والصلاة والإنفاق . وفي هاتين الآيتين ذكر من لا يهتدي بالكتاب ، وهم الناقضون للعهد والقاطعون لما ينبغي وصله ، والمفسدون في الأرض ، وبالتالي فعلى الراغبين في الهداية أن يفعلوا شيئاً ، ويتركوا شيئاً وكل من الشيئين مفصّل محدّد ، وهذا مظهر ثانٍ من مظاهر الصلة بين هاتين الآيتين وما قبلهما ، فبعد أن دلّنا الله عز وجل على الطريق السالك نحو تقواه وعرّفنا على ماهية تقواه وبشّر المتقين ، دلّنا على طريق الضلال ليجتنب وذلك من خلال التعريف به جل جلاله .

٣ - جاءت هاتان الآيتان في سياق قوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ ورأينا أن الأمر بالعبادة أمر بالمعرفة بالضرورة ، وهاتان الآيتان جاءتا معرفتين على الله ، ولذلك بدأتا بقوله تعالى ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً** ﴾فعرّفتانا على الله عز وجل أنه يضل وأنه يهدي وأن إضلاله باستحقاق ، وذلك كله تعريف على الله وتصحيح لمفاهيم خاطئة عن الله عز وجل ، فهناك أناس يؤمنون بالله في زعمهم ولكنهم يعتقدون أن الله لا يتدخل في قضايا عباده ، أو في شأن توجيههم ، وهناك أناس يتصورون أن الله عز وجل لا يهتم بشؤون عباده وإذا اهتم فضمن حدود ، ويرون أن هناك أموراً لا تليق

به ، وكل ذلك من بنات أفكارهم ، وقد جاءت الآيتان تصحح ذلك كله ، ومن ثَمَّ فهي تُعرف على الله في سياق أمر الله للناس بالعبادة ، ومن ههنا ندرك صلة الآيتين ببداية المقطع ، وهذا شيء سنراه كثيراً من كون بداية المقطع لها صلة بكل آيات المقطع .

٤ - جاءت هاتان الآيتان بعد الآية التي أمر الله عز وجل بها رسوله ﷺ أن يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات فكان في هاتين الآيتين الإنذار المقابل للتبشير وذلك لمن ضلَّ عن طريق الله عز وجل ، وهكذا نجد كيف أن الآيتين مرتبطتان بما قبلهما مباشرة ومرتبطتان بمقدمة السورة بأقوى رباط .

والآن لننتقل إلى الفقرة الثالثة في المقطع الأول من القسم الأول من أقسام سورة البقرة .

الفقرة الثالثة :

المعنى الحرفي : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ؟** ﴾ الاستفهام بكيف هنا يفيد الإنكار والتعجب فكأنه قال : أتكفرون بالله وفيكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان ، والأموات : جمع ميْت كالأقوال جمع قول وهو عادم الحياة أصلاً ، وذلك حال كون الإنسان تراباً إذ النطفة من الغذاء ، والغذاء من التراب ، والحياة الأولى هي حال كون الإنسان في الرحم فما بعد ذلك حتى يموت . ﴿ **ثم يميتكم** ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ **ثم يحييكم** ﴾ للبعث ؛ ﴿ **ثم إليه ترجعون** ﴾ أي تصيرون إلى الجزاء ، أو التقدير : ثم يحييكم في قبوركم ثم إليه ترجعون للنشور . وإنما أنكر اجتماع الكفر مع ما ذكر ، لأن ما ذكر يقتضي شكراً وخشية ، لا كفراً وإدباراً وغفلة . ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ أي لأجلكم ولانتفاعكم به في دنياكم ودينكم ، أما في دنياكم فظاهر إذ ما من شيء إلا وهو لصالح الإنسان بشكل من الأشكال ، وأما في دينكم فلما يؤدي النظر في ذلك إلى معرفة بالله وتذكر للآخرة ، فملاذّ الدنيا تذكِّر بثواب الآخرة ، ومكارهها تذكِّر بمكارهها ﴿ **ثم استوى إلى السماء** ﴾ أي أقبل وعمد إلى خلق السمٰوات بعدما خلق ما في الأرض من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر والمراد بالسماء جهات العلو كأنه قيل ثم استوى إلى فوق ﴿ **فسوَّاهنَّ سبع سماوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ معنى تسويتهن : تعديل خلقهن وتقويمه وإخلاؤه من العوج والفطور أو إتمام خلقهن ، ومن فعل هذا كله كان علمه محيطاً فليتق الإنسان الله الذي يعلم كل شيء فيعلم تقلبه في كل حال وسره وعلانيته .

كلمة في السياق :

١ - بدأت الفقرة الأولى من هذا المقطع بالدعوة إلى عبادة الله وتوحيده وجاءت الفقرة الثانية فزادتنا تعريفاً على الله ثم جاءت الفقرة الثالثة فناقشت الكافرين بالله ، وأقامت عليهم الحجة من خلال ظاهرتي الحياة والعناية .

٢ - يلاحظ أن المقطع بدأ بقوله تعالى ﴿ **الذي خلقكم والذين من قبلكم** ﴾ وأن الآيتين الأخيرتين منه بدأتا بالتذكير بذلك ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم** ﴾ ، والآن لنحاول أن نبحث عن حكمة تسلسل فقرات المقطع :

في الفقرة الأولى ذكر الطريق إلى الله كاملاً ، ومن جملة ما ذكر في الفقرة الأولى وجوب معرفة الله وإقامة الحجّة على أن القرآن لا ريب فيه ، وجاءت الفقرة الثانية في سياقها الرئيسي فزادت معرفتنا بالله ونفت شبهة عن هذا القرآن ، وجاءت الفقرة الثالثة لتناقش الكافرين في كفرهم بالله ، وتأخير الفقرة الثالثة فيه إشارة إلى أن باطل الأباطيل الكفر بالله ، فقد جاءت الفقرة الثالثة بعد قوله تعالى ﴿ **وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ ، فمجيء قوله تعالى ﴿ **كيف تكفرون بالله ..** ﴾ بعد ذلك فيه إشارة إلى أن السبب الأول في ضلال الكافرين والمنافقين هو الكفر بالله ، وهكذا نجد أن الفقرة اللاحقة تخدم في كل ما سبقها وجميع الفقرات على غاية من التلاحم مع بعضها ، والمقطع كله كما رأينا شديد الصلة بالمقدمة .

٣ - فـوائـد

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً** ﴾ ننقل هذه النقول : في الصحيحين عن ابن مسعود قال : « قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك » . وفي حديث معاذ : « أتدري ما حق الله على عباده ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » وفي الحديث « لا يقولنَّ أحدكم ما شاء الله وشاء فلان ولكن ليقل ما شاء الله ثم شاء فلان » . وعن ابن عباس قال : قال رجل للنبي ﷺ : « ما شاء الله وشئتَ قال : أجعلتني لله نِدًّا قل : ما شاء الله وحده » وأخرج ابن مردويه والنسائي وابن ماجه عن الطفيل بن سخبرة قال : رأيت فيما يرى النائم كأني أتيت على نفر من اليهود فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن اليهود . فقلت : إنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون عزير ابن الله ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم

تقولون : ماشاء الله وشاء محمد . قال : ثم مررت بنفر من النصارى فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن النصارى . قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد . فلما أصبَحْتُ أخبرتُ بها مَن أخبرت ثم أتيتُ النبي ﷺ فأخبرته فقال : هل أخبرت بها أحداً ؟ قلت : نعم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا : ما شاء الله وحده .

وقال ابن عباس في تفسيره قوله تعالى ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً** ﴾ « الأنداد هو الشرك . أخفى من دبيب النمل على صَفَاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها (فلان) . هذا كله به شرك » أقول : وقد غرقت كثير من البيئات في مخلات التوحيد الكبرى أو الصغرى ، فعلىٰ العلماء أن يتقوا الله فيقوموا بكل ما يحمي جناب التوحيد كأعظم واجب على الإطلاق ، ولنختم هذه النقول بهذا النص :

أخرج الإمام أحمد بإسناد قال عنه ابن كثير : إنه حسن ، عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن ، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، وأنه كاد أن يبطىء بها ، فقال عيسى عليه السلام : إنك قد أُمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن ، فقال : يا أخي ، إني أخشى إن سبقتني أن أُعذب أو يُخْسَفَ بي . قال فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد ، وقعدوا على الشُرَف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن : أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل ذلك كمثَلِ رجل اشترى عبداً من خالص ماله بورِق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله خلقكم ورزقكم ؛ فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت ؛ فإذا صليتم فلا تلتفتوا .وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك مثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسَرَه العدو فشدوا يديه إلى

عنقه وقدموه ليضربوا عنقه وقال لهم : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه . وأمركم بذكر الله كثيراً ، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره فأتى حصناً حصيناً فتحصَّن به وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله . قال : وقال رسول الله ﷺ : « وأنا آمركم بخمس ؛ الله أمرني بهن : الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله ، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جِثِيِّ جهنم قالوا : يا رسول الله ، وإن صام وصلى ؟ فقال : وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فادعوا المسلمين بأسمائهم على ماسماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله » .

٢ – قوله تعالى ﴿ **فأتوا بسورة من مثله** ﴾ يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم ، كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه ، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها ، فكل سورة من القرآن معجزة ، لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة ، بل ما كان في حجم السورة القصيرة من السور الطوال ، يقوم به الإعجاز وتثبت به الحجة . ولقد تحدى القرآن العرب – والتحدي للعرب تحدٍّ للناس جميعاً من باب أولى ؛ لأنهم أفصح الأمم والقرآن بلغتهم – مرات عديدة أن يأتوا بشيء مثله ، ومع شدة عداوتهم له وبغضهم لهذا الدين عجزوا عن ذلك . ولقد قال تعالى ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا** ﴾ ولن : تفيد النفي المؤبَّد في المستقبل أي : ولن تفعلوا ذلك أبداً ، وهذه أيضاً معجزة أخرى ، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً مقدماً غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يُعارَض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين . وكذلك وقع الأمر ، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن ، وأنىَّ يتأتَّى ذلك لأحد ؛ والقرآن كلام الله خالق كل شيء وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز وجوهاً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى وسنرى ذلك في هذا التفسير حيث جاءت مناسبة . في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » ا هـ . وذلك لأن معجزات الرسل خارجة عن ماهية الوحي أما في رسالة رسولنا فالقرآن نفسه معجزة بل معجزات .

٣ - **قال ابن مسعود** في تفسير قوله تعالى ﴿ **وقودها الناس والحجارة** ﴾ : « هي حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السمٰوات والأرض في السماء الدنيا يعدها للكافرين » رواه ابن جرير .

وأخرج الإمام مسلم عن ابن مسعود قال : سمعنا وجبة فقلنا ما هذه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هذا حجر ألقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى مقرها » . أقول : فهذا دليل على أن النار موجودة الآن ، وأن الصحابة كان يكشف عن أسماعهم فيسمعون شيئاً من أمر الغيب .

٤ - سيقت آية ﴿ **إن الله لا يستحْيي أن يضرب مثلاً ما** ﴾لبيان أن ما استنكره الجهلة من الكفار ، واستغربوه من أن تكون المحقَّرات من الأشياء مضروباً بها المثل ، ليس بموضوع للاستنكار والاستغراب ؛ لأن التمثيل إنما يُصار إليه لما فيه من كشف المعنى ، وإدناء المتوهم من المشاهد ، فإن كان المتمثَّل له عظيماً كان المتمثَّل به كذلك ، وإن كان حقيراً كان المتمثَّل به كذلك ، ألا ترى أن الحق لما كان واضحاً جلياً تمثل له بالضياء والنور ، وإن الباطل لما كان بضد صفته تمثل له بالظلمة ؟ ولما كانت حالة الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله لا حالَ أحقر منها وأقل ، ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهَن ، وجعلت أقل من الذباب ، وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلاً فمثل هذا التمثيل لا يستنكر ولا يستبعد ، إذ المثل مضروب في محلّه مسوق على قضية مضربه ، كما سيقت الآية لبيان أن المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والنظر في الأمور بناظر العقل ، إذا سمعوا بهذا التمثيل علموا أنه الحق ، وأن الكفار الذين غلب عليهم الجهل والإثارة الغوغائية ، إذا سمعوه كابروا وعاندوا وقضوا عليه بالبطلان وقابلوه بالإنكار ، غوغائية وتشويشاً دون مبرر . فلم يزل الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وخشاش الأرض فقالوا : أجمع من ذرة ، وأجرأ من الذباب ، وأسمع من قراد ، وأضعف من فراشة ، وآكل من السوس ، وأضعف من البعوضة ، وأعز من مخ البعوضة ، والله جل شأنه خاطب البشر من حيث ما ألفوه من فنون الخطاب ، فبدلاً من أن يشكر الإنسان الله على ما قرَّب إليه من معانٍ ، كفر !! وما أكثر ما نرى المحجوج والمبهوت يدفع الواضح وينكر اللائح .

٥ - ذكر الله عز وجل ثلاث صفات استحق بها - من استحق - الضلال وهي صفات مشتركة في الكافرين والمنافقين ، والحديث الشريف ذكر أن للمنافقين ثلاث

خصال ، ولأبي العالية جمع لطيف بين هذه الصفات جميعاً يقول أبو العالية فيما ذكره ابن كثير :

« ست خصال من المنافقين إذا كانت فيهم الظَّهرة على الناس أظهروا هذه الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا ائتمنوا خانوا ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل وأفسدوا في الأرض . وإذا كانت الظَّهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث إذا حدثوا كذبوا وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا ائتمنوا خانوا » . وفيما ذهب إليه أبو العالية دليل لما ذهبنا إليه أن الآية في الفقرة الثانية شملت الكافرين والمنافقين ، ومن درس حال من تنطبق عليهم صفات المنافقين المتقدمة في مقدمة السورة قبل وصولهم إلى حكم البلاد في عصرنا وبعد الوصول إلى الحكم عرف مصداق ما ذكره أبو العالية .

٦ - في قوله تعالى عن الفاسقين في الفقرة الثانية من المقطع .. ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ قال ابن جرير : « الخاسرون جمع خاسر وهم : الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته ، كما يخسر الرجل من تجارته بأن يوضع من رأسماله في بيعه وكذلك المنافق والكافر خسرا بحرمان الله إياهما رحمته التي خلقها لعباده في القيامة وهم أحوج ما كانوا إلى رحمته » .

وقال الضحاك عن ابن عباس « كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر فإنما يعني به الكفر ، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذنب » أقول : وهذا شيء مهم جداً في فهم النصوص فكثير من الناس غلطوا فكفروا عصاة المؤمنين بسبب عدم فهم مثل هذه الدقائق .

٧ - قال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **ربنا أمتَّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين** ﴾ قال : كنتم تراباً قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة ، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى ، فهذه ميتتان وحياتان فهو كقوله ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً ..** ﴾ نقل هذا التفسير ابن كثير وهو نص مهم في تفسير الآيتين ، لأن بعض المفسرين فسر الموتة الأولى : بأنها عندما كان الإنسان نطفة فاستغل ذلك بعض المضللين بأن أصبح يقول : إن النطفة فيها حياة فكيف تعتبر ميتة بينما تفسير ابن عباس يجعل الموتة الأولى مرحلة ما قبل النطفة مرحلة الترابية ، إذ ذرات النطفة قبل أن تتخلق كانت غذاءً ، وقبل ذلك كان

الغذاء تراباً وهواءً وماءً ، وذلك كله عديم حياة وإذن فهذا التفسير عن ابن عباس أبعد عن الإشكال .

٨ - استدل الكرخي وأبو بكر الرازي بقوله تعالى ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ على أن الأشياء التي يصح أن ينتفع بها خلقت مباحة في الأصل ومنه القاعدة : « الأصل في الأشياء الإباحة » وهذا مبحث من مباحث علم أصول الفقه .

٩ - النصوص القرآنية قطعية الدلالة في أن السمٰوات والأرض خلقت في ستة أيام ، ولكن لم يرد نص في الكتاب والسنَّة يوضح ماهية هذه الأيام الستة ، وماذا تم في كل واحد منها على التعيين ، نقول هذا لأن علماء الكون لهم كلام طويل في موضوع تطور الأرض حتىٰ وصلت إلى ما هي عليه فحتى لا يظن ظانّ أن هناك كلاماً قطعياً في الكتاب والسنَّة حول هذا الشأن فيعارض به الأبحاث العلمية أحببنا الإشارة إلى هذا الموضوع .

كل ما في الأمر أن هناك كلاماً عن أهل الكتاب في هذا الموضوع ، وهو كلام متناقض متهافت ساقط علمياً ، وفي كل الأحوال لا ينبغي أن يحسب على الكتاب والسنَّة أو على الإسلام بشكل عام ، وهناك قضية موهمة وهي أن الإمام مسلماً روى حديثاً في هذا الموضوع ، فلننقل الحديث وتعليق ابن كثير عليه لنعرف الخطأ في هذا الشأن :

عن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : « خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدوابَّ يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » **قال ابن كثير** : « وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم ، وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ وجعلوه من كلام كعب (أي كعب الأحبار اليهودي الأصل ثم أسلم) ، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار ، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعاً وقد حرر ذلك البيهقي » اهـ كلام ابن كثير . أقول : والنص إذا فهمناه على أنه شرح للأيام الستة وما حدث فيها فإنه يناقض القرآن لأن اليومين الأخيرين من الستة تمَّ فيهما خلق السمٰوات كما نص القرآن على ذلك في سورة فصلت ولهذا وغيره أنكره المُحدثون وعلى فرض صحة رفعه ، فإنه يحمل على تسلسل الخلق دون أن يعتبر تفسيراً للستة التي خلق الله بها السمٰوات والأرض ، وعلى ألا يعتبر ذلك

تسلسلاً متوالياً بل أن يفهم على أنه في سبت من السبوت تم خلق التربة ثم في أحد من أيام الأحد فيما بعد تم خلق الشجر ، والملاحظ أن هذا النص إذا فهم في إطاره الحرفي وعلى أنه تفسير للأيام الستة فإنه لا يتفق مع القرآن ، ولا حتى مع رواية ما يسمى الآن بالتوراة ، لأن التوراة المحرفة الحالية تزعم أن الله فرغ من الخلق يوم الجمعة ، وأنه لم يعمل شيئاً يوم السبت ، وعلى كل فقد رأيت ترجيح المحدِّثين لاعتبار النص كتابياً وليس حديثاً شريفاً . وهناك نص عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه وكان قبل إسلامه من أحبار اليهود يقول : « إن الله بدأ الخلق يوم الأحد فخلق الأرضين في الأحد والإثنين وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء وخلق السمٰوات في الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة » . ولنا على هذه الرواية أكثر من عودة فالأمر يحتاج إلى بحث طويل ولنا عنده وقفات .

٤ - فصول شتى

فصل في السمٰوات :

هناك ألفاظ لها في الأصل معانيها اللغوية ، ويعطيها الشارع معانٍ شرعية ، وأحياناً يستعملها الشارع بمعناها اللغوي ، وأحياناً بمعناها الشرعي الخاص الذي أعطاها إياه ، وهذا يقتضي دقة في الفهم عن الشارع . مثال ذلك : كلمة السماء فهي في أصل اللغة تدل على العلو ، والشارع يستعملها أحياناً بهذا المعنى، ثم هي في هذا المعنى تستعمل للدلالة على العلو القريب وأحياناً على العلو كله ، والشارع حدثنا عن السمٰوات السبع وهي من حيث إنها في جهة العلو تتفق مع أصل الوضع اللغوي ، ولكنها في اصطلاح الشارع تدل على شيء بعينه من مجموع هذا العلو .

في مجموع هذه الأمور زلت أقدام وتزل أقدام ويقع خطأ كبير ، وفي المقطع الذي مرّ معنا وردت كلمة السماء أربع مرات : ﴿ **والسماءَ بناءً وأنزل من السماء ماءً** ﴾ ، ﴿ **ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات** ﴾ وفي اجتهادي أن اللفظ الأول للسماء في الآية الأولى يراد به جهة العلو كلها ، واللفظ الثاني للسماء في نفس الآية يراد به السماء القريبة أي : منطقة تَشَكُّل السحاب . وأما اللفظ الأول للسماء في الآية الثانية فهو يوافق اللفظ الأول لها في الآية الأولى وأما السموات السبع فيراد بها السمٰوات في الاصطلاح الخاص . بعد هذا العرض السريع لهذا الموضوع فلنتحدث عن بعض مقولات علماء الطبيعة في عصرنا :

يقدر علماء الطبيعة أن عمر مجرتنا التي تشكل مجموعتنا الشمسية جزءاً منها حوالي

عشرة مليارات من السنين ، بينما يعتبرون أن عمر الأرض والشمس حوالي أربع مليارات ونصف من السنين ، فعمر الأرض إذن أقل بكثير من عمر المجرات ، فالسماء بمجموعها إذن أقدم من الأرض ، ونتيجة لهذا فإن بعض الدارسين وقع في حيرة ، بسبب أن القرآن يذكر أن السموات خلقت بعد الأرض ، وسبب الحيرة أنهم لم يفرقوا بين السماء بالمعنى الأعمّ والسمٰوات السبع بالمعنى الأخصّ ، فالنص القرآني يثبت أن السمٰوات السبع بالمعنى الأخص قد خلقت بعد الأرض ، ولكن القرآن يثبت كذلك أن الأرض قد خلقت بعد السماء بالمعنى الأعم .

لقد زعم بعض الباحثين أن السمٰوات السبع هي هذه المجرات أو هي الكواكب وهذا الذي أوقعهم في الخطأ مرتين ومن أجل وضع الأمور في نصابها نقول :

تُستعمل كلمة السماء في القرآن على أكثر من استعمال ، فأحياناً تطلق على ما علا ، فيدخل في ذلك الجو والنجوم والسمٰوات والمجرات ، وأحياناً تذكر ويراد بها السمٰوات السبع التي هي سكن الملائكة ، وإليها تعرج أرواح المؤمنين وإليها كان معراج رسول الله ﷺ ، والتي في أعلاها الجنة ، وسقفها عرش الرحمن ، وعدم التفريق بين المعنى الاصطلاحي للسمٰوات وهي هذه السبع وبين السماء مطلقاً كما هو معناها في اللغة مزلة قدم في فهم كتاب الله ، والسمٰوات الواردة في قوله تعالى ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات** ﴾ ، إنما هي السمٰوات في المصطلح الذي ذكرناه ، وهي سماوات يجب أن نؤمن بها فمن أنكرها كفر ، ولكن هل هي غيبية أو لا ؟ أو هي فوق المجرات كلها أو لا ؟ هذه كلها قضايا تحتملها النصوص وعبارات العلماء ، ولا يترتب عليه كفر أو إيمان وسنتعرض له في محله ولا يؤثر على العقيدة الجهل به ، ولكن هناك قضية تفرض نفسها في عصرنا وهي أن ظاهر الآية هنا — ويؤكد هذا المعنى الآيات الواردة في سورة فصلت — يذكر أن السمٰوات السبع خلقت بعد الأرض ، بينما قال الله تعالى في سورة النازعات : ﴿ **أأنتم أشد خلقاً ، أم السماءُ بناها * رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها** ﴾ فههنا ذكر دحو الأرض بعد خلق السماء والذي أتجه إليه في هذا الموضوع : أن السمٰوات السبع التي ذكرنا مواصفاتها خلقت بعد الأرض ، أما السماء ككل أي هذه المجرات فإنها خلقت قبل الأرض ويؤيد هذا الاتجاه أن الله — عز وجل — قد ذكر أن خلق السمٰوات والأرض قد كان قبله شيء آخر وذلك قوله تعالى في سورة هود ﴿ **وهو الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء** ﴾ وبهذا

الاتجاه الذي اتجهناه نكون قد جمعنا بين النصوص ، وبعد أن سجلت هذا الاتجاه في مسودة التفسير رايت أن الألوسي في تفسيره قد نقل عن بعض الإسلاميين ما يشبه هذا الاتجاه يقول في الصفحة (٢١٧) من الجزء الأول من تفسيره . « والذي يفهم من بعض عبارات القوم ... أن المحدد ويقال له سماء أيضاً مخلوق قبل الأرض وما فيها ، وأن الأرض نفسها خلقت بعد ، ثم بعد خلقها خلقت السمٰوات السبع ، ثم بعد السبع خلق ما في الأرض من معادن ونبات ، ثم ظهر عالم الحيوان ، ثم عالم الإنسان » أقول : هذا النقل يحتاج إلى نقاش في بعض أجزائه ولكنه يؤيد أصل ما اتجهنا إليه ، وينبغي أن يكون واضحاً أن القرآن يثبت قدم المجرات على تشكل الأرض ، وهذا من أعظم المعجزات التي تدل على أن هذا القرآن من عند الله .

فصل في إعجاز القرآن ومعجزاته :

رأينا أن الإعجاز شيء مشترك في القرآن كله ، ففي أصغر سورة أو بقدرها يقوم الإعجاز ، ويثبت التحدي ، وتقوم حجة الله عز وجل على الخلق بأن هذا القرآن من عنه الله ، ولكن هناك معجزات أخرى في هذا القرآن زائدة على أصل الإعجاز ، إن كل معنى في القرآن يستحيل أن يكون أثراً عن علم بشري ، سواء كان حديثاً عن ماضٍ أو آتٍ أو سر من أسرار هذا الكون يشكل في حد ذاته معجزة تزيد على مجرد الإعجاز ، إن الإعجاز حاصل في القرآن سواء وُجد إخبار عن مستقبل أو لا ، وُجد كلام عن قضية علمية أو لا ، فإذا وجد شيء من ذلك وجدت معجزة زائدة على الإعجاز الموجود في سور القرآن كلها ، وهذا معنى سيتضح شيئاً فشيئاً ، وإنما نبهنا على ذلك لأن كثيراً من المؤلفين يتساهلون في التعبير عن هذه الأمور ولا حرج في ذلك ، ولكنه كلام تقتضيه دقة العرض العلمي لهذا القرآن الكريم ، وبهذه المناسبة نقول : إن من أهم واجبات الدعاة في هذا العصر أن يعرفوا معجزات القرآن ، وأن يمتلكوا القدرة على فهم إعجازه ، وأن يحسنوا العرض لهذا كله ، فما من شيء أقرب من إقامة الحجة وأكثر تأثيراً في النفس من مثل هذا ، إن سيرنا في هذا الطريق وامتلاكنا ناصية البيان فيه يختصر لنا الطريق في الدعوة إلى الإيمان بالله وبالرسول ﷺ وبالإسلام بآنٍ واحد .

فصل في قضايا عقدية :

مر معنا في هذا المقطع قوله تعالى ﴿ **يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً** ﴾ فدل ذلك على أن الله عز وجل هو الذي يخلق الهداية والضلال ، على أن ذلك له أسبابه كما رأينا

﴿ **وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** .. ﴾ وهذا يؤيد ما اتجه إليه أهل السنَّة والجماعة في مسألة خلق الأفعال في أنهم يثبتون الأسباب ويسندون الخلق لله ، فكل شيء بعلمه جل جلاله وإرادته وقدرته ابتداءً واستمراراً ، ولقد رأينا النقول التي نقلناها بمناسبة قوله تعالى ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً** ﴾ وكيف أن الصحابة اعتبروا من مخلات التوحيد الاعتماد على الأسباب أو نسبة الأفعال إليها دون ملاحظة أن ذلك لم يكن إلا بالله .

وأهل السنَّة والجماعة يرون أن الإيمان هو التصديق ، ويعتبرون العمل بالإسلام علامة كمال ، ومن ثم فلا يحكمون بكفر من صدّق إذا أخلَّ إلا إذا كان في تصديقه خلل ، أو أتى ناقضاً يخلّ بأصل الإيمان ، ومن أدلتهم على ذلك قوله تعالى : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فالعطف في اللغة العربية يقتضي المغايرة ، ومن ثَمَّ فإن العمل الصالح غير الإيمان .

ولعل أحداً من الناس يضايقه ذكر مثل هذه المعاني ولهؤلاء نقول : إننا لسنا أمام خيار ، فلقد ثارت هذه المسائل في التاريخ وأثيرت وإما أن نقدم للمسلمين اليوم خلاصة التحقيق فيها ليكون عند المسلم مناعة ضد الخطأ ، أو نسكت فيقع المسلم في الاتجاهات الخاطئة ، ونحيل المسلم على رسالتنا « جولات في الفقهين الكبير والأكبر » ليرى فيها ضرورة ما ذكرنا .

فصل في بعض دروس مقدمة السورة والمقطع الأول من قسمها الأول :

رأينا في المقطع أن الله عز وجل أقام الحجة على الكافرين من خلال ظاهرتي الحياة والعناية ، وأقام الحجة على وجوب عبادته وتوحيده من خلال ظاهرتي الخلق والعناية ، وعرّفنا على أسباب الضلال ومظاهره ، وعرّفنا على طريق الهداية ومعالمها ، وطرق سمعنا خلال ذلك قضية التقوى وقضية العبادة كأهم قضيتين على الإطلاق ، ونحب هنا أن نضع بعض الأطر لنعرف محل قضية التقوى والعبادة في مجموع دين الله .

١ - ما من قضية من قضايا التكليف إلا وقد بينها الله عز وجل في كتابه أو سنَّة رسوله ﷺ أو بما أحال عليه الكتاب والسنَّة من أصول تستنبط منها أحكام الله ، وأن مجموع ذلك وغيره إنما هو إسلام أو من الإسلام .

٢ - إن أركان الإسلام الذي يقوم عليه بناؤه خمسة ، وقد ذكرت الفقرة الأولى من مقدمة سورة البقرة ثلاثاً منها .

٣ - إن مجموع ما يطالب به المسلم من مجموع الإسلام هو التقوى حقيقة وطريقاً والتقوى هي التي توصل إلى الشكر ، ويدخل فيها العمل بالإسلام والتحقق بالإيمان والارتقاء إلى مقام الإحسان ، وقد فصلنا هذا كله في كتابنا « تربيتنا الروحية » .

وباختصار نقول :

إن المسلم مكلف بأن يعرف الإسلام ، وأن يعرف شموله ، وأن يؤمن به ، ومكلف بأن يأخذ حظه من العمل بالإسلام ، وبأن يتحقق بالإيمان ، وبأن يسعى للإحسان ، وبأن يتحقق بحقيقة التقوى ، وأن يصل بذلك إلى مقام الشكر ، وهذه معانٍ نعرضها هنا باختصار وسنراها كثيراً فيما بعد ، وإنما أحببنا هنا أن نلفت النظر إلى مجمل ما درسناه بالنسبة لمجموع النصوص ، ولعله قد وضح لدينا أنه لكي لا نكون كافرين ولا منافقين : فإن علينا أن نتذكر عهودنا مع الله ولا ننقضها ، وأن نصل ما أمر الله به أن يوصل من رحم وأن نواد أهل الإيمان ونواليهم ، وأن علينا ألا نفسد في الأرض بصدٍّ عن سبيل الله أو بدعوةٍ إلى كفر ، وأن علينا أن نؤمن وأن نعمل صالحاً ، بإقام الصلاة والإنفاق والعبادة واتِّباع كتاب الله ، وأن نتذكر - إذا وقع في قلوبنا وسوسة - هذا القرآن وإعجازه ، وظواهر هذا الكون التي تدلنا على الله ، وأن نتذكر أن أمامنا ناراً أعدَّها الله للكافرين ، وسنرى كيف أن هذه المعاني كلها - مما ورد ههنا ومما سيرد في سورة البقرة - ستفصَّل فيه سور كثيرة .

كلمة أخيرة في المقطع الأول من القسم الأول :

مرَّ معنا حتى الآن من سورة البقرة مقدمتها والمقطع الأول من القسم الأول منها ، وقد رأينا صلة المقدمة بهذا المقطع وعمق الارتباط بين المقدمة وبين هذا المقطع ، ورأينا صلة ذلك كله بفاتحة الكتاب . هذا كله قد رأيناه ، والآن نحب أن نذكر شيئاً هو : أن هذا المقطع هو أول مقطع في القسم الأول من أقسام سورة البقرة ، وإذ كان هو المقطع الأول ،فإن صلته ببقية مقاطع القسم صلة خاصة حتى ليكاد يكون كل مقطع من المقاطع التالية يعمِّق معاني تعرَّض لها المقطع بشكل من الأشكال ، وسنرى ذلك كله تفصيلاً فلننتقل بعد هذه الإشارة إلى المقطع الثاني من القسم الأول من سورة البقرة ، وفيه قصة آدم ، وقد وصلنا إليها بعد أن وضح لدينا : « أن الإنسان سيِّد هذه الأرض ومن أجله خلق كل شيء فيها كما تقدَّم ذلك نصاً ، فهو إذن أعز وأكرم وأغلى من كل شيء مادي ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض جميعاً ... فهذه الماديات كلها مخلوقة أو مصنوعة من أجله ، من أجل تحقيق إنسانيته ، من أجل تقرير وجوده الإنساني ... » .

« وأن دور الإنسان في الأرض هو الدور الأول ، فهو الذي يغيِّر ويبدِّل في أشكالها وفي ارتباطاتها ، وهو الذي يقود اتجاهاتها ورحلاتها ، وليست وسائل الإنتاج ولا توزيع الإنتاج هما اللتان تقودان الإنسان وراءهما ذليلاً سلبياً كما تصوره المذاهب المادية التي تحقِّر من دور الإنسان وتصغِّر بقدر ما تعظم في دور الآلة وتكبِّر » . عن الظلال .

المقطع الثاني من القسم الأول :

يمتد هذا المقطع من الآية (٣٠) إلى نهاية الآية (٣٩) وهذا هو :

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ
قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ
وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾
وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ
أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾
وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا
وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

١ - كلمة عامة في هذا المقطع وسياقه :

- يقص الله عز وجل علينا في هذا المقطع قصة آدم (عليه السلام) والحكمة في خلقه وكرامته على الله عز وجل ، وتمرد الشيطان بسببه وإغواء الشيطان لآدم وزوجه وإهباط الله عز وجل آدم وزوجه والشيطان إلى الأرض والقاعدة التي قررها لهم حين الإهباط ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى فمن تَبِع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** * **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ .

- جاءت قصة آدم بعد قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ فبعد أن أخبرنا الله عز وجل عن تهيئة الأرض لنا ، أخبرنا عن قصة خلقنا وما ركبه فينا من استعدادات ؛ لاحظ الصلة بين قوله تعالى ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ وبين : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ لاحظ ذكر الأرض في كل من الآيتين فإذا ما لاحظت الصلة المباشرة بين قصة آدم وبين الآية التي سبقتها فلنحاول أن نرى صلة هذا المقطع بما قبله:

بدأت سورة البقرة بكلام عن المتقين والكافرين ومما ذكرته :

﴿ **الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .

﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ لاحظ صلة ذلك

في القاعدة الكلية التي تختم بها قصة آدم : ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ فبعد أن قرر الله عز وجل في المقدمة ما قرر ، تأتي قصة آدم فكأنها تقول : إن اتباع هداي هو شَرْطي عليكم من الابتداء ، ومن ثَمَّ فقصة آدم تعمِّق قضية الاهتداء بكتاب الله ، وتحذِّر من قضية المخالفة والكفر ، وهي في الوقت نفسه تعمِّق معنى الصراط المستقيم والسير فيه ، ومعنى تنكُّب صراط **المغضوب** عليهم والضالين الذي ورد في آخر فقرة من الفاتحة .

- رأينا أنه قد جاء بعد مقدمة سورة البقرة مقطع : في بدايته أمر ونهي . الأمر : هو قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ .

والنهي هو قوله تعالى : ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ .

وفي قصة آدم نجد أمراً ونهياً .

الأمر هو ﴿ **اسجدوا لآدم** ﴾ .

والنهي هو ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ .

وقد حدثت مخالفة للأمر والنهي فكان العقاب ، فقصة آدم جاءت لتعمق ضرورة الالتزام بطاعة الأمر واجتناب النهي .

وفي هذا القدر من ذكر الصلة بين قصة آدم وما سبقها من سورة البقرة كفاية وللكلام تتمة فلننتقل إلى ذكر التفسير :

٢ - التفسير :

﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ (إذ) بإجماع المفسرين متعلقة بفعل أمر تقديره (اذكر) فأن يأمرنا الله عز وجل بعد ما مر من مقدمة السورة والمقطع الأول بتذكر هذه القصة ، فذلك دليل على ارتباط هذه القصة بما قبلها ، وورودها ضمن سياق متسلسل يخدم المعاني التي سبقتها كما رأينا ، وكما سنرى . والمراد بالخليفة في الآية : آدم وذريته ولم يقل خلائف أو خلفاء لأنه أُريدَ بالخليفة آدم واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما تستغني بذكر أبي القبيلة في قولك مُضر وهاشم ، وهل هو خليفة عن الله ؟ أو خليفة عن الجن ؟ أو خليفة عن خلق آخرين ؟ أقوال للمفسرين أقواها الأول وليس هناك نص قطعي في الموضوع ، والخليفة في اللغة : مِنْ خلف فلان فلاناً في

أمر إذا قام فيه مقامه بعده . عن ابن مسعود : أن الله قال للملائكة : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ قالوا : ربنا وما يكون ذاك الخليفة ؟ قال : يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً . قال ابن جرير : فكان تأويل الآية على هذا : إني جاعل في الأرض خليفة منّي يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي ، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه . وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه . ﴿ **قالوا** ﴾ أي الملائكة ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبِّح بحمدك ونقدّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾ . أخبرهم بذلك ليسألوا هذا السؤال فيجابون بما أُجيبوا به فيعرفوا حكمته في استخلاف الإنسان قبل كونه ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون : يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ولا يصدر منا شيء من ذلك وهلاّ وقع الاقتصار علينا ؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال ﴿ **إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾ : أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم ، فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعبّاد والزهّاد والأولياء والأبرار والمقرّبون والعلماء والعاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتّبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم . وإنما عرفوا أن الخليفة الجديد سيفسد في الأرض ويسفك الدماء إما بإخبار من الله تعالى ، أو من جهة اللوح ، أو قاسوا ما سيكون على شيء معروف لديهم من قبل ، ومعنى : ﴿ **نسبِّح بحمدك** ﴾ أي ننزهك ونبرئك من كل نقص وعيب متلبسين بالشكر لك ، ومعنى : ﴿ **نقدّس لك** ﴾ أي ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس .

﴿ **وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ﴾ علّم آدم أسماء المسميات كلها ، فأراه الأجناس التي خلقها وعلَّمه أن هذا اسمه فرس ، وهذا بعير ، وهذا سحاب ، وهذه مجرَّة ، وهذه شمس ، وهذا نجم ، حتى القصعة والمغرفة ، ثم عرض المسميات على الملائكة وطالبهم أن يخبروه عن أسمائها إن كانوا صادقين في ما اتجهوا إليه أنه يستخلف مفسدين سفاكين للدماء ، وفيه رد عليهم ، وبيان أن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها ما يستأهلون لأجله

أن يُسْتخلَفوا ، فما كان جوابهم إلا أن قدَّسوه ونَزَّهوه أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علّمهم فهو العليم بكل شيء ، الحكيم في خلقه ، وأمره ، وفي تعليمه ، وعطائه ما يشاء ومنعه ما يشاء ، له الحكمة في ذلك والعدل التام .. ﴿ **قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمَّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السمٰوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون** ﴾ أمر آدم أن يخبرهم بأسماء الأشياء كلها ، فلما ظهر فضل آدم عليه السلام في سرده ما علّمه الله تعالى من أسماء الأشياء ، ذكّرهم بأنه جل جلاله يعلم الغيب الظاهر والخفي ويعلم ما يظهرونه في ألسنتهم وما كانوا يخفونه في أنفسهم ، وما أظهروه هو قولهم : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها** ﴾ .. والذي كانوا يكتمونه هو ما كان منطوياً عليه إبليس من الخلاف على الله في أوامره والتكبر عن طاعته ومن المعتاد تعميم الخطاب وإرادة البعض . هذا الذي رجّحه ابن جرير .

وبعد أن أرى الله عز وجل الملائكة مزية آدم ، أمرهم بالسجود له ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ هذه كرامة عظيمة من الله عز وجل لآدم امتنَّ بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، والجمهور : على أن المأمور به وضع الوجه على الأرض . وكان السجود تحية لآدم عليه السلام في الصحيح ، إذ لو كان لله تعالى لما امتنع عنه إبليس ، وكان سجود التحية جائزاً فيما مضى ، ثم نسخ بشريعتنا ، وإبليس من الجن بالنص وهو قول الحسن وقتادة ، ولأنه خُلق من نار والملائكة خُلقوا من النور ، ولأنه أبى وعصى واستكبر ، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولا يستكبرون عن عبادته ، ولأن الله عز وجل قال : ﴿ **أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني** ﴾ ولا نسل للملائكة ، ودخل إبليس في خطابهم لأنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم ، قال الحسن : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، وقال شهر بن حوشب : كان إبليس من الجنّ الذين طردتهم الملائكة ، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء ، رواه ابن جرير ، وعن سعد بن مسعود قال : كانت الملائكة تقاتل الجن فسبي إبليس وكان صغيراً فكان مع الملائكة يتعبد معها ، فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا ، فأبى إبليس فلذلك قال تعالى ﴿ **إلا إبليس كان من الجنّ** ﴾ (سورة الكهف) ، وللمفسرين اتجاهات أخرى في هذا المقام ولا طائل في ذلك ، وقد حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله

من الكرامة وقال : أنا ناري وهذا طينيٌّ ، فامتنع عن السجود كبراً ، فكان بدء الذنوب الكِبْر ، فاقتضى ذلك طرده وإبعاده عن جنات الرحمة وحضرة القدس ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ **وكان من الكافرين** ﴾ أي : وصار من الكافرين بإبائه واستكباره ورده الأمر .

﴿ **وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾ يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس أنه أباح له الجنة يسكن منها حيث يشاء ويأكل منها ما شاء رغداً أي هنيئاً واسعاً طيباً والجنة هي نفسها دار الثواب وقالت المعتزلة : كانت بستاناً في الأرض لأن الجنة لا تكليف فيها ولا خروج عنها والجواب : إنما لا يخرج منها من دخلها جزاءً وقد دخل النبي ﷺ إليها ليلة المعراج ثم خرج منها ، وأهل الجنة يكلّفون المعرفة والتوحيد قال ابن جرير : « نُهي آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا أي شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنَّة الصحيحة ، وقد قيل كانت شجرة البر ، وقيل كانت شجرة العنب ، وقيل كانت شجرة التين ، وجائز أن تكون واحدة منها ، وذلك عِلم إذا عُلم لم ينفع العالم به علمه ، وإنْ جَهِلَهُ جاهلٌ لم يضرّه جهله به » اهـ . وقد بين الله عز وجل لآدم وزوجته أنهما إذا قاربا الشجرة كانا من الظالمين ، لأنه لا ظلم للنفس أعظم من معصية الله ، ولا ضرر عليها أعظم من ذنبها ، فأي ظلم أكبر من أن تتجاوز ما حد الله لك بعد كل ما أعطاك بلا مقابل منك؟

﴿ **فأزلَّهما الشيطان عنها** ﴾ أي عن الشجرة أي فحملهما الشيطان على الزلة بسببها ، أي فأصدر الشيطان زلتهما عنها ، أو عن الجنة بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما . وزلة آدم بالخطأ في التأويل بحمل النهي على التنزيه دون التحريم . وهذا دليل على أنه يجوز إطلاق اسم الزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقال بعضهم : لا يطلق اسم الزلة على أفعالهم كما لا تطلق المعصية ، وإنما يقال فعلوا الفاضل وتركوا الأفضل فعاتبهم ربهم وله عتابهم ، أما نحن فقد أدَّبنا الله بأن نتأدّب معهم ، وذهب بعضهم أن ما فعله آدم كان قبل النبوة ، وبالتالي فلا خدش لموضوع العصمة فيما فعله آدم عليه السلام .
﴿ **فأخرجهما مما كانا فيه** ﴾ أي من النعيم والكرامة أو من الجنة إن كان الضمير للشجرة في (عنها) .

والسؤال : كيف توصَّل إلى إزلالهما بعد ما قيل له : ﴿ **اخرج منها فإنك رجيم** ﴾ سورة (صۤ) والجواب : إنه مُنع من دخولها على جهة التكرمة كدخول الملائكة لا عن دخولها على جهة الوسوسة ابتلاء لآدم وحواء ، وبعضهم ذهب إلى أن الوسوسة مستطاعة له على البعد ، والرواية الإسرائيلية تذكر الحية كواسطة في الدخول وسنرى قيمة الروايات الإسرائيلية فيما بعد .

﴿ **وقلنا : اهبطوا** ﴾ الهبوط النزول والخطاب على رأي بعضهم لآدم وحواء وإبليس وبعضهم قال : الخطاب لآدم وحواء لأن إبليس أمر بالهبوط من قبل ، والمراد هما وذريتهما لأنهما لما كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلا كأنهما الإنس كلهم ﴿ **بعضكم لبعض عدو** ﴾ على الوجه الأول فالمراد به عداوة إبليس للإنسان وعلى الوجه الثاني فالمراد به ما عليه الناس من التباغي والتعادي وتضليل بعضهم لبعض ﴿ **ولكم في الأرض مستقرّ** ﴾ المستقر إما موضع الاستقرار أو هو الاستقرار نفسه ﴿ **ومتاع إلى حين** ﴾ المتاع : التمتع ، والحين : إما يوم القيامة أو الموت ﴿ **فتلقَّى آدمُ من ربه كلمات** ﴾ أي استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها ، أي إن الله عز وجل ألهمه إياها والكلمات هن : ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين** ﴾ ، (سورة الأعراف) ﴿ **فتاب عليه** ﴾ . أي فرجع عليه بالرحمة والقبول واكتفى بذكر توبة آدم لأن حواء كانت تبعاً له . ﴿ **إنه هو التواب الرحيم** ﴾ . التواب : الكثير القبول للتوبة ، والرحيم : الكثير الرحمة . ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعاً** ﴾ . أي مجتمعين ، وكرر الأمر بالهبوط للتأكيد ، أو لما نِيط به من زيادة قوله تعالى ﴿ **فإما يأتينكم مني هدىً** ﴾ إذ هي القاعدة الكلية التي سيكون عليها مدار فعل الله جل جلاله بهم ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى** ﴾ الهدى هنا هو : الرسول أو الكتاب أو الوحي ، أو هو : الكتاب أو الوحي بواسطة رسوله ﴿ **فمن تبع هداي** ﴾ الاتباع يكون بالقبول له والإيمان به والعمل . ﴿ **فلا خوف عليهم** ﴾ أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة . ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ على ما فاتهم من أمر الدنيا ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا** ﴾ . أي : جحدوا الهدى وكذّبوا أهله مع مجيئهم بالآيات ﴿**أولئك أصحاب النار** ﴾ . أي : أهلها ومستحقوها ﴿ **هم فيها خالدون** ﴾ . أي : مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص .

٣ - فـوائـد

(أ) أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزْن والخبيث والطيب » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . أقول : وهو نص في كون آدم لم يتطور عن شيء سبقه ، ولنا عودة على هذا الموضوع ، وأخرج مسلم والنسائي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خُلق آدم وفيه أُدخل الجنة وفيه أُخرج منها » وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال : « ما أُسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس » وقال الحسن : « لبث آدم في الجنة ساعة من نهار ، تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا » وقال أبو موسى : « إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علَّمه صنعة كل شيء ، وزوَّده من ثمار الجنة ، فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغيَّر وتلك لا تتغير » .

أخرج الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي ذر قال : « قلت يا رسول الله أرأيت آدم أنبياً كان ؟ قال : نعم . أنَبِيًّا رسولاً يكلمه الله قبيلاً » أي : عياناً .

(ب) يلاحظ من قصة آدم وموقف الملائكة من خلقه ، كيف أن العلم المحيط تنكشف به من الأسرار والحِكَم مالا ينكشف بغيره ، وعلم الله أزلي ليس كمثله شيء ، ولكن من قصة آدم نأخذ درساً وهو أنه كلما ازداد العلم كان الحكم أصح ففي حياتنا الدنيوية نجد كثيرين ليسوا مرشحين لإصدار أحكام في كثير من القضايا لعدم إحاطتهم بها ، ومن ثَمَّ فإن أحكامهم تبقى قاصرة وهذا يجعلنا - وخاصة في أمر بناء الأمم واعتماد ما ينبغي اعتماده في شؤون الحكم والعامة والخاصة - نتأنَّى كثيراً فلا نصدر حكماً إلا بعد استيعاب شامل للقضية التي بين أيدينا .

(جـ) يلاحظ أن الملائكة عندما سئلوا عما لا يعلمون كان جوابهم ﴿ **سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا** ﴾ وهذا أدب رفيع أن يقول المسؤول عن شيء لا يدريه : لا أدري . قال القرطبي : وذكر الهيثم بن جميل قال شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال : في اثنتين وثلاثين منها : لا أدري » وهو أدب نفيس . فقد اعتاد

الكثيرون أن يهجموا على الحديث في كل شيء دون أن يكون عندهم علم فيه ، وإنما هي الظنون أو الأوهام .

(د) يلاحظ من قصة آدم أن استعداد الإنسان للعلم هو سر استخلافه ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** .. ﴾ وفي عصرنا تبيّنت لنا آفاق هذا السر كثيراً حيث نرى ما استطاع الإنسان أن يكتشفه من أسرار هذا الكون ، ولكن للأسف فإن الإنسان سخَّر هذا من أجل التدبير لسفك الدماء وإفساد الأرض ، وكل ذلك بسبب غياب المسلمين عن حكم هذا العالم بكلمة الله ، ولكن أليس من المؤسف أن تكون حصة المسلمين منذ قرون في استكشاف هذا الكون ومعرفة أسراره أقل من غيرهم !؟ وكان هذا من عوامل سيطرة الكافرين ، إن على المسلمين أن يعودوا رجال قمة في كل اختصاص كوني .

(هـ) يلاحظ من خلال قصة آدم أن الله عز وجل أبرز للملائكة مزيَّة آدم ثم أمرهم بالسجود ، وكانت المزية هي العلم ، وهذا درس كبير في موضوع اختيار القيادات ، وهو شيء كنا نراه في حياة رسول الله ﷺ كثيراً ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يُري المزيَّة ثم يُؤَمِّر كما فعل مع الوفد الذين أمَّر عليهم رجلاً من أحدثهم سناً وليس من أشرفهم لأنه يحفظ سورة البقرة ، إن أهم قضية ينبغي أن تلاحظ في التقديم والتأخير هي العلم في القضية التي من أجلها يكون التقديم والتأخير ، وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وعلَّم آدم الأسماء كلها** ﴾ يقول النسفي : أفادتنا الآية أن علم الأسماء فوق التخلي (أي التفرغ) للعبادة فكيف بعلم الشريعة ؟!

(و) وفي قصة آدم من العبر الكثير ، فمن فهمها وأخذ عِبَرها استقام أمره ، ولذلك أمرنا الله أن نتذكرها فهي قصّة البداية التي ينسحب أثرها على الزمان كله ، وهي قصة الفطرة ، ومن عِبَرها امتحان الإنسان بالشيطان وامتحان الناس بعضهم ببعض ، وهذا يقتضي من الإنسان العاقل أن يحذر لينجح في الامتحان ، ولا نجاح إلا بملازمة الأمر ومجانبة النهي ، ومن عِبَرها أن الله عز وجل عرّف الإنسان فيها على طريق الخلاص من الذنب إذا وقع فيه وذلك بالتوبة . قال ابن عباس ذاكراً ما تمَّ بين آدم وربه بعد الخطيئة قال آدم عليه السلام : يا رب ألم تخلقني بيدك ؟ قيل له : بلى . وكتبتَ عليَّ أن أعمل هذا ؟ قيل له : بلى . قال : أرأيت إن تُبتُ هل أنت راجعي إلى الجنة ؟ قال : نعم » .
ومن عِبَرها أن الكبر بداية الخطأ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر » ثم عرّف الكبر بأنه « غمط الناس وبطر الحق » . ومن

عِبَرها أن امتحان الله رفيق فقد أعطى آدم الجنة ومنعه القليل ، وأباح لنا الكثير النافع ، ومنعنا القليل الضار ، أباح لنا الطعام وحرم علينا لحم الخنزير والميتة والدم ، أباح لنا الشراب وحرم علينا الخمر ، فالعاقل من وقف عند الحدود . ومِنْ عِبرها أن الشهوات الحسية والمعنوية باب الخطيئة ، فإن حِرْص آدم على الخلود وطاعته لشهوة الطعام كانا سبب الخطيئة ، وهذا دأب الإنسان في كل العصور ، فهو إما مغلوب بشهوة العز والمجد والرئاسة ، وإما مغلوب بشهوة الفرج والبطن ، فيسلك في هذا أو ذاك غير طريق الله إلا القليل . نسأل الله أن يجعلنا من أهله وأن يحفظنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

قال فتح الموصلي « كنا قوماً من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا فليس لنا إلا الهمّ والحزن حتى نُردّ إلى الدار التي أُخرجنا منها » .

وقال الشاعر :

يا ناظراً يرنو بعيني راقـدٍ ومشاهِداً للأمـر غير مشاهـد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي دَرَجَ الجِنان ونيلَ فوز العابد
أنسيتَ ربك حين أخرج آدماً منها إلى الدنيا بذنب واحد ؟

وقال الرازي : « إن من تصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي » .

ويقول صاحب الظلال : « لعلني ألمح أن هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإعداداً ، كانت إيقاظاً للقوى المذخورة في كيانه ، كانت تدريباً له على تلقّي الغواية وتذَوق العاقبة وتجرع الندامة ومعرفة العدو والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين ، إن قصة الشجرة المحرمة ووسوسة الشيطان باللذة ، ونسيان العهد بالمعصية ، والصحوة من بعد السكرة والندم وطلب المغفرة إنها هي هي تجربة البشرية المتجددة المكرورة ، لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته مزوداً بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلاً استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً » .

(ز) ومن دروس قصة آدم « أن الخطيئة فردية والتوبة فردية في تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض ، ليست هنالك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده – كما تقوله نظرية الكنيسة – وليس هنالك تكفير لاهوتي كالذي تقول به الكنيسة : إن عيسى عليه السلام (ابن الله بزعمهم) قام بصلبه تخليصاً لبني آدم من خطيئة آدم ، كلا ،

خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية ، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة ، وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة ، تصور مريح صريح يحمِّل كل إنسان وزره ، ويوحي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط » عن الظلال .

٤ - فصول شتى :

فصل في الإسرائيليات :

فيما يتعلق بقصة آدم هنـاك ثلاثة تأثرات تأثر بها بعض الإسلاميين خلال العصور من الإرث الإسرائيلي ، فأدخلوها في كتبهم ، سواء كانت هذه الكتب كتب تفسير أو كتب تاريخ .

١ - أن الجنة التي أهبط منها آدم كانت جنة أرضية . ٢ - أن الحية هي التى كانت الواسطة في إدخال إبليس ليوسوس لآدم . ٣ - تاريخ الحياة البشرية وقدر الزمن ما بين آدم وبيننا . وهذا يقتضي منا أن نقف وقفة عند الإسرائيليات بشكل عام :

في تحقيق كتبه موريس بوكاي الفرنسي كجزء من دراسة خرجت تحت عنوان : « دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة » يذكر كيف أن بحَّاثة القرن الثامن عشر لاحظوا أن بعض نصوص سفر التكوين - وهو السفر الأول فيما يسمى الآن بالتوراة - تذكر اسم يهوه ، وبعضها تسميه بألوهيم ، فاستدلوا بذلك على أن سفر التكوين يحتوي نصين جنباً إلى جنب قد أدمج أحدهما بالآخر ، ثم إن إيخهورن لاحظ نفس الملاحظة بالنسبة للأسفار الأربعة الأخرى ، وأن إيخهورن لم يكتف بذلك بل لاحظ أن أحد المصادر ينقسم إلى قسمين أيضاً .

ثم يقول موريس بوكاي :

أما بحَّاثة القرن التاسع عشر فقد كرسوا جهدهم في البحث عن مصادر أكثر دقة وفي (١٨٥٤) كانت هناك أربعة مصادر مقبولة وتسمى بالأسماء التالية : الوثيقة اليَهْوِية ، والوثيقة الألوهيمية وسفر التثنية ، والنص الكهنوتي ، وقد أفلح الباحثون في إعطائها أعماراً :

١ - تقع الوثيقة اليهوية في القرن التاسع قبل الميلاد وقد حررت في مملكة الجنوب .

٢ - أما الوثيقة الألوهيمية فهي أقرب تاريخياً وقد حررت بإسرائيل .

٣ – وأما سفر التثنية فينتمي إلى القرن الثامن قبل الميلاد في رأي أدموند جاكوب . وهناك بحّاثة آخرون مثل الأب ديفويرون أنه ينتمي إلى عصر جوزياس (أي القرن السابع قبل الميلاد) .

٤ – وأما النص الكهنوتي فينتمي إلى عصر النفي أو ما بعد النفي أي القرن السادس قبل الميلاد .

بهذا إذن يمتد تحرير نص أسفار موسى الخمسة على ثلاثة قرون بأقل تقدير ، ولكن المشكلة أكثر تعقداً من هذا ففي (١٩٤١) استطاع أ . لودز أن يميز في الوثيقة اليهوية ثلاثة مصادر وفي الوثيقة الألوهيمية أربعة ، وفي سفر التثنية ستة ، وفي النص الكهنوتي تسعة » . وبعد كلام يقول موريس بوكاي :

« وبهذا يتضح تكوُّن كتاب أسفار موسى الخمسة من أقوال موروثة مختلفة جمعها – بشكلٍ يقل أو يزيد حذقاً – محررون وضعوا تارة ما جمعوا جنباً إلى جنب ، وطوراً غيَّروا من شكل هذه الروايات بهدف إيجاد وحدة مركبة تاركين للعين أموراً غير معقولة ، وأخرى متنافرة كان من شأنها أن قادت المُحدَثين إلى البحث الموضوعي عن المصادر » .

والملاحظ أن الرواية الكهنوتية التي كتبت حوالي القرن السادس قبل الميلاد ، هي التي فيها تفصيلات عن ذكر بداية الخلق ، وعن ذكر تاريخ البشرية ، وفيها فكرة أن الله تعب أثناء خلق العالم فاستراح ، وهي قضايا يسهل على الباحث إما ردّها مباشرة أو ردّها من خلال أدنى عرض لمعارف الإنسان الحديثة .

وقد قام موريس بوكاي في كتابه بامتحان قضيتين مما ذكر في هذه الأسفار ، وهما قضية خلق العالم وقضية عمر الإنسان على ضوء المعارف الحديثة فلاحظ أن عمر العالم بالنسبة لسفر التكوين كان عام (١٩٧٥) ميلادية هو (٥٧٣٦) سنة قمرية بينما التقدير العلمي لتشكل النظام الشمسي هو أربع مليارات ونصف من السنين . كما لاحظ أن تسلسل ظهور الأشياء لا يتفق مع أي دراسة علمية لظهورها على أرض الواقع .

وتاريخ الإنسان كما يذكره سفر التكوين هو نفس الشيء بالنسبة لتاريخ خلق العالم فهو لا يعدو ستة آلاف سنة قمرية بينما نجد المعطيات العلمية تقول : « يمكن أن نؤكد اليوم وجود أطلال لإنسانية مفكرة وعاملة ويحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات من ألوف السنين » .

ويقول موريس بوكاي : « هناك إذن استحالة اتفاق واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان على الأرض ، وبين أكثر المعارف تأسساً في عصرنا » .

أقول : وقد مر معنا في مقدمة هذا التفسير كيف أن الدراسات الأثرية في ما بين الرافدين ، أثبتت أن إحدى الأسر التي حكمت بعض المناطق بعد الطوفان حكمت أربعا وعشرين ألفاً من السنين .

وأن كل هذه المعاني تجعلنا حذرين من أن نحمِّل الإسلام معاني ، هي جزء من الإرث الكتابي السابق . إن موريس بوكاي في دراسته التي أشرنا إليها قال الكثير في نقد العهد القديم والجديد ، ولكنه بعد ذلك أكد كثيراً أنه لم يحدث قط أن النص القرآني عارضه أي اكتشاف علمي أو مقولة علمية .

إن علينا أن نكون دقيقين جداً ، ونحن ننقل عن أهل الكتاب ، أو نقرأ لهم حتى لا نحمِّل إسلامنا ما لا يحتمله .

إذا اتضح هذا ، فإنه بالنسبة لقصة آدم فنحن لا نقبل الرواية الإسرائيلية في خلق الكون أو في عمر الإنسان ، لأن ذلك يتنافى مع دراسات علمية صحيحة وقد رفض أهل السنَّة والجماعة فكرة أن الجنة التي هبط منها آدم أرضية ، ولم يذهب إلى ذلك ابتداءً إلا بعض المعتزلة ، وبالنسبة لموضوع توسل إبليس بالحية للدخول إلى الجنة بعد أن طُرد منها من أجل أن يوسوس لآدم ، فهذا موضوع لا نطالب بالإيمان به ، ولا علينا أن نكفر به ولكن حتى في مثل هذه المواضيع فإن ما يرافق عرض أصلها من تعبيرات وحكايات ، يرافقه الكثير من الخطأ وتفوته دقة الأداء النبوي بحيث يعطي صورة مشوَّهة عن الوحي ، وهذا وحده شيء خطير .

فصل في الشيطان :

كُتب عن الشيطان ملايين الصفحات خلال العصور ، وممّن عرض لنظرات الأمم والشعوب في هذا الموضوع (عباس محمود العقاد) في كتابه (إبليس) . وهو في الكتاب يجلو الصورة المشرقة لهذا الدين في هذا الشأن ، شأن الإسلام في كل شيء ، إلا أن لنا ملاحظة على كل هذا النوع من الدراسات التي تسمى دراسات مقارنة ، إذ في كثير من الأحيان يخرج الإنسان من مثل هذه الدراسات بانطباع : أن الإسلام هو وجهة

نظر بين وجهات نظر أخرى ، وتأثير ذلك على تصورات المسلم وعلى قضية الإيمان سيء جداً .

إن النص القرآني الذي جعله الله - عزّ وجلّ - معجزاً ، لكي يأخذ الإنسان منه الحكم القطعي في كل شيء ، وليكون ميزاناً يزن به الخطأ والصواب ، لا يصح أن يعرض العرض الذي يوحي وكأنه وجهة نظر رفيعة فقط ، هذه ملاحظة ينبغي أن نضعها في حسابنا في أي دراسة مقارنة نفعلها ، وأن نستقبل كذلك على ضوئها كل دراسة مقارنة .

في قضية الشيطان كُتب الكثير وذهبت البشرية في هذا الشأن مذاهب شتى ، وكان للتصورات الخاطئة في هذا الشأن التأثيرات الكثيرة ، إمّا على تفكير الناس أو على طرائق حياتهم ، أو على نمو طاقاتهم ، أو على تفجيرها ، والإسلام لا يتحمّل شيئاً من ذلك ، لأن الإسلام وضع هذا الموضوع في إطاره الحق والصحيح ، شأن الإسلام في كل شيء . ولكن بلا شك فإنه قد حدث خطأ في بعض الحالات ، وهو أن بعض الكاتبين خلال العصور ذكروا ما هبّ ودبّ في هذه الشؤون ، كما أن العلماء لم يتابعوا تصحيح الكثير من الأوهام المتضخمة في بعض البيئات حول قضايا الجن والشياطين ، مع أن هذا الموضوع غيبي ، وكل المواضيع الغيبية لا يصح أن يتلقى المسلم في شأنها إلا عن المعصوم ، أو بشكل تقوم فيه حجة شرعية معتبرة . وقد حدث تفريط ما في هذه الشؤون ، ومن جملة التفريط تفريط له صلة بموضوع الجن والشياطين .

وفي عصرنا حدثت حملات عنيفة على كل ما هو غيبي ، واتُّهمت العقلية التي تؤمن بالغيب حتى ولو كان هذا الغيب هو (الله) جل جلاله ، اتُّهمت هذه العقلية بأنها عقلية غير علمية ، بل اتُّهمت بأنها عقلية غبية ..!! دون تفريق بين العقلية الإسلامية التي لا تؤمن بغيب إلا إذا قام عليه دليل العقل أو دليل الشرع المعصوم من الخطأ ، وبين العقلية الغيبية الأخرى التي لا تستند في إيمانها الغيبي على دليل . ولم تكن هذه الحملة مستغربة من أصحابها الماديين الذين لا يؤمنون إلا بالحس ، فذلك مرض العصور ولم تخل البشرية من أصحابه منذ القديم ، ولكن الغريب أن يتجاوب مع هذه الحملة بعض من تصدروا لتوجيه المسلمين ، فحاولوا أن يؤوِّلوا النصوص لصالح المادية ، ومن جملة ذلك النصوص التي لها صلة بالجن والشياطين فقالوا : بأن الشيطان رمز على الشر وعلى نوازع الشر عند الإنسان ، وإذن فهو ليس ذاتاً ذات صفات .

تُرى إذا كانت النصوص الواردة في شأن الجن والشياطين تُؤَول كلها على أنها ليست من باب الحقائق وإنما هي رموز لمعان فأي حقيقة إذن لا تُؤَول ؟ إنه الكفر بالنصوص وليس التأويل لها .

إن الشيطان ذات من الذوات الغيبية نؤمن بوجودها ، كما نؤمن بكل غيب أخبرتنا عنه النصوص ، وموقفنا منه هو الموقف الذي أمرتنا به النصوص ، والقلب المؤمن الحي يميز بين نوعين من الإلقاءات يحسها في قلبه : إلقاء نفسه وهواجسها ، وإلقاء الشيطان ووساوسه .

إن المسلم الذي يعلم أن هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يعلم أن ما حدّثه عنه القرآن هو الحق ، ويحاول دائماً أن يبحث عن الفهم الصحيح لكتاب الله ولذلك قواعده التي لا تخطىء .

ولقد حاول بعض الكتاب في عصرنا أن يعطي الشيطان صفة البطولة في مواقفه النضالية ضد آدم ، وفي الاعتراض على الله ، وذلك من باب قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ **وإن الشياطين لَيوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ . وحاول بعضهم أن يشكك من خلال : أن موقف إبليس كان بإرادة الله ، وذلك من باب التشويش لأن كون الأشياء كلها بإرادة الله لا ينفي اختيار المكلَّف ، ولقد كان إبليس مختاراً في موقفه فاستحق العقوبة ، وموضوع اختيار المكلفين ، وأن ذلك وغيره بإرادة الله ، موضوع سيمر بنا فلا نقف عنده هنا ، إذ إن خطتنا في هذا التفسير ألا نقف عند كل مقام إلا بالقدر الذي يقتضيه المقام ، وموضوع الجن والشياطين سيمر معنا كثيراً فلنقتصر على هذا القدر فيه .

فصل في رفض الداروينية كتعليل لنشأة البشر :

إن نظرية داروين أصبحت منقوضة بأكثر من علم ، إن دراسة السائل المغذي للكائن الحي ليست لصالح نظرية داروين ، وإن حساباً رياضياً لتعميم الأجناس على ضوء نظرية داروين ليس لصالحها ، وإن نظام الوراثة وخصائصها وقوانينها ليس لصالح هذه النظرية ، وإن دراسة المستحاثات ليست لصالح هذه النظرية ، فالنظرية أصبحت منقوضة من جوانب شتى ، وحتى لو لم تكن منقوضة فإن قصارى ما يمكن أن تقدمه مجموعة ملاحظات ، وليس شرطاً أن يكون لهذه الملاحظات تعليل وحيد .

إن الذين يفرون من الإيمان بالله ومن أنه هو الخالق ، يفرون إلى نظرية داروين ، ولكن إن استطاعوا أن يوجدوا نظرية تغنيهم في زعمهم عن أن الله هو خالق الحياة ، فقوانين الكون تدل على أن الله هو خالق الكون كله ، وبالتالي فلا ينفعهم الفرار من خلال نظرية داروين عن أن الله هو الخالق .

إن الله عز وجل في القرآن يقول : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ فهذا أمر من الله عز وجل لنا في أن ندرس خلق الكون وخلق الحياة ومن ثَمَّ فنحن المسلمين مطالبون بالدراسة المستطاعة ، وما توصلنا إليه الدراسة عن خلق الكون أو الحياة فنحن لا نتحرَّج منه بل نفهم على ضوئه النصوص إن كان من باب الحقائق العلمية .

والله عز وجل في آية أخرى في نفس السورة (سورة العنكبوت) يقول : ﴿ **أوَلَم يَروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده** ﴾ فأن نرى خلقاً ثم خلقاً ، فذلك دليل على قدرة الله ، أما أن يفهم فاهم أن ذلك دليل على استغناء الأشياء عن الله ، فذلك هو العمى الكامل في البصيرة .

لقد رأى الإنسان في عملية البحث عن مسيرة الحياة هياكل لمخلوقات تشبه إنساننا الحالي ، ووجودها أقدم من وجود إنساننا الحالي ، فهل هذا وحده كافٍ للقول بأن إنساننا الحالي قد تطور عن تلك ؟ يقول الله عز وجل : ﴿ **ما أشهدتهم خلق السمٰوات والأرض ولا خلق أنفسهم** ﴾ . سورة الكهف .

إن الله - عزّ وجلّ - في كتابه المعجز الذي خلق الإنسان يقول لنا : أنتم من ذرية آدم ﴿ **يا بني آدم** ﴾ . ويقول لنا : إن آدم : ﴿ **خلقته بيدي** ﴾ ، أبعد هذا الوضوح وضوح في أصل نشأة آدم .

أما إذا كان لابد من تعليل لوجود هذه الهياكل الشبيهة بالإنسان فهذه مجموعة تعليلات :

في قوله تعالى : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ أكثر من اتجاه في التفسير : الاتجاه الأقوى أنه خليفة عن الله ، ولكن هناك اتجاهات أخرى ، فهناك من يقول بأنه خليفة عن خلق آخرين هم الجن .

ذكر ابن كثير عن ابن جرير عن ابن عباس قال : « إن أول من سكن الأرض الجن

فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضاً فبعث الله إليهم إبليس فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال » .

وهناك اتجاه نقله صاحب السيرة الحلبية عن بعض الصوفية أن أبانا آدم عليه السلام ليس هو أول آدم على الأرض بل خُلق بشر ، ثم أفناهم الله ثم خلق بشر ، ثم أفناهم الله وهكذا مرات ومرات ثم خلق الله عزّ وجلّ أبانا آدم ، وعلى ذريته تقوم القيامة . فعلى هذا الاتجاه فنحن نخلف بشراً آخرين ، وقد يستأنس لذلك بقولة الملائكة : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ على رأي من قال بأنهم قالوا ذلك لتجربة سابقة يعرفونها .

في الحديث الصحيح « إن الله خلق آدم على صورته » وبعض الشراح قالوا في تفسير هذا الحديث : أي على صورة الإنسان المضروب الذي بسببه قيل الحديث ، وعلى هذا الاتجاه فحتماً إن آدم وذريته لهم سمت خاص بهم ، مع ملاحظة أن هناك نصوصاً تذكر : أنه عندما خلق آدم في الجنة كان طويلاً جداً وعلى هذا ، فالصورة واحدة ، والضخامة مختلفة ، وقد ذكر الدكتور حسن زينو المختص بالجيولوجيا في كتابه « التطور والإنسان » كيف أنه عُثر على جثة ما يسمى بالإنسان العملاق ، وكيف أن بعض الهياكل التي عثر عليها كان ضرس الواحد منهم يعدل ستة أضعاف ضرس إنساننا الحالي ، فهو إذن يعدل ستة أضعاف إنساننا الحالي .

إن هذا الاكتشاف وحده يقلب كل التعليلات المادية رأساً على عقب . إن آدم خلق خلقاً مباشراً بقدرة الله ، أما وجود أنواع من المخلوقات تشبه إنساننا الحالي فلا يعني هذا أن ذلك قد تحدر عنه آدم ، وإنما المسألة على الشكل التالي إما أن نعتبر تلك الهياكل هياكل بشر ، خلقوا قبلنا ثم انتهوا ، وإما أن نعتبرها هياكل لمخلوقات غير بشرية مندثرة .

أما النصوص فقطعية في أن آدم خلق مباشرة بيد الله ، وأما العلم فإنه يرفض رفضاً قاطعاً نظرية داروين ، ولتراجع ظاهرة الحياة في كتابنا « الله جل جلاله » ثم إن علينا أن نذكر نقطة مهمة جداً وهي أن نصوص الكتاب والسنَّة لا تحدد تاريخاً لوجود آدم عليه الصلاة والسلام .

فصل في السجود لآدم وبعض دروسه :

– بمناسبة ذكر أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، بحث بعض المفسرين هل الملائكة أفضل من البشر أو العكس ؟ ولا خلاف بينهم أن الملائكة أفضل من فساق أهل

الإيمان ، فضلاً عن الكافرين ، فالخلاف فيما سوى ذلك ، والذي استقر عليه بعضهم أن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة ، ورسل الملائكة أفضل من أولياء المسلمين ، وأولياء الأمة الإسلامية أفضل من عامة الملائكة بعد الرسل .

– وبمناسبة ذكر السجود لآدم نحب أن نذكّر بأن المسلم يسجد لجهة القبلة وهذه فريضة عليه ، ولكنه لو سجد لصنم فإنه يكفر ، ومن هنا نعلم أن قضية الكفر والإيمان قضية لها ضوابطها ولها أحكامها ، والفتوى الصحيحة المبصرة من أهلها ، هي التي تعطينا الجواب على كثير من الأمور التي تحتمل كفراً أو إيماناً . وقد اختلط الأمر في عصرنا كثيراً حتى أصبحت المعلومات من الدين بالضرورة ، محل نسيان أو جهل ، وهذا يقتضي من العلماء بياناً ، والعلماء مختلفون هل يكفر الإنسان وهو على الأرض الإسلامية ، إذا أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، قبل البيان أو بعده ؟ هناك اتجاهان للعلماء في ذلك ، ولكثرة الجهل في عصرنا ، ولكثرة التضليل ، فإننا نرجّح الكفر إذا أصرَّ المنكر بعد البيان ، على أن الأمر يحتاج إلى دقة فقهية ومعرفة صحيحة بالأمور المعلومة من الدين بالضرورة .

فصل في منصب الخلافة وضرورة إحيائه :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ تحدث القرطبي في تفسيره عن منصب الخلافة في صفحات طويلة مفيدة ، فليراجع كلامه ، وننقل هنا نبذاً من كلامه ثم نعلق تعليقاً موجزاً على هذا الموضوع :

يقول القرطبي :

– « هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يُسمع له ويُطاع لتجتمع به الكلمة وتُنفذ به أحكام الخليفة ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما روي عن الأصم « حيث كان عن الشريعة أصم » .

– في شرائط الإمام وهي أحد عشر :

الأول : أن يكون من صميم قريش ... وقد اختُلِف في هذا .

الثاني : أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين مجتهداً لا يحتاج إلى غيره في الاستفتاء في الحوادث وهذا متفق عليه .

الثالث : أن يكون ذا خبرة ورأي حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسد الثغور ، وحماية البيضة (أي بيضة الإسلام أي عزه وجماعته) وردع الأمة والانتقام من الظالم والأخذ للمظلوم .

الرابع : أن يكون ممن لا تلحقه رقة في إقامة الحدود ، ولا فزع في ضرب الرقاب ولا قطع الأبشار .

الخامس : أن يكون حراً ولا خفاء باشتراط حرية الإمام وإسلامه وهو السادس .

السابع : أن يكون ذكراً سَليم الأعضاء وهو الثامن ، وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماماًوإن اختلفوا في جواز كونها قاضية فيما يجوز شهادتها فيه .

التاسع والعاشر : أن يكون بالغاً عاقلاً ولا خلاف في ذلك .

الحادي عشر : أن يكون عدلاً لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تعقد الإمامة لفاسق » .

- « يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة »

- « الإمام إذا نصب ثم فسق بعد إبرام العقد فقال الجمهور : إنه تنفسخ إمامته ويُخلع بالفسق الظاهر المعلوم .. وقال آخرون : لا ينخلع إلا بالكفر أو بترك إقامة الصلاة أو الترك إلى دعائها أو شيء من الشريعة » . « ويجب عليه أن يخلع نفسه إذا وجد في نفسه نقصاً يؤثر في الإمامة » « ولما اتفق على أن الوكيل والحاكم وجميع من ناب عن غيره في شيء له أن يعزل نفسه ، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله » .

أقول : إن الناس في أمرِ إقامة فريضة الخلافة مُقَصِّرون ، وهم بذلك آثمون ، ولا شك أن الأمر في عصرنا معقَّد ولكن علينا أن نسير في الطريق المؤدي لإقامة الخلافة فمن سار في الطريق رفع الإثم عن نفسه ، وفي سلسلتنا في البناء : مباحث لها علاقة بمثل هذا فلتراجع .

فصل في تصحيح أخطاء :

- كثيراً ما يحدث أن يرى بعض المتتبعين للحفريات ظاهرة ما ، هي في الأصل حالة شاذة ، فيعتبروها أصلاً يقيسون عليه ، وكثيراً ما يحدث أن بعض الكاتبين ينطلقون بانين على فكرة ما ، هي خاطئة في الأصل ، فيضعون النظرية ، والنظرية كلها

مبنية على أصل فاسد ، نجد تطبيقات هذه المعاني في أكثر ما كتبه الكاتبون عن نشأة الإنسان وتاريخه القديم ، وعن نشأة اللغات . وقصة آدم تصحح لنا هذه المفاهيم كلها . فقد عرفنا من خلال الآيات كيف أن إنساننا الحالي كان يعلم ، وكان يتكلم من بداية خلقه ، فما يقوله بعضهم من كون الإنسان لم يصل إلى لغة الخطاب إلا متأخراً فخطأ ، وما يقوله بعضهم : عن فوضى جنسية في الابتداء فخطأ ، وما يقوله بعضهم : عن جهل مطبق في التعامل مع الأشياء فخطأ ، قد تكون هناك مراحل لاحقة أو ظواهر شاذة ، لكن آدم عليه السلام ، نزل إلى الأرض ، وهو مزود باللازم الأول للاستخلاف : العلم والبيان .

— ختمت قصة ادم في القاعدة الكلية ﴿ **فمن تَبِعَ هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** . ﴾ هؤلاء أهل النار الذين هم أهلها ولكن قد يدخل النار عصاة المؤمنين ، فهؤلاء لهم وضع خاص .

أخرج الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ :

« أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أقواما أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة » .

— يهول بعض الناس عندما يعلم أن أكثرية البشرية إلى النار ، ولا يهوله أن تكفر أكثرية البشرية بالله وتحاربه وتحارب أولياءه وشريعته ، إن الله يخلق الشجرة العظيمة ذات الثمر الكثير الطيب ، الشجرة كلها للنار في المآل وفي الثمر الخير ، إن شجرة البشرية خيرها في ثمارها ، وثمارها أهل الإيمان فلا ينبغي أن يغتر أحد بكثرة المفسدين ، وكثرة سفاكي الدماء ظلماً ، وعليه أن يحقق حكمة الله في خلقه بالقيام بعبادته وشكره وذكره واتباع هديه باتباع كتابه .

٥ - كلمة أخيرة في المقطع وسياقه :

لعل القارىء من خلال ما مرّ قد ارتبطت لديه قصة آدم بالآيات التي قبلها . وأدرك سر طلب الله منا أن نتذكرها بعد ما عرّفنا على أصناف الناس ، وبعدما عرّفنا على الطريق إليه ، فجاءت قصة آدم بعد ذلك لتقول : إنكم إن كنتم من المتقين المهتدين

بكتابي ، فإنكم تكونون منسجمين مع القاعدة الكلية التي وضعتها لكم : ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ ، وإن لم تكونوا كذلك تكونوا قد وقعتم فيما تهددكم الله به : ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ، ومع أننا قلنا ما فيه الكفاية في تبيان الصلة بين قصة آدم وما قبلها فإننا نؤثر أن نزيد الأمر وضوحاً بذكر بعض الملاحظات :

١ - جاءنا في المقطع الأول أمر ونهي ، وجاءت قصة آدم لتبين لنا عاقبة الأمر والنهي ، وتدلنا على الطريق الذي ينبغي أن نسلكه إذا واقعنا المعصية .

٢ - عرفنا في المقطع الأول أن سر الضلال هو نقض العهود ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل والإفساد في الأرض ، وعلمتنا قصة آدم أن الإفساد في الأرض يتنافى مع حكمة خلقنا ، كما عرفتنا أن الأسباب الأولى للضلال تكمن في الكبر والحسد والشهوة والحرص .

٣ - عرفنا في المقطع الأول أن الأرض قد خلقت لنا ، وعرفنا في المقطع الثاني بعض أسرار استخلافنا في الأرض .

٤ - وفي تذكير الله عز وجل إيانا بكمال النعمة علينا ، إذ خلقنا لنكون خلفاء له في الأرض بإعطائنا كمال الاستعداد للتعلّم الذي نستطيع به أن نقوم بمقتضيات الخلافة ، تهييج لنا على الطاعة فيما سبق ذكره وإبعاد لنا عن المعاصي التي سبق ذكرها .

٥ - وإذا كانت مقدمة سورة البقرة قد ذكرت متقين وكافرين . فقصة آدم عمَّقت لدينا قضية التقوى ، وأفهمتنا قضية الكفر .

٦ - وكان ذلك كله تعميقاً لقضية السير في الصراط المستقيم وتنكُّب صراط المغضوب عليهم والضالين .



وصلات ذلك كله بما مر من قبل لا تخفى .

فلننتقل إلى المقطع الثالث من مقاطع القسم الأول من أقسام سورة البقرة .

المقطع الثالث من القسم الأول من أقسام سورة البقرة :

يمتد هذا المقطع من الآية (٤٠) إلى نهاية الآية (١٢٣) يبدأ بقوله تعالى :

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبون ﴾ .

وينتهي بقوله تعالى :

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأني فضلتكم على العالمين واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدلٌ ولا هم ينصرون ﴾ .

* * *

يأتي هذا المقطع بعد قصة آدم التي انتهت بقوله تعالى :

﴿ فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ فكأن المقطع الجديد بعد هذه الخاتمة يقص علينا - كنموذج - قصة أمة أنزل عليها هدى وكيف كان موقفها من هذا الهدى ، وما هي الدروس التي ينبغي أن تأخذها أمتنا من ذلك .

* * *

إن هناك أمة قبلنا قد أنزل عليها هدى ، وبعث فيها رسل ، وكان مما أنزل عليها كتاب سماوي ثم كتاب آخر ، فهي على علم من الله ، وقد أخذ عليها عهوداً وهي تعرف عن موضوع العهود والهدى والرسل ما لا يعرفه غيرها . فالمفروض أن تستجيب هذه الأمة لهدى الله الأخير ولكتابه الأخير ولرسوله الخاتم ، خاصة وعندهم علم في كتبهم عنه ، ولهذا يتوجه الخطاب في السورة إليهم بعد أن خوطب الناس جميعاً .

وإذ كانوا أهل الكتاب الأول - وللناس ثقة بعلمهم ، وقد يكون موقفهم المتعنت المتكبر من الهدى الجديد سبباً في توقف بعض الناس - فقد اقتضى ذلك الكلام عن أخلاقهم ومواقفهم من رسلهم ومن الهدى الذي أنزل عليهم - لكيلا تستغرب مواقفهم المتعنتة الجديدة .

وإذ كان الهدى الجديد فيه معنى انتزاع الإمامة والقدوة من أمة ، إلى أمة فإن على

الأمة الجديدة أن تعرف ذلك فتخرج عن أي تبعية لغيرها في غير الحق .

وإذا كانت تلك الأمة لم تقم بحق الهدى الذي أنزل إليها حق القيام ، فإن هذا يسجل كدروس لكيلا تقع هذه الأمة فيما وقع فيه غيرها . وإذ كانت تلك الأمة سيكون لها مناقشات ومواقف من أمتنا فإن ذلك يقتضي أن تُوجه هذه الأمة لتعرف ما ينبغي فعله وقوله في مواجهة هذه المناقشات والمواقف .

ومن خلال ذلك كله يتضح الصراط المستقيم الذي ينبغي أن نسير فيه ، ويتضح صراط المغضوب عليهم والضالين لنتنكب السير فيه .

هذا كله بعض ما في هذا المقطع ، ولكن العرض كان فيه من صور الإعجاز ما يذهل : لقد دعا المقطع الأول في هذا القسم : الناس جميعاً للسير في طريق التقوى بسلوك طريق العبادة والتوحيد ، ولكن إذا كان كل الناس تكفيهم توجيهات سريعة للوصول إلى حقيقة التقوى ، فإن أهل الكتاب الأول قد تعقدت أنفسهم ، فلا يكفيهم إلا أن يلاحظوا مجموعة توجيهات ليستطيعوا الانسجام والتفاعل والتسليم مع هذا الدين ولهذا الدين ، ومن ثَمَّ جاء المقطع متوجهاً بمجموعة أوامر ونواهٍ لبني إسرائيل ، ثم أعقبه ما هو بمثابة التعليل لأسباب المطالبة بهذه الأوامر والنواهي ، وقد أعطيت هذه الأمة خلال ذلك كل الدروس اللازمة لإيجاد المناعة عندها ؛ إن في عدم الوقوع في ما وقع فيه هؤلاء ، أو في التحذير من تأثيراتهم السيئة . وخلال ذلك تتعمق كل المعاني التي مرت من قبل . وهكذا نجد أن المقطع في محله من السورة يحقق مقاصد شتى ، وإذ كان كل كلام عنه قبل عرضه أقل مما ينبغي فلنبدأ العرض :

يتألف المقطع من مدخل وفصلين ، وكل فصل يتألف من فقرات ولطول المقطع فإننا سنعرض أجزاءه جزءاً فجزءاً .

مدخل إلى المقطع :

يمتد مدخل المقطع من الآية (٤٠) إلى نهاية الآية (٤٦) وهذا هو :

يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾

وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ

وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

التفسير :

﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم** ﴾ إسرائيل هو : يعقوب عليه السلام وذلك لقب له ، وذكر النعمة القيام بشكرها ، وطاعة الله مانحها ، والنعمة التي أمروا بذكرها هي : ما أنعم الله به على آبائهم من الإنجاء من فرعون وتفجير الحجر وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب وغير ذلك مما سنراه . ﴿ **وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم** ﴾ الوفاء بالعهد أداؤه تاماً ، وعهد الله عليهم هو : ما أخذه عليهم مما قصَّ الله علينا في القرآن ، والذي في جملته أن يتابعوا رسله وأن ينصروهم ، ومحمد ﷺ من الرسل ، وقد بشرت به التوراه فعليهم أن يؤمنوا ويتابعوا وينصروا ، فإن فعلوا أعطاهم الله عز وجل ما وعدهم به من تكفير السيئات ودخول الجنات . ﴿ **وإياي فارهبون** ﴾ أي فاخشون ولا تخشوا أحداً سواي أنْ أُنزل بكم ما أنزلت بمن قبلكم من آبائكم من النقمات ، ولعذاب الآخرة أكبر .. ﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم** ﴾ . يعني به القرآن الذي أنزل علي محمد ﷺ مشتملاً على الحق من الله تعالى مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل في أصليهما السماويين قبل التحريف والتبديل . ﴿ **ولا تكونوا أول كافر به** ﴾ قال ابن عباس : (أي) « ولا تكونوا أول كافر به وعندكم من العلم ما ليس عند غيركم » ، وهذا تعريض : بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفتهم به وبصفته ، والضمير في (به) يعود إلى القرآن ﴿ **ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً** ﴾ أي لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها فإنها قليلة فانية ، فالثمن

القليل هو الدنيا بحذافيرها ، فإنها قليلة بجنب رضوان الله ، ومن الدنيا الرئاسة والمال والجاه . ﴿ **وإياي فاتقون** ﴾ أي فخافونِ الخوف الذي يوصلكم إلى فعل الأمر ، وترك النهي . قال طلق بن حبيب : « التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله » .

﴿ **ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾ لبس الحق بالباطل : خلطه ، وكتمان الحق : عدم إظهاره ، نهاهم عن الشيئين معاً : ألا يلبسوا الحق بالباطل فيموِّهوه به ، وألا يكتموا الحق في حال علمهم أنهم لابسون وكاتمون ، لأن ذلك أقبح إذ ربما عُذر مرتكب القبيح إذا كان جاهلاً **قال قتادة** : (أي) « لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون أن دين الله هو الإسلام » . **وقال ابن عباس** : « لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم » أقول : وكلام قتادة وابن عباس مما يدخل في النهي ، والنهي أعم . ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** ﴾ أمرهم أن يصلوا صلاة المسلمين ، وأن يدفعوا زكاة أموالهم كما يفعل المسلمون ، وأن تكون صلاتهم مع المسلمين ليكونوا معهم ومنهم . وقد استدلّ كثير من العلماء بقوله تعالى ﴿ **واركعوا مع الراكعين** ﴾ على وجوب صلاة الجماعة .

أمرهم فيما مر أن يذكروا نعمته ، وأن يوفوا بعهده ، وأن يرهبوه ، وأن يكونوا أول المؤمنين بالإسلام ، وألا يعتاضوا عن الإسلام بالدنيا ، وأن يتقوا الله ، وألا يخلطوا الحق بالباطل ، وألا يكتموا الحق مع علمهم به ، وأن يقيموا الصلاة وأن يؤتوا الزكاة ، وأن يصلوا مع المسلمين في جماعاتهم ، فإن فعلوا هذا كانوا أبراراً على الحقيقة وهم يزعمون أنهم دعاة إلى البر وليس البر إلا هذا ، فالبر إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبر صلاة وزكاة ووفاء بالعهد ... كما سنرى في آية البر ، ومن ثَمَّ فإن الله عز وجل بعد هذه الأوامر والنواهي خاطبهم موبّخاً ومعجّباً من حالهم :

﴿ **أتأمرون الناس بالبِرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** ﴾ يأمرون الناس بطاعة الله وتقواه والالتزام بكتابه وهداه والوفاء بعهوده ، وهذا القرآن هو كتابه ومحمد رسوله ﷺ فلو كانوا صادقين في الدعوة إلى الله لآمنوا بما أنزل وبمن أنزل عليه والتزموا . ولكنهم كاذبون في دعواهم ودعوتهم ولذلك فإنهم بعيدون عن البر لأن الصادق في الدعوة يوجه الدعوة إلى نفسه أولاً ، وهؤلاء يوجهون الدعوة إلى

غيرهم وينسون أنفسهم مع أنهم يتلون الكتاب الذي : هو التوراة هنا ، وهي تأمرهم بالبر الحقيقي وتعظهم . فصار معنى الآية : كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب – وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير – أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمرون بما تأمرون به الناس ، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب ، وتعرفون ما فيه على من قصّر في أوامر الله . أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه ؟ أفلا تفطنون إلى ما أنتم صانعون بأنفسكم فتنتبهوا من رقدتكم وتبصروا من عمايتكم ؟ ألا عقول لكم توصلكم إلى هذا ؟!!

وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ، بل على تركهم له ، فإن الأمر بالمعروف واجب على العالم ، ولكن الواجب الأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ، ولا يتخلف عنهم فكُلٌّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر ، فالصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله ، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه مع إثمه بالتفريط وقصوره ونقصانه ، فالآية إذن تلوم على الجانب الثاني ولا تنكر فعل الأول ، ومن ثَمَّ قال سعيد بن جبير : « لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ، ولا نهى عن منكر » قال مالك : (وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء؟) لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة ، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم ، ولهذا جاءت الأحاديث والآثار في الوعيد على ذلك :

أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ « يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار ، فيقولون يا فلان ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف ، وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه » هذه رواية أحمد .

وأخرج الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ : « إن الله يعافي الأميين يوم القيامة ما لا يعافي العلماء » . وقد ورد في بعض الآثار : فإنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ليس من يعلم كمن لا يعلم .

وأخرج الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ « مررت ليلة أُسريَ بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار قال : قلت من هؤلاء ؟ قالوا خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ، أفلا يعقلون ؟ » .

وبعد أن امرهم الله عز وجل ونهاهم ووبخهم دلهم على شيء إن يفعلوه سهّل عليهم تنفيذ كل ما سبق قال تعالى :

﴿ واستعينوا بالصبر والصَّلاة وإنها لكبيرةٌ إلّا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربِّهم وأنهم إليه راجعون ﴾ .

﴿ واستعينوا بالصبر والصَّلاة ﴾ على حوائجكم إلى الله ، وعلى البلايا والنوائب ، وعلى القيام بأمر الله كله ، وعلى ما يترتب من القيام بالأوامر السابقة من وفاء بالعهود والجهر بالحق والأمر بالبر والالتزام به ، وعلى إقامة ذلك أصلاً استعينوا على ذلك كله بالجمع بين الصبر والصلاة . وفسر الصبر هنا بالصوم لقوله عليه السلام « الصوم نصف الصبر » . ولتسمية شهر رمضان بشهر الصبر . وفسر الصبر بالاسترجاع لقول الله تعالى **﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾** . وفسرت الصلاة في الآية بالدعاء الذي هو المعنى اللغوي للصلاة ، وفسرت بالصلاة المعروفة ، وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة . **﴿ وإنها ﴾** أي الصلاة على القول الراجح أو الاستعانة **﴿ لكبيرة ﴾** أي ثقيلة شاقة . **﴿ إلا على الخاشعين ﴾** الخشوع هو : الإخبات لله والتطامن ، أو هو الخوف والتواضع والخضوع الذي هو اللين والانقياد وقد عرّفنا الله عز وجل من هو الخاشع بقوله :

﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ . والظن هنا : اليقين ، ولقاء الله : فسر بلقاء جزائه ، وفسر برؤيته ومعاينته بلا كيف ، وفسر الرجوع : بالعود إليه في الآخرة ، وفسر بعود الأمور كلها إلى مشيئته وحكمه . فالخاشع : هو من أيقن بلقاء الجزاء في الآخرة فهذا يعمل على حسب ذلك ، وأما من لم يوقن بالجزاء ، ولم يرج الثواب فإن التكليف عليه شاق ، والصلاة التي هي أولى العبادات تكون عليه مشقة خالصة .

قال ابن كثير : « والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل فإنهم لم يُقصدوا بها على سبيل التخصيص وإنما هي عامة لهم ولغيرهم » أقول : إنه ما من آية في القرآن إلا وهي موجهة للمؤمنين بشكل من الأشكال لأنهم هم المستفيدون وحدهم من كتاب الله . وعلى هذا فما مرّ وما يمرّ لابد أن نعرف فيه هذه القاعدة كي نأخذ حظنا من كل آية ، فإذ يقصّ الله علينا شيئاً حدث لبني إسرائيل فلكي نأخذ منه العبرة فنتجنب أو نستبشر أو نتعظ أو نعمل أو نتوقع أو نتعلم ، وهكذا الشأن في كل آية .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ **الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم** ﴾ قال ابن جرير : « العرب قد تسمي اليقين ظناً والشك ظناً ، والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين أكثر من أن تحصر » وقد استشهد على ذلك ببعض الأبيات ليخلص إلى أن الظن في الآية معناه اليقين .

وقال مجاهد : « كل ظن في القرآن يقين » . وقال : « كل ظن في القرآن فهو علم » . ونحن مطالبون بأنواع من الصبر : الصبر على الطاعات والصبر عن المعاصي والصبر على الابتلاءات . وقد عرَّف سعيد بن جبير الصبر على المصيبة فقال : « الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب به فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر » .

والصلاة الكاملة : هي التي يراعي العبد فيها ما يجب فيها من إخلاص القلب ودفع الوساوس الشيطانية والهواجس النفسانية ، ومراعاة الآداب والخشوع واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي جبار السمٰوات والأرض .

أخرج الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان قال : « كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى وفي رواية لغير أحمد : إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . وقال حذيفة : رجعت إلى النبي ﷺ ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي وكان إذا حزبه أمر صلى » . وقال علي رضي الله عنه : « لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو حتى أصبح » . وروى ابن جرير : أن ابن عباس نُعِيَ إليه أخوه قثم وهو في سفر ، فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ .

كلمة في هذه الآيات وسياقها :

- في هذا المدخل للمقطع الثالث : خمسة عشر أمراً ونهياً ، أو ما له حكم الأمر أو النهي وهي بمجموعها العلاج الكامل للنَّفسية الكتابية حتى يصلح أمرها على مقتضى دين الله في صيغته النهائية والخاتمة ؛ الإسلام المنزَّل على محمد ﷺ ، فالكتابي لا ينصهر بهذا الدين إلا إذا لاحظ مجموع هذا وبقدر انصهاره بمجموع هذه الأوامر ، فإنه يكون أكثر صدقاً .

- يلاحظ أن هذه الأوامر والنواهي جاءت في سياق الخطاب لبني إسرائيل ، ثم يلاحظ أن بقية المقطع كانت إما في تعليل صدور هذه الأوامر والنواهي ، أو في دروس تعطى لهذه الأمة من خلال ذلك بما يعمّق ضرورة الالتزام بهذه المعاني جميعاً ، ثم يلاحظ من خلال دراسة سورة البقرة ، أن هذه الأوامر والنواهي أحد اثنين إما شيء قد طولبنا به من قبل ، أو شيء سنطالب به فيما بعد :

فمثلا في مقدمة سورة البقرة والمقطعين بعدها عرفنا قضية الإيمان والصلاة والزكاة وعدم نقض الميثاق ، وَوَصْلِ ما أمر الله به أن يوصل . وعدم الإفساد في الأرض وألا نبيع دين الله بشيء من الدنيا ، وكل ذلك قد جاء بصيغة الأمر والنهي لبني إسرائيل هنا .

وسنرى فيما يأتي في السورة أمراً لنا بالاستعانة بالصبر والصلاة ، وتحذيراً لنا من كتمان شيء مما أنزل الله ، وتعريفاً لنا على البر ، وكان ذلك مما صدرت فيه الأوامر والنواهي لبني إسرائيل ، ومن ثَمَّ ندرك أن هذا المقطع الذي يتوجه فيه الخطاب لبني إسرائيل هو بمثابة التهييج لنا على تنفيذ ما سبق ، وبمثابة التأسيس لما سنُطالَب به فيما يأتي من السورة .

- كنا قلنا من قبل : إن المقطع الثالث يتألف : من مدخل وفصلين . المدخل وقد رأيناه ، والفصل الأول ينتهي في الآية (٧٤) . وهو يتألف من فقرتين الفقرة الأولى : لها صلة بقوله تعالى ﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم** ﴾ . والفقرة الثانية : لها صلة بقوله تعالى: ﴿ **وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبون** ﴾ . والفصل الثاني له صلة بقوله تعالى : ﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾ .

وهكذا نجد أن الفصلين اللاحقين للمدخل في هذا المقطع ، إنما هما بمثابة تعليل لهذه الأوامر والنواهي التي صدرت لبني إسرائيل مع إعطاء الدروس للأمة الإسلامية خلال ذلك لتعرف أن لها الإمامة بحق ، وأن عليها ألا تقع في خطأ السير في طريق المغضوب عليهم والضالين . ولعل القارىء بهذا وبما مرّ أدرك الصلة بين هذا المقطع وما قبله وما بعده ، ولا زال في هذا الموضوع كلام فلننتقل إلى الفقرة الأولى من الفصل الأول من هذا المقطع .

الفقرة الأولى من الفصل الأول :

تمتد هذه الفقرة من الآية (٤٧) إلى نهاية الآية (٦٢) وهذه هي :

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾

وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾

وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾

وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ

ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا
وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا
عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ
ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ
أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ
وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا

فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

كلمة في هذه الفقرة :

تقص علينا هذه الفقرة نماذج من نعم الله على بني إسرائيل : من تفضيلهم على عالم زمانهم ، ومن إنجائهم من فرعون ، ومن إنزال التوراة عليهم ، ومن قبول توبتهم من بعد ما عبدوا العجل ، ومن إحيائهم بعدما أماتهم عقوبة لهم ، ومن تظليل الغمام على آبائهم وإنزال المَنَّ والسلوىٰ ، ومن فتح بعض البلدان عليهم ، ومن سقيهم ماءً بشكل معجز ، ومن إباحة لما طلبوه مما اشتهته أنفسهم . ولكن هذا التذكير بالنعم يأتي في طيِّه تذكير بمواقفهم الخائنة مع وجود هذه النعم . بل تستقر الفقرة على ذكر العقوبات الكبرى من ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، ورجوعهم بغضب الله ، إلا من كان منهم مؤمناً يعمل الصالحات ، وذلك للإشعار بأنه لا أحد له دالّة على الله إذا خالف . وذلك درس لنا أيتها الأمة وتوطئة لما سيأتي بَعدُ من دروس أخرى ؛ من خلالها يتعمق في نفوس هذه الأمة : أنه لا ينبغي أن يكون في قلوب أبنائها شعور بأي نوع من أنواع الأستاذية لليهود عليها فضلا عن غيرهم . نلحظ هذا من قوله تعالى : ﴿ **وباءُوا بغضب من الله** ﴾ . وكان جل جلاله في الفاتحة علمنا أن ندعوه : ﴿ ... **غير المغضوب عليهم** ﴾ .

لقد كان بعض الذين لهم احتكاك ببعض الأديان السابقة ، يرون لأهل هذه الأديان ميزة يظهر ذلك من بعض التعبيرات التي وردت على ألسنة بعض الأنصار رضوان الله عليهم ، ويظهر ذلك في أن قريشاً في بعض الأحوال سألت بعض أهل الكتاب عن رسول الله ﷺ ويظهر ذلك في أن خديجة نفسها رضي الله عنها استفسرت عما حدث لرسول الله ﷺ في الغار بأن سألت ورقَة بن نوفل ، وإذ جاء الإسلام تقريراً للحق وتصحيحاً لكل التصورات والمعتقدات الفاسدة ومن جملتها معتقدات وتصورات أهل الكتاب ، فلا بد من أن يُحرر المسلمون من مشاعر التبعية للآخرين ، ولابد أن يربوا على الأستاذية للآخرين ، ومن ثَمَّ فإن هذا المقطع يخدم في جملة ما يخدم في هذا الشأن ، وهذه الفقرة تضع أساساً في ذلك .

تفسير الفقرة :

﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم** ﴾ يتجه الخطاب مرة ثانية إلى بني إسرائيل بذكر النعم التي أنعمها على آبائهم وأسلافهم . ﴿ **وأني فضلتكم على العالمين** ﴾ : أي فضّلهم على سائر الأمم من أهل زمانهم بإرسال الرسل منهم وإنزال

الكتب عليهم . قال أبو العالية في تفسيرها : « بما أُعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان ، فإن لكل زمان عالماً » أقول : هذا فهم بعض أهل التفسير لظاهر التفضيل ، والقرآن قد أطلق التفضيل ومن ثَمَّ فقد يكون التفضيل لهم على غيرهم مع اشتراك غيرهم معهم في مثل ما ذكر من الأسباب . وتفضيلهم على العالمين من أعظم نعمه عليهم ، ولكنه خُصَّ بالأمر بالتذكر ، بعد الأمر بتذكر النعم ، لأهمية ذلك ، فالعقلية اليهودية منطبع فيها أن اليهود شعب الله المختار مهما فعلوا ومهما أساءوا ومهما أفسدوا ، وأن هذه صفة أبدية لهم مهما كفروا ومهما عصوا ، ولذلك فإنه يذكّر بهذه النعمة ابتداءً بين يدي تعداد النعم الذي في طياته التأنيب على الانحراف ، ليستقر ذلك على العقوبة الأبدية لهم إن لم يراجعوا أنفسهم في الولوج في حمى الأمة المرحومة أبداً ، إن ذكر ذلك على انفراد كما قلنا له أهميته الخاصة . وبعد هذا التذكير المجمل بالنعم وبالتفضيل يتجه الخطاب إليهم بالتذكير بالآخرة .. ﴿ **واتقوا يوماً** ﴾ . أي : يوم القيامة الذي من صفاته : ﴿ **لا تجزي نفس عن نفس شيئاً** ﴾ . أي : لا يغني أحد عن أحد ، فلا تغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة شيئاً من الحقوق التي لزمتها ﴿ **ولا يُقبل منها شفاعة** ﴾ الضمير في (منها) يرجع إلى النفس المؤمنة أي لا تقبل منها شفاعة للكافرة فهو كقوله تعالى في سورة المدَّثر : ﴿ **فما تنفعهم شفاعة الشافعين** ﴾ ، فهذا أبلغ رد على اليهود الذين يزعمون أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، وعلى النصارى الذين يزعمون أن عيسى يحمل عنهم خطاياهم ، وعلى أمثالهم ، ممن كفر بعد إيمان . وتشبث المعتزلة بالآية في نفي الشفاعة للعصاة من المؤمنين مردود بالنصوص كما سنرى لأن المنفي شفاعة الكفار ﴿ **ولا يؤخذ منها عدل** ﴾ : أي لا يقبل منها فداء ، فالعدل هنا الفدية والبدل ﴿ **ولا هم ينصرون** ﴾ أي لا أحد يعينهم ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله ، قال ابن جرير : « يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع ولا يقبل منهم عدل ولا فدية ، بطلت هنالك المحاباة ، واضمحلت الرشا والشفاعات ، وارتفع من القوم التناصر والتعاون وصار الحكم إلى الجبار ، العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء ، فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها . أقول : وفي تذكيرهم باليوم الآخر وبعض قوانينه الصارمة بعد أمرهم بتذكر النعم وتفضيلهم إشعار لهم أنهم مكلفون ومحاسبون ، وأن ذلك يقتضي منهم شكراً لا بطراً ، وطاعة لا معصية ، قياماً بحق الله لا فراراً منه . وهذا يدلنا على أن السياق .. سياق تذكير وتأنيب ودعوة ، وهي في النهاية إعطاء دروس لهذه الأمة ، ألّا تقع فيما وقعت فيه أمم أخرى . وللأسف فإن الكثيرين من أبناء أمتنا واقعون فيما وقع فيه اليهود في سيرهم الطويل كما

سنرى ، ثم بعد الأمر بتذكر النعم وتذكر التفضيل وبعد الأمر بتوقي عذاب اليوم الآخر تتجه الفقرة إلى تذكيرهم بنعم الله الكبرى عليهم واحدة فواحدة ، وكل نعمة تُذْكر ، يُصدَّر التذكير بها بقوله تعالى ﴿ وإذ ﴾ فيكون التقدير : واذكروا إذ ، فحيثما وردت ﴿ إذ ﴾ فيما يأتي فإنها أمر بتذكّر نعمة . ومن ثَمَّ فما بقي من الفقرة فهو أمر بتذكر النعم تفصيلاً بعد الأمر بتذكرها إجمالاً والملاحظ أن بعض النعم التي ذُكّروا بها كانت من نوع قبول التوبة بعد انحراف خطير يذكر ، وأن بعضها ذكر وذُكر ما رافقه من انحراف ، فكان ذلك كله تمهيداً لاستحقاقهم العقوبة الأبدية لهم وهي :

﴿ **وضُربَت عليهم الذلّة والمسكنة وباءُوا بغضب من الله** ﴾ : والتي لا مخرج لهم منها إلا بمتابعة محمد ﷺ ، وفي ذلك كله دروس لهذه الأمة تحذرها من أن تفعل ما فعلوا :

٧ - ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يُذبحّون أبناءكم ويستحيُون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم ﴾ .

يقول تعالى : اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ خلّصتكم وأنقذتكم من أيدي فرعون وقومه ، وقد كانوا يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب بذبح الأبناء وإبقاء البنات للخدمة ، وفي ذلك تعريض العرض للفتنة وفي ذلك محنة عظيمة لكم فتذكّروا الخلاص منها . (والآل) بمعنى : الأهل ، وخص استعماله بأولي الخطر ، كالملوك وأشباههم ، وفرعون عَلَم على مَنْ مَلَكَ مصر قديماً ككسرى لِملك الفرس ، وسامه بمعنى : أولاه . وسوء العذاب : أشده وأفظعه . والبلاء : يطلق على النعمة والنقمة على حسب تقدير اشتقاقه ، وههنا يصلح للوجهين فإن أشير به إلى صنع فرعون كان المراد به المحنة ، وإن أشير به إلى الإنجاء كان نعمة ، وجمهور المفسرين على أن البلاء هنا المراد به المحنة.

٨ - ﴿ وإذْ فَرَقْنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ أُمِروا بتذكّر هذه النعم استقلالاً ، مع أنها جزء من نعمة الخروج من مصر ، لِما في كلّ منها من نعمة عظيمة ، يذكّرهم تعالى كيف أنه بعد أن أنقذهم من آل فرعون وخرجوا مع موسى خرج فرعون في طلبهم ففرَق الله بهم البحر فخلّصهم منهم وحجز بينهم وبينه وأغرقه مع من معه وبنو إسرائيل ينظرون ، ليكون ذلك أشفى لصدورهم وأبلغ لإهانة عدوهم . ومعنى ﴿ **فرقنا** ﴾ فصلنا بين بعض وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم

وقد بقي يوم الإنجاء مشهوراً عند بني إسرائيل يعظمونه . فقد روى البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد عن ابن عباس قال : « قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال : ما هذا اليوم الذي تصومون ؟ قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجّى الله – عز وجل – فيه بني إسرائيل من عدوهم ؛ فصامه موسى عليه السلام فقال رسول الله ﷺ : أنا أحق بموسى منكم فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه »

٣ – ﴿ **وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون** ﴾ .

يذكّرهم تعالى قائلاً : واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه ، وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر . والضمير في ﴿ **من بعده** ﴾ يعود على موسى والتقدير من بعد ذهابه إلى الطور إذ اتخذوا العجل إلهاً وعبدوه . فههنا ذكّرهم بنعمة العفو عنهم على فظاعة الجرم الذي ارتكبوه وهم حديثو عهد بالخروج ومعجزاته .

٤ – ﴿ **وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون** ﴾ . الكتاب : التوراة والفرقان : ما يفرق بين الحق والباطل ، وهو هنا : إما الآيات التي أعطيها موسى كالعصا واليد ، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام ؛ فهذه نعمة رابعة أنعمها عليهم أنه أنزل عليهم كتاباً ليهتدوا بهديه .

٥ – ﴿ **وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، إنه هو التواب الرحيم** ﴾ .

في هذه الآية توبة الله على بني إسرائيل من عبادة العجل ، فلم تقبل التوبة إلا بأن قتل بعضهم بعضاً ، ومع شدة هذا فإن الله يمن عليهم أن تاب عليهم وقبل توبتهم ، والبارىء هو : الخالق الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت ، والتواب هو : المفضال بقبول التوبة مرة بعد مرة ولو كثرت الذنوب واسم الرحيم في هذا السياق يشير إلى معنى : أن رحمته من السعة بحيث يعفو عن الذنب وإن عظم إذا تاب صاحبه ، وأي ذنب أعظم من الشرك ؟ وأي ظلم للنفس أكبر من هذا الظلم الذي وقع فيه بنو إسرائيل ؟ إذ تركوا بعد المعرفة عبادة العليم الحكيم الذي برأهم إلى عبادة البقر الذي يضرب به المثل في الغباوة

والبلادة ، فاستحقوا هذا العقاب الذي نزل بهم . وقتل النفس الذي أمروا به يحتمل معاني من جملتها وهو الأرجح أن يقتل من لم يعبد العجلَ من عبدَه وأن يستسلم الآخر ، أو أن يقتل كل منهم من لقيه من أهل وولد وغير ذلك . ولا شك أن تنفيذ هذا الأمر من بني إسرائيل منقبة لهم تظهر فيه حكمة الله في تفضيلهم على عالم زمانهم . وقد قال الله في الآية : ﴿ **ذلكم خير لكم عند بارئكم** ﴾ أي : إن التوبة والقتل خير من الإصرار على المعصية عند الله . وفي هذه الآية دروس منها : أن الذنب لا يمر بلا عقوبة مهما كان فاعلوه إلا إذا شاء الله أن يعفو . وفي ذلك تذكير لليهود بأن يخففوا من دعاواهم مع الله وأمام خلقه . ومن الدروس في الآية أن المؤمن لا يبالي في ذات الله أن يقتل أهله أو قومه أو تقتل نفسه ، ومن الدروس في الآية درس للجاهلين بالله الذين يتصورون أن كل ما يجري من معصية لله في هذه الأرض ، لا يجوز معه لأهل الله أن يتحركوا إلا في حدود الكلمة ، وإذا فكروا في شيء آخر فكأنهم أخلوا بقوانين السماء والأرض ، إن هؤلاء جهلة بالله وجهلة بالإسلام .

٦ – ﴿ **وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون** ﴾ .

﴿ **وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ يأمرهم الله عز وجل في هذه الآيات أن يتذكّروا مجموعة نِعَم : بعثهم بعد إماتتهم ، وتظليلهم بالغمام مع إنزال المنّ والسلوى ، ولكنه تذكير يرافقه تذكير آخر بظلمهم وتعنتهم :

﴿ **وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ : أي عياناً ومعاينة ﴿ **فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون** ﴾ الصاعقة ههنا : إما صوت سمعوه فصعقوا وماتوا وإما نار أحرقتهم . ﴿ **ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون** ﴾ البعث : هو الإحياء بعد الإماتة ، وأصل كلمة البعث في اللغة : الإثارة وفي قوله تعالى : ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ دليل على أن السياق لازال يصب في موضوع التذكير بالنعم .

والفارق بين سؤال موسى ربه أن يراه وسؤالهم الرؤية : أن موسى سأل الرؤية مع الإيمان شوقاً لله ، وهؤلاء سألوا تعنتاً وكفراً ، إذ علقوا الإيمان بموسى بعد ظهور معجزاته حتى يروا ربهم جهرة ، والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم ، ولا يجوز اقتراح الآيات عليهم ، وسؤالهم لم يكن سؤال استرشاد بل سؤال تعنت وعناد فعوقبوا على ذلك بالصعق والموت . فدلّ ذلك على عظم الجرم ، وما أكثر مَن يطلب

هذا الطلب من أهل عصرنا مع زيادة وقاحة ، فبنوا إسرائيل طلبوا الرؤية وعلقوا عليها الإيمان ، وإن من أبناء عصرنا من كتب طالباً الرؤية من أجل أن يؤذي الله في زعمه . ألا ما أجهل الكافر وأغباه وما أحمقه وأضله وما أعظم حلم ربنا !؟ ولكن ما أعده الله لأعدائه في الدنيا والآخرة كثير . وهل الذين طلبوا الرؤية هم الجميع ، أو هم السبعون الوارد ذكرهم في سورة الأعراف ؟ قولان للمفسرين وسنقف في سورة الأعراف وقفات طويلة مستعرضين الروايات اليهودية مع النقد فإلى هناك . وقد ناقشنا موضوع تعليق الإيمان بالله على رؤيته وسماعه في كتابنا « الله جل جلاله » وقد اتضح لنا من خلال ما مر هنا وما مر من قبل في قصة بني إسرائيل أو في قصة آدم كيف أن معصية الله لا تمر بدون عقوبة للفرد أو للجماعة أو للأمة فما أكثر غفلة الناس .

﴿ **وظلّلنا عليكم الغمام** ﴾ : أي جعلنا الغمام يظلكم ، وذلك في التيه سخّر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس : ﴿ **وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى** ﴾ اختلفت عبارات المفسرين في المنّ ما هو وسننقل في سورة الأعراف ما تذكره الروايات الإسرائيلية .

قال ابن كثير ملخصاً عبارات المفسرين في شرح المنّ قال : « فمنهم من فسّره بالطعام ومنهم من فسّره بالشراب ، والظاهر والله أعلم أنه كل ما منّ الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد . فالمنّ : المشهور إن أُكل وحده كان طعاماً وحلاوة ، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً ، وإن ركّب مع غيره صار نوعاً آخر » . وهناك حديث صحيح رواه البخاري يستأنس به هنا وهو : « الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين » وأما السلوى : فالمشهور الذي يكاد يكون عليه إجماع المفسرين أنها طير ، وفسر بأنه السُّمانى وهو طير أكبر من العصفور ، وقال بعضهم غير ذلك . ووجد من قال بأن السلوى هي العسل . ﴿ **كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ .

قال ابن كثير : « أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا .. فخالفوا وكفروا ، فظلموا أنفسهم هذا مع ما شاهدوه من الآيات والمعجزات القاطعات وخوارق العادات » .

قال ابن كثير تعليقاً على هذه الآية :

« من ههنا نتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته منها عام تبوك في

ذلك القيظ والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدْر مَبركِ الشاة فدعا الله فيه وأمرهم فملأوا كل وعاء معهم ، وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل وملأوا أسقيتهم ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر فهذا هو الأكمل » .

٧ - ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حِطَّة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ، فبدَّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ .

هذه نعمة أخرى يأمرهم الله عز وجل بتذكرها وهي الفتح بعد التيه ، ويأمرهم أن يشكروه على نعمة الفتح والرّخاء بأنواع من الطاعة ، وهم العطاش إلى الفتح والاستقرار بعد تشرد طويل ، وهم المحتاجون إلى العيش الرغّد بعد تيه طويل ، ومع ذلك لم يقابلوا ذلك بما ينبغي .

﴿ **وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية** ﴾ الظاهر أن هذا القول لهم بعدما خرجوا من التيه بعد وفاة موسى عليه الصلاة والسلام في عهد يوشع بن نون خليفة موسى على قومه والقرية إما بيت المقدس أو أريحا ، ﴿ **فكلوا منها حيث شئتم رغداً** ﴾ أي هنيئاً واسعاً ﴿ **وادخلوا الباب سجَّداً** ﴾ الباب باب القرية أو باب القبة التي كانوا يُصَلّون إليها ، وسجّداً جمع ساجد أُمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله تعالى وتواضعاً له ، وهل المراد بالسجود هنا الركوع أو الخضوع ، أو السجود الحقيقي ؟ أقوال للمفسرين والظاهر أنه السجود الحقيقي . ﴿ **وقولوا حِطَّة** ﴾ أُمروا أن يجمعوا مع الفعل القول فيطلبوا من الله أن يحطّ عنهم ذنوبهم فالحطة : مشتقة من الحط وهو هنا إما طلب حط الذنوب ، أو أن مسألتنا وأمرنا حطة أي تواضع لجلال الله ، أو أمر الله حطة بمعنى : أنه موضوع علينا . ﴿ **نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين** ﴾ : الخطايا جمع خطيئة وهي الذنب ، وُعِدُوا (على الطاعة في القول والفعل) غفران الذنب للمذنب والزيادة في الثواب للمحسن ، فكيف كان موقفهم من الأمرين :

﴿ **فبدَّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم** ﴾ أُمروا بقول معناه التوبة والاستغفار ، فخالفوه إلى قولٍ ليس معناه ما أمروا به ، قيل : قالوا بدل حِطَّة : حنطة ، وأمروا بالسجود حال الدخول ، فبدلوا بأن دخلوا زاحفين على أستاههم . ﴿ **فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً** ﴾ أي عذاباً ﴿ **من السماء بما كانوا يفسقون** ﴾ الفسوق هو

الخروج عن طاعة الله . وقد كرر تعبير ﴿ **الذين ظلموا** ﴾ في الآية الأخيرة مرتين زيادة في تقبيح أمرهم وإيذانا بإنزال الرجز عليهم لظلمهم .

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « قيل لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سجداً وقولوا : حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدّلوا وقالوا حبة في شعرة » أقول : وهذا نص في التبديل الذي فعلوه فلا محل لكلام آخر . وأما ما هو الرجز الذي نزل بهم فللمفسّرين أقوال وليس هناك من نص خاص في هذا الموضوع .قال الضحاك : عن ابن عباس « كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب » . وقال أبو العالية : الرجز الغضب وأخرج ابن جرير بسنده عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ قال : « إن هذا الوجع والسقم رجز عُذب به بعض الأمم قبلكم » . وأخرج النسائي عن رسول الله ﷺ : « الطاعون رجز عذاب عُذِّب به من كان قبلكم » . لكن هذين النصين ليسا في الحادثة التي نحن فيها عيناً ، ولكن بعض المفسرين استأنس بهما ففسر الرجز هنا بالطاعون وبالبرد ، والله أعلم .

وفي الآيتين إشعار بأن النعمة ينبغي أن يقابلها شكر ، والشكر قول وعمل ، وفيهما إشعار أن الأمر بالقول والفعل ينبغي أن يكون تنفيذه حرفياً لا تبديل ولا تغيير ، وأن المعصية لا تمرّ بلا عقوبة ، والملاحظ أن السياق كلما تقدم يوضح لنا طبيعة جديدة من طبائع يهود ، ليكون ذلك تأسيساً لفهم مواقفهم من الدعوة الجديدة ، ولتعتبر هذه الأمة فلا تقع فيما وقع به غيرها ، والطبيعة الجديدة لليهود التي عرفناها في هاتين الآيتين هي التحريف في التنفيذ . ثم يأمرهم الله عز وجل بأن يتذكروا نعمة أخرى :

٨ - ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجرَ فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناسٍ مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ .

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى عليه الصلاة والسلام حين استسقاني لكم ، وتيسيري لكم الماء وإخراجه لكم من حجر يُحمل معكم ، وتفجيري الماء لكم من اثنتي عشرة عيناً لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها ، فكلوا من المنّ والسلوى ، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كدّ واعبدوا الذي سخر لكم ذلك ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتُسلَبوها .

والاستسقاء : طلب السقيا من الله والألف واللام في الحجر ، هل هي للعهد أو

للجنس ؟ قولان للمفسرين فإن كانت للعهد فذلك إشارة إلى حجر معلوم ، وإن كانت للجنس فذلك إشارة إلى أي حجر ، والانفجار هو : السيلان بكثرة وكانت اثنتا عشرة عيناً على عدد أسباط بني إسرائيل ، وقد عرف كل سبط – أي فروع ابن من أبناء يعقوب – عينهم التي يشربون منها فأصبح أكلهم في التيه المنّ والسلوى وشربهم من العيون والكل من رزق الله ، والعيث أشد الفساد . ومعنى قوله تعالى ﴿ **ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾ أي ولا تتمادوا في الفساد في حال فسادكم ، وبهذه الآية تمت صورة ما أعطي بنو إسرائيل في التيه لطعامهم وشرابهم ليكون ذلك تأسيساً للآية بعدها ، التي تعرفنا على طبيعة جديدة لليهود هي الطبيعة المتطلعة لغير ما أعطيت ، الطبيعة التي تتطلع إلى الدنىء الممنوع رغم ما بيدها من الخير الرفيع ، وقد نهتهم هذه الآية عن الفساد ولم تذكر لنا شيئاً عن فسادهم ولكن الآية اللاحقة تؤكد إفسادهم في الأرض كما سنرى .

٩ – ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادعُ لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ، وضُربت عليهم الذلة والمسكنة وباءُوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ .

الطعام الواحد هو المنّ والسلوى ، وإنما قالوا : على طعام واحد وهما طعامان لأنهم أرادوا بالواحد ما لايتبدل ، ولو كان على مائدةالرجل ألوان عدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها يقال : لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً ، والبقول : ما أنبتته الأرض من الخضار ، والمراد به في النص أطايب البقول ، والقِثَّاء معروفة وهي والخيار صنف واحد ، والفوم هو الحنطة على لغة قريش ، أو الحمص على لغة الشام ، أو الثوم ، وقد قرأ به ابن مسعود ، أو هو كل ما يختبز .

والأدنى : هو الأقرب منزلة والأدون مقداراً ، والدنو والقرب يُعبر بهما عن قلة المقدار ، والخير في الآية هو الأرفع والأجل ، ومصراً في الآية مُنكّرة أي : أيّ مصر من الأمصار يوجد فيه ما سألتم ، والذلة الهوان ، والمسكنة : الاستكانة فاليهود أذلاء وأهل مسكنة من طبيعتهم التصاغر والتفاقر ومعنى « باءُوا بغضب من الله » أي صاروا أحقاء بغضبه – أو حقوا على رأي الكسائي وباء معناها رجع .

يقول تعالى في الآية : واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المنّ والسلوى طعاماً

طيباً هنيئاً نافعاً سهلاً ، واذكروا ضجركم مما رزقناكم ، وسؤالكم استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة من البقول ونحوها . فكان جواب موسى : أن هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه ، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه ، هذا الذي ذكره المفسرون . ولكني ألمح مع التأنيب الإباحة ، أخذاً من السياق الذي يعدّد النعم فكأنهم مع نزولهم عن المقام الأعلى أبيح لهم أن يحصلوا على مثل هذه الأشياء بالنزول إلى الأمصار المجاورة لهم في رحلة التيه ، وبهذا يكون قد انتهى تعداد النعم ثم بعد ذلك يذكر الله عز وجل ما عوقبوا به بعد موسى بكثير .

﴿ **وضُربت عليهم الذلّة والمسكنة وباءُوا بغضب من الله** ﴾ . ثم علل جل جلاله لهذه العقوبة : ﴿ **ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ . فالكفر بالآيات وقتل الأنبياء والعصيان والاعتداء ، هي سبب استحقاقهم للذلة والمسكنة والغضب من الله بعد سير تاريخي طويل ، وبعد إنعام كثير وبعد تفضيل الله إياهم على عالم زمانهم .

إنها عقوبة تأتي بعد فترة من المرحلة التي قصّ الله علينا من أنباء الإنعام عليهم ، ولكنه جل جلاله وهو يقصّ علينا من أنبائهم في المرحلة الأولى ، هيأ أذهاننا لنصل إلى هذه النتيجة من خلال ما رأيناه من تعنتهم في الطلب وتحريفهم للأمر ، وظلمهم واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وذلك كله في العصر الأول ، إن بذور الأخلاق الفاسدة الكبرى التي أدت إلى عقوبتهم النهائية كانت موجودة عند بعضهم حتى في العصر الأول عصر موسى ويوشع . عليهما السلام .

ثم تأتي آية أخيرة في الفقرة :

﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ .

من المعلوم أن الأمة كلها لا تقع في المعصية بل يبقى أفراد ملتزمون مطيعون وهم لما يفعله الآخرون كارهون ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً ، هؤلاء ما محلهم في أمتهم ؟ ما حظهم من العقوبة الدنيوية والأخروية ؟ مع أنهم يقومون بحق الله ، إن هذه الآية تأتي لتقرر أن فضل الله عز وجل سابغ على أمثال هؤلاء في كل أمة من الأمم ، فهم بمنجاة من العقوبة الدنيوية والعقوبة الأخروية والذين هادوا هم : اليهود ، والنصارى هم من

نصروا المسيح وللمفسرين في الصابئين اتجاهان ، **الاتجاه الأول** : أنهم قوم بأعيانهم تجد بقاياهم الآن في العراق يعبدون النجوم والملائكة ، **والاتجاه الثاني** : أنهم كل من فارق الباطل إلى الله ولا يعرف ما هو الدين الصحيح ، وذهب بعض العلماء أنهم الذين لم تبلغهم دعوة نبي ولم يدخلوا في عبادة غير الله .

ويجب أن يكون واضحاً أن المقصود بهؤلاء من المذكورين إنما هم المؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً حقيقياً والعاملون بدين الله ﴿ **من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً** ﴾ .

وحتى لا يقع لبس نقول : إنه لم يعد الآن نجاة لا ليهودي ولا لنصراني ولا لصابىء ولا لمجوسي ولا لغير ذلك إلا بالإيمان بمحمد ﷺ إلا إذا لم تبلغه الدعوة ، وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار » .

وعلى هذا فاليهود المعنيون في الآية : هم من كانوا قبل عيسى ممن لم يشاركوا في المعصية واستمروا على الإيمان ، أما اليهودي الذي لم يؤمن بعيسى بعد بعثته فإنه هالك ، والمراد بالنصارى ، النصارى الذين كانوا قبل محمد ﷺ ممن استمروا على الإيمان الصحيح والعمل الصالح ولم ينحرفوا بانحراف الناس ، أما بعد محمد ﷺ فكل نصراني هالك إذا لم يدخل في الإسلام . وكذلك الصابئون فإنهم ناجون حتى بعثة محمد ﷺ بحكم مفارقتهم قومهم إذا أريد بهم هذا المعنى ، أما بعد البعثة فكل من لم يؤمن هالك .

وصُدِّرت الآية بالكلام عن الذين آمنوا ، والمراد بهم أمة محمد ﷺ مع أنهم الآخرون وجوداً ، لأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضين والغيوب الآتية فكان الإيمان عَلَماً عليهم .

إن أهل الإيمان والعمل الصالح لهم السعادة الأبدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلون ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه .

وبهذا انتهت الفقرة الأولى من الفصل الأول من المقطع الثالث .

كلمة في هذه الفقرة وسياقها :

- دلّنا على نهاية هذه الفقرة أنها خُتمت بمثل القاعدة التي ختمت بها قصة آدم . ودلنا على ذلك أيضاً : أن الفقرة كلها كانت في التذكير بالنعم ، ثم ختمت بقاعدة ، ثم

تأتي فقرة أخرى تذكر بالميثاق وبشيء آخر ، وإذن ففي القرآن علامات للمتأملين على بدايات ونهايات الفقرات والمقاطع والأقسام وذلك سيتضح معنا شيئاً فشيئاً .

– يلاحظ أن هذه الفقرة ختمت بقوله تعالى :

﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءُوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ .

﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ لاحظ التشابه بين نهاية هذه الفقرة ونهاية قصة آدم : ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ . وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن المقطع الذي جاء بعد قصة آدم كان نموذجاً لأمة أنزل عليها وحي ، وما هو موقفها من هذا الوحي ، لتأخذ هذه الأمة دروس ذلك .

– بدأ هذا المقطع بأوامر ونواهٍ موجهة لبني إسرائيل :

وكان الأمر الأول ﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم** ﴾ وجاءت هذه الفقرة في التذكير بالنعم الجلّى عليهم .

وكان الأمر الثاني والثالث : ﴿ **وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبون** ﴾ .

وستأتي الفقرة الثانية في التذكير بالعهد والتذكير بالخشية : ولذلك تبدأ الفقرة الثانية بقوله تعالى :

﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم ..** ﴾ وتنتهي بقوله تعالى ﴿ **وإنَّ منها لَما يهبط من خشية الله** ﴾ .

فالصلة واضحة بين مدخل المقطع وبين الفصل الأول من المقطع في فقرتيه فلننتقل إلى الفقرة الثانية من الفصل الأول .

الفقرةالثانية من الفصل الأول من المقطع الثالث :

تمتد هذه الفقرة من الآية (٦٣) إلى نهاية الآية (٧٤) وهذه هي :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾

فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

كلمة عامة في هذه الفقرة :

تتحدث الفقرة في جولتها الأولى عن الميثاق الذي أُخذ على بني إسرائيل ، وماذا فعلوا فيه ، وتتحدث في جولتها الثانية عما عوقب به المخالفون لأمر الله في السبت ، وتتحدث في الجولة الثالثة عن حادثة كشف القاتل ، ثم تنتهي الفقرة بآية تتحدث عما أصيبت به قلوب بني إسرائيل من قسوة زادت على قسوة الحجارة وهي في جولتيها الثانية والثالثة تبرز من مظاهر الجلال الإلهي ما يستجيش أعظم مظاهر الرهبة من الله جل جلاله .

التفسير

﴿ **وإذا أخذنا ميثاقكم** ﴾ بقبول ما في التوراة ﴿ **ورفعنا فوقكم الطور** ﴾ قال ابن عباس : إنهم لمّا امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة** ﴾ . أي : خذوا التوراة بجد واجتهاد وعزيمة ، وذلك بالعلم والعمل ﴿ **واذكروا ما فيه** ﴾ . أي : بحفظه ودراسته وتذكّره وعدم نسيانه والغفلة عنه ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ . أي رجاء أن تكونوا من المتقين الناجين عند الله ﴿ **ثم توليتم من بعد ذلك** ﴾ . أي : ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به ، أي إنهم بعد ذلك الميثاق المؤكد العظيم انثنوا عنه ونقضوه ﴿ **فلولا فضل الله عليكم ورحمته** ﴾ بتأخير العذاب عنكم أو بتوفيق الله إياكم للتوبة عليكم وإرسال النبيين والمرسلين إليكم ﴿ **لكنتم من الخاسرين** ﴾ . أي : الهالكين بنقضكم ذلك الميثاق في العذاب بالدنيا والآخرة ﴿ **ولقد**

علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ﴾ هم أهل (إيلة) إيلات اليوم أي العقبة ، وعلمتم هنا بمعنى عرفتم والاعتداء في السبت مجاوزة ما حُدّ لهم فيه ، وذلك أنهم جاوزوا ما حُدّ لهم فيه من التجرد للعبادة وتعظيمه واشتغلوا بالصيد ﴿ **فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين** ﴾ . أي : كونوا جامعين بين القردية والخسوء وهو الصَّغار والطرد . ﴿ **فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها** ﴾ النكال العبرة المانعة ﴿ **لما بين يديها** ﴾ . أي : من بحضرتها من القرى الذين يبلغهم خبرها وما حل بها ﴿ **وما خلفها** ﴾ . أي : لمن يأتي بعدها بالخبر المتواتر عنهم ﴿ **وموعظة للمتقين** ﴾ . أي : وزاجراً وعبرة لكل تقي سمع خبرها ، يدخل في ذلك مَنْ نهوهم ويدخل في ذلك المتقون خلال العصور ومنهم هذه الأمة ، والضمير في قوله تعالى ﴿ **فجعلناها** ﴾ يعود إلى القرية . وتأتي القصة مفصّلة في سورة الأعراف وسنرى هناك كيف احتالوا للصيد يوم السبت بما ظاهره أنهم لم يفعلوا شيئاً يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بإسناد جيد مخاطبا أمتنا « لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحِيَل » .

وقد بيَّن لنا ما مرَّ من هذه الفقرة خلقان جديدان من أخلاق اليهود وطبائعهم :

١ - إعراضهم عن الوحي المنزل إليهم مع كثرة المؤكدات وقوة الدواعي للإقبال .

٢ - تحيُّلهم على التخلص من الأوامر والنواهي بمراعاتها ظاهراً ومخالفتها باطناً والواجب المراعاة الظاهرة والباطنة .

ثم يتجه السياق لتبيان طبيعة أخرى من طبائع اليهود هي الطبيعة الجدلية ليتم في نهاية الفقرة تحديد معالم الطبيعة اليهودية لتخاطب هذه الأمة على ضوء ذلك فتأخذ الدرس الأول في طريقة التعامل مع هذه الطبيعة في الفصل الثاني من المقطع :

﴿ **وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً** ﴾ أي أتجعلنا مكان هزء أو أهل هزء أو الهزء نفسه ﴿ **قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين** ﴾ العياذ واللواذ بمعنى واحد ، والجهل والسَفَه هنا بمعنى واحد ، وقد استعاذ موسى من الجهل لأن الهزء في مثل هذا من باب الجهل والسفه وفيه تأنيب لهم إذ لم يعرفوا مقام الرسول وأنه لا يليق به ما نسبوه إليه ﴿ **قالوا ادع لنا ربك يبيِّن لنا ما هي** ﴾ هذا سؤال عن حالها وصفتها ﴿ **قال إنه يقول : إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك** ﴾ أي لا مسنَّة ولا فتية وإنما هي نصف بين الفارض والبكر وسميت المسنَّة فارضاً لأنها فرضت سنها أي قطعتها وبلغت آخرها ﴿ **فافعلوا ما تؤمرون** ﴾ أي افعلوا ما أمرتم

به ، وفي ذلك إشعار لهم في أن البيان كافٍ وعليهم أن ينفذوا ﴿ **قالوا ادعُ لنا ربك يبيِّن لنا ما لونها ؟ قال إنه يقول : إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسُر الناظرين** ﴾ الفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه يقال في التوكيد أصفر فاقع . والسرور : لذة في القلب تكون عند حصول نفع أو توقعه وههنا وصفت البقرة بأنها تسُر الناظرين لحسنها ، فرؤية الحسن من لذات القلب ﴿ **قالوا ادعُ لنا ربك يبيِّن لنا ما هي** ﴾ هذا تكرار للسؤال عن حالها وصفتها واستكشاف زائد ليزدادوا بيانا لوصفها ﴿ **إن البقر تشابه علينا** ﴾ أي : أن البقر العوان والأصفر كثير فاشتبه علينا ، هذا تعليل لطلبهم مزيد بيان ﴿ **وإنا إن شاء الله لمهتدون** ﴾ أي إلى البقرة المراد ذبحها أو إلى ما خفي علينا من أمر القاتل أخرج ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ قال : « لولا أن بني إسرائيل قالوا : وإنا إن شاء الله لمهتدون لما أعطوا ولكن استثنوا » ، ﴿ **قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلَّمة لا شية فيها** ﴾ لا ذلول أي لم تذلل للكراب وإثارة الأرض ﴿ **ولا تسقي الحرث** ﴾ أي ليست من النواضح التي يسنى عليها لسقي الحروث ﴿ **مسلَّمة** ﴾ أي عن العيوب وآثار العمل ﴿ **لا شيَة فيها** ﴾ أي لا لمعة في نقبتها من لون آخر سوى الصفرة فهي صفراء كلها ﴿ **قالوا الآن جئت بالحق** ﴾ أي بالحق البين ، أي بحقيقة وصف البقرة بحيث لم يبق إشكال في أمرها ﴿ **فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾ أي حصّلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها وما كادوا يفعلون ذلك ، إما لغلاء ثمنها أو لخوف الفضيحة في ظهور القاتل والآن تأتي بداية القصة .

قال المفسرون أول القصة مؤخر في التلاوة وهو قوله تعالى : ﴿ **وإذ قتلتم نفساً ..** ﴾ وذلك لأن السياق يقصّ قصة بني إسرائيل ههنا تعديداً لوجود الجنايات منهم وتقريعاً لهم عليها ، وهاتان القصتان وإن كانتا متصلتين فتستقل كل واحدة منهما بنوع من التقريع ، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك ، والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة ، وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب المراد في تثنية التقريع .

﴿ **وإذ قَتَلْتم نفساً** ﴾ خوطبت الجماعة لوجود القتيل فيهم وهذا يشعر بمسؤولية الجماعة كلها عما يقع فيها . ﴿ **فادارأتم فيها** ﴾ . أي : فاختلفتم واختصمتم في شأنها لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً أي يدفع ، أو المعنى فتدافعتم بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض فيدفع المطروح عليه الطارح ، أو لأن الطرح في نفسه دفع . ﴿ **والله**

مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ . أي : مظهر لا محالة ما كتمتم من أمر القتل لا يتركه مكتوماً ﴿ **فقلنا اضربوه ببعضها** ﴾ . أي : اضربوا القتيل ببعض البقرة المذكورة في الجزء الأول من القصة ، وهذا الضمير هو الذي ربط بين جزئي القصة فضربوه فحيي فأخبر عن قاتله ﴿ **كذلك يحيي الله الموتى** ﴾ . أي : كهذا الإحياء يحيي الله الموتى يوم القيامة ؟ ﴿ **ويريكم آياته لعلكم تعقلون** ﴾ . أي : يريكم دلائله على أنه قادر على كل شيء فتعملون على قضية عقولكم وهي أن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء جميعها لعدم الاختصاص ، ثم عقب الله - عزّ وجلّ - على ما مرّ بقوله :

﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك** ﴾ . أي : من بعد إحياء القتيل أو من بعد كل الآيات المارة ، ووصف القلوب بالقسوة بيان عنها أنها لم تعد تقبل موعظة ولا اعتباراً ، واستعمال حرف العطف (ثم) الذي يدل على التعقيب المتراخي يشير إلى أن المفروض أن لا تقسو قلوبهم بعد ما ذكر مما يوجب لين القلوب ورقتها كإحياء القتيل وغير ذلك من الآيات المارة . ﴿ **فهي كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾ . أي : فهي في قسوتها كالحجارة وأشد قسوة ، أو أن بعضها كالحجارة قسوة وبعضها أشد قسوة من الحجارة أي أن منهم من هو هكذا ومنهم من هو هكذا . ﴿ **وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشّقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ هذا بيان لزيادة قسوة قلوبهم على الحجارة ، يعني أن من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير ، ومنها ما ينشق انشقاقاً بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً ، وقلوبهم لا تندى ولا تنبض بقطرة خير ، ومن الحجارة ما يتردَّى من أعلى الجبل من خشية الله وقلوبهم لا تخشى . ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ هذا تهديد ووعيد وفيه إشارة إلى أن قسوة القلب ينتج عنها أعمال سيئة وأن الله لا يغفل عن عمل .

فـوائـــد :

١ - قالوا في خشية الحجارة وترديها ، إنه مجاز في انقيادها لأمر الله وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها ، وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ما أمرت به .

وقالوا المراد بها الحقيقة : على معنى أنه يخلق فيها الحياة والتمييز وليس شرط خلق الحياة والتمييز في الجسم أن يكون على بنية مخصوصة عند أهل السنَّة ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ..** ﴾ (سورة الحشر)ومنه قوله عليه السلام في الحديث الصحيح عن أحد : « هذا جبل يحبنا ونحبه » ومنه حنين الجذع المتواتر ، ومنه ما في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليَّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن » .

٢ – **قال ابن كثير** : والله تعالى قد ذكر في هذه السورة مما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع ﴿ **ثم بعثناكم من بعد موتكم** ﴾ وهذه القصة ، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة ، ونبَّه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميماً كما قال أبو داوود الطيالسي .. عن أبي رزين العقيلي قال ، « قلت يا رسول الله : كيف يحيي الله الموتى ؟ قال أما مررت بواد ممحل ثم مررت به خضراً قال بلى قال : كذلك النشور أو قال كذلك يحيي الله الموتى » .

٣ – **قال ابن جريج** قال رسول الله ﷺ : « إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم ، وأيم الله لو لم يستثنوا « أي لو لم يقولوا إن شاء الله » لما بُيِّنت لهم آخر الأبد » .

ومن ثَمَّ فعلينا أن نترك التشديد في الأمور ، وأن نسارع إلى امتثال الأوامر وترك النواهي من غير تفتيش وكثرة سؤال .

٤ – **قال بعض العلماء** : إنما أمروا بذبح البقرة دون غيرها لأنها أفضل قرابينهم ، ولعبادتهم العجل .

٥ – **قال المسيب بن رافع** : ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله وتصديق ذلك في كلام الله ﴿ **والله مخرج ما كنتم تكتمون** ﴾ .

٦ – نقل المفسرون أقوالاً كثيرة في تحديد العضو الذي ضُرب به القتيل .

وقال ابن كثير تعليقا : هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن ، وقد كان معيَّناً في نفس الأمر فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبيَّنه الله تعالى ، ولكن أبهمه ولم يجيء من طريق صحيح عن معصوم بيانه فنحن نبهمه كما أبهمه الله .

٧ – اختلف علماء العربية في معنى (أو) في قوله تعالى : ﴿**فهي كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك ، فقال بعضهم : (**أو**) ههنا بمعنى الواو ، **وقال آخرون** : (أو) ههنا بمعنى بل ، وقال آخرون : المراد بذلك الإبهام على المخاطب ، **وقال بعضهم** : معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة ، وإما أن تكون أشد منها في القسوة ، وهذا الذي رجحه ابن جرير .

٨ - أخرج ابن مردويه والترمذي عن رسول الله ﷺ قال : « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي » . وأخرج البزار عن أنس عن رسول الله ﷺ : « أربع من الشقاء : جمود العين ، وقساوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا » .

وبعد : فإننا نحب خلال عرض المقطع ألَّا نكثر من الفوائد وألَّا نعقد فصولاً حتى لا يكون ذلك على حساب وضوح السياق ، فلنؤخر من ذلك إلى نهاية المقطع ما لا يضر تأخيره .

كلمة في السياق :

- انتهينا حتى الآن من عرض مدخل المقطع الثالث ومن عرض الفقرتين الأولى والثانية منه واللتين تشكلان الفصل الأول منه ، وقد رأينا أن الفصل قد ارتبط بالآية الأولى من المدخل وهي قوله تعالى : ﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبون** ﴾ فجاء الفصل مذكّراً بالنعم ، مذكّراً بالميثاق ، مذكّراً بالخشية من الله . ونلاحظ أن الفصل الثاني يبدأ بخطاب أمتنا ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ..** ﴾ .

ومن مطلع الفصل الثاني ومما مر معنا من قبل ندرك أن ما اتجهنا إليه في التقسيم إلى فقرات ومقاطع له أدلته التي تدلنا فيها المعاني على ذلك ، وواضح كذلك من بداية الفصل اللاحق أنه مرتبط بالآية التالية في المدخل على الآية التي فصل فيها الفصل الأول : ﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ...** ﴾ .

- قلنا أثناء الكلام عن مدخل المقطع : إن مجموعة هذه الأوامر والنواهي هي العلاج الكامل للطبيعة اليهودية . ورأينا من خلال الفصل الأول دليل ذلك ، ويكفي أن نشير إلى الآية التي ختم بها الفصل ﴿ **ثم قست قلوبكم ..** ﴾ لندرك أنه لا دواء إلا قوله تعالى : ﴿ **وإياي فارهبون** ﴾ وسيتضح لنا من خلال الفصل الثاني أن ما اتجهنا إليه كان صحيحاً في هذا الشأن ، وبهذه المناسبة نقول :

إن أمتنا نفسها بعد سير طويل قد تعقَّدت نفسيات الكثير من أبنائها حتى إنه لم يعد يصلحهم إلَّا أن ينفِّذوا مجموعة هذه الأوامر والنواهي بسير جاد لترجع نفوسهم إلى صفائها وهذا يقتضي من المربين أن يلحظوا ذلك عمليا إذا ما واتاهم مسلم يريد العودة الكاملة إلى الله ، كما أن على الوعّاظ أن يركزوا عملياً على مجموعة هذه القضايا ، وألا يقتصروا على واحد منها كطريقة بعضهم إذ يكتفون بتذكير المسلمين بماضيهم فقط .

- ورد معنا في هذا الفصل قوله تعالى :

﴿ **فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين** ﴾ وفي ذلك ما يذكرنا بقوله تعالى في بداية سورة البقرة : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ فالمقطع يعمِّق فيما يعمِّق التقوى والالتزام بها ، ويعمِّق قضية الالتزام بالأمر وترك النهي ، وذلك تعميق للالتزام بالأمر والنهي اللذين بدأ بهما القسم كله ، ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ .. ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً ..** ﴾ . وقد مر معنا في المقطع الأول من القسم الأول قوله تعالى : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ...** ﴾ . وقد رأينا في هذا الفصل نموذج ذلك ، والصورة الكلية للوحدة الشاملة في السورة ستتكامل معنا شيئاً فشيئاً فلننتقل إلى الفصل الثاني في المقطع الثالث .

الفصل الثاني في المقطع الثالث :

هذا الفصل يبدأ بقوله تعالى مخاطباً هذه الأمة :

﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ...** ﴾ .

وينتهي بقوله تعالى :

﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته أولئك يؤمنون به ..** ﴾ .

ثم تأتي خاتمة المقطع .

فالفصل كله في قضية الإيمان .

إن مدخل المقطع قد دعا اليهود إلى الإيمان :

﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾ .

والملاحظ أن الفصل كله في هذا .

ولا نلاحظ أن المقطع تحدَّث عما له صلة فيما بعد ذلك من آيات المدخل وذلك - والله أعلم - لأن تنفيذ الأوامر وترك النواهي اللاحقة متوقف على قضية الإيمان ، فإذا دخلوا فيها أصبح الخطاب متوجهاً لهم بتلك القضايا مع المؤمنين ، وإذا لم يدخلوا في الإيمان فلا فائدة في بحثها معهم ، غير أنه من مجيء تعريف البر فيما بعد ، ندرك أن نقاشاً له صلة بالمعاني المذكورة في هذا المقطع لا زال مفتوحاً مع بني إسرائيل فالصلات في السورة بعيدة الأغوار .

- يمتد هذا الفصل من الآية (٧٦) إلى نهاية الآية (١٢١) حيث تأتي خاتمة المقطع وهو يتألف من أربع فقرات ، بعضها طويل وبعضها أقصر ، وكلها كما قلنا تعالج قضية إيمان بني إسرائيل ونؤثر أن يكون الكلام منصباً على العرض والسياق ، حتى ننتهي من عرض الفقرات ثم بعد ذلك نذكر بعض الفوائد ونعقد بعض الفصول فلنبدأ عرض الفقرة الأولى من الفصل الثاني :

الفقرة الأولى :

تمتد هذه الفقرة من الآية (٧٥) إلى نهاية الآية (٨٢) وهذه هي :

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ

عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

كلمة في هذه الفقرة وسياقها :

- تبين لنا هذه الفقرة علة رئيسية من علل عدم إيمان اليهود وهي عقليتهم التحريفية المنافقة ، وأن هذا يرافقه أمانيُّ جاهلة عند العامة وكذب على الله عند العلماء ، كما تبين لنا علة جرأتهم على كل شيء ، وهي تَصورهم أنهم سيعذبون أياماً معدودة ثم يكون مآلهم الجنة ، وقد ناقشت الفقرة هذا كله .

- يلاحظ أن قصة آدم ختمت بالقاعدة :

﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

وأنّ الفقرة الأولى من الفصل الأول من هذا المقطع ختمت بقوله تعالى :

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

وأن هذه الفقرة وهي الأولى في الفصل الثاني ختمت بقوله تعالى :

﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾
وكما أنه بعد الفقرة الأولى من الفصل الأول جاء قوله تعالى :

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ فإنه بعد هذه الفقرة الأولى من الفصل الثاني يأتي قوله تعالى : **﴿وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل .. ﴾** أن هذا كله يؤكد أن تقسيماً ما موجود في سور هذا القرآن للمتتبع ، كما أن مجيء هذه الخاتمة لهذه الفقرة هنا تدلنا على صحة ما ذكرناه من قبل ، من أن قصة بني إسرائيل بعد قصة آدم إنما تخدم في ذكر نموذج على أمة أنزل عليها هدى ، وكيف كان موقفها من هذا الهدى ، فهي توضيح عملي للقاعدة التي ختمت بها قصة آدم .

- يلاحظ أنه في مدخل المقطع الثالث جاء قوله تعالى :

﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به** ﴾ .

وفي هذه الفقرة يأتي قوله تعالى :

﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم** ﴾ . ويأتي قوله تعالى :

﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً** ﴾ .

إن هذا يؤكد ارتباط هذه الفقرة بما يقابلها من مدخل المقطع كما كنا تحدثنا عنه من قبل .

- وبعد فلأول مرة في سورة البقرة يتوجه الخطاب مباشرة إلى الأمة الإسلامية وذلك في هذه الفقرة بقولة تعالى : ﴿ **أفتطمعون ..** ﴾ فقد سبق من قبل خطاب لبني إسرائيل ، وقبل ذلك توجه الخطاب لرسول الله ﷺ ﴿ **وبشر** ﴾ وقبله توجه الخطاب إلى الناس جمعياً ، وقبل ذلك خوطب رسول الله ﷺ بكاف الخطاب ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك** ﴾ ولأول مرة يتوجه الخطاب إلينا بشكل مباشر بقوله تعالى ﴿ **أفتطمعون ...** ﴾ وذلك بعد مجموعة الدروس التي أخذتها الأمة في سورة البقرة ، وكأن الدروس الماضية كافية لإيجاد نضج خاص في الذات العامة للأمة ، والخطاب في هذه الفقرة هو في حقيقته درس في المواجهة بين هذه الأمة واليهود ، بعد أن اتضحت إلى حد كبير الصورة التاريخية لليهود ، وفي هذا الدرس تتقرر مجموعة حقائق لها علاقة باليهود ، ومواقفهم ، وأسبابها ، والردّ عليهم ، وتأنيبهم وغير ذلك ، ففي هذه الفقرة إذن يتجه السياق لخطاب هذه الأمة ؛ لتضع قدمها حيث ينبغي أن توضع في آرائها بالآخرين ، وفي مواقفها ، وفي معرفة أعدائها وتحليل مواقفهم ، وذلك كله يؤكد ما ذكرناه من قبل أن هذا المقطع إنما يقدم لأمتنا نموذجاً على أمة أنزل عليها الوحي ، وكيف كان موقفها من ذلك ليعطيها دروسه ، ولكن في الوقت نفسه فإن المقطع يخدم قضايا أخرى كثيرة منها : دعوة بني إسرائيل ، وإقامة الحجة عليهم ، ومنها توضيح صراط المغضوب عليهم والضالين لتجتنب ، ومنها ومنها مما لا يحيط بأسراره إلا الله ، ثم يأتي من أعداء الله من يتساءل أين الصلات بين الآيات في السورة الواحدة والصلة بين السور في القرآن ، ألا إنه العمى وحده هو الذي يجعل هؤلاء لا يبصرون عمق الصلات .

- قد يكون مناسباً قبل أن نبدأ عرض الفقرة أن نذكر بعض ملامح الشخصية اليهودية مما وضّحه لنا الفصل الأول :

١ - طبيعة مسارِعة إلى الشرك ٢ - طبيعة متعنتة تطلب ما لا يصح طلبه كرؤية الله ٣ - طبيعة فاسقة مُحَرِّفة ٤ - طبيعة مفسدة شهوانية ٥ - طبيعة كافرة مكذّبة بالآيات ٦ - طبيعة تكره الحق وتقتل أهله ولو كانوا أنبياء ٧ - طبيعة محتالة على الأوامر والنواهي ٨ - طبيعة غادرة تنقض المواثيق حتى مع الله - جلّ جلاله - ٩ - طبيعة مجادلة .

ولنبدأ عرض الفقرة :

التفسير :

﴿ **أفتطمعون** ﴾ أيها المؤمنون ﴿ **أن يؤمنوا لكم** ﴾ . أي : ينقاد لكم هؤلاء اليهود بالتصديق والطاعة والاستجابة لدعوتكم ﴿ **وقد كان فريق منهم** ﴾ . أي : طائفة ممن سلف منهم ﴿ **يسمعون كلام الله** ﴾ . أي : التوراة ﴿ **ثم يحرّفونه** ﴾ . أي : يتأولونه على غير تأويله ﴿ **من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** ﴾ . أي : من بعد ما فهموه على الجلية ، ومع هذا فهم يخالفونه على بصيرة مع علمهم أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله ، يفهم من ذلك أنه متى وجدت هذه العقلية التحريفية فلا أمل يرتجى عندها في قبول الحق ومتابعته .

﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا** ﴾ . أن صاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة ﴿ **وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم** ﴾ . أي : في حال اختلائهم ببعضهم يقول بعضهم لبعض : لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم . **وقال ابن عباس** : « وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم فأنزل الله ﴿ **وإذا لقوا .. ليحاجوكم به عند ربكم** ﴾ . أي : تقرون بأنه نبي ، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا : اجحدوه ولا تقروا به . **وقال النسفي** في تفسير هذا الجزء من الآية أي : أتخبرون أصحاب محمد ﷺ بما بيَّن الله لكم في التوراة من صفة محمد ﷺ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه ، جعلوا محاجتهم به وقولهم هو في كتابكم هكذا محاجة عند الله ألا تراك تقول : هو في كتاب الله تعالى هكذا ، وهو عند الله هكذا ، بمعنى واحد . وقيل في قوله تعالى : ﴿ **ليحاجوكم به عند ربكم** ﴾ إنه إضمار مضاف والتقدير أي : عند كتاب ربكم . وقيل : ليجادلوكم ويخاصموكم به بما قلتم لهم عند ربكم في الآخرة ، يقولون كفرتم بعد أن وقفتم على صدقه

﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أن هذا حجة عليكم حيث تعترفون به ثم لا تتابعونه ، دلت هذه الآية على أن من طبيعة اليهود أن يُظهِروا خلاف ما يُبطنون مع عدم الإكراه ، وأنهم يقولون للناس شيئاً ويقولون فيما بينهم شيئاً آخر ، كما دلت الآية على أن هذا النوع من المواقف سببه عدم معرفة الله حق المعرفة ، وإلا لو أنهم يعلمون أن الله يعلم السر وأخفى لعلموا أن الحجة قائمة عليهم اعترفوا أو لم يعترفوا ولذلك قال تعالى : ﴿ **أوَ لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ إنهم جهلة بالله ؛ ولذلك فإنهم يقولون ما يقولون ، فإذا كان هذا حال أهل العلم منهم فما بالك بالعامة ، إن الآية الآتية تصور لنا حال هؤلاء العامة : ﴿ **ومنهم أُمِّيُّون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ وإن هم إلا يظنون** ﴾ الأمي : هو الذي لا يحسن القراءة والكتابة ، والمراد بالكتاب هنا التوراة ، والأماني : جمع أمنية وهي التمني الذي لا يرافقه عمل ، وقد تأتي بمعنى الكذب ، أو بمعنى التلاوة غير المتعمقة ، والأرجح أن المراد بها ههنا الأول ، فمعنى الآية : ومن اليهود من لا يحسن القراءة والكتابة ، فهم لا يطالعون التوراة فيتحققون بما فيها ، فهم لا يعرفون إلا ما هم عليه من أماني من أنَّ الله يحبهم ، ويعفوا عنهم ، ويرحمهم على ما هم عليه كائناً ما كان ، وما هم في هذا إلا ظانين ؛ لا يستندون في ما هم فيه على يقين .

ذكر في هذه الآية العامة المقلدون ، وفيما قبلها العلماء المحرّفون ، والمنافقون والمضللون ، وهذا هو التقليد المذموم أن يوجد إمام يتبعه متَّبع على غير هدى ، ومن الضلال الفظيع تأويل كتاب الله على غير ما يحتمله نص الكتاب وما تشعبت فرق الضلال إلا عن مثل هذا ، وما تضل العامة في الغالب إلا بسبب أئمة الضلال الذين يحرّفون كتاب الله ، أو يتأولونه بهوى ، أو ينسبون إلى الله ما لم يقله أو يحكم به ، وعلماء اليهود فعلوا هذا كله ، والآية التالية تذكر فعلة من فعلاتهم ، والدواعي التي دعتهم لذلك وما يستحقونه من عقاب عليها قال تعالى :

﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾ **عن ابن عباس** : « الويل المشقة من العذاب ».. وقال الخليل بن أحمد: الويل شدة الشر . **وقال سيبويه** : ويل لمن وقع في الهلكة ، وويح لمن أشرف عليها **وقال بعضهم** : الويل الحزن .

وقال الحسن البصري : « الثمن القليل الدنيا بحذافيرها » ومن الدنيا المال والزعامة والجاه وعلى هذا فمعنى الآية .

أن الهلاك والعذاب للكتبة الوضّاعين الذين يكتبون كتباً مختلقة من عند أنفسهم ،

ويزعمون أنها من عند الله وليست كذلك ، ومن أجل كسب يسير كهذه الدنيا الفانية وما فيها أو بعض ما فيها ، فويل لهم مرتين : مرة على ماكتبوا ومرة على ما كسبوه من مال حرام ، والآية وإن جاءت في سياق الحديث عن بني إسرائيل فإنها عامة .

قال عبد الرحمن بن علقمة : سألت ابن عباس رضي الله عنه عن قوله تعالى : ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم** ﴾ قال نزلت في المشركين وأهل الكتاب .

ثم قال تعالى :

﴿ **وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ مجيء هذه الآية بعد ما قبلها بمثابة البيان لأسباب هذه المواقف الخائنة .

إن جرأة اليهود على التحريف والتبديل ، وعلى الكيد والمكر والحسد والخداع ومعاندة الأنبياء ، وغير ذلك من صفاتهم ومواقفهم ، إن ذلك كله سببه هذا الاعتقاد الفاسد أن مدة مكثهم في النار أياماً معدودة ، ثم إن مجيء الآية بعد الآية التي ذكرت كتاباتهم المختلقة ، ونسبتهم إياها إلى الله يوحي كذلك بأن هذا مما اختلقوه وقالوا هو من عند الله ، وفي الوقت نفسه فإن الآية تسجل واحدة من الأماني الكاذبة التي ربي عليها عامة اليهود . ﴿ **ومنهم أُمّيُّون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ وإن هم إلا يظنون** ﴾ فهذه إحدى الأماني المظنونة ، وقد ردت الآية على زعمهم في هذا الموضوع . وعلينا أن ندرك هنا بعمق كيف أن تصور الإنسان عن اليوم الآخر يؤثر تأثيراً كاملاً في مواقفه فإذا كانت هذه المواقف اليهودية الفظيعة أثراً من آثار هذه العقيدة التي رأيناها وذلك شيء منصوص عليه في سورة آل عمران :

﴿ **ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون * ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات** ﴾ .

إذا كانت هذه مواقف اليهود بسبب هذه العقيدة ، فكيف تكون مواقف الذين لا يؤمنون باليوم الآخر أصلاً ! فكيف تكون مواقف الذين يتصورون أن الله لا يعذبهم أبداً ! وللأسف فإن كثيرين من عامة المسلمين وعلمائهم يستشعرون الأمن من النار ومن عقاب الله ، وذلك أقل ما يقال فيه أنه من الكبائر كما نص عليه الفقهاء .

في الأيام المعدودة أقوال منها أنها سبعة أيام ، ومنها أنها أربعون يوماً ، ولا شك أن

التحديد هو مما سمعه علماء المسلمين منهم أو عنهم ، وهناك حديث رواه البخاري والنسائي وأحمد فيه كلام لليهود أمام رسول الله ﷺ وليس فيه تحديد والأمر واسع ولا تهمنا معرفته

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سمّ فقال رسول الله ﷺ اجمعوا لي من كان من اليهود ههنا ، فقال لهم رسول الله ﷺ من أبوكم ؟ قالوا : فلان قال : كذبتم أبوكم فلان فقالوا صدقت وبررت ، ثم قال لهم : هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : من أهل النار ؟ فقالوا نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله ﷺ : اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً ثم قال ... » .

وبإجمال نقول تفسيراً للآية :

يقول تعالى فى الآية إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ثم ينجون منها ، فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى ﴿ **قل أتخذتم عند الله عهداً** ﴾ أي بذلك ، فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده ، ولكن هذا ما جرى ولا كان ولذا أتى بـ ﴿ **أم** ﴾ التي بمعنى بل في الرد على زعمهم ، أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه ، ثم بيَّن الله عز وجل أن الأمر عنده هو :

﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ .

يقول تعالى : ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون ، بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته ، وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة بل جميع أعماله سيئات ، فهذا من أهل النار ، والخطيئة هنا الشرك كما هو المأثور عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وأما الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة إذ إنهم آمنوا بما كفر به الآخرون ، وعملوا بما ترك الناس من دين الله ، أخبر الله بالآية أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له .

وللمفسرين كلام كثير في قوله تعالى ﴿ **بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته** ﴾

قال النسفي : بلى من كسب شركاً ؛ وسدت عليه مسالك النجاة بأن مات على شركه (أي فهذا الذي أحاطت به خطيئته) فأما إذا مات مؤمنا فأعظم الطاعات وهو الإيمان معه فلا يكون الذنب محيطاً به ؛ فلا يتناوله النص ، وبهذا التأويل يبطل تشبث المعتزلة والخوارج .

وقيل في تفسير إحاطة الخطيئة : أي استولت عليه كما يحيط العدو ولم يتخلص منها بالتوبة .

وعلى كل حال فإن الخطايا ، ولو لم تكن كفراً ، فإنها بريد الكفر ، فإذا سار الإنسان في طريق الخطايا ، فإنه بذلك يجني على قلبه شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى الكفر عندما تحيط به الخطايا .

أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إيّاكم ومُحقَّرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلاً كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود ؛ حتى جمعوا سواداً وأجّجوا ناراً ؛ فأنضجوا ما قذفوا فيها » وفي هذا الموضوع نصوص كثيرة سنراها .

كلمة في الفقرة الأولى :

– بينت هذه الفقرة أن لليهود عقيدة هي أنهم يتصورون أنهم لن يدخلوا النار إلا أياماً معدودة ، وبسبب من هذه العقيدة فعامتهم غلبتهم الأماني الكاذبة ، وهم وراء علمائهم ، وعلماؤهم كذابون على الله منافقون ، ويحرّفون الكلم عن مواضعه ، فكتاب الله يحرفونه ويزيدون على ذلك الاختلاق على الله ، وناس هذا شأنهم لا طمع في إيمانهم ، ومن ثَمَّ فإن هذه الفقرة قطعت الطريق على حسن الظن باليهود ما دامت طبيعتهم على هذه الشاكلة ، والطريق أمامهم مفتوح إذا أرادوا الإيمان ، وقد حدده الله عز وجل في مدخل المقطع ، ولكن أن يتوهم المسلمون في هذا الشأن فذلك شيء آخر ، وبهذا أعطت الفقرة المسلمين دروساً : درساً في انحرافات أمة عن دين الله ، ودرساً في حدود حسن الظن بهذه الأمة ، ودرساً في أن على المسلمين ألا يقعوا فيما وقعت فيه هذه الأمة ، وألا يسيروا فيه ، وللأسف فإن كثيراً من الفِرَق التي انشقت عن جسم الأمة الإسلامية كان سبب ضلالها هو غياب درس هذه الفقرة عنها .

– بعد أن بينت هذه الفقرة محل اليهود في قضية الإيمان بالإسلام فإن السياق الآن سيتجه لإقامة الحجة عليهم في قضية الإيمان هذه .

إن دعواهم الرئيسية في عدم إيمانهم هي : أن إيمانهم بما أنزل عليهم يكفيهم ويغنيهم وينجيهم ؛ ومن ثَمَّ تأتي الفقرة التالية لتنقض هذا الزعم نوع نقض ، وتأتي الفقرة الثالثة لتنهي هذه المزاعم إنهاءً كاملاً فلنَر الفقرة الثانية :

الفقرة الثانية من الفصل الثاني من المقطع الثالث :

تمتد هذه الفقرة من الآية (٨٣) إلى نهاية الآية (٨٦) وهذه هي :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

كلمة في هذه الفقرة وسياقها :

١ - يلاحظ أن الفقرة الأولى من الفصل الأول انتهت بقوله تعالى :

﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا ... من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ وأن الفقرة الأولى من الفصل الثاني انتهت بقوله تعالى :

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ فهناك تشابه بين نهاية الفقرة الأولى في الفصل الأول ، وبين نهاية الفقرة الأولى من الفصل الثاني . وكما أن الفقرة الثانية من الفصل الأول بدأت بقوله تعالى ﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم** ﴾ فإن الفقرة الثانية من الفصل الثاني تبدأ بقوله تعالى ﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل ..** ﴾ .

٢ - يلاحظ أن هذه الفقرة ذكرت مضمونين لميثاقين أخذا على بني إسرائيل بينما مرت معنا من قبل كلمة الميثاق دون أن يذكر مضمون لها ، فههنا يأتي بعض التفصيل في قضية الميثاق ، وتأخير التفصيل إلى هذا الموضع يقدم لنا أكثر من درس مرتبط بمجموع ما مر من قبل ، ولو أن هذه الفقرة جاءت قبل ذلك لكانت خدماتها للسياق أقل مما أعطته ههنا كما سنرى .

٣ - جاءت هذه الفقرة بعد ذكر ادعاء اليهود أنهم لن يدخلوا النار إلا أياماً معدودة ، وبعد الرد عليهم من خلال قاعدة كلية ، فكانت هذه الفقرة بمثابة تفصيل أو تمثيل لأنواع من الأعمال ارتكبوها يستأهلون فيها العذاب الشديد والخلود ، ولذلك تختم هذه الفقرة بقوله تعالى ﴿ **ويوم القيامة يُرَدون إلى أشد العذاب ..** ﴾ ، ﴿ **فلا يُخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون** ﴾ إنهم يستحقون ذلك بسبب من نقضهم الميثاق في شأن العبادة والمعاملة ، وبسبب من نقضهم الميثاق في شأن التطبيق الشامل للتوراة .

وجاءت هذه الفقرة بعد الفقرة التي تبدأ بقوله تعالى ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ..** ﴾ فهي تعمق عند المسلمين فهم النفسية اليهودية التي تعقّدت فلم تعد تستجيب لدعوة الإيمان ، كما جاءت مقدمة للفقرات التي تناقش اليهود في لب قضية دعاواهم الإيمانية مقيمة الحجة عليهم بأنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض :

﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** ﴾ .

٤ – قلنا : إن هذا الفصل يفصّل ويعلّل لما يقابله من الأوامر والنواهي التي وردت في مدخل المقطع وهي :

﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً** وإياي **فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** ﴾ وهذه الفقرة ختمت بقوله تعالى ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** ﴾ ﴿ **أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة** ﴾ ... فالفقرة تبين أن اليهود اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، وخلطوا الحق بالباطل ، وأنهم نقضوا الميثاق في قضية الصلاة والزكاة والتوحيد واتباع الهدى المنزَّل عليهم ، وهذا كله يقتضي تجديد المطالبة بالأوامر والنواهي التي أهملوها ، وكان ذلك من خلال رسالة جديدة ودعوة جديدة .

٥ – وقصة آدم انتهت كما رأينا بقاعدة ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وفي هذه الفقرة يرينا الله عز وجل موقف هؤلاء مما طالبهم الله عز وجل به من الهدى وخيانتهم في ذلك واستحقاقهم بذلك عذاب الله .

وفيما قبل قصة آدم :

ذكر من صفات المتقين في مقدمة سورة البقرة : الإيمان والصلاة والإنفاق واتباع الكتاب ، ثم جاءت دعوة عامة للتوحيد والعبادة ، وجاء تحذير من نقض العهد والإفساد في الأرض وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، ونلاحظ أن هذه الفقرة أعطتنا درساً في ذلك كله بينت لنا أن بني إسرائيل أمروا بعبادة الله وبالصلاة والزكاة فأعرضوا إلا قليلاً ، وأن بني إسرائيل طبقوا بعض الكتاب وأهملوا بعضه الآخر ، وأنهم نقضوا العهد والميثاق مع الله ، وكيف أنهم يقتلون أنفسهم وهو إفساد ، وكيف أنهم لا يقومون بحق أخوة الإيمان وهو قطع لما أمر الله به أن يوصل ، وهكذا نجد أن الفقرة مرتبطة بما قبلها مباشرة من الآيات ، وتخدم في سياق فصلها وفي سياق مقطعها ، وتخدم في تعميق معاني كل المقاطع السابقة عليها ، وتخدم في تعميق معاني مقدمة السورة وهي تأتي حلقة في سلسلة ، فهي بمثابة المكمِّل لما سبق والمقدمة لما لحق .

٦ – يلاحظ أنه بعد مدخل المقطع الأول جاء خطاب لبني إسرائيل وجاءت موعظة ثم بدأ التذكير بالنعم ، والملاحظ أن الموعظة انتهت بقوله تعالى ﴿ **ولا هم يُنصَرون** ﴾ وهنا تختم الفقرة بقوله تعالى ﴿ **أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف**

عنهم العذاب ولا هم يُنصَرون ﴾ . لاحظ جملة ﴿ **ولا هم يُنصَرون ﴾** ولو أنك تأملت المعاني التى مرت معنا حتى الآن في المقطع ، والمعاني التي تأتي معنا لرأيته عجباً فكأننا في هذه الفقرة في نهاية شيء ، وكأننا فيما يأتي في بداية جديدة ضمن إطار كلي هو المقطع ضمن إطار أكبر هو السورة .

بدأ الفصل الأول بعد مدخل المقطع بهذا النداء :

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾ .

فكان هذا النداء بمثابة المقدمة للفصلين الأول والثاني ونلاحظ أن المقطع كله ينتهي بمثل هذه المقدمة .

وجاء الفصل الأول ، وجاءت الفقرة الأولى والثانية من الفصل الثاني ، وجاء تذكير بالنعم ، وجاء تذكير بالعقوبة الصارمة القطعية ، وختمت الفقرة الثانية من الفصل الثاني بقوله تعالى ﴿ **ولا هم يُنصَرون** ﴾ فكأن ههنا خاتمة التقرير لأسباب الموعظة في بداية الفصلين ليكون الآن عرض جديد وتغير فى أسلوب الخطاب والمعالجة ولذلك يأتي بعد هذه الفقرة قوله تعالى :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات ... ﴾ .

إننا أمام سياق يشبه أن يكون جديداً بالنسبة لما سبقه وكأن هذه الفقرة تعتبر خاتمة من وجه لجولات في المقطع .

وكأنّ مقطع بني إسرائيل في النهاية يتألف من مدخل وفصلين وكل فصل يتألف من فقرتين ، نهاية الفقرة الأولى في الفصلين متقاربة ، وبدايات الفقرة الثانية من الفصلين متشابهة ، ثم بعد ذلك عندنا في المقطع مناقشات ودروس ، ولنبدأ عرض الفقرة الثانية في الفصل الثاني من المقطع الثالث .

التفســـير :

تعطينا هذه الفقرة درسين من خلال موقفين لليهود لهما علاقة بالعهود المأخوذة عليهم وموقفهم منها ، وكلا الدرسين مبدوء بكلمة (**إذ**) التي تأتي عادة في هذا السياق بعد أمر محذوف تقديره (**اذكر**) ولا شك أن الذي يتذكر هو المسلم وحده ، إذ هو الذي

يستفيد من كتاب الله ، فإذ يتذكر المسلم ما أمروا به ، وما فعلوه ، وما عوقبوا به نتيجة لذلك فإنه يكون قد استفاد من الدرس .

الدرس الأول :

﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل** ﴾ الميثاق هو العهد المؤكد غاية التوكيد ﴿ **لا تعبدون إلا الله** ﴾ هذا إخبار في معنى النهي وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي لأنه كأنه سورع إلى الانتهاء والامتثال وهو يخبر عنه ﴿ **وبالوالدين إحسانا** ﴾ ﴿ **وذي القربى** ﴾ أي القرابة ﴿ **واليتامى** ﴾ جمع يتيم : وهو الذي فقد أباه قبل الحلم إلى الحلم ﴿ **والمساكين** ﴾ جمع مسكين وهو الذي أسكنته الحاجة ﴿ **وقولوا للناس حسناً** ﴾ أي قولاً هو الحُسنُ في نفسه لإفراط حُسنة ، يُذكّر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذ ميثاقهم على ذلك ، وأنهم تولوا عن ذلك كله ، وأعرضوا قصداً وعمداً وهم يعرفونه ، ويتذكرونه ، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وبهذا أمر جميع خلقه ، ولذلك خلقهم ، وهذا هو أعلى الحقوق ، وأعظمها ، وهو حق الله تبارك وتعالى أن يُعبدَ وحده لا شريك له ، ثم بعده حق المخلوقين وأكبرهم وأولاهم بذلك حق الوالدين ، والأقربين ، ثم اليتامى والمساكين ، فهؤلاء يستحقون الإحسان ؛ لأن اليتامى لا كاسب لهم ؛ والمساكين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم ، أما الناس كل الناس فلهم الكلمة الطيبة ولين الجانب ﴿ **وقولوا للناس حسناً** ﴾ قال الحسن البصري : « فالحسن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسناً » وقد ناسب أن يأمر بالإحسان بالقول بعد الإحسان في الفعل ؛ ليجتمع طرفا الإحسان الفعلي والقولي ، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعيّن من ذلك ، وهو الصلاة والزكاة ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ ثم أخبر أنهم تولوا عن ذلك كله ﴿ **ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون** ﴾ أي تركوا كل ما أمروا به ونُهوا عنه وراء ظهورهم ، وأعرضوا عنه على عمد ، بعد العلم به إلا القليل منهم . وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء كما سنرى ، وكم من هذه الأمة قد أعرض . بيّنت هذه الآية كيف كان موقفهم القولي ، وإعراضهم عن العبادة ، والإحسان الفعلي ، والقولي ، وعن الصلاة والزكاة .

وبمناسبة هذه الآية فلنذكّر بهذين الحديثين :

في الصحيحين عن ابن مسعود « قلت : يارسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أي ؟ قال : برّ الوالدين . قلت : ثم أي ؟ قال : الجهاد في

سبيل الله .. » وأخرج مسلم والترمذي والإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال : « **لا** تحقرنّ من المعروف شيئاً وإن لم تجد فَالْقَ أخاك بوجه منطلق » .

الدرس الثاني :

﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم** ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿ **ولا تخرجون أنفسكم من دياركم** ﴾ أي لا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه ولا ينفيه جعل غير الرجل بمثابة نفسه إذا اتصل به أصلاً أو ديناً ، وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة ، كما قال عليه السلام « مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ثم قال تعالى :

﴿ **ثم أقررتم وأنتم تشهدون** ﴾ أي ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به وتعترفون على أنفسكم بلزومه .

﴿ **ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم** ﴾ كانوا في المدينة المنورة فريقان طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج ، والطائفة الأخرى النضير وقريظة وهم حلفاء الأوس ، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم ، والأوس والخزرج أهل شرك ، يعبدون الأوثان ، ولا يعرفون جنة ولا ناراً ، ولا بعثاً ولا قيامة ولا كتاباً ، ولا حلالاً ولا حراماً ، يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر ، ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ويخرجونهم منها . ﴿ **تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان** ﴾ أي تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم ﴿ **وإن يأتوكم أسارى تفادوهم** ﴾ كانوا إذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة الذي جاء فيها (**إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا أخذته فأعتقته**) ، فهم يطبقون التوراة في هذا الجانب ويخالفونها في غيره مما ذكر قبله ﴿ **وهو محرّم عليكم إخراجهم** ﴾ . فالإخراج حرام عليهم وكذلك القتل وكذلك مظاهرة غيرهم على بعضهم .

قال السدي : « أخذ الله عليهم أربعة عهود ترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة ، والفداء فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء . قال تعالى مؤنباً :

﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** ﴾ أي أتفادونهم بحكم التوراة ،

وتقتلونهم ، وتخرجونهم ، وتظاهرون عليهم ، مع أن التوراة تحرم هذا ، جعلت الآية التطبيق إيماناً وعدم التطبيق كفراً . **قال السدي** : فإذا أسر رجل من الفريقين كلاهما ، جمعوا له حتى يفدونه فتعيرهم العرب بذلك ، ويقولون كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا : إنا أمرنا أن نفديهم ، وحرم علينا قتالهم . قالوا فلم تقاتلوهم ؟ قالوا إنا نستحيي أن تستذل حلفاؤنا فذلك حين يخبرهم الله تعالى :

﴿**فما جزاء من يفعل ذلك منكم**﴾ أي فما جزاء من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ﴿ **إلا خزي في الحياة الدنيا** ﴾ أي إلا ذلة وهوان بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿ **ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب** ﴾ أشد العذاب هو الذي لا رَوْحَ فيه ولا فرح جزاءً على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ من الأعمال القبيحة والسيئة ، ولكن له سنناً ﴿ **أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة** ﴾ أي استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة واختاروها عليها اختيار المشتري . دلت الآية على أن سبب الخلل في التطبيق هو محبة الدنيا وتفضيلها على الآخرة ﴿ **فلا يخفف عنهم العذاب** ﴾ أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿ **ولا هم يُنصَرون** ﴾ أي ولا ينصرهم أحد بالدفع عنهم فليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ولا يجيرهم منه .

وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولا هم ينصرون** ﴾ نحب أن نلفت النظر ههنا إلى أن اليهود ، أو النصارى ، أو أبناء الأديان ، يرون أنهم بسبب من كونهم يهوداً ، أو نصارى ، أو غير ذلك ، فإنهم سينصرون يوم القيامة ، وأن من ينتسبون إليهم سينصرونهم ، وقد قطع الله عز وجل في هذه الآية طمع اليهود من ذلك بسبب من أعمالهم . وكثيرون من أبناء المسلمين غلب عليهم هذا التفكير أنهم سينجون عند الله مهما اقترفوا ، وكثيرون من صوفية المسلمين غلب عليهم هذا التفكير حتى أصبحت تجد صوفياً لا يصلي ، ولا يزكي ، ولا يهتدي بكتاب الله ، ويوالي الكافرين ، ويؤمن بشعاراتهم المعطلة للكتاب ، ويتصور مع هذا أن نسبته إلى فلان من الناس ، أو إلى الطريقة الفلانية ، تنجيه عند الله .

وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** ﴾ نقول :

لقد أخذ الله على هذه الأمة ما أخذ على بني إسرائيل في وجوب إقامة أحكام القرآن ، فطبقت في عصورها المتأخرة بعضاً وتركت بعضاً ؛ فابتلاها الله بما ابتلاها به ، من الذلَّة ، والهوان ولعذاب الآخرة أشد .

وها نحن الآن في القرن الخامس عشر الهجري نعاني من الذلَّة والهوان ، بأن سلط الله

علينا أمم الكفر ، حتى سلط علينا اليهود أذلّ خلق ، وتلك عقوبة نسيان جزء من كتاب الله :

﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا** ﴾ وها نحن نلنا خزي الدنيا ونعوذ بالله من ذلك ومن عذاب الآخرة ، ﴿ **ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب** ﴾ إنه لا خلاص لنا مما نحن فيه بالدنيا ، ولا نجاة لنا في الآخرة ، إلا بالعودة الكاملة لكتاب الله ، بتطبيقه كله ، في محيط الفرد ، والأسرة ، والدولة ، والأمة . وإلا فإن الذلَّة مستمرة ، وكل محاولة للخروج منها عن غير هذا الطريق محاولة فاشلة . قال عمر رضي الله عنه : «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فمهما ابتغينا العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله » ، وقد رأينا أن سبب التطبيق الجزئي هو استحباب الدنيا على الآخرة ، فبداية الدواء إذن أن نغرس في قلب المسلم تفضيل الآخرة على الدنيا ، وأن نغرس في قلبه حب الآخرة ، وطريق ذلك العلم بالكتاب والسنَّة ، والعمل ، ومجالسة الصالحين من عباد الله .

كلمة في السياق :

بقيت عندنا فقرتان من الفصل الثاني في المقطع الثالث ثم خاتمة المقطع ، والحقيقة أن هاتين الفقرتين بمثابة جولتين في النقاش المباشر مع بني إسرائيل ، فهما من ناحية امتداد للفصل الثاني ، لأنهما نقاش في قضية الإيمان ، ومن ناحية أخرى فهما يشبهان أن يكونا فصلاً جديداً في المقطع ، فهما يمثلان استمرارية من ناحية ، واستقلالية من ناحية أخرى ، ولذلك فسنعرضهما على أنهما جولتان في هذا الفصل ، مع اعتبارنا إياهما فقرتين من فقرات أربع تشكل الفصل الثاني كما رأينا من قبل .

الفقرة الثالثة من الفصل الثاني

تمتد هذه الفقرة من الآية (٨٧) إلى نهاية الآية (١٠٣) وهذه هي :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ

ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾

وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾

أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

كلمة في هذه الفقرة :

١ - لقد رأينا أن مدخل هذا المقطع دعا اليهود إلى الإيمان بالقرآن :

﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ﴾

ورأينا الفقرة الأولى من الفصل الثاني تُيئس المسلمين من الطمع بإيمان اليهود ، ثم تأتي الفقرة الثانية من الفصل الثاني فترينا أن عند اليهود خللا في إيمانهم بكتابهم أصلا ، ثم تأتي هذه الفقرة لتبدأ حواراً مفتوحاً مع اليهود في قضية الإيمان والأسباب الصارفة لهم عن الإيمان بالقرآن ، وأنها ليست إلا الطبيعة الكافرة المستكبرة الفارّة من الهدى إلى الضلال ، فهي إذن استمرار للفصل الأول المبدوء بقوله تعالى ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم** .. ﴾ ومن ثَمَّ فهي تحدثنا عن أن عادة بني إسرائيل أن يُكذِّبوا ، ويقتلوا كل رسول لا يوافق كلامه أهواءهم ، وتحدثنا عن أسباب أخرى يرفضون من أجلها الإيمان برسول الله ﷺ ، وتقيم عليهم الحجة بشكل ثم بآخر ، فهي استكمال لعرض الأسباب والعوامل التي تحول بينهم وبين الإيمان بالقرآن .

٢ - في الفصل الأول من هذا المقطع جاء قوله تعالى ﴿ **وضُربت عليهم الذلّة والمسكنة وباءُوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ وتأتي هذه الفقرة فترينا تفصيلات ، في قتلهم الأنبياء ، وكفرهم بالآيات ، وعصيانهم ، واعتدائهم بعد أن وُجدت الأسس اللازمة لهذه التفصيلات ، ولتخدم هذه التفصيلات هنا السياق السابق ، واللاحق بشكل أجدى .

٣ - دعاهم مدخل هذا المقطع إلى الإيمان والتقوى :

﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ﴾ .

ونجد في هذه الفقرة ﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم** ﴾

﴿ **ولبئس ما شروا به أنفسهم** ﴾

ونجد أن خاتمتها هي : ﴿ **ولو أنهم آمنوا واتقوا لَمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون** ﴾ .

فالفقرة هذه إذن تناقش مواقفهم من الدعوة الموجهة إليهم ، ومن قبل كان عرض لمواقفهم ، فهناك عرض ، وههنا حوار مباشر .

٤ - يلاحظ أن المعاني في الفقرة تتعانق ومن ثَمَّ تتكرر بدايات بعينها ، فالآية الأولى في الفقرة مبدوءة بقوله تعالى ﴿ **ولقد** ﴾ وكذلك الآية (٩٣) وكذلك الآية (٩٩) والآية (٨٩) مبدوءة بكلمة ﴿ **وَلَما** ﴾ وكذلك الآية (١٠١) وفي الفقرة ورد قوله تعالى ﴿ **أَفَكُلَّمَا** ﴾ وبعد اثنتي عشرة آية قوله تعالى ﴿ **أو كلما** ﴾ وهذا كله يعطينا مؤشرات على وحدة الفقرة كما سنرى .

٥ - ومن خلال النقاش الطويل مع بني إسرائيل في قضية الإيمان بالقرآن والهدى المنزَّل من الله عز وجل ، تتضح للمسلم مجموعة الأمور التي تصرف عن الإيمان بالقرآن ، ويتعمق لديه حس المعرفة بالطبيعة اليهودية العابثة التي ستكون بينها وبين المسلمين مواجهات خلال العصور .

والفقرة مع تعانق معانيها فإنها تكاد تنقسم إلى ثلاث مجموعات ، كل مجموعة فيها درس ، بل دروس ، ولنبدأ عرض المجموعة الأولى :

المجموعة الأولى :

﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ أي التوارة ﴿ **وقفينا من بعده بالرسل** ﴾ أي وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل ، يقال قفاه به إذا أتبعه إياه ، ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات** ﴾ أي المعجزات الواضحات ، كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه ، والأبرص ، والإخبار بالمغيبات ﴿ **وأيدناه بروح القُدُس** ﴾ أي بالروح المقدسة ، ومعنى القدس في الأصل الطهارة . وما هي هنا ؟ للمفسرين أقوال ، منهم من قال : إنه جبريل ؛ لأنه يأتي بما فيه حياة القلوب ، ومنهم من قال : إنه الإنجيل ؛ لأنه كالقرآن روح من عند الله ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا** ﴾ . (سورة الشورى) ومنهم من قال : إنه اسم الله الأعظم ، الذي كان يحيي به الموتي . قال ابن جرير : وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال : الروح في هذا الموضع جبريل .. أقول ويؤيد هذا الاتجاه قول الله تعالى ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك ..** ﴾ (سورة الشعراء) فسمى جبريل في هذه الآية روحاً ، ويؤيد هذا الاتجاه ما رواه البخاري عن رسول الله ﷺ : « اللهم أيد حسّان بروح القدس ؛ كما نافح عن نبيك » . وفي بعض الروايات : إن رسول الله ﷺ قال لحسّان : « اهجهم أو هاجهم وجبريل معك » . ﴿ **أَفَكُلَّما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم** ﴾ أي بما لا تحبه وتريده ﴿ **استكبرتم**

ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ أي تعظمتم عن القبول والمتابعة ، ففريقاً كذبتموهم كعيسى ومحمد ، وفريقاً تقتلونهم كزكريا ويحيى . قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿ **ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون** ﴾ « إنما لم يقل وفريقاً قتلتم ، لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً ، لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسمّ والسحر » .

في الآية نعت بني إسرائيل بالعتوّ ، والعناد ، والمخالفة ، والاستكبار على الأنبياء ، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم ، آتى الله موسى الكتاب فحرَّفوه ، وبدَّلوه ، وخالفوا أوامره ، وأوّلوها ، وأرسل الرسل بعده يحكمون بشريعته ، فكانوا يعاملونهم أسوأ معاملة ، من التكذيب إلى القتل . ثم ختم الله أنبياء بني إسرائيل بعيسى عليه السلام ، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ، وأعطاه الله من المعجزات الكثير وأيده بجبريل ، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له ، وصدهم وعنادهم ، وكل هذه المواقف من الأنبياء سببه أن الأنبياء يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم ، فالأمر بالنسبة لهم معكوس ، إنهم بدلاً من أي يضبطوا أهواءهم على شرع الله يريدون أن يكون شرع الله تابعاً لأهوائهم ، وأمة هذا شأنها لا يستغرب موقفها الكافر من رسالة محمد ﷺ ، وما أشبه حال الكثيرين من أبناء عصرنا بهذا الذي عليه اليهود : إذا حدثتهم عن الإسلام بما يوافق هواهم قبلوا وإلا كذبوا ؛ وإن كان لهم سلطان قتلوا ، وما أكثر من يجعل الإسلام تابعاً لأهواء الناس من الحاكمين والمحكومين ، حتى صعب على أهل الإخلاص والعلم أن يبينوا الإسلام للناس كما هو ، لكثرة مسايرة الأهواء فأين هذا من الحديث ؟

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

همزة الاستفهام في قوله تعالى ﴿ **أَفَكُلَّما** ﴾ تفيد التوبيخ ، والتعجب ، وأي عجب أكبر من تكذيب الرسل ، وقتلهم ، والاستكبار عن متابعتهم ، والسماع لهم ، ومن يستحق اللوم أكثر من هؤلاء ؟

﴿ **وقالوا قلوبنا غُلْف** ﴾ أي هي مخلوقة مغشّاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد ﷺ ، ولا تفقهه ، وقيل غلف تخفيف غُلف جمع غلاف ، أي قلوبنا أوعية للعلوم ، فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره ، أو أوعية للعلوم فلو كان ما جئت به حقاً لقبلنا ، والقول الأول أقوى بدليل الحديث « وقلب أغلف مربوط على غلافه .. وأما القلب الأغلف فقلب الكافر » وقولهم هذا يدل على طبيعةٍ متبجحةٍ تتبجح بالكفر ، وتفتخر بقساوة القلب ، وما أكثر ما تجد هذا النوع من الناس ﴿ **بل لعنهم الله بكفرهم** ﴾ أي بل طردهم وأبعدهم بسبب كفرهم الذي اختاروه لأنفسهم . هذا رد

من الله عليهم أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك ؛ لأنها خلقت على الفطرة ، والتمكن من قبول الحق ، وإنما طردهم بكفرهم وزيغهم ﴿ **فقليلاً ما يؤمنون** ﴾ أي فإيماناً قليلاً يؤمنون ، وهو إيمانهم ببعض الكتاب ، أو ببعض الوحي ، وقيل القلة بمعنى العدم و (ما) في الآية مزيدة أي لا يؤمنون بشيء . وقيل : فقليل منهم من يؤمن ، والأقوى الأول . دلت الآية على أن الإيمان ببعض الكتاب أثر من آثار الطرد من رحمة الله ، وأن سبب الطرد هو الكفر ، وأن من أسباب الكفر اتهام الله ، والتبجح في الوصف الكافر .

﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم** ﴾ أي ولما جاء اليهود القرآن المصدِّق للتوراة ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا** ﴾ أي على المشركين . ذكر ابن كثير عن ابن عباس : « أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور ، وداود بن سلمة : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم ، فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿ **ولما جاءهم** ﴾ ، ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** ﴾ أي فلما جاءهم ما عرفوه من الوحي والنبوة كفروا به بغياً وحسداً وحرصاً على الرياسة ﴿ **فلعنة الله على الكافرين** ﴾ أي فلعنة الله عليهم . ووضع الاسم الظاهر بدل الضمير للدلالة على أن اللَّعنة لحقتهم لكفرهم ، أو أن المعنى : أن لعنة الله على كل كافر ، واليهود دخلوا في ذلك دخولاً أولياً ؛ لأنهم أحق الناس أن يؤمنوا . ﴿ **بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده** ﴾ الشراء هنا البيع . والبغي الحسد . فصار المعنى : بئسما باعوا به أنفسهم ، باعتياضهم الكفر بما أنزل على محمد ﷺ بدلاً من تصديقه ومؤازرته ونصرته ، وإنما حملهم على ذلك ، البغي ، والحسد ، والكراهية لأن ينزل من الوحي على من يصطفيه من عباده ، وهو محمد ﷺ ، ولا حسد أفظع من هذا النوع من الحسد لأنه معاندة مباشرة ، واعتراض مباشر على الذات الإلهية ﴿ **فباءُوا بغضب على غضب** ﴾ أي رجعوا بسبب سيرهم هذا مستوجبين مستحقين الغضب على الغضب . أي الغضب المترادف ، غضب بسبب ما ضيعوا من التوراة ، وغضب بسبب كفرهم بعيسى وبالإنجيل ، وغضب بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن ، ومن ثَمَّ فقد فسر رسول الله ﷺ ﴿ **المغضوب عليهم** ﴾ (في الفاتحة) بأنهم اليهود لأنهم يعرفون الحق ويجحدونه وينحرفون عنه

ويعاندونه . ﴿ **وللكافرين عذاب مهين** ﴾ أي مذل ، إذ لما كان كفرهم سببه البغي ، والحسد ، ومنشأ ذلك التكبر ، قوبلوا بالإهانة ، والصَّغار . أخرج الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس ، يعلوهم كل شيء من الصَّغار ، حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من طينة الخبال ، عصارة أهل النار » .

﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله** ﴾ أي إذا قيل لليهود صدقوا بالقرآن واتبعوه ﴿ **قالوا نؤمن بما أنزل علينا** ﴾ أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة ، ولا نقرّ إلا بذلك ﴿ **ويكفرون بما وراءه** ﴾ يعني بما بعده ﴿ **وهو الحق مصدقاً لما معهم** ﴾ أي غير مخالف له ، وفيه رد لمقالتهم ، وتسفيه لهم ، وإقامة حجة عليهم ، لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها فمن عرف الله وعرف كتابه ؛ آمن بكل رسول له ، وآمن بكل كتاب له أُنزل أو يَنزل وهذا رسول الله ﷺ خاتم الرسل بشَّرت به التوراة ، والكتاب المنزَّل عليه يصدق ما في التوراة ، فكيف يكفرون به ! ولكنها ليست أول مواقفهم السيئة ﴿ **قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم فلِمَ قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها وأنتم تعلمون صدقهم ؟ قتلتموهم بغياً ، وعناداً ، واستكباراً على رسل الله ، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي ، وهكذا أهل الباطل في كل زمن يفرون من الحق ويحتجون بما ليس حجة ، بل بما به الحجة عليهم ، فهم متناقضون وليس كمواقفهم وأفعالهم دليل على ما في قلوبهم ، فهؤلاء ناس يدَّعون أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم وبسبب ذلك يرفضون الإيمان بالوحي الجديد ، فأقام الله عليهم الحجة بأنهم ليسوا مؤمنين بما أنزل عليهم ، بدليل أنهم كانوا يقتلون أنبياءهم ، وبدليل أنهم عبدوا العجل في زمن موسى مع كل الآيات التي رأوها . قال تعالى مقيماً عليهم تتمة الحجة :

﴿ **ولقد جاءكم موسى بالبيّنات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** ﴾ البيّنات هي الآيات الواضحات ، والدلائل القاطعات ، كالطوفان ، والجراد ، والقمل ، والدم ، والعصا ، واليد ، وفرق البحر ، لقد جاءكم موسى بالآيات الواضحات ، ثم اتخذتم العجل معبوداً من دون الله ، من بعد ما ذهب موسى إلى الطور لمناجاة الله عز وجل ، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه ، من عبادتكم العجل ، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله ، أو أنتم قوم من عادتكم الظلم ، فإذا كان هذا شأنكم ، وموسى موجود بين أظهركم ، أتدَّعون الآن أن إيمانكم بالتوراة هو الذي يجعلكم لا

تؤمنون بمحمد ﷺ وبالقرآن ! إنها الطبيعة الكافرة في مواقفها وأفعالها وأقوالها .

وبهذا انتهت المجموعة الأولى من الفقرة .

كلمة في هذه المجموعة وسياقها :

١ - بدأت المجموعة بآية مبدوءة بـ ﴿ **ولقد** ﴾ وانتهت بآية مبدوءة بـ ﴿ **ولقد** ﴾ وتأتي مجموعة بعدها مبدوءة بـ﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم** ﴾ مما يوحي بأننا أمام مجموعة جديدة، وفي الآية الأولى من هذه المجموعة ورد قوله تعالى ﴿ **وفريقاً تقتلون** ﴾ وجاءت خاتمة المجموعة لتقول ﴿ **فلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين * ولقد جاءكم موسى بالبيّنات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** ﴾ .

٢ - في هذه المجموعة حوار مباشر مع اليهود في قضية الإيمان بالقرآن ، ومناقشة الصوارف التي يطرحونها ، وإقامة حجة عليهم فيها من خلال مجموعة الأمور التي تدل على أن هذا الموقف الظالم هو استمرار لمواقف ظالمة أخرى .

٣ - وقد سبقت هذه المجموعة بخاتمة الفقرة السابقة :

﴿ **أَفَتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** ﴾ فكانت هذه المجموعة بمثابة استمرار لنقاش يفضح دعواهم الإيمان سابقاً ولاحقاً ، واستكمالاً للحجة عليهم ، كما جاءت هذه المجموعة في سياق الفصل المبدوء بقوله تعالى ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم** ﴾ فقدمت لنا مجموعة معانٍ سابقة تجعل إيمان هؤلاء ميئوساً منه .

٤ - ونكرر أن هذه المجموعة جزء من جولة من النقاش المباشر مع بني إسرائيل في أجواء قوله تعالى ﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدّقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون** ﴾ وذلك بعد فقرات سابقة كان الكلام في الغالب يأتي بشكل غير مباشر في هذا الموضوع بالذات .

فلننتقل إلى عرض المجموعة الثانية من هذه الفقرة :

المجموعة الثانية :

﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور** ﴾ كرر رفع الطور لما نيط به من زيادة ليست مع الأولى ، ولأنها في المرة الأولى ذُكرت في معرض ، وههنا تذكر في معرض آخر ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا** ﴾ أي خذوا التوراة أخذاً قوياً واسمعوا ما أمرتكم به فيها ، سماعَ قبول وعمل ﴿ **قالوا سمعنا وعصينا** ﴾ أي سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ،

أمروا أن يكون سماعهم سماع طاعة ، فكان سماعهم سماع عصيان ، ﴿ **وأُشرِبوا في قلوبهم العجل** ﴾ أي أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم ، فداخلهم حبه ، والحرص على عبادته ، كما يتداخل الصبغ الثوب ، وقوله ﴿ **في قلوبهم** ﴾ بيان لمكان الإشراب ﴿ **بكفرهم** ﴾ أي بسبب كفرهم ، واعتقادهم التشبيه . ﴿ **قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه من كفر ومخالفة ، فكيف تدَّعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة من نقضكم المواثيق وكفركم بآيات الله وعبادتكم العجل من دون الله ؟؟؟.

هم يدَّعون الإيمان ، والإيمان يقتضي طاعة ، وهم يعصون ، هم يدعون الإيمان بالتوراة وليس في التوراة عبادة عجل ، فأي إيمان هذا الذي يأمرهم بعبادة العجل وبمحبته ؟ فإذا كان هذا هو إيمانهم الذي سَوَّل لهم مثل هذه القبائح فإنه هو هو نفس الإيمان الذي يسوِّل لهم أفظع قبيح ، وهو عدم الإيمان بالقرآن .

وقوله تعالى ﴿ **بئسما يأمركم به إيمانكم** ﴾ من باب الأسلوب التهكمي ، لأن الأصل في الإيمان ألا يأمر صاحبه بمثل هذا وفي قوله تعالى ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ تشكيك في إيمانهم وقدح في صحة دعواهم .

هذه أول حجة عليهم في هذه المجموعة تكمل حجج المجموعة السابقة عليهم في رفضهم الإيمان بحجة إيمانهم بالتوراة .

ثم تأتي الحجة الثانية .

ويتجه السياق إلى التحدي ، ليضع اليهود على المحك في قضية الإيمان ، ليثبت لهم بما لا يقبل الجدل أنهم غير مؤمنين ، وأنهم كفرة ، وذلك أنهم إذا كانوا صادقين في دعواهم من أنهم أهل الحق ، وأنهم عباد الله المصطفون ، وأنهم غير مكلفين بالاستجابة لرسول الله ﷺ فهذا يقتضي أن يكونوا هم المستحقين ثواب الله الذي أعده لأوليائه في الآخرة التي يؤمنون بها ، والإنسان الذي يثق بهذا الثواب ، ويعرف أن الآخرة خير من الدنيا ، يتمنى هذه الآخرة ، ويفضلها على الدنيا ، وبالتالي فإن الموت أحب إليه من الحياة فهل هم كذلك ؟ لا ؛ إذن فهم كاذبون ..

أو يقال : من كان مطمئنا إلى أنه على الحق ، وإلى أن غيره ليس كذلك ، فهو على استعداد لأن يدعو الله أن يميت من كان على الباطل هو أو خصمه ، وهو يفعل هذا وهو مطمئن إلى النتيجة ، فإذا كان اليهود يرفضون هذا ، فذلك علامة على أنهم يعلمون حق العلم أنهم على الباطل .

هذه هي الحجة الثانية التي يأمر الله رسوله ﷺ أن يقولها لهم ، وهذه الحجة يمكن أن تكون صياغتها إما على الشكل الأول ، أو على الشكل الثاني ، على حسب اتجاهات المفسرين في التفسير فلنرَ الآيات :

﴿ **قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين** ﴾ معنى ﴿ **خالصة** ﴾ أي سالمة لكم فالمعنى : إن كنتم تعتقدون أن الدار الآخرة لكم دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين فيما تقولون ، لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها تخلصاً من الدار ذات الشوائب ، كما نقل عن العشرة المبشرين بالجنة أن كل واحد منهم كان يحب الموت ويحن إليه . هذا هو المعنى العام المتبادر إلى الذهن عند تلاوة الآية ، وهو الذي يرجحه ابن جرير ، ولكن هناك اتجاهاً آخر لابن عباس في الآية يرجحه ابن كثير ونحن هنا ننقل عبارة ابن جرير ، وكلام ابن كثير مع شيء من الحذف . قال ابن جرير : فهذه الآية مما احتج الله سبحانه لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره ، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم ، وذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى قضية عادلة فيما كان بينه وبينهم من الخلاف .. فقال لفريق اليهود إن كنتم محقِّين فتمنوا الموت ، فإن ذلك غير ضاركم إن كنتم محقين فيما تدَّعون من الإيمان ، وقرب المنزلة من الله لكم ، بل إن أعطيتم أمنيتكم من الموت إذ تمنيتم فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ، ونَصَبها ، وكدر عيشها ، والفوز بجوار الله في جناته إن كان الأمر كما تزعمون من أن الدار الآخرة لكم خاصة دوننا ، وإن لم تعطوها عَلِم الناس أنكم المبطلون ، ونحن المحقون في دعوانا ، وانكشف أمرنا وأمركم لهم ، فامتنعت اليهود من ذلك لعلمها أنها إن تمنت الموت هلكت فذهبت دنياها ؛ وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها .. » .

وقال ابن كثير : فأما على تفسير ابن عباس أي في تفسير قوله تعالى ﴿ **فتمنوا الموت** ﴾ أي ادعوا على أي الفريقين أكذب فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ : بل قيل لهم كلام نَصَف : إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس ، وأنكم أبناء الله وأحباؤه ، وأنكم من أهل الجنة ، ومن عداكم من أهل النار ، فباهلوا على ذلك ، وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم ، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة ، فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة ؛ لما يعلمون من كذبهم وافترائهم ، وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويتحققونه . فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، وسميت هذه المباهلة تمنياً لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل بالموت

لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت ... » .

﴿ **ولن يتمنوه** ﴾ أي الموت ﴿ **أبداً بما قدّمت أيديهم** ﴾ أي لن يتمنوه ما عاشوا بسبب ما أسلفوه من الكفر بمحمد ﷺ ، وتحريف كتاب الله وغير ذلك ، وهو من المعجزات لأنه إخبار بالغيب ، وكانوا يستطيعون أن يكذبوا القرآن بإعلانهم أنهم يتمنون الموت ولكنهم لم يفعلوا . **قال ابن عباس** : « ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات » . ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ ومن علمه جل جلاله أنه تحداهم ، ومن علمه أنه أخبر أنهم لن يتمنوه ، وكان كما أخبر ، وفي النص تهديد لهم .

﴿ **ولتجدنَّهم أحرص الناس على حياة** ﴾ هذه تتمة الحجة عليهم في أنهم أهل باطل . ظهور هذا الحرص العظيم عندهم على الحياة ، فهم كالمشركين في هذا الحرص ، أو أشد حرصاً من المشركين ، فلو كان إيمانهم بالله واليوم الآخر سليماً ، واستقامتهم موجودة لما كانوا كذلك ، والتنكير في لفظ ﴿ **حياة** ﴾ يدل على أنهم يرغبون بالحياة المتطاولة مهما كان نوع هذه الحياة ، فهم أحرص الناس على طول العمر ؛ لما يعلمون من مآلهم السيء ، وعاقبتهم الخاسرة عند الله لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم ﴿ **ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمَّر ألف سنة** ﴾ . هل الضمير ﴿ **أحدهم** ﴾ يعود على المشركين أو على اليهود ؟ قولان للمفسرين فعلى القول أنه يعود على اليهود يكون المعنى : أن اليهود أحرص الناس على الحياة وهم أحرص من المشركين عليها ، حتى أن أحدهم يتمنى لو عُمِّر ألف عام ، وعلى القول بأن الضمير يعود على المشركين يكون المعنى : أن المشرك يود لو عمر ألف عام فهو حريص على الحياة ومع ذلك فاليهود أحرص منه على الحياة ، وفيه توبيخ عظيم لليهود لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ، ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا ، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم ، فإذا زاد في الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء كان حقيقاً بأعظم التوبيخ ، وإنما زاد حرصهم على الذين أشركوا لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار ، والمشركون لا يعلمون ذلك . قال مجاهد : « حببت إليهم الخطيئة طول العمر » . وقد دلت الآية على أن المؤمن الحق يحب الآخرة أكثر من الدنيا ، ويحب الموت أكثر من الحياة ، وقد أدبنا رسولنا عليه الصلاة والسلام ألا نتمنى الموت لضر أصابنا ، بل نقول : « اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وأمتني ما كان الموت خيراً لي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر ، وإذا أردت بالناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون » . ثم قال تعالى :

﴿ **وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر** ﴾ أي وما تعميره بمغيثه من العذاب ولا منجيه منه ﴿ **والله بصير بما يعملون** ﴾ من خير وشر وسيجازي عليه .

ثم تأتي الحجة الثالثة عليهم في هذه المجموعة :

إن دين الله واحد ، ومن أحب الله أحب ملائكته كلهم ، وأحب رسله كلهم ؛ فَوَالى الجميع ولم يعاد أحداً منهم ، واليهود ليسوا كذلك ، فهم يوالون في زعمهم رسولاً ويعادون رسولاً ، ويوالون مَلَكاً ويعادون مَلَكاً ، فهاهم يعادون جبريل ويزعمون أنهم يوالون ميكائيل فأي طبيعة طبيعتهم ؟ وأي تناقض عندهم ؟ وإذ كانوا كذلك فذلك دليل على أنهم ناس منحرفون عن الحق وعن الربانية الخالصة فما هم بأهل الله وليسوا على دينه .

﴿ **قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزَّله على قلبك بإذن الله مصدِّقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين* من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** ﴾ .

معنى كلمة جبريل عبد الله ، وكذلك كلمة ميكائيل ، وقيل بأن جبريل معناها خادم الله ، وذكر جبريل وميكال بعد الملائكة والرسل من باب عطف الخاص على العام ، فإنهما دخلا في الملائكة وفي عموم الرسل ، ثم خصصا بالذكر لأن السياق في الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه ، وقرن معه ميكائيل في اللفظ لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم وميكائيل وليهم ، فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً ، ولأنه أيضاً ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان ، كما قرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر ولكن جبرائيل أكثر وهي وظيفته الرئيسية . وميكائيل موكّل بالنبات والقطر ، ذاك بالهدى وهذا بالرزق ، كما أن إسرافيل موكّل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة ، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول : « اللهم ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وإنما قال ﴿ **فإن الله عدو للكافرين** ﴾ ولم يقل فإن الله عدو له ؛ لإظهار أن من عادى رسولاً فقد عادى الله ، ومن عادى الله فإن الله عدو له . فالمجيء بالاسم الظاهر بدل الضمير ليدل على أن الله إنما عاداهم لكفرهم ، وأن عداوة الملائكة كفر كعداوة الأنبياء ، ومن عاداهم عاداه الله . وفي قوله تعالى في وصف جبريل ﴿ **فإنه نزَّله على**

قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أكثر من رد عليهم :

١ – أنه لا وجه لمعاداة جبريل حيث نزَّل كتاباً مصدقاً للكتب بين يديه فلو أنصفوا لأحبوه ، وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم .

٢ – وفي الآية ردّ عليهم من حيث إنهم حاربوا جبريل لأنه ينزل بالحرب والشدة فقيل : فإنه ينزل بالهدى والبشرى أيضاً ولكن للمؤمنين ، فالمؤمنون يحبونه .

إنه من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلب محمد ﷺ مصدقاً لما بين يديه من الكتب المتقدمة ، وهدى لقلوب المؤمنين ، وبشرى للمؤمنين بالجنة ، فهو رسول ملكي من رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل ، ومن كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل ، ومن عادى الله وملائكته ورسله من الملائكة والبشر فإنه يكون كافراً ويعاديه الله . وقد ذكر ابن كثير روايات كثيرة لها علاقة بالآية ، إما في سبب نزولها ، أو في شاهد على مضمونها حول ما كان يصرح به اليهود من عداوة لجبريل . منها ما رواه الإمام أحمد من جملة محاورة طويلة لليهود مع رسول الله ﷺ « قالوا : إنه ليس من نبي إلا وله مَلَك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : جبريل عليه السلام . قالوا : جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا . لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان ، فأنزل الله : ﴿ **قل من كان عدواً لجبريل ..** ﴾ . وفي قصة إسلام عبد الله بن سلام كما رواها البخاري أنه عليه الصلاة والسلام عندما ذكر جبريل قال عبد الله ابن سلام : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ عليه السلام هذه الآية ، ونكتفي بهاتين الروايتين عما سواهما .

وإذ قامت عليهم الحجة على أنهم على باطل من خلال ما رأينا تأتي الآية الأخيرة في المجموعة جازمة بأن هذا الرسول قد أنزلت عليه المعجزات الواضحات ، وأن الفاسقين عن أمر الله وحدهم هم الذين يكفرون بهذه المعجزات ، وبالتالي فهم لا يؤمنون بالرسول ﷺ ولا يتابعونه قال تعالى :

﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات** ﴾ أي معجزات واضحات ﴿ **وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾ أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك ، وتلك الآيات هي هذا القرآن المعجز ، وما حواه من معجزات ، ونبوءات صادقات ، ودقائق وخفايا لا يعلمها إلا الله ، ومن ذلك ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل ، والإخبار عما تضمنته

كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم ، وما حرَّفه أوائلهم وأواخرهم ، وبدّلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة . فأطلع الله رسوله ﷺ في كتابه على ذلك ، فكان في ذلك دليل على أن هذا القرآن من عند الله ، وهو شاهد صدق على أن محمداً رسول الله لمن أنصف من نفسه ، ولم يَسِرِ في هلاكها بأن سار في طريق الحسد والبغي ، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة سليمة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات من غير تعلم تعلمه من بشر ، ولا أخذ شيئاً منه من آدمي ، بل هو أمّي لم يقرأ كتاباً ومع ذلك فهو يخبرهم بما في أيديهم على وجهه ، فلهم في ذلك عبرة وبيان ، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون ، وهذا بعض الأمر من شأن هذا القرآن ، فلا يكفر بعد ذلك بهذه الآيات وهذا القرآن العظيم إلا الفاسقون أي المتمردون من الكفرة ، وفي ذلك إشارة إلى أن من لم يؤمن من أهل الكتاب فإنه فاسق عن أمر الله متمرد عليه .

عن ابن عباس قال : قال ابن صوريا القطويني لرسول الله ﷺ يا محمد : ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بيّنة فنتبعك ، فأنزل الله في ذلك قوله ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾ ، دلت الآية من خلال سبب نزولها ومن خلال لفظها على أن القرآن العظيم هو المعجزات القاطعات الدلالة ، الواضحات البينات على رسالة رسولنا عليه الصلاة والسلام . فهو وحده كاف ، ولا زال الخلق يكتشفون كل يوم جديداً من معجزاته ، ومع ذلك فالله عز وجل قد أكرم رسوله ﷺ بأنواع من المعجزات أخرى .

وبهذه الآية تنتهي المجموعة الثانية :

كلمة في المجموعة الثانية وسياقها :

١ - استقرت هذه المجموعة على قوله تعالى ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾ كما استقرت المجموعة السابقة على قوله تعالى : ﴿ **ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** ﴾ لاحظ التشابه بين الآيتين الخاتمتين : موسى جاء بالبينات فظلموا بها ، ومحمد جاء بالبينات فكفروا بها

ولقد استقرت كل من المجموعتين على آية فيها تقرير أنّ ما جاءهم كافٍ لإيمانهم ، وكل من هاتين الآيتين قد جاء بعد حجج عليهم في شأن قضية الإيمان . وقد رأينا ذلك أثناء عرض المجموعتين .

٢ - لقد جاءت هذه المجموعة لتكمل الرد على اليهود الذين يرفضون الإيمان بالقرآن

بسبب من إيمانهم بالتوراة ، فأبطلت دعاواهم الكاذبة من خلال ثلاث قضايا ، ولذلك تجد أن أمر الله لرسوله ﷺ (**قل**) قد تكرر ثلاث مرات في المجموعة ، وفي كل مرة ورد فيها الأمر : (**قل**) كانت هناك حجة ضدهم ، ومن هنا ندرك الصلة المباشرة بين المجموعة الثانية والمجموعة الأولى ، ومحل ذلك في سياق الفصل المبدوء بقوله تعالى ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ..** ﴾ لا يخفى فلننتقل إلى المجموعة الثالثة .

المجموعة الثالثة والأخيرة في الفقرة :

تتألف هذه المجموعة من أربع آيات فلننقلها ليتضح لنا سياقها ومحلها مع فقرتها :

أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

كلمة في هذه المجموعة وسياقها :

١ - يلاحظ أن هذه الفقرة كلها بدأت بآية فيها :

﴿ **أَفَكُلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون** ﴾ .

وأن هذه المجموعة بدأت بقوله تعالى :

﴿ **أَوَ كُلما عاهدوا عهداً نبذه فريقٌ منهم** ﴾ فكأن هذه المجموعة تكمل ما بدأته المجموعة الأولى ، وحرف الواو في (**أَوَ كُلما**) كأنه يعطف الآية الأولى في هذه المجموعة على ماورد في الآية الأولى من المجموعة الأولى .

٢ - وفي المجموعة الأولى ورد قوله تعالى :

﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدِّقٌ لما معهم ..** ﴾ .

والآية الثانية من هذه المجموعة هي قوله تعالى :

﴿ **ولما جاءهم رسول من عند الله مصدِّقٌ لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتابَ الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون** ﴾ .

فالتكامل في الفقرة في مجموعاتها الثلاث واضح ، خاصة وقد رأينا كيف أن وحدة المجموعتين الأولى والثانية واضحة ، وتكاملهما واضح ، وتأتي هذه المجموعة لترينا بوضوح وحدتها ، وأنها في نفس الوقت جزء من كل ما تحتويه فقرتها .

٣ - يأتي بعد هذه المجموعة خطاب مباشر لأول مرة في سورة البقرة بصيغة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ...** ﴾ . وهذا يدلنا على أننا أمام فقرة جديدة ، ولكنه في الوقت نفسه ندرك أن هذه المجموعة قد أكملت الحجة على بني إسرائيل ، إنْ في دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم ، أو في رفضهم الإيمان بالقرآن وبمحمد عليه الصلاة والسلام ، إنه لم يتوجه الخطاب لأهل الإيمان بصيغة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ بعد هذه المجموعة إلا بعد أن قامت الحجة على اليهود ، وعرفت هذه الأمة واقعهم ، عندئذ آن الآوان أن يتوجه الخطاب لأهل الإيمان أن يتحرروا من كل مظهر من مظاهر التبعية لليهود ، بل ليناقشوا ويحذروا ويتحدوا ويعلموا ويتميزوا ويعملوا ويعتبروا ..

٤ - في المجموعة الثانية ﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ..** ﴾ وفي هذه المجموعة بيان لطبيعتهم الغادرة ، وفضحٌ لهم كيف أنهم يرفضون رسالة الرسول

المصدِّق لما معهم ، وكيف أنهم في الوقت نفسه يتبعون الشياطين والسحر ، بينما هم يزعمون كما عرضته علينا المجموعة الأولى أنهم لا يتبعون القرآن ؛ لأنهم يؤمنون بما أنزل عليهم .

﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أُنزل علينا ﴾ .

وبذلك كمَّلت المجموعات الثلاث بعضها بعضاً ، فكانت فقرة واحدة إذ بمجموعها بينت كيف أنهم يتركون ما أمروا به ، ويقتلون أو يكذِّبون من أمروا بمتابعته ، ويتابعون من أمروا بمحاربته ، ويعملون ما أمروا بتركه . ولنبدأ عرض الآيات :

العرض والتفسير :

﴿ أَوَكُلَّما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ﴾ نبذه أي نقضه ورفضه وقوله **﴿فريق منهم ﴾** يدل على أن الذي يتولى النقض هم البعض ، قال الحسن البصري : « نعم ليس في الأرض عهد يُعاهِدون عليه إلا نقضوه ونبذوه ، يعاهدون اليوم وينقضون غداً » . أقول : فعلينا أن نلاحظ دائما في التعامل معهم هذا المعنى ، فمن لم يضع هذا المعنى في حسابه يكون من الغافلين ، صحيح أن الذي ينقض العهد فريق ، ولكن الآخرين يؤيدون النقض ، ويقبلونه ويرضون به ، إن لم يكن علناً فسراً أو ضمناً ، هذا ما نأخذه من الآية بشكل دائم ، ولكن إذا ربطنا هذه الآية بقوله تعالى : **﴿ أَفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ ﴿ أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ﴾** فإنه يخرج معنا معنى مرتبط بموقفهم من الرسل ، وقد سجل هذا المعنى ابن كثير : حين قال :

« وقال مالك بن الصيف (من اليهود) حين بعث رسول الله ﷺ وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق ، وما عهد إليهم في محمد ﷺ : والله ما عهد إلينا في محمد وما أخذ علينا ميثاقاً » فأنزل الله تعالى : **﴿ أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ... ﴾** فكأن الفريق على هذا التفسير هو الجيل من أجيالهم . قال ابن كثير : **«قلت : فالقوم ذمهم الله** بنبذهم العهود التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقها ، ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، الذي في كتبهم نعته وصفته وأخباره ، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته » .

﴿ بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾ إذا نظرنا إلى هذه الجملة من خلال التفسير الأول كان معناها : بل أكثرهم لا تظهر عليه ثمرات الإيمان من تمسك بالعهود ووفاء لها ، وإذا نظرنا إلى الآية من خلال التفسير الثاني كان المعنى : بل أكثرهم لا يؤمنون بمن أخذ عليهم

العهد أن يؤمنوا به ، ومن ثَمَّ قال السدي فيها : « (أي) لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ » ، وقال النسفي : ﴿ **بل أكثرهم لا يؤمنون** ﴾ بالتوراة وليسوا من الدين في شيء ، فلا يعدون نقض المواثيق ذنباً ولا يبالون ، ﴿ **ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم** ﴾ . أي : ولما جاءهم محمد ﷺ مصدق لما معهم من التوراة ﴿ **نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون** ﴾ . أي : طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم وهو التوراة بما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله ، أو كأنهم ليسوا أهل كتاب سابق يعلمهم ، والذين أوتوا الكتاب في الآية هم اليهود ، ونبذ الكتاب وراء الظهور مُثِّل لتركهم له وإعراضهم عنه ، مثل بما يرمى به وراء الظهور استغناءً عنه وقلة التفات إليه ، ويلاحظ أن كلمة (فريق) تكررت في هذه الآية والتي قبلها ، هناك في معرض نقض الميثاق ، وهنا في معرض ترك اتباع التوراة في موضوع الإيمان برسول الله ﷺ ، فبين الآيتين ارتباط لا يخفى على اللبيب ، ثم تأتي الآية الثالثة وارتباطها بما قبلها واضح لوجود حرف العطف إذ تبتدىء الآية بقوله تعالى : ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين** ﴾ فصار التقدير نبذ اليهود كتاب الله ، واتبعوا إملاءات الشياطين ، وكتب السحر ، والشعوذة هذه طبيعتهم : إعراضٌ عما كلِّفوا به مما ينفعهم في دنياهم وأخراهم ، واتِّباع لما حُظر عليهم مما يظنون أنه ينفعهم في دنياهم .

وقبل أن نبدأ شرح الآية نحب أن نلفت النظر إلى قضيتين : الأولى السحر ، والقضية الثانية حول هاروت وماروت ، فالآية في سياقها تعرَّضت لهاتين القضيتين . وقد جرى خلاف كثير بين العلماء في تفسير الآية بسبب هاتين القضيتين ونحن سنعقد فصلين حولهما بعد أن ننهي عرض المقطع حتى يبقى عرض السياق مستمراً وسنقتصر على أدنى ما يلزم من كلام للعرض فليلاحظ ذلك .

﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان** ﴾ هذه الآية معطوفة على ما قبلها فبنو إسرائيل نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واتبعوا .. قال ابن كثير : أي واتبعت اليهود - الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ ــ ما تتلوه الشياطين أي ما ترويه وتخبر به ، وتتحدّث به الشياطين على ملك سليمان ، وعداه بـ (على) لأنه ضمّن (**تتلو**) تكذب ومعنى ﴿ **على ملك سليمان** ﴾ . أي : على عهد ملكه وفي زمانه ﴿ **وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا** ﴾ هذه تبرئة لسليمان من الكفر والسحر ، وحكم على الشياطين بالكفر باستعمال السحر وتعليمه ﴿ **يعلّمون الناس السحر** ﴾ . أي : يعلم الشياطينُ الناسَ

السحر ، ومن ثَمَّ صدر الحكم عليهم بالكفر بهذا السبب مع أنهم كفار في الأصل ، يفهم من ذلك أن السحر الذي هو سحر يلازمه الكفر . ﴿ **وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾ للمفسرين في (**ما**) من قوله تعالى : ﴿ **وما أنزل على الملكين** ﴾ مذهبان : الأول أنها نافية ، والثاني على أنها اسم موصول ، وعلى أنها نافية يفهم النص مجموعة فهوم ، وعلى أنها اسم موصول يفهم النص مجموعة فهوم ، وسنعقد لذلك فصلاً أما الآن فنقول : إن إحدى الاتجاهات الرئيسية في النص : أن هذين ملكان أنزلهما الله - عزّ وجلّ - ليعلما الناس السحر ليستطيعوا أن يفرقوا بين السحر والمعجزة ، ومن ثَمَّ فإنهما كانا يقولان لمن يتعلم ﴿ **إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾ بأن تعمل بالسحر وتسحَر ﴿ **فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه** ﴾ . أي : فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف ، وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر سوء منظر ، أو خلق أو بغضة أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة ، والمرء هو الرجل وتأنيثه امرأة ويثنى كل منهما ولا يجمعان ﴿ **وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ . أي : وما هم بضارّين بالسحر أحداً إلا بعلم الله ومشيئته وقضائه ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ . أي : يضرهم في دينهم وأخراهم وليس له نفع يوازي ضرره أصلاً . دل ذلك على أن تعلم السحر ضرر محض

قال النسفي : وفيه دليل على أنه واجب الاجتناب كتعلم الفلسفة التي تجر إلى الغواية . **أقول** : المطالعة في كتب الفلسفة حرام على من ليس عنده مناعة ضدها ، وهذا بحث يقتضي فصلاً ﴿ **ولقد علموا لَمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق** ﴾ . أي : ولقد علم اليهود الذين استبدلوا السحر عن متابعة الرسول ﷺ لمن فعل فعلهم ذلك أنه ما له في الآخرة من نصيب ، فالخلاق هو النصيب ﴿ **ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾ . أي : ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول ﷺ ، لو كان لهم علم بما وعظوا به ، ولكنهم لا علم عندهم ، إنما نفى العلم عنهم مع إثباته لهم بقوله ﴿ **ولقد علموا** ﴾ لأن معناه لو كان عندهم علم يعملون به ، جعلهم حين لم يعملوا بعلمهم كأنهم لا يعلمون ﴿ **ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون** ﴾ . أي : ولو أنهم آمنوا بالله ورسله والقرآن ، واتقوا الله باجتناب المحارم وترك ما هم عليه من نبذ كتاب الله ، واتباع كتب الشياطين ، لكان ثواب الله خيراً لهم مما هم فيه ، فالمثوبة الثواب ، وقد حكم عليهم بالجهل بقوله ﴿ **لو**

كانوا يعلمون ﴾ لتركهم العمل بالعلم .

كلمة في الفقرة وسياقها :

هذه الفقرة هي إحدى فقرتين تواجهان بشكل مباشر بني إسرائيل في أقوالهم وأفعالهم في قضية الإيمان ، والملاحظ أن هذه الفقرة انتهت بقوله تعالى : ﴿ **ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون** ﴾ ولو أننا رجعنا إلى مدخل هذا المقطع لوجدنا قوله تعالى هناك : ﴿ **وآمِنُوا بما أنزلتُ مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾ .

فالشيء الذي طالبتهم به الآيتان هناك ، جاء النقاش على أشده معهم في شأنه في هذه الفقرة .

وهكذا رأينا أن ذلك المدخل الذي طالبهم بأوامر ونواه ، قد جاء الفصل الأول ، وفقرتان من الفصل الثاني ، كتعليل وتفصيل للمطالبة بتلك الأوامر والنواهي .

ثم تأتي فقرتان في الفصل الثاني لتواجها اليهود مواجهة في قضية الإيمان بالقرآن ، ولتحددا لهذه الأمة طريقها في العلاقة مع بني إسرائيل ، وليعطي المقطع كله دروساً لهذه الأمة في كيفية التعامل مع الأوامر والنواهي ، ولننتقل إلى الفقرة الثانية في هذه المواجهة أي إلى الجولة الثانية وهي الفقرة الرابعة في الفصل الثاني من المقطع والذي بدايته ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ..** ﴾ . والذي ينصَبُّ الكلام فيه على قضية الإيمان :

الفقرة الرابعة من الفصل الثاني من المقطع الثالث :

تمتد هذه الفقرة من الآية (١٠٤) إلى نهاية الآية (١٢١) ثم تأتي بعد ذلك آيتان هما خاتمة المقطع فينتهي المقطع بنهاية الآية (١٢٣) وهذه هي الفقرة مع خاتمة المقطع :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

* * *

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

* * *

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

* * *

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

* * *

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

* * *

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

* * *

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

* * *

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

* * *

كلمة في هذه الفقرة وسياقها :

لأول مرة تتصدر كلمة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ خطاب المؤمنين في سورة البقرة وذلك بعد الدروس الكثيرة التي أخذها المؤمنون ، وبعد الجولة المباشرة مع بني إسرائيل في قضية الإيمان ، وجاء الخطاب مطالباً أهل الإيمان بالتحرر من أسر متابعة اليهود حتى في التعابير ، ومحذراً من الوقوع فيما وقعوا فيه من سوء الأدب مع الله . وجاء السياق معرِّفاً أهل الإيمان على العواطف الحقيقية للكافرين تجاه المسلمين ، وعارضاً لكثير من الأقوال والأفعال الخاطئة والموقف الصحيح منها . ومن ثَمَّ فإن الفقرة تناقش مجموعة

الأوهام والتصورات الأساسية عند اليهود والنصارى من كون الشرائع السابقة لا يجوز نسخها ، ومن كون الجنة حكراً على هؤلاء مع انحرافهم عن الدين الحق ! ومن كون أهل كل باطل لا يرون غيرهم على شيء ! ، ومن ادعاء الولد لله ، ومن طلب سماع كلام الله واقتراح الآيات ، ومن كون بقايا أهل الكتاب كلهم على هوى ورغبة في أن يحملوا الناس على أهوائهم . وفي الفقرة توجيهات لهذه الأمة تساعدها على تحمل عبء الصراع مع الكفر وأهله ، وفيها موازين تعرف بها حقائق وكليات ، ويتضح في هذه الفقرة تماماً أن هذا المقطع وإن كان في سياقه العام يدعو بني إسرائيل للصلاح والإصلاح ، ولكن الهدف الأول هو هذه الأمة ، وإصلاحها ، وتربيتها ، وتعليمها ، والارتقاء بها .

إن هذه الفقرة مبدوءة بـ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ وهو الخطاب الأول بهذه الصيغة في القرآن ، فكأن ما قبله إنما كان من أجل وجود الشخصية المؤمنة ، حتى إذا وجدت الشخصية المؤمنة من خلال كل المعاني السابقة أصبحت مؤهلة للخطاب الخاص بها . ومن هنا فإننا نستنتج أن ما قبل هذا الخطاب ضروري في قضية الإيمان ، فالإيمان العملي الكامل غير الإيمان النظري الذي لا يواجه به صاحبه كل شيء حوله بعقلية المؤمن .

ونتيجة لذلك فإننا نقول : إن هذه الفقرة من الأهمية في المكان الكبير على اعتبار أنها أول خطاب مباشر للمؤمنين بلفظ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ فالمعاني الموجودة فيها والتوجيهات ذات أهمية خاصة :

ففيها وجِّهت الأمة المسلمة نحو الاحتراس الكامل من متابعة غيرها ، أو الوقوع في أسر مصطلحاته ، وفيها عرفت الأمة أن عدوها لا يريد بها خيراً ، ولا يريد لها خيرا بل ينفس عليها أي خير يصيبها من ربها ، وفيها وجِّهت الأمة نحو التسليم المطلق لله في أحكامه وشرائعه ، ينسخ ما شاء ويثبت ما شاء ؛ فهو ذو القدرة المطلقة والعلم المحيط ، وفيها وجهت الأمة نحو الاحتراس من السير على طريق بني إسرائيل في تعنتهم وسؤال رسولهم ما لا ينبغي ، وفيها وجهت الأمة نحو الحرص على الإيمان وعدم استبداله بالكفر ، وفيها عرفت الأمة على الرغبة الملحة عند أهل الكتاب عامة من أجل صرف هذه الأمة عن دينها ، وفيها وجهت الأمة نحو الصلاة والزكاة كمرتكزين رئيسيين للبقاء في هذا الدين ، وفيها تمت الدلالة على الطريق للإيمان بالكتاب وهو تلاوته حق التلاوة .

إن كل قضية من القضايا التي تعرضت لها الفقرة ذات أهمية بالغة جداً . فأية غفلة عنها ، أو جهل بها ، أو انحراف عن الأخذ بها ؛ يترتب عليه شر كبير وبلاء مستطير .

إن دروس ما مر من قبل في هذا المقطع تأتينا هنا بشكل مكثّف فلنعرف ذلك .

التفســـير :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ﴾ ذكر لي بعض الدارسين للُّغة العبرية أن كلمة (راعينو) ومشتقاتها لا زالت تستعمل في اللغة العبرية الحالية كلمة سباب . هذه الكلمة يشبهها في اللغة العربية من حيث اللفظ مع اختلاف المعنى كلمة (راعنا) . فكان اليهود يستعملون هذه الكلمة في خطاب رسول الله ﷺ متسترين بمعناها العربي ، وهم يريدون الإساءة . وكان المسلمون يظنون باليهود خيراً فتابعوهم على ذلك ؛ فأنزل الله الآية . وبعض المفسرين ظنوا أن سبب النهي عن استعمال كلمة (راعنا) أن اليهود كانوا يستعملونها ويريدون (الرعونة) ولا يبعد أن يكون هناك صلة بين اللغة العبرية وهذا المعنى في الاشتقاق .

قال السدي : « كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتي النبي ﷺ فإذا لقيه فكلمه قال : ارعني سمعك ، واسمع غير مسمع ، وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء تُفخَّم بهذا ؛ فكان ناس منهم يقولون اسمع غير مسمع (غير سامع) ، وهي كالتي في سورة النساء فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا راعنا » .
وقال الحسن : الراعن من القول السخري منه ، نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد ﷺ وما يدعوهم إليه من الإسلام .

قال ابن كثير :

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص ، عليهم لعائن الله ، فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا ، يقولون : راعنا ويورون بالرعونة ...

والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً فقال : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم .. ﴾** .

أخرج الإمام أحمد .. عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعلت الذلة والصَّغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » .

وأخرج أبو داوود عن رسول الله ﷺ « من تشبه بقوم فهو منهم » .

قال ابن كثير : ففيه دلالة على النهي الشديد ، والتهديد والوعيد ، على التشبه بالكفار ، في أقوالهم ، وأفعالهم ولباسهم ، وأعيادهم ، وعياداتهم ، وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نُقرّ عليها .

وقال النسفي في الآية :

كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم : راعنا يا رسول الله ، أي راقبنا وانتظرنا حتى نفهمه ونحفظه ، وكانت لليهود كلمة يتسابُّون بها عبرانية أو سريانية وهي (راعينا) فلما سمعوا بقول المؤمنين (راعنا) افترصوه وخاطبوا به الرسول ﷺ وهم يعنون تلك المسبة ، فنُهي المؤمنون عنها ، وأمروا بما هو في معناها وهو انظرنا ، من نظره إذا انتظره .

يقول صاحب الظلال :

« فقد كانوا يخشون أن يشتموا النبي ﷺ مواجهة ، فيحتالون على سبّه - صلوات الله وسلامه عليه - عن هذا الطريق الملتوي الذي لا يسلكه إلا صغار السفهاء ، ومن ثَمَّ جاء النهي للمؤمنين عن اللفظ الذي يتخذه اليهود ذريعة ، وأمروا أن يستبدلوا به مرادفه في المعنى ، الذي لا يملك السفهاء تحريفه وإمالته ؛ كي يفوّتوا على اليهود غرضهم الصغير السفيه ، واستخدام مثل هذه الوسيلة من اليهود يشي بمدى غيظهم وحقدهم ، كما يشي بسوء الأدب وخسَّة الوسيلة وانحطاط السلوك ، والنهي الوارد بهذه المناسبة يوحي برعاية الله لنبيه ، وللجماعة المسلمة ، ودفاعه سبحانه عن أوليائه ، بإزاء كل كيد وكل قصد شرير من أعدائهم الماكرين » .

أقول : إن هذه الحادثة تدل على أن اليهود لا يتركون فرصة يسيئون إلينا بها إلا اهتبلوها مهما كانت هذه الفرصة صغيرة أو خسيسة ، وإن أمثالهم كثيرون ، وعلينا أن نكون يقظين بحيث لا نعطي عدواً فرصة .

وأول درس يستفاد من الحادثة والآية : أن يحذر المسلم من خداع الألفاظ التي يطلقها الكافرون ومن متابعتهم عليها ، ولعل غياب هذه الحقيقة عن أذهان المسلمين كان من أعظم أسباب كوارثهم ، فقد تابعوا أعداء الله والإسلام في شعاراتهم وألبستهم وعاداتهم وأفكارهم و تقويمهم للأشياء ، وإذا بآلاف الألوية الكافرة ترتفع في أرض الإسلام ، ويلتف حولها أبناء المسلمين ، واللواء الحقيقي للمسلم لواء الله ورسوله لم يعد يحمله إلا القليل ، ولو أن المسلم عقل الانحراف النفسي والعقلي للكافرين عامة لأدرك خطر المتابعة ، ولو أن المسلم عقل الوضع النفسي والعقلي للكافرين عامة لعرف أن هؤلاء

الكافرين جميعاً أعداؤه ، وأنهم لا يريدون به خيراً ، ولا يريدون له خيراً كما سنرى في الآية اللاحقة للآية التي نحن بصددها . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا** ﴾ أي وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله ﷺ ، ويلقي عليكم من المسائل بآذان واعية وأذهان حاضرة ، وليكن سماعكم سماع قبول وطاعة ، ولا يكن سماعكم كسماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا . ﴿ **وللكافرين عذاب أليم** ﴾ أي ولليهود وأشباههم من الكافرين جميعاً ممن يسبون رسول الله ﷺ ، ويسيئون الأدب معه ، ويرفضون السماع له عذاب مؤلم .

أخرج ابن أبي حاتم : « أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال : اعهد إليَّ فقال : إذا سمعت الله يقول ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ فارعها سمعك ، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه » .

ثم تأتي الآية التالية للآية الأولى لتؤكد أن الكافرين - سواء كانوا كتابيين أو مشركين - يكرهون أن يصيب المسلمين أي خير من ربهم . فهي تكمل الآية السابقة فكأنها تقول للمسلم : كيف تتابع أعداء الله وتقلدهم وتترك طاعة الله ورسوله ﷺ ؟ وأعداء الله يعادونك ، ويحاربونك ، ويكرهون لك الخير :

﴿ **ما يودُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزَّل عليكم من خير من ربكم** ﴾ الخير هنا الوحي ، وبيَّن الله عز وجل في هذه الآية شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذّر الله تعالى من تقليدهم ومحاكاتهم ؛ ليقطع المودة بيننا وبينهم . ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيهم محمد ﷺ حيث يقول تعالى ﴿ **والله يختص برحمته من يشاء** ﴾ المراد بالرحمة هنا النبوة والوحي والشريعة ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ وفي هذا إشعار بأن إيتاء النبوة من الفضل العظيم على الرسول وعلى المستجيبين له .

بيّن سياق المقطع الانحراف الخطير الذي وقع فيه أهل الكتاب ، فكان مقتضى هذه المعرفة أن يكون المسلم في علاقته بأهل الكتاب - فضلاً عن غيرهم - على حذر ، وخاصة في المتابعة والطاعة ، وكيف لا وقد خُصّت هذه الأمة بالخير وبالفضل ، أفتترك هذه الأمة هذا الخير وهذا الفضل وتتابع أعداءها ممن لا خير عندهم ولا فضل ولا يريدون بهذه الأمة خيراً .

ثم يأتي بعد ذلك قوله تعالى :

﴿ **مانَنسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء**

قدير ألم تعلم أن الله له ملك السمٰوات والأرض وما لكم من دون الله من وَليّ ولا نصير ﴾ لم تظهر حكمة مجيء هاتين الآيتين في هذا السياق وفي هذا المكان كما ظهرت في عصرنا . إذ في العصور المتأخرة صاغ أهل الكتاب في زعمهم نظريات النقد الرئيسية الكاذبة لإسلامنا ، وكان منها نقد الإسلام من خلال موضوع النسخ ، فكان عملهم استمراراً لعمل أسلافهم في زمن النبوة .

فأسلافهم في زمن النبوة نقدوا الإسلام من خلال ما ينسخ من حكم ويوضع من حكم جديد ، وأتمَّ هؤلاء النظرية فرفضوا أن يكون الإسلام ناسخاً لما قبله ؛ بحجة أن دين الله واحد والله واحد ، فلماذا ينسخ الله شرعه ؟ فكون النسخ موجوداً في الشريعة الإسلامية ، وكون الشريعة الإسلامية تعتبر نفسها ناسخة لما قبلها ؛ فذلك علامة على أن هذه الشريعة ليست من عند الله . ومن أعظم من تولى الرد عليهم في هذا الموضوع وفي غيره رحمة الله بن خليل الهندي في كتابه « إظهار الحق » الذي لم يؤلف في الإسلام مثله في موضوعه ، إذ أقام عليهم الحجة من كلامهم ، ومن نصوص ديانتهم التي يعتمدونها في مجموع المسائل التي أثاروها . فبرهن في موضوع النسخ من خلال ما يعتمدونه على أنّ التوراة نسخت أحكاماً كانت قبلها في بني إسرائيل ، وأن الإنجيل قد نسخ أحكاماً في التوراة ، بل إن رسل المسيح - في زعمهم - قد نسخوا أحكاماً في الإنجيل ، وأن التوراة قد نُسخت أحكامٌ فيها بأحكام أخرى .

بعد هذه المقدمة أصبح بإمكاننا أن ندرك محل هاتين الآيتين في سياق الفقرة : خصَّ الله هذه الأمة بالفضل والخير ؛ بإنزاله عليها شريعته الأخيرة الناسخة لسواها .والكافرون الذين لا يريدون لهذه الأمة خيراً ينكرون أن تنسخ شريعةٌ لاحقة شريعةً سابقة . وبالتالي فإنهم يعتبرون الإسلام باطلاً . وهم إذ يزعمون هذا الزعم فكأنهم يعتبرون الله عاجزاً ، وهم بذلك لا يعرفون إحاطة علم الله ، فتأتي الآيتان لترد هذا كله وتبطله . ففي الآيتين تأكيد لفضل الله على هذه الأمة وتوضيح ، وهذا يستدعي من هذه الأمة أن تعرف فضل الله عليها ، فلا تستجر إلى متابعة أهل الضلال ، بل أن تشكر الله على نعمه بالسماع والمتابعة ، وبهذا نعرف صلة هاتين الآيتين بسياق الفقرة التي بدايتها ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا** ﴾ ولنبدأ عرض الآيتين :

﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها** ﴾ طعن اليهود في النسخ فقالوا : ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً فنزلت هذه الآية . والنسخ لغةً : التبديل . وشريعةً : بيان انتهاء الحكم الشرعي المطلق الذي تقرر في أوهامنا استمراره بطريق التراخي فكان تبديلاً في حقنا ، بياناً محضاً في

حق صاحب الشرع . والإنساء : أن يذهب بحفظها من القلوب ﴿ **نأتِ بخير منها أو مثلها** ﴾ أي نأتِ بخير من الذي نسخناه أو مثل الذي تركناه ، أي في الحكم بالنسبة لمصلحة المكلفين إما أنفع وإما أرفق وإما أكثر ثواباً . قال قتادة : فيها تخفيف ، فيها رخصة ، فيها أمر ، فيها نهي ، ﴿ **ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير** ﴾ أي قادر فهو يقدر على الخير وعلى مثله وعلى أفضل منه ﴿ **ألم تعلم أن الله له ملك السمٰوات والأرض** ﴾ فهو يملك أموركم ويدبرها ، وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ أو منسوخ ﴿ **وما لكم من دون الله من ولي** ﴾ يلي أموركم ﴿ **ولا نصير** ﴾ أي ناصر ينصركم من العذاب . **قال ابن كثير** : «يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، فله الخلق والأمر وهو المتصرف ، فكما خلقهم كما يشاء ؛ يسعد من يشاء ، ويُشقي من يشاء ، ويصح من يشاء ، ويُمرض من يشاء ، ويوفّق من يشاء ، ويخذل من يشاء ، كذلك يحكم في عباده بما يشاء فيحل ما يشاء ، ويحرم ما يشاء ، ويبيح ما يشاء ، ويحظر ما يشاء ، وهو الذي يحكم ما يريد ، لا معقِّب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون . ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ ؛ فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى . فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله ، في تصديق ما أخبروا ، وامتثال ما أمروا ، وترك ما عنه زجروا . وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود ، وتزييف شبهتهم - لعنهم الله - في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً ، وإما نقلا كما تَخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً .

قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : فتأويل الآية ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السمٰوات والأرض وسلطانهما دون غيرى ؛ أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وأنهى عما أشاء ، وأنسخ وأبدِّل وأغيِّر من أحكامي التي أحكم بها في عبادي بما أشاء إذ أشاء ، وأقر فيهما ما أشاء ثم قال : وهذا الخبر وإن كان خطاباً من الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته . فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة ، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غيَّر الله من حكم التوراة . فأخبرهم الله أن له ملك السمٰوات والأرض وسلطانهما ، وأنِ الخلق أهل مملكته وطاعته ؛ وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه ، وأن له أمرهم بما يشاء ، ونهيهم عما يشاء ، ونسخ ما يشاء ، وإقرار ما يشاء ، وإنشاء ما يشاء من إقراره ونهيه ، قلت (القائل ابن كثير) الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ إنما هو الكفر والعناد . فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى ؛ لأنه يحكم ما يشاء كما أنه يفعل ما

يريد مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية ، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرَّم ذلك ، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها ، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها ، أمر إبراهيم بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل ، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل ؛ كيلا يستأصلهم القتل ، وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدقونه » .

وفي الصلة بين قوله تعالى ﴿ **ما ننسخ** ﴾ وبين ماقبلها زيادة على ما ذكرنا ، ما قاله الألوسي : « ومناسبة الآية لما قبلها أن فيه ما هو من قبيل النسخ ؛ حيث أقر الصحابة رضي الله عنهم مدَّةً على قول (راعنا) وإقراره ﷺ على الشيء منزَّل منزلة الأمر به والإذن فيه ثم إنهم نهوا عن ذلك ، فكان مظنة لما يحاكي ما حكي في سبب النزول ، أو لأنه تعالى لما ذكر أنه ﴿ **ذو الفضل العظيم** ﴾ كاد ترفع الطغام رؤوسها وتقول : « إن من الفضل عدم النسخ .. فأتى سبحانه بما ينكس رؤوسهم ويكسر ناموسهم ويشير إلى أن النسخ من جملة فضله العظيم ، وجوده العميم ، أو لأنه تعالى لما أشار إلى حقيقة الوحي ورد كلام الكارهين له رأساً ، عقّبه بما يبين سر النسخ الذي هو فرد من أفراد تنزيل الوحي وإبطال مقالة الطاعنين فيه فليتدبر » اهـ . وفي حكمة النسخ يقول صاحب الظلال : « فالتعديل الجزئي وفق مقتضيات الأحوال في فترة الرسالة هو لصالح البشرية ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها » اهـ . وسنعقد للنسخ فصلاً بعد أن ننهي عرض المقطع ولننتقل إلى آية أخرى في الفقرة وهي :

﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدَّل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ﴾ .

(أم) في اللغة العربية تأتي متصلة ، وتأتي منفصلة ، تأتي متصلة إذا سبقت بهمزة استفهام وجاءت حرفاً معادلاً له تقول (أجاز زيد أم خالد) وتأتي منفصلة إذا لم تسبق بشيء من هذا لفظاً أو تقديراً ، وتكون في هذه الحالة حرف إضراب تقديره (بل) قال الألوسي : جُوّز في (أم) هذه أن تكون متصلة وأن تكون منقطعة ، ثم أخذ يوجه الاتصال والانقطاع ، وذكر كيف أن بعضهم جزم بالانقطاع ، والألوسي احتمل الاتصال لسبق (أم) بقوله تعالى ﴿ **ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض** ﴾ . ورده بعضهم لأن الخطاب في الآية لرسول الله ﷺ ، بينما الخطاب في الآية الثانية .

للمؤمنين . والذي أرتاح إليه أن (أم) متصلة ولكن همزتها هي التي مرت معنا في ابتداء الفصل في قوله تعالى ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ..** ﴾ ﴿ **أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل** ﴾ .

في الفصل الأول من هذا المقطع : سئل موسى من قِبَل بني إسرائيل أن يريهم الله جهرة ، وسألوا موسى أن يخرج الله لهم من بقول الأرض ، وفي الفصل الأول تبينت معالم الطبيعة اليهودية ، ثم جاء الفصل الثاني مصدراً بقوله تعالى :

﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ..** ﴾ وسار السياق موئساً المسلمين من إيمان هؤلاء ثم جاء قوله تعالى ﴿ **أم تريدون أن تسألوا رسولكم ..** ﴾ ناهياً المسلمين أن يسألوا كما سأل بنو إسرائيل ولكن بعد أن اتضحت النفسية اليهودية بشكل أجلى .

فالفصل في سياقه الرئيسي يقول للمسلمين :

لا تطمعوا أن يؤمنوا لكم ، ولا تسألوا رسولكم كما سألوه ، هذا على القول بأن (أم) متصلة . أما على القول بأنها منفصلة فإن المعنى يكون : بل أتريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئل موسى من قبل . وفي حالة اتصال (أم) أو انفصالها فالإنكار هو المقدَّر ولنا عودة على السياق :

﴿**أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئل موسى من قبل**﴾ **قال ابن كثير** : «أي بل تريدون أو هي على بابها في الاستفهام وهو إنكاري » وقال : والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنُّت والاقتراح كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكذيباً وعناداً ﴿ **ومن يتبدل الكفر بالإيمان** ﴾ أي ومن يشتر الكفر بالإيمان ﴿ **فقد ضل سواء السبيل** ﴾ أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال ، وهذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم ، والانقياد لهم ، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم ، بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر ولنا عند هذه الآية وقفتان :

الوقفة الأولى حول أهمية هذا التوجيه :

إن بني إسرائيل عندما بُعث لهم موسى عليه السلام كانوا أمة مستعبدة ، ثم تخلصوا من العبودية وبقوا حدثاء عهد بها ، وكانوا حدثاء عهد بالكتاب ، ومن ثَمَّ كانوا يسألون ما لا يُسأل ، ويتعنتون ويخالفون ، وقد أعطى اللهُهذه الأمة دروساً عن

هؤلاء . ولقد كوِّنت هذه الأمّة في قلب الجزيرة العربية حيث لا عبودية سابقة ، فانتفت الظروف وأخذنا الدروس ، فالمفروض أن تكون أمتنا بمنأى عن الأسئلة الساذجة أو المتعنتة أو التي لا تليق بالأمة الربانية . وأهم الأسئلة التي وجهها بنو إسرائيل لموسى (عليه السلام) في هذا السياق تعليقهم الإيمان به برؤية الله جهرة ، وهو طلب متعنت ظالم ، وطلبهم طعام الرخاء ، وهو طلب أمة مسترخية ، والأمة المسترخية لا تستطيع تحمل أعباء جهاد طويل المدى . إن هذا التوجيه يُراد به من الأمة أن تبتعد عن مثل هذا النوع من السير الخاطىء الذي سارت به بنو إسرائيل ، واقرأ هذه النصوص لترى كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ نماذج صدق في كل حق :

في الصحيحين عن المغيرة « أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال » ... وتنفيذاً لمثل هذا ولمثل ما ورد في الآية :

يقول البراء بن عازب : « إن كان ليأتي عليّ السَّنةُ أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الشيء فأتهيَّب منه ، وإن كنا لنتمنى الأعراب » أي نتمنى أن يأتي الأعرابي فيسأله فنتعلم .

وقال ابن عباس : ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ ما سألوه ﷺ إلا عن اثنتي عشرة مسألة كلها في القرآن : ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر ... يسألونك عن الشهر الحرام .. ويسألونك عن اليتامى ...**﴾ اهـ . يعني هذا وأشباهه فما أعظم هذا الجيل ! فهم لم يكتفوا ألا يسألوا طلب تعنت بل لم يسألوا حتى على شاكلة أخرى إلا حيث الضرورة القصوى .

الوقفة الثانية في سياق هذه الآية :

– إذا اعتبرنا (أم) في الآية منقطعة فإن محل الآية مع ما قبلها وما بعدها على الشكل التالي :

نهى الله المؤمنين أن يحاكوا اليهود في أدنى شيء ، وأمرهم أن يسمعوا وبيَّن لهم أن الكافرين جميعاً لا يرغبون لهذه الأمة أدنى خير من الله ، بينما خص الله عز وجل هذه الأمة بمزيد فضله ؛ بأن أنزل عليهم رسالته وخاتمة شرائعه ، وبذلك نسخت هذه الشريعة الشرائع السابقة ، ومن ثَمَّ جاءت آية النسخ وما بعدها لتعلل للنسخ كله رادة

على أهل الكتاب . وفي هذا السياق تأتي هذه الآية ﴿ **أم تريدون أن تسألوا ..** ﴾ ناهية المسلمين عن السؤال المتعنت ، مبيّنة لهم أن بداية السير في الضلال هو السؤال المتعنِّت ، فالآية تأتي بعد أن بيّن الله عز وجل لهذه الأمة فضله عَليها ؛ لتدلهم على ما لا ينبغي فعله ، قياما بشكر الله ، ولتبيّن لهم أن مما تسلب به هذه النعمة العظيمة عنهم هو السؤال المتعنت كسؤال قوم موسى لموسى . إذا تقرر هذا فلنلاحظ :

بدأت هذه الفقرة بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا** ﴾ ثم بعد آيات جاء قوله تعالى ﴿ **أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدَّل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل** ﴾ إن السياق كأنه يقول لنا :

إنكم إن واتيتم اليهود بمثل (راعنا) فستصلون في النهاية إلى أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى ؛ لأنهم لا يريدون بكم خيراً ، ويثيرون الشبهات والشكوك ضد إسلامكم ودينكم من مثل شبهة النسخ وغيرها .

ولو أننا تتبعنا واقع أبناء المسلمين الذين لا يكتفون بالسؤال كما سئل موسى من قبل بل يقولون ما هو أفظع ، لو أنك تتبعت : ما الذي أوصل المسلمين إلى مثل هذا لوجدته تلك البدايات من المواتاة لأعداء الله في أشياء ظاهرها صغير ، ومن ثَمَّ تأتي الآية اللاحقة لتبيّن كيف أن أهل الكتاب يودون لو أنهم أرجعونا كفاراً ، فأمام هذه الرغبة فإنه لا ينبغي أن نواتيهم في بدايات توصلنا إلى نهايات خطيرة نضل بها عن سواء السبيل .

هذا ما نراه في محل هذه الآية ضمن السياق إذا اعتبرنا أن (أم) منقطعة . قال الألوسي : والمراد على التقديرين (اتصال «أم» أو انفصالها) توصيته المسلمين بالثقة برسول الله ﷺ ، وترك الاقتراح بعد رد طعن المشركين أو اليهود في النسخ ، فكأنه قيل لا تكونوا فيما أنزل إليكم من القرآن مثل اليهود في ترك الثقة بالآيات البينة واقتراح غيرها ؛ فتضلوا وتكفروا بعد الإيمان ، وفي هذه التوصية كمال المبالغة والبلاغة حتى كأنهم بصدد الإرادة فنهوا عنها فضلاً عن السؤال . يعني من شأن العاقل أن لا يتصدى لإرادة ذلك ولم يقل سبحانه كما سأل أمة موسى أو اليهود للإشارة إلى أن من سأل ذلك يستحق أن يُصان اللسان عن ذكره – وإذا اعتبرنا أن (**أم**) متصلة على الوجه الذي ذكرناه من أنها متصلة بالهمزة في قوله تعالى ﴿ **أفتطمعون** ﴾ فإن السياق يكون على الشكل التالي :

يبدأ الفصل بقوله تعالى :

﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم** ﴾ ثم يسير الفصل مبيّناً فساد قلوب هؤلاء ليستقر على الأمر بعدم محاكاة هؤلاء في شيء مبيناً كراهيتهم لإنزال الله على هذه الأمة وحياً واصلاً إلى سنَّة الله في النسخ ، فشريعة نسخت وشريعة وجدت ، فإذا استقر السياق على هذا جاء قوله تعالى :

﴿ **أم تريدون أن تسألوا رسولكم ..** ﴾ .

فصار السياق الرئيسي :

لا تطمعوا أن يؤمنوا لكم ، ولا تسألوا كما سألوا رسولهم ، وكأن الطمع بإيمانهم مع ما هم فيه قد يؤدي إلى سؤال رسولنا أسئلة في غير محلها .

ثم تأتي بقية الفصل وفيها تعليل لكلا القضيتين لعدم الطمع بالإيمان ولعدم السؤال فيأتي بعد ذلك .

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا ....

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ ....

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ......

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ....

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ ....

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ ....

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ....

فناس هذه مواقفهم وهذه أقوالهم كيف يُتابَعون ؟ وكيف يُطمع بإيمانهم ؟ وكيف يكونون محل قدوة للمسلمين ؟

إنه على القول بأن (أم) حرف معادل للهمزة في قوله تعالى : « أفتطمعون .. » نرى وحدة الفصل الثاني في هذا المقطع بشكل واضح ، ولكنه اتجاه لم نره في كتب التفسير التي اطلعنا عليها ، ولذلك فنحن نسجله مع ذكر انفرادنا به ولننتقل إلى ما بعد ذلك في الفقرة :

﴿ **وَدَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتيَ الله بأمره إن الله على كل شيء قدير * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير** ﴾ في هاتين الآيتين شرح حال من أحوال أهل الكتاب بالنسبة لنا ، والموقف المكافىء لذلك ، ومحل هاتين الآيتين في السياق أنهما بمثابة البيان والتفصيل لحكمة النهي عن المتابعة الوارد في قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا** ﴾ والوارد في قوله تعالى ﴿ **أم تريدون أن تسألوا رسولكم** ... ﴾ كما أنهما تعليل لعدم الطمع في الإيمان الوارد في قوله تعالى ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم** ... ﴾ إذ السياق واحد .

قال ابن كثير في تفسير الآيتين :

يحذر تعالى عباده المؤمنين **من** سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، ويعْلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر ، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم ، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو أو الاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح ، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه .

أقول : إن الآيتين فيهما شرح حال ، وإلزام بموقف ..

- أما شرح الحال فهو : ﴿ **وَدَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم** ﴾ أي أن يردوكم ، وهل المراد بالكثير هنا العلماء منهم أو العلماء والعامة ، وبالتالي فلا يخرج منهم إلا من آمن سراً . قولان للمفسرين . ﴿ **من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم** ﴾ هذه علة الرغبة في أن يردونا مرتدين . والحسد هو : الأسف على الخير عند الغير ، والحسد من عند النفس هو الحسد النابع عن شهوة النفس لا من قبل التدين والميل مع الحق ، فحسدهم متبالغ منبعث من أصل أنفسهم ﴿ **من بعد ماتبين لهم الحق** ﴾ أي من بعد علمهم بأنكم على الحق ، كانوا يعلمون أن محمداً رسول الله ﷺ

يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، فكفروا به حسداً وبغياً إذ كان من غير بني إسرائيل .

قال الألوسي : « فإن من شاهد هاتيك المعجزات الباهرة والآيات الزاهرة يبعد عنه كيفما كان عدم تبين الحق ومعرفة مطالع الصدق ، إلا أن الحظوظ النفسانية ، والشهوات الدنية ، والتسويلات الشيطانية ؛ حجبت من حجبت عن الإيمان ، وقيدت من قيدت في قيد الخذلان » أهـ هذا هو شرح حال الكثيرين من أهل الكتاب . فما هو الموقف الذي ألزمنا به ؟

– وأما الموقف الذي ألزمنا به فهو :

﴿ **فاعفوا واصفحوا** ﴾ أي فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل والعدواة . ﴿ **حتى يأتيَ الله بأمره** ﴾ الأمر هنا إما مفرد الأوامر وإما مفرد الأمور . فإن كان مفرد الأوامر فالمراد بالآية ﴿ **حتى يأتي الله بأمره** ﴾ أي بالقتل والقتال . وفي إسناد صحيح عن أسامة بن زيد قال : كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى قال الله ﴿ **فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير** ﴾ وكان رسول الله ﷺ يتأول من العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بالقتل فقتل الله به من قتل من صناديد قريش .

أما إذا كان الأمر في الآية مفرد الأمور فالمراد به القيامة ، أو المجازاة يومها ، أو قوة الرسالة وكثرة الأمة ، أو المراد به نصر الله وفتحه ، وعلى القول الأول فالآية منسوخة بآيات القتال ، وعلى القول الثاني فالآية محكمة غير منسوخة ، وعلى القول بأنها محكمة فنحن مأمورون بالصفح والعفو حتى يأتي النصر والفتح والغلبة ، وعندئذ فإن حكم الله ينفذ فيهم ، ومحاكمنا تحاكم شططهم ، وسلطتنا تمنع تجاوزاتهم ، وتحول دون مكرهم ، وتحظر مؤسساتهم التي يقيمونها لفتنة المسلمين وخديعتهم .

وعلى القول بأنها محكمة فهي واحدة من آيات محكمات في شأن التعامل مع أهل الكتاب ، وقوتنا وضعفنا هي التي تحكم موقفنا وخطتنا ، وضرورات حركتنا هي التي تحدد الموقف المختار ثم قال تعالى :

﴿ **إن الله على كل شيء قدير** ﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم ، ويقدر على الإتيان بما

شاء من أمر . ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ **قال الألوسي** : أمرهم بالمخالقة والالتجاء إليه تعالى بالعبادة البدنية والمالية ؛ لأنها تدفع عنهم ما يكرهون ﴿ **وما تقدموا لأنفسكم من خير** ﴾ أي من حسنة صلاة أو صدقة أو غيرهما ﴿ **تجدوه عند الله** ﴾ أي تجدوا ثوابه عنده ﴿ **إن الله بما تعملون بصير** ﴾ فلا يضيع عنده عمل عامل ، أمرهم بالعفو والصفح ، ثم حثهم على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة حتى يأتي الله بالنصر . وأخبرهم تعالى أنه لا يغفل عن عمل عامل ولا يضيع لديه سواء كان خيراً أو شراً ، فإنه سيجازي كل عامل بعمله . قال ابن جرير في قوله تعالى ﴿ **إن الله بما تعملون بصير** ﴾ : وهذا الكلام وإن كان خرج مخرج الخبر فإن فيه وعداً وأمراً وزجراً ، وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدُّوا في طاعته إذ كان ذلك مذخوراً لهم عنده حتى يثيبهم عليه .

وفي سبب نزول هاتين الآيتين يروي ابن إسحاق عن ابن عباس أنه قال : كان حييُّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد اليهود للعرب حسداً ؛ إذ خصهم الله برسوله ﷺ وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل الله فيهما ﴿ **وَدَّ كثير من أهل الكتاب** ... ﴾ أقول : والقاعدة عند المفسرين أن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ . فالآية عامة وإن كان سبب نزولها ما ذكر .

فائدة : تظهر فائدة الخلاف في كون قوله تعالى ﴿ **فاعفوا واصفحوا** ﴾ منسوخاً بآيات القتال من مثل قوله تعالى في سورة التوبة ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ ومن مثل قوله تعالى أيضا في سورة التوبة ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ . أو أنها غير منسوخة على تفسير الأمر في قوله تعالى ﴿ **حتى يأتي الله بأمره** ﴾ بأنه مفرد (الأمور) تظهر فائدة الخلاف في عصرنا بشكل واضح ؛ حيث فقد الإسلام والمسلمون السلطان السياسي ، فهل هم في هذه الحالة مأمورون بالصفح والعفو أو لا ؟ ذهب أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدي بأن الآية منسوخة ، وعلى هذا فالصيغة الوحيدة للتعامل بيننا وبين أهل الكتاب هي القتال حتى يعطوا الجزية .

لكن يلاحظ أن ابن كثير عندما ذكر المعنى العام للآية قال :

﴿ **حتى يأتي الله بأمره** ﴾ من النصر والفتح وعلى هذا فالمراد بأمر الله هو الأمر

القدري وهذا يعني أنه إذا كان للمسلمين النصر والفتح فللمسألة وجهة أخرى غير الصفح والعفو ، إذ في تلك الحالة يُحال هؤلاء إذا كانوا من مواطني الدولة المسلمة إلى القضاء الإسلامي ، أما إذا لم يكن للمسلمين السلطان والدولة فإن الصفح والعفو يسعانهم في معاملتهم لأهل الكتاب ، على أنه في هذه الحالة يكون العفو والصفح مباحين للمسلمين ، ويجوز لهما غير ذلك كالقتال أخذاً من وجهة النظر الأخرى .

فخلال السير للوصول إلى أن تكون كلمة الله هي العليا يخيّر المسلمون بين عدة مواقف على حسب ما تقتضيه عملية السير ، والآية تشعرنا بأن الموقف الأصلح في التعامل مع أهل الكتاب هو العفو والصفح حتى يتم النصر ، ولكن هذا كله يكون إذا لم يكن الصراع مباشراً مع أهل الكتاب . ومن سبب النزول ندرك أن هذه الآية صورتها فيما إذا كان أهل الكتاب على الأرض الإسلامية نفسها ، ولعل الصفح والعفو هو الموقف المناسب لمسلم يعيش بين أهل الكتاب على الأرض الكافرة .

إنني أرى أنه مادام أهل الكتاب على الأرض الإسلامية مواقفهم منا في حدود الرغبات والأقوال ، أن نعاملهم بالصفح والعفو ، وأن يكون هذا جزءاً من خطتنا ونحن نسعى لاسترداد السلطان السياسي للمسلمين . أما إذا تجاوزت مواقفهم ذلك بأن حملوا السلاح وقرروا أن يستعملوه ضدنا ، أو أنهم بدأوا يستعملونه ضدنا ، فالأمر وقتذاك يختلف .. أما الموقف من دولة اليهود فسنراه إذا جاءت مناسبته في هذه السلسة .

كلمة في السياق :

قلنا عن سياق الآيتين بأنهما بمثابة البيان والتعليل للنهي الذي جاء من قبل عن متابعة أهل الكتاب ، وبعد هاتين الآيتين يذكر الله عز وجل مجموعة من الأقوال والمواقف لأهل الكتاب ، فمثلا يأتي بعد هاتين الآيتين قوله تعالى ﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى** ﴾ والمفسرون يقولون بأن الواو من (وقالوا) حرف عطف يعطف (قالوا) في هذه الآية على قوله تعالى (ودّ) من الآية ﴿ **وَدَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً** ﴾ .

وإذن فسيعرض الله عز وجل علينا مجموعة من الأقوال والمواقف هي بمثابة البيان والتعليل للنهي عن متابعة أهل الكتاب فضلا عن غيرهم . وإذا تذكرنا أننا في نهاية الفصل الذي بدىء بقوله تعالى ﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم** .. ﴾ فإن هذه المواقف والأقوال تكمل الصورة الداعية إلى ترك الطمع بإيمان أهل الكتاب مع دعوتهم وإقامة الحجة عليهم . وإذا تذكرنا أن هذه الفقرة هي نهاية المقطع الذي بدأ بدعوة بني إسرائيل للدخول في الإسلام فإن ذلك كذلك يفسر لنا عرض مجموعة من أقوالهم وأفعالهم ومناقشتهم فيها وتعليمنا الرد عليها أو الموقف الحكيم منها لأننا دعاة وهُم مدعوون فلابدّ أن نعرف كيف نناقشهم . إن عرض هذه الأقوال والمواقف في هذه الفقرة وفي نهاية الفصل الثاني وفي نهاية المقطع كله مرتبط بما سبقه جميعاً فهو يخدم قوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا** ... ﴾

ويخدم قوله تعالى :

﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم** ... ﴾

ويخدم قوله تعالى :

﴿**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون** ﴾ .

وسنرى عند استعراض كل موقف وقول محله في السياق وخدمته لما سبق .

١ - ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيُّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها ، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا ﴿ **نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ فكَذّبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك ، إن دخول الجنة متعلق بالإخلاص لله والاتباع لرسوله ﷺ فمن كان كذلك نال رضوان الله .

﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى** ﴾ أي وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً ، فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله وأمناً من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما صاحبه وبين ذلك في آية لاحقة ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء** ﴾ ﴿ **تلك أمانيهم** ﴾ التي تمنّوها على الله بغير حق . أشير بالآية هنا إلى الأماني المذكورة في الآية وفي الفقرة وهي أمنيتهم ألا ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، وأمنيتهم أن يردوهم كفاراً ، وأمنيتهم ألا يدخل الجنة غيرهم ، أي تلك الأماني الباطلة أمانيهم ، والأمنية على وزن أفعولة من التمني مثل الأضحوكة ، ﴿ **قل هاتوا برهانكم** ﴾ أي هلموا حجتكم وبينتكم على اختصاصكم بدخول الجنة . وهات : بمنزلة هاء بمعنى أحضر ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ في دعواكم أنكم أهل الجنة . ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾ في قوله (بلى) إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ومعنى ﴿ **من أسلم وجهه** ﴾ أي من أخلص نفسه لله لا يشرك به غيره . ومعنى ﴿ **وهو محسن** ﴾ أي مصدق بالقرآن ومتبع لرسول الله ﷺ .

قال ابن كثير : « فإن للعمل المتقبل شرطين أحدهما أن يكون خالصاً لله وحده ، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة ، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل ، وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضاً مردود على فاعله ، وهذا حال المرائين والمنافقين » فلابد من أن يسلم المؤمن لله وجهه قال صاحب الظلال : والوجه رمز على الكل ولفظ (أسلم) يعني الاستسلام والتسليم الاستسلام المعنوي والتسليم العملي ، ومع هذا فلابد من الدليل الظاهر على هذا الاستسلام ﴿ **وهو محسن** ﴾ فسِمة الإسلام هي الوحدة بين الشعور والسلوك ، بين العقيدة والعمل بين الإيمان القلبي والإحسان العملي ، بذلك تستحيل العقيدة منهجاً للحياة كلها ، وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها ، وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله :

﴿ **فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾

ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور ، وأمّنهم مما يخافونه من المحذور ، فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا هم يحزنون على ما مضى مما يتركونه ، قال سعيد بن جبير : « فلا خوف عليهم يعني في الآخرة ، ولا هم يحزنون يعني لا يحزنون للموت » ، وهكذا رأينا

المقولة الأولى لليهود والنصارى في هذه الفقرة والرد عليها ، فالله عز وجل ذو العدل الكامل والكمال المطلق ، يدخل جنته بالإسلام له والإخلاص له والعمل بشرعه ، وليس دخول الجنة بالأماني والتمنيات .

كلمة في السياق :

- مر معنا في الفقرة الثانية من الفصل الثاني قوله تعالى ﴿ **ومنهم أُميُّون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون** ﴾ وقد جاء في هاتين الآيتين تفصيل لنوع أمانيهم الباطلة وهي اعتقادهم أنهم سيدخلون الجنة بلا إحسان ولا إسلام . ومن كان يعتقد أن الجنة خالصة له فكيف ينتقل مما هو فيه إلى شيء آخر ! إن صلة ذلك بقوله تعالى ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ...** ﴾ لا تخفى .

- إن الآيتين تبينان ضمناً أن من اجتمع له الإسلام والإحسان في العمل هو الذي يدخل الجنة ، وأن اليهود والنصارى ليسوا كذلك مع اعتقاد كل منهم أن له الجنة ، فهل يليق والأمر كذلك أن يتابع أهل الإسلام أمثال هؤلاء : ومن هنا نجد الآيتين مرتبطتين بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا ..** ﴾ فههنا مزيد بيان في شأن ترك متابعة أهل الكتاب .

وبعد هذه المقولة لأهل الكتاب والرد عليها تأتي المقولة الثانية :

٢ - ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

تبين هذه الآية أن كل فئة من الناس تدّعي أنها على الحق وأن غيرها على باطل ، اليهود يدّعون هذا والنصارى يدّعون هذا ، والذين لا يؤمنون بكتاب أصلا يدّعون هذا كذلك ، والله وحده هو الحكم فيما اختلف فيه الناس ، واليوم الذي سيحكم فيه هو يوم القيامة .

﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء** ﴾ أي على شيء يصح ويعتد به ، ﴿ **وقالت النصارى ليست اليهود على شيء** ﴾ أي يصح ويعتد به . بين الله تعالى بهذا تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم . ﴿ **وهم يتلون الكتاب** ﴾ أي والحال أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب ، وحق من حمل التوراة والإنجيل وآمن به ألا يكفر بالباقي ، لأن كل واحد من الكتابين مصدِّق للآخر ، فشريعة التوراة والإنجيل كل منهما قد كانت

مشروعة في وقت ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ومقابلة للفاسد بالفاسد . ﴿ **كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم** ﴾ الذين لا يعلمون هم الجهلة الذين لا علم عندهم بما وراء هذه المادة ، ولا كتاب من الله كعبدة الأصنام والملحدين فهؤلاء يقولون لأهل كل دين ليسوا على شيء ومن عرف كلام ملحدي عصرنا من مثل : الدين أفيون الشعوب أدرك كيف أن القرآن يسع الزمان والمكان ﴿ **فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ أي يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة .

روى محمد بن إسحق عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة (من اليهود) : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل ، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل في ذلك من قولهما : ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ...** ﴾ الآية . **قال قتادة** ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء** ﴾ . قال : بلى . قد كانت أوائل النصارى على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا ﴿ **وقالت النصارى ليست اليهود على شيء** ﴾ قال : بلى . قد كانت أوائل اليهود على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا » اهـ قول قتادة . قال ابن كثير : وهذا القول يقتضي أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى ، أقول : قد وصف الله عز وجل غير اليهود والنصارى بأنهم لا يعلمون ، وإذن فمن لم يؤمن بالله ويتبع الوحي الذي أنزله فهو جاهل ، وأي جهل أكبر من الجهل بالله ، وأي جهل أكبر من الضرب في هذه الحياة بلا هدى من الله ، والعجيب أن هؤلاء يصفون أنفسهم أنهم علميّون وقد انخدع كثير من أبناء المسلمين بهذه الدعاوى فضلوا .

كلمة في السياق :

– قصَّ الله عز وجل علينا هذه المقولة لليهود والنصارى وغيرهم من الكافرين في سياق قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا ...** ﴾ وفي ذلك ما يعمق مفهوم عدم المتابعة وتحسين الظن في الطوائف الكافرة خاصة . ومع أن كلا منها على باطل فهو لا يرى أن غيره على شيء . ثم إن هذه المقولة جاءت في سياق الفصل المبدوء بقوله تعالى ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ...** ﴾ ومن ثمّ فهي تعمق فكرة عدم الطمع بإيمان هؤلاء ما داموا على هذه النفسية ، وقد أشعرنا الله عز وجل بذلك في قوله ﴿ **فالله**

يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ فكون الحكم سيكون بينهم يوم القيامة ، فذلك يشعر أنه لا أمل في تزحزحهم عن مواقفهم . وهكذا يقص الله عز وجل علينا . في نهاية هذا الفصل ، وفي الفقرة الأخيرة منه ، وفي خاتمة مقطع بني إسرائيل . المقولات الكبرى عند الناس لنحدّد بذلك مواقفنا منهم ولنعرف دقائق تركيبهم النفسي واتجاهاتهم الخطيرة ، ثم يأتي بعد المقولتين السابقتين موقف .

٣ - ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذاب عظيم * ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثَمّ وجه الله إن الله واسعٌ عليم ﴾ .

كلمة في السياق :

تأتي هذه الآيات بعد الآية التي تعرض دعاوى أهل الباطل واتهاماتهم لبعضهم ، وكأنها تعطينا ميزاناً نتعرف به على كذبهم جميعاً . فأظلم الظالمين هو الذي يعطل المساجد فلا يذكر فيها اسم الله ويسعى في خرابها . وهذه المجموعات الثلاث تخرب مساجد الله ولا تتوجه له بخالص العبادة فإذن دعواها باطلة . إلا أن السياق لم يأت بنقض دعاوى القوم بشكل مباشر بل يقرّر حقائق مطلقة وُجد من يدعي أو لم يوجد . ولكن الصلة بين هذه الآيات والمقولة السابقة موجودة وهذا الواقع يؤيد ذلك ، إن من يتذكر محاكم التفتيش وما ترتب عليها من تعطيل لذكر الله في المساجد ، ومن يعلم أن أربعة عشر ألفاً من المساجد في سمرقند عطل الشيوعيون فيها ذكر الله ، ومن علم أن اليهود وراء كل تخريب أخلاقي وديني في هذا العالم ، وأن المسلمين وحدهم هم الذين حموا للنصارى كنائسهم ، ولليهود كنائسهم ، وللمجوس معابدهم ، على كفر هؤلاء جميعاً يعلم أن المسلمين وحدهم هم أصحاب الحق في هذا العالم ولنا عودة على السياق فلنكتفِ الآن بهذا القدر .

التفسير :

﴿ **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه** ﴾ أي لا أحد أظلم من الذي يمنع المساجد من أن يذكر فيها اسم الله ﴿ **وسعى في خرابها** ﴾ بأن قطع من يعمرها بذكره ﴿ **أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين** ﴾ **قال ابن كثير** : « هذا خبر معناه الطلب أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية » . وهذا يفهم منه أن الله عز وجل أعطى الوصاية للمسلمين على هذا العالم وكلفهم أن

يفرضوا سلطانه ويعلوا كلمته بحيث يخاف غيرهم من سلطان الله بخوفهم منهم فإذا أراد أن يدخل مساجد الله لا يدخلها إلا وهو خاضع خائف . فكيف يصح أن يكون له السلطان عليها .

قال النسفي : « أي ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا عن أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين عنها » . ﴿ **لهم في الدنيا خزي** ﴾ أي للمانعين قتل ، وسبي للحربي ، وذلة بضرب الجزية للذمي ﴿ **ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾ أي النار هذا تفسير النسفي لهذه الآية وهو يؤكد أن المانعين لمساجد الله يدخل فيهم اليهود والنصارى والمشركون وغيرهم ، أي من غير المسلمين . وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه ابتداءً من الربط الكامل في المعنى ما بين هذه الآيات والآية قبلها . فآية ﴿ **ومن أظلم** ... ﴾ رد على اليهود والنصارى والذين لا يعلمون أنهم على شيء لأنهم جميعاً ظالمون ، وتأكيد أن المسلمين وحدهم على شيء لأنهم لا يمنعون أحداً أن يذكر اسم الله في مسجد أو معبد . وهذه الآية آية ﴿ **ومن أظلم** .. ﴾ من غوامض الآيات وخاصة في خاتمتها ولذلك فللمفسرين كلام كثير فيها واختلاف كثير :

اختلفوا في المراد بالمانعين فقال قوم اليهود ، وقال قوم النصارى ، وقال قوم المشركون وكل استدل بشيء . والذي أراه – ويظهر ذلك من خلال التاريخ والواقع – أن الجميع كذلك إذا كان لهم السلطان ولذلك فعلى المسلمين أن يكون لهم السلطان السياسي في هذا العالم ، لأنه ليس غير المسلمين مؤتمنين على حفظ حرمة أماكن العبادة لله في العالم .

واختلفوا في قوله تعالى ﴿ **أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين** ﴾ هل هو إخبار عن حال ، أو هو خبر بمعنى النهي ، أو هو وصف لما ينبغي أن يكون ، أو هو بشارة للمسلمين أن الحال سيكون كذلك ، وقد بسط ابن كثير هذه الأقوال وقدم القول بأنه خبر بمعنى النهي . وقدم النسفي القول بأنه وصف لما ينبغي أن يكون ، وجمعنا نحن بين القولين كما مر . ولمجرد توضيح القول الرابع ننقل عبارة ابن كثير فيه « وقيل إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام » .

﴿ **ولله المشرق والمغرب** ﴾ أي بلاد المشرق والمغرب كلها لله وهو مالكها ومتوليها . ﴿ **فأينما تولوا فَثَمَّ وجهُ الله** ﴾ ، أي ففي أي مكان فعلتم التولية فثم وجه الله . والمعنى إنكم إذا مُنعتم من مسجد فقد جعلت لكم الأرض مسجداً وطهوراً فصلوا في أية بقعة شئتم من بقاعها وافعلوا التولية فيها فإن التولية ممكنة في كل مكان . ﴿ **إن الله واسع** ﴾ أي هو واسع الرحمة يريد التوسعة على عباده ﴿ **عليم** ﴾ بمصالح عباده . وهناك مسائل تثار عند هذه الآية منها المسائل الفقيهة ومنها ما له علاقة بمعرفة الذات الإلهية وسنعقد بعد عرض المقطع من أجل ذلك كله فصلا .

كلمة في السياق :

جاءت هذه الآيات بين مقولتين بين قوله تعالى :

﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ...** ﴾ وبين قوله تعالى

﴿ **وقالوا اتخذ الله ولداً ...** ﴾ .

فهي بلاشك تعرض موقفاً للكافرين وهو منعهم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه . وتبين للمسلمين الموقف المكافىء لهذا الظلم العريض وفي الوقت نفسه تبين للمسلمين أنه إذا حيل بينكم وبين المسجد فالأرض كلها لكم مسجد . وكما أن الآيات في سياقها العام أعطتنا هذا وأعطتنا رداً ضمنياً على مقولة اليهود والنصارى والجاهلين ، فإنها في سياق فقرتها تعمق المعاني التي من أجلها نهينا عن المتابعة لكافر ، وهي في سياق فصلها تعلل لعدم الطمع في إيمان اليهود وأمثالهم ، وهي في سياق مقطعها ترينا إحدى الانحرافات الخطيرة التي وقع فيها اليهود وغيرهم ، وتعطينا دروساً فيما ينبغي أن نفعله لمواجهة الانحراف والمنحرفين .

٤ – ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السمٰوات والأرض كل له قانتون * بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾

اشتملت هاتان الآيتان على الرد على النصارى ومن أشبههم من اليهود الذين قالوا عُزير ابن الله ، ومن المشركين ممن جعل الملائكة بنات الله وغيرهم من أصحاب هذه المقولة فأكذب الله جميعهم في دعواهم ، وقولهم إن لله ولداً وكان الرد عليهم في هاتين الآيتين في خمسة مواطن :

١ – في قوله تعالى ﴿ **سبحانه** ﴾ أي تعالى وتقدَّس وتنزّه عن ذلك علواً كبيراً فمن

عرف الله وجلاله وعظمته نزهه عن ذلك .

٢ - في قوله تعالى ﴿ **بل له ما في السموٰات والأرض** ﴾ أي ليس الأمر كما افتروا وإنما له ملك السموٰات والأرض ومن فيهن ، وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء ، والجميع عبيد له وملك له ، فكيف يكون له ولد منهم ، والولد إنما يكون من شيئين متناسبين ، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد ؟ وهو العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له وجميع الأشياء له مخلوقة مربوبة .

٣ - في قوله تعالى ﴿ **كل له قانتون** ﴾ فالجميع مقرون له بالعبودية فلا يشذ أحد عن ذلك فمن كان هذا شأنه لا يكون أحد إلا عبد له سبحانه .

٤ - في قوله تعالى﴿ **بديع السموٰات والأرض** ﴾ فمن ابتدع السموٰات والأرض على غير مثال سبق هو أجل من أن يكون له ولد .

٥ - في قوله تعالى ﴿ **وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ بين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه إذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له (كن) أي مرة واحدة فيكون أي فيوجد على وفق ما أراد بين بذلك أيضاً على أن خلق عيسى أو عزير أو الملائكة أو غير ذلك مما زعم الزاعمون أنه ابن لله بكلمة كن فكان ، كما أمر الله ومن كان كذلك لا يكون إلا عبداً قال ابن جرير : فمعنى الكلام : سبحان الله أن يكون له ولد وهو مالك ما في السموٰات والأرض تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية وتقر له بالطاعة وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه . وهذا إعلام من الله لعباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا إلى الله بنوته ، وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السموٰات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته ..

المعنى الحرفي :

﴿ **وقالوا** ﴾ أشهر القائلين بهذه الفكرة الضالة هم النصارى ولكنها فكرة شائعة عند كل الأمم تقريباً إما بشكل أو بآخر كما سنحقق ذلك في سورة براءة ، ﴿ **اتخذ الله ولداً** ﴾ قال النصارى : المسيح ابن الله وقال اليهود : عُزير ابن الله وقال مشركوا العرب : الملائكة بنات الله ﴿ **سبحانه** ﴾ أي تنزيه له ﴿ **بل له ما في السموٰات**

والأرض ﴾ أي هو خالقه ومالكه ومن جملة ذلك المسيح وعُزير والولادة تنافي الملك ﴿ **كل له قانتون** ﴾ أي منقادون لا يمتنع شيء منهم على تكوينه وتقديره فهم مطيعون عابدون مقرون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم ﴿ **بديع السموٰات والأرض** ﴾ أي مخترعهما لا على مثال سبق ﴿ **وإذا قضى أمراً** ﴾ أي حكم أو قدر ﴿ **فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ أي احدث فيحدث وهو من كان التامة وهذا مجاز عن سرعة التكوين . فالمعنى أن ما قضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف ، كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولايمتنع ولا يكون منه إباء وأكد بهذا استبعاد الولادة . لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت صفاته مباينة لصفات الأجسام فأنى يتصور التوالد ثَمَّ ، وإنما قالوا بأن (كن) أمر مجازي لأنه لا فرق بين أن يقال وإذا قضى أمراً فإنما يكوّنُه فيكون وبين أن يقال فإنما يقول له كن فيكون . ولأنه لو كان أمراً على الحقيقة فإما أن يخاطب به الموجود والموجود لا يخاطب بكن أو المعدوم والمعدوم لا يخاطب . أقول : إنما يضطر العالم للخوض في مثل هذا إذا وجد من يجادل أما إذا وجد ذو القلب فإنه يتلقى مثل هذا بالتسليم ويترك الخطاب في قلبه من الأثر مالا تتركه كلمة أخرى وسنعقد لهذا الموضوع فصلا .

أخرج البخاري في تفسير قوله تعالى ﴿ **وقالوا اتخذ الله ولداً ...** ﴾ عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي : فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياي فقوله : إن لي ولداً،فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً » وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ؛ إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » .

كلمة في السياق :

جاءت هذه المقولة في سياق عرض أمهات من القضايا الرئيسية عند أهل الكتاب ، أو الكافرين عامة ؛ لتعميق فكرة عدم التلقي عنهم ، والاقتداء بهم كيف وهذا شأنهم في الضلال والكفر وإيذاء الله تعالى . والملاحظ أنه في سياق المقطع الذي هو خطاب لبني إسرائيل تذكر مقولات لهم ، أو لغيرهم ، أو لهم ولغيرهم ، مما يشير إلى أن السياق يريد أن يؤصل في قلوب هذه الأمة موقفاً من الكفر عامة . فالمقطع في الأصل آتٍ في سياق عرض نموذج على موقف من هدى أُنزل على أمة من قبل . ثم تأتي بعد ذلك مقولة أخرى .

٥ - ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يُكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثلَ قولهم تشابهت قلوبهم قد بيّنا الآياتِ لقوم يوقنون ﴾ .

يُرجح ابن كثير أن القائلين هم كفار العرب . ويرجح هذا الاتجاه ذكر ﴿ **الذين لا يعلمون** ﴾ فيما مضى على أنهم غير اليهود والنصارى ممن لا وحي سماوياً عندهم . ونحن نرجح أنه يدخل في كلمة ﴿ **الذين لا يعلمون** ﴾ هنا كل من يسأل هذه الأسئلة ، سواء كان ملحداً ، أو مشركاً ، أو كتابياً في الأصل ، فإنه بسؤاله مثل هذه الأسئلة دخل في سلك الذين لا يعلمون . إن هذه الطبقة الجاهلة من الناس تُعلّق الإيمان على تكليم الله إياها ، أو على مجيء الآيات هذا مع أن الآيات الكافية للإيمان موجودة ولكنه التعنت .

إن هذا النوع من المطالب المتعنتة ليس جديداً على منطق الكفر بل هو طريق الكفار في كل عصر . لذلك قال تعالى : ﴿ **كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم** ﴾ . وقد ناقشنا هذا الموضوع في أول كتابنا (الله جل جلاله) وبينا في ذلك الكتاب أن هذا الطلب غير علمي وغير عقلي . وقد رد الله عز وجل على هؤلاء هنا بقوله : ﴿ **قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون** ﴾ فالآيات موجودة وهي كافية لأهل اليقين بوجود الله . وذكر كلمة (يوقنون) هنا يشعر بأن طلاب هذه المطالب طالبوا بها من أجل الإيمان برسول الله ، فكأنهم قالوا فليكلمنا الله شاهداً أنك رسوله ، أو فلتأتنا آية تدلنا على ذلك . فكان الجواب أن الآيات قد جاءت واضحة لمن كان عنده يقين بالله . قال القرطبي في ﴿ **لولا يكلمنا الله** ﴾ أي يخاطبنا بنبوتك قال ابن كثير : وهو ظاهر السياق .

المعنى الحرفي :

﴿ **وقال الذين لا يعلمون** ﴾ من المشركين والملحدين وأهل الكتاب الذين بتركهم العمل بما يعلمون أصبحوا لا يعلمون ﴿ **لولا يكلمنا الله** ﴾ أي هلا يكلمنا الله كما يكلم الملائكة ، أو هلا يكلمنا الله بنبوتك ﴿ **أو تأتينا آية** ﴾ أي معجزة تشهد على نبوتك ورسالتك يا محمد ﷺ وإنما قالوا هذا جحوداً واستهانة لأن يكون ما آتى الله محمداً ﷺ من الآيات كافياً للإيمان ﴿ **كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم** ﴾ إنها عقلية واحدة ، عقلية الجحود والشك في كل عصر ومصر تتكلم بلغة واحدة ﴿ **تشابهت قلوبهم** ﴾ أي تشابهت قلوب هؤلاء ومن قبلهم ،في العمي ، والجحود ، والشك ؛

فتكلموا بلغة واحدة ﴿ **قد بينّا الآيات لقوم يوقنون** ﴾ أي قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل لقوم ينصفون فيوقنون أنها آيات يجب الاعتراف بها ، والإذعان لها ، والاكتفاء بها عن غيرها ، أو يوقنون بأن الله موجود ؛ فهؤلاء لا تخفى عليهم آيات الله التي تشهد لرسالة رسله عليهم الصلاة والسلام بما في ذلك رسالة محمد ﷺ .

وهكذا أكملت هذه الآية صورة الاتجاهات الكبرى التي تواجه الدعوة الإسلامية أقوالا وأفعالا ، وجاء هذا كله في سياق النهي عن متابعة أهل الكفر في أدنى شيء ، وفي سياق الانحراف عن هدى الله ، ثم تأتي بعد ذلك آيتان تتوجهان بالخطاب لرسول الله ﷺ ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم * ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير** ﴾ .

المعنى :

﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيراً** ﴾ للمؤمنين بالثواب . ﴿ **ونذيراً** ﴾ للكافرين بالعقاب ﴿ **ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم** ﴾ أي عن أصحاب النار أي لا نسألك عنهم ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلَّغت ، وبلغت جهدك في دعوتهم . في هذه الآية مجموعة قضايا **١** - أن هناك رسولا بالحق مهمته التبشير والإنذار هو محمد ﷺ **٢** - وأن الذي أرسله هو الله رب العالمين **٣** - وأن الثواب والعقاب على الله ، وأن الله لا يسأل رسوله عن كفر من كفر به ، بل سيتحمل كل كافر مسؤوليته عن نفسه أمام الله . ومجيء هذه الآية بعد المقولات والمواقف السابقة للكافرين فيها إشارة إلى أن هذا الكفر الذي عليه هؤلاء سيجعلهم من أهل الجحيم ، وأن على رسول الله ﷺ أن يبشر ، وأن ينذر ، وأنه لا عليه من هؤلاء . ثم قال تعالى لرسوله ﷺ .

﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع مِلّتهم** ﴾ هذا تقنيط من الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين من رضى اليهود والنصارى عنهم ما داموا على الإسلام . ﴿ **قل إن هدى الله هو الهدى** ﴾ أي إن هدى الله الذي رضيه لعباده وهو الإسلام المنزل على محمد ﷺ هو الهدى كله ليس وراءه هدى . وأن ما يدعون إليه ليس هدى بل هو هوى بدليل ﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم** ﴾ أي أقوالهم التي هي أهواء وبدع ، وقد رأيت بعضها فيما مر ﴿ **من بعد ما جاءك من العلم** ﴾ أي من العلم بأن دين الله هو الإسلام أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة . ﴿ **مالك**

من الله من ولي ﴾ يرفع عنك عذاب الله ﴿ **ولا نصير** ﴾ أي ينصرك من الله ويلاحظ أن الله عز وجل قال ﴿ **حتى تتبع مِلّتهم** ﴾ أفرد الملة مع أنهما ملتان ؛ وذلك إشارة إلى أن ملة الكفر واحدة .

في هذه الآية وصف لحقيقة موقف اليهود والنصارى من هذه الأمة أن كلا من اليهود أو النصارى لا يرضيه من هذه الأمة إلا أن تترك الإسلام وتدخل في دينه ، وأن غير ذلك لا يرضيهم أبداً ولو تظاهروا بقبوله . إن نسيان هذا الدرس البليغ كان سبب الكوارث الكبيرة في عصرنا فقد حاول كثير من أبناء المسلمين أن يرضوا الكافرين ببعض التنازلات والمداهنات ؛ ظناً منهم أنهم يرضونهم بهذا القدر ، فلم يحصدوا إلا الغدر والقهر . فالآية تقول مخاطبة رسول الله ﷺ والخطاب للأمة كلها :

ليست اليهود والنصارى براضية عنك أبداً ؛ فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق ، وقل إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى يعني : هو الدين المستقيم ، الصحيح ، الكامل الشامل ، وأن ما أنتم عليه هو الهوى الذي عقوبته عند الله شديدة .

كلمة في السياق :

- بعد أن عرضت الفقرة مجموعة من المواقف والأقوال الظالمة والباطلة جاء قوله تعالى ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً** ﴾ فدلل ذلك على أن الرسالة المصحَّحَة هي رسالة محمد ﷺ ثم جاء قوله تعالى ﴿ **ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم** ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أن أصحاب هذه الأقوال والمواقف هم من أصحاب الجحيم ، وقد جاءت هذه الآية في سياق الفقرة المبدوءة بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم** ﴾ فكانت في محلها مبينة أن الحق في رسالة محمد ﷺ فكيف يُتابع الكافرون المستحقون للعذاب الأليم .

- وبعد عرض الأقوال والمواقف الضالة جاء قوله تعالى ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع مِلّتهم** ﴾ أي حتى تتابعهم على مثل هذه المواقف والأقوال الضالة الظالمة ﴿ **قل إن هدى الله هو الهدى** ﴾ فالهدى هو في الإسلام .

جاءت هذه الآية في سياق قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا ...** ﴾ وفي ذلك إعلام بأن أي متابعة لأهل الكتاب من باب مسايرة الأهواء ، وأنها لا ترضيهم إلا

إذا انحرفنا انحرافاً كاملاً ، فالسياق في الفقرة يصب في قطع دابر المتابعة للكفر وأهواء أهله .

- وجاء هذا كله في سياق الفصل الذي بدايته ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم** ﴾ فجاءت الآيات مبينة ما يحول بينهم وبين الإيمان ، ومثبّتة لنا على الإيمان ، وموصلة لنا إلى تبيان الطريق الصحيح للوصول إلى الإيمان ، وذلك في الآية الأخيرة من الفصل الثاني وهي قوله تعالى :

﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون** ﴾ .

المعنى :

﴿ **الذين آتيناهم الكتاب** ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب ، وهو التوراة ، أو الإنجيل ، أو أصحاب النبي ﷺ ، ويكون الكتاب هو القرآن ، أو الجميع ، ويكون الكتاب المقصود جنس الكتاب ﴿ **يتلونه حق تلاوته** ﴾ أي يقرؤونه حق قراءته ، في الترتيل ، وأداء الحروف ، والتدبر ، والتفكر ، والإيمان بمضمونه ، والعمل به . ومن ذلك إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة ، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار كما قال عمر بن الخطاب . ومن حق التلاوة ما قاله ابن مسعود : « والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ، ويحرّم حرامه ، ويقرؤه كما أنزله الله ، ولا يحرِّف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله » . ومن حق التلاوة ما قاله الحسن البصري : « يعملون بمُحْكَمِه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه » . ومن حق التلاوة ما قاله ابن عباس « يتبعونه حق اتباعه » ﴿ **أولئك يؤمنون به** ﴾ هذا خبر عن الذين آتيناهم الكتاب أي : من أقام كتاب الله كما وصفنا هو المؤمن به على الحقيقة ﴿ **ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون** ﴾ حيث اشتروا الضلالة بالهدى .

كلمة في السياق :

بهذه الآية انتهى الفصل الثاني في المقطع الثالث وهو المقطع الذي ابتدأ بخطاب بني إسرائيل ، وانتهى بخطاب بني إسرائيل ، في الآيتين اللتين سنذكرهما بعد قليل .

إن هذه الآية التي ختم بها الفصل الثاني الذي بدايته ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم** ﴾ دلت على طريق الإيمان وهو : تلاوة الكتاب حق التلاوة ، فمن قرأ التوراة حق التلاوة ، وصل إلى

الإيمان بمحمد ﷺ ، ومن تلا الإنجيل حق التلاوة وصل إلى الإيمان بمحمد ﷺ ، ومن تلا القرآن حق التلاوة وصل إلى الإيمان بالقرآن ، إن الآية تحتمل ذلك كله ، كما تحتمل الطعن في أهل الكتاب في أنهم لا يؤمنون بكتابهم أصلا ؛ لأنهم لا يتلونه حق تلاوته وهكذا ، فهذه الآية التي تختم الفصل تفهم فهوماً عِدّة ، وكل فهم من فهومها يخدم السياق بشكل ما .

وكما بدأ الفصل الأول بقوله تعالى :

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفس شيئاً ولا يُقبل منها شفاعة ولا يُؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾ .

فإن الفصل الثاني من هذا المقطع ينتهي بقوله تعالى :

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يُقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴾ .

وبذلك ينتهي المقطع الثالث ولكنها نوع نهاية كما سنرى ، وهاتان الآيتان فسرناهما من قبل وتأتيان هنا معلنتين انتهاء الخطاب التفصيلي لبني إسرائيل بما بدىء به هذا الخطاب ، رابطتين آخر الكلام بأوله ، وفيهما تكرار للأمر ؛ زيادة في الحث ، فلعله ينفع التذكير اللاحق حيث لم ينفع التذكير السابق وقد آن الآوان - وقد انتهى المقطع - أن نتكلم كلمة أخيرة في سياقه ، قبل أن نعقد بعض الفصول التي وعدنا بها تفصيلا ، لأمور وردت معنا .

كلمة أخيرة في سياق المقطع الثالث :

- رأينا أن المقطع الثالث - مقطع خطاب بني إسرائيل - يتألف من مدخل وفصلين ، وأن فاتحة الفصل الأول هي خاتمة الفصل الثاني ، ورأينا أن المدخل فيه مجموعة أوامر ونواه ، في تطبيقها صلاح حال بني إسرائيل وأمثالهم ممن عقده سير طويل ، ثم رأينا أن الفصل الأول كان في أجواء الآية الأولى من المدخل ، وأن الفقرتين الأولى والثانية من الفصل الثاني كانت في أجواء الآيات الثلاث اللاحقة على الآية الأولى ، ثم جاءت الفقرة الثالثة في الفصل الثاني لتناقش في قضية الآية الأولى من هذه

الآيات الثلاثة ، على اعتبار أن ذلك يتوقف عليه كل ما بعده ، وبناء على هذا النقاش جاءت الفقرة الرابعة تعطي للأمة الإسلامية دروس التعامل مع أهل الكتاب والكافرين ، وترد على مقولاتهم الرئيسية ، ومن خلال هذه النظرة السريعة نلاحظ أن المقطع قد انتهى ولم تُغط فيه كل الأوامر والنواهي الواردة في المدخل وذلك لأن الحوار لا زال مفتوحاً مع أهل الكتاب ومن ثَمَّ فإنه في مقاطع لاحقة سيرد معنا ما يغطي أوامر ونواهي المقطع .

وهذا تفصيل ما ذكرنا :

الآية الأولى في المدخل هي قوله تعالى : ﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبون** ﴾ .

وقد جاء الفصل الأول بفقرتيه يغطي أوامر هذه الآية . ثم جاء قوله تعالى في المدخل :

﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون* ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** ﴾ وجاءت الفقرة الأولى والثانية من الفصل الثاني تغطي هذه الأوامر والنواهي .

ثم عادت الفقرة الثالثة في الفصل الثاني إلى الحوار في مضمون قوله تعالى :

﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون** ﴾ . ثم جاءت الفقرة الرابعة في الفصل لتحاور الكافرين في مقولاتهم الرئيسية ، وتدل على مواقفهم الظالمة ، وتعطي الأمة الإسلامية دروس ذلك ، ثم ختم المقطع .

وإذن ففي العودة إلى فتح الحوار في قضية الإيمان لم يتجاوز الحوار الآية الثانية في المدخل . فبقيت من آيات المدخل : ﴿ **ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾

وسنرى أن كتمان الحق سيرد معنا مرة بعد مرة ، في مقطع إبراهيم وفي مقطعين لاحقين . وبقي من آيات المدخل بلا تغطية قوله تعالى :

﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** ﴾ وسنرى أن كلاماً عن البر سيأتي . وبقيت من آيات المدخل بلا تغطية قوله تعالى :

﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ وسنرى أن هذا الأمر سيتوجه إلينا فيما بعد في السورة . إنه إن قبل الكافرون الإيمان ؛ فقد أصبحوا مخاطبين بما يخاطب به المسلمون ، وإن رفضوه فلن يطبقوا ما يترتب عليه ، ولذلك فإن السياق سيترك الحوار المباشر مع هؤلاء في الغالب وإنما يذكر كثيراً من المعاني بشكل تقريرات ، وبهذا نكون قد عرفنا المقطع الثالث وبعض صلاته ببعضه وبما بعده .

- رأينا أن المقطع الثالث بدأ بمجموعة من الأوامر والنواهي هي العلاج الكامل لليهود وأمثالهم من أجل أن ينصهروا بدين الله ودعوته ، فبعد أن جاء النداء لكل الناس أن يسيروا في الطريق الموصل إلى التقوى ، خص بنو إسرائيل بنداء خاص ولكن هذا جاء بعد قصة آدم التي انتهت بالقاعدة : ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ .

﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وقلنا من قبل إن مجيء الكلام عن بني إسرائيل بعد قصة آدم هو بمثابة عرض نموذج على أمة أنزل عليها وحي وكيف تصرفت مع هذا الهدى لتأخذ هذه الأمة دروس ذلك ، ولإدراك هذا الهدف في الصلة بين قصة آدم وقصة بني إسرائيل نلاحظ أنه خلال المقطع تكرر كثيراً ذكر ما يشبه القاعدة التي ختمت بها قصة آدم ، فقد ورد في نهاية الفقرة الأولى من الفصل الأول :

﴿ **ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون* إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ . وقد ختمت الفقرة الأولى من الفصل الثاني بقوله تعالى :

﴿ **بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون* والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ .

وقد ورد في الفقرة الرابعة من الفصل الثاني : ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن**

فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ثم بعد آيات ورد قوله تعالى ﴿ **ومن يكفر به** ﴾ أي الكتاب ﴿ **فأولئك هم الخاسرون** ﴾ فهذا المقطع إذن يعطينا درساً عملياً في أمة أُنزل عليها وحي ، وكيف كان موقفها من هذا الوحي .

وبما أن لهذه الأمة استمرارها التاريخي ، وهي مخاطبة بالقرآن فمن ثَمَّ يندمج العرض للموقف التاريخي مع الموقف الجديد المتجدّد ، ليرى الانحراف كله قديماً وحديثاً عن وحي الله ، لتأخذ الأمة الإسلامية دروس ذلك ولتواجه هؤلاء المنحرفين بما يناسب .

وعلى هذا فالصلات بين مقطع بني إسرائيل وبين مقطع آدم واضحة المعالم .

- ومن قبل مقطع آدم عليه السلام جاء المقطع الأول في القسم الأول من سورة البقرة وفيه نداء للناس جميعاً بالتوحيد والعبادة والإيمان بالقرآن ، وضرورة الإيمان والعمل الصالح ، وضرورة ترك الفسوق ، المتمثل بنقض الميثاق ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، وترك الإفساد في الأرض ، ومناقشة الكفر ، وتبيان أن الأرض كلها للإنسان ، وجاء مقطع بني إسرائيل وفيه خطاب بما يحقق ذلك كله ، ودروس في ذلك كله وعواقبه .

لقد رأينا في مقطع بني إسرائيل كيف أخلُّوا بالتوحيد ، وبالعبادة ، وبالعمل الصالح ، وكيف نقضوا الميثاق ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا في الأرض ، وكفروا ، فتعمق من خلال مقطع بني إسرائيل مضمون ما ورد في المقطع الأول سلباً وإيجاباً

لاحظ مثلا أنه ورد في المقطع الأول : ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

وفي مقطع بني إسرائيل ورد : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله ..** ﴾

﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾ ﴿ **ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون** ﴾ .

ولو أننا تتبعنا الصلات بين مقطع ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ ومقطع بني إسرائيل لاقتضى ذلك منا أن نعيد المقطعين كليهما .

– ورأينا مقدمة سورة البقرة ، وجاء مقطع بني إسرائيل فأرانا الانحراف عن كتاب الله وعن الصلاة والزكاة ، وأرانا الكفر وما يؤدي إلى الكفر ، وأرانا ما ينبغي أن نلاحظه حتى نثبت على الإيمان والتقوى وما ينبغي أن نجتنبه .

– ومن قبل في سورة الفاتحة علمنا أن ندعو الله أن يجنبنا السير في طريق المغضوب عليهم والضالين ، ولقد رأينا في مقطع بني إسرائيل قوله تعالى ﴿ **وباءُوا بغضب من الله** ﴾ ﴿ **فباءوا بغضب على غضب** ﴾ ، ﴿ **ومن يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل** ﴾ لقد رأينا في هذا المقطع بياناً كثيراً حول طريق المغضوب عليهم والضالين ، ودلنا الله على معالم في السير لنبقى في الطريق المستقيم ، ولعل في هذا كفاية لإدراك سياق المقطع ، وصلته بما قبله وبما بعده .

وإذ قصّ الله عز وجل علينا في هذا المقطع قصة نموذج على أمة انحرفت عن الهدى ، فإن المقطع الرابع – وهو مقطع إبراهيم عليه السلام فيه قصة نموذج لمن قام بأمر الله كاملا ، وإذن فقصة آدم يعقبها مقطعان ، مقطع في أمة أنزل عليها وحي فانحرفت ، ومقطع في من أُنزل عليه وحي فقام به كله ، مع دروس ذلك لهذه الأمة ومع قضايا كثيرة تعرض خلال ذلك

– وقبل أن ننتقل إلى المقطع الرابع في القسم الأول من أقسام سورة البقرة مقطع إبراهيم عليه السلام فإن علينا أن نفي بما وَعدنا به من قبل من أننا بعد نهاية المقطع سنعقد فصولاً .

فصل وفوائد حول آيات ومعان في المقطع :

فصل في فرعون الاضطهاد والخروج :

من معجزات القرآن أنه حدثنا عن النجاة البدنية لفرعون ، إذ إن كل الفراعنة – الذين هم مظنة أن يكونوا فرعون موسى – جثثهم موجودة الآن ، في الوقت الذي لا تتحدث فيه كتب العهد القديم والجديد عن النجاة البدنية لفرعون ، ومما بحثه الباحثون اعتماداً على نصوص العهد القديم وهي نصوص لا يستطيع الدارس أن يعتمدها إلا بحذر شديد . من هو فرعون موسى ؟ . وقد سجل (موريس بوكاي) في دراسته عن القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم مختصراً عن هذه الأبحاث ، فذكر أن هناك اتجاهاً يقول بأن فرعون موسى هو تحتمس الثاني ، وهناك اتجاه يقول بأنه أمينوفيس الثاني ، والاتجاه

الذي يقويه المؤلف أن هناك فرعونين ، فرعون الاضطهاد وهو رمسيس الثاني ، وفرعون الخروج وهو ابنه منيتاح ، ويذكر المؤلف أنه في طريقه لمتابعة دراسة على جثة منيتاح لرؤية ما إذا كان مات ميتة غير عادية ، ولا يشعر الدارس للقرآن الكريم وهو يقرأ قصة موسى مع فرعون أنه أمام شخصيتين ، ولكن لنفرض فرضاً أن الدراسات العلمية القطعية أوصلتنا إلى تحديد في شأن شخصية فرعون ، وأوصلتنا إلى أن هناك فرعونين فرعون الاضطهاد وفرعون الخروج ، فإن ذلك يكون أحد أسرار استعمال كلمة (الآل) في قوله تعالى ﴿ **وإذ نجيناكم من آل فرعون** ﴾ ففرعون الاضطهاد إذا صح أنه رمسيس الثاني ، فإن آله (منيتاح) ابنه هو الذي تمت في عهده نجاة موسى وقومه ، وكل ذلك نتوقف فيه على معطيات قطعية تسمح لنا بهذا السير ، أما فقهاؤنا فقد استفادوا من استعمال كلمة الآل ههنا أحكاماً فلنرها في الفصل التالي :

فصل في أحكام فقهية من (آل فرعون) :

بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإذ نجيناكم من آل فرعون** ﴾ **قال القرطبي** : نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون ، وهم إنما كانوا يفعلون بأمره ، وسلطانه لتوليهم ذلك بأنفسهم ، وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله ، قال الطبري : ويقتضي أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به ، **قال القرطبي** وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال : يقتلان جميعاً هذا بأمره والمأمور بمباشرته ... وقال سليمان بن موسى : لا يقتل الآمر ولكن تقطع يداه ثم يعاقب ويحبس ، وهو القول الثاني ويقتل المأمور للمباشرة ... وقال زفر : لا يقتل واحد منهما وهو القول الثالث ... **أقول** : وعلى القول الثالث فكل منهما يستأهل التعزير ، وقد يصل التعزير إلى القتل إذا رأى الإمام ذلك . ومن هذه المسألة نعرف بعض الأحكام التي تنطبق على الظلمة وأعوانهم ، إذا أدال الله دولتهم ، وكيف ينبغي أن تكون محاسبتهم على ما اقترفت أيديهم ، إن أقل ما يجوز لنا أن نعاملهم به التعزير آمرين ومأمورين من خلال دعاوى ومحاكم يثبت فيها على كل واحد منهم أنه ظلم بأدنى شيء فيقتص منه .

فائدة :

يلاحظ أن الخطاب في المقطع توجه لبني إسرائيل جملة ، وأنَّب الجميع بفعل البعض ، وأنَّب اللاحق بفعل السابق ، ومن المعلوم – من الدين بالضرورة — أن الإنسان لا يُسأل

عن فعل غيره إلا في حالات المسؤولية المشتركة والتقصير ، أو في حالات يكون على الإنسان تكليف ما في حق الآخرين ، وإنما كان التأنيب شاملا ، للموافقة والاستمرار على فعل القبيح ، وعلى كل حال فإننا نأخذ من هذا درساً في ضرورة مراجعة الحال القلبي لنا ، فلا نقر خطأ وقع فيه أحد من هذه الأمة خلال العصور ، ونسعى ما استطعنا أن تستقيم أمورنا ، وأمور أمتنا لأن في ذلك نجاتنا جميعاً .

اعتذار : كثيراً ما يحدث أن تتجمع التحقيقات في مكان واحد من التفسير ، وهذا يؤدي إلى تضخيم قسم من التفسير ، وضمور أقسام أخرى ، وهذا الذي دعانا أن نرجيء كثيراً من التحقيقات حتى تأتي مناسباتها الأكثر ملائمة ؛ حتى لا يتضخم تفسير سورة البقرة .

فصل في أكل الثوم والبصل :

بمناسبة قوله تعالى على لسان اليهود لموسى ﴿ **فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقِثّائها وفومها وعدَسها وبصلها** ﴾ قال القرطبي :

اختلف العلماء في أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول : فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك للأحاديث الثابتة في ذلك ، وذهبت طائفة من أهل الظاهر القائلين بوجوب الصلاة في الجماعة فرضاً – إلى المنع وقالوا : كل ما منع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عمله والتشاغل به ... أقول : الأكل مباح ، ولكن إذا ترتب عليه إيذاء مطلق ، أو إيذاء لمن لا يتسامح بمثل ذلك ، فالكراهة حاصلة وسنرى الموضوع تفصيلا في قسم السنَّة .

فصل في الصابئة :

هل المراد بالصابئة في آية ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين** ﴾ صابئة العراق الحاليين ؟ وبالتالي فالآية تتحدث عن أسلاف لهم كانوا على حق ، أو المراد بهم من مال عن الدين الباطل إلى الدين الحق كالحنيفيين من العرب قبل الإسلام ؟ قولان للعلماء ، وفي صابئة العراق قولان في جواز أكل ذبائحهم ، ونكاح نسائهم ذكرهما القرطبي ، والذي أرجحه عدم جواز ذلك لأنهم أفردوا باسم خاص عن أهل الكتاب ، وقد خُصّ أهل الكتاب بجواز أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم .

فصل في المسخ :

ذهب بعض المفسرين إلى أن المسخ الذي وقع بأهل القرية إنما كان مسخ قلوب وليس مسخ أجساد ، وليس هذا صحيحاً ، بل هو اتجاه خاطىء ، فالمسخ كان صورياً معنوياً كما قال ابن كثير ، إذ لا داعي يدعو إلى صرف النص عن ظاهره والنص صريح ﴿ **فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : **فمسخهم الله قردة** بمعصيتهم ، **قال ابن عباس** : « ولم يعش قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل » أقول : في هذا رد على من يتصور أن القردة الحالية يحتمل أن يكون أصلها بشراً قد مسخوا ، وهو موضوع سنراه فيما بعد وإنما انفرد بفكرة المسخ المعنوي مجاهد ، وفي الحديث الذي أخرجه مسلم في كتاب القدَر في جواب رسول الله ﷺ لمن سأله عن القردة والخنازير هي مما مسخ فقال : « إن الله لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلا وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك » .

فصل في الاستهزاء والمزاح :

بمناسبة قول اليهود لموسى ﴿ **أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين** ﴾ قال القرطبي : في الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه ، وأن ذلك جهل ، وصاحبه مستحق للوعيد ، وليس المزاح من الاستهزاء بسبيل ، ألا ترى أن النبي ﷺ كان يمزح والأئمة بعده ...

فصل في السَّلَم في الحيوان :

استدل بقوله تعالى ﴿ **إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لاشِيَة فيها** ﴾ على صحة بيع السلم في الحيوان إذ إن الآية حصرت صفات البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق ، وهو مذهب مالك ، والأوزاعي ، والليث ، والشافعي ، وأحمد ، وجمهور العلماء ، وقال أبو حنيفة ، والثوري ، والكوفيون ، لا يصح السلم في الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله ، وحكي مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان ، وعبد الرحمن بن سمرة ؛ وغيرهم ونحن نرجح التوسيع في باب السَلَم ؛ على اعتبار أن السلم أحد الحلول التي وضعها الإسلام في وجه الربا ، وهو البديل الأقوى كما سنرى ، ولكن على أن يُراعى في حالة الفتوى شروط الأئمة المجيزين حتى لا نقع في مخالفةِ لإجماع .

فصل في القتيل إذا وجد في محلة قوم :

بمناسبة حادثة القتيل الذي أحياه الله بضربه ببعض البقرة ، يثير المفسرون مجموعة مسائل :(مسألة ما إذا قال القتيل دمي عند فلان ثم مات ، ومسألة ما إذا وُجد قتيل في مكان ولا يعرف له قاتل وما ثَم شهود ، أو كان شهود لكنهم نساء ، أو كان شاهد واحد ، وإنما بحثوا هذه المسائل هنا تفريعاً على أن شرع من قبلنا شرع لنا مالم ينسخه شرعنا وهو مذهب جماهير العلماء .

يعتبر مالك أن قول القتيل : قتلني فلان أو دمي عند فلان ، أمارة كافية للحكم على المذكور ، ومنع ذلك عامة الفقهاء ؛ لاحتمال الخطأ والكذب ، وعامة الفقهاء أوجبوا القَسامة إذا وُجد قتيل في محلة وفيه أثر القتل ، والقَسامة : أن يحلف خمسون يميناً أنهم ما قتلوا ولا يعرفون له قاتلا ، ولا يحلف في القسامة أقل من خمسين يميناً ، فإن كانوا أقل من ذلك ، أو نكل منهم من لا يجوز عفوه ، ردت الأيمان عليهم بحسب عددهم ، وهناك خلاف في كيفية الحكم بها : إذ ترى طائفة أن يبدأ فيها المدّعُون بالأيْمان فإن حلفوا استحقوا وإن نكلوا حلف المدّعَى عليهم خمسين يميناً وبرأوا ، وذهبت طائفة إلى أنه يبدأ بالأيْمان المدّعَى عليهم فيحلفون ويبرءون ، وهل يكون بالقسامة القصاص أو الدية ؟ الراجح أن يكون فيها الدية ولا قصاص .

وأوجب الثوري والكوفيون القسامة بوجود القتيل فقط ، واستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشاهد ، قالوا : إذا وُجد قتيل في محلة قوم ، وبه أثر حلَف أهل ذلك الموضع أنهم لم يقتلوه ويكون عقله – أي ديته – عليهم ، وإذا لم يكن به أثر لم يكن على العاقلة شيء إلا أن تقوم البينة على واحد ، وذهب مالك والشافعي : إلى أن القتيل إذا وجد في محلة قوم أنه هدر لا يؤخذ به أقرب الناس داراً ؛ لأن القتيل قد يُقتل ثم يُلقى على باب قوم ليلطخوا به ، فلا يؤاخذ بمثل ذلك ، حتى تكون الأسباب التي شرطوها في وجوب القسامة وهي عند مالك إما دعوى القتيل أو شهادة امرأتين أو شهادة عدل .

فصل في التحريفيين من هذه الأمة :

رأينا تفسير قوله تعالى ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** ﴾ ، ورأينا كيف أن الله عز وجل قطع عنا الطمع بإيمان أهل الكتاب ؛ بسبب من هذه العقلية التحريفية للنصوص ،

وخلال مسيرة التاريخ الإسلامي وُجد بين المسلمين طوائف ، جعلت للقرآن باطناً يخالف الظاهر ، وذلك كفر بإجماع المسلمين . هؤلاء حرّفوا كلام الله وهم يعلمون حق العلم ماذا يعني كلام الله ، فهؤلاء وقعوا فيما وقع فيه اليهود من قبل ، وهؤلاء فيما يبدو يكاد ينقطع الأمل في عودتهم إلى الحق إلا بتوبتهم ، فكما أن اليهود إذ وقعوا في هذه المفسدة ينقطع الطمع في إيمانهم ، فهؤلاء وإن ادعوا أنهم هم خيار الناس ، يكاد أن ينقطع الطمع في فيئهم إلى الله عز وجل ، يدخل في ذلك كل طوائف الباطنية الذين يعطون الإمام حق الفهم الباطن للنصوص ، وبذلك عطلوا الصلاة والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من الإسلام ؛ إذ أعطوا كل النصوص فهماً يخالف الظاهر ، فسبقوا في ذلك اليهود أنفسهم ، كما دخل في ذلك طوائف من المتصوّفة يحمِّلون النصوص ما لا تحتمله من معنى ، وخرج من ذلك الذين يرون أن في القرآن من المعاني الدقيقة ما لا يحاط به ، ويسمون هذه المعاني باطناً ، فلا يتعارض عندهم ظاهر بباطن أي معنى دقيق مع معنى ظاهر ، وكل ذلك على ضوء الأصول الصحيحة للفهم ، كما خرج بذلك نوع من الوعظ هو بمثابة تداعي أفكار عند عرض آية يذكره أصحابه على أنه استطراد ، أو على أنه فوائد تعرض بمناسبة الآية لا على أنه تفسير للآية وهذا مزلق قديم خطير .

قال النسفي في عقائده : « والنصوص على ظواهرها فالعدول عنها إلى معان يدّعيها أهل الباطن إلحاد » قال التفتازاني تعليقاً على هذه العبارة : « وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص محمولة على ظواهرها ، ومع هذا ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان » . ويقول ابن الصلاح في فتاواه « الظن بمن يوثق به من الصوفية أنه إذا قال شيئاً من أمثال ذلك لم يذكره تفسيراً ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم فإنه لو كان كذلك لسلكوا مسلك الباطنية وإنما ذكر ذلك منهم لنظير ما ورد به القرآن فإن النظير يذكر بالنظير » .

وقد شدد الشيخ محمد الفاضل بن عاشور على الألوسي في تفسيره إذ ذكر التفسير الإشاري فقال « قد فتح خرقاً جديداً يقتضي أن هنالك طريقاً لاستفادة المراد غير مقتضى الألفاظ وهو خروج عن قواعد أهل السنَّة : في أن الإلهام ليس من أسباب المعرفة ، وإذا كانت تلك المعاني مقصودة فكأن غيرها حائل دونها وبذلك صح له أن يسمي الفقهاء والعلماء في كثير من المقامات بأهل الحجاب مما أثار على تفسيره الطامة الكبرى من العلماء » .

(نقلت هذه النقول الأربعة عن كتاب سيكولوجية القصة في القرآن) .

فصل في حِكمة من حِكم تكرار المعاني في القرآن :

يلاحظ أنه في سياق إقامة الحجة على بني إسرائيل أن قضية عبادتهم للعجل تعرض مرة بعد مرة ، وفي كل مرة تأتي ضمن سياق يناسبها ، فمرة في سياق الكلام عن النعمة ، لأن الله تاب عليهم مع فعلهم الشنيع هذا ، ومرة في سياق إقامة الحجة عليهم في أن الانحراف عن أمر الله طبيعة لهم ، ومرة في معرض استمرارية هذا الانحراف فيهم ، والانتباه لحكمة تكرار بعض الأمور في القرآن مهم إنْ في عملية التربية ، أو في عملية الصراع مع الكافرين ، فالقضية التي تتكرر في القرآن مرات ومرات لم تتكرر إلا وهناك سياق يقتضيها ، ثم إن تكرارها مهم إنْ في ضرورة هذا التكرار للنفس البشرية ، أو في ضرورة هذا التكرار للتوضيح ، أو للتفصيل ، أو للصراع مع الكفر وأهله ، وقد أدرك علماء النفس المعاصرون أهمية التكرار في تثبيت المعاني ، وبنى عليه المشتغلون في فنون الدعاية والإعلام كل نظرياتهم في الدعاية والإعلام ، وبنى عليه الشيوعيون وغيرهم نظرية غسيل الدماغ التي محتواها أن تجعل الإنسان في وضع غير طبيعي ، ثم تكرر عليه بعض المعاني آلاف المرات حتى تستقر عنده ويزول ما عداها ، وكل ذلك مرجعه ما عرف عن طبيعة النفس البشرية ، ولئن أدرك الإنسان هذا فالله الذي خلق الإنسان أعلم به وأعلم باحتياجاته ، فكان كتابه مذكراً للإنسان على حسب احتياجات الإنسان ، وإن كل قراءة للقرآن لتتأكد فيها عند القارىء معان وتستقر معان ، ويتذكر بها القارىء الخاشع معاني ومن خلال التكرار بأساليب شتى تأخذ كل قضية محلها في النفس البشرية ، مراعى في ذلك ما تغفل عنه النفس البشرية كثيراً ، أو ما تحتاج إلى تذكره كثيراً ، إلى غير ذلك من معان لا يحاط بها ، وفي هذا كله من مظاهر الإعجاز القرآني الكثير لمن عقل .

فصل في التوسل :

مما يستدل به القائلون بجواز التوسل برسول الله ﷺ في حياته وموته قوله تعالى : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾ إذ ورد في سبب نزولها أكثر من رواية فبعض الروايات تذكر عنهم أنهم كانوا يقولون « إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » وبعض الرويات تذكر مايلي :

قال ابن كثير : وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا** ﴾ يقول : يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركي العرب ...

وقال أبو العالية : كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب يقولون اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم .

ولما عرض القرطبي لهذه الآية قال : والاستفتاح : الاستنصار ...

قال ابن عباس : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان ، فلما التقوا هزمت يهود ، فعاذت يهود بهذا الدعاء وقالوا : إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان » فعلى هذا الاتجاه في سبب النزول يكون اليهود قد توسلوا برسول الله ﷺ قبل معرفتهم بوجوده ، ولأن الله عز وجل قد أقام عليهم الحجة بذلك ، فذلك دليل عند هؤلاء على جواز التوسل برسول الله ﷺ في غير حياته ومن المعلوم أن حسن البنا - رحمه الله - مجدد القرن الرابع عشر الهجري يرى أن التوسل مسألة فرعية ، أي ليست من مسائل الأصول التي لا يسع المسلمين الخلاف فيها ، وذلك لوجود أدلة لكل من الطرفين فيها ، ونحن سنحقق هذا الموضوع عند قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾ وإنما أشرنا إلى هذا الموضوع هنا بمناسبة استدلال أحد الطرفين بالآية المذكورة على صحة ما ذهب إليه .

فصل في روايات أهل الكتاب :

رأينا في مقطع بني إسرائيل قوله تعالى ﴿ **ثم يُحرّفونه من بعد ما عقلوه** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله** ﴾ وهذا يجعلنا حذرين في قبول الروايات الكتابية : أخرج البخاري من طرق عن الزهري عن ابن عباس قال : « يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتاب الله تعالى الذي أنزله على نبيّه أحدث أخبار الله تقرؤونه غضاً لم يشب ، وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدّلوا كتاب الله وغيّروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ، لا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل عليكم » ولقد استطاع رحمة الله بن خليل الهندي في كتابه العظيم (إظهار الحق) أن يأتي بمئات الشواهد والأدلة من كلام علماء اليهود والنصارى أنفسهم على التحريف والتغيير والتبديل في الكتب الحالية المعتمدة عند

اليهود والنصارى ، فإذا كان هذا في الكتب المتوارثة فما بال الروايات الشفهية وكلام الكذبة والعامة ، ولا يعني هذا أننا نرفض كل شيء ورد في الكتب السابقة ، بل يعني هذا أن نكون حذرين مع عدم إعطاء ما نقبله - قوة في تفسير كتاب الله - أكثر مما تحتمله ، ولنا عودة على هذا الموضوع مرة ومرة إذا جاءت مناسبته .

فصل في السحر :

السحر في اللغة : عبارة عما لطف وخفي سببه ، وهو أنواع ، وكل نوع منه يستند إلى نوع من العلم أو الفن ، فمن عرف علمه استطاعه ، وهذا هو الفارق بينه وبين المعجزة والكرامة ، فالمعجزة والكرامة لا دخل لعالم الأسباب فيهما ، بل هما بقدرة الله المباشرة . أما السحر فمبناه عالم الأسباب ، ولكن قلة من يعرفه تجعله غريباً خارقاً ، ومن أنواعه سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، ومنه ما يكون أثراً عن الاستعانة بعالم الجن ، ومنه ما يكون أثراً عن الخفة والمهارة في التلبيس على العيون والأبصار ، ومنه ما يكون أثراً عن مهارات في بعض العلوم يظنها الجهلة سحراً وهي ليست سحراً ، ومنه ما يكون أثراً عن استعمال أدوية أو ألوان ، ومنه ما يكون أثراً عن استغلال ضعف نفسي عند الآخرين ، ومنه ما يكون تغيراً وقلباً للأشياء عن أعيانها ، وهذه الأنواع تدخل تحت كلمة السحر لغوياً ، أما السحر الذي هو سحر بالاصطلاح الشرعي وهو السحر المحرم : فهو ما رافقه كفر أو ضرر أو تلبيس أو استغلال أو كذب أو دعوى .

ومن أقوالهم في السحر :

قال القرطبي : وعندنا - أي أهل السنَّة والجماعة - أن السحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء خلافاً للمعتزلة وأبي إسحق الإسفراييني من الشافعية حيث قالوا إنه تخييل وتمويه .

وقال الألوسي : والمراد به أمر غريب يشبه الخارق وليس به - أي بالخارق - إذ يجري فيه التعلم ويستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح قولاً كالرقى التي فيها ألفاظ الشرك ومدح الشيطان وتسخيره ، وعملاً كعبادة الكواكب والتزام الجنابة وسائر الفسوق ، واعتقاداً كاستحسان ما يوجب التقرب إليه ومحبته إياه ...

وقال الألوسي كذلك : « فسره الجمهور بأنه خارق للعادة - في الظاهرة - يظهر في نفس شريرة بمباشرة أعمال مخصوصة ، والجمهور على أن له حقيقة » .

أقول : وأمهات المجلات والصحف العالمية تتحدث في عصرنا عن السحرة وسحرهم بما يدهش ويحير ، اقرأ مثلاً ما نشرته مجلة « ريدرز دايجست (المختار) » عن دينڤجز قارىء الأفكار وخلال العصور كان الكلام عن السحر والسحرة مستمراً على ضيق أو توسع كما سنرى بمناسبات أخرى في هذا التفسير . يقول صاحب الظلال : « وبعد فلابد من كلمة هنا عن السحر وعما يفرق بين المرء وزوجه مما كان أولئك اليهود يجرون خلفه ويتركون كتاب الله وراء ظهورهم من أجله : إنه ما يزال مشاهداً في كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم عن كنهها بعد ، لقد سمى بعضها بأسماء ولكنه لم يحدد كنهها ولا طرائقها . هذا « التلباثي » التخاطر عن بُعد - ما هو ؟ وكيف يتم ؟ كيف يملك إنسان أن يدعو إنساناً على أبعاد وفواصل لا يصل إليها صوت الإنسان في العادة ولا بصره فيتلقى عنه دون أن تقف بينهما الفواصل والأبعاد ؟ وهذا التنويم المغنطيسي ما هو وكيف يتم ؟ كيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة ، وأن يتصل فكر بفكر ، فإذا أحدهما يوحي إلى الآخر وإذا أحدهما يتلقى عن الآخر كأنما يقرأ من كتاب مفتوح ؟ إن كل ما استطاع العلم أن يقوله إلى اليوم في هذه القوى التي اعترف بها هو أن أعطاها أسماء ولكنه لم يقل قط ما هي : ولم يقل قط كيف تتم ، وثمة أمور كثيرة أخرى يماري فيها العلم ؛ إما لأنه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف بها ؛ وإما لأنه لم يهتد إلى وسيلة تدخلها في نطاق تجاربه ، هذه الأحلام التنبؤية - وفرويد الذي يحاول إنكار كل قوة روحية لم يستطع إنكار وجودها - كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول ثم إذا هذه النبوءة تصدق في الواقع بعد حين ؟ وهذه الأحاسيس الخفية التي ليس لها اسم بَعد . كيف أحس أن أمراً ما سيحدث بعد قليل ، أو أن شخصاً ما قادم بعد قليل ثم يحدث ما توقعت على نحو من الأنحاء ! إنه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى المجهولة في الكائن البشري لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يجرّب بها هذه القوى . وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة والجري وراء كل أسطورة إنما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفاً مرناً ، لا ينفي على الإطلاق ، ولا يثبت على الإطلاق ؛ حتى يتمكن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه ، أو يسلم بأن في الأمر شيئاً فوق طاقته ويعرف حدوده ويحسب للمجهول في الكون حسابه ...

السحر من قبيل هذه الأمور ، وتعليم الشياطين للناس من قبيل هذه الأمور ، وقد تكون صورة من صوره : القدرة على الإيحاء والتأثير إما في الحواس والأفكار ، وإما في

الأشياء والأجسام ، وإن كان السحر الذى ذكر القرآن وقوعه من سحرة فرعون كان مجرد تخييل لا حقيقة له ﴿ **فخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ (سورة طه) – ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه وبين الصديق وصديقه ، فالانفعالات تنشأ من التأثرات ، وإن كانت الوسائل والآثار والأسباب والمسببات لا تقع كلها إلا بإذن الله على النحو الذي أسلفنا .. أقول ما اتجه إليه صاحب الظلال من كون السحر يمكن أن يكون من صور الإيحاء والتمويه هو ما ذهب إليه أبو إسحاق الإسفراييني وهو من أكبر أئمة أهل السنَّة والجماعة ، والجمهور على أن هذا نوع من السحر ولكنه ليس كل السحر والمسلم في كل القضايا التي أخبره عنها الوحي موقفه التصديق والتسليم ، والسحر من جملة ذلك فخطاب (سيد قطب) للعقل الإنساني في أن عليه أن يكون موقفه مرناً في الإثبات والنفي إنما هو في حالة سكت عنها النص وأخذت محلها في كلام البشر .

قال الشافعي : « إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة ، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر » .

واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد يكفر بذلك ، ومن أصحاب أبي حنيفة من قال : « إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر – وهذا إذا لم يرافق تعلمه كفر أو يلزم عليه كفر – ومن تعلمه معتقداً جوازه أو أنه ينفعه كفر» وعلى القول بأنه يكفر بمجرد تعلمه فإنه يقتل بذلك وقد رأينا كلام الشافعي في هذا الأمر .

قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد : نعم . وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا . فأما إن قَتل بسحره إنساناً فإنه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد . وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك في حق شخص مُعيَّن ، وإذا قتل فإنه يُقْتل حداً عندهم إلا الشافعي فإنه قال : يقتل – والحالة هذه – قصاصاً قال : وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد : في المشهور عنهم لا تقبل ، وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى تقبل . وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم ، وقال مالك وأحمد والشافعي : لا يقتل ... واختلفوا في المسلمة الساحرة فعند أبي حنيفة : لا تقتل ولكن تحبس وقال الثلاثة : حكمها حكم الرجل ...

وهل يُسأل الساحر حلا لسحره ؟ أجاز سعيد بن المسيب ذلك فيما نقله عنه البخاري ولكن لابد من اشتراط الوسيلة المباحة .

قال النسفي : قال أبو منصور الماتريدي : « القول بأن السحر على الإطلاق كفر ، خطأ بل يجب البحث عن حقيقته فإن كان في ذلك رد ما لزم في شرط الإيمان فهو كفر ، وإلا فلا ، ثم السحر الذي هو كفر يقتل عليه الذكور لا الإناث ، وما ليس بكفر وفيه إهلاك النفس ففيه حكم قطَّاع الطريق ويستوي فيه ، وتُقبل توبته إذا تاب ومن قال : لا تقبل فقد غلط فإن سحرة فرعون قُبلت توبتهم » .

قال ابن كثير : أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله في إذهاب ذلك وهما المعوذتان وفي الحديث : « لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان » .

أقول : ظن بعضهم أن بعض المخترعات من قبيل السحر وذلك في أول ظهورها ولذلك فإن علينا من خلال نظرة شاملة وعلمية أن نميز بين ما أسماه الإنسان سحراً وهو ليس من السحر المحرّم ، وبين السحر المحرّم في شريعة الله ، وإن علينا أن نعرف أن الإسلام جاء ليقطع دابر السِّحر المحرم من حياة الإنسان ، فقد رأينا أن من فقهاء المسلمين من يكفر الساحر في كل حال ومما استدل به هؤلاء قوله تعالى ﴿ **ولو أنهم آمنوا واتقوا** ﴾ وذلك بعد الكلام عن فعل السحرة وهذا الاتجاه عليه الإمام أحمد وطائفة من السلف ، وقال آخرون : لا يكفر ولكن حدّه ضرب عنقه ؛ لما رواه الشافعي وأحمد : أن عمر بن الخطاب كتب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال : فقتلنا ثلاث سواحر وقد أخرجه البخاري . وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت . قال الإمام أحمد : « صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ في الساحر » . وكان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملا على سيفه فقتله قال : أراه كان ساحراً وحمل الشافعي قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركاً .

فوائد :

١ - في الصحيح « من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ » .

٢ - وفي السُّنن « من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر » .

٣ - في ضرب الله نموذجاً على السحر التفريق بين المرء وزوجه إشارة إلى فظاعة

هذا الفعل ، فلا شيء أفرح للشيطان من الخلاف بين الزوجين لما يترتب عليه من فتح أبواب كثيرة من الشر ، وقد أخرج الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة يجيء أحدهم فيقول ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئاً ويجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله . قال : فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول نعم أنت » .

٤ – السحر قديم فقد كان في زمن سليمان عليه السلام ، وكان قبل في زمن موسى كما ذكر القرآن وكان في قوم صالح وهم قبل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام إذ إنهم قالوا لصالح ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾ (سورة الشعراء)أي المسحورين على المشهور كل هذا يدل على أن السحر كان موجوداً قديماً وقد جاءت الحفريات وجاء علم الآثار ودراسة تاريخ الأقوام فأعطى المزيد في هذا الشأن .

فصل في قوله تعالى : ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ :

في (ما) في هذا النص مذهبان الأول : أنها نافية ، والثاني : أنها اسم موصول :

– فعلى القول بأنها نافية تصبح جملة ﴿ **وما أنزل على الملكين** ﴾ جملة معطوفة على ﴿ **وما كفر سليمان** ﴾ فيصير المعنى على هذا التقدير : وما كفر سليمان ، وما أنزل على الملكين ، ولكن الشيطانين هاروت وماروت كفرا يعلمان الناس السحر ببابل ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما .هذا مذهب القرطبي في فهم الآية وقد وجه ذلك من حيث اللغة والإعراب ، والمقصود بالملكين المبرأين هنا جبرائيل وميكائيل ؛ لأن اليهود تزعم أن جبرائيل وميكائيل هما اللذان نزلا بالسحر على سليمان . وعلى القول بأن (ما) نافية يمكن أن نعتبر ﴿ **وما أنزل على الملكين** ﴾ جملة اعتراضية فيصير المعنى : ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل ، يعلمون هاروت وماروت ، وهاروت وماروت يعلمان الناس وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ؛ فيتعلم الناس منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما أنزل السحر على الملكين جبرائيل وميكائيل . وهناك قراءة بكسر اللام ؛ فيكون الملكان داود وسليمان وأنهما ما أنزل عليهما السحر .هذه أهم التفاسير التي تترتب على اعتبار ما نافيه .

– وعلى القول بأن (ما) اسم موصول فإن معاني متعددة يحتملها النص على ضوء فهم قضية هاروت وماروت .

إن المعنى العام للآية على هذا الاتجاه هو :

ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر ، ويعلمونهم الذي أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت من السحر مع أن الملكين ما كانا يعلمان أحداً السحر إلا بعد أن يعلماه أنهما أنزلا ابتلاءً للناس ، فلا يعلمان أحداً السحر حتى ينهياه عن ذلك ، فإذا أصر علماه فيكون المتعلم قد اختار الكفر عن بصيرة فيستحق عذاب الله . وبعض العلماء لم يفهم أن هناك تلازماً بين التعلم والكفر . **قال النسفي** : « والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاءً من الله للناس ، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً إن كان فيه رد مالزم في شرط الإيمان ، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمناً » والفتنة في الآية معناها المحنة والإخبار ، وهل هذا التعليم من قبل الملكين أثر عن تكليف لهما من الله ليفرق الناس بين السحر والمعجزة فيكونان غير عاصيين به ، فهما على أصل العصمة أو أن الأمر غير ذلك ؟ إن الفهم الشامل لشريعة الله ولنصوص الكتاب والسنَّة يرجح الأول .

اختلف المفسرون في هاروت وماروت الوارد اسمهما في الآية فقال بعضهم : إن هاروت وماروت شيطانان ونصر هذا القرطبي ، وقال بعضهم : إنهما قبيلان من الجن ونصر هذا ابن حزم ، وقال بعضهم إنهما رجلان من أهل بابل وصفهما الناس بالملكين لظنهم صلاحهما ، وقال بعضهم : إنهما ملكان أنزلا من السماء . ثم هؤلاء اختلفوا فمنهم من قال إنهما كُلفا أن يعلِّما الناس السحر من أجل أن يميز الناس بين المعجزة والسحر ، وكل هذه الآراء إنما يريد أصحابها أن لا يجرحوا العصمة الثابتة للملائكة بالنصوص القطعية . وهذا الذي يرجحه علماء الأصول وليس عنه نميل .

وأما القول الآخر الذي عنه نعدل فهو : أنهما ملكان اختارتهما الملائكة لتركب فيهما الشهوة حين عيَّرت بني آدم ، فأُهبطا إلى الأرض ، فواقعا المعصية ، فخُيِّرا بين عذاب الدنيا أو الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا على الآخرة ، فهما يعذبان الآن . والذين ذهبوا هذا المذهب جمعوا بينه وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا ، فيكون تخصيصاً لهما ، فلا تعارض حينئذ ، كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق وفى قول : إنه من الملائكة ، والذين ذهبوا إلى أن هاروت وماروت ملكان عصيا ،

استشهدوا بما ظنوه أحاديث عن رسول الله ﷺ ومنها رواية رواها الإمام أحمد ، وقد نقلها ابن كثير ثم قال : « فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل » وإذن فليس هناك حديث صحيح عن رسول الله ﷺ في هذا الموضوع واستشهد أصحاب هذا المذهب بآثار في ذلك عن الصحابة والتابعين وقد سردها كلها ابن كثير ثم علق عليها بقوله : « وحاصلها راجع ... إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال » .

قال صاحب الظلال في حديثه عن هاروت وماروت : فإن قصتهما كانت متعارفة بين اليهود ، بدليل أنهم لم يكذبوا هذه الإشارة ولم يعترضوا عليها ، وقد وردت في القرآن الكريم إشارات مجملة لبعض الأحداث التي كانت معروفة عند المخاطبين لها ، وكان في ذلك الإجمال كفاية لأداء الغرض ، ولم يكن هناك ما يدعو إلى تفصيل أكثر ، لأن هذا التفصيل ليس هو المقصود . وقد أغرب القصاصون في هذا الموضوع كثيراً كما يرى فيما نقله ابن كثير ومن أغرب ما ذكروه : أن كوكب الزهرة إنما هو المرأة التي زَنَيَا بها وهذا كلام غريب جداً » . قال الألوسي : « والزهرة كانت يوم خلق الله تعالى السموات والأرض والقول بأنها تمثلت لهما فكان ما كان وردت إلى مكانها غير معقول ولا مقبول » وسبب هذا الغلط هو العقلية الخرافية الإسرائيلية ، فقد وردت في الإسرائيليات كلمة الزهرة إما على هذه الشاكلة أو أن القصاص أحبوا الإغراب فذكروا ما ذكروا ، وقد يدل لذلك أن القصة في رواية ابن عباس – فيما يبدو عن أهل الكتاب – « وفي ذلك الزمان امرأة حُسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب » **قال الألوسي** عن هذه القصة :

« هذا ومن قال بصحة هذه القصة في نفس الأمر وحملها على ظاهرها فقد ركب شططاً ، وقال غلطاً ، وفتح باباً من السحر يضحك الموتى ويبكي الأحياء ، وينكس راية الإسلام ، ويرفع رؤوس الكفرة الطغام ، كما لا يخفى ذلك على المنصفين من العلماء المحققين » . وتعليقاً على قصة امرأة من دومة الجندل ادعت أنها اجتمعت بهاروت وماروت ، وحدث لها ما حدث ثم جاءت تستفتي الصحابة في أمر توبتها يقول الألوسي : « فهو ونظائره مما ذكره المفسرون من القصص في هذا الباب مما لا يعول عليه ذوو الألباب ، والإقدام على تكذيب مثل هذه المرأةالدوجندلية أولى من اتهام العقل في قبول هذه الحكاية التي لم يصح فيها شيء عن رسول رب البرية ﷺ ويااليت كتب الإسلام لم تشتمل على هذه الخرافات التي لا

يصدقها العاقل ولو كانت أضغاث أحلام » .

– وهناك أكثر من بابل والمراد في الآية (بابل العراق) ومما استدل به العلماء على أن بابل في الآية هي بابل العراق ما رواه أبو داود وسكت عنه . وهي علامة الحديث الحسن عنده : « أن علياً مر ببابل وهو يسير فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة فلما فرغ قال : إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلي في المقبرة ونهاني أن أصلي بأرض بابل فإنها ملعونة » قالوا عن هذا الحديث : « ففيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض بابل كما تكره بديار ثمود الذين نهى رسول الله ﷺ عن الدخول إلى منازلهم إلا أن يكونوا باكين »

فصل في التشبه :

يغلط كثير من الناس في موضوع التشبه ومن ثَمَّ فإننا نحب أن نضع أساساً في هذا الموضوع هنا ، ثم يتضح لنا بعد ذلك شيئاً فشيئاً :

كل بني الإنسان يشتركون في أمور ، في كونهم يأكلون وينامون ويتناكحون ويتناسلون والإنسان يشترك مع الحيوان في أمور ، فما هو التشبه المنهي عنه ؟

هناك التشبه الذي ورد النهي عنه في النصوص ، كالنهي عن إقعاء الكلب ، وافتراش الثعلب ، ونقر الديك في الصلاة ، وكالنهي عن تشبه الرجال بالنساء فيما هو من خصوصيات النساء ، وعن تشبه النساء بالرجال فيما هو من خصوصيات الرجال .

ثم هناك تشبه بالكافرين فيما هو عَلَم على الكفر ، أو تشبه بالفاسقين فيما هو عَلَم على الفسوق ، أو تشبه بالكافرين والفاسقين فيما به تُترك فريضة أو سنَّة ، أو فيما يحقق مصلحة للكفر والكافرين ، في مثل هذا يطبق النهي الوارد عن التشبه .

فليس كل تشبه منهياً عنه ، وسنرى ما يوضح هذه الشؤون في التفسير وفي كتاب الأساس في السنَّة وفقهها بما نعرف حدود ذلك بدقة .

فصل في النسخ :

أُلف في موضوع الناسخ والمنسوخ الكتب الكثيرة ، وتبحثُ عادة قواعده

وتفصيلاته في كتب أصول الفقه وننقل لك ههنا من كلام القرطبي في تفسيره ما يلائم حدود هذا التفسير :

قال القرطبي : « ... معرفة هذا الكتاب أكيدة ، وفائدته عظيمة ، لا تستغني عن معرفته العلماء ، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء ، لما يترتب عليه في النوازل من الأحكام ومعرفة الحلال من الحرام ، روى أبو البختري قال : دخل عليٌّ رضي الله عنه المسجد فإذا رجل يخوف الناس فقال : ما هذا ؟ قالوا : رجل يذكّر الناس فقال : ليس برجل يذكر الناس لكنه يقول : أنا فلان ابن فلان فاعرفوني ، فأرسل إليه فقال : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ فقال : لا .. قال : فاخرج من مسجدنا فلا تذكر فيه . وفي رواية أخرى : أعلمت الناسخ من المنسوخ قال : لا قال : هلكت وأهلكت . ومثله عن ابن عباس رضي الله عليه .

قال علماؤنا .. : جائز نسخ الأثقل إلى الأخف كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لاثنين (أي في القتال) ويجوز نسخ الأخف إلى الأثقل كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان على مايأتي بيانه في آية الصيام ، وينسخ المثل بمثله ثقلا وخفة كالقبلة ، وينسخ الشيء لا إلى بدل كصدقة النجوى . وينسخ القرآن بالقرآن ... وينسخ خبر الواحد بخبر الواحد وحُذّاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنَّة وذلك موجود في قوله عليه السلام « لا وصية لوارث » وهو ظاهر مسائل مالك ، وأبى ذلك الشافعي وأبو الفرج المالكي ... والحُذّاق أيضاً على أن السنَّة تُنسخ بالقرآن ، وذلك موجود في القبلة ، فإن الصلاة إلى الشام لم تكن في كتاب الله تعالى وفي قوله تعالى (فى سورة الممتحنة) ﴿ **فلا تَرجعُوهن إلى الكفار** ﴾ فإن رجوعهن إنما كان بصلح النبي ﷺ لقريش ، والحذاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلا ، واختلفوا هل وقع شرعاً (**أقول** : في كون كل الحذاق هذا مذهبهم فيه نظر) ولا يصح نسخ نص بقياس إذ من شرط القياس ألا يخالف نصاً ، وهذا كله في حياة النبي ﷺ وأما بعد موته واستقرار الشريعة فأجمعت الأمة أنه لا نسخ ، ولهذا كان الإجماع لا يُنسخ ولا يُنسَخ به إذ انعقاده بعد انقطاع الوحي .

(**وهناك**) ... نسخ الحكم دون التلاوة ومثله صدقة النجوى ، وقد تنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم ، وقد تنسخ التلاوة والحكم معاً ومنه قول الصديق رضي الله عنه كنا نقرأ لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر » ومثله كثير .

والذي عليه الحذاق أن من لم يبلغه الناسخ فهو متعبد بالحكم الأول كما يأتي بيانه في تحويل القبلة ، والحذاق على جواز نسخ الحكم قبل فعله ، وهو موجود في قصة الذبيح وفي فرض خمسين صلاة قبل فعلها بخمس على ما يأتي بيانه في سورتي الإسراء والصافات .

... الجمهور على أن النسخ إنما هو مختص بالأوامر والنواهي ، والخبر لا يدخله النسخ لاستحالة الكذب على الله تعالى ، وقيل : إن الخبر إذا تضمن حكماً شرعياً جاز نسخه كقوله تعالى (فى سورة النحل) ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً** ﴾ وهناك يأتي القول فيه ...

- اختلفت عبارات أئمتنا في حد النسخ (أي في تعريفه) فالذي عليه الحذاق من أهل السنَّة : أنه إزالة ما قد استقر من الحكم الشرعي بخطاب وارد متراخياً ، هكذا حده القاضي عبد الوهاب والقاضي أبو بكر . وزاد : لولاه لكان السابق ثابتاً . فحافظا على معنى النسخ اللغوي إذ هو بمعنى الرفع والإزالة وتحرزا من الحكم العقلي ، وذكرا الخطاب ليعم وجوه الدلالة من النص والظاهر والمفهوم وغيرها ، وليخرج القياس والإجماع إذ لا يتصور النسخ فيهما ولا بهما وقيد بالتراخي لأنه لو اتصل به لكان بياناً لغاية الحكم لا نسخاً ، أو يكون آخر الكلام يرفع أوله .

وقال القرطبي : « أنكرت طوائف من المنتمين للإسلام المتأخرين جوازه وهم محجوجون بإجماع السلف السابق على وقوعه في الشريعة » .

وقال : لمعرفة الناسخ طرق منها : أن يكون في اللفظ ما يدل عليه كقوله عليه السلام : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، ونهيتكم عن الأشربة إلا في ظروف الأدم فاشربوا في كل وعاء غير ألا تشربوا مسكراً ونحوه » ومنها أن يذكر الراوي التاريخ مثل أن يقول سمعت عام الخندق وكان المنسوخ معلوماً قبله ، أو يقول نسخ حكم كذا بكذا ، ومنها : أن تجمع الأمة على حكم أنه منسوخ وأن ناسخه متقدم وهذا الباب مبسوط في أصول الفقه نبهنا منه على ما فيه لمن اقتصر كفاية والله الموفق للهداية .

فصل في التأويل :

تعمدنا عند قوله تعالى ﴿ **بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له**

كن فيكون ﴾ أن نذكر أن هناك اتجاهين : اتجاهاً يمرها كما جاءت ، واتجاهاً يحملها على المجاز ، مع أننا نفضل المذهب الأول في مثل هذه النصوص وذلك من أجل هذا البيان :

إن كثيرين من الناس يحملون على التأويل والتعطيل دون إدراكٍ دقيق للتأويل المذموم ، لقد لاحظنا عند الكلام عن بني إسرائيل أن بني إسرائيل إنما ذُموا بتحريفهم كلام الله على علم منهم بالتحريف ﴿ **وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** ﴾ وسنرى عند قوله تعالى ﴿ **والراسخون في العلم يقولون آمنا به** ﴾ أن هناك اتجاهات تقف على قوله تعالى ﴿ **والراسخون في العلم** ﴾ مما يدل على أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل ما تشابه من القرآن ، ولا أعرف أن اتجاهاً من الاتجاهات حارب التأويل إلا وقد اضطر للتأويل ، والمراد به هنا إخراج معنى اللفظ عن ظاهره إلى معنى مجازي ، ولذلك فإنني أقول :

إنه لا يصح أن يكون موقفنا تشنجياً ونحن نقرأ كلام الراسخين في العلم وهم يعرضون لنا وجهات نظرهم ، ما داموا ممن شهدت لهم الأمة بالرسوخ في العلم ويتكلمون في الحدود التي تحتملها اللغة العربية ، وبالشكل الذي لا يعارض القرآن بعضه بعضاً ، أو لا تتعارض به النصوص ، ومع أنني أرجح دائماً في آيات الصفات عدم التأويل مع التنزيه ، إلا أنني لا أرى مانعاً من عرض اتجاهات العلماء في الفهم ومناقشتها ورؤية الحجية أو عدمها في كلامهم ، مع أنني من خلال تجربتي الشخصية وبعد التمحيص للتأويلات ومن خلال ما أفهمنيه الله عز وجل لبعض آيات الصفات أشعر أن كلام الله عز وجل عن ذاته لا يسعه إلا تعبيره عن ذاته ، فسبحانه وتعالى ما أجله وأعظم صفاته وأرفع كلماته . ولكن كما قلت فهذا لا يمنع أن نرى فهوم العلماء لكل آية ولكل حديث مهما كان ، وإني أعتقد أنه ما دام المسلم في دائرة فهوم الراسخين في العلم من هذه الأمة فيما لا يتعارض مع البديهيات ومع الإجماع فإنه لا يقرب من دائرة الضلال .

فصل في قوله تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فَثَمَّ وجه الله ﴾ :

هناك مجموعة من المسائل تثار أثناء الكلام عن هذه الآية منها المسائل الفقهية ومنها ما له علاقة في معرفة الذات الإلهية :

أولا : هل هذه الآية منسوخة ؟ في ذلك قولان ، والذين ذهبوا إلى النسخ لهم في توجيهها قولان ، ومن محص هذه الأقوال وجد أنها لا يترتب عليها خلاف عملي إلا

قليلا ، إذ الجميع متفقون على وجوب التوجه إلى الكعبة في الأحوال العادية ، والجميع متفقون على وجوب التحري حيث جهلت الجهة في ليل أو نهار ، وإذا صلوا أجزأتهم ، واختلفوا هل على من تبين له بعد أن صلى أنه صلى لغير القبلة هل عليه الإعادة ؟ قولان والحنفية على عدم الإعادة ، والجميع متفقون على أنه إذا اشتد الخوف صلوا إلى أي جهة قدروا ، في صحيح البخاري من حديث نافع عن ابن عمر أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً (قياماً على أقدامهم) وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها قال نافع ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ ، والجميع متفقون على أن المتطوع في الصلاة على دابته في السفر يجوز له أن يصلي إلى أي جهة قدر ، ولم يفرق الشافعي في المشهور عنه بين سفر المسافة والسفر القريب ، وذهب أبو يوسف إلى جواز التطوع على الراحلة ولو في المصر واختاره أبو جعفر الطبري حتى للماشي .

ثانياً – وفي باب العقائد يثور نقاش في المراد بقوله تعالى ﴿ **فثَمَّ وجه الله** ﴾ فللعلماء في النص اتجاهان : الاتجاه الأول هو عدم التأويل مع التنزيه فلله وجه ليس كمثله شيء ، وعلى هذا فإن معنى الآية : لي المشارق والمغارب فأين وليتم وجوهكم فهناك وجهي وهو قبلتكم ﴿ **إن الله واسع** ﴾ يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال ﴿ **عليم** ﴾ بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيء ، ولا يعزب عن علمه صغير أو كبير .

والاتجاه الثاني هو التأويل ، وهذه نماذج من أقوال السلف في الآية : قال عكرمة عن ابن عباس ﴿ **فأينما تولوا فَثَم وجه الله** ﴾ قال : قبلة الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً . وقال مجاهد : ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة » وقال ابن جرير : « ..وقال آخرون ...لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية إلا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية لأن له تعالى المشارق والمغارب وأنه لا يخلو منه مكان » .

قال ابن كثير تعليقاً على آخر الكلام : وفي قوله « وأنه تعالى لا يخلو منه مكان ، إن أراد علمه فصحيح ، فإن علمه تعالى محيط بجميع المعلومات وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة في شيء من خلقه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » .

وقد ذكر ابن جرير وجهاً آخر للآية فقال : « ويحتمل : فأينما تولوا وجوهكم في

دعائكم لي فهناك وجهي أستجيب لكم دعاءكم ... قال ابن جريج قال مجاهد:لما نزلت ﴿ **ادعوني أستجب لكم** ﴾ قالوا : إلى أين فنزلت فأينما تولوا فثم وجه الله

أقول : ولنا عودة على هذا الموضوع عند قوله تعالى في سورة القصص :

﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ .

فصل : في الفرية الكبرى : أن لله ولداً .

إن هذه الفرية التي تكاد تكون مستمرة في تفكير الكثيرين في تاريخ البشرية تسللت إلى الديانة النصرانية من خلال بولس الذي حرّف دين المسيح عليه الصلاة والسلام .

إن هناك دراسة صدرت لعالم مسيحي شغل منصب رئيس قسم تاريخ الأديان في جامعة باريس اسمه (شارل جنيبير) تحت عنوان « المسيحية نشأتها وتطورها » . في هذه الدراسة يثبت المؤلف أن المسيحية الحالية هي بولس وأن في أفكار بولس صبت كل الديانات المعروفة وقتذاك ومما يقوله المؤلف مما له علاقة بموضوعنا :

« تعبير ابن الله لا يرد سوى مرة واحدة في أعمال الرسل (٩/٢٠) ويقدم لنا في تلك المجموعة باعتباره تعبيراً خاصاً ببولس » .

« ولكن بولس لم يكن ليدرك في ذلك الوقت كل ما ترتب على مفهوم ابن الله بعد ذلك من مشاكل في فلسفة الدين لا تحصى » « فاليهود كانوا يطلقون عبارة « خادم يهوه » على كل إنسان يظنون لديه إلهاماً ... وكلمة Rais تعني في نفس الوقت « خادم » أو (طفل) تماماً كالكلمة اللاتينية Puem وعلى هذا يكون التطور من (Rais)أي طفل إلى (Uios) أي ابن ، أمراً في غاية البساطة ، وقد حدث مثل هذا التطور اللفظي فعلا في النصوص اليهودية - المسيحية (كمجموعة أعمال الرسل) عندما نقل بعضها إلى رسائل بولس » .

والمؤلف لا يعتبر أن العملية تمت عند بولس بشكل لفظي بل كانت مرادة كجزء من فلسفة تعليلية لابد منها لسد ثغرات .

وهكذا تسللت هذه الفرية إلى الديانة المسيحية فكانت استمراراً ودعماً لاتجاه باطل في التفكير البشري لا يشك عاقل ببطلانه .

يقول الشيخ عبد الحليم محمود مترجم الكتاب في مقدمته : « ونفى المؤلف عن

المسيح عليه السلام القول بالتثليث : هذا القول الذي لا يفهمه المسيحيون أنفسهم ، ولا يفهمه كل من له عقل ، إن الثلاثة ليست واحداً كما يقولون ، وإن الواحد ليس ثلاثة كما يقولون ، وأي عقل يمكنه أن يفهم أن الثلاثة واحد والواحد ثلاثة ؟» .

أقول إن مأساة المسيحية أنها أرادت أن توفق بين التوحيد الذي أتى به موسى وعيسى ، وبين كلام بولس فوصلت إلى اللامعقولية ثم قدستها ، يقول الشيخ عبد الحليم محمود : ويقول القديس أوغسطين (وهو من أكبر فلاسفة النصرانية) مبرراً كل هذا اللامفهوم بلا مفهوم جديد إنه يقول : « أُومِن بالمسيحية لأنها دين غير معقول » .

وهكذا حكمت المسيحية على نفسها باللا معقولية من هذه البداية فدخلت في سلك الأباطيل . إنه يستحيل في منطق العقل أن يجتمع كمال الإله مع البنوة ، لأن البنوة فيها معنى الجزئية ، والله منزه عن الأجزاء ، وفيها معنى الافتقار ، والله منزه عن ذلك .

﴿ **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين * سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون** ﴾ « سورة الزخرف » .

فائدة :

بمناسبة الكلام عن قوله تعالى ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً** ﴾ قال ابن كثير : « وقال الإمام أحمد ... عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال : (أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، لافظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غُلفاً) انفرد بإخراجه البخاري ... قال عطاء : ثم لقيت كعب الأحبار فسألته فما اختلفا في حرف إلا أن كعباً قال بِلغَتِه : « أعينا عمومى وآذاناً صمومى وقلوباً غلوفاً » أخرج هذه الزيادة الحافظ أبو بكر بن مردويه .

أقول : إن هذا النقل الصحيح عن ابن عمرو بن العاص له أهميته الكبيرة ، إذ كان عند عبد الله بن عمرو زاملتا بعير من كتب أهل الكتاب ، فهو من المتتبعين لهذه القضايا في كتب أهل الكتاب ، كما كانت في عصر النبوة ، وسأنقل في سورة الأعراف البشارة

الموجودة في ما يسمى بالتوراة الحالية ، وسنرى هناك عجيبة من العجائب ، ومعجزة من معجزات هذا القرآن .

فائدة :

بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى ...** ﴾ قال ابن كثير : « قال قتادة : « وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله) قلت : هذا الحديث مخرّج في الصحيح عن عبد الله بن عمرو » أقول : في الظاهر لا توجد مناسبة بين ذكر هذه الرواية وسياق الكلام في تفسير هذه الآية ، والذي أتصوره أن ابن كثير ساق ذلك حتى لا يتوهم متوهم بأن إرضاء اليهود والنصارى هو الطريق للنصر بل هو القتال ليظهر الإسلام .

فائدة :

عند قوله تعالى ﴿ **حتى تتبع مِلّتهم** ﴾ قال ابن كثير : « وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله ﴿ **حتى تتبع ملتهم** ﴾ حيث أفرد المِلّة : على أن الكفر ملة واحدة ، كقوله تعالى في سورة (الكافرون) ﴿ **لكم دينكم وليَ دين** ﴾ فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفار ، وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا ؛ لأنهم كلهم ملة واحدة . وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد في رواية عنه ، وقال في الرواية الأخرى كقول مالك : إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى كما جاء في الحديث والله أعلم » .

فصل في ألوية الخداع والرد المكافىء :

عند قوله تعالى ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾ يقول صاحب الظلال : « إنها العقيدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان ، إنها هي العقيدة . هذه حقيقة المعركة التى يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة ، إنها معركة العقيدة المشبوبة بين المعسكر الإسلامي وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما ، ولكنها تلتقي دائما فى المعركة ضد الإسلام والمسلمين ! إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها ولكن المعسكرين العريقين في العداوة للإسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى ، ويرفعان عليها أعلاما شتى في خبث

ومكر وتورية ، إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة ، ومن ثَم استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة . لم يعلنوها حربا باسم العقيدة - على حقيقتها - خوفاً من حماسة العقيدة وجيشانها ، إنما أعلنوها باسم الأرض والاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية وما إليها ، وألقوا في روع المخدوعين الغافلين منا ، أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها ، ولا يجوز رفع رايتها . وخوض المعركة باسمها ، فهذه سِمة المتخلفين المتعصبين ، ذلك كي يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها ، بينما هم في قرارة نفوسهم : الصهيونية العالمية ، والصليبية العالمية - بإضافة الشيوعية العالمية - جميعاً يخوضون المعركة أولا وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلا فأدمتهم جميعاً .

إنها معركة العقيدة ، إنها ليست معركة الأرض ، ولا القلة ، ولا المراكز العسكرية ، ولا هذه الرايات المزيفة كلها ، إنهم يزيفونها علينا لغرض في نفوسهم دفين ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها ، فإذا نحن خُدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومَن إلا أنفسنا ونحن نبعد عن توجيه الله لنبيه ﷺ ولأمته وهو سبحانه أصدق القائلين ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملّتهم** ﴾ فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه وما سواه فمرفوض ومردود ! ولكن الأمر الحازم والتوجيه الصادق : ﴿ **قل إن هدى الله هو الهدى** ﴾ على سبيل القصر والحصر ، هدى الله هو الهدى ، وما عداه ليس بهدى ، فلابراح منه ولا فكاك عنه ، ولا محاولة فيه ولا ترضية على حسابه ، ولا مساومة في شيء منه قليل أو كثير ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ... » .

أقول : إنه في فترات الضعف الإسلامي الأخيرة لم يزل العالم يتعامل معنا على أساس مصالح بمبادىء ومصالح ، ونحن الخاسرون في كل صفقة ، وعلينا أن نعمل لنكون أقوياء ، فنفرض على العالم أن يتعامل معنا مصالح بمصالح ، وضمن موازين عادلة ، وحيث تجيز شريعتنا .

فصل خاتم في المعجزات وخوارق العادات :

لاحظنا من خلال مقطع بني إسرائيل كثرة المعجزات وخوارق العادات في حياة بني إسرائيل ، وفي حياة أمتنا منذ عهد رسول الله ﷺ ، حتى عصرنا ظهرت معجزات وكرامات ، وخوارق عادات كثيرة ، حتى إن بعض أولياء هذه الأمة ظهرت على أيديهم خوارق للعادات كثيرة ، هذا الشيخ عبد القادر الجيلاني يقول عنه ابن تيمية رحمه الله :

إن كراماته منقولة تواتراً وابن تيمية معروف تدقيقه في هذه الشؤون .

ومن عرف الله لم يستغرب وقوع المعجزة أو الكرامة ، فالله الذي خلق السموٰات والأرض بكلمة (كن) والذي خلق الأسباب والقوانين ؛ لا يعجزه أن يخرق السبب والقانون ؛ معجزة لنبي أو كرامة لولي ، ولكن علينا في الحالتين أن نتثبت من الوقوع .

فإذا ما حدّثنا القرآن عن الوقوع فإن من البدهيات أن يوجد عندنا التسليم ، وكذلك إذا حدّثتنا السنَّة ، وفي كرامات الصحابة والتابعين والأولياء حتى عصرنا ، علينا أن نتثبت ، فإذا صح النقل ولم يكن ثمة مبرر شرعي للرفض فالأصل التصديق ، وقد حدثنا الله في القرآن عن أولياء أكرموا بكرامات كمريم ، وجليس سليمان الذي عنده علم من الكتاب . والعجيب أن يسري الإنكار من المجتمعات الكافرة إلينا في هذه الشؤون ، إن المجتمعات الكافرة لا تظهر فيها كرامات ؛ لأنها كافرة ولذلك فهي ترفض مبدأ خرق القانون ، أما نحن فالأمر يختلف ، فعندنا بفضل الله أولياء وعبّاد وزهّاد ، ولم تزل الكرامات تجري على أيديهم ، وقد رأينا من كرامات بعض شيوخنا ما نجزم به ، ولكن الأعجب من ذلك أن يسري هذا الإنكار حتى على المعجزات التي أخبر عنها القرآن ، فيظهر ذلك بمحاولات التأويل لظواهر الآيات ، بحيث تؤول كل المعجزات على أنها عادات ، وذلك من عمى القلب وضعف اليقين بل هو الكفر نسأل الله العافية .

وليكن هذا الفصل خاتمة الفصول . ولنعد إلى سياق السورة حيث وصلنا إلى المقطع الرابع في القسم الأول من سورة البقرة وهو مقطع الحديث عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

المقطع الرابع من القسم الأول من سورة البقرة :

يمتد هذا المقطع من الآية (١٢٤) إلى نهاية الآية (١٤١) يبدأ بقوله تعالى ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات ...** ﴾ وينتهي بقوله تعالى : ﴿ **أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله ، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون * تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون** ﴾ .

يبدأ المقطع بالكلام عن إبراهيم ، وينتهي بالكلام عن إبراهيم ، ومن أدنى تأمل للمقطع يرى أن المقطع يتألف من ثلاث فقرات واضحة المعالم تضمها وحدة جامعة ، والفقرتان الثانية والثالثة تنتهيان بآية واحدة هي قوله تعالى : ﴿ **تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون** ﴾ وهذا هو المقطع في فقراته الثلاث .

الفقرة الأولى :

وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ

رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

الفقرة الثانية :

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾

وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

الفقرة الثالثة :

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

كلمة في هذا المقطع وسياقه :

١ - ختمت قصة آدم عليه الصلاة والسلام بالقاعدة :

﴿ فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

وجاء مقطع بني إسرائيل ليعرض علينا نموذجاً لأمة أنزل عليها هدى فانحرفت عنه ، ويأتي الآن مقطع إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ليقص علينا قصة النموذج الكامل لإنسان أنزل عليه هدى فقام به قياماً كاملا ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن** ﴾ قال البيضاوي : فأداهن كملا وقام بهنّ حق القيام لقوله تعالى ﴿ **وإبراهيم الذي وفَّى** ﴾ (سورة النجم) لاحظ الآن الصلة بين قوله تعالى في أول آية في مقطع آدم عليه السلام : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ .

وبين قوله تعالى في أول آية من مقطع إبراهيم عليه السلام : ﴿ **قال إني جاعلك للناس إماماً** ﴾ . فالذي جعل ادم خليفة ، جعل إبراهيم إماما فهو النموذج الكامل على الخليفة الكامل .

٢ - وقبل مقطع آدم في سورة البقرة يأتي مقطع الدعوة إلى التوحيد ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم .... فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ .

وفي مقطع إبراهيم نرى النموذج الأعلى على التوحيد متمثلا بإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ﴿ **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب .... أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون** ﴾ فمقطع إبراهيم يعمّق سياقه المعاني التي وردت في مقطع الدعوة إلى العبادة والتوحيد .

٣ - ومن قبل المقطع الأول في هذا القسم جاءت مقدمة سورة البقرة وفيها : قوله تعالى ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ وفي مقطع إبراهيم عليه الصلاة والسلام يأتي الأمر المفصل : ﴿ **قولوا آمنَّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ .

٤ - ومن قبل جاءت الفاتحة وكانت الفقرة الخاتمة فيها : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ . وقد رأينا في مقطع بني إسرائيل بعض صراط المغضوب عليهم والضالين ، وفي مقطع إبراهيم نرى صراط الذين أنعم الله عليهم . ومع ذلك كله الحوار مع المغضوب عليهم والضالين وإقامة الحجة .

٥ – وكما أن مقطع إبراهيم عليه السلام يخدم في سياقه ما مر من السورة ، فإنه الأساس والمقدمة للمقطع اللاحق من السورة ، وهو مقطع القبلة ، إن القبلة التي هي مرتكز من مرتكزات العبادة لله ستتحدد في المقطع اللاحق ، ولكن مقطع إبراهيم جاء بمثابة الترشيح للكلام في شأنها ، وجاء بمثابة المقدمة لتقريرها ﴿ **أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود** ﴾.. ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل** ﴾.. ﴿ **وأرنا مناسكنا ...** ﴾ .

وهكذا نرى أن مقطع إبراهيم عليه السلام في محله يخدم سياق الفاتحة ، ومقدمة سورة البقرة ، ومقطع التوحيد ، ومقطع آدم ، والمقطع اللاحق ، فماصلته بالمقطع السابق عليه مباشرة مقطع بني إسرائيل ؟

٦ – قلنا من قبل : إن الحوار مع بني إسرائيل لازال مفتوحاً ، وإن ختم مقطع بني إسرائيل ، ذلك لأنه لازال لليهود. كلام يقولونه ، متكئين عليه في رفض الإيمان بالإسلام ، وفي مقطع إبراهيم يستكمل جزء من الحوار ، إذ الإمامة في ذرية إبراهيم مشروطة ، وقد أخل اليهود بالشرط فلا حجة لهم في أن تستمر الإمامة فيهم ، ولذلك تنتقل الإمامة إلى أمة تقوم بحق الله ، وذلك مقتضى دعوة إبراهيم وإسماعيل ﴿ **ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ...** ﴾ وبعثة محمد ﷺ مقتضى دعوة إبراهيم عليه السلام لأبناء إسماعيل ﴿ **وابعث فيهم رسولا منهم ...** ﴾ والمقطع يقرر أن دين إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب هو الإسلام ، فأن يرغب بنو إسرائيل عن الإسلام فذلك سفه فيهم .

وكما أنه في مقطع بني إسرائيل أعطيت أمتنا دروساً ، فكذلك في مقطع إبراهيم ، وكما أن أمتنا قد علمت كيف ترد على الدعوات الباطلة في المقطع السابق فكذلك الحال هنا في هذا المقطع .

٧ – في مدخل الكلام عن بني إسرائيل رأينا أنه وُجِّهت لبني إسرائيل أوامر ونواهٍ ، وأن المقطع جاء بعد ذلك بمثابة تعليل لتوجيه هذه الأوامر والنواهي ، ورأينا أن الفصل الثاني من مقطع بني إسرائيل مرتبط بقوله تعالى في المدخل ﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون** ﴾ وأن الحوار في الفقرتين الأخيرتين من الفصل الثاني انصب على هذه المعاني ، وقلنا في هذه الكلمة إن مقطع إبراهيم عليه السلام يكمل الحوار في هذا الشأن ، والآن نقول إن مقطع إبراهيم زيادة على تكملة الحوار فإنه يضع أساساً لنقطة تعرض لها مدخل مقطع بني

إسرائيل ، وهي القضية المذكورة بعد الآية التي ذكرناها آنفاً ، إن الآية اللاحقة لهذه الآية هي قوله تعالى ﴿ **ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾ إذ الملاحظ أن مقطع إبراهيم يرد فيه قبل الآية الأخيرة ﴿ **ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله** ﴾ وسنرى أن مقاطع لاحقه ستتعرض بشكل أوسع لموضوع كتمان ما أنزل الله

إن تعانق المقطع مع ما قبله ومع ما بعده كثير كبير شديد ، وتعانق فقراته مع بعضها كثير شديد كما سنرى .

ولنطرز هذه المقدمة عن سياق المقطع بخاتمة ما قدم سيد قطب لهذا المقطع . يقول : وفي ثنايا هذا العرض التاريخي (الذي عرضه النص وتحدث عنه سيد) يبرز السياق أن الإسلام بمعنى إسلام الوجه لله وحده ، كان هو الرسالة الأولى وكان هو الرسالة الأخيرة ، هكذا اعتقد إبراهيم ، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى ، ثم آلت أخيراً إلى ورثه إبراهيم من المسلمين ، فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها ووريث عهودها وبشاراتها ، ومن فسق عنها ورغب بنفسه عن مِلّة إبراهيم ، فقد فسق عن عهد الله ، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشارته . عندئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى في اصطفائهم واجتبائهم لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته ، وهم ورثته وخلفاؤه ، لقد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هذه العقيدة ، وعندئذ تسقط كذلك كل دعاوى قريش في الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته ، لأنهم قد فقدوا حقهم في وراثه باني هذا البيت ورافع قواعده ؛ بانحرافهم عن عقيدته ، ثم تسقط كل دعاوى اليهود فيما يختص بالقبلة التي ينبغي أن يتجه إليها المسلمون ، فالكعبة هي قبلتهم وقبلة أبيهم إبراهيم ، كل ذلك في نسق من العرض والأداء والتعبير عجيب حافل بالإشارات الموحية ، والوقفات العميقة الدلالة ، والإيضاح القوي التأثير » .

ولنبدأ عرض وتفسير المقطع :

الفقرة الأولى وتفسيرها :

﴿ **وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات** ﴾ أي : واذكر إذ اختبر إبراهيمَ ربُّه بأوامر ونواهٍ ﴿ **فأتمهن** ﴾ أي : قام بهن حق القيام وأدّاهن أحسن التأدية ، من غير تفريط ولا توان ، والابتلاء : هو الاختبار والاختبار منا لظهور ما لم نعلم ، ومن الله لإظهار ما قد

علم ، وعاقبة الابتلاء ظهور الأمر الخفي في الشاهد والغائب جميعاً ، فلذا تجوز إضافته إلى الله تعالى ، وللمفسرين في الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام كلام كثير ، وكل أقوالهم استنباط ، إما من خلال السياق ، أو من خلال قصة إبراهيم في القرآن ، أو من خلال ماقصه رسول الله ﷺ عن أبينا إبراهيم وهو كلام مفيد ولذلك سنعقد له فصلا . أما ههنا فنقول : « لقد وردت كلمة (بكلمات) مُنَكّرة للإشعار بأن الهدف من السياق هو تبيان قيام إبراهيم بما كلف به لا تبيان التكليف ، على أنه من الفقرة ، سنرى نموذجاً على قيام إبراهيم بما يكلف به من خلال قيامه ببناء البيت ﴿ **قال إني جاعلك للناس إماماً** ﴾ الإمام هو : من يؤتم به ويقتدى ، وإمامة إبراهيم مؤبدة يجمع عليها حتى المختلفون من أبناء الديانات الكتابية ، والظاهر أن إتمام إبراهيم عليه الصلاة والسلام الكلمات سبب الإمامة ، فكأنه كان نبياً ثم بإتمامه الكلمات أعطي منصب الرسالة مكافأة ، فالقيام بأمر الله كاملا هو الذي يرشح لمنصب الإمامة في دين الله ، فما أكثر خطأ الذين يتصدرون للإمامة عن غير طريقها . ﴿ **قال** ﴾ إبراهيم ﴿ **ومن ذريتي** ﴾ أي واجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم ، وذرية الرجل : أولاده ذكورهم وإناثهم فيه سواء ﴿ **قال لا ينال عهدي الظالمين** ﴾ اختلف المفسرون في تفسير العهد والظلم في هذه الآية ، فقد فُسر الظلم : هنا بالكفر والشرك ، وفُسر : بالظلم الذي هو مخالفة الشريعة ، فعلى الأول يكون المعنى لا ينال عهدي كافر . وعلى الثاني : لا ينال عهدي فاسق ، وفُسر العهد : بالنبوة والدين والأمر والطاعة والنجاة في الآخرة ، كما فُسر بالوعد بالإمامة وهو أحقها بالاعتماد . فالمعنى : أنه لا ينال الإمامة فى الدين ظالم ، والظلم نوعان : ظلم يتعدى الإنسان إلى غيره ، وظلم لنفسه ، وسنعقد من أجل إبراز ما يدخل في هذا النص أو من أجل رد الفهوم الخاطئة فيه فصولا .

قال ابن كثير : وقال ابن خويز منداد المالكي : « الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ، ولا حاكما ، ولا مفتياً ، ولا شاهداً ، ولا راوياً » .

فالمعنى العام للآية كما يفهم من مجموع كلام ابن كثير :

واذكرْ لهؤلاء المشركين ، وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها ، واذكرْ لهؤلاء وتذكرْ ابتلاء الله إبراهيم أي : اختباره بما كلفه به من الأوامر والنواهي ،فأتمهُنَّ : أي : قام بهن كلهن ؛ فاستحق بذلك منصب الإمامة جزاءً على ما فعل ، فكما قام بالأوامر وترك الزواجر ؛ جعله الله قدوة وإماماً يُقتدى به في الخير ،

فرغب إلى الله أن تكون الإمامة في بعض ذريته كذلك فأجيب لذلك ، لكنه أُخبر بأنه سيكون من ذريته ظالمون ، وأنه لا ينالهم عهد الله ، ولا يكونون أئمة ؛ فلا يقتدى بهم .

وبعد الآية الأولى تأتي في الفقرة هذه الآية :

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأَمْناً واتَّخِذوا من مقام إبراهيمَ مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهِّرا بيتيَ للطائفين والعاكفين والرُّكع السجود ﴾ .

كلمة في سياق هذه الآية :

تأتي هذه الآية بعد إعطاء إبراهيم منصب الإمامة ، وبعد إعطائه الوعد بأن يكون من ذريته أئمة ، فترينا هذه الآية مظهراً من مظاهر إمامة إبراهيم وواحد من ذريته ، وترينا نموذجاً على قيام إبراهيم وإسماعيل بما كُلفا به ، وترينا كذلك أن البيت الذي سيكون قبلة للمسلمين ومحجاً لهم إنما وُجد بإرادة تشريفية من الله وبأمره ، كما ترينا الحكمة من بناء البيت ، وترينا أنه في الأصل بني للطواف والعكوف والسجود ، وترينا أن الأمر صدر لإبراهيم وإسماعيل بتطهيره ، ففي الآية تصحيح لمفاهيم أهل الكتاب والمشركين في شأن البيت ، وتأسيس للرد على اليهود في شأن القبلة ، وتأنيب لمن ينجس البيت بالشرك بعد أن بُني في الأصل للتوحيد ، وفي ذلك تأنيب لمن روَّع المؤمنين وآذاهم وفتنهم ، حتى اضطروا أن يخرجوا من جواره ، وقد جعله الله مثابة للناس جميعاً وأمناً ، وفي ذلك دروس لما يستقبل من الزمان .

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً ﴾ البيت : الكعبة ، والمثابة : المباءة والمرجع للحجاج والعمَّار يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه ، والأمن هنا : مكان السلام . وقد فسر ابن عباس كون هذا البيت مثابة بقوله : « لا يقضون منه وطراً يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه » ، وقال غيره : « لا ينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قد قضى منه وطراً » ، وقال ابن زيد : « يثوبون إليه من البلدان كلها ويأتونه » ، وقال كثيرون من أئمة التفسير : إن المثابة : المجمع ، وعلى هذا القول يكون المعنى : أن الله عز وجل أراد أن يكون هذا البيت ملتقى للشعوب كلها ، وللأجناس كلها ، يجتمعون فيه ، فيتعارفون وينتفعون ، قائمين بأمر الله ، عابدين له موحِّدين معظِّمين شعائره ، وأما كون البيت أمناً فمن حيث : إن من دخله كان آمناً ، وقد كانوا في الجاهلية يُتخطَّف

الناس من حولهم وهم آمنون ، واستدل الحنفية بهذه الآية على مذهبهم بأن الجاني إذا أوى الحرمَ فلا يُتعرض له حتى يخرج ، لكنه يُلجأ إلى الخروج بمقاطعته . وسنعقد لموضوع الأمن عند البيت وحدوده واتجاهات العلماء فصلا .

ذكر في هذا النص : شرف هذا البيت ، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدراً من كونه مجمعاً للناس من كل أقطار العالم ، يعرف فيه بعضهم بعضاً ، ويألَف فيه بعضهم بعضاً ، ويستمع فيه بعضهم إلى بعض ، وينفع فيه بعضهم بعضاً ، وهو كذلك ، المكان الذي تشتاق إليه الأرواح وتحِنُّ إليه ، ولا تقضي منه وطراً ولو ترددت إليه كل عام ؛ استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام . ﴿ **فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم** ﴾ (سورة إبراهيم) كما وصفه تعالى بأنه جعله آمناً لمن دخله حتى الرجل في الجاهلية يلقى قاتل أخيه أو أبيه فلا يُهيّجه ، وقد فسَّر ابن عباس الأمن هنا بأن هذا البيت والقيام بحقه أمن لهذا العالم كله فلا يخرب ، **قال ابن عباس** : « لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض » **قال ابن كثير** : وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولا وهو خليل الرحمن .

﴿ **واتخِذُوا من مقام إبراهيم مصلًّى** ﴾ اختلف المفسرون في المراد بمقام إبراهيم ما هو : **قال ابن عباس** : « مقام إبراهيم الحرم كله ، مقام إبراهيم الحج كله » . **وقال سعيد بن جبير** : « الحجر مقام إبراهيم فقد جعله الله رحمة ، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة » **وقال السدي** : « المقام الحجَر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه » وهذا القول يلتقي مع الذي قبله في أن المراد بمقام إبراهيم هو الحجر الذي غاصت فيه قدما إبراهيم ، فكان آية ، وهو الحجر المعروف الآن ، والأدلة التي تعضد أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء البيت كثيرة ، من جملتها ، أنه هو الذي عليه عمل الناس وفهمهم خلال العصور ، إذ يطبقون هذا الأمر بصَلاتهم عند الحجر الذي عليه آثار قدمي إبراهيم ، ومنها ما ورد في الحديث الصحيح عن عمر : « قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلًّى ، فنزلت ﴿ **واتَّخِذوا من مقام إبراهيم مصلًّى** ﴾ ومنها ما في صحيح مسلم عن جابر قال : « استلم رسول الله ﷺ الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًّى) فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين » ومنها ظاهر قوله تعالى : ﴿ **فيه آيات بينات مقام إبراهيم** ﴾ وعلى هذا الاتجاه يكون المعنى : وقلنا اتخذوا من مقام إبراهيم موضع صلاة تصلون فيه .

وهل الحجر الآن في محله حيث تركه إبراهيم ؟ يذكر ابن كثير : أن الذي وضعه محله الآن إنما هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أما قبل ذلك فقد كان ملصقاً بجدار الكعبة ، فدل فعل عمر ، وصنيع الناس أن الحجر أياً كان من الكعبة ، فذلك مقام إبراهيم وعنده تكون الصلاة التي أمر الله بها في هذه الآية .

وفي فقه الحنفية « يجب على من طاف بالبيت أن يصلي ركعتين لكل طواف ، ويُسنُّ أن تكون هاتان الركعتان وراء مقام إبراهيم ، فإذا لم يتمكن الإنسان من الصلاة عند مقام إبراهيم صلَّى حيث أمكنه » .

﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهِّرا بيتيَ للطائفين والعاكفين والركَّع السجود ﴾ أي : أمرناهما أن يطهِّراه من الأوثان والخبائث والأنجاس كلها ، للدائرين حوله ، والمجاورين الذين عكفوا عنده ، أي : أقاموا لا يبرحونه ، أو المعتكفين والمصلِّين راكعين وساجدين . فالعهد هنا بمعنى الأمر ، وإنما عُدّي بإلى لأنه بمعنى : تقدمنا وأوحينا فتقدير الكلام : وتقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهِّرا بيتي من الشرك والريب ، وابنياه خالصاً لله ، معقلاً للطائفين والعاكفين والراكعين الساجدين . وقد فُهم من ذلك أن الطواف والعكوف والركوع والسجود كلها مما يتعبد الله عز وجل به في الحرم ، وقد اختلف الفقهاء أيهما أفضل عند البيت الصلاة النافلة أو الطواف النافلة ؟. **قال مالك** : الطواف به لأهل الأمصار أفضل **وقال الجمهور** : الصلاة أفضل مطلقاً .

قال العلماء : وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة ومن قوله تعالى في سورة النور : **﴿ في بيوت أذن الله أن تُرفع ويُذْكر فيها اسمه .. ﴾** ومن السنَّة من أحاديث كثيرة في الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك ، ولهذا قال عليه السلام : « إنما بنيت المساجد لما بنيت له » ومن قوله تعالى **﴿ والعاكفين ﴾** استدلوا على جواز النوم في المسجد : **قال ثابت** : قلنا لعبد الله ابن عبيد بن عمير : ما أراني إلا مكلم الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام ، فإنهم يجنبون ويُحدِثون : قال : لا تفعل فإن ابن عمر سئل عنهم فقال هم العاكفون **قال ابن كثير** : « وقد ثبت في الصحيح أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عزب » .

وهكذا رأينا في الآية ثلاث قضايا معطوفاً بعضها على بعض ومرتبطاً بعضها ببعض إذ

التقدير : ﴿ **وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً** ﴾ وقلنا : ﴿ **اتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى** ﴾ .

ثم بيَّن تعليل الأمر الثاني وكيف تم تنفيذ القضية الأولى :

﴿ **وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهِّرا بيتيَ للطائفين والعاكفين والركَّع السجود** ﴾ ومن العبارة الثالثة عرفنا لمَ جُعل البيت مثابة وأمنا ، وذلك من أجل الطواف والعكوف والركوع والسجود ، فمن كان في مكة أو ذهب إليها فعليه أن يلاحظ ذلك . وسنرى أنه بعد مقطع إبراهيم ومقطع القبلة سيأتي قوله تعالى : ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله** ﴾ وذلك استكمالا للسياق في عبادات الحرم . ولكن بعد أن يأخذ السياق مجراه في استكمال التقرير والحوار في القضايا الرئيسية التي يحتاجها السياق .

وهكذا رأينا في الآية الأولى من مقطع إبراهيم كيف قررت إمامة إبراهيم وسببها ، ورأينا في الآية الثانية إمامة الكعبة واختصاصها بشرف عظيم ، فللّه خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، يخص من شاء وما شاء بما شاء ، وإذ تتقرر إمامة البيت وإمامة إبراهيم ؛ يأتي الأمر لهذه الأمة باتخاذ مقام إبراهيم مصلّى وصلة ذلك بإمامة إبراهيم واضحة : ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير** ﴾ .

المعنى الحرفي :

واذكر إذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد أو هذا المكان بلداً ذا أمن ، وارزق المؤمنين بالله واليوم الآخر من أهله من الثمرات فقال الله تعالى جواباً له ﴿ **ومن كفر** ﴾ أي : وأرزق من كفر ﴿ **فأمتعه قليلا** ﴾ أي فأمتعه تمتيعاً قليلا ، أو زماناً قليلا إلى حين أجله ﴿ **ثم أضطره** ﴾ أي ألجئه إلى ﴿ **عذاب النار وبئس المصير** ﴾ الذي يصير إليه وهو النار . قاس إبراهيم عليه السلام الرزق على الإمامة ، فإذ أعلمه الله بخصوصية الإمامة في المؤمنين ، فإنه قطع كل عاطفة تربطه بغيرهم فلم يدعُ الله بالرزق إلا لهم ، فأخبره الله أنه يرزق الكافرين كما يرزق المؤمنين ، **قال ابن إسحق** : « لما عنَّ لإبراهيم الدعوة على من أبى اللهُ أن يجعل له الولاية ، انقطاعاً إلى الله ومحبة وفراقاً لمن خالف

أمره ، وإن كانوا من ذريته حين عرف أنه كائن منهم ظالم **لا** يناله **عهده** بخبر الله له بذلك ، قال الله تعالى : ﴿ **ومن كفر** ﴾ فإني أرزق البَّر والفاجرَ وأمتعه قليلا » **أقول** : ولذلك لم يكن الرزق علامة على القرب ، فكان ذلك استدراجاً في حق الكافر ، ومحل اعتبار من المؤمن ، وقد وافق دعاء إبراهيم بالأمن للبيت تقدير الله ، **فكان** البيت آمناً ، واستجاب الله عز وجل دعوة إبراهيم في رزق سكان الحرم ، **قال الألوسي** : « حتى إنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد » .

كلمة في السياق :

جاءت هذه الآية بعد آية العهد لإبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت ، وبعد آية إعطاء الإمامة لإبراهيم ، وقبل الآية التي تذكر الشروع ببناء البيت ، فدلتنا على أن إبراهيم (عليه السلام) وقد علم مكان البيت بالنسبة للعالم دعى لأهله بالأمن والرزق ، كما أرتنا نموذجاً على قيام إبراهيم بأمر الله ، فإنه لما علم أن عهد الله لا يناله الظالمون لم يدع إلا للمؤمنين بالرزق ، فالآية ترينا في سياقها نموذجاً على مسارعة إبراهيم في تنفيذ الأمر وقيامه بالأوامر والنواهي . وبعد أن عرَّفنا الله عز وجل على إرادته في جعل البيت مثابة وأمناً ، وعرَّفنا على رغبة إبراهيم في أن يعطي أهل الحرم رزقاً وأمناً ، تأتي الآية اللاحقة لتقص علينا بناء البيت ، ورغبات إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيانه ، ورغبتهما إلى الله في ذلك مما حققه الله عز وجل فيما بعد ، ومما يعاند أهل الكفر في شأنه بعد ذلك كما سنرى .

﴿ وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك ومن ذريتنا أُمة مسلمة لك وأَرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

المعنى الكلي : واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) البيت ، ورفعهما القواعد منه ، وهما يدعوان هذه الدعوات ، فهما في عمل صالح ، ويدعوان الله ، إذ الدعاء والإنسان في طاعة أمر الله مظنَّة إجابة ، ومجموع هذه الدعوات تُعبّر عن العواطف التي كانت تثور في أنفسهما آنذاك ، ومجموع ذلك هو : الرغبة في قبول العمل ، وفي قبول الذات بتوفيقها للإسلام في شأنها كله ، والرغبة في استمرار الإسلام في الذرِّية ،

وذلك تعبير عن الحرص على بقاء الإسلام ، والرغبة في التعرف على الشعائر التي يحبها الله ، والرغبة في مغفرة الله ، والرغبة في أن يبعث الله للذرية رسولًا يتلو عليها آيات الله ، ويعلمها كتاب الله وسُنَنَ الأنبياء ، ويطهرها من الأدران الحسيَّة والمعنوية ، وقد استجاب الله لهما ذلك كله :

المعنى الحرفي :

﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل** ﴾ البيت : الكعبة والقواعد : جمع قاعدة وهي الأساس والأصل لما فوقه ومعناها : الثابتة ، ورفع الأساس : البناء عليه ، لأنه إذا بني على القاعدة نقلت من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع وتطاولت بعد التقاصر ، وذكر القواعد مبهمة أولا ثم تبيانها بقوله ﴿ **من البيت** ﴾ تفخيم لشأن المبيَّن ، وإسماعيل معطوف على إبراهيم ، وكان إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة . **قال الألوسي** : « وآثر صيغة المضارع أي في قوله تعالى ﴿ **وإذ يرفع** ﴾ مع أن القصة ماضية .. استحضاراً لهذا الأمر ؛ ليقتدي الناس به في إتيان الطاعات الشاقة مع الابتهال في قبولها ، وليعلموا عظمة البيت المبني فيعظموه » وفي العرض من خلال الفعل المضارع ﴿ **يرفع** ﴾ مع الابتهالات : « ما يرينا مشهد تنفيذ إبراهيم وإسماعيل للأمر الذي تلقياه من ربهما بإعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركَّع السجود ، يرينا إياه مشهوداً كما لو كانت الأعين تراهما اللحظة وتسمعهما في آن » عن الظلال بتصرف ﴿ **ربنا تقبل منَّا إنك أنت السميع العليم** ﴾ أي قائلين : يا ربنا إنا تقربنا إليك ببناء هذا البيت ، فتقبل عملنا ؛ إنك أنت السميع لدعائنا ، العليم بضمائرنا ونياتنا .

قرأ وهيب بن الورد مرة هذه الآية ثم بكى وقال : « يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن ، وأنت مشفق أن لا يتقبل منك » ذكره ابن كثير ثم قال : « وهذا كما حكى الله عن حال المؤمنين الخلَّص في قوله تعالى (في سورة : المؤمنون) ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا** ﴾ أي يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿ **وقلوبهم وَجِلة** ﴾ أي خائفة أن لا يقبل منهم كما جاء به الحديث الصحيح عن عائشة عن رسول الله ﷺ » كما سيأتي في موضعه ﴿ **ربنا واجعلنا مسلمَيْن لك** ﴾ أي اجعلنا مستسلمين لك يقال : أسلم له واستسلم إذا خضع وأذعن ، **قال ابن جرير** : « واجعلنا مستسلمين لأمرك ، خاضعين لطاعتك ، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك ، ولا في العبادة غيرك » .

﴿ **ومن ذريتنا أُمَّة مسلمة لك** ﴾ قال السدي : يعنيان العرب . قال ابن كثير

« والسياق إنما هو في العرب ولهذا قال بعده ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم** .. ﴾ **قال النسفي** : « وإنما خصًّا بالدعاء ذريتهما لأنهم أولى بالشفقة » أقول : والذين لا يعطون العواطف البشرية العميقة في النفس البشرية حقها مخطئون ، فالحرج أن تتجاوز العواطف البشرية حدودها المشروعة ، أو تؤثر على النكوص عن أمر أو الوقوع في نهي ﴿ **وأرنا مناسكنا** ﴾ أي وَبصِّرنا متعبداتنا في الحج ، أو عرِّفنا إياها وواحد المناسك : مَنْسك بفتح السين وكسرها وهو المُتَعَبد ولهذا قيل للعابد ناسك أقول : وقد عَرَّف الله إبراهيم على المناسك ، وإن حجنا الحالي كله له صلة بإبراهيم وآله عليهم السلام كما سنرى ذلك . ﴿ **وتُبْ علينا** ﴾ ما فَرَط منا من التقصير . قالا ذلك هضماً لنفسيهما وإرشاداً لذريتهما وللخلق ﴿ **إنك أنت التواب** ﴾ لمن تاب ﴿ **الرحيم** ﴾ بعباده ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم** ﴾ أي من الذرية أي وأرسل فيهم رسولا لهم من أنفسهم ، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدَر الله السابق في تعيين محمد ﷺ رسولا في الأميِّين إليهم ، وإلى سائر الأعجمِين من الإنس والجن ، فكانت دعوة مستجابة ﴿ **يتلو عليهم آياتك** ﴾ أي يقرأ عليهم ويبلغهم ما توحي إليه من دلائل وحدانيتك ، وصدق أنبيائك ورسلك ﴿ **ويعلمهم الكتاب** ﴾ ، قال الألوسي « بأن يفهمهم ألفاظه ويبين لهم كيفية أدائه ويوقفهم على حقائقه وأسراره ، والظاهر أن مقصودهما من هذه الدعوة أن يكون - الرسول - صاحب كتاب يخرجهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، وقد أجاب سبحانه هذه الدعوة بالقرآن » أقول : كانت هذه الدعوة قبل إنزال التوراة على موسى (عليه السلام)بسنين طويلة ، وهذا يقتضي إما أنهما دعَوَا بذلك بإخبار من الله تعالى أنه سيُنزل كتباً ، أو بمعرفة عن الكتب ، وعلى القول الثاني فإن احتمال أن يكون هناك كتب منزلة من الله قبل التوراة والزبور والإنجيل يبقى قائماً ، وإن كثيراً من الأمم كأهل الهند وفارس تدَّعي وجود كتب مقدسة عندها ، فهل لهذه الكتب أصل ، ثم طرأ عليه ما طرأ ؟ موضوع قابل للدراسة ، وإن دراسة مستوعبة مقارنة شاملة يمكن أن توصلنا إلى بعض الحقائق مع الاحتراس الكثير ﴿ **والحكمة** ﴾ أي : ويعلمهم الحكمة وهي : وضع الأشياء في مواضعها : سواء كانت دنيوية أو أخروية ، وإذ كانت الحكمة هي ما سوى الكتاب من تعليم الرسل ، فإن كل ما علَّمنا إياه رسول الله ﷺ يُسمَّى حكمة ، ومن ثَمَّ فسر بعضهم الحكمة بالسنَّة وفسر ابن إسحاق دعوة إبراهيم وإسماعيل بتعليم الكتاب والحكمة بقوله : « يعلمهم الخير فيعقلوه ، والشر فيتقوه ، ويخبرهم برضى الله عنهم إذا أطاعوه ، ليستكثروا من طاعته ، ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته » أقول فكأنه فسر

الكتاب بالفرائض والحكمة بالسلوك الصحيح ﴿ **ويُزكِّيهم** ﴾ أي : ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس الحسية والمعنوية أقول : دل ذلك على أن شأن الوارث الكامل للرسل أن يعلّم الكتاب ، ويربي على السلوك الحكيم ، ويطهّر الأنفس من شركها وأمراضها ، فمن فاته شيء من ذلك ؛ فاته شيء من الوراثة ﴿ **إنك أنت العزيز** ﴾ أي الغالب الذي لا يُغلب ، والذي لا يعجزه شيء ، وهو قادر على كل شيء ﴿ **الحكيم** ﴾ في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله .

وبهذا تنتهي الفقرة الأولى من مقطع إبراهيم « وقد أعطتنا دلالات وإيحاءات ، وعلى ضوء هذه الدلالات والإيحاءات تأتي الفقرة الثانية لتواجه الذين ينازعون الأمة المسلمة الإمامةَ ، وينازعون الرسول ﷺ النبوةَ والرسالة ، ويجادلون في حقيقة دين الله الأصيلة الصحيحة » عن الظلال بتصرف .

فوائد :

١ - قال ابن كثير : « وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة فقيل : الملائكة قبل آدم ... وقيل : آدم ... وروي عن ابن عباس وكعب الأحبار وقتادة وعن وهب ابن منبه أن أول من بناه شيث عليه السلام ، وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب ، وهي مما لا يُصدّق ولا يكذَّب ولا يعتمد عليها بمجردها ، وأما إذا صح حديث من ذلك فعلى الرأس والعين » .

٢ - روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قصة إسماعيل وإبراهيم ومنها ما له علاقة ببناء البيت . « قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعينني ؟ قال : وأُعينك ، قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً (وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ﴿ **ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾ .

٣ - أخرج الإمام أحمد عن أبي أُمامة قال : « قلت يا رسول الله .. ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى بي ، ورأتْ أُمِّي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام .. » قال ابن كثير : وقوله : (ورأت أُمِّي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام) قيل : كان مناماً رأته حين حملت به ، وقَصّته على قومها

فشاع فيهم واشتهر بينهم ، وكان ذلك تَوْطئة ، وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلا للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم ، إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها ، ولهذا جاء في الصحيحين « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيَ أمر الله وهم كذلك » وفي صحيح البخاري « وهم بالشام » .. ا هـ . أقول : والمراد ببدء أمره عليه الصلاة والسلام أي بدء ظهور أمره في هذا العالم وأقول : إن للشام لرسالة وإن على أهلها لواجباً .

٤ - وقال صاحب الظلال تعليقاً على دعوة إبراهيم وإسماعيل في أن يبعث الله في ذريتهما رسولا : « وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هي بعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون وقرون .... إن الدعوة المستَجابة تُستجاب ولكنها تتحقق في أوانها الذي يقدره الله بحكمته ، غير أن الناس يستعجلون ، وغير الواصلين يملُّون ويقنطون » .

كلمة في السياق :

انتهت الفقرة الأولى من مقطع إبراهيم وقد تقررت فيها إمامة إبراهيم وسببها ، وإمامة بعض ذريته ، وتقررت فيها إمامة البيت ، وبعض الآداب فيه ومعه ، وتقررت فيها مجموعة الرغبات التي كانت في قلب إبراهيم وإسماعيل ، والتي تمثلت بدعوات ، وإذ كان إبراهيم إماماً فإن هذه الرغبات لكل منها وزنه العظيم .

والقضيتان الكبيرتان في الفقرة هما الإسلام والبيت ، والفقرتان اللاحقتان في هذا المقطع تناقشان الراغبين عن الإسلام والداعين لغيره . وسيأتي المقطع اللاحق ليكون فيه كلام عن اتخاذ البيت قبلة ولم نخرج من الفقرة الأولى إلا وقد اتضح موضوع الإسلام ، والأمة المسلمة ، التي سيتجدد ظهورها فيما بعد ، بذرية إبراهيم وإسماعيل من العرب ، ليشكلوا نواة الأمة الإسلامية في العالم بعد غياب ، بالقائد والمنشىء والمربي رسول الله محمد ﷺ .

الفقرة الثانية في مقطع إبراهيم عليه السلام :

قلنا الفقرتين التاليتين في مقطع إبراهيم كلتاهما تناقش موضوع الإسلام .

إحداهما تناقش الراغبين عنه ؛ ولذلك تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلا من سَفِهَ نفسه** ﴾ .

والثانية : تناقش الداعين إلى غيره ؛ ولذلك فإنها تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً ..** ﴾ فنحن الآن إذن في الفقرة التي تناقش الراغبين عن الإسلام : ﴿ **ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلا من سَفِهَ نفسه** ﴾ هذا استفهام فيه معنى الإنكار والاستبعاد أن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح ، الذي هو ملة إبراهيم ، والملّة : هي السنَّة والطريقة وقوله ﴿ **إلا من سَفِهَ نفسه** ﴾ أي جهل نفسه فظلمها بسَفَهِه ، وسوء تدبيره ؛ بتركه الحق إلى الضلال ، حيث خالف طريق من اصطفاه الله في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سِنِّه ، إلى أن اتخذه الله خليلا ، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء ، فمن ترك طريقه ومسلكه وملّته ، واتبع طرق الضلالة والغيّ ، فأي سَفَهٍ أعظم من سفَهِه ؛ أم أي ظلم أكبر من ظلمه ؛ كما قال تعالى (في سورة لقمان) : ﴿ **إن الشركَ لَظلمٌ عظيم** ﴾ . ﴿ **ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لَمنَ الصالحين** ﴾ هذا بيان لخطأ رأي من يرغب عن ملة إبراهيم ، لأن مَن جمع كرامة الدارين لم يكن أحد أولى بالرغبة في طريقته منه ﴿ **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين** ﴾ . هذا بيان لسبب الاصطفاء أنه أُمر بالإسلام والاستسلام لله فأسلم واستسلم ، والإسلام فيه معنى التسليم والإذعان والطاعة والإخلاص لله .

فوائد :

١ - اصطفاء إبراهيم في الدنيا أي : اختياره بالرسالة واجتباؤه من سائر المخلوقات ، وكونه في الآخرة من الصالحين شهادة له بفعل الصلاح ، والثبات على الاستقامة والخير والصلاح ، فاجمع له الكمالات الدنيوية والأخروية . فالسفيه وحده أي : الجاهل الخفيف العقل هو الذي يرغب عن طريقٍ فيه خير الدنيا والآخرة .

٢ - ذهب أبو العالية وقتادة : « أن هذه الآية نزلت في اليهود ؛ أحدثوا طريقاً ليست من عند الله ، وخالفوا ملّة إبراهيم فيما أحدثوه » والقاعدة أن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ ، فما من إنسان يرغب عن ملّة إبراهيم إلا جاهل لنفسه ، إذ الوضع الصحيح للنفس أن تكون مستسلمة لله علماً وحالا وسلوكاً ، وكان إبراهيم إماماً في ذلك ، فالرغبة عن هذه الطريقة لا تكون إلا أثراً عن الجهل والسفَه والطيش .

كلمة في السياق :

١ - مر معنا في مقدمة سورة البقرة عن المنافقين قوله تعالى :

﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناسُ قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾ وسيأتي معنا في أول المقطع اللاحق مقطع القبلة قوله تعالى : ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهُم عن قبلتهم التي كانوا عليها** ﴾ . وفي هذه الفقرة تحدد معنا معنى السفهاء بما لا يقبل لبساً ، ألا وإنهم الراغبون عن الإسلام لله رب العالمين .

٢ - إن الاستسلام لله رب العالمين هو ملَّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فمهما أمر به الله أو نهى عنه أو اختاره ، فعلى الإنسان أن يستسلم له ، وقد اختار الله محمداً ﷺ وأنزل عليه الكتاب والحكمة ، وعلى الإنسان أن يستسلم لله في ذلك ، ومن لم يفعل فإنه من السفهاء كائناً من كان .

٣ - ولقد احتج اليهود من قبل في رفضهم الإيمان بالقرآن ؛ بأنهم يؤمنون بما أُنزل عليهم ، وتستكمل الحجة عليهم فيما يأتي من هذه الفقرة ، بأن وصية إبراهيم وإسحق ويعقوب ، الإسلامُ والتوحيدُ ، فعليهم أن يُسلموا ، ولا ينفعهم انتسابهم للصالحين إن كانوا كافرين .

﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه** ﴾ أي وصَّى بهذه الملَّة وهي الإسلام لله ، أو وصَّى بهذه الكلمة وهي ﴿ **أسلمت لله رب العالمين** ﴾ إبراهيم بنيه لحرصه عليها ومحبته لها ، حافظ عليها إلى حين الوفاة ، ووصَّى بنيه بها من بعده كقوله تعالى (في سورة الزخرف)﴿ **وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون** ﴾ ، ﴿ **ويعقوب** ﴾ هو معطوف على إبراهيم داخل في حكمه والمعنى : ووصَّى بها يعقوب بنيه أيضاً ، ﴿ **يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون** ﴾ هذه هي الوصية للأبناء ، وإذن يُقدّر قبل : ﴿ **يا بَنِيَّ** ﴾ قول محذوف فيكون التقدير : قال « يا بَنِيَّ إن ... » ومعنى هذه الوصية : إن الله أعطاكم الدين الذي هو صفوة الأديان وهو دين الإسلام ، ووفقكم للأخذ به ، فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام ، قال ابن كثير في تفسير هذه الوصية : « أي : أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه ، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه ، ويبعث على ما مات عليه ، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وُفِّق له ويُسِّر عليه ، ومن نوى صالحاً ثبت عليه ، وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة

حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو ذراع - فيسبق عليه الكتاب ؛ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو ذراع - فيسبق عليه الكتاب ؛ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث : « ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس » ، وقد قال الله تعالى (في سورة الليل)﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدَّق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأمَّا من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى** ﴾ ا هـ . كلام ابن كثير .

﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون** ﴾ .

﴿ **أم** ﴾ على الراجح في الآية أنها منقطعة بمعنى بل ، والهمزة للإنكار ، ومعنى (بل) الانتقال عن الكلام الأول وهو التوصية - إلى توبيخ اليهود على ادعائهم أنّ يعقوب وأبناءه دينهم اليهودية ، وفائدته الانتقال من جملة إلى أخرى : أي ما ﴿ **كنتم شهداء** ﴾ أي حاضرين ﴿ **إذ حضر يعقوب الموت** ﴾ حين احتضاره عليه الصلاة والسلام ، وسؤاله بنيه عن الدِّين فلِمَ تدعون ما تَدَّعون ؟ ! قال ابن كثير في الآية : « يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب - أبناء إسماعيل - وعلى الكفار من بني إسرائيل -وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، عليهم السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة ﴿ **إذ حضر يعقوبَ الموتُ** ﴾ وصَّى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له ﴿ **إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلَهك وإلَه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق** ﴾ وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمُّه ، قال النحاس : والعرب تسمي العم أباً نقله القرطبي ... ﴿ **إلهاً واحداً** ﴾ أي نوحده بالألوهية ولا نشرك به غيره ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾ أي مطيعون خاضعون ... والإسلام هو ملَّة الأنبياء قاطبة ، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم » ا هـ . ثم قال تعالى ﴿ **تلك أُمَّة قد خلت** ﴾ الإشارة في ﴿ **تلك** ﴾ إلى إبراهيم عليه السلام وأولاده والأمة هنا بمعنى : الجماعة ﴿ **قد خلت** ﴾ أي قد مضت ﴿ **لها ما كسبت ولكم ما كسبتم** ﴾ أي : إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين ، لا ينفعكم انتسابكم إليهم ؛ إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم ، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم ﴿ **ولا تسألون عما كانوا يعملون** ﴾ أي لا تؤاخذون بأعمالهم ، نصت الآية على أن الكافر لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أم متأخراً ، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا فكذلك أنتم لا ينفعكم

إلا ما اكتسبتم ؛ وذلك لافتخارهم بآبائهم . وفي الحديث الذي رواه مسلم « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

وبهذا استكملت الحجة على الراغبين عن دِين إبراهيم ، ومن رغب عن الإسلام الذي أُنزل على محمد ﷺ فقد رغب عن ملة إبراهيم . ﴿ **إن أولى الناس بإبراهيم لَلذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله وَليُّ المؤمنين** ﴾ .

فائدة :

- استدل بقوله تعالى ﴿ **قالوا نعبد إلَهك وإلَه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق** ﴾ من جعل الجد أبا (في حال وفاة الأب) وحجب به الإخوة في الإرث ، كما هو قول الصدِّيق ، حكاه البخاري عنه ، من طريق ابن عباس وابن الزبير ثم قال البخاري : ولم يُختلف عليه ، وإليه ذهبت عائشة أم المؤمنين ، وبه يقول الحسن البصري وطاووس وعطاء ، وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحد من السلف والخلف ، وقال مالك والشافعي وأحمد فى المشهور عنه : إنه يقاسم الإخوة واختاره صاحبا أبي حنيفة : أبو يوسف ومحمد بن الحسن .

كلمة في السياق :

بالفقرة السابقة تنتهي مناقشة الراغبين عن دين إبراهيم ، وخاصة أصحاب دعوى الانتساب إليه ، مع انحرافهم عن التوحيد والإسلام والعبادة الخالصة . وقد ذكَّرنا قوله تعالى - حكاية عن أبناء يعقوب (عليه السلام) : ﴿ **نعبد إلَهك وإلَه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون** ﴾ ببداية هذا القسم كله ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم .... فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ فالأمر الذي وُجِّه للناس جميعاً بالعبادة والتوحيد تأتي المقاطع لتعمّقه ، ولم يبق من مقطع إبراهيم إلا الفقرة الأخيرة ، وهي التي تناقش الداعين إلى غير ملة إبراهيم ، بعد أن ناقشت الفقرة السابقة الراغبين عن ملّته ، وتختم بالآية نفسها التي ختمت بها الفقرة السابقة :

الفقرة الثالثة في مقطع إبراهيم عليه السلام :

﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملَّةَ إبراهيم حنيفاً وما كان من**

المشركين ﴾ أي قالت اليهود : كونوا يهوداً تهتدوا ، وقالت النصارى : كونوا نصارى تهتدوا ، والجواب ﴿**قل بل ملَّةَ إبراهيم حنيفاً** ﴾ الحنيف : هو المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ، وقد رأينا في الفقرة السابقة أن ملة إبراهيم هي الإسلام ، فالاستسلام لله واتباع هداه هو الهدى لا دعاواهم ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ بل من المَوحدين ، هذا تعريض بأهل الكتاب وغيرهم ، لأن كلا منهم يدَّعي اتباع ملة إبراهيم وهو على الشرك ، بينت الآية أن الهداية في الاستسلام لله وعدم الشرك به ، وبدون ذلك فلا هداية ، وهؤلاء وهؤلاء ليسوا مسلمين وليسوا موحدين ، فأنَّى يكونون مهتدين ، وكيف يزعمون أن الهداية عندهم ويدعون إليها ، روى محمد بن إسحق عن ابن عباس قال : قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبِعنا تهتدِ . وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله ﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا** ... ﴾ **قال قتادة** : « الحنيفية : شهادة أن لا إله إلَّا الله ، يدخل فيها تحريم الأمَّهات ، والبنات ، والخالات ، والعمَّات ، وما حرم الله – عز وجل – والختان » أقول : الحنيفية : هي موافقة الفطرة بالتوحيد ، وترك ما نهى الله عنه ، وفعل ما أمر به ، ذلك مقتضى العهد الأول .

كلمة في السياق :

في هذه الآية الأولى من هذه الفقرة جاء الرد على زعم اليهود والنصارى ، أن الهدى عندهم فجاء الرد عليهم : بأن الهداية في ملَّة إبراهيم ، واستكمالًا للرد واستكمالًا لإقامة الحجة ، يأمر الله هذه الأمة أن تعلن إيمانها بكل هدى أنزله الله ، من لدن إبراهيم إلى محمد ﷺ إلى ما قبل ذلك ، وأن تعلن استسلامها لله عز وجل ، تلك هي الهداية الكاملة لا مزاعم اليهود والنصارى .

﴿ **قولوا آمنَّا بالله وما أُنزل إلينا** ﴾ الخطاب للمؤمنين ، وما أُنزل إلينا هو القرآن ﴿ **وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط** ﴾ السبط : هو الحفيد والأسباط : هم حفدة يعقوب ذراري أبنائه الإثنى عشر . **قال البخاري** : الأسباط : قبائل بني إسرائيل وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل ، ونحن مأمورون بأن نؤمن بالوحي الذي أنزل على أنبيائهم ﴿ **وما أُوتيَ موسى وعيسى** ﴾ أوتي موسى التوراة ؛ فنحن نؤمن بذلك ، وأوتي عيسى الإنجيل ؛ فنحن نؤمن بذلك ، أخرج ابن أبي حاتم .. عن معقل بنِ يسار قال : قال رسول الله ﷺ : « آمِنوا بالتوراة والإنجيل وليسعكم القرآن » ﴿ **وما أُوتيَ النبيون من ربهم** ﴾ أرشد الله عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أُنزل إليهم

بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلا ، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملا ، ونص على أعيان من الرسل ، وأجمل ذكر بقية الأنبياء ﴿ **لا نفرِّق بين أحد منهم** ﴾ أي نؤمن بهم جميعاً فلا نفعل ما فعلت اليهود والنصارى آمَنوا ببعض وكفروا ببعض ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾ أي ونحن لله مستسلمون ، والاستسلام لله هو ذروة الإخلاص .

يقول صاحب الظلال تعليقاً على هذه الآية : « تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعاً ، وبين الرسل جميعاً ، هي قاعدة التصور الإسلامي ، وهي التي تجعل من الأمة المسلمة ، الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض ، الموصولة بهذا الأصل العريق ، السائرة في الدرب على هدى ونور ، والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي ، الذي يملك الجميع الحياة في ظله ، دون تعصب ولا اضطهاد ، والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً في مودة وسلام ، ومن ثمَّ يقرر السياق الحقيقة الكبيرة ، ويُثَبِّت عليها المؤمنين بهذه العقيدة حقيقة أن هذه العقيدة هي الهدى من اتبعها فقد اهتدى ، ومن أعرض عنها فلن يستقر على أصل ثابت ، ومن ثَمَّ يظل في شقاق مع الشيع المختلفة التي لا تلتقي على قرار ». ﴿ **فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى : فإن امنوا يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ، فقد اهتدوا أي : فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه ﴿ **وإن تولوا** ﴾ عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿ **فإنما هم في شقاق** ﴾ أي في خلاف وعداوة ﴿ **فسيكفيكهم الله** ﴾ أي فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ، هذا ضمان من الله لإظهار رسوله عليهم ، وقد أنجز وعده بقتل بعضهم وإجلاء بعضهم ، والوعد لازال مستمراً ومعنى (السين) أن ذلك كائن لا محالة ولو تأخر إلى حين ﴿ **وهو السميع** ﴾ لما يضمرون من الحسد والغل ، وهو معاقبهم عليه ، فهو وعيد لهم ، أو وَعْد لرسول الله ﷺ ، أي يسمع ما تدعو به ، ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق ، وهو مستجيب لك ، وموصلك إلى مرادك ﴿ **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون** ﴾

هذه تتمة الحجة في الرد على الداعين إلى ترك ملة إبراهيم إلى يهودية أو نصرانية ، فتقدير الكلام على رأي بعض المفسرين إما : قولوا صبغنا الله صبغة أو قولوا : صبغة الله ، أو بل صبغة الله ، على البدل من ملة إبراهيم أي : بل ملة إبراهيم ، بل صبغة الله ، وعلى كل هذه الأقوال فإن هذه الآية استمرار للرد على دعاة اليهودية والنصرانية ومزاعمهم ، أن الهدى عندهم ، أمرنا أن نعلن أن الهداية في ملّة إبراهيم ونحن عليها ، وأمرنا أن نعلن إيماننا بكل

وحي أنزله ، وأمرنا أن نعلن أن ما نحن عليه هو صبغة الله ، وأنه لا أحسن من ذلك ، وأننا مخلصون له العبادة فمن اجتمع له ذلك فهو على الهداية الكاملة ، لا من زعم أن الهداية عنده بلا دليل .

من عادات النصارى أنهم يغمسون أولادهم بماء يسمونه :المعمودية ، ويقولون عنه : إنه تطهير لهم فإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال الآن صار نصرانيا حقا . يقول شارل جنيبير في كتابه (المسيحية وتطورها) عن التعميد هذا : « فإذا ما آمن الإنسان به (أي بالمسيح) أقيمت له مراسم التعميد ، وهي طقوس يهودية الأصل تبناها المسيحيون ....تَعقّد الدخول في الكنيسة المسيحية بفعل نمو الطقوس التي شملت شيئا فشيئا جميع المجالات الدينية .... وأصبح التعميد نفسه احتفالا مُعقَّداًيشتمل – على أقل تقدير – على مجموعة من التعليمات الخاصة ، وعلى الغسل بالماء الذي يكرر ثلاثا ، وعلى إجراء اللمس باليد الذي يصاحبه المسح بالزيت المقدس (المسح بالزيت تقليد من تقاليد اليهود كما يقول المؤلف) ثم ينتهي إلى طقوس القربان الأول .... وليس من العسير علينا أن نكشف عن روح الأسرار الهيلينية فى هذا التعليم التدريجى .... » فأمَرَ المسلمون بهذه الآيات أن يقولوا لهم : آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغته ، فعلى هذا الاتجاه في الفهم تكون (صبغة الله) هنا حديثا عن أثر الإيمان الذى أُمر به المسلمون في الآية (قولوا آمنا ....) فالإيمان الصحيح الشامل يطهِّر النفوس ، فتصبح هذه الأنفس بالإيمان ذات لون رباني . قال البيضاوي ذاكرا بعض اتجاهات المفسرين في تفسير (صِبغة الله) « .... أو طَهَّر قلوبنا بالإيمان تطهيره وسماه : صبغة ، لأنه ظهرأثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ ، وتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ الثوب ، أو للمشاكلة فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون : هو تطهير لهم وبه تتحقق نصرانيتهم.... » وهناك اتجاه في تفسير الآية أن المراد بصبغة الله دينه ، فهذا الدين الذى أنزله على محمد ﷺ هو الذي صبغه هذه الصبغة ، فهو أثر مباشر عن الله

﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾

أي : لا دين أحسن من دينه ، أولا تطهير أحسن من تطهيره الذي تأخذ به الأنفس لونها الصحيح **﴿ ونحن له عابدون ﴾** قال البيضاوي : (هذا) تعريض لهم أي : لا نشرك به كشرككم .. ، فنحن قائمون بعبادته كما أمر ، معطون العبودية له كما يحب ، وهذا مفترق الطريق بين المسلم وغيره ، المسلم يعتبر أن مقامه الصحيح هو في العبودية لله ، وغير المسلم يعتبر نفسه حراً ، فلا عبودية ولا عبادة ، أو عبودية وعبادة في

غير محلهما الصحيحين . لقد صبغَنا الله بالإيمان صِبغَته ، فالحمد لله رب العالمين .

كلمة في السياق :

لقد رأينا أن هذه الفقرة رد على الداعين لغير ملَّة إبراهيم ، وهذا الرد يأتي على مرحلتين : المرحلة الأولى هي ما مر معنا ، ثم بعد ذلك تأتي المرحلة الثانية : وهي الآيات الأخيرة في الفقرة فصار التسلسل : ﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا** .. ﴾ .

﴿ **قل بل ملَّةَ إبراهيم** ... ﴾ . ﴿ **قولوا آمنا** ... ﴾ . ﴿ **صبغة الله** ... ﴾ .

هذه المرحلة الأولى في الرد ، والمرحلة الثانية تبدأ بقوله تعالى :

﴿ **قل أتحاجُّوننا في الله** ... ﴾ فهذا وما بعده من الفقرة تتمة الجواب على قولهم الذي بدأت به الفقرة فلنَر تفسير تتمة الفقرة :

﴿ **قل أتحاجُّوننا في الله** ﴾ أي أتجادلوننا وتناظروننا في شأن الله وهدايته واصطفائه من شاء ، كاصطفائه النبي ﷺ من العرب دونكم ، وتقولون لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا ،وترون أنكم أحق بالنبوة منا ﴿ **وهو ربنا وربكم** ﴾ أي نشترك جميعاً في أننا عباده ، وهو ربنا ، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده ﴿ **ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾ يعني أن العمل علامة ودليل ، أنتم لكم أعمال ولنا أعمال ، ومن تأمل أعمالنا وأعمالكم عرف المستقيم على أمر الله من المنحرف ﴿ **ونحن له مخلصون** ﴾ هذه هي العلامة الثانية على أننا أهل الهداية لا أنتم والمعنى : ونحن له مُوَحِّدون ، نخصّه بالإيمان وأنتم به مشركون ، والمخلص أحرى بالكرامة وأولى بالهداية ، فنحن المهتدون لا أنتم ، قال البيضاوي : « روي أن أهل الكتاب قالوا : الأنبياء كلهم منا فلو كنتَ نبياً لكنتَ منا ، فنزلت : ﴿ **قل أتحاجّوننا في الله وهو ربنا وربكم** ﴾ لا اختصاص له بقوم دون قوم ، يصيب برحمته من يشاء من عباده ﴿ **ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾ فلا يبعد أن يكرمنا بأعمالنا ، كأنه ألزمهم (أي الحجة) على كل مذهب ينتحونه إفحاماً وتبكيتاً ، فإن كرامة النبوة إما تفضل من الله على من يشاء – والكل فيه سواء – وإما إفاضة حق على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلي بالإخلاص ، فكما أن لكم أعمالا ربما يعتبرها الله في إعطائها ، فلنا أيضاً أعمال ﴿ **ونحن له مخلصون** ﴾ أي : موحدون نخلص بالإيمان والطاعة دونكم » . وقد رد الألوسي اتجاه البيضاوي هذا ،

معتبراً أن القول الأقوى ، هو في كون اليهود والنصارى ادّعوا أن الدين الحق اليهودية والنصرانية ، وبنوا دخول الجنة والاهتداء عليهما ، فجاء الرد عليهم من خلال الحديث عن ربوبيته ، وصلاح أعمالنا وفساد أعمالهم ، وإخلاصنا في العمل له » ومما يمكن أن يقال : إن الله علمنا إلزامهم الحجة من خلال الإخلاص وحده في الآية ، وذلك أنهم مشركون ، وأنهم يعملون رياءً وسمعة ، وخضوعاً لضغوط اجتماعية وغيرها ، فالله رب الجميع ، ولكل عمله ، ولكنا مخلصون وأنتم غير مخلصين ، فلا تدعوا أن الله لكم ومعكم وأنتم كذلك ، وتكون المحاجة بيننا وبينهم في أن الله معنا أو معهم ، لنا أو لهم ، ومن تأمل لغة اليهود والنصارى حتى الآن ، أدرك أن لغتهم الحديثة ، هي لغتهم القديمة ، في دعوى أن الله لهم ومعهم ، مع أن إيمانهم بالربوبية مخدوش ، وأعمالهم منقوضة ، وإخلاصهم معدوم ؛ لأن الإخلاص عمل لله وبالله ، وفيما شرع الله ، وأنَّى لهم ذلك كله ، ثم تأتي الآية اللاحقة فتستكمل الحجة :

﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ﴾ أي : أتحاجوننا في الله ... فأنتم مغلوبون في زعمكم أنكم المهتدون ، **﴿ أم تقولون إن إبراهيم ... ... كانوا هوداً أو نصارى ﴾** حتى تنحصر الهداية فيكم فأنتم كاذبون لأن هؤلاء كانوا قبل اليهودية والنصرانية ، والله شهد بأن دينهم الإسلام ، هذا إذا اعتبرنا أن (أم) في هذه الآية معادلة للهمزة الموجودة في الآية السابقة عليها ، وهو اتجاه للمفسرين ، وعلى هذا الاتجاه يكون الاستفهام في الآية السابقة وهذه الآية إنكارياً . قال الألوسي : « والمراد بالاستفهام إنكارهما معاً بمعنى : كل من الأمرين منكر ينبغي ألا يكون إقامة الحجة وتدوير البرهان على حَقِيّة ما أنتم عليه – والحال ما ذكر – والتشبث بذيل التقليد والافتراء على الأنبياء عليهم السلام » .

وفائدة هذا الأسلوب – مع أن العلم حاصل بثبوت أحد الأمرين ، الإشارة إلى أن أحدهما كافٍ في الذم ، فكيف إذا اجتمعا ، كما تقول لمن أخطأ تدبيراً ومقالاً : « أتدبيرك أم تقريرك » . وعلى القول بأن (أم) منقطعة أي بمعنى الهمزة وبل ، يكون التقدير : « بل أتقولون إن إبراهيم وإسماعيل .. » فيكون المعنى أنكم تحاجُّون في الله من خلال دعواكم أنكم على الهداية ، فأنتم في هذه الدعوى تزعمون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط عليهم الصلاة والسلام ، كانوا هوداً أو نصارى ؛ لأنكم تعتقدون هدايتهم ، فذلك زعم منكم أن هؤلاء كانوا على اليهودية أو النصرانية ، وذلك زعم باطل وسنرى في سورة (آل عمران) التي هي تغطية لمعانٍ في

سورة البقرة كيف يأتي قوله تعالى ﴿ **ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا** .. ﴾ وبهذا استكملت الحجة على اليهود والنصارى ، في زعمهم أن الهداية عندهم و(**أم**) على القول الراجح معادلة للهمزة في (أتحاجوننا) ، يعني : أي الأمرين تأتون ؟ المحاجة في الله ، أم ادّعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء المذكورين ، فإذا حاججتمونا في الله تبين أننا المهتدون ، وإذا ادعيتم أن الهداية محصورة في اليهودية والنصرانية فهذا كذب ، فهل كان هؤلاء المذكورون على يهودية أو نصرانية ؟ ولا يهودية إلا من بعد موسى ، ولا نصرانية إلا من بعد عيسى ، فالهداية إذن هداية الله التي يخصّ بها من شاء ، الأمر أمره والوحي وحيه ، ثم قال : ﴿ **قل أأنتم أعلم أم الله** ﴾ بل الله أعلم بمن اهتدى ، وأعلم بمن يهدي ، وأعلم بخبر أنبيائه المذكورين ، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى .
قال الألوسي : أي لستم أعلم بحال إبراهيم عليه السلام في باب الدِّين ، بل الله تعالى أعلم بذلك ، وقد أخبر سبحانه بنفي اليهودية والنصرانية عنه ، واحتج على انتفائهما عنه بقوله ﴿ **وما أُنزِلت التوراة والإنجيل إلا من بعده** ﴾ وهؤلاء المعطوفون عليه أتباعه في الدين وفاقاً ، فحالهم حاله فلِمَ تدّعون له ولهم ما نفى الله تعالى ؟ فما ذلك إلا جهل غالٍ ولجاج محض ، ثم قال تعالى ﴿ **ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله** ﴾ أي : لا أحد أظلم ممن كتم شهادة ثابتة عنده ، واصلة من الله إليه ، وهي شهادته تعالى لإبراهيم بالحنيفية ، أو شهادتهم التي عليهم أن يؤدوها في حق محمد ﷺ الذي بشّرت به التوراة والإنجيل ، وعلى كل فالآية فيها تعريض بهم ؛ إذ إنهم يعرفون أن محمداً رسول الله ، بشّرت به التوراة والإنجيل ، وكان عليهم أن يشهدوا له ويتابعوه فلم يفعلوا فليس أشد في الظلم من هذا ، أن يكتم الشهادةَ الشهودُ .

عرفوه وأنكروه وظلماً		كتمته الشهادة الشهداء .

وهم يعرفون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ... كانوا على الإسلام لله ، وهم يكتمون هذا ، ويدَّعون أن هؤلاء كانوا يهوداً أو نصارى ، فلا أظلم منهم ، حمَّلهم الله الشهادة فكتموها ، أو شهد الله في كتبهم على أشياء فأنكروا شهادة الله ؛ فمن أظلم منهم ؟ لا أحد ﴿ **وما الله بغافلٍ عما تعملون** ﴾ من تكذيب الرسل ، وكتمان الشهادة ، والدعوة إلى الباطل ، وادعاء الهداية ، وصرف الناس عن الدين الحق ، هذا تهديد ووعيد لأهل الكتاب ، أي : إن الله تعالى لا يترك أمركم سدىً ، بل هو محصل لأعمالكم ، محيط بجميع ما تأتون وتذرون ، فيعاقبكم بذلك أشد عقاب . وبنفس الخاتمة التي خُتمت بها الفقرة السابقة تُختم هذه الفقرة . ﴿ **تلك أُمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم**

ولا تُسألون عما كانوا يعملون ﴾ .

قال الألوسي : (هذا) تكرير لما تقدم ، للمبالغة في التحذير ، عما استحكم في الطِّباع ، من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم ... ، أو تأكيد وتقرير للوعيد ، يعني : أن الله يجازيكم على أعمالكم ، ولا تنفعكم آباؤكم ، ولا تسألون يوم القيامة عن أعمالهم ، بل عن أعمال أنفسكم » فكما لا يسألون عن أعمالكم السيئة ، فلا يغني عنكم انتسابكم إليهم ، من غير متابعة منكم لهم ، فلا تغتروا بمجرد النسبة إليهم ، حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله ، واتباع رسله الذين بُعثوا مبشرين ومنذرين ، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل ، ولا سيما بسيد الأنبياء ، وخاتم المرسلين ، ورسول رب العالمين ، إلى جميع الإنس والجن ﷺ ، أقول كُرِّرت الآية للتأكيد ، وعلامة على نهاية الفقرة ، فمما يُستدل به على نهاية بعض الفقرات ، أو بعض المقاطع ، أو بعض الأقسام ، التشابه ، مع نهايات سابقة أو لاحقة ، كما سنرى في هذا التفسير . والمعاني هي التي تحدد .

كلمة في السياق :

١ - بدأت سورة البقرة بمقدمة حددت صفات المتقين والكافرين والمنافقين ، ثم جاء القسم الأول من السورة داعياً إلى عبادة الله وحده وتوحيده ، ثم سار السياق حتى وصلنا إلى مقطع إبراهيم ، فعلمنا من خلال المقطع أن ما دُعينا إليه وما طولبنا به هو الإسلام دين إبراهيم .

وبهذا نرى كيف أن السورة تبني الشخصية الإسلامية شيئاً فشيئاً ، وتتكامل معانيها شيئاً فشيئاً ، وتتلاحم المعاني بشكل هو وَحده مُعجِز .

٢ - وإذا تأملت الفقرة الأخيرة في عرض القول ورده ، تجد في ذلك نموذجاً على نوع من الإعجاز ، يستحيل أن يصدر من بشر ، على مثل هذه الطريقة وهذا الأسلوب ، وهكذا الشأن في رؤيتك تلاحم الفقرات في مقطعها ، واتصال المقاطع ببعضها .

٣ - ومن قبل رأينا محل مقطع إبراهيم في السياق :

فإبراهيم هو النموذج الكامل على اتباع الهدى المنزَّل عليه ، ومن قبل كانت قصة بني إسرائيل نموذجاً على أمَّة انحرفت ، وجاء المقطعان بعد مقطع آدم ، الذي قرر أن

وظيفة الانسان هي اتباع ما أنزل الله ، جاء ذلك كله بعد دعوة الناس جميعاً للسير في طريق التقوى ، التي أحد أركانها ، الاهتداء بكتاب الله ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هُدى للمتقين** ﴾ أليس مقطع إبراهيم درساً في أن كلمات الله ينبغي أن تُقام على الوجه الأمثل ، وأن اتّباع هدى الله هو الطريق الأمثل ، وبالتالي فإن هذا القرآن يجب أن يقام .

٤ - وكما قلنا من قبل فإن مقطع إبراهيم هو مقدمة الحديث عن القبلة ، وعن وجوب التوجه إلى الكعبة ، الذي هو مرتكز كبير من مرتكزات العبادة لله رب العالمين ، في سياق القسم الذي يأمر بعبادة الله رب العالمين ، وهكذا نصل إلى المقطع الخامس في القسم الأول من سورة البقرة ، وهو مقطع القبلة ، وقبل أن نبدأ عرضه فلنذكر بعض الفصول التي وعدنا بعقدها هنا ، أو اقتضاها المرور على بعض المعاني .

فصول شتى وفوائد :

فصل في الكلمات التي ابتلي بها إبراهيُم عليه السلام :

للمفسرين في الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام كلام كثير ، وكل أقوالهم استنباط ، إما من خلال ما قصَّه الله علينا في القرآن ، أو من خلال ما قصَّه رسول الله ﷺ عن أبينا إبراهيم ، أو من خلال فهم قضية الفطرة ، ومجموع ما ذكروه في الكلمات أنها : شرائع الإسلام ، وبعضهم قال : ابتلاه الله بالمناسك ، وقال آخرون : ابتلاه بالطهارة : خمس في الرأس وخمس في الجسد ، في الرأس ، قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس ، وفي الجسد ، تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء ، وبعضهم ذكر بدل فرق الشعر غسل البراجم وهي : عقد الأصابع ، وذكر بدل الاستنجاء الاستحداد وهو : حلق العانة ، وقال بعضهم : الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتَمهنَّ ، فراق قومه في الله ، حين أُمر بمفارقتهم ومحاجته نمرود في الله ، حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه ، وصبره على قذفه إياه في النار على هول ذلك من أمرهم ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله ، حين أمره بالخروج عنهم ، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه ومالِه ، وما ابتلي به من ذبح ابنه ، حين أمره بذبحه ، وبعضهم قال : ابتلاه بالكوكب ، وبالشمس ، وبالقمر ، فأحسن في ذلك وعرف أن ربه دائم ، ابتلاه بعمارة البيت فقام به ، وبعضهم

قال : ابتلي بالكلمات : ﴿ **إني جاعلك للناس إماماً** ﴾ ... هذا مجموع ما فسر به المفسرون الكلمات تقريباً . **قال ابن جرير** ما حاصله « إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر ، وجائز أن يكون بعض ذلك ، ولا نجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين ، إلا بحديث أو إجماع ، ولم يصح في ذلك خبر ، بنقل الواحد ، ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له » **وقال ابن كثير** : وقوله تعالى﴿ **بكلمات** ﴾أي بشرائع وأوامر ونواهٍ ، فإن الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القَدَرية كقوله تعالى عن مريم عليها السلام (في سورة التحريم) ﴿ **وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين** ﴾ . وتطلق ويراد بها الشرعية ، كقوله تعالى (في سورة الأنعام) ﴿ **وتمَّت كلمة ربك صدقاً وعدلا** ﴾ أي كلماته الشرعية ، وهي إما خبر صدق ، وإما طلب عدل إن كان أمراً ونهياً ، ومن ذلك هذه الآية الكريمة .

فصل في قريش والإمامة :

قال تعالى :

﴿ **إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين** ﴾ فَهِمَ بعضهم من هذا النص أن الإمامة ينبغي أن تكون في بني إسماعيل لأنهم من ذرية إبراهيم عليه السلام ، فقد انتقلت الإمامة بعد بعثة رسولنا عليه السلام من بني إسرائيل من ذرية إبراهيم إلى بني إسماعيل من ذريته باصطفاء الله محمداً ﷺ منهم ، ثم هي في ذريته النَسَبية وفيه قوله عليه السلام « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي - أهل بيتي - لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض » ولكن الفاسق منهم والمبتدع - بله الكافر - ليس أهلا لها ثم هي في ذرية إبراهيم من المسلمين أي في قريش ، ومن ثَم كانت الأئمة منهم ، قال عليه السلام « الأئمة من قريش » ولكن لا يستأهلها منهم فاسق أو مبتدع أو كافر ، وبعضهم قال : إنه لا تلازم بين الإمامة في الدين ومنصب الخلافة بالذات ، ومنذ عصر الصحابة وُجد في موضوع الخلافة ثلاث اتجاهات رئيسية :

الأول : أنها في آل البيت ، **والثاني** : أنها في قريش ، **والثالث** : أنها في الأكفاء من مجموع الأمة ، وفي كلام عمر رضي الله عنه ما يؤيد الاتجاه الأخير ، ولكن أقوى الاتجاهات أنها في قريش ، والمفروض بالنسبة للمستقبل أن يعطى كل اتجاه من هذه الاتجاهات حقه

في الترشيح ، ويبقى للأمة حق الاختيار ، ولن يفوت الأمة الإسلامية أن تختار الأرضَى لله . قال تعالى (في سورة الشورى) ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ ويا حبذا من خلال الشورى إمامة هاشمي عدل : فإن لم يكن فإمامة قرشي عدل : فإن لم يكن فإمامة مسلم عدل ، ويالالأسف لم يعد في عصرنا للمسلمين خليفة يجمعهم .

فصل في أن قوله تعالى ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ نص في أن الباطنيين على باطل :

في العالم الآن فرق باطنية تدَّعي أن للقرآن ظاهراً يخالف الباطن ، وأن أئمتهم هم الذين يعرفون هذا الباطن ، وبناءً على أقوال أئمتهم ظالمون في زعمهم عطّلوا الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وغير ذلك من شعائر الإسلام ، وبذلك ثبت أن أئمتهم ظالمون ، وبذلك ثبت أنهم لا يستحقون الإمامة ، وبذلك ثبت أن هؤلاء على باطل ، والأمر أوضح من أن يُتَكلم به .

فصل : في الظلم الذي لا يستحق به صاحبه منصب الخلافة :

في شريعة الله الظلم ظلمان : ظلم الإنسان لنفسه ، وظلمه لغيره ، وظلم الإنسان لنفسه يتمثل في الشرك والكفر ، ويتمثل في البدعة والفسوق ، وكلها تُخرج صاحبها عن استحقاقه الإمامة في الوضع العادي ، وإذا انعقدت الإمامة ثم فَسَق من انعقدت له ينعزل تلقائياً بفسوقه أو يستحق العزل ؟ القول الأقوى عند الحنفية : أنه يستحق العزل من أهل الحل والعقد .

قال القرطبي : « استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل ، مع القوة على القيام بذلك ، وهو الذي أمر النبي ﷺ ألا ينازعوا الأمر أهله على ما تقدم من القول فيه ، فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا له بأهل لقوله تعالى ﴿ **لا ينال عهدي الظالمين** ﴾ ولهذا خرج ابن الزبير ، والحسين بن علي رضي الله عنه ، وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم ، على الحجاج . وأخرج أهلُ المدينة بني أُميَّة وقاموا عليهم ، فكانت الحرّة التي أوقعها بهم عقبة بن مسلم . والذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف ، وإراقة الدماء ، وانطلاق أيدي السفهاء ، وشن الغارات على المسلمين والفساد في الأرض ، والأول مذهب طائفة من المعتزلة ، وهو مذهب الخوارج فاعْلمه » . أقول وهو مذهب كبار في أئمة أهل السنَّة والجماعة ، ويكفي من ذُكِر ،

كالحسين وابن الزبير وسعيد بن جبير وأقول : تبقى الموازنة بين الخروج على الظالمين وعدمه قائمة ، إلا إذا كفروا وكنا قادرين . وأقول : إن علينا أن نعمل لإيجاد أنظمة إسلامية ، لا يجد فيها الفاسق والظالم أحداً يتجاوب معه من الأمة ، فضلا عن أهل الحل والعقد ، وبالتالي فإذا فَسَق أو جار حاكمته محكمتنا العليا ، أو مؤسساتنا العليا ، ثم طُرد من منصبه غير مأسوفٍ عليه ، لقد استطاع الغربيون أن يوجدوا نوعاً من الأنظمة لا يستطيع معها زعيم أو قائد أن يستمر إذا ما وقع في خطأ أو خلل . فكيف نعجز نحن عن ذلك ؟ والإسلام هو الإسلام ، لقد سقط إيدن في بريطانيا لأنه ارتكب خطأ سياسياً ، وسقط نيكسون في أمريكا لأنه استغل أجهزة الحكم لصالح تجديد انتخابه رئيساً للولايات المتحدة .

ولنعد إلى القرطبي :

قال القرطبي : قال ابن خويز منداد : « وكل من كان ظالماً لم يكن نبياً ، ولا خليفة ، ولا حاكماً ، ولا مفتياً ، ولا إمام صلاة ، ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة ، ولا تقبل شهادتُه في الأحكام ، غير أنه لا يُعزل بفسقه حتى يعزله أهلُ الحل والعقد ، وما تقدم من أحكامه موافقاً للصواب ماض غير منقوض ، وقد نص مالك على هذا في الخوارج والبغاة ، أن أحكامهم لا تنقض إذا أصابوا بها وجهاً من الاجتهاد ، ولم يخرقوا الإجماع ، أو يخالفوا النصوص ، وإنما قلنا ذلك لإجماع الصحابة ، وذلك أن الخوارج قد خرجوا في أيامهم ، ولم يُنقل أن الأئمة تتبعوا أحكامهم ، ولا نقضوا شيئاً منها ، ولا أعادوا أخذ الزكاة ، ولا إقامة الحدود التي أخذوا بها وأقاموا ، فدل على أنهم إذا أصابوا وجه الاجتهاد لم يُتعَرض لأحكامهم » .

أقول : ومن قبل لم يَتعرض رسول الله ﷺ إلى ما كان في شأن الجاهلية إلا في قضية قائمة ، كإسقاطه ربا العباس ، ومن ثَم فالحركة الإسلامية إذا استلمت الحكم فإنها لن تنظر إلا في قضية قائمة ، ومن هنا يُعرف أننا لن نتعرض لماضٍ ، وإنما سنعالج الحاضر على ضوء الإسلام ، وبالتالي فإننا لن نتعرض لمواضيع الإصلاح الزراعي وغيرها ، مما حدث في مراحل سابقة على حكمنا وانتهى الأمر فيه ، وسنحاول أن نعطي كل الناس مما يسعهم ويغنيهم ، فالإسلام يزيد ولا ينقص ، وسنربي الناس على المسامحة ، وعلى أن يتخلَّصوا من مظالمهم على ضوء الفتوى المعتبرة من أهلها ، ونعود إلى القرطبي .

وقال القرطبي : قال ابن خويز منداد : « وأما أخذ الأرزاق من الأئمة الظلمة فلذلك ثلاثة أحوال : إن كان جميع ما في أيديهم مأخوذاً على موجب الشريعة فجائز أخذه ، وقد

أخذت الصحابة والتابعون من يد الحجاج وغيره ، وإن كان مختلطاً حلالا وظلماً كما في أيدي الأمراء اليوم فالورع تركه ، ويجوز للمحتاج أخذه ... ، وإن كان ما في أيديهم ، ظلماً صراحاً فلا يجوز أن يؤخذ من أيديهم ، ولو كان ما في أيديهم من المال مغصوباً ، غير أنه لا يُعرف له صاحب ولا مطالب ، فهو كما لو وُجد في أيدي اللصوص وقطّاع الطريق ويجعل في بيت المال ، وينتظر طالبه بقدر الاجتهاد ، فإذا لم يعرف صرفه الإمام في مصالح المسلمين » .

أقول : في خطبة الوداع قال رسول الله ﷺ « ألا وإن كل رِباً في الجاهلية موضوع لكم رؤوس أموالكم لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون » ومن هنا نفهم أن الحركة الإسلامية إذا ورثت الحكم ففي القضايا المعلقة ستطبِق الإسلام ، فلا يُعطى إنسان - كان قد وضع ماله في بنك ولا يزال - ربا ، ولن يؤخذ من أحد ربا ، ولكن في القضايا المنتهية لا مراجعة ، فكل الأموال التي ترثها الحكومة الإسلامية ستتصرف بها في مصالح المسلمين ، أما ما قبل ذلك فالمسلم أحق من غيره في خزينة الدولة سواء كانت كافرة ، أو فاسقة ، على ألا يسرق ، أو يخون ، أو يضر بآخرين ، أو يغش ، وللمقاتلين حيث - يجوز القتال - أحكام خاصَّة ، ولقيادة الحركة الإسلامية حقوق في الحركة على ضوء الفتوى المعتبَرة من أهلها ، لأنها هي الأحق بالتصرف في أموال الأمة فليلاحظ ذلك ، ولكنه مقام دقيق ومزلَّة قدم إن لم يكن ذلك على ضوء العلم والفتوى من أهلهما .

فصل في الحاكمين بغير ما أنزل الله :

بنص كتاب الله فإن الذين لا يحكمون بما أنزل الله ظالمون ، قال تعالى : (في سورة المائدة) ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ وبنص كتاب الله فهؤلاء لا يستحقون الإمامة فكيف يعطيهم مسلم تأييده وولاءه ، وكيف لا يضع يده بيد أهل الله للوصول إلى حكم الله ! ؟ غير أننا نحب أن نوضِّح أن الحركة الإسلامية وهي تواجه أوضاعاً متعددة ، قد ترى شراً أهون من شر ، وضرراً أهون من ضرر ، وظلماً دون ظلم ، وبالتالي فإنها على ضوء الموازنة والمقايسة تختار أهون الشرين ، وأخف الضررين مُبقية على نظام - إذا كان الذي بعده سيكون شراً منه - ما دامت لا تستطيع أن تغير النظام إلى إسلام كامل ، فليس المهم أن تُسقط نظاماً ، ولكن المهم أن يكون النظام البديل إما أحسن لإسلامنا ، أو هو إسلامي خالص ، وهذه قضية خطيرة ، وموازناتها صعبة ، وحكم الله أولا ، ثم الشورى ثانياً هما عصام الحركة عن الزلل الشرعي ، أو السياسي الاستراتيجي ، أو التكتيكي .

فصل : في الأمن عند البيت :

١ - وردت أحاديث تدل على أن الله حرم مكة يوم خلق السموٰات والأرض ، ووردت أحاديث تدل على أن إبراهيم حرم مكة والجمع بينها : أن إبراهيم بلَّغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها ، وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها .

٢ - في صحيح مسلم عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح » أي لقتال ، فدل هذا وغيره مما سنرى على تحريم القتال في الحرم . جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموٰات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكُه ، ولا ينفر صيدُه ، ولا يلتقط لقطته إلا من عَرَفها ، ولا يختلى خلاها (أي لا يجز ولا يقلع كلؤها) فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقيْنهم ولبيوتهم فقال : إلا الإذخر » وهذا لفظ مسلم .

وأخرج مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « اللهم إن إبراهيم حرَّم مكة فجعلها حراماً ، وإني حرَّمت المدينة ، حراما ما بين مأزميها أن لا يهراق فيها دم ولا يحمل فيها سلاح لقتال ، ولا تُخبط فيها شجرة إلا لعلف ، اللهم بارك لنا في مدينتنا اللهم بارك لنا في صاعنا اللهم بارك لنا في مُدِّنا اللهم اجعل مع البركة بركتين » .

فصل في دلالة ذكر الذرية في مقطع إبراهيم عليه السلام :

يلاحظ أن إبراهيم عليه السلام رغب أن تكون الإمامة في ذريته فلما قال الله تعالى ﴿ **إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريَّتي** ﴾ وقص الله علينا دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿ **ومن ذريتنا أمة مسلمة لك** ﴾ ولذلك دلالاته : قال صاحب الظلال تعليقاً على النص الأول :

« عندئذ تدرك إبراهيم فطرةَ البشر : الرغبة في الامتداد عن طريق الذراري والأحفاد ، ذلك الشعور الفطري العميق الذي أودعه الله فطرة البشر لتنمو الحياة ، وتمضي في طريقها المرسوم ، ويكمل اللّاحق ما بدأه السابق ، وتتعاون الأجيال كلها وتتساوق ، ذلك الشعور الذي يحاول بعضهم تحطيمه أو تعويقه وتكبيله (كالحركة الشيوعية) ، وهو مركوز في أصل الفطرة لتحقيق تلك (الحكمة) البعيدة المدى وعلى

أساسه يقرر الإسلام شريعة الميراث (انسجاماً مع تلك الفطرة) وتنشيطاً لها لتعمل ولتبذل أقصى ما في طوقها من جهد ، وما المحاولات التي تُبذل لتحطيم هذه القاعدة إلا محاولة لتحطيم الفطرة البشرية في أساسها ، وإلا تكلّف وقصر نظر واعتساف في معالجة بعض عيوب الأوضاع الاجتماعية المنحرفة ، وكل علاج يصادم الفطرة لا يفلح ولا يصلح ولا يبقى ، وهناك غيره من العلاج الذي يصلح الانحراف ولا يحطّم الفطرة . ولكنه يحتاج إلى هدى وإيمان ، وإلى خبرة بالنفس البشرية أعمق ، وفكرة عن تكوينها أدق ، وإلى نظرة خالية من الأحقاد الوبيلة التي تنزع إلى التحطيم والتنكيل أكثر مما ترمي إلى البناء والإصلاح » عن الظلال بتصرف .

فصل : في إقامة الحدود في الحرم :

قال القرطبي وهو مالكي عند قوله تعالى ﴿ **وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً** ﴾ استدل به أبو حنيفة وجماعة من فقهاء الأمصار على ترك إقامة الحد في الحرم على المحصن والسارق إذا لجأ إليه ، وعضدوا ذلك بقوله تعالى : (في سورة آل العمران) ﴿ **ومن دخله كان آمناً** ﴾ قال : آمنوا من دخل البيت والصحيح (في ترجيح القرطبي) إقامة الحدود في الحرم ، وأن ذلك من المنسوخ ؛ لأن الاتفاق حاصل أنه لا يُقتل في البيت ويُقتل خارج البيت ، وإنما الخلاف هل يُقتل في الحرم أم لا ، والحرم لا يقع عليه اسم البيت حقيقة ، وقد أجمعوا على أنه لو قَتَل في الحرم قُتل به ، ولو أتى حداً أُقيد منه فيه ، ولو حارب فيه حُورب وقُتل مكانه ، وقال أبو حنيفة : « من لجأ إلى الحرم لا يُقتل فيه ، ولا يُتابع ، ولا يزال يضيَّقُ عليه حتى يموت أو يخرج ، فنحن (أي المالكية) نقتله بالسيف ، وهو يقتله بالجوع والصد ، فأي قتل أشد من هذا ؟ . وفي قوله ﴿ **أمناً** ﴾ تأكيد للأمر باستقبال الكعبة ، أي ليس في بيت المقدس هذه الفضيلة ، ولا يَحجّ إليه الناس ، ومن استعاذ بالحرم أمِنَ من أن يُغار عليه » أقول : نقلت الكلام الأخير لأن له صلة في السياق إذ مقطع إبراهيم مقدمة لمقطع القبلة الآتي .

فصل في أبناء إبراهيم :

رأينا أن الله عز وجل قال ﴿ **ووصّى بها إبراهيمُ بنيه** ﴾ هكذا بالجمع فمن هم أبناء إبراهيم سوى إسماعيل وإسحق ؟ **قال القرطبي** : « ثم لما توفيت سارة ، تزوج إبراهيم عليه السلام قنطورا بنت يقطن الكنعانية ، فولدت له مدين ومداين ونهشان وزمران

ونشيعه وشيوخ » وقد ذكر الطبري وابن الأثير ست أولاد لإبراهيم عليه السلام سوى إسماعيل وإسحاق ، ولكن كلا منهم أورد الأسماء إيراداً يختلف عن الآخر وكلاهما يختلف مع القرطبي ، ولاشك أن مرجع الجميع روايات أهل الكتاب وقد تحدث سِفر التكوين مما يُسمى بالتوراة الحالية عن هذا الموضوع في الإصحاح (الخامس والعشرين) ، فقال : « وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشاق وشوحا » وهذه الرواية تتفق إلى حد كبير مع رواية الطبري ، ومما قاله الإصحاح الخامس والعشرون : « وأعطى إبراهيم إسحاق كل ما كان له ، وأما بنو السراري اللواتي كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا ، وصرفهم عن إسحاق ابنه شرقاً إلى أرض المشرق ، وهو بعد بقيد الحياة » .

فهذا النص يفيد أن لإبراهيم أبناءً من سرار بينما النص السابق يفيد أن له ست أبناء من زوجة واحدة تزوجها بعد سارة ، وليس في كل ذلك ما يفيد القطع سوى أن لإبراهيم بنين فهم أكثر من أن يكونوا اثنين ، وسيأتي كلام في سورة البقرة عن إبراهيم عليه السلام مرة أخرى وهناك سننقل اتجاهات الدارسين عن عصر إبراهيم واحتمالاته ، وزمن وجوده ، والدول التي عاشها ، وليس في ذلك كله ما يصلح أن يُجزَم به .

فصل في أن أعلى مقام للإنسان هو الإسلام لله رب العالمين :

بحث بعضهم موضوع أيهما أرقى الإسلام أو الإيمان ، وذلك بسبب قوله تعالى : (في سورة الحجرات) ﴿ **قالت الأعراب آمنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولَما يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ ونقول : إن الإسلام الكامل والإيمان الكامل مترادفان ، إذ يدخل في الإسلام الكامل إسلام القلب والجوارح ، ويدخل في الإيمان الكامل تصديق القلب والجوارح ، ولذلك نجد قوله تعالى (في سورة الذاريات) ﴿ **فأخرجْنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ فهنا المؤمنون هم المسلمون ، فالإيمان الكامل هو الإسلام الكامل ، غير أن في الإسلام معنى أتم لما يفيده من الخضوع الزائد على مجرد التصديق ، ولذلك نرى أن الكلام في قصة إبراهيم ينصبّ على الثناء على إسلامه ﴿ **إذ قال له ربه أسلم** ﴾ ﴿ **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾ (سورة النساء) ، قال القرطبي عند قوله تعالى ﴿ **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين** ﴾ ، والإسلام هنا على أتم وجوهه ، والإسلام في كلام العرب الخضوع والانقياد وليس كل إسلام إيماناً ، وكل إيمان إسلام ، لأن من آمن بالله

فقد انقاد واستسلم لله ، وليس كل من أسلم آمن بالله ، لأنه قد يتكلم فرقا من السيف ، ولا يكون ذلك إيماناً ، خلافاً للقدَرية والخوارج حيث قالوا : إن الإسلام هو الإيمان فكل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن ، لقوله تعالى : (في سورة آل عمران)﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ فدل على أن الإسلام هو الدين ، وأن من ليس بمسلم فليس بمؤمن ودليلنا (أي أهل السنة والجماعة) ، قوله تعالى (في سورة الحجرات) ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ فأخبر الله تعالى أنه ليس كل من أسلم مؤمناً ، فدل على أنه ليس كل مسلم مؤمناً وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص لما قال له : « اعطِ فلاناً فإنه مؤمن ، فقال النبي ﷺ أو مسلم .. الحديث أخرجه مسلم . فدل على أن الإيمان ليس الإسلام ، فإن الإيمان باطن والإسلام ظاهر ، وهذا بيِّن ، والإسلام ويراد به الإيمان للزوم أحدهما الآخر ، وصدوره عنه ، كالإسلام الذي هو ثمرة الإيمان ودلالة على صحته فاعلمه » .

كلمة أخيرة في مقطع إبراهيم عليه السلام :

١ - نحن لا زلنا في القسم الأول من أقسام سورة البقرة ، والذي بدايته المقطع الأول ، الذي حدد الطريق إلى التقوى ، وحدد الطريق إلى الكفر والنفاق ، ثم جاء مقطع آدم ، ومقطع بني إسرائيل ، ومقطع إبراهيم ، وكل من هذه المقاطع بيَّن في الطريق إلى التقوى ، وفصَّل في الطريق إلى الكفر لتُجتنَب ، وإذ كان الطريق إلى التقوى هو عبادة الله وحده ، فإن مقطع إبراهيم عمَّق ذلك ، وعرفنا من خلاله أن الطواف بالبيت والعكوف فيه والركوع والسجود كل ذلك من العبادة . وإذ كان الركوع والسجود يحتاج إلى قبلة ، وإذ كانت كل المقدمات تشير إلى أن كعبة إبراهيم التي حولها يكون الطواف ، وإليها يكون الحج ، هي المرشَّحة لأن تكون قبلة المسلمين في صلاتهم ، فإن قلب محمد ﷺ كان يتطلع إلى ذلك ومن ثَم كان المقطع اللّاحق (في القبلة) .

٢ - وبمقطع إبراهيم عليه السلام ، ومن قبله مقطع بني إسرائيل ، اتضح الكثير من صراط المغضوب عليهم والضالين ، وصراط الذين أنعم الله عليهم ، في سياق تعليم العبادة والاستعانة بالله : ﴿ **إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين** ﴾ ألا ترى كيف يبني إبراهيم وإسماعيل البيت وهما يدعوان .

وليكن هذا خاتمة الكلام عن مقطع إبراهيم لننتقل إلى الحديث عن مقطع القبلة :

المقطع الخامس من القسم الأول من سورة البقرة :

يمتد هذا المقطع من الآية (١٤٢) إلى نهاية الآية (١٥٢) وهذا هو :

سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

* * *

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

* * *

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

كلمة في هذا المقطع وسياقه :

- مرَّ معنا في مقطع إبراهيم قصة بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الكعبة ، ويأتي هذا المقطع ليكون الشيء الرئيسي فيه هو الكلام عن جعل الله هذه الكعبة هي قبلة المسلمين في صلاتهم ، ورأينا في مقطع إبراهيم عليه السلام كيف أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام دعوا بدعوات ﴿ **ومن ذريتنا أمَّةً مسلمةً لك ... ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكِّيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ونجد في بداية هذا المقطع قوله تعالى ﴿ **وكذلك جعلناكم أمَّة وسطاً** ﴾ ونجد في نهايته ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ...** ﴾ فمقطع القبلة يرينا استجابة الله عز وجل لإبراهيم وإسماعيل في شأن الأمَّة والرسول ﷺ .

– حدثنا مقطع إبراهيم عن السفاهة في العزوف عن ملّة إبراهيمَ ﴿ **ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلا من سَفِه نفسه** ﴾ وهذا المقطع يبدأ بالكلام عن مواقف السفهاء ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها** ﴾ وفي ذلك تقرير أن التوجه إلى حيث وَجه الله إنما هو من الإسلام الذي هو ملّة إبراهيم . والمقطع يقيم الحجة على بني إسرائيل وعلى النصارى في شأن القبلة . فالمقطع امتداد للحوار الذي مر معنا في مقطع بني إسرائيل . وإذ كانت القبلة بعض هُدى الله المنزَّل نجد في هذا المقطع قوله تعالى ﴿ **ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون** ﴾ فإن صلة المقطع بقصة آدم عليه السلام المنتهية بقوله تعالى : ﴿ **فإما يأتينَّكم منّي هدى فمن تبع هُدايَ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ إن الصلة واضحة بين هذا المقطع ومقطع آدم عليه السلام من حيث إن المقطع يرينا ويقص علينا بعض ما أنزله الله علينا من هدى بواسطة رسول ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ...** ﴾ ومحل القبلة في قضية العبادة لا يخفى . ومن ثَم كان هذا المقطع جزءاً من القسم الذي ابتدأ بالأمر بالعبادة والتوحيد ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم ...** ﴾ وفي مقدمة سورة البقرة كلام عن المتقين والكافرين والمنافقين . ومما وُصِف به المنافقون قوله تعالى ﴿ **ألا إنهم هم السفهاء** ﴾ وههنا حديث عن قولةٍ من قولات السفهاء ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ...** ﴾ وههنا حديث عن نعمة الله على هذه الأمة بالهداية وكيف ينبغي أن تقابلها . ﴿ **كما أرسلنا فيكم ... فاذكروني أذكركم وأشكروا لي ولا تكفرون** ﴾

فالمقطع فيه تذكير بالنعمة ، وتأكيد للسير ، وتفصيل في الطريق .

فلم يأت مقطع القبلة إلا بعد كل المقدمات اللازمة له . وهذا يدلنا على أهمية قضية القبلة في حياة الأمة ، لقد سبق بمقدمة تعمق الثقة بالبيت وبُناتِه ، وسبق ذلك بمقدمة تسلب الثقة عن نوع من المشوِّشين ، وسبق ذلك ما يعمق الالتزام بطاعة الله واتباع هُداه ، وسبق ذلك بالأمر بالعبادة ، وسبق ذلك ما يُعرف به السفهاء من أهل النفاق وما يعرف به المتقون . وذلك كله ليأتي المقطع في مكانه ، مفصِّلا قضية جديدة سبقتها كل تمهيداتها والكلام عن المقطع وسياقه مستمر فلنكتف ههنا بما مر .

تفسير الفقرة الأولى :

﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها** ﴾ السين في

قوله تعالى ﴿ **سيقول** ﴾ للاستقبال . فهل الآية إخبار عن القول قبل وقوعه أو أنها إخبار عنه بعد وقوعه ؟ قولان للمفسرين : فعلى القول أن الآية نزلت بعد القول فذلك يفيد أن القائلين مستمرون في لغطهم وفي قولهم . وتكون الآية وما بعدها متأخرة نزولا على قوله تعالى ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء** ﴾ ويؤيد ذلك ما رواه البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً . وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة . فأنزل الله تعالى ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء ...** ﴾ إلى آخر الآية . فقال السفهاء وهم اليهود : ﴿ **ما ولاهم عن قبلتهم** ﴾ وعلى القول بأن الآية إخبار عما يأتي تكون الحكمة كما قال الألوسي : « وتقديم الإخبار بالقول على الوقوع لتوطين النفس عليه فإن مفاجأة المكروه أشد إيلاماً . والعلم به قبل الوقوع أبعد من الاضطراب . ولما أن فيه إعداد الجواب . والجواب المعدّ قبل الحاجة أقطع للخصم » والسفهاء : هم خفاف الأحلام . فأصل السفه الخفة . وهم هنا إما اليهود لكراهتهم التوجه إلى الكعبة وأنهم لا يرون النسخ . أو المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء . أو المشركون لقولهم : رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها . والله ليرجعن إلى دينهم . قال ابن كثير : والآية عامة في هؤلاء كلهم . قال الألوسي في ترجيح العموم : « لأن الجمع فيها محلى باللام وهو يفيد العموم . فيدخل فيه الكل . والتخصيص بالبعض لا يدعو إليه داع » أقول وقد مر معنا في السورة قوله تعالى ﴿ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه** ﴾ ومر معنا في المنافقين ﴿ **ألا إنهم هم السفهاء** ﴾ فحمل الآية على جميع من وصف الله في السورة بالسفه مقتضى السياق . ومعنى قولهم : ﴿ **ما ولَّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها** ﴾ أي ما صرفهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، وهي بيت المقدس . والقبلة : هي الجهة التي يستقبلها الإنسان في الصلاة . لأن المصلي يقابلها . فهؤلاء السفهاء قالوا : ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا ؟ فأنزل الله جوابهم : ﴿ **قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ الصراط المستقيم هو الطريق المستوي .

ومن الصراط المستقيم التوجه إلى كعبة إبراهيم بعد إذ أمر الله به . وفي ذكر ذلك إشارة إلى نعمة الله على هذه الأمة بهدايتها في شأنها كله إلى الصراط المستقيم . وتعريض بغيرهم . ومعنى النص : أن بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها لله . والحكم والتصرف والأمر كله لله فالشأن كله في امتثال أوامره . ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة . فنحن عبيده وفي تصرفه . وقد شاء عناية بعبده محمد ﷺ وأمته

أن يهديهم إلى اتخاذ كعبة إبراهيم خليل الرحمن قبلة . **فجعل توجههم إليها وهي المبنية على** اسمه تعالى وحده لا شريك له ، وهي أشرف بيوت الله في الأرض .

كلمة في السياق :

١ - ذكرنا من قبل صلة المقطع بما قبله . فما الصلة بين آية ﴿ **سيقول السفهاء من الناس** ﴾ بما قبلها مباشرة ؟ لقد كان ما قبلها يناقش اليهود والنصارى في قضايا العقائد . وههنا النقاش في العمليات ولذلك قال الألوسي : « ومناسبة الآية لما قبلها أن الأولى قدح في الأصول (أي في العقائد) وهذا في أمر متعلق بالفروع (أي في العمليات من الشريعة) وإنما لم يعطف تنبيها على استقلال كل منها في الشناعة » .

٢ - ثم يبيِّن الله عز وجل في الآية اللاحقة أن تحويل القبلة بحيث تكون إلى الكعبة ينسجم مع مبدأ الوسطية الذي هو سمة هذه الأمة . وفي تحقيق أشار إليه الأستاذ الندوي في السيرة النبوية كتبه أحد المتخصصين : أثبت فيه أن مكة بالنسبة للعالم تقع في مركزه تماماً . فهي وسط هذا العالم . فتحويل القبلة إلى البيت الحرام ينسجم مع صفة الوسطية لهذه الأمة . ولذلك جاءت الآية اللاحقة تقول : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾ .

٣ - في قوله تعالى ﴿ **والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ إشارة إلى أن في تشريعاته لهذه الأمة هداية لها إلى صراطه المستقيم ، فلنتذكر أننا في الفاتحة ندعو الله ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم ...** ﴾ وقد فعل جل جلاله فيما هدانا إليه . وليكن في هذا إشارة إلى الربط بين سورة البقرة في سياقها كله وبين سورة الفاتحة ولنعد إلى التفسير :

﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ الوسط : الخيار . وقيل للخيار وسط لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل . والأوساط محمية . أي : كما جعلكم خير الأمم جعلت قبلتكم خير القبل . والوسط كذلك العدول . لأن الوسط عدل بين الأطراف ليس إلى بعضها أقرب من بعض . أي كما جعلنا قبلتكم متوسطة جعلناكم أمة وسطاً ، فهذه الآية بمثابة تعليل لاختيار الكعبة قبلة لنا . ذلك أننا أمة وسط . فلتكن قبلتكم كذلك . وقد أفاض صاحب الظلال في استخراج مظاهر الوسطية في هذه الأمة كما سنرى في فوائد هذه الفقرة .

وقد علل جل جلاله لجعلنا أمة وسطاً أي عدولا أو خياراً بقوله ﴿ **لتكونوا شهداء**

على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ أي لتكونوا شهداء على سائر الأمم يوم القيامة بأن الله تعالى قد أوضح السبل وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا ، ويكون الرسول ﷺ وحده شهيداً علينا بأنه قد بلغ وأدى وأقام الحجة . وأننا قد لبينا واستجبنا فنحن شهداء على الناس يوم القيامة أن رسلهم قد بلغتهم . ورسولنا شهيد علينا يزكينا . وأخر الجار والمجرور (على الناس) في قوله تعالى ﴿ **لتكون شهداء على الناس** ﴾ وقدم الجار والمجرور (عليكم) في قوله ﴿ **ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ لأن المراد في الأول إثبات شهادتهم على الأمم . وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول ﷺ شهيداً عليهم . أخرج الحافظ ابن مردويه عن النبي ﷺ قال : « أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق . ما من الناس أحد إلا وَدَّ أنه منا ، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه » وإذا كنا عدولا في الآخرة فنحن عدول في الدنيا كذلك . روى الحاكم وابن مردويه واللفظ له عن جابر بن عبد الله قال : « شهد رسول الله ﷺ جنازة في بني سلمة . وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ . فقال بعضهم : والله يا رسول لنعم المرء كان . لقد كان عفيفاً مسلماً وكان .. وأثنوا عليه خيراً . فقال رسول الله ﷺ : أنت بما تقول . فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر . فأما الذي بدالنا منه فذاك . فقال النبي ﷺ : وجبت ثم شهد جنازة في بني حارثة . وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ فقال بعضهم : يا رسول الله بئس المرء كان . إن كان لفظاً غليظاً . فأثنوا عليه شراً . فقال النبي ﷺ لبعضهم أنت بالذي تقول . فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر . فأما الذي بدا لنا منه فذاك . فقال رسول الله ﷺ : وجبت . قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب . صدق رسول الله ﷺ ثم قرأ : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ ثم قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وقال الإمام أحمد .... عن أبي الأسود أنه قال : « أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع فيها مرض فهم يموتون موتاً ذريعاً . فجلست إلى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأثنى على صاحبها خيراً . فقال : وجبت . ثم مر بأخرى فأثنى على صاحبها شراً . فقال عمر : وجبت . فقال أبو الأسود : ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ . قال : قلت كما قال رسول الله ﷺ « أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة » قال : فقلنا وثلاثة ؟ قال : فقال « وثلاثة » قال : فقلنا : واثنان . قال « واثنان » ثم لم نسأله عن الواحد » وكذا رواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث داوود بن أبي الفرات . وأخرج ابن مردويه عن

أبي زهير الثقفي عن رسول الله ﷺ : « يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم » قالوا : بمَ يا رسول الله ؟ . قال : « بالثناء الحسن والثناء السيء أنتم شهداء الله في الأرض » ورواه ابن ماجه والإمام أحمد .

ثم علل تعالى لاعتماد بيت المقدس أولا ، والانتقال إلى الكعبة ثانياً بقوله : ﴿ **وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله** ﴾ أي : إنما شرعنا ذلك يا محمد : التوجه أولا إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ؛ ليظهر حال من يتبعك ويستقبل معك حيثما توجهت ، ممن ينقلب على عقبيه أي : مرتداً عن دينه ﴿ **وإن كانت لكبيرة** ﴾ أي هذه الفعلة وهي صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة إنه لعظيم شاق على النفوس ، إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول ﷺ وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مِرْية فيه . وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء . فله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك . بخلاف الذين في قلوبهم مرض فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً . كما يحصل للذين امنوا إيقان وتصديق .. وفي الحكمة التربوية التي نصت عليها الآية تعليلا لتحويل القبلة ﴿ **إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** ﴾ يقول صاحب الظلال :

« وكما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله ، وتجريدها من التعلق بغيره ، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة ، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم ... فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام ، واختار لهم الاتجاه – فترة – إلى المسجد الأقصى ؛ ليُخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية ، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية ، وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إيحاء آخر . اتباع للطاعة الواثقة الراضية المستسلمة ، ممن ينقلب على عقبيه ؛ اعتزازاً بنعرة جاهلية ، تتعلق بالجنس والقوم ، والأرض والتاريخ ، أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد ... حتى إذا استسلم المسلمون ، واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول ﷺ وفي الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم ، صدر الأمر الإلٓهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام . ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه هي حقيقة الإسلام . حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصاً لله ، وليكون تراثاً للأمة المسلمة التي نشأت تلبية لدعوة إبراهيم ربه أن يبعث في بنيه رسولا منهم ، بالإسلام الذي كان عليه

هو وبنوه وحفدته ... » .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ **لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** ﴾ أقوال للمفسرين يذكرونها كي لا يفهم فاهم أن لله علماً حادثاً وهو جل جلاله لم يزل عالماً فيقولون فيها : « أي لنعلم كائناً أو موجوداً ما قد علمناه أنه يكون ويوجد . فالله تعالى عالم أزلاً بكل ما أراد وجوده أنه يوجد ، في الوقت الذي شاء وجوده فيه أو : ليميز التابع من الناكص . فوضع العلم موضع التمييز . لأن العلم يقع به التمييز . أو : ليعلم الرسول ﷺ والمؤمنون ذلك . وإنما أسند علمهم إلى ذاته لأنهم خواصه مثل قوله تعالى في سورة الفتح ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله** ﴾ أو : هو على ملاطفة الخطاب لمن لا يعلم كقولك لمن ينكر ذوب الذهب (فلنلقه في النار لنعلم أيذوب) وهو يعلم أنه يذوب .

أو : المراد به الجزاء أي : لنجازي الطائع والعاصي . وكثيراً ما يعلم التهديد في القرآن بالعلم »

ولكي لا يفهم فاهم أن الصلاة إلى بيت المقدس ليس لها أجر ، أو هي في إبّان فرضها ليس لها فضل قال تعالى ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ أي : صلاتكم إلى القبلة المنسوخة التي هي أثر إيمانكم ، سمى الصلاة إيماناً لأن أهل الإيمان هم الذين يعلمون وجوبها فيؤدونها . وبها يحيا الإيمان ويستمر ويستقر ويعلم ، وقبولها إنما هو من أهل الإيمان وأداؤها في الجماعة دليل الإيمان . في الصحيح عن البراء قال : « مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس . فقال الناس : ما حالهم في ذلك ؟ فأنزل الله ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ » ورواه الترمذي عن ابن عباس وصححه . ثم علل تعالى لعدم إضاعته إيمان المؤمنين بقوله : ﴿ **إن الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾ فلا يضيّع أجورهم . والرأفة في اللغة : أشد من الرحمة وجمع بينهما كما في الرحمن الرحيم . وبهذا انتهت الفقرة الأولى من مقطع القبلة وهي بمثابة المقدمة للأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام .

فوائد :

١ - في عملية استقراء لمظاهر الوسطية في هذه الأمة يقول صاحب الظلال :

إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً فتقيم بينهم العدل والقسط ، وتضع لهم الموازين والقيم . وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد ، وتزن قيَمهم وتصوراتهم

وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها وتقول : هذا حق منها وهذا باطل . لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها ، وهي شهيدة على الناس ، وفي مقام الحَكَم العدل بينهم .. وبينما هي تشهد على الناس هكذا ، فإن الرسول ﷺ هو الذي يشهد عليها . فيقرر لها موازينها وقيمها ، ويحكم على أعمالها وتقاليدها ويزن ما يصدر عنها ، ويقول فيه الكلمة الأخيرة ... وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها .. لتعرفها أو لتشعر بضخامتها ، ولتقدر دورها حق قدره ، وتستعد له استعداداً لائقاً .

وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد . أو من الوسط بمعناه المادي الحسي ﴿ **أمة وسطاً** ﴾ . في التصور والاعتقاد .. لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي . إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح تلبس الجسد ، أو جسد تتلبس به روح . ويعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد ، وتعمل لترقية الحياة ورفعها ، في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها ، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع ، بلا تفريط ولا إفراط ، في قصد واعتدال .

﴿ **أمة وسطاً** ﴾ في التفكير والشعور .. لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة ... ولا تتبع كذلك كل ناعق ، وتقلد تقليد القردة المضحك .. إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول ، ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب . وشعارها الدائم : الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها في تثبت ويقين .

﴿ **أمة وسطاً** ﴾ في التنظيم والتنسيق . لا تدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب . إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب ، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب . وتزاوج بين هذه وتلك ، فلا تكل الناس إلى سوط السلطان ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان .. ولكن مِزَاج من هذا وذاك .

﴿ **أمة وسطاً** ﴾ .. في الارتباطات والعلاقات .. لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته ، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة ، ولا تطلقه كذلك فرداً أشراً جشعاً لا همّ له إلا ذاته .. إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء ، وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه . ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو ، ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد في الجماعة . وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادماً للجماعة . والجماعة كافلة للفرد في تناسق واتساق ..

﴿ أمة وسطاً ﴾ في المكان .. في سرة الأرض ، وفي أوسط بقاعها . وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب ، وجنوب وشمال . وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعاً . وتشهد على الناس جميعاً . وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة ، وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك ، وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء .

﴿ أمة وسطاً ﴾ في الزمان .. تنهي عهد طفولة البشرية قبلها . وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها . وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها ، وتصدها عن الفتنة بالعقل والهدى ، وتزاوج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات ، ورصيدها العقلي المستمر في النماء ، وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك .

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها ، إلا أنها تخلت عن منهج الله الذي اختاره لها . واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هي التي اختارها الله لها ، واصطبغت بصبغات شتى ليست صبغة الله واحدة منها . والله يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحده .

وأمة تلك وظيفتها ، وذلك دورها خليقة بأن تتحمّل التبعة وتبذل التضحية ، فللقيادة تكاليفها ، وللقوامة تبعاتها . ولابد أن تُفتَن قبل كل ذلك ، وتبتلى ليتأكد خلوصها لله وتجردها ، واستعدادها للطاعة المطلقة للقيادة الرشيدة .

٢ - ومن كلام صاحب الظلال في تبيان الحكمة في اتخاذ القبلة وتمييز قبلة المسلمين عن غيرهم يقول : إن الاختصاص والتميز ضروريان للجماعة المسلمة : الاختصاص والتميز في التصور والاعتقاد . والاختصاص والتميز في القبلة والعبادة . وهذه كتلك لابد من التميز فيها والاختصاص . وقد يكون الأمر واضحاً فيما يختص بالتصور والاعتقاد ، ولكنه بهذه الدرجة من الوضوح فيما يختص بالقبلة وشعائر العبادة .. هنا نعرض التفاتة إلى قيمة أشكال العبادة ..

إن في النفس الإنسانية ميلا فطرياً ناشئاً من تكوين الإنسان ذاته من جسد ظاهر وروح مغيب ، إلى اتخاذ أشكال ظاهرة للتعبير عن المشاعر المضمرة . فهذه المشاعر المضمرة لا تهدأ ولا تستقر حتى تتخذ لها شكلا ظاهراً تدركه الحواس ، وبذلك يتم

التعبير عنها . يتم في الحس كما في النفس ، فتهدأ حينئذٍ وتستريح ، وتفرغ الشحنة الشعورية تفريغاً كاملا ، وتحس بالتناسق بين الظاهر والباطن ، وتجد تلبية مريحة لجنوحها إلى الأسرار والمجاهيل . وجنوحها إلى الظواهر والأشكال في ذات الأوان .

وعلى هذا الأساس الفطري أقام الإسلام شعائره التعبدية كلها . فهي لا تُؤدى بمجرد النية ولا بمجرد التوجه الروحي . ولكن هذا التوجه يتخذ له شكلا ظاهراً : قياماً واتجاهاً إلى القبلة ، وتكبيراً وقراءة وركوعاً في الصلاة . وإحراماً من مكان معين ولباساً معيناً ، وحركة وسعياً ودعاءً ، وتلبية ونحراً وحلقاً في الحج . ونية وامتناعاً عن الطعام والشراب والمباشرة في الصوم .. وهكذا في كل عبادة حركة ، وفي كل حركة عبادة ، ليؤلف بين النفس وباطنها ، وينسق بين طاقاتها ، ويستجيب للفطرة جملة بطريقة تتفق مع تصوره الخاص ...

ولم يكن بد من تمييز المكان الذي يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة . وتخصيصه كي يتميز هو ويتخصص بتصوره ومنهجه واتجاهه .. فهذا التميز تلبية للشعور بالامتياز والتفرد . كما أنه بدوره ينشىء شعوراً بالامتياز والتفرد . ومن هنا كذلك كان النهي عن التشبه بمن دون المسلمين في خصائصهم التي هي تعبير ظاهر عن مشاعر باطنة . كالنهي عن طريقهم في الشعور والسلوك سواء . ولم يكن هذا تعصباً ولا تمسكاً بمجرد شكليات . وإنما كان نظرة أعمق إلى ما وراء الشكليات ، كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال والظواهر . وهذه البواعث هي التي تفرق قوماً عن قوم ، وعقلية عن عقلية ، وتصوراً عن تصور ، وضميراً عن ضمير ، وخلقاً عن خلق ، واتجاهاً في الحياة كلها عن اتجاه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون ، فخالفوهم » . وقال رسول الله ﷺ وقد خرج على جماعة فقاموا له : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضاً » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » ﷺ .

فنهى عن تشبه في مظهر أو لباس . ونهى عن تشبه في حركة وسلوك ، ونهى عن تشبه في قول أو أدب .. لأن وراء هذا كله ذلك الشعور الباطن الذي يميز تصوراً عن تصور ، ومنهجاً في الحياة عن منهج ، وسمة للجماعة عن سمة . ثم هو نهي عن التلقي من

غير الله ومنهجه الخاص الذي جاءت هذه الأمة لتحققه في الأرض . نهي عن الهزيمة الداخلية أمام أي قوم آخرين في الأرض . فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع معيَّن هي التي تدسس في النفس لتقلد هذا المجتمع المعيَّن . والجماعة المسلمة قامت لتكون في مكان القيادة للبشرية . فينبغي لها أن تستمد تقاليدها - كما تستمد عقيدتها - من المصدر الذي اختارها للقيادة .. والمسلمون هم الأعلون . وهم الأمة الوسط . وهم خير أمة أخرجت للناس . فمن أين إذن يستمدون تصورهم ومنهجهم ؟ ومن أين إذن يستمدون تقاليدهم ونظمهم ؟ إلا يستمدوها من الله فهم يستمدونها من الأدنى للأسف .

ولقد ضمن الإسلام للبشرية أعلى أفق في التصور ، وأقوم منهج في الحياة . فهو يدعو البشرية كلها أن تفيء إليه . وما كان تعصباً أن يطلب الإسلام وحدة البشرية على أساسه هو ، لا على أي أساس آخر . وعلى منهجه هو ، لا على أي منهج آخر . وتحت رايته هو لا تحت أية راية أخرى . فالذي يدعوك إلى الوحدة في الله ، والوحدة في الأرفع من التصور ، والوحدة في الأفضل من النظام ، ويأبى أن يشتري الوحدة بالحيدة عن منهج الله ، والتردي في مهاوي الجاهلية .. ليس متعصباً ، أو هو متعصب ولكن للخير والحق والصلاح . والجماعة المسلمة التي تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه . إن القبلة ليست مجرد مكان أو جهة تتجه إليها الجماعة في الصلاة . فالمكان أو الجهة ليس سوى رمز . رمز للتميز والاختصاص . تميز التصور ، وتميز الشخصية ، وتميز الهدف وتميز الاهتمامات ، وتميز الكيان .

والأمة المسلمة - اليوم - بين شتى التصورات الجاهلية التي تعجّ بها الأرض جميعاً وبين شتى الأهداف الجاهلية التي تستهدفها الأرض جميعاً ، وبين شتى الاهتمامات الجاهلية التي تشغل بال الناس جميعاً ، وبين شتى الرايات الجاهلية التي ترفعها الأقوام جميعاً . الأمة المسلمة اليوم في حاجة إلى التميز بشخصية خاصة لا تتلبس بشخصيات الجاهلية السائدة ، والتميز بتصور خاص للوجود والحياة لا يتلبس بتصورات الجاهلية السائدة ، والتميز بأهداف واهتمامات تتفق مع تلك الشخصية وهذا التصور ، والتميز براية خاصة تحمل اسم الله وحده ، فتعرف بأنها الأمة الوسط التي أخرجها الله للناس لتحمل أمانة العقيدة وتراثها ..

إن هذه العقيدة منهج حياة كامل ، وهذا المنهج هو الذي يميز الأمة المستخلَفة والوارثة لتراث العقيدة . الشهيدة على الناس ، المكلفة بأن تقود البشرية كلها إلى الله .. وتحقيق هذا المنهج في حياة الأمة المسلمة هو الذي يمنحها ذلك التميز في الشخصية والكيان ، وفي

الأهداف والاهتمامات . وفي الراية والعلامة . وهو الذي يمنحها مكان القيادة الذي خلقت له ، وأخرجت للناس من أجله . وهي بغير هذا المنهج ضائعة في الغمار ، مبهمة الملامح ، مجهولة السمات ، مهما اتخذت لها من أزياء ودعوات وأعلام . »

٣ – تطلق العرب كلمة الوسط على الخيار ومن ثم تقول : قريش أوسط العرب نسباً وداراً ، أي : خيرها . وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه ، أي : أشرفهم . ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات ، وهي العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها ، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصّها بأكمل الشرائع ، وأقوم المناهج ، وأوضح المذاهب .

٤ – روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يُدعى نوح يوم القيامة . فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيُدعى قومه . فيقال لهم : هل بلّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد ، فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . قال : فذلك قوله ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾ قال : والوسط : العدل . فتُدْعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم » رواه البخاري وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيُدعى قومه . فيقال : هل بلّغكم هذا ؟ فيقولون : لا . فيقال له : هل بلّغت قومك ؟ فيقول : نعم . فيقال من يشهد لك ؟ . فيقول : محمد وأمته . فيُدعى محمد وأمته فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم . فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلّغوا فذلك قوله عز وجل : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾ قال : عدلا ﴿ **لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ .

٥ – استدل الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه الله بقوله تعالى ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس** ﴾ ، على أن الإجماع حجة . لأن الله تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة . والعدل هو المستحق للشهادة وقبولها . فإذا اجتمعوا على شيء وشهدوا به لزم قبوله .. وقد ناقش الألوسي أن تكون الآية يدخل فيها ذلك . وختم مناقشته بقوله « على أن من نظر بعين الإنصاف لم يرَ في الآية أكثر من دلالتها على أفضلية هذه الأمة على سائر الأمم . وذلك لا يدل على حجية إجماع ولا عدمها » أقول لكن من تأمل استهالات رسول الله ﷺ والصحابة لهذه الآية كما رأينا نموذج ذلك أثناء شرحها لم يستبعد ما ذهب إليه أبو منصور . وقد ناقش الألوسي ادعاء الشيعة أن المراد بالأمة

الوسط الأئمة الإثنى عشر ؛ بناءً على نقول ينقلونها عن بعض الأئمة . فقال : « ولا يخفى أن دون إثبات ما قالوه خرط القتاد » أقول : ومما يشهد لفساد هذا الاتجاه الخطاب العام لكل الأمة بقوله تعالى ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾ نعم الصالحون من آل البيت هم من خيار هذه الأمة الوسط ، وهم فيها محل المودة من قلوب أهل الإيمان . ولكن هذا وحده لا يعطيهم حقاً في إمامة وخلافة إذا لم تقدم الشورى أحداً منهم .

ولنعد إلى قضية فهم الإجماع من الآية : فممن ذهب هذا المذهب القرطبي وذهب إلى أن الآية دليل على أنه لا يشهد إلا العدول وذلك منه قياساً على اعتماد الله شهادة هذه الأمة فى الآخرة بسبب العدالة التي هي أحد تفسيري الوسط في الآية . قال القرطبي : « قال علماؤنا : أنبأنا تبارك وتعالى في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة ، وتولية خطير الشهادة على جميع خلقه .. وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدول . ولا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلاً .. وفيه دليل على صحة الإجماع ووجوب الحكم به لأنهم إذا كانوا عدولاً شهدوا على الناس . فكل عصر شهيد على من بعده . فقول الصحابة حجة وشاهد على التابعين . وقول التابعين على من بعدهم . وإذا جعلت الأمة شهداء فقد وجب قبول قولهم ... » .

٦ – في قوله ﴿ **وما جعلنا القبلة التي كنت عليها** ﴾ رد واضح على من زعم أنه لا نسخ في الشريعة ، وفيها دليل على نسخ السنَّة بالقرآن . يقول القرطبي : « في هذه الآية دليل واضح على أن في أحكام الله تعالى ، ناسخاً ومنسوخاً . وأجمعت عليه الأمة إلا ممن شذ كما تقدم . وأجمع العلماء على أن القبلة أول ما نسخ ... ودلت أيضاً على جواز نسخ السنّة بالقرآن . وذلك أن النبي ﷺ صلىٰ نحو بيت المقدس وليس في ذلك قرآن . فلم يكن الحكم إلا من جهة السنَّة . ثم نسخ ذلك بالقرآن ... » .

٧ – بمناسبة ذكر رأفة الله ورحمته في قوله تعالى ﴿ **إن الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾ أورد ابن كثير الحديث الصحيح فقال : في الصحيح : « أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها . فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها . فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها . فقال رسول الله ﷺ : أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه ؟ فقالوا : لا يارسول الله . قال : فوالله للهُ أرحم بعباده من هذه بولدها » .

كلمة في السياق :

١ – لا خلاف أن قوله تعالى ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ نزل متأخراً عن

الأمر بالتوجه نحو البيت الحرام . ولكن الخلاف في قوله تعالى : ﴿ **سيقول السفهاء** ﴾ هل نزل متأخراً ؟ فعلى القول أنه نزل متأخراً فإن الآيتين تكونان قد نزلتا متأخرتين عن الفقرتين اللاحقتين في هذا المقطع . وقد ذكرتا متقدمتين على الفقرتين مع تأخرهما نزولاً . لأنهما بمثابة المدخل لتغيير القبلة . وتعليل لهذا التغيير ، ومن ثم فلم نبعد إذا اعتبرناهما فقرة من فقرات المقطع .

٢ - ومما دلنا على أن الآيتين فقرة تميز الفقرتين اللاحقتين بما يدل على أنهما فقرتان ذواتا خصائص مشتركة . فكل من الفقرتين اللاحقتين تبدأ بآية مضمونها متشابه وخاتمتهما واحدة . فأول آية في الفقرة اللاحقة فيها ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ . وخاتمة هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **وما الله بغافل عما يعملون** ﴾ . وأول آية في الفقرة الثانية فيها قوله تعالى :

﴿ **ومن حيث خرجت فَوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ وخاتمتها هي ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ .

وهكذا يأتي مقطع القبلة من فقرات ثلاث واضحة المعالم : الأولى منها بمثابة التعليل للتغيير ، والثانية فيها أمر بالتغيير ، والثالثة فيها تأكيد للأمر . وفي كل من الفقرات الثلاث تعليم حجة أو إقامة حجة . وفي الفقرة الأولى والثالثة تبيان النعمة في شأن الأمر الناسخ . وفي الفقرة الثانية تهديد لمن خالف أو ناقش أو تردد ، وفي ثنايا ذلك ومع ذلك معان لا يحاط بها . وذلك كله أوسع من أن يستطيع البشر بعضه لمن عقل . وذلك مظهر من مظاهر الإعجاز .

تفسير الفقرة الثانية في مقطع القبلة :

آثار :

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : « كان أول ما نُسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود . فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس . ففرحت اليهود . فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً وكان يحب قبلة إبراهيم . فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء . فأنزل الله ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **فولّوا وجوهكم شطره** ﴾ فارتابت من ذلك اليهود وقالوا : ﴿ **ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها . قل لله المشرق والمغرب** ﴾

وقال ﴿ **فأينما تولوا فثَم وجه الله** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** ﴾ وروى ابن مردويه من حديث القاسم العمري عن عمه عبيد الله بن عمرو عن داود بن الحصين .... عن ابن عباس قال : « كان النبي - ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء . فأنزل الله ﴿ **فلنولينك قبلة ترضاها . فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ إلى الكعبة إلى الميزاب يؤمّ به جبرائيل عليه السلام » وروى الحاكم في مستدركه من حديث شعبة ... عن يحيى بن قطة قال : رأيت عبد الله بن عمرو جالساً في المسجد الحرام بإزاء الميزاب فتلا هذه الآية ﴿ **فلنولينك قبلة ترضاها** ﴾ قال : نحو ميزاب الكعبة . ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وفي ذكر ميزاب الكعبة في هذا النص والذي قبله إشارة إلى قبلة أهل المدينة ومن وراءهم . فميزاب الكعبة في الجهة الشمالية منها . وأهل المدينة في تلك الجهة بالنسبة للكعبة .

التفسير :

﴿ **قد نرى تقلّب وجهك في السماء** ﴾ أي تردد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء إذ كان رسول الله ﷺ كما رأينا يحب أن يحوّل إلى الكعبة موافقة لإبراهيم ومخالفة لليهود . ولأنها أدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومطافهم .

قال الألوسي : والظاهر أنه ﷺ لم يسأل ذلك من ربه . بل كان ينتظر فقط .. وذلك دلالة على كمال أدبه ﷺ ﴿ **فلنولينك قبلة ترضاها** ﴾ أي فلنعطينك ولنمكّننّك من استقبال هذه القبلة التي تحبها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها ووافقت مشيئة الله وحكمته . والفعل (ولّى) هنا يحتمل التولية . فإن كان من باب الولاية يكون المعنى ما ذكرنا . وإن كان من باب التولية يكون المعنى فلنجعلنك تتوجه سمت القبلة التي تحبها وتميل إليها ﴿ **فَوَلّ وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ أي : نحوه . فصار المعنى : « اجعل تولية وجهك تلقاء المسجد الحرام . وهل المراد إصابة عين الكعبة أو المراد الجهة ؟ قولان للأئمة في ذلك . والأكثر على أن المراد الجهة وهو أحد قولين للشافعي . ومما استدلّ به الحنفية وغيرهم على أن المراد إرادة الجهة لا عين القبلة من الآية ، أن الآية ذكرت المسجد الحرام ولم تذكر الكعبة بالذات . فدلّ ذلك على أن الواجب مراعاة الجهة دون العين . واستدلوا كذلك بقوله عليه الصلاة والسلام ما بين

المشرق والمغرب قبلة وهذا لمن كان في جهة الشمال أو الجنوب من الحرم . واستدلوا كذلك بالحديث « البيت قبلة لأهل المسجد . والمسجد قبلة لأهل الحرم . والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي » . أخرج ابن جريج عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ :

﴿ **وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ « أي حيثما كنتم من الأرض وأردتم الصلاة فولّوا وجوهكم نحوه » . **قال ابن كثير** : أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع الأرض شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حالة السفر . فإنه يصليها حيثما توجه قالَبه ، وقلبه نحو الكعبة . وكذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال ، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده وإن كان مخطئاً في نفس الأمر ؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها . وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليها الشافعي وأحمد وأبو حنيفة

قال شريك القاضي : ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة لأنه أبلغ في الخضوع وآكد في الخشوع ، وقد ورد به الحديث . وأما في حال ركوعه ، فإلى موضع قدميه . وفي حال سجوده إلى موضع أنفه ، وفي حال قعوده إلى حجره . ﴿ **وإن الذين أوتوا الكتاب** ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ **ليعلمون أنه الحق من ربهم** ﴾ أي ليعلمون أن التحويل أو التوجه إلى الكعبة هو الحق من الله عز وجل ، وهذا يقتضي أن أهل الكتاب بشقيْهم من يهود ونصارى يعلمون أن النبوة القادمة المبشّر بها قبلتها كعبة إبراهيم ، وهذا واضح لكل من تأمل موضوع البشارات بالنبوة القادمة في كتب العهد القديم التي هي محل اعتماد اليهود والنصارى . إذ في هذه البشارات كما نقلنا نصوصها في كتابنا « الرسول » ﷺ الفصل الخامس ، كلام عن مكة ، وإشارات إلى الكعبة بالذات .

﴿ **وما الله بغافل عما يعملون** ﴾ هذا وعيد للكافرين بالعقاب والعذاب على الجحود وإنكار الحق وكتمانه وإبائه . ﴿ **ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك . وما أنت بتابع قبلتهم . وما بعضهم بتابع قبلة بعض . ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين** ﴾ يخبر تعالى في هذه الآية عن كفر أهل الكتاب ، ومنهم اليهود . إذ هم المرادون أولا بهذا النص ، يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفون من شأن رسول ﷺ ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على

صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم ، كما في الآية إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به ، وأنه مستمسك بأمر الله وطاعته ، واتباع مرضاته ، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله . وفي الآية تحذير العالِم من مخالفة الحق الذي يعلمه إلى الهوى . فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره .

﴿ **ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك** ﴾ لأن تركهم المتابعة ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة . إنما هو عن مكابرة وعناد . وفي النص برهان قاطع على أن التوجه إلى الكعبة هو الحق ﴿ **وما أنت بتابع قبلتهم** ﴾ . هذا حسم لأطماعهم ، إذ كانوا اضطربوا في ذلك ، وقالوا لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره .وطمعوا فى رجوعه إلى قبلتهم .ووحدت القبلة فى النص مع أنهما قبلتان :قبلة لليهود ،وقبلة للنصارى لاتحادهم فى البطلان ﴿ **وما بعضهم بتابع قبلة بعض** ﴾ أي مع إنهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون في شأن القبلة لا يرجى اتفاقهم كما لا ترجى موافقتهم لك فاليهود تستقبل بيت المقدس ، والنصارى مطلع الشمس .

﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم** ﴾ أي من بعد وضوح البرهان والإحاطة بأن القبلة هي الكعبة . وأن دين الله هو الإسلام ﴿ **إنك إذاً لمن الظالمين** ﴾ أي لمن المرتكبين الظلم الفاحش . وفي ذلك لطف للسامعين وتهييج للثبات على الحق ، وتحذير لمن يترك الدليل بعد إنارته ، ويتبع الهوى . والخطاب في الظاهر للنبي عليه الصلاة والسلام والمراد أمته . وقد لزم الوقف على الظالمين في الآية . إذ ليس ﴿ **الذين** ﴾ بعدها صفة لها . ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين** ﴾ .

يخبرنا تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده من بين أبناء الناس كلهم . والعرب تضرب المثل في صحة الشيء بهذا . ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ . ثم ثبّت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين . وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ولاشك . ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه** ﴾ أي محمداً عليه الصلاة والسلام ، أو القرآن ، أو تحويل القبلة ، والأول أظهر ﴿ **كما يعرفون أبناءهم** ﴾ قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه : « أنا أعلم به مني

بابني . فقال له عمر : ولمَ ؟ . قال : لأني لست أشك في محمد أنه نبي . فأما ولدي فلعل والدته خانت . فقبّل عمر رأسه » . وفي رواية : « نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته ، فعرفته . وإني لا أدري ما كان من أمه » أي من أم ابنه . ﴿ **وإن فريقاً منهم** ﴾ أي الذين لم يسلموا ﴿ **ليكتمون الحق** ﴾ حسداً وعناداً ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ أن الله تعالى بينه في كتابهم ﴿ **الحق من ربك** ﴾ أي : الحق من الله لا من غيره . يعني أن الحق ما ثبت أنه من الله . كالذي أنت عليه . وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب فهو الباطل ﴿ **فلا تكونن من الممترين** ﴾ أي من الشاكين في أنه من ربك .

﴿ **ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات . أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً . إن الله على كل شيء قدير** ﴾ أي : ولكل أهل دين من أهل الأديان قبلة يرضونها . ووجهة الله حيث ما وجّه المؤمنين فيا أيها المؤمنون جدوا في الخيرات ، وليسابق بعضكم بعضاً . أو جدوا في الخيرات حتى تسبقوها وتكونوا أمامها . فالله تعالى هو القادر على جمعكم من الأرض ، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

﴿ **ولكل** ﴾ من أهل الأديان قبلة ﴿ **وجهة هو موليها** ﴾ . الضمير (**هو**) إما أن يعود لأهل كل دين . وإما أن يعود إلى الله . والضمير في موليها يعود على الوجهة . فصار المعنى على الاتجاه الأول في الضمير : ولكل أهل دين من الأديان قبلة يوليها وجهه . ويتوجه إليها منكم ومن غيركم . وعلى الاتجاه الثاني في الضمير : أن لأهل كل دين قبلة وجهها الله إليهم في الأصل . وقد وجّه هذه الأمة لقبلتها الجديدة التي هي القبلة الحق للناس والبشر . ﴿ **فاستبقوا الخيرات** ﴾ فاستبقوا أنتم وغيركم من الأمم الخيرات . فأهل كل دين سابق عندما كانوا على الحق ، فعلوا الخيرات . فأنتم فافعلوا وحاولوا أن تسبقوا . ﴿ **أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً** ﴾ فيفصل بين المحق والمبطل . ﴿ **إن الله على كل شيء قدير** ﴾ لا يعجزه شيء أراده . ويمكن أن تفهم الآية فهماً آخر هو :

ولكل منكم يا أمة محمد وجهة يصلي إليها ، جنوبية أو شمالية ، أو شرقية ، أو غربية . فاستبقوا الفاضلات من الجهات . وهي الجهات المسامتة للكعبة ، وإن اختلفت . أينما تكونوا من الجهات المختلفة يأت بكم الله جميعاً . ويجمعكم ويجعل صلاتكم كأنها إلى جهة واحدة . وكأنكم تصلون حاضري المسجد الحرام . وقد رد الألوسي هذا الاتجاه . ويمكن أن تفهم بداية الآية على ما ذكر هنا ، ونهايتها على ما ذكر من قبل .

فوائد :

١ - في التأكيدات الأخيرة من قوله تعالى ﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين** ﴾ **قال الألوسي** : تعظيم لأمر الحق ، وتحريض على اقتفائه ، وتحذير عن متابعة الهوى ، واستعظام لصدور الذنب عن الأنبياء وذو المرتبة الرفيعة إلى تجديد الإنذار عليه أحوج ، حفظاً لمرتبته ، وصيانة لمكانته . فلا حاجة إلى القول بأن الخطاب للنبي ، والمعني به غيره . لكن القرطبي يرى أن الخطاب للرسول ﷺ . والمراد به أمته .

٢ - عند قوله تعالى ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ﴾ يقول صاحب الظلال : (وإن كثيراً من طيبي القلوب ليظنون أن الذي يصد اليهود والنصارى عن الإسلام أنهم لا يعرفونه ، أو لأنه لم يقدم إليهم في صورة مقنعة .. وهذا وَهْم .. إنهم لا يريدون الإسلام لأنهم يعرفونه . يعرفونه فهم يخشونه على مصالحهم وسلطانهم ، ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الناصب الذي لا يفتر ، بشتى الطرَق ، وشتى الوسائل ، عن طريق مباشر ، وعن طرق أخرى غير مباشرة . يحاربونه وجهاً لوجه ، ويحاربونه من وراء ستار ، ويحاربونه بأنفسهم ، ويستهوون من أهله من يحاربه لهم تحت أي ستار ...)

٣ - **وعند قوله تعالى : ﴿ فلا تكوننَّ من الممترين ﴾** يقول الألوسي :

(وليس المراد نهي رسول الله ﷺ عن ذلك . لأن النهي عن شيء يقتضي وقوعه أو ترقبه من المنهي عنه ، وذلك غير متوقع من ساحة حضرة الرسول ﷺ . بل المراد إما تحقيق الأمر ، وأنه بحيث لا يشك فيه أحد كائناً من كان ، أو الأمر للأمة بتحصيل المعارف المزيلة لما نهى عنه . فيجعل النهي مجازاً عن ذلك الأمر . وعند النص نفسه يقول صاحب الظلال : « وما أجدرنا نحن اليوم أن نستمع إلى هذا التحذير ، ونحن في بلاهة منقطعة النظير ــ نروح نستفتي المستشرقين ــ من اليهود والنصارى والشيوعيين الكفار .. في أمر ديننا ، ونتلقى عنهم تاريخنا ، ونأمنهم على

القول في تراثنا ، ونسمع لما يدسّونه من شكوك في دراساتنا لقرآننا وحديث نبينا ، وسيرة أوائلنا ونرسل إليهم بعثات من طلابنا يتعلمون عنهم علوم الإسلام ، ويتخرجون في جامعاتهم ، ثم يعودون إلينا مدخولي العقل والضمير . إن هذا القرآن قرآننا . قرآن الأمة المسلمة . وهو كتابها الخالد الذي يخاطبها فيه ربها بما تعمله وما تحذره . وأهل الكتاب هم أهل الكتاب . والكفار هم الكفار ، والدين هو الدين » .

مسائل :

١ - **قال القرطبي** : « لا خلاف بين العلماء أن الكعبة قبلة في كل أفق ، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فرض عليه استقبالها . وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها وعالم بجهتها فلا صلاة له . وعليه إعادة كل ما صلى . ذكره أبو عمر . وأجمعوا على أن كل من غاب عنها ، أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها . فإن خفيت عليه ، فعليه أن يستدل على ذلك بكل ما يمكنه من النجوم ، والرياح ، والجبال ، وغير ذلك مما يمكن أن يستدلّ به على ناحيتها . ومن جلس في المسجد الحرام فليكن وجهه إلى الكعبة . وينظر إليها إيماناً واحتساباً ، فإنه يروى أن النظر إلى الكعبة عبادة » .

قال عطاء ومجاهد : « واختلفوا هل فرض الغائب استقبال العين ، أو الجهة ؟ فمنهم من قال بالأول .

قال ابن العربي : وهو ضعيف . لأنه تكليف لما لا يصل إليه . ومنهم من قال بالجهة ، وهو الصحيح لثلاثة أوجه : **الأول** : أنه الممكن الذي يرتبط به التكليف . **الثاني** : أنه المأمور به في القرآن لقوله تعالى : ﴿ **فَوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم** ﴾ يعني من الأرض من شرق أو غرب ﴿ **فولوا وجوهكم شطره** ﴾ **الثالث** : أن العلماء احتجوا بالصف الطويل الذي يُعلم قطعاً أنه أضعاف عرض البيت » .

٢ - من مجيء قوله تعالى ﴿ **فاستبقوا الخيرات** ﴾ بعد ﴿ **ولكل وجهة هو مولّيها** ﴾ فهم بعضهم أن المراد منه ، المبادرة بالصلاة أول وقتها أفضل وهو مذهب الشافعي ، وبعض الأئمة كمالك فصَّل . فأما الصبح والمغرب فأول الوقت فيهما

أفضل ، وأما العشاء فتأخيرها أفضل لمن قدر عليه ، وأما الظهر فأول الوقت أفضل إلا في شدة الحر . وأما العصر فتقديمها أفضل .. والحنفية يرون أن الإسفار في الفجر أفضل . ويوافقون مالكاً فيما سوى ذلك . ومناقشة الموضوع تكون في مذهبنا أن تأخير الصلاة رجاء الجماعة أفضل من تقديمها . فإن فضل الجماعة معلوم . وفضل أول الوقت مجهول . وتحصيل المعلوم أولى ، قاله ابن العربي .

كلمة في السياق :

جاءت الفقرة الأولى من مقطع القبلة بمثابة مدخل ومقدمة لتحويل القبلة . فبيَّنت حكمة التحويل ، وحكمة التوجه إلى القبلة الأولى ، وعلمت المسلمين كيف يردون على الاعتراضات ، وطمأنتهم على صلاتهم الأولى وثبتتهم على أمر الله .

ثم جاءت الفقرة الثانية وفيها الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام في الصلاة ، وأن هذا الأمر إنما جاء بعد تطلع إليه من رسول الله ﷺ ، وأن هذا التوجه معلوم لأهل الكتاب الذين يعرفون أن كعبة إبراهيم هي قبلة أمة النبي المبشَّر به .

ثم بيَّنت الفقرة أنه لن تزال أكثر من قبلة . وأن هذه القبلة هي الحق . وأن كلا من أهل الكتاب لن يرجع عن قبلته . ثم هددت الفقرة : أن يُتابع أهل الكتاب على أهوائهم . وكيف ! وهم يعرفون ، ويكتمون . ثم استقرت الفقرة في تقرير أن الحق من الله ، ونهت عن الشك في هذا الحق . وأن لكل من الناس وجهته . وأن على هذه الأمة أن تفعل الخيرات . وأن المرجع إلى الله .

ثم تأتي الفقرة الثالثة :

الفقرة الثالثة :

في هذه الفقرة كرر الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام . وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده . لأن النسخ من مظانّ الفتنة والشبهة ، فكرر عليهم الأمر ليثبتوا . على أنه قد نيط بكل أمر ما لم يُنَطْ بالآخر ، فاختلفت فوائدها ، وفي هذه الفقرة ذكرت الحكمة في الأمر بالتوجه الدائم إلى المسجد الحرام ، كما أن فيها أوامر ذكرت في معرض نعمة الأمر

بالتوجه ، وأي نعمة أجل من نعمة الهداية ؟ وأي نعمة أجلّ من نعمة إرسال رسولنا عليه الصلاة والسلام ؟ دعوة إبراهيم ، وبشارة عيسى عليهم السلام .

التفســـير :

﴿ **ومن حيث خرجت** ﴾ للسفر . ﴿ **فَوَلّ وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ أي : نحوه إذا صليت . ﴿ **وإنه** ﴾ أي هذا المأمور به ﴿ **لَلْحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ فراقبوا الله في أعمالكم كلها . ﴿ **ومن حيث خرجت فَوَلّ وجهك شطر المسجد الحرام . وحيث ما كنتم فَوَلُّوا وجوهكم شطره** ﴾ .

قال ابن كثير : « هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار العالم . وقد اختلفوا في حكم هذا التكرار ثلاث مرات . **فقيل** تأكيد . لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره . وقيل بل هو منزل على أحوال : **فالأمر الأول** : لمن هو مشاهد الكعبة . **والثاني** : لمن هو في مكة غائباً عنها . **والثالث** : لمن هو في بقية البلدان . هكذا وجهه فخر الدين الرازي » **وقال القرطبي** : **الأول** : لمن هو بمكة . **والثـاني** : لمن هو في بقيـة الأمصار . **والثـالث** : لمن خرج في الأسفـار . ورجح هذا الجواب القرطبي . وقيل إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق . فقال أولا ﴿ **قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها** ﴾ . إلى قوله ﴿ **وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون** ﴾ فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبته ، وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها .

وقال في الأمر الثاني ﴿ **ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وإنه لَلْحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ فذكر أنه الحق من الله . وارتقاءه المقام الأول حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ . فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرتضيه . وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يحتجون باستقبال الرسول إلى قبلتهم . وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام ، إلى الكعبة . وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف . وقد كانوا يعظمون الكعبة . وأعجبهم استقبال الرسول لها . وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار . وقد بسطها الرازي وغيره والله أعلم .

﴿ **لئلا يكون للناس عليكم حجة** ﴾ . أطلق اسم الحجة على المعاندين لأنهم يسوقونه سياق الحجة . علمتنا الآية أن على المسلم أن يبطل حجج أعداء الله بمواقفه وسلوكه ، وقد أبطل الله عز وجل حججاً كثيرة للكافرين على هذه الأمة بهذا التوجه إلى القبلة . إن كثيراً من الكافرين يريدون أن يبرهنوا على أن هذا الدين مأخوذ عن غيره ، بينما القاعدة الأساسية فيه هي التميز عن غيره ، والقبلة من مظاهر هذا التميز . فلو بقيت القبلة إلى غير الكعبة لكان للكافرين في ذلك كلام . ومن الحجج التي بطلت بهذا التوجه ، حجة العرب في أنه كيف يكون على ملّة إبراهيم ويتوجه إلى غير بيته ، ومن الحجج التي بطلت . زعم المشركين من العرب أن محمداً وأصحابه لا يعظمون الكعبة ، ومن الحجج التي بطلت . حجة أهل الكتاب أنه بالإمكان أن يتابع محمد أهل الكتاب ما دام تابعهم في بعض دينهم . فكان التوجه نحو الكعبة قطعاً لطمع أهل الكتاب في متابعة هذه الأمة . ﴿ **إلا الذين ظلموا منهم** ﴾ : الذين ظلموا هنا ، إما اليهود ، وإما قريش في ساعة نزول القرآن . وهي عامة في كل ظالم ، لأن الاستثناء من الناس . وكلمة الناس يدخل فيها الجميع . دلت الآية على أن المسلم لا ينبغي أن يبالي بالكلمة الظالمة ، ولا بحجة الظالم . ولكن عليه أن يبطل الحجج حتى لا ينخدع بها غير قائليها من الظلمة . وبالنسبة لموضوعنا إذا حملنا الآية على أن المراد بالظالمين اليهود ، فإنهم قالوا : ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه ، وحباً لبلده ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء عليهم السلام . وإذا حملنا الآية على أن المراد بالظالمين مشركو قريش إذ قالوا : بدا له فرجع إلى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم .

مثل هذه الحجج لا ينبغي أن تلتفت إليها هذه الأمة التي تعلم أن الحق والخير هو في طاعتها لله في جميع أحوالها . فلا تخرج عن أمر الله طرفة عين إلى كلام الخارجين عن أمر الله . ﴿ **فلا تخشوهم واخشوني** ﴾ . أي لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين . وأفردوا الخشية لي . فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه . فصار المعنى : لا تخشوا الظالمين ، فتخافوا مطاعنهم فإنهم لا يضرونكم . واخشوني ، فلا تخالفوا أمري . وهكذا شأن المسلم . إذا كان على الحق فإنه لا يبالي بأحد . ﴿ **ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون** ﴾ هذه معطوفة على قوله تعالى ﴿ **لئلا يكون للناس عليكم** ﴾ فصار المعنى وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة ، ولأتم نعمتي عليكم . ومن أجل هدايتكم . وإتمام النعمة هنا بشرع استقبال الكعبة ، لتكمل الشريعة من جميع وجوهها . وتتميز هذه الأمة بشعائرها وشرائعها . ﴿ **ولعلكم تهتدون** ﴾ مما

ضلت عنه الأمم في كل ما هو الأحب إلى الله والحق عنده ، هديناكم إليه ، وخصصناكم به . ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها . ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولا منكم** ﴾ . هذه الآية ، إما أنها متعلقة بما قبلها ، فيصبح المعنى : ولأتم نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول الذي يتلو ... وإما أنها متعلقة بما بعدها . فيصبح المعنى : كما ذكرتكم بإرسال الرسول فاذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب . فعلى هذا القول يوقف على ﴿ **تهتدون** ﴾ وعلى القول الأول لا يوقف . والخطاب في ﴿ **منكم** ﴾ للعرب . وفي ذلك إشعار للعرب بنعمة الله عليهم . فما أخس العرب إذا تركوا دعوة الله ودينه بعدما خصهم الله بها من جميع الأمم . وكلفهم بتبليغها لكل الأمم . ﴿ **يتلو عليكم آياتنا** ﴾ أي : يقرؤها عليكم . وآيات الله هي كتابه . ﴿ **ويزكيكم** ﴾ أي : يطهركم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية ويخرجكم من الظلمات إلى النور . ﴿ **ويعلمكم الكتاب** ﴾ . أي : القرآن . فهو يقرأ عليهم القرآن ويعلمه لهم . ففي التعليم زيادة على التلاوة . وذلك أن التلاوة وحدها مقصودة . وتعليم القرآن كذلك مقصود ولهذا فإن علينا أن نقيم حلقات التلاوة والتجويد ، كما نقيم حلقات التفسير . ﴿ **والحكمة** ﴾ الحكمة : السنَّة والفقه .

﴿ **ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون** ﴾ مما لا سبيل إلى معرفته إلا بالوحي . كانوا في الجاهلية الجهلاء ، فانتقلوا ببركة رسالته ، ويُمن سفارته إلى حال الأولياء ، وسجايا العلماء . فصاروا أعمق الناس علماً ، وأبرهم قلوباً ، وأقلهم تكلفاً ، وأصدقهم لهجة . ولهذا ندب الله المؤمنين بالآية التالية إلى الاعتراف بهذه النعمة ، ومقابلتها بذكره وشكره ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ .

فاذكروني بالطاعة ، أذكركم بالمغفرة . أو بالثناء والعطاء . أو اذكروني بالسؤال أذكركم بالنوال . أو اذكروني بالتوبة ، أذكركم بعفو ... أو اذكروني بالإخلاص ، أذكركم بالخلاص . أو اذكروني بالمناجاة ، أذكركم بالنجاة . أو اذكروني بهذا كله وغيره ومثله ، أذكركم بهذا كله وغيره ومثله . واشكروا لي ما أنعمت به عليكم ولا تكفرون أي : لا تجحدوا نعمائي . أمر الله تعالى بشكره ، ووعد على شكره بمزيد الخير ﴿ **وإذ تأذَّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ . (سورة إبراهيم)قال الله عز وجل : « يا ابن آدم .. إن ذكرتني في نفسك ، ذكرتك في نفسي . وإن ذكرتني في ملأ ، ذكرتك في ملأ من الملائكة . أو قال : في ملأ خير منه . وإن دنوت مني شبراً ، دنوت منك ذراعاً . وإن دنوت مني ذراعاً ، دنوت منك باعاً . وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة » .

صحيح الإسناد . أخرجه البخاري من حديث قتادة . وعنده قال قتادة : الله أقرب بالرحمة .

قال الحسن البصري : « إن الله يذكر من ذكره . ويزيد من شكره . ويعذب من كفره » .

فوائد ومسائل :

١ - قال صاحب الظلال في تفسير الشكر : « والشكر درجات . تبدأ بالاعتراف بفضله ، والحياء من معصيته . وتنتهي بالتجرد لشكره . والقصد إلى هذا الشكر في كل حركة بدن ، وفي كل لفظة لسان ، وفي كل خفقة قلب ، وفي كل خطرة جنان » .

٢ - قال القرطبي : « الخشية أصلها : طمأنينة في القلب ، تبعث على التوقي والخوف . فزع القلب تخف به الأعضاء . ولخفة الأعضاء به سمي خوفاً » .

وقال : « وأصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له . وسمي باللسان ذكراً ، لأنه دلالة على الذكر القلبي . غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق للفهم » . ونقل عن سعيد بن جبير قوله : « الذكر طاعة الله . فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن » .

وقال القرطبي : « وسئل أبو عثمان فقيل له : نذكر الله ولا نجد في قلوبنا حلاوة ؟ فقال : احمدوا الله تعالى على أن زيّن جارحة من جوارحكم بطاعته » .

٣ - ذكر القرطبي الخلاف في المتنفل في السفر على الدابة . هل يتوجه في ابتداء صلاته إلى القبلة ثم يتم صلاته حيث توجهت به راحلته ، أوْ لا يلزمه التوجه إلى الكعبة أصلًا ابتداءً وانتهاءً ؟ فذكر أن مذهب الشافعي وأحمد وأبي ثور ، الأول . وأن مذهب مالك أنه لا يلزم الاستقبال . أقول : وفي قول مالك فسحة لمن أراد التنفل في عصرنا وهو مسافر راكب . لأنه قد يشق عليه أن يتوجه إلى القبلة في ابتداء صلاته إذا كان راكباً سيارة أو قطاراً ...

٤ - تزكية النفس بدايتها ونهايتها التوحيد . ويدخل في ذلك تطهيرها من أمراضها وتحقيقها بكمالاتها . ومنعها المحرمات وإقامتها للطاعات . والأمر واسع جداً ، وتزكية الأمة بإقامة شرع الله كاملًا . والأمر كذلك واسع . والرسول ﷺ تلا علينا الآيات وزكانا ، وعلمنا القرآن وعلمنا السنّة . فأصبحنا بذلك نضع الأمور كلها في مواضعها

فأصبحنا حكماء . وعلمنا الطريق الذي نتعرف به حكم الله ، والذي نصل به إلى كل حكم عادي أو عقلي في أمر دنيا أو أخرى . فأي نعمة أجل ؟ . وفي منة الله علينا بالتزكية بواسطة رسوله ﷺ . يقول صاحب الظلال :

« ولكنه أرسل رسوله ﷺ يطهرهم . يطهّر أرواحهم من لوثة الشرك ودنس الجاهلية ، ورجس التصورات التي تثقل الروح الإنساني وتغمره . ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات . فلا ترتكس أرواحهم في الحمأة . والذين لا يطهر الإسلام أرواحهم في جنبات الأرض كلها قديماً وحديثاً يرتكسون في مستنقع آسن وبيء من الشهوات والنزوات ، تزري بإنسانية الإنسان ، وترفع فوقه الحيوان المحكوم بالفطرة . وهي أنظف كثيراً مما يهبط إليه الإنسان بدون الإيمان ، ويطهر مجتمعهم من الربا والسُّحت والغش والسلب والنهب .. وهي كلها دنس يلوث الأرواح والمشاعر ويلطّخ المجتمع والحياة . ويطهر حياتهم من الظلم والبغي . وينشر العدل النظيف الصريح الذي لم تستمتع به البشرية كما استمتعت في الإسلام ، وحكم الإسلام ، ومنهج الإسلام . ويطهرهم من سائر اللوثات التي تلطّخ وجه الجاهلية في كل مكان من حولهم ، وفي كل مجتمع لا يزكيه الإسلام بروحه ومنهجه النظيف الطهور ... » .

٥ - ذكرت الآية ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون** ﴾ بعض مهمات رسول الله ﷺ وإن من الوراثة الكاملة لرسول الله أن يقوم إنسان ما بهذه الوظائف ، فيزكي الأنفس بالعلم والعمل والحال والقدوة . ويقيم حلقات التلاوة وحلقات التفسير ، وحلقات السنَّة ، وحلقات الفقه .

وإن على المسلمين جميعاً أن يقيموا هذا أخذاً وعطاءً . والتلاوة واضحة . وطريق إقامتها واضحة . ويدخل فيها علم التجويد وآداب التلاوة . وتعليم الكتاب والحكمة واضح . ويدخل في ذلك علم التفسير للكتاب والسنَّة . ومن علّم القرآن بتفسير آياته من خلال حديث رسول الله ﷺ يكون قد حقق ذلك .

وتعليمنا ما لم نكن نعلم يدخل فيه الفقه في الدين بشكل شامل في كلياته ، وجزئياته ، ويدخل فيه علم الفقه وأصوله ، وعلم التوحيد ، وأمثال ذلك . بقيت قضية التزكية . فالتزكية في الحقيقة شيء زائد على العلم . فالعلم يعطي القواعد والبيان لكل شيء . أما التزكية فهي تطبيق هذا العلم على النفس البشرية ، وأمراضها ، وأغراضها ،

ومعرفة بالتطبيب وطرقه ، ومعرفة بالكمال وكيفية النقل إليه ، وأدوات ذلك ، وفراسة خاصة بكل نفس لنقلها من حال إلى حال . وهذا شيء للكسب فيه نصيب . ولكن عطاء الله هو الأساس ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾ .

٦ - روى الإمام أحمد عن عائشة (رضي الله عنها) عن رسول الله ﷺ قال في أهل الكتاب : « إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها ، وضلوا عنها ، وعلى القبلة التي هدانا الله إليها ، وضلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام : آمين » أقول ولا زالت الجمعة والجماعة والكعبة هي أعظم مظهر من مظاهر وحدتنا التي تغيظ الكفار .

٧ - روى الإمام أحمد عن أبي رجاء العطاردي قال : « خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده . فقال : إن رسول الله ﷺ قال : من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه » .

٨ - جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن . وقد أمر أن يستقبل الكعبة ، فاستقبلوها . وكانت وجوههم إلى الشام . فاستداروا إلى الكعبة » . قال ابن كثير : وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به ، وإن تقدم نزوله وإبلاغه . لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء .

كلمة في الفقرة وسياقها ، والمقطع وسياقه :

١ - كررت هذه الفقرة الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام ، وبينت الحكمة في ذلك وهي : قطع الطريق على أي كلمة يقولها كافر محتجاً على هذه الأمة . وإتمام النعمة على هذه الأمة بأن تكون أمة متميزة . وهداية هذه الأمة إلى الحق في كل شيء . وفي الأصل ومن أجل الهداية الكاملة بعث الله محمداً ﷺ . وبمناسبة الكلام عن ذلك ذكر الله عز وجل مجموع ما أنعم به على هذه الأمة من هداية من خلال بعثة الرسول ﷺ : التعريف بآياته ، وتعليم الكتاب والحكمة ، وتطهير الأنفس ، والتعريف على كل ما يحتاج إلى تعليم . وعندئذ يذكرنا الله عز وجل بما ينبغي أن نقابل ذلك :

﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ كما أرسلت فيكم رسولا فعل لكم كذا وكذا . فقابلوا ذلك بالذكر والشكر . ويأتي المقطع اللاحق ليدلنا على طريق الذكر والشكر كما سنرى .

وهكذا نجد أن مقطع القبلة في فقراته الثلاث قد تكاملت المعاني فيه حتى وضع قضية القبلة في محلها في حياة هذه الأمة ، مبيناً قيمة هذا التوجه الكريم إلى كعبة إبراهيم .

٢ - يلاحظ أن مقطع (إبراهيم) عليه السلام قد وردت فيه دعوة إبراهيم لذريته ﴿ **وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ . وفي مقطع القبلة يمنُّ الله على هذه الأمة أنه فعل ذلك . ويأتي ذلك في معرض الكلام عن اتخاذ كعبة إبراهيم قبلة : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلكم ما لم تكونوا تعلمون** ﴾ . وفي ذلك من تكامل المقطعين وترابطهما ما فيه .

٣ - جاء مقطع القبلة في سياق القسم المبدوء بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم ...** ﴾ فهو يعرفنا على قضية من قضايا العبادة . وهي التوجه إلى الله في العبادة ، التي هي عمود الإسلام لله رب العالمين . فمحل المقطع في سياق قسمه واضح المعالم .

٤ - وكان مقطع القبلة استمراراً للحوار مع أهل الكتاب . وهو حوار فُتح منذ مقطع بني إسرائيل ، واستمر في مقطع إبراهيم ، ولا يزال .

٥ - إن المقطع اللاحق لمقطع القبلة مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ . ومقطع القبلة له صلة بالصلاة . فصلة ذلك ببعضه ، وصلة ذلك بالعبادة ، وصلة ذلك كله بقضية التقوى التي جاءت مقدمة سورة البقرة ، لتقرر فيها ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ...** ﴾ . ثم صلة ذلك كله بقضية الهداية الربانية . وهي ما أوصلتنا إلى وجوبه قصة آدم . إن صلات ذلك كله ببعضه لا تخفى على المتأمل . وما يفوت كل متأمل على حدة من إدراك الصلات ، وما يفوت الجميع كثير كثير .

٦ - يلاحظ أن مقطع القبلة سُبق بمقطعين كانا بمثابة المقدمتين له . لقد رأينا كيف شوّش أهل الكتاب على المسلمين في موضوع القبلة . فكان مقطع بني إسرائيل وما ذكر فيه بمثابة تفريغ للثقة أصلا بأهل الكتاب عامة ، وباليهود خاصة . فكان كالمقدمة الأولى لجعل هذا التشويش لا قيمة له . ثم جاء مقطع إبراهيم فكان استمراراً لعملية تحطيم الثقة ، وتمهيداً لقضية القبلة . فكان كالمقدمة الثانية . ثم جاء مقطع القبلة .

فإذا تذكرنا هذا . وتذكرنا ما مر معنا من قبل ندرك درساً من دروس الحكمة

الربانية في أن الله جعل هذا القرآن على ما هو عليه من ترتيب ، وندرك بذلك لِمَ لَمْ يكن هذا القرآن فصولا وأبواباً تضع النظير إلى جانب النظير . والأمر أوسع من ذلك بكثير كما سنرى . ولكنها لفتة أحببنا أن نذكرها هنا .

٧ – لقد بدأ مقطع القبلة بالكلام عن التوجه إلى المسجد الحرام في الصلاة ، وانتهى بالأمر بالذكر والشكر . وقبل ذلك جاءت قصة إبراهيم عليه السلام . وجاء مقطع بني إسرائيل . وجاء مقطع آدم عليه السلام . وجاء قبل ذلك كله الأمر بالعبادة . فكان مقطع القبلة بعد تقريرات كثيرة لشؤون كثيرة ، هو التبيان العملي لأمور عملية في موضوع العبادة . وكأن ما سبقه بمثابة أساس نظري لبناء الجانب العملي . وسنرى كيف أن الجانب النظري والعملي سيتساوقان في المقطع اللاحق . ثم لنرى أن بدايات القسم الثاني من السورة كذلك . ثم يتمحض القسم الثاني لتقرير أمور عملية تتكامل خلالها قضية بناء التقوى ليأتي بعد ذلك القسم الثالث في البقرة فيكمل بناء الأمة المشرق بالإسلام . ويكمل بناء الإسلام .

٨ – عمَّق مقطع القبلة في سياقه أن الأصل هو طاعة الله . واتباع هداه . والقيام بالتكليف كائناً ما كان . لااتباع الهوى في مثل توجهٍ نحو شرق وغرب ﴿ **قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ . وسنرى أن المقطع الأول من القسم الثاني من سورة البقرة سينتهي بآية ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب . ولكن البر** ... ﴾ فلنتذكر الصلة بين هذا المقطع وآية البر التي ستأتي ، والتي هي خاتمة الحوار الذي بدأ مع أهل الكتاب في سورة البقرة .

وسنرى من خلال هذه الصلة كيف أن الصلات بين أقسام سورة البقرة ، والمقاطع في هذه الأقسام ، وبين المقدمة والخاتمة والوسط واسعة جداً ، حتى لا يحاط بها . وفي ذلك مظهر من مظاهر الإعجاز في هذا القرآن .

المقطع السادس والأخير من القسم الأول من سورة البقرة :

ويمتد هذا المقطع من الآية (١٥٣) إلى نهاية الآية (١٦٧) ويتألف من فقرتين وهذا هو . الفقرة الأولى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

* * *

إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

* * *

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

الفقرة الثانية :

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

كلمة في هذا المقطع وسياقه :

يأتي هذا المقطع خاتمة لقسم وفيه معانٍ متعددة . وقد لا يلحظ المتأمل لأول وهلة الصلات التي تربط بين معاني هذا المقطع نفسه فضلا عن الصلات بينه وبين ما سبق ولذلك فإننا نرجو أن يتابعنا القارىء بدقة ونحن نعرض لمحل هذا المقطع في السياق ولسياقه الخاص به :

١ – سبق هذا المقطع بشكل مباشر قوله تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي**

ولا تكفرون ﴾ . وجاء هذا المقطع ليدلنا على جوانب في الذكر والشكر والكفران . فالاستعانة بالصبر والصلاة ذكر . ومن ذكر الله بالصبر ذكره الله بالرحمة .

ومِن شكر الله ، السعي بين الصفا والمروة . ومن الكفران ، كتمان ما أنزل الله . وجزاء الكفران ، اللعنة . ورأس الذكر والشكر ، التوحيد . وإن مما يدل على التوحيد ويستخرج به الذكر والشكر ما أنعم الله على الإنسان من كثير النعم . ومع أن مقتضيات الذكر والشكر كثيرة فهناك ناس يتخذون من دون الله أنداداً ... على هذه الشاكلة تتسلسل المعاني في هذا المقطع ، وصلة ذلك في الآية السابقة مباشرة على المقطع واضحة جداً .

٢ - بدأ هذا القسم بالدعوة إلى العبادة والتوحيد للتحقق بالتقوى . ونفّر عن السلوك المؤدي إلى الكفر والنفاق والفسوق . ثم جاء مقطع آدم ، فمقطع بني إسرائيل الذي كان في بدايته النهي عن كتمان الحق ﴿ **وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾ وكان فيه حوار مع أهل الكتاب ، ثم جاء مقطع إبراهيم وفيه تركيز على الكعبة وذكر للمناسك ، ثم جاء مقطع القبلة ، ثم جاء المقطع الأخير في القسم ، وله صلة بذلك كله :

فمواقف أعداء الله تحتاج إلى استعانة بالصبر والصلاة ، وهما عبادة ، وارتباط ذلك بالأمر بالعبادة وبالأمر الذي وجه لبني إسرائيل ولم يعقلوه ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ . وبالحوار معهم ، وبالقبلة ، واضح . والصفا والمروة من شعائر الله . فالكلام عنهما استكمال للكلام الذي بدأ في مقطع إبراهيم . والترهيب من كتمان ما أنزل الله ، والترهيب من الكفر هو التحذير المتوقَّع بعد هذه الجولات الطويلة مع اليهود وغيرهم ، وإعلان التوحيد . والتنديد بالمشركين في آخر المقطع هو مظهر الانسجام الكامل بين بداية القسم كله ونهايته .

لاحظ كيف أن بداية القسم كانت دعوة لعبادة الله وحده . وتعليلا ونهياً عن الشرك :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً

وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ

رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)

إن في هذه البداية دعوة إلى العبادة والتوحيد . وتعليلا لهذه الدعوة ، كما فيها نهي عن الشرك . وانظر نهاية القسم ففيها إعلان التوحيد . والتعليل له والتحذير من الشرك .

الإعلان : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ .

التعليل : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري ......** ﴾

التحذير : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . والذين آمنوا أشد حباً لله . ولو يرى الذين ظلموا ......** ﴾ .

وهكذا نجد أن الصلة بين بداية هذا القسم ونهايته على أوضح ما تكون . وإذا اتضحت الصلة بشكل عام بين هذا المقطع والآية السابقة عليه . وبين هذا المقطع والمقاطع السابقة عليه فلنبدأ عرض المجموعة الأولى من الفقرة الأولى منه . إذ المقطع فقرتان ، الفقرة الأولى : تعرض ما هو ذكر وشكر ، وتوضح قضايا من الكفر . والفقرة الثانية : تعرض ما هو ذكر وشكر ، وتوضح جوانب من الكفر :

المجموعة الأولى من الفقرة الأولى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين * ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياء ولكن لا تشعرون * ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصّابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ . الصلة واضحة بين هذه المجموعة وما قبلها من حيث إن جولات الحوار السابقة التي عرضها القرآن بين أهل الإيمان وغيرهم تقتضي تثبيتاً ومساعدات على هذا الثبات كما أن جولات الحوار تخللها ما يدل على أن الكافرين والظالمين ستكون لهم مواقف ﴿ **إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني** ﴾ وهذا يقتضي ما يقابله بشكل مكافىء . فإذا وقع ما وقع فكيف ينبغي أن تكون مواقف هذه الأمة . مثل هذه المعاني كلها وغيرها انتظمتها المجموعة الأولى في الفقرة الأولى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾ .

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر والإرشاد إلى ما يتم به ، من معرفة بالله وبما أعد للشهداء والصابرين . وقد أمر بهذه الآية بالاستعانة بالصبر والصلاة فهما أجود ما يستعان به على تحمل المصائب . وفي الحديث « إن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة » والصبر صبران : صبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات ، والثاني أكثر ثواباً ، لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب ، فذاك أيضاً واجب كالاستغفار من المعايب . ويدخل بالأمر بالاستعانة بالصبر ، الصوم لأنه نصف الصبر . كما يدخل بالأمر بالاستعانة بالصلاة قراءة الفاتحة والدعاء . لأن الفاتحة صلاة ولأن الدعاء صلاة . ولكن المقصود الرئيسي من الصبر التصبر . فإذا وضح هذا نقول :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر** ﴾ لأنه به تنال كل فضيلة ﴿ **والصلاة** ﴾ لأنها تنهى عن كل رذيلة وتعطي صاحبها اطمئناناً . ﴿ **إن الله مع الصابرين** ﴾ بالنصر والمعونة . قال عليه الصلاة والسلام « عجباً للمؤمن لا يقضي له الله قضاءً إلا كان خيراً له .. إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له » .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « الصبر في بابين : الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان . والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء . فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله » . **وقال سعيد بن جبير** : « الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه ، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه . وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر » .

﴿ **ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون** ﴾ ، يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يُرزقون كما جاء في صحيح مسلم : « إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت . ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش فاطلع عليهم ربك اطّلاعة فقال : ماذا تبغون . فقالوا : يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك . ثم عاد عليهم بمثل هذا . فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى . لما يرون من ثواب الشهادة . فيقول الرب جل جلاله : إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون » .

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ : « نسمة المؤمن طائر تعلق

في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى حيث يبعثه » . ما يدل على أن هذا الخير لعموم المؤمنين أيضاً وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر بالقرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً . وفي الآية نهي لنا أن نصف من قتل في سبيل الله بالموت ، إذ هو حي حياة لا نشعر بها ، لأن حياة الشهداء لا تُعلم حساً . ذكر النسفي عن الحسن رضي الله عنه : (أن الشهداء أحياء عند الله ، تعرض أرزاقهم على أرواحهم ، فيصل إليهم الرَوْح والفرح كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدواً وعشياً ، فيصل إليهم الوجع) .

﴿ ولَنبلونَّكم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ .

أمر في بداية المقطع بالاستعانة بالصبر والصلاة . ووعد على الصبر النصر والمعونة . ثم ذكر بعد ذلك ما يعين على الصبر على أعظم المصائب في الله وهو القتل ، بأن عرفنا حال الشهيد عنده . ثم بين لنا حال الصابرين ، وحقيقة الصبر ، وأجره ، وعلى ماذا يكون ، فاستكملت المجموعة بذلك قضية الصبر المكمِّل للشكر ، الذي طولبنا به في نهاية المقطع السابق . وهل الإسلام إلا صبر وشكر ﴿ **ولَنبلونَّكم** ﴾ . أي : لنمتحننكم ولنختبرنّكم ﴿ **بشيء** ﴾ أي : بقليل مما ذكر . وقلل ليؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان وإن جل ففوقه ما يقل إليه . ويرينا أن رحمته معنا في كل حال . وأعلمنا بوقوع البلواء قبل وقوعها لنوطِّن نفوسنا عليها ﴿ **من الخوف** ﴾ خوف العدو ﴿ **والجوع** ﴾ القحط أو الإملاق أو الفاقة أو العَوَز . ﴿ **ونقصٍ من الأموال** ﴾ أي : ذهاب بعضها كموت المواشي وأمثال ذلك ﴿ **والأنفس** ﴾ كموت أو قتل الأصحاب والأقارب والأحباب والإخوان ، أو بالمرض والشيب . ﴿ **والثمرات** ﴾ فلا تقل الحدائق والمزارع كعادتها . قال بعض السلف : فكانت بعض النخيل لا تثمر إلا واحدة . وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده . فمن صبر أثابه ومن قنط حل به عقابه . ﴿ **وبشِّر الصابرين** ﴾ . الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يتأتى منه البشارة . والصابرون : هم الذين صبروا على هذه البلايا واسترجعوا عندها لأن الاسترجاع تسليم وإذعان . وهذا غاية الصبر . وأعلى منه الرضى .

﴿ **الذين إذا أصابتهم مصيبة** ﴾ من مكروه أو شدة . ﴿ **قالوا إنا لله** ﴾ إقراراً له بالملك . ﴿ **وإنا إليه راجعون** ﴾ إقرار على أنفسهم بالهلك والعودة إليه ، يتسلون بقولهم هذا عما أصابهم . عالمين أنهم ملك لله . يتصرف بعبيده بما يشاء وأنه لا يضيع

لديه مثقال ذرة يوم القيامة . فأعطاهم الله مقابل اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة أن رحمهم وأمنهم وهداهم .

﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم** ﴾ أي تعطف وحُنو . ﴿ **ورحمة** ﴾ أي : أمنة من العذاب . ﴿ **وأولئك هم المهتدون** ﴾ إلى الطريق الصواب وذلك حين استرجعوا وأذعنوا لأمر الله . قال عمر رضي الله عنه : نعم العدلان ونعم العلاوة أي : الصلاة والرحمة والاهتداء .

فوائد :

١ - قال تعالى ﴿ **هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ ، ظلمات الشهوة والشك والشرك والكفر والنفاق والحيرة وغير ذلك . وقد جعل الله عز وجل مما لو فعلناه صلى علينا ما رأينا في هذه الآيات عندما ذكر المسترجعين عند المصيبة ، الصابرين عليها فإنه يصلي عليهم فلنحصل هذا المقام .

٢ - ورد في الاسترجاع آثار كثيرة منها : أخرج الإمام أحمد عن أم سلمة قالت : « أتاني أبو سلمة رضي الله عنه يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولا سُررت به ، قال : لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول : اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها ، إلا فعل ذلك . قالت أم سلمة : فحفظت ذلك منه . فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت : اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها . ثم رجعت إلى نفسي فقلت من أين لي خير من أبي سلمة ؟ . فلما انقضت عدتي استأذن عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهاباً لي . فغسلت يدي من القرظ وأذنت له . فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف . فقعد عليها فخطبني إلى نفسي ، فلما فرغ من مقالته ، قلت يا رسول الله : ما بي أن لا يكون بك الرغبة ، ولكني امرأة فيَّ غيرة شديدة ، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به ، وأنا امرأة قد دخلت في السن . وأنا ذات عيال . فقال ﷺ : وأما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك ، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي » .

قالت : فقد سلّمت لرسول الله ﷺ . فتزوجها رسول الله ﷺ . فقالت أم سلمة بعد : أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه : (رسول الله ﷺ) » وفي صحيح مسلم بمعناه . وأخرج الإمام أحمد وابن ماجه عن الحسين بن علي عن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها ـ وقال عباد : قدم عهدها ـ فيحدث لذلك استرجاعا إلا جدد الله عز وجل له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب » .

وأخرج الإمام أحمد والترمذي وقال حسن غريب عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله : يا ملك الموت . قبضت ولد عبدي ؟. قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده ؟. قال نعم . قال : فما قال ؟. قال : حمدك واسترجع . قال ابنوا له بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد » .

٣ ـ بعد الأمر بالشكر جاء الأمر بالصبر . والشكر أعلى مقامات السالكين . ولا سلوك بلا صبر . فالصبر زاد الطريق من بدايته إلى نهايته . وقد يجر الهلع والجزع وانعدام الصبر إلى الكفر والعياذ بالله وأعلى من الصبر والتسليم والرضا بقضاء الله فيا ابتلى . وقد جاء الكلام عن الذكر والشكر والصبر والصلاة بين القبلة والسعي بين الصفا والمروة مما يذكرنا بأن هذا الدين شعائر كما أنه شرائع . وخصائص نفسية كما هو أعمال بدنية . وأن لتكوين النفس ارتباطاً بعمل البدن ...

٤ ـ يلاحظ أن الخطاب الأول للمؤمنين بصيغة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ...** ﴾ . في هذه السورة جاء في سياق الحوار مع بني اسرائيل . فكان هناك بمثابة درس في سياق خطاب الآخرين ، إلا أن هذه المجموعة في هذا المقطع يتوجه فيها الخطاب لأهل الإيمان بصيغة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ..** ﴾ بشكل مباشر في السياق . فكأن الإيمان نما لدرجة استقلال شخصية أصحابه بعد أن أصبحوا مستقلين بقبلتهم . فأصبحوا يخاطَبون بشكل مباشر . لا من خلال لفت نظر ، أو إعطاء درس من خلال تصرفات الآخرين . وهذه نقطة مهمة في الدعوة والتربية :

فكثيراً ما يضطر الداعية والمربي إلى تحريك العواطف الإيمانية ، من خلال لفت النظر إلى تصرفات أهل الكفر . ولكن هذا إنما يكون بمثابة علاج لقصور أو لفتور أو لمرض

ريثما يعي المسلم حقيقة مركزه في الوجود . فلا ينظر إلى الأمور إلا من خلال وظيفته كإنسان مكلف أمام الله . فيرى الأمور كلها ببصيرة أهل الإيمان .

٥ - يقدم صاحب الظلال لهذه المجموعة بقوله :

« بعد تقرير القبلة وإفراد الأمة المسلمة بشخصيتها المميزة ، التي تتفق مع حقيقة تصورها المميزة كذلك .. كان أول توجيه لهذه الأمة ذات الشخصية الخاصة والكيان الخاص ، هذه الأمة الوسط الشهيدة على الناس .. كان أول توجيه لهذه الأمة هو الاستعانة بالصبر والصلاة على تكاليف هذا الدور العظيم . والاستعداد لبذل التضحيات التي يتطلبها هذا الدور من استشهاد الشهداء ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، والخوف والجوع ، ومكابدة أهوال الجهاد لإقرار منهج الله في الأنفس ، وإقراره في الأرض بين الناس ، وربط قلوب هذه الأمة بالله ورحمته وهدايته وهي وحدهاجزاء ضخم للمؤمن الذي يدرك قيمة هذا الجزاء » .

ويختم صاحب الظلال الكلام عن هذه المجموعة معلقاً على قوله تعالى :

﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ بقوله :

« وبعد . فلابد من وقفة أمام هذه الخاتمة في تلك التعبئة للصف الإسلامي . التعبئة في مواجهة المشقة والجهد والاستشهاد والقتل والجوع والخوف ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات . التعبئة في هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف . إن الله يضع هذا كله في كفة ، ويضع في الكفة الأخرى أمراً واحداً .. صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون .. إنه لا يعدهم هنا نصراً ، ولا يَعدُهم هنا تمكيناً ولا يعدهم مغانم ولا يعدهم هنا شيئاً ، إلا صلوات الله ورحمته وشهادته .. لقد كان الله يُعد هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها ، وأكبر من حياتها . فكان من ثَم يجردها من كل غاية ، ومن كل هدف ومن كل رغبة من الرغبات البشرية - حتى الرغبة في انتصار العقيدة - كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته .. كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضى الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون . هذا هو الهدف ، وهذه هي الغاية ، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها . فأما ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم ، إنما هو لدعوة الله التي يحملونها .

إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء . جزاء على التضحية بالأموال والأنفس

والثمرات . وجزاء على الخوف والجوع والشدة . وجزاء على القتل والشهادة إن الكفة ترجح بهذا العطاء ، فهو أثقل في الميزان من كل عطاء . أرجح من النصر ، وأرجح من التمكين ، وأرجح من شفاء غيظ الصدور .

هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الإعداد العجيب . وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين » .

كلمة في سياق المجموعة :

انتهت المجموعة بقوله تعالى : ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ لاحظ كلمة ﴿ **المهتدون** ﴾ . وتذكر خاتمة قصة آدم عليه السلام : ﴿ **فمن تبع هداي** ﴾ . ثم تذكر مقدمة سورة البقرة وفيها ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ إذا أدركت هذا كله أدركت محل هذه المجموعة في السياق القرآني وأدركت قيمة الصبر في دين الله . وأدركت الجانب العملي في هذا المقطع بعد ذلك الحوار الطويل . ثم إذا لاحظت أن هذه المجموعة جاءت بعد قوله تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ . فإنك ترى فيها نموذجاً على ذكرٍ نفعله لله ، ونموذجاً على نوع من الذكر يذكّرنا الله به . فإذا ذكرت الله عند المصيبة بالاسترجاع ، ذكَرك الله بالصلاة عليك والرحمة لك . كما ترى فيها نموذجاً على نوع من الكفر لا ينبغي أن يقربه الإنسان . وهو أن يقول لمن يقتل في سبيل الله إنه ميت .

وقد جاءت هذه المجموعة في مقطعها قبل الأمر بالسعي بين الصفا والمروة ، وقبل الترهيب من كتمان ما أنزل الله ، وقبل التحذير من الموت على الكفر ، وقبل إعلان التوحيد . وكلها قضايا تحتاج إلى استعانة بالصبر والصلاة . وجاء هذا المقطع خاتمة لقسم وسابقاً لقسم . وفي القسم الثاني من سورة البقرة أوامر ونواهٍ ، منها الأمر بأكل الطيبات ، ومنها الأمر بالصوم ، ومنها الأمر بالقتال ، ومنها الأمر بالحج . وكلها تحتاج إلى صبر وإلى استعانة بالصبر والصلاة . كما جاء المقطع بعد سياق طويل . فكان ما سبقه يحتاج إلى هذا التعليم للمؤمنين أن يستعينوا بالصبر والصلاة . وبعد المجموعة الأولى من الفقرة الأولى تأتي آية :

﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يطَّوَّف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم** ﴾ .

كلمة في السياق :

١ - إن أمر الصفا والمروة كان من المتردد فيه - كما سنرى في أسباب النزول - هل هو من الذكر والشكر اللذين أمر الله بهما قبل هذا المقطع في مقابل بعثة الرسول ﷺ ،؟ أو هو من الكفر الذي نهى الله عنه ؟ ومن ثَم - والله أعلم - جاء البتّ فيه في هذا السياق على أنه من الشكر ومن شعائر الله ﴿ **ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم** ﴾ .

٢ - في سياق مقطع إبراهيم ورد كلام عن البيت ، وورد دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿ **وأرنا مناسكنا** ﴾ .

ثم جاء مقطع القبلة وانصبَّ الكلام فيه عن البيت . وفي معرض التوجيهات الكبرى التي جاءت في نهاية القسم : ذكر الله عز وجل شعيرة السعي بين الصفا والمروة حتى لا يفهم فاهم أنه ليس من الشعائر إلا تعظيم البيت . فهناك شعيرة أخرى في الحرم نفسه وهي شعيرة السعي بين الصفا والمروة .

٣ - وفي محل هذه الآية في السياق حكمة تظهر من خلال عرض بعض المعاني فيعرف بذلك لماذا جاءت بعد مجموعة الصبر ؟ فلنر ذلك :

بيَّن الله عز وجل في هذه الآية أن السعي بين الصفا والمروة من شعائر الله . أي مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج . وأصل ذلك مأخوذ من ترداد أُمّنا هاجر بين الصفا والمروة في طلب الماء لابنها إسماعيل لما نفد ماؤهما وزادهما حين تركهما إبراهيم عليه السلام هناك وليس عندهما أحد من الناس . فلما خافت على ولدها الضيعة هناك ونفد ما عندهما قامت تطلب الغوث من الله عز وجل حتى كشف الله كربتها وآنس غربتها وفرَّج شدتها ، وأنبع لها زمزم التي ماؤها طعام طعم وشفاء سقم . وأكرمها الله عز وجل وأكرم آل إبراهيم بأن جعل فعلها هذا شعيرة من شعائره إلى يوم القيامة . تتذكر فيه هذه الأمَّة ارتباطها بإبراهيم وآله ، وتقتدي بفعله وفعل آله ، وتتذكر فيه هذه الأمَّة عاقبة التسليم لأمر الله وطاعته مجيء الفرج بعد الشدة ، وتتذكر فيه هذه الأمة تلك اللحظات الصعاب التى مرّت بها أُمنا هاجر أثراً عن طاعتها وطاعة إبراهيم لله . فكم هي مكافأة عظيمة أن جعل الله عز وجل فعلها شعيرة من شعائره إلى يوم القيامة فهذه عاقبة الصبر على أمر الله .

فهل وضحت الصلة بين هذه الآية وما قبلها في مجموعة الصبر ؟ إن هذه الشعيرة سببها الصبر . فما نالت أمّنا هاجر هذه الإمامة إلا بالصبر .

وعلى هذا فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذلّه وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه ، وأن يلتجىء إلى الله عز وجل : أن يزيل ما هو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم وأن يثبته إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة ، كما فعل بهاجر عليها السلام ، إذ نقلها من حال إلى حال .

المعنى الحرفي :

﴿ **إن الصفا والمروة** ﴾ هما علمان للجبلين المعروفين . ﴿ **من شعائر الله** ﴾ أي : من أعلام مناسكه ومتعبداته جمع شعيرة . وهي العلامة . ﴿ **فمن حجّ البيت** ﴾ أي قصده لإقامة فريضة الحج . ﴿ **أو اعتمر** ﴾ : أي زاره لإقامة العمرة . فالحج القصد والاعتمار الزيارة . ثم غلبا على قصد البيت وزيارته المعروفين . ﴿ **فلا جناح عليه** ﴾ : أي فلا إثم عليه ﴿ **أن يطوَّف بهما** ﴾ أي : أن يتطوَّف . وأصل الطواف المشي حول الشيء . والمراد هنا السعي بينهما . ﴿ **ومن تطوّع خيراً** ﴾ أي : بالسعي بينهما ﴿ **فإن الله شاكر** ﴾ يجازي على القليل كثيراً . ﴿ **عليم** ﴾ بالأشياء صغيراً وكبيراً .

فوائد :

١ - في أسباب النزول : قال الإمام أحمد « عن عروة عن عائشة قال : قالت : أرأيت قول الله تعالى ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يطوَّف بهما** ﴾ ؟ قلت فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما ، فقالت عائشة : بئسما قلت يا ابن أختي (الخطاب لعروة ابن أختها أسماء) إنها لو كانت على ما أوَّلتها عليه كان فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما . ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل ، وكان من أهلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله . إنا كنا نتحرج أن نطوّف بالصفا والمروة في الجاهلية . فأنزل الله عز وجل ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما** ﴾ . قالت عائشة : ثم قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما . فليس

لأحد أن يدع الطواف بهما » أخرجاه في الصحيحين . وفي رواية عن الزهري « أنه قال : فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام . فقال : إن هذا العلم ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجالا من أهلي يقولون : إن الناس - إلا من ذكرت عائشة - كانوا يقولون إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية . وقال آخرون من الأنصار إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة . فأنزل الله تعالى ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله** ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن : فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء » . وأخرج البخاري : « عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنساً عن الصفا والمروة قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما . فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله** ﴾ » .

٢ - في صحيح مسلم من حديث جابر الطويل : « وفيه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول : ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله** ﴾ ثم قال : « أبدأ بما بدأ الله به » . وفي رواية النسائي : « ابدأوا بما بدأ الله به » . وروى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة عن حبيبة بنت أبي تجراة قالت : « رأيت رسول الله ﷺ ، يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى ، حتى أرى ركبته من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول : « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي » . ثم رواه الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة أن امرأة أخبرتها أنها سمعت النبي ﷺ بين الصفا والمروة يقول : « كتب عليكم السعي فاسعوا » . وقد استدل ابن كثير بهذا الحديث لمذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج كما هو مذهب الشافعي ومن وافقه ، ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك . وقيل أنه واجب وليس بركن . فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم . وهو رواية عن أحمد وبه يقول طائفة ، وقيل : بل مستحب ، وإليه ذهب أبو حنيفة والثوري والشعبي وابن سيرين . ورُوي عن أنس وابن عمر وابن عباس . وحكي عن مالك في العتبية قال القرطبي : واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ **ومن تطوع خيراً** ﴾ والقول الأول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما وقال : « لتأخذوا عني مناسككم » . فكلّ ما فعله في حجته تلك واجب لابد من فعله في الحج إلا ما خرج بدليل . والله أعلم . وقد تقدم قوله عليه السلام : « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي » .

أقول : الذي عليه الفتوى في مذهب الحنفية ، أن السعي بين الصفا والمروة في الحج واجب عند الحنفية . فما نقله ابن كثير عن أبي حنيفة في كونه مستحباً ، لعله قول

ضعيف في المذهب ؟!.

٣ – من قوله تعالى : ﴿ **فمن حج البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يطّوّف بهما** ﴾ . نفهم أن السعي بين الصفا والمروة عبادة مرتبطة بالحج والعمرة ، وليس عبادة مستقلة . والعمرة إحرام وطواف حول البيت ، وسعي بين الصفا والمروة . أما الحج فأركانه عند الحنفية : إحرام ووقوف بعرفات ولو لحظة ما بين ظهر التاسع من ذي الحجة وفجر العاشر . وطواف الإفاضة . وما سوى ذلك عندهم فإما واجبات أو سنن . ومن سعى بعد طواف فقد أسقط واجب السعي . وإلا فإن عليه أن يسعى بعد طواف الإفاضة الذي هو طواف الركن .

٤ – قال القرطبي : « ولا يجوز أن يطوف أحد بالبيت ولا بين الصفا والمروة راكباً إلا من عذر . فإن طاف معذوراً فعليه دم . وإن طاف غير معذور أعاد إن كان بحضرة البيت ، وإن غاب عنه أهدى . إنما قلنا ذلك لأن النبي ﷺ طاف بنفسه وقال : « خذوا عني مناسككم » . وإنما جوزنا ذلك من العذر ، لأن النبي ﷺ طاف على بغيره واستلم الركن بمحجنه ، وقال لعائشة وقد قالت : إني أشتكي . فقال : « طوفي من وراء الناس وأنت راكبة » . وفرّق أصحابنا بين أن يطوف على بعير أو يطوف على ظهر إنسان . فإن طاف على ظهر إنسان لم يجزه ، لأنه حينئذٍ لا يكون طائفا . إنما الطائف الحامل . وإذا طاف على بعير يكون هو الطائف . قال ابن خويز منداد : وهذه تفرقة اختيار وأما الإجزاء فيجزىء . ألا ترى أنه لو أغمي عليه فطيف به محمولا ، أو وُقف به بعرفات محمولا كان مجزئاً عنه ؟!.

٥ – وعلى التحرُّج الذي تحرَّجه أصحاب رسول الله ﷺ أن يسعوا بين الصفا والمروة ابتداءً قبل نزول الإباحة علق صاحب الظلال بقوله : « وهذا هو الإسلام .. هذا هو : انسلاخاً كاملا عن كل ما في الجاهلية ، وتحرُّجاً بالغاً من كل أمر من أمور الجاهلية ، وحذراً دائماً من كل شعور وكل حركة كانت النفس تأتيها في الجاهلية . حتى يخلص القلب للتصور الجديد بكل ما يقتضيه ..

فلما أن تم هذا في نفوس الجماعة المسلمة ، أخذ الإسلام يقرر ما يريد الإبقاء عليه من الشعائر الأولى مما لا يرى فيه بأساً . ولكن يربطه بعروة الإسلام ، يأتيه بعد أن نزعه وقطعه عن أصله الجاهلي . فإذا أتاه المسلم فلا يأتيه لأنه كان يفعله في الجاهلية . ولكن

لأنه شعيرة جديدة من شعائر الإسلام تستمد أصلها من الإسلام » .

كلمة في السياق :

جاءت آية ﴿ **إن الصفا والمروة ..** ﴾ بعد مجموعة الأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة وهي مبدوءة بكلمة (**إن**) . وبعد ذلك يأتي معنيان ، كل منهما قد جاء في آيتين . وكلاهما قد بدئت آياته بكلمة (**إن**) . فههنا تقريرات مؤكدة ثلاثة . فيها معنى الأمر والنهي .

الأمر الأول : طوفوا بين الصفا والمروة .

النهي الثاني : لا تكتموا ما أنزل الله .

النهي الثالث : لا تموتوا كفاراً .

فالأمر الأول : تبيان أن السعي بين الصفا والمروة من نوع الشكر .

والنهي الثاني والثالث : تبيان لجوانب من الكفران لا ينبغي أن تفعل : وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ لا تخفى . ثم إن مجيء موضوع السعي بين الصفا والمروة . والكتمان والكفر بعد مجموعة الاستعانة بالصبر والصلاة ، يدل على أن هذه أمور تحتاج إلى استعانة بالصبر والصلاة . فالسعي بين الصفا والمروة شاق جسدياً ومعنوياً على طبقات كثيرة من الناس . وليس تبيان حكم الله سهلا في كل موطن . وليس أن ينتقل الإنسان من دينه إلى الإسلام هيناً ، إن هذا كله يحتاج إلى استعانة بالصبر والصلاة . ولقد كررنا الكلام كثيراً في هذا المقطع لاعتقادنا أن السياق يحتاج لذلك . أما وقد أصبح سياق الفقرة الأولى واضحاً . فإن تتمة الفقرة لا تحتاج إلى وقفة طويلة .

﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيَّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيَّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم** ﴾ . في الآية السابقة تقرير أن الصفا والمروة من شعائر الله . وفي هذا التقرير أمر كما رأينا . وقد قال رسول الله ﷺ : « إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا » . وقد رأينا أن الصلة بين الأمر بالصبر الوارد في أول المقطع . وبين السعي بين الصفا والمروة واضحة . إذ الأمر بالسعي بين الصفا والمروة تخليد لموقف من

مواقف الصبر في قصة إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام ، وهو يحتاج إلى صبر . وفي هذه الآية تقرير فيه معنى الطلب :أن علينا ألا نكتم حكم الله ، وفيه جزاء من يخالف ذلك . وطريق التوبة من هذا والصلة بين آية الكتمان والأمر بالصبر واضحة إذ تبيان حكم الله يترتب عليه أذى كما قال تعالى : ﴿ **وأمر بالمعروف وانهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك** ﴾ . (سورة لقمان) فالاستعانة بالصبر والصلاة والاسترجاع أشياء أساسية لمن يريد أن يبين حكم الله .

المعنى العام : في الآية وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهُدى النافع للقلوب ، من بعد ما بيَّنه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله ، فهؤلاء يستحقون اللّعنة . ثم استثنى الله عز وجل مِنْ ذلك مَنْ تاب وأصلح وبيَّن ما قد كان كُتِمَ .

المعنى الحرفي : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات** ﴾ أي الآيات الواضحات ﴿ **والهدى** ﴾ أي الهداية ﴿ **من بعد ما بيَّنّاه للناس في الكتاب** ﴾ أي : من بعد ما أوضحناه للناس في كتاب الله . سواء في ذلك التوراة أو الإنجيل أو الزبور أو القرآن . ﴿ **أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللّاعنون** ﴾ أي الذين يتأتى منهم اللعنة . وهم الملائكة والمؤمنون من الإنس والجن . ﴿ **إلا الذين تابوا** ﴾ أي رجعوا عن الكتمان وترك الإيمان . ﴿ **وأصلحوا** ﴾ ما أفسدوا من أحوالهم وتداركوا ما فرط منهم . ﴿ **وبَيَّنوا** ﴾ أي وأظهروا ما كتموا . ﴿ **فأولئك أتوب عليهم** ﴾ أي أقبل توبتهم . ﴿ **وأنا التواب الرحيم** ﴾ .

فوائد :

١ - دلت هذه الآية على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب اللَّه عليه .

٢ - يلاحظ أن التوبة من الكتمان يشترط لها : الإصلاح والبيان . فمن كان يعرف الحق في قضية ما ، فإن عليه أن يتوب ويصلح ويبيِّن . وعندئذٍ تقبل توبته . وإلا فإنه يستحق اللعن من الله والملائكة والناس أجمعين . فما أصعب هذا وأشده إلا على من وفقه الله !!؟.

٣ - **قال ابن كثير** : (جاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس

أجمعون . واللاعنون أيضاً وهم كل فصيح وأعجمي إما بلسان المقال أو الحال أو لو كان له عقل فى الدنيا ويوم القيامة) .

٤ – في الصحيح (عن أبي هريرة أنه قال : لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحداً شيئاً : أي آية الكتمان هذه) .

٥ – **قال ابن كثير** : (وقد ورد في الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضاً عن أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال : « من سُئِل عن علم فكتمه أُلْجِمَ يوم القيامة بلجام من نار » ، أقول : هذا في علم يفترض تعليمه) .

قال الألوسي : (واستدلوا بهذه الآية على وجوب إظهار علم الشريعة ، وحرمة كتمانه . ولكن اشترطوا لذلك : أن لا يخشى العالم على نفسه . وأن يكون متعيناً وإلا لم يحرم عليه الكتم . إلا إن سئل فيتعين عليه الجواب ما لم يكن إثمه أكبر من نفعه . وفيها دليل أيضاً على وجوب قبول خبر الواحد . لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله) .

وقال القرطبي : (وقيل : المراد كل من كتم الحق ، فهي عامة في كل من كتم علماً من دين الله يحتاج إلى بثّه . وذلك مُفَسَّر في قوله ﷺ : « من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار ») . رواه أبو هريرة وعمرو بن العاص . أخرجه ابن ماجه ويعارضه قول عبد الله بن مسعود : ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة . وقال عليه الصلاة والسلام : « حدّث الناس بما يفهمون أتحبون أن يُكذّب الله ورسوله » . وهذا محمول على بعض العلوم ، كعلم الكلام ، أو ما لا يستوي في فهمه جميع العوام . فحكم العالم أن يحدّث بما يفهم عنه ، وينزل كل إنسان منزلته .

وقال القرطبي كذلك : « وتحقيق الآية : هو أن العالم إذا قصد كتمان العلم ، عصى . وإذا لم يقصد لم يلزمه التبليغ إذا عرف أنه مع غيره . وأما من سئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية وللحديث . ولكن لا يجوز تعليم الكافر القرآن والعلم حتى يسلم . وكذلك لا يجوز تعليم المبتدع الجدال والحجاج ليجادل به أهل الحق ، ولا يعلم الخصم على خصمه حجة يقتطع بها ما له . ولا السلطان تأويلا يتطرّق به إلى مكاره الرعية ، ولا ينشر الرخص في السفهاء فيجعلوا ذلك طريقاً إلى ارتكاب المحظورات ، وترك الواجبات ونحو ذلك . كما قال : ﴿ **من البيّنات والهدى** ﴾ : دلَّ على أن ما كان

من غير ذلك جائز كتمه ، لا سيما إن كان مع ذلك خوف . فإن ذلك آكد في الكتمان . وقد ترك أبو هريرة ذلك حين خاف فقال : « حفظت عن رسول الله ﷺ وعاءين ، فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته قُطع هذا البلعوم » أخرجه البخاري . قال أبو عبد الله : البلعوم مجرى الطعام . قال علماؤنا : وهذا الذي لم يبثّه أبو هريرة وخاف على نفسه فيه الفتنة أو القتل ، إنما هو مما يتعلق بأمر الفتن . والنص على أعيان المرتدين والمنافقين ونحو هذا مما لا يتعلق بالبينات والهدى .

٦ - هناك اتجاه في تفسير قوله تعالى ﴿ **ويلعنهم اللاعنون** ﴾ . أن المراد بذلك دواب الأرض . ويشهد لهذا الاتجاه حديث حسن رواه ابن ماجه . قال القرطبي : « قد جاء بذلك خبر رواه البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **يلعنهم اللاعنون** ﴾ قال : دواب الأرض . ا هـ .

أقول : والحديث في حال ثبوته لا ينفي العموم عن الآية . بل يدخل في هذا العموم دواب الأرض . إذ يمكن أن يكون ذلك منه عليه الصلاة والسلام بيان لشيء يدخل في هذا العموم . ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يُخفف عنهم العذاب ولا هم يُنظرون** ﴾ . في هذا المقطع كما رأينا صَدَرَ الأمر لهذه الأمة - بعد أن استكملت فيما مضى وجودها المتميز كأمة - أن تستعين بالصبر والصلاة ، ثم أُمرت أن تَصِفَ الشهيد بالحياة ، ثم حُضّت على الاسترجاع عند المصيبة ، ثم صدر لها الأمر بصيغة التقرير أن تسعى بين الصفا والمروة ، ثم صدر لها الأمر بصيغة التقرير أن لا تكتم الحق الذي أنزله الله عليها ، ثم يصدر لها الأمر هنا بصيغة تقرير ألا تكفر . فمن خلال الأوامر المباشرة . والتقريرات الحاسمة تبني سورة البقرة هذه الأمة شيئاً فشيئاً . وتبني شخصية المسلم كذلك .

المعنى الكلي :

تخبر الآيتان عمن كفر بالله واستمر به الحال على الكفر إلى أن مات ، أن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وأنهم خالدون في هذه اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة . ثم المصاحبة لهم إلى نار جهنم التي لا يخفف عنهم عذابها فتنقص ولا يفتر ولا يغير ولا يؤجل . بل هو متواصل دائم .

المعنى الحرفي :

﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار** ﴾ أي : استمروا على الكفر حتى ماتوا عليه .

إذ الإسلام يجبّ ما قبله . ﴿ **أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين** ﴾ . هل المراد بالناس هنا المؤمنون فقط أو المؤمنون والكافرون ؟ ! إذ يلعن الكافرون بعضهم بعضاً يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ **كلما دخلت أمة لعنت أختها** ﴾ . (سورة الأعراف) قولان للمفسرين . قال أبو العالية وقتادة : (إن الكافر يوقف يوم القيامة ، فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ، ثم يلعنه الناس أجمعون) . ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي في اللعنة ، أو في النار وأضمرت تفخيماً لشأنها وتهويلا . ﴿ **لا يخفف عنهم العذاب** ﴾ . أي : لا ينقص عما هم فيه . ﴿ **ولا هم ينظرون** ﴾ من الإنظار ، أي لا يمهلون . أو من الانتظار ، بمعنى أنهم لا يُنظرون ليعتذروا . أو من النظر ، بمعنى أن الله لا ينظر إليهم نظر رحمة .

فائدة :

قال ابن كثير : لا خلاف في جواز لعن الكفار . وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره . فأما الكافر المعيّن فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن . لأنا لا ندري بما يختم الله له . واستدل بعضهم بالآية : ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين** ﴾ . وقالت طائفة أخرى : بل يجوز لعن الكافر المعيَّن ، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي ، ولكنه احتج بحديث فيه ضعف . واستدل غيره بقوله عليه الصلاة والسلام في قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحده . فقال رجل : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به . فقال رسول الله ﷺ : « **لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله** » . فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن) .

كلمة في السياق :

١ - مجيء قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ...** ﴾ بعد الكلام عن الصفا والمروة ، الذي هو استمرار للكلام عن البيت الذي وقف من التوجه إليه أهل الكتاب تلك الوقفة ، يشعر بأن أهل الكتاب على علم بتفصيلات كثيرة في شأن هذه الأمة ، ولكنهم يكتمونها . ومجيء هذه الآية في سياق قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ... ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ...** ﴾ يشعر بأنه لا ينجو من آفة الكتمان . إلا من استعان بالصبر والصلاة . ووطّن نفسه على كل امتحان .

كما أن مجيء آية الكتمان في مقطعها ، ومجيء مقطعها بعد قوله تعالى ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ يشعر بأن كتمان ما أنزل الله فيه معنى الكفر . أو هو مُوصل للكفر والعياذ بالله .

٢ - في الكلام عن مقطع بني إسرائيل قلنا : إن مدخل المقطع المؤلف من أوامر ونواهٍ هو بمجموعه العلاج الشامل الناجع للنفسية اليهودية . وكانت خاتمة الأوامر والنواهي في ذلك المدخل هي :

﴿ **ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين * أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون * واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون** ﴾ .

وقد رأينا أثناء عرض مقطع بني إسرائيل كيف أن المقطع في فصليْه ، كان وكأنه في بعض مقاصده يعلل لتوجيه الأوامر والنواهي التي سبقت هذه الآيات التي ذكرناها آنفا وانصب الكلام على الإيمان وكان الأمر على الشكل التالي :

إذا لم يؤمن بنو إسرائيل فلا فائدة من مناقشة ما بعد قضية الإيمان من التزامات . ومن ثَمَّ فإن الأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة والتحذير من الكتمان ، يتوجه لهذه الأمة التي هي وحدها المستفيدة من مثل هذا التوجيه ، وإن كان التحذير يشمل بني إسرائيل . ومن قبل قلنا إن الحوار مع بني إسرائيل لا زال مستمراً في السورة .

ولننتقل إلى الفقرة الثانية في المقطع .

الفقرة الثانية من المقطع السادس

تأتي هذه الفقرة وفيها إعلان للتوحيد والرحمة الربانية ، وتدليل على هذا التوحيد والرحمة ، وذكر للمنحرفين عن هذا التوحيد بعد كل هذه الدلائل . وإذ كان المقطع كله قد جاء بعد قوله تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ . فإن هذه الفقرة تفصيل في قضية الشكر . وتعليل لوجوب الذكر والشكر . فلنرها . ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ يخبر تعالى في هذه الآية عن تفرده بالإلهية . وأنه لا شريك له ولا عديل له . بل هو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو . وأنه الرحمن الرحيم . ﴿ **وإلهكم إله واحد** ﴾ . أي فرد في

ألوهيته . لا شريك له فيها . ولا يصح أن يسمى غيره إلهاً . ﴿ **لا إلّه إلا هو** ﴾ : هذا تقرير للوحدانية بنفي غيره أن يكون إلّهاً . وإثبات إلهٰيته جل جلاله . ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ : أي المولي لجميع النعم أصولها وفروعها . ولا شيء سواه بهذه الصفة . فما سواه ، إما نعمة ، وإما مُنعَم عليه . وكل ذلك من آثار رحمته العامة والخاصة .

كلمة في السياق :

جاءت هذه الآية في بداية فقرة ، وبعد فقرة في سياق مقطع . فلنلاحظ محلها في السياق :

بدأ المقطع بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ...** ﴾ . وتأتي هذه الآية لتعلن أن الله وحده هو الإله . فإذا كان الأمر كذلك فكيف لا يصبر الإنسان على أمره ؟ وإذا كان رحماناً رحيماً . فكيف لا يسلم الإنسان له ؟ وجاءت هذه الآية بعد ذكر الكتمان والتحذير من الكفر ، فكانت تذكيراً بالله . وكما قلنا فإن هذا المقطع كله جاء بمثابة تفصيل لقضايا من الذكر والشكر بعد قوله تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ فكانت هذه الآية بداية فقرة جديدة تستخرج الذكر والشكر . ففيها تذكير بوحدانية الله ورحمته بين يدي ما يكون بمثابة الدليل على الوحدانية والرحمة .

فوائد :

١ - **قال ابن كثير** : وفي الحديث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ و ﴿ **الٓمٓ . الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ » .

٢ - في التقديم للفقرة التي بين أيدينا . وللآية الأولى فيها يقول صاحب الظلال :

« إن وحدة الألوهية ، هي القاعدة الكبيرة التي يقوم عليها التصور الإيماني . فلم يكن هناك جدل حول الاعتقاد بوجود إله - تختلف التصورات حول ذاته ، وحول صفاته ، وحول علاقاته بالخلق . ولكنها لا تنفي وجوده - ولم يقع أن نسيت الفطرة هذه الحقيقة . حقيقة وجود إله . إلا في هذه الأيام الأخيرة . حين نبتت نبتة منقطعة

عن أصل الحياة ، منقطعة عن أصل الفطرة ، تنكر وجود الله . وهي نبتة شاذة لا جذور لها في أصل الوجود . ومن ثَم فمصيرها حتماً إلى الفناء والاندثار من هذا الوجود . هذا الوجود الذي لا يطيق تكوينه ، ولا تطيق فطرته بقاء هذا الصنف من الخلائق المقطوعة الجذور .

ومن وحدانية الألوهية التي يؤكدها هذا التأكيد ، بشتى أساليب التوكيد ، يتوحد المعبود الذي يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعة ، وتتوحد الجهة التي يتلقى منها الخلق قواعد الأخلاق والسلوك ، ويتوحد المصدر الذي يتلقى الخلق منه أصول الشرائع والقوانين ، ويتوحد المنهج الذي يصرف حياة الخلق في كل طريق » .

٣ - وفي الصلة بين آية ﴿ **وإلهكم إله واحد** ﴾ وما قبلها ، وما بعدها يقول القرطبي : « لما حذّر تعالى من كتمان الحق ، بيّن أن أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه : أمر التوحيد . ووصل ذلك بذكر البرهان ، وعلم طريق النظر ، وهو الفكر في عجائب الصنع ، ليعلم أنه لابد له من فاعل لا يشبهه شيء » .

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبثَّ فيها من كل دابَّة وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

هذه الآية جسر بين ما قبلها وما بعدها . فما قبلها ﴿ **وإلهكم إلّه واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ وهذا دليل وحدانيته ورحمته . وما بعدها ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾ وهذه الآية دليل على أنه وحده الحري بالمحبة ، إذ هو المنعم الوحيد . وإذ كانت هذه آياته فهو حري ألا يُكْفَر ، وألا يُكْتَم هداه ، وأن يطاع أمره في كل شيء ، وأن يسلم له في قضائه وقدره ، وأن يستعان به . فهذه الآية هنا بعد ما سبق من توجيهات ، تفيدنا زيادة يقين وتمسك وطاعة والتزام . والآية كما أنها تقرير ، فهي أمر بالتفكر في هذا الكون . فهي واحدة من توجيهات هذا المقطع : استعينوا ... اسعوا ... لا تكتموا ... لا تكفروا ... تفكروا ... ثم في المجموعة القادمة : أحبوا الله . وقد ذكر النسفي بمناسبة هذه الآية حديثاً هو : « ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها » أي : لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها . في كتابنا « **الله جل جلاله** » تحدثنا عن تسع ظواهر في هذه الكون . كل منها يدل على الله

بما لا يقبل جدلا : ظاهرة حدوث الكون ، وظاهرة الإرادة فيه ، وظاهرة الحكمة ، وظاهرة الهداية ، وظاهرة الإبداع ، وظاهرة الاستجابة ، وظاهرة العناية ، وظاهرة الوحدة . وفي هذه الآية حديث عن مجموع هذه الظواهر تقريباً :

﴿ **إن في خلق السموات والأرض** ﴾ ظاهرة الحدوث . ﴿ **واختلاف الليل والنهار** ﴾ ﴿ **والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس** ﴾ ظاهرة الإرادة والحكمة والهداية والعناية . ﴿ **وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة** ﴾ ظاهرة الحياة والإبداع ﴿ **وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض** ﴾ ظاهرة حكمة وعناية وهداية وإرادة ﴿ **لآيات لقوم يعقلون** ﴾ يدرك هذه الآيات أصحاب العقول ، أما الذين يعطلون قوانين العقل كِبْراً أو عناداً فهؤلاء لا يدركون هذه الآيات . ولعل كتابنا « الله جل جلاله » فيه تفصيل لهذه المعاني كلها فليراجع .

وفي كتابنا هذا ذكرنا : كيف أن التناسق في الكون والتكامل فيه يدلان على وحدة الخالق ووحدانيته . وقد جاءت هذه الآية هنا بعد قوله تعالى : ﴿ **وإلهكم إله واحد** .. ﴾ إشارة إلى أن كل هذه الآيات دليل على الوحدة والوحدانية . ومجيء قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم** ... ﴾ بعد هذه الآية إشارة إلى أن هذه الآيات في هذا الكون والتي تدل على ظاهرة العناية تستدعي أن يحب الإنسان الله . فكيف ينحرف الإنسان ؟ .

روى ابن أبي حاتم عن عطاء قال : نزلت على النبي ﷺ بالمدينة ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله الا هو الرحمن الرحيم** ﴾فقال كفار قريش بمكة : كيف يسع الناس إله واحد ؟ . فأنزل الله تعالى : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار** ... ﴾ . وعن أبي الضحى قال : لما نزلت ﴿ **وإلهكم إله واحد** ... ﴾ قال المشركون : إن كان هكذا فليأتنا بآية . فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض** ... ﴾ إلى قوله ﴿ **يعقلون** ﴾ .

التفسير الحرفي :

﴿ **إن في خلق السموات والأرض** ﴾ تلك بما فيها من كواكب ومجرات وغير ذلك ، وهذه الأرض بما فيها من جبال وبحار وقفار ووهاد وغير ذلك ﴿ **واختلاف الليل**

والنهار ... ﴾ تارة يطول هذا ويقصر هذا ، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان ، وهذا يجيء ثم يعقبه الآخر ، ضمن نظام دقيق عجيب . ﴿ **والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس** ﴾ الفلك : السفن . وتطلق على المفرد والجمع . أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس ، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ، ونقل هذا إلى هؤلاء ، وما عند أولئك إلى هؤلاء . ﴿ **وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾ أي : وما أنزل الله من السحاب من مطر فأحيا بالماء الأرضَ من بعد يبسها . ﴿ **وبثّ فيها من كل دابة** ﴾ أي : وفرق فيها من الدواب من كل الأنواع والأصناف ، مختلفة الأشكال والألوان والمنافع والصغر والكبر . ﴿ **وتصريف الرياح** ﴾ ضمن نظام دقيق عجيب . ﴿ **والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض** ﴾ المسخَّر : المذلل المنقاد لمشيئة الله . ﴿ **لآيات لقوم يعقلون** ﴾ : لدلالات بينة على وحدانية الله لمن ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون فيستدلون بهذه الأشياء على قدرة موجدها وحكمة مبدعها ووحدانية منشئها .

فوائد :

١ - عند قوله تعالى : ﴿ **والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس** ﴾ قال القرطبي :

« هذه الآية وما كان مثلها دليل على جواز ركوب البحر مطلقاً ، لتجارة كان أو عبادة كالحج والجهاد » وبعد أن ذكر بعض النصوص التي تفيد ذلك قال : « ففيه دليل واضح على ركوب البحر في الجهاد للرجال والنساء . وإذا جاز ركوبه للجهاد ، فركوبه للحج المفترض أولى وأوجب » . ثم بعد مناقشات قال : (قلت : فدلّ الكتاب والسنَّة على إباحة ركوبه للمَعْنَيين جميعاً : العبادة والتجارة ، وفيهما الحجة ، وفيهما الأسوة . إلا أن الناس في ركوب البحر تختلف أحوالهم . فرب راكب سهل عليه ذلك ولا يشق ، وآخر يشق عليه ويضعف به ، كالمائد المفرط الميد . حتى لم يقدر معه على أداء فرض الصلاة ونحوها من الفرائض : فالأول ذلك له جائز ، والثاني يحرم عليه ويمنع منه ، ولا خلاف بين أهل العلم .... أن البحر إذا ارتج لم يجز ركوبه لأحد بوجه من الوجوه في حين ارتجاجه ، ولا في الزمن الذي الأغلب فيه عدم السلامة . وإنما يجوز عندهم ركوبه في زمنٍ ، السلامة فيه الأغلب . فإن الذين يركبونه حال السلامة وينجون لا حاصر لهم . والذين يهلكون فيه محصورون) .

أقول : كلامه الأخير ينبغي تقييده بأنّ الحكم كذلك في الأحوال العادية لمريد سياحة ، أو لمريد تجارة ، وغلب على الظن الهلاك . أما إذا كانت هناك ضرورات عسكرية إسلامية أو غيرها من الضرورات ، فالفتوى البصيرة هي التي تقدر الحكم .

٢ - في تعليق صاحب الظلال على قوله تعالى : ﴿ **لآيات لقوم يعقلون** ﴾ يقول : « نعم لو ألغى الإنسان عن عقله بلادة الإلفة والغفلة ، فاستقبل مشاهد الكون بحس متجدد ، ونظرة مستطلعة ، وقلب نوّره بالإيمان . ولو سار في هذا الكون كالرائد الذي يهبط إليه أول مرة ، تلفت عينه كل ومضة ، وتلفت سمعه كل نأمة وتلفت حسه كل حركة ، وتهز كيانه تلك الأعاجيب التي تتوالى على الأبصار والقلوب والمشاعر . إن هذا هو ما يصنعه الإيمان ... » . فيرى العقل في كل شيء آية .

ومن كلمات صاحب الظلال في الآية :

« وكلها مشاهد لو أعاد الإنسان تأملها - كما يوحي القرآن للقلب المؤمن - بعين مفتوحة وقلب واع ، لارتجف كيانه من عظمة القدرة ورحمتها .. تلك الحياة التي تنبعث من الأرض حينما يجودها الماء .. هذه الحياة المجهولة الكنه ، اللطيفة الجوهر ، التي تدب في لطف ، ثم تتبدى جاهرة معلنة قوية .. هذه الحياة من أين جاءت ؟ كانت كامنة في الحبة والنواة ...! ولكن من أين جاءت إلى الحبة والنواة ؟ أصلها ..؟ مصدرها الأول ...؟ . إنه لا يجدي الهرب من مواجهة هذا السؤال الذي يلحّ على الفطرة .. لقد حاول الملحدون تجاهل هذا السؤال الذي لا جواب عليه إلا وجود خالق قادر على إعطاء الحياة للموات . وحاولوا طويلا أن يوهموا الناس أنهم في طريقهم إلى إنشاء الحياة - بلا حاجة إلى إله - ثم أخيراً إذا هم في أرض الإلحاد الجاحد الكافر . ينتهون إلى نفض أيديهم أو الإقرار بما يكرهون : استحالة خلق الحياة : وأعلم علماء روسيا الكافرة في موضوع الحياة هو الذي يقول هذا الآن ! ومن قبل ، راغ دارون صاحب نظرية النشوء والارتقاء من مواجهة هذا السؤال . ثم تلك الرياح المتحولة من وجهة إلى وجهة ، وذلك السحاب المحمول على هواء ، المسخر بين السماء والأرض ، الخاضع للناموس الذي أودعه الخالق هذا الوجود .. إنه لا يكفي أن تقول نظرية ما تقوله عن أسباب هبوب الريح ، وعن طريقة تكون السحاب إن السر الأعمق ، هو سر هذه الأسباب .. سر خلق الكون بهذه الطبيعة وبهذه النِسَب ، وبهذه الأوضاع التي تسمح بنشأة الحياة ونموها ، وتوفير الأسباب الملائمة لها من رياح وسحاب ومطر وتربة .. سر هذه

الموافقات التي يُعد المعروف منها بالآلاف ، والتي لو اختلفت واحدة منها ما نشأت الحياة أو ما سارت هذه السيرة !!» . ثم تأتي المجموعة الأخيرة في الفقرة لتبين لنا أنه مع كل هذه الدلائل على الوحدانية فهناك ناس يشركون ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . والذين آمنوا أشد حباً لله . ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً . وأن الله شديد العذاب * إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطَّعت بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرَّة فنتبرأ منهم كما تبرءُوا منا . كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجِين من النار** ﴾ .

الشرح الكلي :

يذكر تعالى أنّ مآل المشركين به في النار وحالهم في الدار الآخرة ، لأنهم جعلوا لله أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ، ويحبونهم كحبه . وهو الله لا إله إلا هو ، ولا ضد له ، ولا نِدَّ له ، ولا شريك معه . ولكن الذين آمنوا ليسوا كذلك ، فهم لا يشركون به شيئاً ، ويعبدونه وحده ، ولتمام معرفتهم به فإن حبهم له لا يعدله حب . وبعد أن بين الله عز وجل هذا توعد المشركين الظالمين لأنفسهم بذلك ، فأعلمهم أن الحكم له وحده لا شريك له ، وأن جميع الأشياء تحت قهره وسلطانه ، وإذ يعاينون العذاب فسيعلمون ذلك تماماً بأن القوة كلها لله . فلو أن الكافرين والمشركين يعلمون ما يعاينونه يوم القيامة ، وما يحل بهم من الأمر الفظيع الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال . ثم أخبر تعالى عن كفرهم بأوثانهم وشركائهم وزعمائهم وآلهتهم ، وكيف تبرأ المتبَوعُون من التابعين . وكيف يتمنى التابعون أن لو تتاح لهم فرصة ليبرأوا من المتبوعين .

التفسير الحرفي :

﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً** ﴾ : أي أمثالا ونظراء . ﴿ **يحبونهم كحب الله** ﴾ : أي يعظّمونهم ويخضعون لهم كتعظيم الله والخضوع له ومحبته . أو أنهم يحبونهم كحب المؤمنين لله ﴿ **والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾ من الكافرين والمشركين والملحدين لمن أعطوهم صفات الألوهية وخصائصها . لأن المؤمنين لا يعدلون عن الله إلى غيره بحال ﴿ **ولو يرى الذين ظلموا** ﴾ : أي الذين اتخذوا من دون الله أنداداً . دل

ذلك على أن الشرك والكفر ظلم للنفس أي ظلم . ﴿ **إذ يرون العذاب** ﴾ يوم القيامة ﴿ **أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب** ﴾ أي : عذابه شديد . فصار المعنى : لو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أن القدرة كلها لله تعالى على كل شيء من الثواب والعقاب دون أندادهم . ويعلمون شدة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة - والجواب المقدر - لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ﴿ **إذ تبرأ الذين اتُّبعوا** ﴾ أي الرؤساء المتبوعُون ﴿ **من الذين اتَّبعوا** ﴾ أي الأتباع . ﴿ **ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب** ﴾ أي الوُصَل التي كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد ، أو مذهب واحد ، أو اتجاه واحد ، ومن الأنساب والمحاب ﴿ **وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كَرَّة** ﴾ أي قال الأتباع : لو أن لنا عودة ورجعة إلى الدار الدنيا ﴿ **فنتبرأ منهم كما تبرءُوا منا** ﴾ أي : حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم واتّباعهم وطاعتهم كما تبرءوا منا . ﴿ **كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم** ﴾ أي ندامات . والمعنى : أن أعمالهم تنقلب عليهم حسرات . فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم . ﴿ **وما هم بخارجين من النار** ﴾ بل هم فيها دائمون .

فوائد :

١ - الصلة المباشرة بين هذه المجموعة والآية التي قبلها مباشرة واضحة ، إذ إن الآية تدلل على وحدانية الله من خلال آياته في الكون . فكأن السياق يقول ومع هذا البرهان النيِّر على توحيد الله ، فإن من الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . فماذا يستحق هؤلاء من عذاب ؟ . وإذن فمن قوله تعالى : ﴿ **وإلهكم إله واحد ..** ﴾ إلى نهاية هذا المقطع إنما هو أمر بالتوحيد الخالص المبني على الدليل الذي من آثاره المحبة الخالصة .

فصارت التوجيهات العامة في هذا المقطع السادس :

أن على المسلم أن يستعين بالصبر والصلاة ، وألا يقول بموت الشهيد ، وأن يسترجع حال المصيبة ، وأن يسعى بين الصفا والمروة إذا حج أو اعتمر ، وأن يبين حكم الله فلا يكتمه وألا يكفر ، وأن يوحد التوحيد الخالص بالمحبة الخالصة .

وارتباط هذه المعاني بالسياق الكبير واضح . فهذه الأمة لا تتلقى إلا عن الله بواسطة رسوله ، ولا تهتدي إلا بهداه في شعائرها وشرائعها . ومما يساعدها على ذلك ،

الاستعانة بالصبر والصلاة والاسترجاع . وفي معرض ذلك ذكر من الشعائر السعي . فهو وضع قديم أقر فأخذ قوة من الإقرار لا من العمل السابق . وإذا أقره الله ، أخذ محله في عمل المسلم ، والهدى يحتاج إلى توضيح وتبيان ، لا إلى كفر وكتمان .

ومرجع كل هذا إلى التوحيد الذي تنبثق عنه الشرائع والشعائر والمشاعر والعواطف .

٢ – لو في اللغة العربية إذا جاءت فيما يشوق إليه أو يخوف منه قلما توصل بجواب ، ليذهب القلب في جوابها كل مذهب . وكذلك هي في هذا المقطع : ﴿ **ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب** ﴾ الجواب ما ذكرناه أي لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة .

٣ – لو ، وإذ : تدخلان على الماضي في الأصل . ولكنهما في المقطع دخلتا على المستقبل لأن إخبار الله تعالى عن المستقبل باعتبار صدقه كالماضي .

٤ – في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك » .

٥ – دل قوله تعالى ﴿ **والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾ أن من مقتضيات الإيمان الواضحة الكبيرة محبة الله . ومحبة الله تكون أثراً عن الشعور بنعمه . قال عليه السلام : « أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه .. » . ولكن القلب لا يحس بها إلا إذا تحرر من أمراضه . كالحسد والكبر والنفاق . ومن ثَم كانت ذروة السير إلى الله ، محبة الله . وطريق ذلك الإقبال على الله بالفرائض والنوافل : « وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه » . فإذا أحبه الله أعطاه بما يشعره بالمحبة : « فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها ، ولئن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه » . وعندئذٍ يفيض القلب بالمحبة لله بما لا يعرفه إلا أهله .

٦ – دلت الآيات الأخيرة على أن الاتّباع في غير طريق الله شرك يعقب ندامة يوم القيامة . فلينظر الإنسان من يتبع ؟ وعلى ماذا ؟ وبماذا ؟ وإلا فإنه سيكون من النادمين . فإذا قال الله : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً** ﴾ (سورة التوبة) لمن تابعوا رجال دينهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال !! فكيف بمن يتبع من لا يعترف بحلال وحرام أصلا ؟ .

نقل القرطبي عن ابن عباس والسدي في تفسير الأنداد في آية ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً** ﴾ قولهما : (المراد بالأنداد : الرؤساء المتّبَعون . يطيعونهم في معاصي الله) .

٧ - عند قوله تعالى : ﴿ **كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم** ﴾ **قال الألوسي** : « واستدل بالآية من ذهب إلى أن الكفار مخاطبون بالفروع . وقال الألوسي عند قوله تعالى : ﴿ **وما هم بخارجين من النار** ﴾ : ففيه إشارة إلى عدم خلود عصاة المؤمنين » .

٨ - يفهم من المجموعة أن التوحيد بدايته اعتقاد الوحدانية لله ، ثم البناء على ذلك . فمن لم يعطِ الله الخضوع والاستسلام ، ويعرف له حقه في العبادة والطاعة فليس موَحداً . أما من عرف ذلك ولم يأت بناقض للشهادتين فإنه يكون موَحداً ولو ارتكب بعض المعاصي مما لا يعتبر نقضاً للشهادتين ، ولكنه يكون فاسقاً . مثل هذا لا يخلد في النار - إن دخلها ولم يعف الله عنه - أما الكافرون فليس لهم خروج من النار بنص الآية ﴿ **وما هم بخارجين من النار** ﴾ . فضلا عن أن يكون لهم دخول في الجنة : ﴿ **ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط** ﴾ (سورة الأعراف) .

كلمة في الفقرة الثانية :

١ - بعد أن بيّن الله جل جلاله في نهاية الفقرة الأولى ما يستحقه الكافرون من عذاب خالد دائم ، بيّن أنه واحد ورحمن ورحيم . وفي ذلك رد وبيان : رد على من يظن أن ذلك العذاب ينافي الرحمة الإلهية . كيف وهم أهل لذلك ؟! ومن الرحمة العدل ، ومن العدل ألا يكون الكافرون والمؤمنون سواءً ، ثم هي بيان في هذا كله . وتأتي الآية اللاحقة لتقيم الحجة على أحديته وعلى رحمته ، من خلال ظواهر الخلق والعناية والحكمة وغير ذلك . ثم تأتي المجموعة الأخيرة لتبين كيف أن بعض الناس مع ذلك يشركون !!؟

٢ - كرّرنا كثيراً أن هذه الفقرة هي نهاية القسم الأول من أقسام سورة البقرة . ومن جملة أدلتنا على ذلك التشابه بين بداية هذا القسم ، وهذه الفقرة . فلنلاحظ ذلك من خلال الأسطر التالية :

بدأ القسم بقوله تعالى :

﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾

ويقابلها في الفقرة الآية الأولى :

﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ .

وقد جاء بعد الآية الأولى في بداية القسم قوله تعالى :

﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ .

ويقابلها في الفقرة الآية الثانية :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس . وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

وقد ختمت الآية الثانية في بداية هذا القسم بقوله تعالى :

﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ .

ثم جاء بعد ذلك قوله تعالى **﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين . وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... ﴾ .**

إن هذا يقابله في الفقرة قوله تعالى :

﴿ ومن الناس من يتّخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . والذين آمنوا أشد حباً لله . ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب ... ﴾ .

إن هذا التشابه الكبير بين بداية القسم وهذه الفقرة ، توحي بأن السياق قد بدأ بشيء واستقر عليه . خاصة وأنت ترى أن ما بين بداية القسم وخاتمته ، كانت آيات كثيرة وفقرات ومقاطع كلها خدمت السياق . ولكن لم يظهر فيها مثل هذا التشابه ، حتى إن هذا التشابه وحده يكاد يشكل نقطة علام على سياق السورة وأقسامها .

كلمة أخيرة في المقطع السادس والقسم كله :

إن هذا المقطع كما أنه خاتمة قسم ، فهو مقدمة مباشرة للقسم اللاحق . وإن القسم الأول والقسم اللاحق يتعانقان حتى ليكادان يشكلان قسماً واحداً . فهما يبنيان مع المقدمة قضية التقوى ليأتي القسم الثالث ليبني على ذلك الإسلام كله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾ .

فالقسم الثالث في السورة يبني على القسمين السابقين ، والقسم الثاني في السورة يبني على القسم الأول الذي جاء بعد المقدمة .

فمثلا : القسم الأول بدأ بالدعوة إلى العبادة والتوحيد . وختم بذلك .

وفي بدايات القسم الثاني يأتي قوله تعالى :

﴿ **واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ .

وكل ذلك سنراه تفصيلا .

لقد جاءت المقدمة لتبين التقوى وتصف أهلها ، كما بينت الكفر والنفاق ووصفت أهل ذلك . وجاء القسم الأول ليدلنا على طريق التقوى وطريق الكفر والنفاق ، وحدد بداية الطريق للتقوى ، أنه العبادة والتوحيد . وسيأتي القسم الثاني ليكمل معاني ويبني على معان ، ويفصل بناءً على ما مر في قضية التقوى ، وليدلنا على طرق أخرى للتقوى .

والمقطع السادس والأخير في القسم الأول هو بمثابة المقدمة للقسم الثاني . فكما سبق القسم الأول بمقدمة ، فقد جاء المقطع الأخير من القسم بمثابة مقدمة للقسم الثاني . ومن ثَم كان هناك تشابه بين مقدمة سورة البقرة وهذا المقطع . في مقدمة سورة البقرة :

كلام عن المتقين الذين من صفاتهم اهتداؤهم بالقرآن ، وإيمانهم وإقامتهم الصلاة . وقد ختم الكلام عنهم بقوله تعالي : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ لاحظ قوله تعالي : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم** ﴾ .

وجاء المقطع السادس وفي بدايته أمر بالاستعانة بالصبر والصلاة . وختمت مجموعة الصبر بقوله تعالى . ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ . ثم جاءت بعد ذلك آية فيها هداية قرآنية في شأن الصفا والمروة ، ثم آية في التحذير من كتمان شيء من كتاب الله . وكل ذلك له صلة ما بالكلام عن المتقين

وصفاتهم في مقدمة سورة البقرة .

ثم جاء في مقدمة سورة البقرة قوله تعالى :

﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ .

وجاء بعد آية الكتمان في المقطع قوله تعالى :

﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون ﴾ .

ثم جاءت آيتان تضمنتا بياناً في التوحيد والرحمة ، هو بمثابة رد على زاعمين . وفي مقدمة سورة البقرة يأتي الكلام عن المنافقين ويبدأبقوله تعالى: **﴿ ومن الناس ... ﴾** .

وآخر مجموعة في المقطع تأتي حديثاً عن المشركين ، وأولها قوله تعالى : **﴿ ومن الناس ﴾** .

فكان المقطع السادس خاتمة قسم ، ولكنه بمثابة المقدمة لقسم آخر .

ولذلك - وكما تتعانق المعاني بين القسم الأول والثاني من سورة البقرة ، فإن المعاني تتعانق بين المقطع السادس والأخير من القسم الأول ، وبين المقطع الأول من القسم الثاني ، ومن مظاهر هذا العناق أن المقطع السادس فيه قوله تعالى :

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى ... ﴾ .

﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ... ﴾ .

وأن المقطع الأول من القسم الثاني فيه :

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لايسمع إلا دعاءً ونداءً ... ﴾ .

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلا ﴾ .

وقد آن الأوان لنقول كلمة عما مر معنا من سورة البقرة :

جاءت مقدمة سورة البقرة لتبين أن هناك تقوى وضلالا ، ثم جاء المقطع الأول مقطع الطريقين ليبين طريق التقوى ؛ وطريق الكفر والنفاق . وأن طريق التقوى : هو العبادة والتوحيد والإيمان والعمل الصالح . وأن طريق الضلال : هو نقض الميثاق وقطع

ما أمر الله به أن يوصل والإفساد في الأرض .

وجاءت المقاطع الخمسة اللاحقة لتعمق هذا كله .

فمن خلال مقطع آدم عليه السلام اتضحت أمور ، ومن خلال مقطع بني إسرائيل اتضحت أمور ، ومن خلال مقطع إبراهيم اتضحت أمور ، ومن خلال مقطع القبلة اتضحت أمور ، ومن خلال مقطع الذكر والصبر والشكر وترك الكفران اتضحت أمور . وكلها تعمق قضايا مرتبطة في المقطع الأول ، وفي المقدمة ، وتمهد لمرحلة قادمة نراها في القسم الثاني من أكل الحلال في الأرض إلى الحج .

ولئن دل القسم الأول على الطريقين . فإن القسم الثاني في أغلبيته ، سيكمل الدلالة على طريق المتقين .

ولأمرٍ ما ، فإن المقطع الأول من القسم الثاني ينتهي بآية البر ، التي هي تلخيص لكل ما سبقها في شأن التقوى - مما عمق السياق الطويل لسورة البقرة ليكون ذلك قبل جولة جديدة تتحدث عن القصاص كطريق للتقوى . وعن الصيام كطريق للتقوى .

وإذا كانت مقدمة سورة البقرة واضحة الصلة مع الفاتحة من خلال كلمة الهداية : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ . وإذا كان القسم الأول من سورة البقرة واضح الصلة بالفاتحة من خلال كلمة العبادة ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ ﴿ **إياك نعبد** ﴾ .

فإن القسم الثاني واضح الصلة بالفاتحة من خلال كلمة الشكر :

﴿ **واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ .

وهكذا يأتي سياق سورة البقرة مفصلاً لشؤون وردت في سورة الفاتحة . ومبيناً ، حكمة تسلسل ورود المعاني فى سورة الفاتحة على نظامها المعروف .

ولعل ما ذكرناه في هذه الكلمة يصلح في الوقت نفسه تمهيداً للبدء في الكلام عن القسم الثاني من أقسام سورة البقرة فلننتقل إليه :

مر معنا فيما مضى تفسير مقدمة سورة البقرة والقسم الأول منها ، وقد رأينا أن المقدمة

تحدثت عن أصناف الناس فجعلتهم ثلاثة أصناف : متقين وكافرين ومنافقين ، ثم جاء القسم الأول فدعا الناس إلى سلوك الطريق الذي يتحررون به من الكفر والنفاق ، ويكونون به من المتقين فعمّ وخصّ في الدعوة ، وكان المضمون الرئيسي الذي بينه القسم الأول : أن التوحيد والعبادة والإيمان والعمل الصالح هي الطريق إلى التقوى ، وأن نقض العهد وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، والإفساد في الأرض هو الطريق إلى الكفر والنفاق ، وأن بداية ذلك كله الكبر والحسد والمعصية ، وأن أهل الكتاب الأول عليهم أن يعقلوا معاني كثيرة إذا أرادوا أن يحققوا تقواهم ويتحرروا من أمراضهم ، وقد أرانا الله عز وجل في القسم الأول النموذج الكامل للتقي ، وعرفنا على محل القِبْلة في الصلاة ، وذلك في سياق الأمر بالعبادة التي هي طريق التقوى ، وطالبنا بالاستعانة بالصبر والصلاة ، ودلّنا على معالم العبادة والتوحيد اللذين هما طريق التقوى ، وكانت خاتمة القسم المجموعة التي أعلنت التوحيد وأدلته ، واستحقاق أهل الشرك العقوبة ، وبعد ذلك كله وغيره يأتي القسم الثاني من أقسام سورة البقرة ، التي تتألف من : مقدمة وأقسام ثلاثة وخاتمة . وهذا أوان الكلام عن القسم الثاني ، ونرجو من القارىء ألا ينفد صبره وهو يرانا نعيد الكَرة مرة بعد مرة في توضيح قضية السياق فإن الأمر يحتاج لذلك .

القسم الثاني

من أقسام سورة البقرة

ويمتد من الآية (١٦٨ - ٢٠٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثاني
من أقسام سورة البقرة
ويمتد من الآية (١٦٨ – ٢٠٧)

كلمة في هذا القسم :

يبدأ هذا القسم بالآية (١٦٨) .

﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيباً** ﴾

وينتهي بنهاية الآية (٢٠٧) :

﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد** ﴾ .

وكما أن القسم الأول في سورة البقرة بدىء بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس ...** ﴾ فإن هذا القسم بدىء بالنداء نفسه : ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ . وهما النداءان الوحيدان اللذان وَرَدَا بهذه الصيغة في سورة البقرة .

وكما أن القسم الأول سبق بفقرة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس** ﴾ .

فهذا القسم مسبوق بمجموعة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس** ﴾ .

وكما ختمت مقدمة سورة البقرة بفقرة : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ..** ﴾ .

وختم القسم الأول بقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً ..** ﴾ فإن هذا القسم يختم بمجموعة تتحدث عن صنفين من الناس : ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام ...** ﴾ .

﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد** ﴾ .

ولقد رأينا أن القسم الأول في مقاطعه قد عرض لمعانٍ . وههنا نلاحظ أن تلك المقاطع قد وطَّأت للمعاني التي سترد معنا في القسم الثاني . حتى لنكاد نرى توطئة على تسلسل معّين لمعانٍ على نفس التسلسل نجدها في القسم الثاني :

فمثلًا نجد المقطع الأول في القسم الأول يختم بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ...** ﴾ . ويأتي بعده مقطع آدم . وفيه كلام عن طريق الشيطان . ويبدأ القسم الثاني بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ . وفي مقطع بني إسرائيل كلام عن كتمان ما أنزل الله ، وعن البر . ويأتي في المقطع الأول من القسم الثاني كلام عن الكتمان والبر . وفي مقطع بني إسرائيل كلام عن قتلٍ ظالم . ويأتي في القسم الثاني بعد آية البر كلام عن القصاص . وفي مقطع بني إسرائيل أشياء أخرى سنرى صلتها بأشياء في القسم الثاني . ثم في القسم الأول مقطع إبراهيم ، وفيه كلام عن المناسك . وفي أواخر القسم الثاني كلام عن الحج والعمرة . وفي موضوع توطئة القسم الأول لمعاني القسم الثاني سنجد تفصيلات أثناء عرضه . ونكتفي هنا بهذه الإشارة .

ولقد دلنا القسم الأول على الطريق إلى التقوى :

﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم .. لعلكم تتقون** ﴾ .

وسنرى أن القسم الثاني يكمل الدلالة على التقوى ، ويفصل فيما يدخل فيها . ويبين لنا تفصيلات في طريق إقامتها والوصول إليها :

﴿ **ولكم في القصاص حياة .... لعلكم تتقون** ﴾ .

﴿ **كُتب عليكم الصيام .... لعلكم تتقون** ﴾ .

﴿ **كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون** ﴾ .

وجاءت في هذا القسم آية البر ، وفيها تعريف مفصَّل للمتقين . ولذلك ختمت بقوله تعالى : ﴿ **وأولئك هم المتقون** ﴾ . ثم جاء بعدها آيات القصاص كطريق مساعد لإقامة التقوى في المجتمع . ثم جاءت آيات الوصية لتدل على حق على المتقين . ولذلك ختمت بقوله تعالى : ﴿ **حقاً على المتقين** ﴾ . ثم جاءت آيات الصيام لتدل على طريقين للتقوى . ثم تأتي آية فيها المنع عن الرشوة ، وذلك من التقوى . ثم تأتي آية السؤال عن الأهِلّة ، ودخول البيوت من غير أبوابها ؛ وفيها : ﴿ **ولكن البر من اتقى .. واتقوا الله ...** ﴾ ثم آيات في القتال والإنفاق وفيها : ﴿ **واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ ثم تأتي آيات في الحج والعمرة وفيها : ﴿ **واتقوا الله** ﴾ . ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب** ﴾ . ﴿ **ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله** ﴾ . ثم تأتي مجموعة الختام وفيها : ﴿ **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم** ﴾ .

إن القسم الثاني يكمل القسم الأول . ويكمل مقدمة سورة البقرة في الدلالة على التقوى أركاناً وطريقاً واستقامة . ومن خلال القسم الأول والثاني ، نعرف محل أركان الإسلام الخمسة في قضية التقوى . فالملاحظ أن مقدمة سورة البقرة ذكرت من أركان الإسلام : الإيمان والصلاة والإنفاق : أي الشهادتين والصلاة والزكاة . وذكر القسم الثاني من أركان الإسلام : الصوم والحج . وكان الحج آخر ما ذكر في القسم الثاني من الأركان وبعد ذلك يأتي القسم الثالث الذي يأمر بالدخول في الإسلام كله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾ أي في الإسلام جميعاً ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ .

وفي ذلك كله مظهر من مظاهر وحدة السورة وتكامل معانيها ، وارتباط بعضها ببعض . ومظاهر الإعجاز في ذلك لا تخفى .

والملاحظ أن بداية القسم الأول كان فيها أمر ونهي :

﴿ **اعبدوا ربكم .. فلا تجعلوا لله أنداداً** ﴾ .

وأن بداية القسم الثاني فيها أمر ونهي :

﴿ **كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ .

ومن ورود كلمة : ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ مرتين فقط في سورة البقرة : ندرك أن الإسلام يخاطب الناس كل الناس بأوليات محددة . حتى إذا استجابوا خوطبوا بتفصيلات أخرى . من هذه الأوليات : العبادة ، والتوحيد ، وأكل الحلال ، وعدم اتباع خطوات الشيطان وهذا

شيء نجد مظاهره في حياة رسول الله ﷺ . فمثلا عندما أرسل معاذاً إلى اليمن ، أمره أن يدعوهم إلى التوحيد . فإن استجابوا ، فليأمرهم بالصلاة . فإن استجابوا ، فليأمرهم بالزكاة . وهذه قضية ينبغي أن يفطن لها الدعاة .

والملاحظ أن هذا القسم بدأ بقوله تعالى : ﴿ **كلوا مما في الأرض حلالا طيباً** ... ﴾ . وانتهى بمجموعة فيها : ﴿ **وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها** ... ﴾ فقد وردت كلمة ﴿ **الأرض** ﴾ في البداية والنهاية . وسنرى صلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ . فالبشرية على هذه الأرض كافرة كلها إذا لم تدخل في الإسلام . وإذا دخلت في الإسلام ، فما لم تخطُ الخطوة التالية في السير إلى التقوى والاستقامة . فإنها تكون مفرّطة .

وقد خُتم القسم الثاني بمجموعة فيها حديث عن صنفين من الناس ، وختم القسم الأول بحديث عن صنف من الناس ، وختمت المقدمة بالحديث عن صنف من الناس ، وكل ذلك باستعمال كلمتي : ﴿ **ومن الناس** ﴾ التي لا تأتي بعد ذلك في سورة البقرة مرة أخرى . وكأنه سبحانه وتعالى بذلك قد عرّفنا أصناف الناس حقاً وعدلا وحكماً فصلا ، ولنبدأ عرض مقاطع هذا القسم .

المقطع الأول في القسم الثاني :

يمتد هذا المقطع من الآية (١٦٨) إلى نهاية الآية (١٧٧) ويتألف من فقرتين وهذا هو :

الفقرة الأولى

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ

كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

الفقرة الثانية

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى

ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

كلمة في هذا المقطع وسياقه :

١ - بدأ المقطع بالأمر بأكل الحلال وعدم اتباع خطوات الشيطان ، ثم علل للنهي عن اتباع خطوات الشيطان ، ثم عاب على من يتبع خطوات الآباء على ضلالهم وكفرهم ، ثم مثل للكافرين فضرب لهم مثلا يُعرِّف على حقيقة حالهم بمالا يصح معه اتباعهم . فاستقر بذلك أن الكتاب ينبغي أن يُتّبع ، وأن الحلال الذي أحلَّه الله هو الذي ينبغي أن يُؤكل . وعندئذٍ يتوجه الخطاب إلى أهل الإيمان بأكل الطيبات والشكر ، وبتبيان المحرمات من الأطعمة ، وفي هذا السياق يذكر الله لنا نموذجين :

نموذجاً من الناس يكتم ما أنزل الله . ونموذجاً استكمل صفات المتقين وخصائص التقوى . فكان مجيء ذكر هذين النموذجين هنا ارتقاءً بالنفس إلى التسليم المطلق للحق وإعلانه والتحقق به .

٢ - جاء هذا المقطع بداية للقسم الثاني . وسبق بخاتمة القسم الأول . وقد قلنا عن خاتمة القسم الأول إنها كالمقدمة للقسم الثاني فنلاحظ الآن ما يلي :

سُبق هذا المقطع بشكل مباشر بالآيات :

﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبّ الله . والذين آمنوا أشد حباً لله ... إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتّبعوا ...** ﴾ .

لاحظ قوله تعالى : ﴿ **إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا** ﴾ إنه في هذا السياق يأتي المقطع وفي آيته الأولى نهي عن اتباع خطوات الشيطان ، وفي آيته الثالثة : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا** ﴾ . فالصلة إذن على أشُدّها بين الآيات الأولى من المقطع وما سبقها مباشرة .

وفي المقطع السابق على هذا المقطع ترد آية في موضوع كتمان الكتاب . وفي هذا المقطع ترد آيات في هذا الموضوع تفصل فيه .

وفي المقطع السابق آيات الصبر . وتأتي في هذا المقطع آية البر التي فيها حديث عن الصبر : ﴿ **والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس** ﴾ فالصلة بين المقطع الأول من القسم الثاني والمقطع الأخير من القسم الأول واضحة جداً .

٣ - وفي نظرة متأملة لسورة البقرة ، نجد كأن هذا المقطع يبني على المقاطع الثلاثة الأولى في القسم الأول ، وعلى مقدمة سورة البقرة . وكأن ما جاء قبله بعد ذلك في السورة اقتضاه السياق ، ثم عاد السياق مرة ثانية إلى مجرى معين . ولإدراك هذا المعنى نقول :

أ - بدأت سورة البقرة بوصف المتقين والكافرين والمنافقين . وجاء مقطعهما الأول ليعمّق الإدراك للطريق : طريق التقوى ، وطريق الكفر والنفاق . وسار القسم الأول في السورة في هذا المجرى . ومن خلال ذلك كله عرفنا خصائص التقوى وصفات تفصيلية أكثر للمتقين . ومن ثم تأتي آية البر في نهاية هذا المقطع لتعرف لنا المتقين تعريفاً يلخص كل ما قدمه لنا السياق من تفصيلات توضح التعريف الذي مرّ معنا في أول السورة .

ب - في المقطع الأول من القسم الأول ورد قوله تعالى :

﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ...** ﴾ ثم جاء مقطع آدم عليه السلام . وفيه عرّفنا على عداء إبليس ومظاهر خطواته . وعرّفنا كيف أن آدم عليه السلام حُرِّم عليه شيء فخالف ، فعوقب . ويأتي هذا المقطع وكأنه يبني على ذلك كله :

﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيباً** ﴾ .

﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ...** ﴾ .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم .. إنما حَرّم عليكم الميتة ...** ﴾ . وأوضح ما يظهر فيه البناء على المقطع الأول من القسم الأول : أن المقطع الأول من القسم الأول بدايته : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم ..** ﴾ . والآية التي سبقت آية التحريم هنا خُتِمَتْ بقوله تعالى : ﴿ **واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ .

وبعد قصة آدم في القسم الأول يأتي مدخل مقطع بني إسرائيل وفيه :

﴿ **ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين * أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ؟** ﴾ وقد جاءت الفقرة الثانية في هذا المقطع وفيها :

﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ...** ﴾ .

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر ... ﴾ .

فالفقرة تعرّف البر ، وتبيّن عقوبة الكتمان وبيع الآخرة بالدنيا . وبذلك فإن مقطع بني إسرائيل يكون قد غطي تغطية كاملة في السورة ، وجاءت التغطية النهائية بآية البر ، وبذلك أقفل الحوار مع بني إسرائيل . إذ كانت آية البر فيها إشارة إلى قضية القبلة **﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب ﴾** .

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ﴾ .

وهكذا نجد أن هذا المقطع قد بني على المقطع الأول والمقطع الثاني ، وعلى مقطع بني إسرائيل خاصة . وفيه بناء قليل على ما جاء بعد ذلك .

إنه من خلال هذه النظرة الشاملة إلى السورة ، التي رأينا من خلالها نموذجاً على ترابط معاني هذه السورة ، نستطيع أن نسجل ملاحظة حول السياق القرآني . هذه الملاحظة هي : إنه بدون نظرة شاملة إلى الآيات في السورة وإلى مجموع القرآن ، فإن الإنسان قد لا يفطن للصلات بين الآيات والسور . فكما أن الوحدة الكلية لهذا الكون تحتاج إلى نظرة شاملة حتى تدرك . فكذلك الوحدة القرآنية ، والسياق القرآني . وهذا موضوع سيتضح لنا شيئا فشيئاً .

يتألف المقطع من فقرتين :

الفقرة الأولى موضوعها الرئيسي أكل الحلال .

والفقرة الثانية موضوعها كتمان ما أنزل الله ، وتعريف البر .

وإنما جعلنا آيات الكتمان وآية البر فقرة واحدة للصلة التي رأيناها بين ما ورد هنا وبين مقطع بني إسرائيل ، حيث اجتمع هناك الكلام عن الكتمان مع الكلام عن البر . ولملحظكنا ذكرناه من قبل ، وهو أنه بعد الكلام عن أكل الحلال وتبيان المحرمات من الأطعمة يذكر الله عز وجل نموذجين من الناس . وبالتالي فإن الكلام عن النموذجين يشكل كلًّا متكاملا ولذلك اعتبرنا الحديث عنهما فقرة واحدة .

تفسير الفقرة الأولى :

يقول صاحب الظلال :

« لما بيّن الله – سبحانه – أنه الإله الواحد ، وأنه الخالق الواحد – في الفقرات

السابقة – وأن الذين يتخذون من دون الله أنداداً سينالهم ما ينالهم .. شرع يبيّن هنا أنه الرازق لعباده ، وأنه هو الذي يُشرِّع لهم الحلال والحرام .. وهذا فرع عن وحدانية الألوهية كما أسلفنا . فالجهة التي تخلق وترزق هي التي تُشرِّع ، فتحرّم وتحلل . وهكذا يرتبط التشريع بالعقيدة بلا فكاك ... » .

(وهذا الأمر بالإباحة والحل لما في الأرض – إلا المحظور القليل الذي ينص عليه القرآن نصاً – يمثل طلاقة هذه العقيدة ، وتجاوبها مع فطرة الكون ، وفطرة الناس . فالله خلق ما في الأرض للإنسان ، ومن ثم جعله له حلالا ، لا يقيّده إلا أمر خاص بالحظر ، وإلا تجاوز دائرة الاعتداء والقصد . ولكن الأمر في عمومه أمر طلاقة واستمتاع بطيبات الحياة ، واستجابة للفطرة بلا كزازة ولا حرج ولا تضييق .. كل أولئك بشرط واحد ، هو أن يتلقى الناس ما يحل لهم وما يحرم من الجهة التي ترزقهم هذا الرزق . لا من إيحاء الشيطان الذي لا يوحي بخير لأنه عدو للناس بيّن العداوة . لا يأمرهم إلا بالسوء والفحشاء ، وإلا بالتجديف على الله ، والافتراء عليه ، دون تثبُّت ولا يقين) .

﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالًا طيباً** ﴾ : الأمر هنا للإباحة ، والحلال الطيب هو الطاهر من كل شبهة . ولم يحرم الله علينا إلا ما كان ضاراً بالأبدان أو العقول أو الأنفس أو بهاكلها ، ومن ثَم فالحلال وحده هو المستطاب . ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ أي : طرقه التي يدعوكم إليها . يقال : اتبع خطواته ، إذا اقتدى به ، واستنَّ بسنته . وخطوات تزيين الحرام واتباع الشهوات ... ﴿ **إنه لكم عدو مبين** ﴾ . أي ظاهر العداوة . لاخفاء في عداوته . ولكن الأمر مُلبس على أولياء الشيطان ، فإنه يريهم في الظاهر الموالاة ، ويزين لهم أعمالهم ، فيأتيهم من حيث يشتهون ، وإنما يريد بذلك هلاكهم في الباطن . ﴿ **إنما يأمركم بالسوء** ﴾ أي بالقبيح ، أو مالا حد فيه من الذنوب ﴿ **والفحشاء** ﴾ أي ما يتجاوز الحدّ في القبح من العظائم ، أو ما فيه حد من الذنوب . ﴿ **وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** ﴾ هو قولهم : هذا حلال وهذا حرام بغير علم ، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز عليه . فصار المعنى العام :

إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة ، وبما هو أغلظ منها : الفاحشة ، كالزنا ونحوه . وبما هو أغلظ من ذلك ، وهو : القول على الله بلا علم . فيدخل في هذا كل كفر وكل ابتداع . ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله** ﴾ : الضمير للناس ، والمقصود به بعضهم من أهل الكفر والشرك والنفاق . ﴿ **قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا** ﴾ . أي

ما وجدنا عليه آباءنا . ﴿ **أو لو كان آباؤهم** ﴾ الذين يتبعونهم ويقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿ **لا يعقلون شيئاً** ﴾ أي ليس لهم فهم ﴿ **ولا يهتدون** ﴾ أي ليس لهم هداية إلى صواب . ﴿ **ومثل الذين كفروا** ﴾ فيما هم فيه من الغيِّ والضلال والجهل ﴿ **كمثل الذي ينعق** ﴾ أي : يصيح ﴿ **بمالا يسمع إلا دعاءً ونداء** ﴾ هي الدوابّ السارحة التي لا تفقه ما يقال لها . بل إذا نعق بها راعيها ؛ أي دعاها ، لا تفقه ما يقول ، ولا تفهم محتواه ، بل إنما تسمع صوته فقط : والنداء ما يُسمع . والدعاء قد يُسمع وقد لا يسمع . شبه الكافرين بالبهائم من حيث إن الكافر إذا دعي للإيمان لا يسمع من الدعاء إلا جرس النغمة ودويّ الصوت من غير إلقاء أذهان ولا استبصار . وكذلك الحيوانات لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه . ولا تفقه شيئاً آخر ﴿ **صمٌّ** ﴾ عن سماع الحق ﴿ **بُكْمٌ** ﴾لا يتفوهّون به ﴿ **عميٌ** ﴾ عن رؤية طرقه ومسالكه ﴿ **فهم لا يعقلون** ﴾ أي لا يفهمون موعظة فيعقلونها . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ أي من مستلذاته المشروعة ، أو حلالاته ﴿ **واشكروا لله** ﴾ الذي رزقكموها ﴿ **إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ إن صح إنكم تختصونه بالعبادة ، وتقرون أنه معطي النعم . ثم بيَّن المحرم فقال : ﴿ **إنما حرم عليكم الميتة** ﴾ وهي كل ما فارق الروح من غير ذكاة شرعية مما يذبح . وقد خَصَصت الأحاديث من ذلك : السمك والجراد . ﴿ **والدم** ﴾ يعني السائل لقوله تعالى في موضع آخر : ﴿ **أو دماً مسفوحاً** ﴾(سورة الأنعام) وخَصَّصت الأحاديث من الدم : الكبد والطحال . واستثنى الفقهاء ما يبقى في العروق بعد الذبح للضرورة . ﴿ **ولحم الخنزير** ﴾ يعني الخنزير بجميع أجزائه ، وخص اللحم لأنه المقصود بالأكل ، ولأن الشحم وغيره يدخل مع اللحم تغليباً . ﴿ **وما أُهل به لغير الله** ﴾ أصل الإهلال رفع الصوت ، والمراد به هنا ما ذبح على غير اسم الله ، أي رفع به الصوت للأصنام وغيرها من الآلهة المزعومة أو الأشياء المعظمة . ﴿ **فمن اضطر** ﴾ أي فمن ألجىء فأكل ﴿ **غير باغ** ﴾ أي غير ظالم بأن لم يأكل للذة وشهوة ﴿ **ولا عادٍ** ﴾ : أي غير متعدٍ مقدار الحاجة : أي غير متجاوز الحد المباح له ، وهو قدر ما يقع به القوام وتبقى معه الحياة دون ما فيه حصول الشبع ، لأن الإباحة للاضطرار . فتقدر بمقدار ما تندفع به الضرورة .﴿ **فلا إثم عليه** ﴾ أي في الأكل . ﴿ **إن الله غفور** ﴾ للذنوب الكبائر ، فأنى يؤاخذ بتناول الميتة عند الاضطرار ﴿ **رحيم** ﴾ ومن رحمته أنه رخّص .

فوائد :

١ - عند قوله تعالى : ﴿ **كلوا مما في الأرض حلالا طيباً** ﴾ يقول الألوسي : (والأمر

للوجوب فيما إذا كان الأكل لقوام البنية . وللندب كما إذا كان لمؤانسة الضيف . وللإباحة فيما عدا ذلك) . **قال القرطبي** :

(وسمي الحلال حلالاً ، لانحلال عقدة الحظر عنه . قال سهل بن عبد الله : النجاة في ثلاثة : أكل الحلال ، وأداء الفرائض ، والاقتداء بالنبي ﷺ) . وقال أبو عبد الله الساجي - واسمه سعيد بن يزيد - : (خمس خصال بها تمام العلم ، وهي : معرفة الله عز وجل ، ومعرفة الحق ، وإخلاص العمل لله ، والعمل على السنَّة ، وأكل الحلال .فإن فقدت واحدة لم يُرفع العمل . قال سهل : ولا يصح أكل الحلال إلا بالعلم ، ولا يكون المال حلالا حتى يصفو من ست خصال : الربا ، والحرام ، والسحت ، والغلول ، والمكروه ، والشبهة) .

٢ - ذكرنا في المثل الذي ضربه الله للكافرين الاتجاه الذي يقول : إن المراد به أن هؤلاء الكافرين إذا دعوا إلى الحق لا يفهمون ولا يستجيبون ، لأنهم كالأنعام لا تسمع إلا صيحة الراعي ، ولا تفهم معناها . وهناك اتجاه آخر في تفسير المثل نقل فيه القرطبي من جملة ما نقل كلام ابن زيد في شرحه فقال : (وقال ابن زيد : المعنى : مثل الذين كفروا في دعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائح في جوف الليل . فيجيبه الصدى ، فهو يصيح بما لا يسمع ، ويجيبه مالا حقيقة فيه ولا منتفع) .

٣ - إنما : في اللغة العربية تفيد الحصر . فعندما ذكر الله عز وجل المحرمات الثلاثة : الميتة والخنزير وما أُهلّ به لغير الله بعد (إنما) فهم بعضهم من ذلك أن المحرمات من المأكولات هذه الثلاثة حصراً ، وقد ناقش بعضهم في الحصر وهو موضوع سيأتي فيما بعد . وإنما ذكرنا هذا هنا للإشارة إلى أن الأمر محل بحث عند العلماء .

٤ - ذكرنا أثناء التفسير أن معنى قوله تعالى : ﴿ **وما أُهلَّ به لغير الله** ﴾ أي ما ذُبح على غير اسم الله ، وعلى هذا الاتجاه فإن ما ذُبح على اسم المسيح مثلا ، لا يجوز أكله ولو كان الذابح نصرانياً . وهناك اتجاه في تفسير الآيه أن المراد بها ما ذبح لغير الله ، من صنم وغيره . ويبنون على ذلك أن ما ذُبح على غير اسم الله إذا كان ذابحه نصرانياً يجوز أكله . من هؤلاء : عطاء ومكحول ، والشعبي ، والحسن ، وسعيد بن المسيب . قال الألوسي عن هؤلاء : (وأباحوا ذبيحة النصراني إذا سمى عليها باسم المسيح) (وهذا خلاف ما اتفق عليه الأئمة من التحريم) . أقول : هذا إذا تأكدنا أن الذابح ذكر اسم المسيح ، وعلى كل الأحوال فالأمر ليس محلّ اتفاق كما رأينا .

٥ - في قصة آدم رأينا أن الخطوة الأولى للشيطان كانت معصية الأمر في السجود لآدم وكان سبب ذلك : الكبر . ورأينا أن أبانا آدم نهي عن أكل الشجرة ، فأكل هو وزوجته عليهما السلام ، فعوقبا . وكان ما وقعا فيه أثراً عن وسوسة الشيطان . فخطوات الشيطان مخالفة للأمر ، أو دعوة لمخالفة نهى . وبداية البدايات في اتباع خطوات الشيطان هي : الكبر . والكبر فسَّره رسول الله ﷺ بأنه « غمط الناس وبطر الحق » . ومجيء ذكر المحرمات من الأطعمة في سياق النهي عن اتباع خطوات الشيطان فيه تذكير لنا بألا نقع في مخالفة النهي . فإن أبانا آدم قد عوقب على ذلك .

٦ - في غير شريعتنا عوقبت بعض الأمم بتحريم بعض الطيبات عليها . قال تعالى (في سورة النساء) : ﴿ **فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحلت لهم** ﴾ أما في شريعتنا فقد أُحلت لنا الطيبات كلها . قال تعالى عن رسولنا ﷺ فى سورة الأعراف : ﴿ **ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم** ﴾ ومن هنا ندرك أنه لم يحرم على هذه الأمة شيء إلا وهو من باب الخبائث التي تستقذرها النفس المستقيمة الفطرة . إنه كما أن البول والغائط نجسان ومستقذران وتستخبثهما كل نفس ، فكذلك الخمر والخنزير والميتة والدم المسفوح . ولو أن نفساً لم تستقذر البول والغائط وأقبلت عليهما في الأحوال العادية فإنها لا تدلل إلا على فساد فطرتها . فكذلك من يقبل على أكل الخنزير أو الدم المسفوح أو الميتة ، إنما يدلل على فساد فطرته ، فضلاً عن مجاوزته حدود الله الذي له حق التحريم والتحليل ، لأنه المالك . فإذا حرم مع كثرة العطاء ، فما على الإنسان إلا أن يلتزم .

٧ - الحكمة الأولى فى تحريم الدم المسفوح أو الميتة أو ما أُهلّ به لغير الله . أو الخنزير هي النجاسة . أولا : فقد حكم الله على هذه الأشياء بالنجاسة . وأمر النجاسة والطهارة في الأصل أمر تعبُّدي . تعبَّدنا به الله خالقنا ورازقنا ومالك كل شيء . وما علينا إلا التسليم .

- ولا مانع بعد التسليم أن يفتش الإنسان عن حكمة التحليل والتحريم . فإن فعل الله وتشريعه لا ينفكان عن الحكمة ، فالله تعالى حكيم . وعلينا أن لا نفهم الحكمة على أنها الضرر الجسمي وحده . فإنه من حيث الظاهر لا فارق بين ذبيحة المجوسي أو الملحد ، وبين ذبيحة المسلم ، فالحكمة ينبغي أن ينظر إليها بمنظار أوسع . فمثلا : قد يكون السر في تحريم الخنزير أن من يأكله يصبح تركيبه النفسي غير مستقيم مع الفطرة . فمن

المعروف أن للتغذية تأثيرها على تركيب نفس الإنسان . فهذا دواء يجعل الإنسان مستريح الأعصاب . وهذا دواء يجعل عند الإنسان استعداداً للغضب ، ومن المشهور أن أكل لحم الخنزير يوجِد عند صاحبه بلادة في شأن العِرض ، ولذلك فإن البلدان التي يُكثر أهلها من أكل لحم الخنزير لا تهتم كثيراً بقضية الأعراض .

— إن تحريم بعض الأمور قد تكون الحكمة فيه إبقاء التركيب الفطري للإنسان عِلى سلامته . إن الحيوان يشترك مع الإنسان في أن له حياة ، فلماذا يزهق الإنسان روح الحيوان ؟. إن الله الذي خلق الحياة أجاز للإنسان أن يذبح بعض الحيوانات وأن يأكلها . وشرط لذلك شروطاً . من جملتها أن يكون الذبح على اسمه ، وأن يكون الذابح ذا اعتقاد خاص . وأن يكون الذبح على طريقة معينة .

فإذا لم تتوفر مثل هذه الشروط فإن الله الذي خلق الحياة لا يبيح لك أن تأكل ، فإذا أكلت أكلت بدون إذن صاحب الحق . وتأثير ذلك على التركيب النفسي للإنسان واضح . وإذن فمن خلال نظرة شاملة يتم البحث عن الحكمة . فقد تكون حكمة التحريم الضرر الجسمي فقط كتحريم السم الضار ، وقد تكون حكمة التحريم الضرر الجسمي والعقلي والنفسي ، كما هو الشأن في الخمر ، فعلينا أن نتنبه لذلك .

— في موضوع الميتة والدم واضح أن هناك ضرراً جسمياً زيادة على أنهما نجسان ومستقذران لدى النفس المستقيمة ، وفي موضوع الخنزير : تذكر الدودة الشريطية . وهي تختلف عن الدودة نفسها في البقر بأكثر من عشرة فروق تجعلها أكثر خطراً ، وتذكر أنواع من الديدان أخرى تسبب إصابات للإنسان كنت ذكرتها في الفصل الرابع من كتاب (الإسلام) ، ولكن السر في التحريم أوسع من مثل هذا . إنه يكمن في نجاسة الخنزير ، وقذارته . ويكمن في تأثيرات لحمه على التركيب الكلي للإنسان . وللبحث تتمة . وإن الإنسان لازال يكتشف . وفي كل ما كشفه الإنسان حجة لهذا الإسلام .

٨ — يجيء قوله تعالى : ﴿ **إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ...** ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ بياناً لوجوب الانتهاء عن اتباعه ، ولظهور عدواته . فكأنه تعالى قال : لا تتبعوا خطوات الشيطان لأنه يأمركم بالسوء والفحشاء ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون .

قال قتادة والسدي في قوله تعالى : ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ : (كل

معصية لله فهي من خطوات الشيطان) . وقال عكرمة : (هي نزغات الشيطان) .

وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : (يقول الله تعالى إن كل مال منحته عبادي فهو لهم حلال .. وإني خلقت عبادي حنفاء . فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم . وحرَّمت عليهم ما أحلَلْتُ لهم) . دل الحديث على أن من مظاهر الضلال الكبيرة ؛ تحريم الحلال وتحليل الحرام . وذلك كفر وهو من خطوات الشيطان وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (تليت هذه الآية عند النبي ﷺ ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيباً** ﴾ . فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله : ادعُ الله أن يجعلني مستجاب الدعوة . فقال : يا سعد . أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة . والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل الله منه أربعين يوماً . وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به) .

– قال الشعبي : (نذر رجل أن ينحر ابنه . فأفتاه مسروق بذبح كبش وقال : هذا – أي نذره – من خطوات الشيطان) .

– (وأُتي عبد الله بن مسعود بضرع وملح . فجعل يأكل . فاعتزل رجل من القوم . فقال ابن مسعود ناولوا صاحبكم. فقال: لأريده. فقال أصائم أنت؟ قال: لا، قال: فما شأنك ؟ قال : حرمت أن آكل ضرعاً أبداً . فقال ابن مسعود : هذا من خطوات الشيطان . فأطعم وكفِّر عن يمينك) .

وعن أبي رافع قال : (غضبت يوماً عليَّ امرأتي . فقالت هي يوماً يهودية ويوماً نصرانية وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك ، فأتيت عبد الله بن عمر فقال : إنما هذه من خطوات الشيطان) . (وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة . وهي يومئذٍ أفقه امرأة في المدينة . وأتيت عاصماً وابن عمر فقالا مثل ذلك) .

وعن ابن عباس قال : (ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من خطوات الشيطان ، وكفارته كفارة يمين) .

٩ – العقلية المؤمنة عقلية متبعة للهدي المنزل ، أما العقلية الكافرة فعقلية مقلدة . العقلية المؤمنة تزن الرجال بالحق . والعقلية الكافرة تزن ما تؤمن به بالرجال ولو كانوا على غير علم وعقل وفهم . فشتان بين العقليتين .

١٠ – روى الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني عن رسول الله ﷺ : « أُحلَّ

لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال » .

١١ – سئل الحسن البصري عن امرأة عملت عرساً لِلُعبها فنحرت جزوراً . فقال : (لا تؤكل لأنها ذُبحت لصنم) .

أورد القرطبي عن عائشة : أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين ؟ فقالت : (ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه وكلوا من أشجارهم) .

١٢ – ذكر ابن كثير مسألة قال : (إذاوجد المضطر ميتة ، وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى فإنه لا يحل له أكل الميتة ، بل يأكل طعام الغير بغير خلاف ، وإذا أكله ، والحالة هذه – هل يضمنه أم لا ؟ فيه قولان هما روايتان عن مالك) .

١٣ – عن مسروق أنه قال : (من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار) . وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة كالإفطار للمريض .

١٤ – قال الحنفية : يرخص شرب الخمر للعطشان ، وأكل الميتة في المجاعة إذا تحقق الهلاك .

١٥ – قال الحنفية : ويحرم الذبح لمخلوق ولو ذكر اسم الله تعالى ، لأنه أُهلَّ به لغير الله تعالى ، أما لو نوى إكرامه فإنه يحل ، ويظهر ذلك فيما لو ضافه أمير مثلا فذبح عند قدومه شاة فإن قصد التعظيم فلا تحل – وإن أضافه بها . وإن قصد الإكرام فتحل . اهـ . (الهداية العلائية ٣٢٦) .

١٦ – قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ . دلت هذه الآية على أن أكل الحلال وشكر الله أثر من آثار العبادة . ومن هنا نعلم لماذا تأخر هذا الأمر في السورة هذا التأخر ، ولماذا استغرق موضوع تعميق معنى العبادة القسم الأول كله . فإذا عرفنا أن الله لا يقبل العبادة إذا لم يرافقها أكل حلال ، أدركنا الارتباط الكامل بين ما وصلنا إليه وبين ما سبق . والدليل على ارتباط قبول العبادة بأكل الحلال ؛ الحديث الذي رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس إن الله طيّب لا يقبل إلا طيباً . وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم** ﴾ وقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ..** ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب

يارب . ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذّيَ بالحرام . فأنّى يستجاب لذلك » . ؟

فإذا تذكرنا أن الدعاء مخ العبادة . وتذكرنا الحديث الذي ذكرناه قريباً أنه لا يقبل العمل أربعين يوماً بسبب لقمة حرام ، أدركنا الصلة بين العبادة وأكل الحلال . وإنما ذكرنا هذا الموضوع مع الفوائد مع أن له صلة بالسياق من أجل الفائدة التي تضمنها الحديث

فصول شتى :

فصل في التقليد :

يثار بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا** ﴾ موضوع التقليد للغير بدون معرفة دليله . هل يجوز ذلك أو لا يجوز ؟ . وهذه نقول توضح حدود هذه المسألة :

عند قوله تعالى : ﴿ **وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** ﴾ يقول الألوسي : (وظاهر الآية المنع من اتباع الظن رأساً ؛ لأن الظن مقابل للعلم لغة وعرفاً . ويُشكل عليه أن المجتهد يعمل بمقتضى ظنه الحاصل عنده من النصوص ، فكيف يسوغ اتباعه للمقلد ؟. وأجيب بأن الحكم المظنون للمجتهد يجب العمل به للدليل القاطع وهو الإجماع . وكل حكم يجب العمل به قطعاً علم بأنه حكم الله تعالى فهو معلوم قطعاً . فالحكم المظنون للمجتهد معلوم قطعاً . وخلاصته أن الظن كافٍ في طريق تحصيله ، ثم بواسطة الإجماع على وجوب العمل صار المظنون معلوماً ، وانقلب الظن علماً . فتقليد المجتهد ليس من اتباع الظن في شيء) .

وقال القرطبي بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ...** ﴾ (تعلق قوم بهذه الآية في ذم التقليد لذم الله تعالى الكفار باتباعهم لآبائهم في الباطل واقتدائهم بهم في الكفر والمعصية ، وهذا في الباطل صحيح . أما التقليد في الحق فأصل من أصول الدين ، وعصمة من عِصَمِ المسلمين ، يلجأ إليها الجاهل المقصر عن درك النظر . واختلف العلماء في جوازه في مسائل الأصول على ما يأتي . وأما جوازه في مسائل الفروع فصحيح) .

ثم بعد كلام قال القرطبي :

(فرض على العامي الذي لا يشتغل باستنباط الأحكام من أصولها لعدم أهليته ، فيما لا يعلمه من أمر دينه ويحتاج إليه ، أن يقصد أعلم من في زمانه وبلده فيسأله عن نازلته فيمتثل فيها فتواه . لقوله تعالى فى سورة النحل : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ . وعليه الاجتهاد في أعلم أهل وقته بالبحث عنه حتى يقع عليه الاتفاق من أكثر الناس . وعلى العالم أيضاً فرض أن يقلد عالماً مثله في نازلة خفي عليه فيها وجه الدليل والنظر ، أو أراد أن يجدد الفكر فيها والنظر حتى يقف على المطلوب ، فضاق الوقت عن ذلك ، وخاف على العبادة أن تفوت ، أو على الحكم أن يذهب ، سواء كان ذلك المجتهد الآخر صحابياً أو غيره . وإليه ذهب القاضي أبو بكر وجماعة من المحققين) .

أقول : هذا في التقليد في الفروع . أما في الأصول فقد قال ابن عطية : أجمعت الأمة على إبطال التقليد في العقائد . وقد نازعه في ادعاء الإجماع علماء ، خاصة إذا كان التقليد للمعصوم أو كان التقليد في حق ، وكان صاحبه جازماً به . حتى لو رجع الأول لبقي الثاني متمسكاً بالحق . ولكن حتى من نازعوا في الإجماع فإنهم لا يخالفون في أنه : من يستطيع أن ينظر في الدليل المؤدي للأصل ثم لا ينظر فإنه آثم . فالإجماع منعقد على إثم المقلد في الأصول إذا كان قادراً على النظر ، ومع حملة الشيخ القرطبي على أنواع من المتكلمين فإنه يختم كلامه بالدفاع عن المتكلمين الذين يدرسون ما يستطيعون به أن يقيموا الحجة على أعداء الله من خلال اللغة التي يفهمونها فيقول :

(ومن نظر الآن في اصطلاح المتكلمين حتى يناضل بذلك عن الدين فمنزلته قريبة من النبيين ؟!. فأمّا من يهجن من غلاة المتكلمين طريق من أخذ بالأثر من المؤمنين ، ويحض على درس كتب الكلام ، وأنه لا يعرف الحق إلا من جهتها بتلك الاصطلاحات فصاروا مذمومين لنقضهم طريق المتقدمين من الأئمة الماضين ، والله أعلم . وأما المخاصمة والجدل بالدليل والبرهان فذلك بيّن في القرآن) .

وقد قال الألوسي في قضية التقليد : (وفي الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر ، وأما اتباع الغير في الدين بعد التعلم بدليل فإنه محض اتّباع في الحقيقة لما أنزل الله تعالى ، وليس من التقليد المذموم في شيء ، وقد قال سبحانه : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ سورة الأنبياء .

فصل : في نقول لها صلة بآية المحرمات من الأطعمة :

قال القرطبي :

(واختلف العلماء هل يجوز أن ينتفع بالميتة أو بشيء من النجاسات ؟ واختلف عن مالك في ذلك أيضاً ..) .

(فأما الناقة إذا نحرت ، أو البقرة أو الشاة إذا ذبحت ، وكان في بطنها جنين ميت فجائز أكله من غير تذكية له نفسه ، إلا أن يخرج حياً فيذكى ، ويكون له حكم نفسه) أقول : لا يجيز فقهاء الحنفية أكل الجنين إلا إذا خرج حياً وذبح ذبحاً شرعياً)

(واختلفت الرواية عن مالك في جلد الميتة ، هل يطهر بالدباغ أَمْ لَا ؟ فروي عنه أنه لا يطهر وهو ظاهر مذهبه . وروي عنه أنه يطهر لقوله عليه الصلاة والسلام (أيما إهاب دبغ فقد طهر) وأما شعر الميتة وصوفها فطاهر .

اتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به . قال ابن خُوَيْز منداد : (وأما الدم فمحرم ما لم تعمّ به البلوى ، ومعفوّ عما تعم به البلوى . والذي تعمّ به البلوي هو الدم في اللحم وعروقه ، ويسيره في البدن والثوب يصلى فيه ...

« وقد روت عائشة رضي الله عنها قالت : كنا نطبخ البُرمة على عهد رسول الله ﷺ ، تعلوها الصفرة من الدم فنأكل ولا ننكره » . لأن التحفظ من هذا إصْر وفيه مشقة والإصْر والمشقة في الدين موضوع) .

(ولا خلاف أن جملة الخنزير محرمة إلا الشعر . فإنه يجوز الخرازة به) . أقول لأنه لا ينوب غيره منابه . فإباحة استعماله ضرورة للخرازين .

(ولا خلاف بين العلماء أن ما ذبحه المجوسي لناره ، والوثني لوثنه لا يؤكل ولا تؤكل ذبيحتهما عند مالك والشافعي وغيرهما ؛ وإن لم يذبحا لناره ووثنه كذلك وأجازهما ابن المسيب وأبو ثور إذا ذبحا لمسلم بأمره) . أقول : بعض الفقهاء يعتبرون فعل المأمور بأمر الآمر فعلا للآمر ومن ثم أجازوا أن يستلم وزارة التنفيذ ذمي . لأن أمره على المسلم هو أمر الخليفة وليس أمراً له على الحقيقة .

فصل في الاضطرار المبيح :

قال القرطبي : (الاضطرار لا يخلو أن يكون بإكراه من ظالم ، أو بجوع في مخمصة ، والذي عليه الجمهور من الفقهاء والعلماء في معنى الآية هو من صيره العُدْم والغَرَث ، (وهو الجوع) إلى ذلك ؛ وهو الصحيح . وقيل : معناه أكره وغلب على أكل هذه

المحرمات . قال مجاهد : يعني أكره عليه . كالرجل يأخذه العدو فيكرهونه على أكل لحم الخنزير ، وغيره من معصية الله تعالى . ألا إن الإكراه يبيح ذلك إلى آخر الإكراه) .

(وأما المخمصة فلا يخلو أن تكون دائمة أو لا ، فإن كانت دائمة فلا خلاف في جواز الشبع من الميتة ، إلا أنه لا يحل له أكلها وهو يجد مال مسلم لا يخاف فيه قطعاً ، كالتمر المعلق وحَرِيسَة[1] الجبل ، ونحو ذلك مما لا قطع فيه ولا أذى . وهذا مما لا اختلاف فيه) . وذلك لأن حفظ مهجة المسلم واجب إسلامي عام يلزم من استطاعه : -

قال القرطبي :

(قال أبو عمر : وجملة القول في ذلك أن المسلم إذا تعيَّن عليه رد رمق مهجة المسلم ، وتوجه الفرض في ذلك بألا يكون هناك غيره ، قضي عليه بترميق تلك المهجة الآدمية . وكان الممنوع منه له في ذلك محاربة من منعه ومقاتلته ، وإن أتى ذلك على نفسه ، وذلك عند أهل العلم إذا لم يكن هناك إلا واحد لا غير ،فحينئذٍ يتعين عليه الفرض . فإن كانوا كثيراً ، أو جماعة ، أو عدداً ، كان ذلك عليهم فرضاً على الكفاية . والماء في ذلك وغيره مما يرد نفس المسلم ويمسكها سواء . إلا أنهم اختلفوا في وجوب قيمة ذلك الشيء على الذي رُدَّت به مهجته ورمق به نفسه ، فأوجبها موجبون ، وأباها آخرون . وفي مذهبنا القولان جميعاً . ولا خلاف بين أهل العلم متأخريهم ومتقدميهم في وجوب رد مهجة المسلم عند خوف الذهاب والتلف بالشيء اليسير الذي لا مضرة فيه على صاحبه ، وفيه البُلغة) .

(وإن كان الثاني - أي المخمصة العارضة - وهو النادر في وقت من الأوقات ، فاختلف العلماء فيها على قولين : أحدهما - أنه يأكل حتى يشبع ويتضلع ، ويتزود إذا خشي الضرورة فيما بين يديه من مفازة وقفر ، وإذا وجد عنها غِنىً طرحها ، قال معناه مالك في مُوطأه وبه قال الشافعي وكثير من العلماء) .

(وقالت طائفة : يأكل بقدر سد الرمق ، وبه قال ابن الماجشون وابن حبيب . وفرق أصحاب الشافعي بين حالة المقيم والمسافر ، فقالوا : المقيم يأكل بقدر ما يسدّ رمقه ، والمسافر يتضلع ويتزود ، فإذا وجد غِنىً عنها طرحها ، وإن وجد مضطراً أعطاه إياها ولا يأخذ منه عوضاً ، فإن الميتة لا يجوز بيعها) .

(فإن اضطر إلى خمر ، فإن كان بإكراه شرب بلا خلاف . وإن كان بجوع أو عطش فلا يشرب ، وبه قال مالك في العتبيّة . قال : ولا يزيده الخمر إلا عطشاً ، وهو قول

(١) فى القاموس المحيط : والحريسة المسروقة .

الشافعي : فإن الله تعالى حرّم الخمر تحريماً مطلقاً ، وحرّم الميتة بشرط عدم الضرورة . وقال الأبهري : إن ردت الخمر عنه جوعاً أو عطشاً شربها ، لأن الله تعالى قال في الخنزير ﴿ **فإنه رجس** ﴾ ثم أباحه للضرورة . وقال تعالى في الخمر إنها ﴿ **رجس** ﴾ فتدخل في إباحة الخنزير للضرورة بالمعنى الجلي الذي هو أقوى من القياس ، ولابد أن تروي ولو ساعة . وترد الجوع ولو مدة) .

(فإن غصّ بلقمة فهل يسيغها بخمر أو لا ؟ . فقيل : لا ، مخافة أن يدّعى ذلك . وأجاز ذلك ابن حبيب ، لأنها حالة ضرورة) قال ابن العربي : (أما الغاص بلقمة ، فإنه يجوز له فيما بينه وبين الله تعالى ، وأما فيما بيننا فإن شاهدناه فلا يخفى علينا بقرائن الحال صورة الغصّة من غيرها ؛ فيُصدق إذا ظُنَّ ذلك ، وإن لم يظهر حدَدْناه ظاهراً وسَلِمَ من العقوبة عند الله تعالى باطناً) .

(سئل مالك عن المضطر إلى أكل الميتة وهو يجد مال الغير تمراً أو زرعاً أو غنماً ؟ . فقال : إنْ أمِنَ الضرر على بدنه بحيث لا يُعد سارقاً ويصدّق في قوله ؟ يأكل من أي ذلك وجد ، ما يرد جوعه ، ولا يحمل منه شيئاً ؛ وذلك أحب إلي من أن يأكل الميتة . وقد تقدم هذا المعنى مستوفى . وإن هو خشي ألا يصدقوه وأن يعدوه سارقاً فإن أكل الميتة أجوز عندي ، وله في أكل الميتة على هذه المنزلة سعة) .

(قال أبو الحسن الطبري المعروف بالكيا : وليس أكل الميتة عند الضرورة رخصة ، بل هو عزيمة واجبة ولو امتنع من أكل الميتة كان عاصياً . وليس تناول الميتة من رخص السفر ، أو متعلقا بالسفر . بل هو من نتائج الضرورة ، سفراً كان أو حضراً) . أقول : وفي هذا الأخير خلاف . فمن الفقهاء من لم يعتبر أن سفر المعصية يصلح رخصة للمضطر قبل توبته .

كلمة في الفقرة :

١ – جاءت هذه الفقرة بعد آيات عن الشرك والمشركين ، وعن اتّباع القادة بالباطل :
﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً** ... ﴾ .

﴿ **إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا** ﴾ . وجاءت هذه الآيات وفيها مناقشة للمتبعين غيرهم على الباطل . وفيها دعوة إلى أكل الحلال وترك اتباع خطوات الشيطان . وفيها تبيان للمحرمات من الأطعمة . ومجيء هذا بعد الكلام عن الشرك يشعر بأن ذلك كله : من استحلال أكل الحرام ، واتباع خطوات الشيطان ، ومتابعة الآباء في الباطل ، من

مظاهر الشرك .

٢ - ابتدأت الفقرة بدعوة الناس جميعاً إلى الحلال وترك اتباع خطوات الشيطان . وإذ كانت هناك أفكار متراكمة خلال العصور حول موضوع الحلال ، فقد ناقشت الفقرة اتباع الآباء على عمى . ثم بيّنت حال الكافرين أصلا ، الذين يتابعون على الباطل : ﴿ **صم بكم عمي فهم لا يعقلون** ﴾ . وإذ كان المستجيبون لدعوة القرآن هم الذين يستفيدون من الخطاب ، توجه الخطاب إلى أهل الإيمان للأكل من الطيبات ، ثم طولبوا بالشكر على ذلك ، ثم بينت لهم المحرمات ليجتنبوها فلا يتابعون خطوات الشيطان إذ أُمر فرفض الأمر .

٣ - يأتي بعد هذه الفقرة مباشرة قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب** ... ﴾ . وتباشر هذه الآية آية المحرمات من الأطعمة . والحالات الاستثنائية في ذلك . وفيه ما يشعرنا بأهمية البيان في هذه الشؤون فلننتقل إلى الفقرة الثانية في المقطع :

تفسير الفقرة الثانية :

مقدمــة :

تتألف هذه الفقرة من آيات الكتمان وآية البر . فلتكن هذه المقدمة حديثاً عن كلٍّ من هذه وهذه ، لنعرض بعد ذلك تفسير الفقرة عرضاً واحداً .

١ - قبل ثلاث عشرة آية من آيات الكتمان هنا جاءت آيتان في الموضوع نفسه ؛ هناك تذكر الآيتان أن في هذا الكتاب معجزات وهدى ، ومن كتم هذه المعجزات والهدى استحق اللعنة ، إلا إذا تاب وأصلح وبيَّن . أما هذه الآيات فإنها تذكر أن من كتم الكتاب واشترى به ثمناً قليلا فجزاؤه النار ، والبعد والإبعاد والذم . ومن عقوبتهم الدنيوية الشقاق والاختلاف ، فالآيات هنا فيها زيادات وتوكيد وتلك من حكمة التكرار ، ويمكن أن نفهم من خلال أسلوب القرآن أن ما بين آيتي الكتمان هناك وآيات الكتمان هنا معان يمكن أن يقع فيها الكتمان . ومجمل هذه المعاني التي وقعت بين النصين : الكفر والتوحيد ، والعلم الكوني الذي يخدم العقيدة ، وقضايا الشرك ، والاتباع على باطل وبباطل ، وموضوع الحلال والحرام . وتتبع الآن مواضع الفتنة في الفتوى والتأليف . فإنك تجد أنّ هذه أمهاتها خذ مثلا قضية الاتباع على الباطل . كم من العلماء يجرؤ أن يضع النقاط على الحروف

فيها ؟ وما أضر بقلب الإنسان المعاصر شيء كالتأليف المجرد عن الإيمان في العلوم الكونية ..!! (وقد ذهب بعض المفسرين أن آيات الكتمان الأولى فيها خطاب لأمتنا ، وأن هذه الآيات خطاب لبني إسرائيل أخذاً من أن الخطاب في أول آية البر متوجه لبني إسرائيل ، والخطاب عام في كلتا الآيتين . ويدخل فيه الجميع . ولعل الكاتمين من هذه الأمة أكثر إثماً ، لأن حجّة قرآننا علينا ، وعلى الناس أظهر .) وقد جاءت آية الكتمان في هذا المقطع بعد الفقرة الأولى التي تحدثت عن أكل الحلال ، وعدم اتباع خطوات الشيطان ، ووجوب اتباع ما أنزل الله ؛ والتحذير عن متابعة الآباء ؛ فضلا عن غيرهم ، ثم تبيان حقيقة الكفر ، والأمر بأكل الطيبات والشكر ، وبيان المحرمات ؛ وهذه كلها يجتمع فيها شيئان : أن لها تفصيلات دقيقة . وأنه يقع فيها تهيب . ومهمة العلماء أن يفصّلوا ، وألا يتهيبوا بأن يبيّنوا .

وعلماء بني إسرائيل هم الشهود الكاتمون . فناسب أن يذكر هنا خطر الكتمان ، خاصة والسياق قارب أن يغلق الحوار معهم في هذه السورة فاستوعبت آيات الكتمان الحديث عن كتمان أهل الكتاب ، وكتمان أهل القرآن . وبعد آيات الكتمان جاءت آية البر .

٢ - فكانت تلخيصاً لكل ما مر مما له علاقة في قضية التقوى ليكون ذلك كالمقدمة لكلام جديد تذكر فيه طرائق جديدة لتحقيق التقوى في نفس الإنسان أو في المجتمع الإنساني .

إن آية البر تلخيص لما مر معنا في شأن التقوى ، وهي في الوقت نفسه تفصيل لبعض ما مر ، لقد تحددت معنا فيما مضى قضية التقوى ، والطريق إليها ، وما يتنافى معها ، وما يساعد عليها . فالتقوى إيمان بغيب وصلاة وإنفاق واتباع كتاب . والطريق إليها العبادة . ومما ينافيها نقض العهود : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ... ﴾ . ومما يساعد عليها الصبر والصلاة . وجماع ذلك طاعة الله دون قيد أو شرط في أي شيء ؛ في القبلة وغيرها . وإنك لترى مجموع هذه المعاني في هذه الآية . فمن أخذها وفهمها وعمل بها فكأنه أخذ بالأمر كله . وهذا معنى قولنا إنها تلخيص لما مر . وأما أنها توضيح لبعض ما مر فذلك لأنه مر معنا الإيمان مجملا : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ ومر معنا الإنفاق مجملا : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ . ومر معنا الصبر مجملا : ﴿ **استعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ فجاءت هذه الآية لتوضح المجمل فتذكر في تفصيل الإيمان : ﴿ **من آمن بالله**

واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ . وتذكر محال الصدقات : ﴿ **وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ﴾** . وتذكر مواطن الصبر : ﴿ **والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾** . فكانت هذه الآية تلخيصاً لما مر في شأن التقوى . وتوضيحاً لبعض ما مر لينطلق السياق - كما قلنا - موضحاً طرائق أخرى للتقوى ، ومبيناً حقائق أخرى تدخل في التقوى . ولنبدأ عرض تفسير الفقرة مع ذكر شيء من الفوائد ولنا عودة على السياق :

١ - آيات الكتمان :

﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ﴾** : المراد به إما كل كتاب لله ، أو التوراة أو القرآن ، والأرجح الأول . ﴿ **ويشترون به ثمناً قليلاً ﴾** : الثمن القليل هو الدنيا كلها إذا قيست بقيمة الحق أو بالآخرة . فصار المعنى : ويشترون بهذا الكتمان ، الدنيا أو جزءاً منها . ﴿ **أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ﴾** : أي إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة . لأنه إذا أكل ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه ، فكأنه أكل النار . ﴿ **ولا يكلّمهم الله يوم القيامة ﴾** كلاماً يسرهم ولكن بنحو قوله تعالى في سورة (المؤمنون) : ﴿ **اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾** . ﴿ **ولا يزكيهم ﴾** : أي لا يطهرهم من دنس ذنوبهم ، أو لا يثني عليهم . ﴿ **ولهم عذاب أليم ﴾** أي شديد مؤلم وذلك لأنهم كتموا ، وقد علموا فاستحقوا الغضب . ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾** أي : اعتاضوا عن الهدى بالضلالة بهذا الكتمان فأصبحوا ضلّالا . وكان بوسعهم أن يكونوا مهتدين . ﴿ **والعذاب بالمغفرة ﴾** أي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب بتعاطيهم أسباب العذاب . وكان بوسعهم أن يتعاطوا أسباب المغفرة بإظهار الحق عملا وسلوكاً . ﴿ **فما أصبرهم على النار ﴾** ، يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل . يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال عياذاً بالله من ذلك . أو المعنى :فأي شيء أصبرهم على عمل يؤدي إلى النار . وعلى هذا ، فالاستفهام توبيخي . ﴿ **ذلك بأن الله نزَّل الكتاب بالحق ﴾** : أي إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل . وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره . فخالفوه وكذبوه . فأيُّ شهود هؤلاء ؟. وأي شهادة ضيعوها ؟. ﴿ **وإن الذين اختلفوا في الكتاب ﴾** فقالوا في بعض كتب الله إنها حق ، وفي بعضها إنها باطل . أو

قالوا عن بعض الكتاب إنه حق وعن بعضه إنه باطل . أو اختلفوا في فهمه ، فكتموا الفهم الصحيح حسداً وبغياً . وأظهروا الفهوم الباطلة ، جزاء هؤلاء ﴿ **لفي شقاق بعيد** ﴾ : أي لفي اختلاف بعيد عن الحق والهدى .

فوائد :

١ - لقد اختلفت أمتنا اليوم في الكتاب : فمن كافر به ، ومن مؤمن ببعضه وكافر ببعض سلوكاً وعملا إن لم يكن اعتقاداً . فكان من آثار ذلك ما نراه مما أخبر عنه القرآن من الشقاق البعيد المتمثل في الحروب الداخلية والفتن والاختلافات في الآراء والأهواء . نسأل الله عز وجل أن نكون من الفئة الظاهرة على الحق الناجية التي لا يضرها من خذلها أو خالفها .

٢ - عندما نُظهر الحق قد نخسر في الظاهر قليلا ، والدنيا كلها قليل . ولكن هذه الخسارة الظاهرة ربح في الدنيا والآخرة . فهؤلاء اليهود في عصر النبوة أول من تنطبق عليهم الآيات وأول من انطبقت عليهم . كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة ، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم . فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتَّبعه الناس ويتركوهم ، فكتموا ذلك إبقاءً على ما يحصل لهم من ذلك وهو نزر يسير . فباعوا أنفسهم بذلك ، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير ، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا : فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعل معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات . فصدقه الذين كانوا يخافون عليهم أن يتبعوه ، وصاروا عوناً له على قتالهم وباءوا بغضبٍ على غضب ، وفي الآخرة رأينا ما هو عذابهم بما خالفوا هذا الرسول الخاتم وكذبوه ، وجحدوا وكتموا صفته .

٣ - أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة حديثاً يذكر فيه رسولُ الله ﷺ ناساً آخرين يستحقون عذاب هؤلاء الكاتمين . يقول عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم شيخ زانٍ ، وملك كذّاب ، وعائل مستكبر » .

وفي الصحيح حديث يذكر كذلك عذاب نوع من الناس يشبه عذاب هؤلاء

الكاتمين هو « إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم » .

٤ - يلاحظ أن الكلام في آية الكتمان الأولى قد انصب على كتمان البينات والهدى في الكتاب . وفي آية الكتمان الثانية انصبّ على كتمان كتاب كله . نفهم من ذلك أن نشر المعجزات الموجودة في الكتاب مقصد من مقاصد الشارع . كما أن نشر الهدى الموجود في الكتاب وهو أحكام الله في كل شأن مقصد آخر من مقاصد الشارع . وكما أن كتمان حكم الله حرام ، فكتمان المعجزات والدلائل حرام . ويدخل في ذلك الكثير . ففي هذا القرآن معجزات يعرفها علماء الفلك ، أو علماء الحياة . فمن كتم حيث ينبغي أن يوضح فذلك يدخله في هذا الوعيد .

وفي هذا القرآن هدى لكل جوانب الحياة الإنسانية . في السياسة بفروعها جميعاً من الولاء ، إلى التجمع ، إلى مواضيع الأمة والقوم والإنسانية ، إلى قضايا الشورى ، إلى قضايا الرئاسة المتمثلة بالخلافة إلى غير ذلك وفى الاقتصاد من التملك إلى غيره . وفي السلم والحرب . من الجهاد إلى الإعداد . وفي الاجتماع من قضايا الأسرة إلى غيرها. وفي الأخلاق والتعليم وغير ذلك . وقد دأب الكثير على المخاتلة وعدم البيان مراعاة للسلطان وغيره ، رغبة في الجاه أو رهبة من موقف الحق . وكل ذلك داخل في الوعيد ، إلا إذا كان للإنسان رخصة شرعية فذلك مستثنى . وللخروج من الكتمان لابد من إشاعة حلقات العلم والفقه والتلاوة والتفسير وغيرها .

٢ - آية البر :

﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب** ﴾ : لما أمر الله المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة . كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب في هذا الأمر . فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك ، وهو : أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل وامتثال أوامره والتوجه حيثما وجه ، واتباع ما شرع . فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب برّ ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه . ﴿ **ولكن البر** ﴾ هو ما سيأتي في الآية . « قال الثوري بعدما تلا الآية : هذه أنواع البر كلها » قال ابن كثير - وصدق رحمه الله - : فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها ، وأخذ بمجامع الخير كله . وذلك أن البر اسمٌ لكل فعل مرضي ، ولا بر إلا بما ذكر الله عز وجل في هذه الآية ﴿ **من آمن**

بالله ﴾ بوجوده ، وصفاته ، وأسمائه ، وتوحيده ، وربوبيته ، وألوهيته ﴿ **واليوم الآخر** ﴾ أي يوم البعث . ﴿ **والملائكة والكتاب** ﴾ أي : جنس الملائكة ، وجنس كتب الله أو القرآن ، ﴿ **والنبيين** ﴾ جميعاً بلا استثناء .

فهذا أول البر وأساسه . وبدونه لا يكون بر . إذ من لم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فإن البر لا يصدر منه وإذا صدر فإنه لا يكون دائماً . ويكون معلولا بعلة ينتهي البر بانتهائها .

﴿ **وآتى المال على حبه** ﴾ أي : أخرجه وهو محب له راغب فيه . ﴿ **ذوي القربى** ﴾ أي : الأقرباء . ﴿ **واليتامى** ﴾ : هم الذين لا كاسب لهم ، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغِ والقدرةِ على التكسب . ﴿ **والمساكين** ﴾ : هم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيُعطون ما تسد به حاجاتهم وخلتهم . وإنما سمي مسكيناً لأنه دائم السكون إلى الناس ، لأنه لا شيء له . ﴿ **وابن السبيل** ﴾ . وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته . قال ابن كثير : (وكذا الذي يريد سفراً في طاعة . فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه . ويدخل في ذلك الضيف) ثم رُوي عن ابن عباس أنه قال : (ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين) . ﴿ **والسائلين** ﴾ : هم الذين يتعرضون للطلب ، فيعطون من الزكوات والصدقات . أو هم المستطعمون . ﴿ **وفي الرقاب** ﴾ هم المكاتبون . يعانون حتى يفكوا رقابهم . أو هم الأسارى . يعانون لفك رقابهم أو الرقيق مطلقاً يعتق ويحرر ﴿ **وأقام الصلاة** ﴾ المكتوبة فأتم أفعالها في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي . ﴿ **وآتى الزكاة** ﴾ المفروضة . ﴿ **والموفون بعهدهم إذا عاهدوا** ﴾ الله أو الناس فهم لا ينكثون مع الله أو مع الناس . ﴿ **والصابرين في البأساء** ﴾ : في حال الفقر والشدة ﴿ **والضراء** ﴾ أي : في حال المرض والأسقام والزمانة . ﴿ **وحين البأس** ﴾ : أي في حال القتال والتقاء الأعداء . ﴿ **أولئك الذين صدقوا** ﴾ أي : هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم . لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال . فهؤلاء هم الذين صدقوا . ﴿ **وأولئك هم المتقون** ﴾ لأنهم حققوا التقوى حالاً وعملاً وسلوكاً ، فاتقوا المحارم ، وفعلوا الطاعات . إن هذا هو البر ، لا ما يتمسك به أهل الأديان من عصبيات نسخها الله ، أو لم ينزل بها سلطاناً في الأصل .

فوائــد :

١ - تبين من الآية أن البر : ١ - إيمان ٢ - وإنفاق مما يُحب ٣ - وإقام صلاة ٤ - وإيتاء زكاة ٥ - ووفاء عهد ٦ - وصبر على كل حال وفي كل حال . فمن اجتمعت له هذه الأمور فقد حصَّل البر والصدق والتقوى والإيمان . ومن أخل بشيء من هذا فهو إخلال بالبر والتقوى والصدق والإيمان .

٢ - روى مجاهد عن أبي ذر - مع أنه لم يدركه فالحديث منقطع - (أنه سأل رسول الله ﷺ ما الإيمان ؟. فتلا عليه : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم** .. ﴾ الآية . قال : ثم سأله أيضاً . فتلاها عليه . ثم سأله ؟ فقال : إذا عملت حسنة أحبها قلبك ، وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك) . فالآية إذن ميزان للإيمان ، كما أنها ميزان للبر والتقوى والصدق . وأعطانا رسول الله ﷺ في هذا الحديث ميزاناً دقيقاً نعرف به إيمان قلوبنا من خلال محبتنا للطاعة ، وكراهيتنا للمعصية .

٣ - في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال : « أفضل الصدقة أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغنى ، وتخشى الفقر » نذكر هذا بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وآتى المال على حبه** ﴾ فإذا رأيت نفسك شحت بشيء حباً له ، من لقمة ، إلى طعام ، إلى مال ، إلى غير ذلك ، واستطعت أن تحملها على الإنفاق ، فأنت من أهل هذا المقام . ومن عصته نفسه بالكثير فليحملها على القليل .

٤ - أخرج عبد الرزاق عن علي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يُتْمَ بعد حلم » . فاليتيم هو من لم يبلغ .

٥ - في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال :

« ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده التمرة والتمرتان ، واللقمة واللقمتان . لكن المسكين الذي لا يجد غنىً يغنيه ، ولا يُفطن له فيتصدَّق عليه » . في هذا الحديث يلفت رسول الله ﷺ نظرنا إلى أنواع من الناس ، ينبغي أن نتذكرهم .

٦ - روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال :

﴿ للسائل حق ولو جاء على فرس » . في هذا الحديث أدب عال . هو أن نعامل الإنسان كما يحاول أن يظهر لنا ، على شرطٍ هو : أنني لو عاملته بذلك لا يضرني ، ولا يضر المسلمين . بل ينفعني عند الله كما في هذه الصورة التي أمامنا . قال عمر رضي الله

عنه : (لست بالخِب ، ولا الخِب يخدعني) .

٧ - أخرج الترمذي وابن ماجه عن رسول الله ﷺ قوله :

« في المال حق سوى الزكاة » . ثم قرأ عليه الصلاة والسلام : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم** ... ﴾ .

٨ - في الحديث الصحيح : « الصدقة على المساكين صدقة . وعلى ذوي الرحم اثنتان : صدقة وصلة . فهم أولى الناس ببِرِّكَ وإعطائك » .

- يلاحظ أن قوله تعالى : ﴿والصابرين في البأساء﴾ . قد جاء بعد قوله تعالى : ﴿ والموفون بعدهم ﴾ . فلِمَ كانت الصابرين منصوبة ، وما قبلها مرفوع ؟ وما العامل في النصب ؟. يقول النحويون : إن العامل في النصب هو الاختصاص . وحكمة ذلك الإشعار بمدح الصبر وأهله في هذه الأحوال لشدته وصعوبته ، ولإظهار فضل الصبر في الشدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال .

٩ - يلاحظ أن الرسول ﷺ عندما حدد أركان الإيمان في الحديث الصحيح ، ذكر **ستة « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر » . بينما الآية هنا ذكرت خمساً : ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ . فما السبب ؟. السبب والله أعلم أن الإيمان بالقدر هو فرع الإيمان بالله . فالقدر : هو علم الله بالأشياء أزلا ، وإرادة ما شاء أن يكون ، وإبراز ذلك بقدرته . فمن عرف علم الله ، وإرادته ، وقدرته ، آمن بالقدر . ومن ثم لم يُذكر هنا - والله أعلم - ولكنه ذكر في مكان** آخر بشكل مستقل . وإنما ذكره رسول الله ﷺ في الحديث تبياناً لأهميته ، وتأكيداً لضرورته .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾ . قال الألوسي بعد كلام : (وعلى هذا ، فالمراد بالعهد ما لا يحلل حراماً ، ولا يحرم حلالا من العهود **الجارية بين الناس . والظاهر حمل العهد على ما يشمل حقوق الحق ، وحقوق الخلق) . أقول : تستغل قضية الوفاء بالعهود عند المسلم في عصرنا استغلالا سيئاً . فبعض الناس يأخذون العهود والمواثيق على الناس لأشخاصهم . ويعتبرون ذلك ملزماً لمعطي العهد ، وكأنه أعطاه للخليفة الشرعي للمسلمين في وجوب الطاعة والالتزام لهذا الشخص . وذلك** لا أصل له . ولا ترتب عليه أي أحكام . وأحياناً يكون العهد مرتبطاً بطاعة شرعية ، فهذا قد

يكون له أحكام النذر أو اليمين . وأحياناً تكون العهود بين حكومة ودولة كافرة ، فإذا لم تكن المعاهدة ابتداءً فيها مصلحة للمسلمين فإنها لا تسري عليهم .

١١ - قلنا إن الفقرة الثانية في المقطع الأول من القسم الثاني قد ذكرت نموذجين من الناس . نموذج الكاتمين ، ونموذج الأبرار . وفي الكلام عن الكاتمين قال تعالى : ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى** ﴾ . وإذن فكتمان ما أنزل الله جزء من صراط الضالين . والكلام عن الأبرار جزء من صراط الذين أنعم الله عليهم . ولعل هذا يذكر بما ندعو الله عز وجل به كل صلاة : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ ولعله يذكرنا بالمسرى العام لسورة البقرة ، وصلته بما قبله من سورة الفاتحة ، ولعله يوجد من يلومنا على هذه الاستقصاءات . ونظنه مخطئاً . وسيتضح له خطؤه كلما سار في هذا التفسير ، فرأى من الصلات والروابط ما تندفع به أوهام كثيرة لابد من دفعها .

كلمة أخيرة في المقطع الأول من القسم الثاني :

١ - لعل القارىء لاحظ من خلال عرضنا لهذا المقطع تشابك الصلات بينه وبين المقطع الذي قبله مباشرة ، وبينه وبين كل ما سبق من السورة . وهذا يُري كيف أن كل آية لاحقة تكمل ما قبلها ، وتوصل إلى ما بعدها في خطاب مستوعب للنفس البشرية من أين ينبغي أن يبدأ معها ؟ وإلى أين ينبغي أن يُسار فيها ؟ ولقد رأينا كيف أن المقطع استقر على آية ختم بها الحوار مع بني إسرائيل ، ولخصت قضية التقوى ليكون ذلك مقدمة للكلام عن مجموعة أمور تحمي التقوى ، أو تحقق بها ، أو تعمقها ، أو هي جزء منها . وذلك كله مما تضمنته بقية القسم الثاني .

وإذا كان ما بقي من القسم الثاني يشكل جولة جديدة في قضية التقوى ، فقد يكون من المناسب أن نقدم لذلك بتلخيص لما مر معنا ليكون ذلك بمثابة مقدمة أولى للكلام عن الثلاثين آية القادمة . والتي هي تتمة القسم الثاني :

مر معنا من قبل :

مقدمة سورة البقرة : وفيها حديث عن المتقين ، والكافرين ، والمنافقين . ثم جاء القسم الأول وفيه مقاطع ، وكله في توضيح معالم الطريق إلى التقوى سلباً أو إيجاباً :

المقطع الأول في تبيان الطريق إلى التقوى ، والطريق إلى الضلال .

ثم جاء مقطع آدم . فعمق في الطريقين .

ثم جاء مقطعا بني إسرائيل وإبراهيم كنموذجين على انحراف عن أمر الله ، وإقامة لأمر الله . ثم جاء مقطع القِبلة ، ومحلها في العبادة ـــ التي هي طريق ـــ التقوى ، لا يخفى .

ثم جاء مقطع الصبر والذكر والشكر . ومحل ذلك في التقوى طريقا ، وفي العبادة لا يخفى . وهكذا جاء القسم الأول ليبين الطريق إلى التقوى ، ويحرر من الطريق إلى الكفر والنفاق والفسوق .

ثم جاء القسم الثاني : يأمر بالأكل من الحلال الذي هو شرط قبول العبادة ، وليحرر من السبب الأول في الانحراف عن أمر الله : وهو كتمان ما أنزل الله . وجاءت آية البر لتلخص ما مر معنا من حقيقة التقوى .

والآن يأتي مقطع جديد يتحدث عن القصاص ، وعن الوصية : القصاص كطريق يحقق التقوى الاجتماعية ، والوصية كحق من حقوق التقوى . ثم يأتي كلام عن الصوم . وهو عبادة وطريق يحقق التقوى الفردية والاجتماعية . ثم يسير السياق .

كلمة في الثلاثين آية القادمة :

في الثلاثين آية القادمة من الآية (١٧٧) إلى الآية (٢٠٧) مجموعة من الأحكام والأوامر ، والنواهي ، والتقريرات ، وغير ذلك . وقد سُبقت كما رأينا بآية البرّ التي تشبه الآيات الأولى في مقدمة سورة البقرة . إذ في كلٍّ تعريف للمتقين .

فلنتذكر الآن أن من صفات المتقين أن القرآن فيه هداهم :

﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ .

ولنتذكر أن المقطع الأول من القسم الثاني ورد فيه :

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ .

وورد فيه :

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب .. ذلك بأن الله نزَّل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾ .

ثم جاءت آية البر لتذكر الصادقين المتقين :

﴿ **أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون** ﴾ .

ثم تأتي هذه الآيات الثلاثون لتعرض علينا جزءاً من هداية الله للمتقين في كتابه .

وهكذا فإن فى الثلاثين آية القادمة تفصيلا في الركن الرابع للتقوى : وهو الاهتداء بكتاب الله ، وهكذا . يأتي دور عرض بعض القضايا العملية ، بعد تمهيدات طويلة توجد استعداداً للأخذ والتلقي والطاعة . ولذلك نجد كلمة ﴿ **كُتِبَ** ﴾ التي تعني فُرض ، تتكرر في هذه الثلاثين آية . كما تتكرر صيغ الأمر والنهي . وكل ذلك يأتي بعد المقطع الأول من القسم الثاني الذي هو التمهيد المباشر لذلك .

تشكل الثلاثون آية مقطعين ، مقطعاً قصيراً ، ومقطعاً طويلا . وكل من المقطعين يبدأ بنداء ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ...** ﴾ . وكل من المقطعين يبدأ بذكر طريق من الطرق الموصلة إلى تحقيق التقوى : ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون** ﴾ . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ .

فلأول مرة بعد قوله تعالى في بداية القسم الأول : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ تحدثنا سورة البقرة بشكل مباشر عما يوصل إلى التقوى بمثل هذه الصيغة ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ .

وإذا كان القسم الأول دلنا على طريق تقوى الفرد . فإن هذا القسم يحدثنا عما تتحقق به تقوى الفرد والمجتمع ، وإن كان كل من الأمرين لا ينفصل عن الآخر . ولكن الكلام عما هو أظهر .

وإذا كانت الثلاثون آية القادمة تتألف من مقطعين . وقد مرّ معنا مقطع من القسم الثاني ، فإن القسم الثاني على هذا يتألف من ثلاثة مقاطع . يشكل المقطع القادم ؛ المقطع الثاني فيه .

كنا من قبل تحدثنا كيف أن القسم الأول من السورة قد وطّأ للقسم الثاني ؛ فوطّأ مقطع الطريقين ، ومقطع آدم ، والمدخل لمقطع بني إسرائيل ، للمقطع الأول في القسم الثاني . وفي مقطع بني إسرائيل يأتي كلام عن قتل رجل ، وعن أكل أموال الناس ، وعن ظلم الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه . ويذكر أن هؤلاء ﴿ **ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين** ﴾ . ثم ....

وفي هذه الجولة يأتي كلام عن القِصاص ، ثم عن الصيام كطريقين للتقوى . ثم عن القتال الذي به يخاف أعداء الله ، ثم عن الحج والعمرة إلى كعبة إبراهيم .

وقد جاءت آية البِرّ قبل هذه الجولة وفيها حض على الصبر ، والصوم مران على الصبر . وفيها حض على الصبر حين البأس ، أي في القتال ، وفي الجولة كلام عن القتال وفي آية البر كلام عن الإنفاق . وفي الجولة كلام عن الإنفاق .

وإذن فقد سبقت هذه الجولة في مقطعها بكل المقدمات الضرورية لها . فلنبدأ عرض مقطعها الأول الذي هو المقطع الثاني في القسم الثاني .

المقطع الثاني من القسم الثاني : مقطع القصاص والوصية .

يمتد هذا المقطع من الآية (١٧٨) إلى نهاية الآية (١٨٢) . وهذا هو .

الفقرة الأولى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

الفقرة الثانية :

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

كلمة في هذا المقطع وسياقه :

١ - يتضمن هذا المقطع فقرتين : الفقرة الأولى في شأن القصاص ، والفقرة الثانية في الوصية . القصاص كطريق مساعد لتحقيق التقوى في المجتمع الإسلامي ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون** ﴾ . والوصية كحق من الحقوق على المتقين : ﴿ **كُتب عليكم .. الوصية للوالدين والأقربين .. حقاً على المتقين** ﴾ . فالمقطع إذن يأخذ في بناء التقوى على مستوى الفرد والأمة .

٢ - والملاحظ أن كلًّا من الفقرتين صُدِّرت بقوله تعالى : ﴿ **كُتِبَ** ﴾ ﴿ **يا أيها**

الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص ﴾ . ﴿ **كُتب عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ** ... ﴾ ففي المقطع إذن فريضتان من فرائض الله على هذه الأمة . فبعد أن تحددت صفات المتقين التي من جملتها الإيمان ، والصلاة ، والإنفاق ، والصبر ، والوفاء بالعهود ، والاهتداء بالقرآن . يأتي هذا المقطع ليبين فريضتين من فرائض الله ، فهما إذن داخلتان في السياق الكبير في باب الاهتداء بكتاب الله .

٣ - قلنا إن القسم الأول من سورة البقرة وطَّأ لمعاني القسم الثاني . ولو أنك رجعت إلى ما بعد قصة آدم ومقدمة مقطع بني إسرائيل . لوجدت من جملة ما تجد في نهاية الفصل الأول قصة البقرة ، وقتل النفس . وههنا تجد كلاماً عن القصاص في الفقرة الأولى ، ثم إنك تجد في بداية الفصل الثاني تأنيباً لبني إسرائيل على تحريفهم كتاب الله . ﴿ **وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرِّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** ﴾ وفي الفقرة الثانية فرض الوصية والتهديد لمن يبدل فيها :

﴿ **فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه** ﴾ . والصلة بين المعنيين غير مباشرة ولكنها صلة .

الفقرة الأولى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عُفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون** ﴾ .

المعنى العام :

يقول تعالى : كُتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون ، حركم بحركم ، وعبدكم بعبدكم ، وأنثاكم . بأنثاكم ، وفي شرع القصاص لكم — وهو قتل القاتل - حكمة عظيمة ، وهي بقاء المهَج وصونها . لأنه إذا علم القاتل أنه يُقتل انكفَّ عن صنيعه ، فكان في ذلك حياة للنفوس . ولا يسقط القصاص في القتل العمد إلا في حالة العفو وقبول الدية . فإذا حدث العفو فلا يحلّ للقاتل أن يماطل في الدية . ولا يحل لأهل القتيل أن يثأروا .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص** ﴾ : أي فُرض . والقصاص عبارة عن المساواة . وأصله : من قصَّ أثره ، إذا تبعه . ومنه القاص ، لأنه يتتبع الآثار والأخبار .
﴿ **في القَتلى** ﴾ : جمع قتيل . فصار المعنى : فرض عليكم المماثلة والمساواة بين القتلى .
﴿ **الحرُ بالحر** ﴾ أي : الحر مأخوذ بالحر ، أو مقتول بالحر . ﴿ **والعبدُ بالعبد** ﴾ أي : والعبد مقتول بالعبد ﴿ **والأنثى بالأنثى** ﴾ . أي : والأنثى مقتولة بالأنثى . والكلام كله في القتل العمد . ﴿ **فمن عُفِيَ له من أخيه شيء** ﴾ أي : فمن ترك له من أخيه . وذلك بالعفو عن القتل ، وقبول الدية ، فـ (من) ترجع إلى القاتل . والأخ هنا ، ولي المقتول . والعفو ضد العقوبة . وعبَّر بكلمة شيء ليفيد سقوط القتل ، وقبول الدية . وذكْر الأخوة في هذا المقام بعث لأهل القتيل على العطف على القاتل لما بينهما من الجنسية والإسلام .
﴿ **فاتباع بالمعروف** ﴾ أي : فليتبع الطالبُ القاتلَ بالمعروف ، بأن يطالبه مطالبة جميلة .
﴿ **وأداءٌ إليه بإحسان** ﴾ أي : وليؤد القاتل بدل الدم ، أداء بإحسان ، بألا يمطله ولا يبخسه . فالولي إذا أُعطي له شيء من مال أخيه - يعني القاتل - بطريقة الصلح ، فليأخذه بمعروف من غير تعنيف . وليؤده القاتل إليه من دون تسويف . ﴿ **ذلك تخفيف من ربكم ورحمة** ﴾ أي : هذا المذكور ، من العفو وأخذ الدية ، تخفيف من الله ورحمة عليكم ، ورحمة بكم . ﴿ **فمن اعتدى بعد ذلك** ﴾ أي : من قتل ، وثأر ، بعد أخذ الدية أو قبولها . ﴿ **فله عذاب أليم** ﴾ أي : موجع شديد في الآخرة . ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب** ﴾ أي : ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص ، حياة عظيمة ، وأي حياة ؟ . وذلك مما يؤدي إليه - القصاص بالقتل - من الردع عن القتل . فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يُقتل من القتل . فكان في شرع القصاص سبب حياة النفسيْن على الأقل . فإذا أضفنا قضايا الثأر غير المعقول من قتل غير القاتل ثأراً كما هي عادتهم في الجاهلية عرفنا كم في القصاص من حياة ﴿ **يا أُولي الألباب** ﴾ أي : يا أولي العقول والأفهام . دلَّ ذلك على أن غير أولي العقول هم الذين لا يرون القصاص ، وتالله إنهم لكذلك ، وما أكثرهم في عصرنا ، وما أكثرهم في بلادنا .
﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ : أي : لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه ، ومنها القتل .

قال القرطبي : (والمراد هنا - أي بقوله تعالى : ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ - القتل ، فتسلمون من القصاص . ثم يكون ذلك داعية لأنواع التقوى في غير ذلك . فإن الله يثيب بالطاعة على الطاعة) .

أقول : في الآية إشارة إلى أن القصاص يحقق تقوى الأفراد ، ويحقق تقوى الأمة .

فوائد :

١ - قال القرطبي : (روى البخاري والنسائي والدارقطني عن ابن عباس قال : « كان في بني إسرائيل القِصاص ، ولم تكن فيهم الدية . فقال الله لهذه الأمة : ﴿ **كُتب عليكم القصاص في القتلى . الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . فمن عُفي له من أخيه شيء** ﴾ . فالعفو أن يقبل الدية في العَمْد . ﴿ **فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان** ﴾ . يتبع بالمعروف ويؤدي بإحسان . ﴿ **ذلك تخفيف من ربكم ورحمة** ﴾ . مما كُتب على من كان قبلكم . ﴿ **فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم** ﴾ : قَتَل بعد قبول الدية » . هذا لفظ البخاري .. وقال الشعبي في قوله تعالى : ﴿ **الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى** ﴾ . قال : « أُنزلت في قبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا . فقالوا : نقتل بعبدنا فلان ابن فلان ، وبأَمَتِنا فلانة بنت فلان » ونحوه عن قتادة .. أقول : وخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ ، فعلى هذا فالآيات تحرم قتل غير القاتل وتوجب القصاص إلا إذا كان صلح فالدية هي البديل .

٢ - دلَّت هذه الآيات على أن مرتكب الكبيرة - حتى ولو كانت القتل العمد - مؤمن ، للوصف بالإيمان بعد وجود القتل ، ولبقاء الأخوة الثابتة بالإيمان ، ولاستحقاق التخفيف والرحمة . وفي القتل ثلاثة حقوق : حق الله الذي انتهك بالاعتداء على خلقه ، وحق القتيل الذي اعتدي على حياته ، وحق أهل القتيل الذين فُجعوا بقتيلهم . والدية أو القتل إنما هما في مقابل حق أهل القتيل ، ويبقى حق الله ، وحق القتيل . فمن تاب توبة نصوحا فإن الله مرجو أن يعفو عنه ، وأن يُرضي عنه قاتله ، ويدخله الجنة .

٣ - في قوله تعالى : ﴿ **فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم** ﴾ إن أرجعنا ﴿ **ذلك** ﴾ إلى العفو وقبول الدية ، كان المعنى ما ذكرنا . ولكن إذا أرجعناه إلى ما قبل ذلك كله ، أصبح معنى العدوان أوسع . فدخل في ذلك من قتل غير القاتل . إذن الحكم قتل القاتل ، أو العفو عنه ، فمن تجاوز هذا وهذا فقد اعتدى .

٤ - في تعريف القصاص ، وتنكير الحياة ، بلاغة بيِّنة . وأعظم من عبَّر عن بلاغة هذا المقام ، مصطفى صادق الرافعي في كتابه الرائع : (تحت راية القرآن) إذ بيَّن أن في هذا المقام من البلاغة ما يفوق أبلغ كلمة قالتها العرب في هذا الباب . وهي قولهم : « القتل

أنفى للقتل » . من وجوه عدة ، ذكرها فليراجع .

فما أعظم هذا القرآن الذي لا يحيط بعظمته إلا من أنزله .

٥ – نلاحظ أن القصاص مفروض إقامته على المسلمين . ولما كان القصاص لا تستطيعه إلا دولة وحكومة ، فقد وجب على المسلمين إذن إقامة الحكومة الإسلامية التي تؤمن بالإسلام وتحكم به . إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وهذا الواجب من أهم الواجبات الإسلامية التي غفل عنها المسلمون في عصرنا ، فتعطَّلت أحكام الله عز وجل وتعطلت شريعته .

٦ – دلت آية : ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾ على أن التقوى لا تتم إلا بسلطان وحكم وعقوبة . ومن ثَم قال عثمان رضي الله عنه : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » فلا تقوى على الكمال والتمام إلا بوجود الحكومة الإسلامية ، التي تطبق أحكام الله

٧ – روى الإمام أحمد عن أبي شريح الخزاعي أن النبي ﷺ قال : « من أُصيب بقتل أخيه ، فإنه يختار إحدى ثلاث : إما أن يَقتص ، وإما أن يعفو ، وإما أن يأخذ الدية . فإن أراد الرابعة ، فخذوا على يديه . ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها » . وعن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أُعافي رجلا قَتَل بعد أخذ الدية » . قال ابن كثير في تفسيره : (يعني لا أقبل منه الدية بل أقتله) .

٨ – هناك اتجاه عالمي في منع القصاص بالقتل . يحاول كثير من الكتاب أن يثيروا الشفقة على القاتل . ويدعوا إلى رفع عقوبة الإعدام ، ومن الآية نفهم أن أمثال هؤلاء لا عقول لهم ، ولو كان لهم عقول ، لرأوا من خلال التجربة كيف أن أكثر البلاد أجهزة أمن ؛ كأمريكا ، هي أكثرها جريمة ؟! لعدم وجود العقوبات العادلة . وكيف أن أقل البلاد أجهزة أمن عندما تُقام بها شريعة الإسلام هي أقلها جريمة ؟!

مسائل .

١ – فرضت الآيات القصاص وذكرت أن الحر يقتل بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى . وهنا تثور أسئلة : هل يقتل الحر بالعبد ؟ هل يقتل الرجل بالمرأة ؟ هل يقتل المسلم بالكافر ؟ .

ذهب أبو حنيفة : إلى أن الحر يقتل بالعبد ، والرجل بالمرأة ، والمسلم بالذمي لعموم آية المائدة : ﴿ **أن النفس بالنفس** ﴾ .

وذهب جمهور العلماء إلى أن الحر لا يقتل بالعبد ، وأن المسلم لا يقتل بالكافر لقوله عليه الصلاة والسلام في حديث البخاري : « لا يُقتل مسلم بكافر » . وقد حمل الحنفية هذا النص على الكافر الحربي . فإنه لا يُقتل به مسلم ولا ذمي .

وقال الحسن وعطاء : (لا يُقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية) . وخالفهم الجمهور لآية المائدة ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : « المسلمون تتكافأ دماؤهم » .

وقال الليث : (إذا قتل الرجل امرأته ، لا يقتل بها خاصة) . وقد خولف في ذلك .

٢ – قال مالك في المشهور عنه ، وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعي ، وأحمد في أحد قوليه : ليس لولي الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل . وقال الباقون : له أن يعفو عليها ، وإن لم يرض القاتل ، وعليه الدية .

٣ – مذهب الأئمة الأربعة ، والجمهور أن الجماعة يُقتلون بالواحد . قال عمر في غلام قتله سبعة فقتلهم : لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم . ولا يُعرف له في زمانه مخالف من الصحابة ، وذلك كالإجماع . وحكي عن الإمام أحمد رواية أن الجماعة لا يقتلون بالواحد ، ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة . وحكاه ابن المنذر عن معاذ ، وابن الزبير ، وعبد الملك بن مروان ، والزهري ، وابن سيرين ، وحبيب بن أبي ثابت . ثم قال ابن المنذر : (وهذا أصح . ولا حجة لمن أباح قتل الجماعة . وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه . وإذا اختلف الصحابة ، فسبيله النظر) .

٤ – عندما يكون للقتيل أولياء ، فإن أيًّا ممن له الولاية المباشرة يحق له أن يعفو . وبالتالي يسقط القصاص ، وتجب الدية وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو . منهم الحسن ، وقتادة ، والزهري ، وابن شبرمة ، والليث ، والأوزاعي . وخالفهم الباقون .

٥ – مما يشهد لمن ذهب أن الحر يقتل بالعبد ، ولو كان سيداً له . الحديث : « من قتل عبده قتلناه ، ومن جدَع عبده جدَعناه ، ومن خصاه خصيْناه » .

٦ – هل تعتبر آية ﴿ **كُتب عليكم القصاص في القتلىٰ الحر بالحر** .. ﴾ من باب المنسوخ ، نسختها آية : ﴿ **النفس بالنفس** ﴾ ؟. ذهب إلى ذلك طائفة من العلماء . والموضوع متعلق بتعريف النسخ ، وما يدخل ضمنه ، إذ إن آية المائدة لم تلغ ما دخل في هذه الآية بل وضحته ، أو زادت عليه . فهذه الآية خَصصت الحكم بنوع ، وتخصيصها

بنوع لا ينفيه عن نوع آخر . بل يبقى الحكم موقوفاً على ورود دليل آخر . وقد جاء الدليل في سورة المائدة .

شبهة :

يحاول بعض الخبثاء ؛ وبعض الجاهلين أن ينسفوا التشريع الإسلامي بحجة كثرة الأقوال والمذاهب في بعض المسائل . والجواب :

١ - ما اختُلف فيه لا يكون علة لنسف مالم يُختلف فيه . فمثلا في مسألتنا لم يُختلف في قتل المسلم بالمسلم ، أو في قتل الكافر بالمسلم . فالاختلاف في شيء لا يعني الاختلاف في كل شيء . فإذا كانوا صادقين بأنهم مؤمنون مسلمون ، فليسلِّموا بما لا خلاف فيه ، وليطبِّقوه . على أن ما اختُلف فيه ، سبيله النظر ، الترجيح بطرق الترجيح التي يعتمدها أهل الحل والعقد في هذه الأمة .

٢ - إن ما اختُلف فيه لا ينبغي أن يكون سبباً لترك الشريعة . إذ هو حجة للشريعة إذ إن الأقوال الكثيرة في المسألة الواحدة ، تجعلنا أمام خيار واسع ، نختار منها ما يصلح لزماننا ، وقُطْرنا ، وحالنا . على شرط أن يكون الاختيار من أهله ، ومراعى فيه الدليل ، ومتحققَة فيه المصلحة .

٣ - في الشريعة الإسلامية أُعطي الإمامُ أو نائبه حق الترجيح والاختيار لما اختلف فيه من آراء . وفي ذلك ضمان لوحدة التشريع والقانون . فالاختلافات المذهبية إذن لا تعني عدم وحدة القانون المطبَّق على الأمة ، أو على قُطر من أقطارها . فكم من ميزة لهذا الإسلام ينكرونها ليجعلوها مأخذاً .

محل هذه الفقرة من السياق :

رأينا أن سورة البقرة بدأت بوصف المتقين في مقدمتها . ثم جاء السياق بـ ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ ليدعو الناس أن يكونوا من المتقين بسلوك طريق ذلك . وطريق ذلك : العبادة لله وحده بمفهومها الواسع الذي بينه السياق حتى نهاية آية البِرِّ .

ثم جاء هذا المقطع ليذكر لنا طريقاً مساعداً للتقوى ، وهو القصاص ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون** ﴾ .

فلا تقوى إلا بقصاص ، ولا قصاص إلا بدولة وحكومة ، ولا نكون من المتقين المهتدين بهدي كتاب الله – وهي الصفة الأولى من صفات المتقين – حتى نقيم القصاص بإقامة الدولة التي تقيمه ، ورقابتها ، ومحاسبتها . فلْيعلم ذلك الذين يظنون أن التقوى مجرد صلاة ، وليعْلم ذلك الذين لا يبذلون أدنى جهد صحيح لإقامة حكم الله في الأرض . فالسياق إذن ماض على نسق واحد هو الدعوة إلى التقوى ، بتبيانها ، وتبيان طريقها ، وتعميق مفاهيمها .

توضيح هام :

التقوى: هي تنفيذ ما يُطالب به كل إنسان من كتاب الله ، وسُنَّة رسوله . والمحاسبة تكون على التقصير ضمن الوسع . فمثلا أنا كمسلم لا أستطيع أن أطبِّق حكم القصاص بمفردي . ولكي أبرىء ذمتي عند الله عليَّ أن أبذل جهداً من أجل الوصول إلى تطبيق حكم القصاص والعمل ضمن وسعي ، إما بالسعي نحو إقامة الحكومة الإسلامية حال فقدها ، أو بتذكيرها حال وجودها ، أو بالسعي نحو العفو في كل حال .

الفقرة الثانية :

﴿ كُتب عليكم إذا حضر أحدَكم الموتُ إن ترك خيراً الوصيَّةُ للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين * فمن بَدَّله بعدما سمِعه فإنَّما إثمه على الذين يبدّلونه إن الله سميع عليم * فمن خاف من مُوصٍ جَنَفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾ .

اتجاهات المفسرين في هذه الفقرة :

هل الآية الأولى في هذه الفقرة منسوخة بآية المواريث الموجودة في سورة النساء ؟ أو أن آية المواريث مُفسِّرة لها ؟ أو أن آية المواريث إنما رَفعت حكم بعض أفراد ما دلّ عليه عموم آية الوصية ؟. ثلاثة أقوال في الآية ، الذي عليه عامة الفقهاء هو **الأول** . والذي نقله الرازي عن أبي مسلم الأصفهاني هو **الثاني** ثم قال أي الرازي : (وهو قول أكثر المفسرين ، والمعتبرين من الفقهاء) . **والقول الثالث** ذهب إليه الكثير ، منهم ابن عباس ، والحسن ، ومسروق ، وطاووس ، والضحاك ، ومسلم بن يسار ، والعلاء بن زياد ، وغيرهم .

وسنرى أنه من الناحية العملية لا يترتب على هذا الخلاف كبير أمر في موضوع التطبيق . وإنما الموضوع مرتبط بذوقية تذوق القرآن ، وبانسجام الفهم للنص مع مجموعة النصوص .

وسنشرح الآية شرحاً حرفياً وكُلِّياً على ضوء القول الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث .

شرح الآية على القول الأول :

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين . وقد كان ذلك واجباً قبل نزول آية المواريث . فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه وصارت المواريث المقدَّرة فريضة من الله ، يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية ولا تحمل منّة الموصي . فإذا اتضح هذا ، صار المعنى الحرفي :

﴿ **كُتب عليكم إذا حضر أحدَكم الموتُ** ﴾ : أي فرض عليكم إذا دنا الموت من أحدكم فظهرت عليه أماراته . ﴿ **إن ترك خيراً** ﴾ : أي ترك مالا كثيراً . وحدده ابن عباس بستين ديناراً فما فوق ﴿ **الوصيـةُ** ﴾ أي فرضت الوصيـة قضاءً لحق القرابـة والوالديـن . ﴿ **للوالدين والأقربين بالمعروف** ﴾ أي بالرفق والإحسان . ﴿ **حقاً على المتقين** ﴾ : أي واجباً على الذين يتقون الله . ﴿ **فمن بَدَّله بعدما سمِعه** ﴾ أي فمن بدَّل الوصيَّة وحرَّفها ، فغير حكمها ، وزاد فيها ، أو نقص – ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى – ﴿ **فإنّما إثمه على الذين يُبدِّلونه** ﴾ : أي إثم التبديل على المبدِّل دون غيره من الموصِي والموصى له . لأنهما بريئان من الحيْف . وللميت الأجر . ﴿ **إن الله سميع عليم** ﴾ : أي قد اطلع على ما أوصى به الميّت ، وهو عليم بذلك ، وبما بدّله المبدِّلون . فهو سميع لقول الموصِي ، عليم بِجَوْر المبدِّل ﴿ **فمن خاف من مُوص** ﴾ : أي مَنْ علم منه . ﴿ **جنفاً أو إثماً** ﴾ . الجنف : هو الميل عن الحق بالخطأ ، والإثم : هو الميل المتعمّد عن الحق هنا . ﴿ **فأصلح بينهم** ﴾ : أي بين الموصَى لهم وهم الوالدان والأقربون ، بأن يعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء وأشبهها بالحق والعدل . فهـذا الإصلاح والتوفيق ليسا من التبديل في شيء . ﴿ **فلا إثم عليه** ﴾ : في هذا التبديل . لأن تبديله تبديل باطل إلى حق . وقيل هذا في حال حياة الموصي . أي فمن حضر وصيته فرآه على خلاف الشرع فنهاه عن ذلك وحمله على الصلاح ، فلا إثم على هذا الموصِي بما قال أولا . أو فلا إثم على هذا الناصح . ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ : يغفر لمن أصلح ويرحمه . أو يغفر لمن وقع في الخطأ ثم تراجع عنه ، ويرحمه .

هذا شرح الآيتين على القول بأنهما منسوختان . نسختهما آيات المواريث .

وأما شرح الآيتين على القول الثاني فهو :

﴿ **كُتب عليكم إذا حضر أحدَكم الموتُ إن ترك خيراً الوصيةُ** ﴾ : أي فرض عليكم

أيها المسلمون إذا مات أحدكم وترك مالا أن تنفذوا ما وصَّاكم الله به في صلة الوالدين والأقربين . والتي حددها الله في هذه الحالة بآيات الميراث فيما بعد . ﴿ **بالمعروف** ﴾ : أي بالعدل وذلك بإعطاء كل ذي حق حقه ، كما حدده الله تعالى . قال عليه الصلاة والسلام بعد أن أُنزلت آيات الميراث : « إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه . فلا وصيَّة لوارث » . ﴿ **حقّاً على المتقين** ﴾ : إن تَطْبيق هذه الوصية وإعطاء الوارثين حقوقهم أمر واجب على المتقين . ﴿ **فمن بَدَّله بعدما سمِعه** ﴾ : فمن بدَّل حكم الله في قضايا الإرث بعدما سمعه ﴿ **فإنّما إثمه على الذين يبدِّلونه** ﴾ : فإنما إثم التبديل على من فعله . ﴿ **إن الله سميع عليم** ﴾ ، ﴿ **فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً** ﴾ : أي فمن خاف من مُوَرِّث أوصى جَنَفاً : أي خطأً بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة كما لو أوصى ببيعه الشيء الفلاني محاباة ، أو أوصى لابن بنته ليزيدها ، أو نحو ذلك من الوسائل . إما مخطئاً غير عامد ، بل بطبعه وقوة شفقته من غير تبصُّر أو متعمداً آثماً . ﴿ **فأصلَح بينهم** ﴾ : بأن أرجع الأمور إلى نصابها في تطبيق حكم الله في قضايا الإرث . ﴿ **فلا إثم عليه** ﴾ ، بل هو مأجور لإقامة أمر الله . ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ وعلى هذا الاتجاه فهذه الفقرة مقدمة لآيات الميراث وبإطلاقها تُطبَق على مرحلة ما قبل نزول آيات الميراث ، فهي تمهيد لما بعدها وحل مؤقت لبعض الأمور .

شرح الفقرة على القول الثالث :

القول الثالث : أن هذه الآية ثابتة فيمن لا يرث ، منسوخة فيمن يرث . فالأقربون أعم ممن يرث أو من لا يرث . فرفع حكم من يرث بما عُيِّن له . وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى . وهذا الاتجاه لا يصح إلا إذا اعتبرنا أن الوصية في الأصل كانت ندباً ، وبقيت مندوبة . وعلى هذا فـ ﴿ **كُتب** ﴾ في الآية ، المراد بها على رأي هؤلاء ، نُدِب . وهذا يخالف ظاهر الآية وسياقها . إلا إذا اعتبرنا قوله تعالى : ﴿ **حقّاً على المتقين** ﴾ في الآية تخصيصاً . بمعنى أن هذا على من اتقى كالفريضة . إذ التقِيُّ يأخذ بالعزيمة من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين . فعلى هذا فإن في آية الميراث في سورة النساء حكماً مستقلا ، لأهل الفروض والعصبات رُفع به حكم هذه الآية بالنسبة لهم بالكلية . وبقي الأقارب الذين لا ميراث لهم . يُستحب للمسلم أن يوصي لهم من الثلث استئناساً بآية الوصية ، وشمولها . وللأحاديث الواردة في ذلك . فلنذكرها أولا .

ثم نشرح الآية على ضوء ذلك .

١ - في الصحيحين أن سعداً قال يا رسول الله : « إن لي مالاً ، ولا يرثني إلا ابنة لي . أفأوصي بثُلثَيْ مالي ؟ قال : لا . قال : فبالشطر ؟. قال لا . قال : فالثلُث ؟. قال : الثلُث . والثلُث كثير ، إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » . وفي صحيح البخاري أن ابن عباس قال : لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع . فإن رسول الله ﷺ قال : « الثلث . والثلث كثير » .

٢ - في الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما حقُّ امرىء مسلم له شيء يُوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيَّته مكتوبة عنده » . قال ابن عمر : ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصيتي .

٣ - في مسند عبد بن حميد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : « يا ابن آدم . ثِنْتان لم يكن لك واحدة منهما : جعلت لك نصيبا في مالك حين أخذت بكظمك به ، وأزكيك . وصلاة عبادي عليك بعد انقضاء أجلك » . أي إن الله منَّ علينا بما شرع لنا من الوصية التي تنفعنا بعد موتنا كما منَّ علينا بقبوله دعوات المؤمنين لأمواتهم .

فإذا اتضح هذا ، صار معنى الآية على هذا الاتجاه :

﴿ **كُتب عليكم إذا حضر أحدَكم الموتُ إن ترك خيراً الوصيةُ للوالدين والأقربين** ﴾ : أي يستحب لكم أن توصوا لمن لايرث من الأقربين بشيء من أموالكم في حدود الثلث . أما الوارثون ، فإرثهم - ضمن ما حدد الله في سورة النساء - واجب . ﴿ **بالمعروف** ﴾ : أي في حدود الثلث بعد ما نزلت آية المواريث . ﴿ **حقاً على المتقين** ﴾ ﴿ **فمن بدَّله بعدما سمِعه** ﴾ : من الأوصياء والشهود . ﴿ **فإنَّما إثمه على الذين يبدِّلونه** ﴾ : فما إثم التبديل إلّا على مُبدّله . والأجر كامل للموصي . ﴿ **إن الله سميع عليم * فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً** ﴾ . بأن زاد على الثلث في الوصية ، أو أوصى لوارث خطأ أو عمداً . ﴿ **فأصلحَ بينهم** ﴾ بإجراء الأمور على طريق الشرع . ﴿ **فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم** ﴾ .

هذا شرح لهذه الفقرة كما رأينا على كل الاتجاهات الرئيسية لفهمها ومنه نعلم أنه لا يترتب على الخلاف في فهمها كبير أمر فالإجماع منعقد على ألَّا وصيَّة لوارث والإجماع منعقد على استحباب الوصيَّة .

فوائـد :

١ – مر معنا حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيَّته مكتوبة عنده » .

وقد حمل العلماء هذا على مَن عليه دين ، أو عنده مال لقوم ، أو كانت له حقوق على الناس يخاف تلفها على الورثة . فعندئذٍ تكون الوصية في حقه واجبة . أما عن سوى ذلك . فالوصيَّة في حقه مندوبة ، أن يوصي أهله بتقوى الله ، والاستمرار على الإسلام وألا يفعلوا منكراً في جنازته . ثم إذا ترك مالا ، فالمستحب في حقه أن يوصي لغير الوارثين من الأقربين ، والأرحام ، والفقراء ، وأوجه الخير .

٢ – هناك اتجاه يرى أن الوصيَّة للوالدين والأقربين من غير الوارثين واجب ، كما إذا كان الوالدان كافرين . وبناءً على هذا الاتجاه ، فقد اعتمد قانون الأحوال الشخصية في بعض الأقطار الإسلامية وجوب الوصيَّة لابن الابن إذا توفي أبوه في حياة جده .

٣ – قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ **فمن خاف من موصٍ جَنَفاً أو إثماً فأصلَح بينهم** ﴾ (الخطاب .. لجميع المسلمين . قيل لهم : إن خفتم من موصٍ ميْلا في الوصيَّة ، وعدولا إلى زوج ابنته ، أو لولد ابنته ، لينصرف المال إلى ابنته ، أو إلى ابن ابنه ، والغرض أن ينصرف المال إلى ابنه ، أو أوصى لبعيد وترك القريب ، فبادِروا إلى السعي في الإصلاح بينهم . فإذا وقع الصلح سقط الإثم عن المصلح والإصلاح فرض على الكفاية . فإذا قام أحدهم به سقط الإثم عن الباقين ، وإن لم يفعلوا أثم الكل) أي ممن يعلم .

٤ – أخرج عبد الرزاق عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة . فإذا أوصى ، حاف في وصيته فيختم له بشر عمله . فيدخل النار . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته ، فيختم له بخير عمله ، فيدخل الجنة » . قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **تلك حدود الله فلا تعتدوها** ﴾ . الآية وقد وصف ابن كثير هذا الحديث بأنه أحسن ما ورد في هذا الباب .

٥ – قال النسفي في الآية : (وقيل غير منسوخة لأنها نزلت في حق من ليس بوارث بسبب الكفر . لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام . يسلم الرجل ولا يسلم أبواه وقرائبه . والإسلام قطع الإرث . فشرعت الوصية فيما بينهم قضاء لحق القرابة ندباً .

وعلى هذا لا يراد بـ ﴿ كُتب ﴾ فرض) . اهـ .

وهذا القول يمشي على الاتجاه الثالث .

محل هذه الفقرة في السياق :

في الفقرة السابقة ذُكِر أن القصاص عامل من عوامل التقوى في المجتمع الإسلامي ، وفي هذه الفقرة ذكر أن تطبيق حكم الله في موضوع الوصيَّة والميراث حق على المتقين . فدل ذلك على أن من صفات المتقين ، الاهتداء بهدى الله في موضوع الوصية والميراث .

محل هذا المقطع في السياق :

رأينا أن هذا المقطع يتألف من فقرتين ، وفيه فريضتان : فريضة لها علاقة بالتشريع الجنائي . وفريضة لها علاقة بالأموال . وقد رُبطت كل من القضيتين بقضية التقوى ، التي هي عنوان التربية القرآنية عامّة ، ومضمون السياق الرئيسي في سورة البقرة حتى نهاية هذا القسم خاصّة . وهذا المقطع جزء من هذا السياق . فهو يبين أن من التقوى اتباع الكتاب في موضوع الأنفس وفي موضوع الأموال .

المقطع الثالث من القسم الثاني :

يمتد هذا المقطع من الآية (١٨٣) إلى نهاية القسم الثاني . أي إلى نهاية الآية (٢٠٧) . ونكتفي بذكر فقراته فقرة فقرة عند تفسيرها بدلا من ذكره كله ههنا .

كلمة في هذا المقطع وسياقه :

١ - يتألف هذا المقطع من ست فقرات : فقرة حول الصوم كطريق إلى التقوى . وفقرة حول بعض الأحكام المالية . وفقرة حول تصحيح مفهوم خاطىء في شأن الدخول إلى البيوت . وفقرة حول القتال والإنفاق . وفقرة حول الحج والعمرة . وفقرة حول صنفين من الناس . وكل هذه الفقرات صلتها بالتقوى موجودة . إذ لازال الكلام عنها يُشكّل السياق الرئيسي في السورة . ففي هذا المقطع يوجد في شأن التقوى إما دلالة على طريق يوصل إليها ، وإما تصحيح مفهوم حولها ، أو تذكير بخُلق من أخلاقها .

٢ - نلاحظ أن هذا القسم بدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالًا طيباً ولا تتبعوا خُطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ . وفي المقطع الأول يُبيّن الله عز وجل ما حرم علينا من الخبائث الطعامية : من دم ، وميتة ، ولحم خنزير ، إلا في حالة الاضطرار .

وفي المقطع الثاني رأينا قضية القصاص والدية . ورأينا قضية الوصيّة . والدية والوصية لهما صلة بقضية المال الحلال من وجه . وفي هذا المقطع يأتي الأمر بالصوم . وإذن فالأمر بإباحة الأكل الحلال ، مُقيّد بألا يكون في وقت الصوم من رمضان . ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلُوا بها إلى الحكّام ...** ﴾ . ولذلك صلة في موضوع الحلال ، وترك اتباع خطوات الشيطان . ثم يأتي سؤال له صلة في الحج ، ثم كلام عن قتال له صلة في المسجد الحرام . ثم يأتي كلام عن الحج . وفي ذلك كله تعميق لقضية عدم اتباع خطوات الشيطان . فالصوم عامل مساعد على عدم اتباع خطوات الشيطان ، وأكل الحلال كذلك . ثم إن إتيان البيوت من ظهورها ، وفتنة أهل الله عن دينهم ، وترك القتال في سبيل الله ، وترك الإنفاق ، وترك إقامة المناسك كل ذلك من اتباع خطوات الشيطان . ثم يعرض علينا المقطع نموذجين من الناس . نموذجاً خالصا لله . ونموذجاً خالصاً للسير في طريق الشيطان . فصِلة المقطع الثالث بفقراته كلها بالمقطع الأول ذات مظاهر متعددة أشرنا إلى بعضها من قبل . وهذه بعض مظاهرها هنا .

٣ – قلنا من قبل إن القسم الأول وطَّأ للقسم الثاني . وجاءت هذه التوطئة على تسلسل معيَّن ، بحيث إن ما يرد في القسم الثاني تتسلسل معانيه بحيث تتوافق مع تسلسل المعاني في القسم الأول . فمعاني المقطع الأول والثاني والثالث من القسم الأول وطَّأت لمعاني المقطع الأول في هذا القسم . وهكذا . ولو أنك تأملت قضية الصوم في هذا المقطع ، وصلتها بتزكية النفس ، وورود آية الدعاء في وسط ذلك . ثم لو رأيت مجموعة ما ورد بعد ذلك من معانٍ تصحيحية أو أوامر مربِّية ، أو موجِّهة ، أو معانٍ لها صلة بالمناسك . وتذكرت قوله تعالى في مقطع إبراهيم : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن** ﴾ . ﴿ **ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك وأرِنا مناسكنا** ﴾ ، لو أنك تأملت هذا كله لرأيت مظهراً جديداً من مظاهر التوطئة التي قدَّم لها القسم الأول للقسم الثاني .

٤ – جاءت آية الإنفاق في المقطع بين آيات القتال ، وآيات الحج . لأن القتال والحج يحتاجان إلى مال وإنفاق . وذلك كله جاء بعد الأمر بإتيان البيوت من أبوابها . والقتال والحج يحتاجان إلى أن يَسلك الإنسان الطريق المؤدي إلى إنجاحهما . وذلك كله جاء بعد النهي عن أكل أموال الناس بالباطل والرشى ، لأن من يأكل أموال الناس بالباطل لا يضحي بنفسه ، ولا ينفق ، ولا يحجّ إلا على مرض يقل فيه الإخلاص أو ينعدم . وذلك كله مسبوق بالكلام عن الصوم مما يشير إلى أهمية الصوم في تحقيق أمر الله في هذه الأمور كلها . فالحج والقتال يحتاجان إلى صبر ، والصوم صبر . وترك أكل أموال الناس بالباطل يحتاج إلى ضبط نفس ، والصوم ضبط نفس . والإنفاق يحتاج إلى دوافع . وفي شهر الصوم يكثر الإنفاق ويعتاده الإنسان . ولهذا وغيره من الحِكم تقدّم الكلامَ عن الصوم فقراتُ هذا المقطع .

٥ – ولقد قلنا أكثر من مرة : إن الإسلام أركان وبناء ، الأركان هي الشهادتان والصلاة ، والزكاة ، والصوم والحج . أخذاً من الحديث : « إن الإسلام بني على خمس » . وأما البناء فهو أحكام الله في كل شيء . فالإسلام مجموع أحكام الله في العقائد والعبادات ومناهج الحياة وغير ذلك .

وسورة البقرة عرضت حتى نهاية هذا القسم – في جملة ما عرضت – للأركان الخمسة فذكرت الإيمان الذي رمزه العملي الشهادتان ، وذكرت الصلاة والزكاة والصوم والحج . وكان ذلك مقدمة للقسم الثالث الذي سيدعو إلى الدخول في الإسلام كله .

وخلال عرضها لقضية الأركان ذكرت أموراً كثيرة مما يشير إلى عدم انفصال الأركان عن

البناء ومما يشير إلى الأسس النظرية والعملية لهذه الأركان ، ومما يدل على أن الوضع السليم أن ينبثق عن الإيمان عمل ، وأن العمل الصالح بعضه مرتبط ببعض ، وكل ذلك مرتبط بصلاح النفس لصلاح الحياة بالله ولله .

وسنعرض فقرات هذا المقطع حتى ينتهي . ثم نُعقِّب بكلمة عنه ، وعن القسم كله .

الفقرة الأولى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

كلمة في الفقرة :

يلاحظ أن الفقرة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم** ﴾ وانتهت بقوله تعالى ﴿ **كذلك يبيِّن الله آياته للناس لعلهم يتقون** ﴾ . نلاحظ كلمة التقوى في الآية الأولى وفي الآية الأخيرة . فهذه الفقرة إذن تشرح طريقاً جديداً من طرق التقوى .

فعبادة الله طريق إلى التقوى ، والقصاص عامل من عوامل التقوى ، والصيام طريق من طرق التقوى . ولأهمية الصيام جعل ركناً من أركان الإسلام ، كالشهادتين والصلاة والزكاة . وبهذا المقطع تتأكد التقوى في الأنفس ويصبح عند المسلم استعداد عملي كامل لاتباع كتاب الله في كل شأن . ومن ثَمَّ تأتي أوامر ، ونواه ، وتقريرات مباشرة ، بلا أي نداء مباشر حتى آخر هذا المقطع ليأتي بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾ .

وسنشرح هذه الفقرة آية آية ، شرحاً حرفياً . وإذا كان من فائدة لها علاقة بآية نأتي بها مباشرة بعد الآية . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام** ﴾ أي : فرض عليكم الصيام . ﴿ **كما كُتب على الذين من قبلكم** ﴾ أي : كما فرض على الأمم من قبلكم من لدن آدم عليه السلام إلى عهدكم . ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ الله باجتناب معاصيه . لأن الصيام أضبط للنفس ، وأردع لها عن مواقعة السوء . أو لعلكم تنتظمون في زمرة

المتقين . إذ الصوم شعارهم . والصيام هو الإمساك عن الطعام والشراب والجماع والمفطرات ، من طلوع الفجر الصادق إلى الغروب ، بنية الصوم لله عز وجل .

خاطب الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة آمراً لهم بالصيام ، لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها ، وتنقيتها من الأخلاط الرذيلة . وذكر أنه إن أوجبه عليهم ، فقد أوجبه على من كان قبلهم . فلهم فيهم أسوة . والحكمة من الصوم ، تحصيل التقوى ، لما في الصوم من تزكية للبدن ، وتضييق مسالك الشيطان . ولهذا ثبت في الصحيحين : « يا معشر الشباب . من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

فوائـــد :

١ - في كتاب الأركان الأربعة لأبي الحسن الندوي عرض للصوم كما هو الآن في الأديان العالمية الكبيرة ، كالنصرانية ، واليهودية ، والهندوسية .. مما يثبت أن الصوم لم تخل منه ديانة . وهذا الذي ذكره القرآن هنا . ولكن أهل الأديان حرّفوا ، وبدّلوا ، وزادوا ، ونقصوا كما هي عادتهم في كل شيء وسننقل كلام الأستاذ الندوي في نهاية الحديث عن الصوم .

٢ - إن الحكمة من فرض الصوم علينا هي الوصول إلى التقوى . فمن صام رمضان ثم لم يحصِّل التقوى فقد فرَّط ، إن الإيمان بالغيب وإن التوحيد هما البذرة التي تتفرع عنهما شجرة الإسلام لتؤتي ثمارها ، والصلاة هي الغذاء اليومي لهذه الثمرة ، والإنفاق هو الذي يجتث الحشائش الضارة من أرض القلب ، كالشح والبخل والحرص .

ويأتي الصوم ليضبط الاندفاعات النفسية الخاطئة في أخطر مظاهرها ، شهوة الفرج ، وشهوة البطن ، إذ يعوِّد المسلم على ضبط ذلك ، ثم يأتي الحج ليسقي بذرة الإيمان تسليما . فبقدر ما يعطي المسلم لكل ركن من أركان الإسلام مداه في نفسه ومن نفسه فإنه يكمل بذلك وتكمل بذلك تقواه . إن الصوم تعويد للنفس على ضبط شهواتها ، كما أنه تخل لله عن شهوات النفس طاعة لله ، وإن آثار ذلك لمن فعله إيماناً واحتساباً هي أن يكرم الله الصائم بتحقيقه بالتقوى التي فيها جماع خيرى الدنيا والآخرة ، تلك هي الحكمة الرئيسية في الصوم وهي التي نصت عليها الآية الأولى من فقرة الصوم . فإذا

صام الإنسان وأقام فرائض شهر الصوم ، وسننه ، فإنه يخرج بزاد من التقوى يحمله سنة . فالصلاة في أوقاتها ، والصوم في وقته ، والحج إذا أدي ، والإنفاق إذا كان ، كل ذلك زاد القلب المتكامل الذي من آثاره القيام بأمر الله في كل شيء والذي من ثمراته الاستقامة على أمر الله . ولنعد إلى التفسير :

﴿ **أياماً معدودات** ﴾ أي : كتب عليكم أن تصوموا أياماً مؤقتات بعدد معلوم . وهذا يفيد القلة فكأنه إشعار بسهولة ما كلفنا به ﴿ **فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدَّة من أيام أُخر** ﴾ أي : فمن كان منكم يخاف من الصوم زيادة المرض ، أو بطء البرء ، أو يخاف المرض بسبب الصوم بغلبة الظن ، إما بإمارة ، أو تجربة ، ولو كانت من غير المريض عند اتحاد المرض ، أو بإخبار طبيب حاذق مسلم عدل ، أو مجهول الحال ، لم يظهر له فسق ولا عدالة . أو كان مسافراً سفراً شرعياً ، بأن يكون قاصداً موضعاً يبعد عن بلده مسافة واحد وثمانين كيلو متراً - على اجتهاد بعضهم - بشرط أن يكون قد أنشأ السفر قبل الفجر ، ليصح له أن يفطر اليوم الأول وذلك يقتضي أن يكون متلبساً بالسفر عند الفجر - على الرأي الأحوط - فأفطر فعليه صيام عدد أيام فطره . والعدّة بمعنى : المعدوم . أي : أمر أن يصوم أياماً معدودة بدل أيام مرضه وسفره . ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ في هذا النص اتجاهان رئيسيان ، الاتجاه الأُول : أنه قبل : ﴿ **يطيقونه** ﴾ توجد (لا) مقدرة فصار المعنى : وعلى الذين لا يستطيعونه ، كالشيخ الفاني الذي فنيت قوته ، وعجز عن الأداء وهو في تناقص إلى أن يموت ، والعاجز عن الصوم عجزاً مستمراً ، والمريض اليائس من الصحة ، فهؤلاء يفطرون وعليهم فدية وجوباً إطعام مسكين يوماً عن كل يوم . أو أن يدفع إليه نصف صاع من بُر ، أو صاعاً من غيره عن كل يوم ، أو ثمنه . والصاع حوالي أربعة كيلوم غرام في أول تقدير الحنفية . في أول الشهر أو أوسطه أو آخره ، أو بعد ذلك . وعلى هذا الاتجاه ، فهذا النص غير منسوخ . وأما الاتجاه الثاني في فهمه ، فكما قال معاذ : كان هذا في ابتداء الأمر . من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً . قال النسفي : وكان ذلك في بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه ، فاشتد عليهم ، فرخّص لهم في الإفطار والفدية . ثم نسخ التخيير بقوله : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ . ولهذا كرر قوله : ﴿ **فمن كان منكم مريضاً أو على سفر** ﴾ لأنه لما كان مذكوراً مع المنسوخ ذكر مع الناسخ ليدل على بقاء هذا الحكم . قال ابن كثير : فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ .

بقوله : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ .
وأما الشيخ الفاني الذي لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه .. ولكن هل يجب علية إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكيناً إذا كان ذا جدة . فية قولان .. والثانى هو الصحيح ، وعليه أكثر العلماء أنه يجب عليه فدية عن كل يوم ﴿ **فمن تطوع خيراً** ﴾ بأن زادعلى مقدار الفدية ﴿ **فهو خير له** ﴾ فالتطوع او الخير خير له ﴿ **وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ إن كان عندكم علم . وهذا يتمشى مع الاتجاة الثاني في فهم النص . أي على اعتبار أن هذة الآية منسوخة أما على الاتجاة الأول الذي لايفيد النسخ فإن المعنى يكون : وصيامكم في السفر والمرض خير لكم لأنه أشق عليكم إن كان عندكم علم . وهل المقصود بالعلم ، العلم بالآخرة ؟ أم العلم بما يضر وينفع للروح والجسد في الحياة الدنيا ؟ . العموم يشمل الجميع . فالصوم خير كله .

فوائد :

١ – أكثر العلماء على أن هذا النص منسوخ بالآية بعده . ولعدم النسخ وجه تؤيده قراءة حفصة رضي الله عنها : (**وعلى الذين لا يطيقونه**) ومثل هذه القراءة الشاذة لا تثبت قرآنا ولكنها تفيد تفسيراً .

٢ – المرضع والحامل إذا خافتا على نفسيهما أو ولديهما نسباً كان أو رضاعاً ، فإنه يباح لهما الفطر يوم العذر . وكذلك للمريض . أما المسافر فقد رأينا أنه لا يباح له الفطر يوم السفر ، إلا إذا كان سفره قبل الفجر في رأي مَن ذهب إلى ذلك من العلماء كما سنرى .

٣ – ضعف أنس عن الصوم . فصنع جفنة من ثريد ، فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم .

٤ – **في قوله تعالى** : ﴿ **وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ . بيان أن العلم فيه بيان لخيرية الصوم . وأنّه كلما ازدادت معارف الإنسان الدينية أو الدنيوية يتأكد هذا المعنى . فكم للصوم من آثار طيبة في شفاء أمراض الجسد . وكم من آثار طيبة في شفاء النفس ، وقد كُتبت في هذا الموضوع الكتب ودُبجت المقالات بأقلام أطباء ومجربين مرضى فلله الحمد .

﴿ **شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن** ﴾ : يمتدح الله تعالى شهرَ رمضان ، وتخصيصه بفريضة الصوم من بين الشهور . بإنزال القرآن فيه إما بابتداء إنزاله فيه – وكان

ذلك في ليلة القدر -. أو بإنزاله فيه إلى السماء الدنيا ، أو بالاثنين معاً . ﴿ **هُدى للناس وبيِّنات من الهدى والفرقان** ﴾ : هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به ، وصدَّقه ، واتَّبعه ، ودلائل وحججاً بيِّنة واضحة جليَّة لمن فهمها وتدبرها ، دالة على صحة ما جاء به من الهدى والرشاد ، المنافي للضلال ، والمخالف للغي ، ومفرِّقاً بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، فالفرقان : هو ما يفرق بين الحق والباطل ، والبينات : الواضحات المكشوفات . ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فلْيصمه** ﴾ أي فمن كان شاهداً ، أي حاضراً مقيماً غير مسافر في الشهر فليصم فيه ولا يفطر . ونسخت هذه الآية الإباحةَ المتقدمة لمن كان صحيحا مقيماً أن يفطر ويفدي . ولما حتَّم الصيام . أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار بشرط القضاء كما مر . ليعلم أن هذا مما لم ينسخ فقال : ﴿ **ومن كان مريضاً أو على سفر فعدَّة من أيام أُخر** ﴾ : وجمهور السلف والخلف على أنه لا يجب التتابع في القضاء . بل إن شاء فرَّق ، وإن شاء تابع . لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر . ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ : حيث أباح الفطر في السفر والمرض . ﴿ **ولِتُكْمِلوا العدة** ﴾ : أي إنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم . ﴿ **ولتكبروا الله على ما هداكم** ﴾ : أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم معظِّمين إياه على نعمة هدايتكم إلى صراطه المستقيم في كل شيء ، وفي أمر الصوم . ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ : أي إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه ، وترك محارمه ، وحفظ حدوده . فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك .

فوائـــد :

١ - قال الحنفية : صوم المسافر أفضل من فطره إذا لم يضره ، ولم تكن عامة رفقته مفطرين ، ولا مشتركين في النفقة . فإن كانوا مشتركين أو مفطرين ولو أكثرهم فالأفضل فطره ، موافقة للجماعة . وقال الشافعي : الصيام في السفر أفضل من الإفطار .. وقالت طائفة : بل الإفطار أفضل أخذاً بالرخصة . وقالت طائفة : هما سواء . وقيل إن شق الصيام فالإفطار أفضل . قال ابن كثير : فأمـــا إن رغب عن السنَّة ، ورأى أن الفطر مكروه إليه فهذا يتعيَّن عليه الإفطار ويحرم عليه الصيام والحالة هذه .

٢ - روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قوله : « إن خير دينكم أيسره . إن خير دينكم أيسره » . وفي الصحيحين عنه عليه الصلاة والسلام قال : « يسِّروا ولا تعسِّروا

وسكنوا ولا تنفِّروا » . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن : « بشِّرا ولا تنفِّرا ويسِّرا ولا تعسِّرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » . وفي السنن والمسانيد أن رسول الله ﷺ قال : « بُعِثْتُ بالحنيفية السمحة » .

٣ – استدل قوم بقوله تعالى هنا : ﴿ **ولتكبروا الله على ما هداكم** ﴾ : على مشروعية التكبير في عيد الفطر . حتى ذهب داود الظاهري إلى وجوبه . وقال الحنفية : يكبر في طريقه إلى المصلى سراً بحيث يسمع نفسه . وعامة العلماء على استحبابه يوم الفطر .

٤ – روى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال : « أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان . وأنزلت التوارة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان . وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » . وأخرج ابن مردويه من حديث جابر وفيه : « أن الزبور أنزل لثنتي عشرة خلت من رمضان ، والإنجيل لثماني عشرة ، والباقي كما تقدم » .

قال ابن كثير : وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة . وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزَّة من السماء الدنيا . وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه .. ثُم نزل بَعْدُ مُفرَّقاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ . هكذا روي من غير وجه عن ابن عباس .

﴿ **وإذا سألك عبادي عَنّي فإنّي قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ . فلْيستجيبوا لي ولْيؤمنوا بي لعلهم يرشدون** ﴾ : قال ابن كثير : وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام ، إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة ، بل وعند كل فطر كما رواه الإمام أبو داود .. عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة » . فكان عبد الله ابن عمر إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا . وروى ابن ماجه في سُنَنِه عن عبد الله بن عمر قال : قال النبي ﷺ : « إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد » . قال عبيد الله بن أبي مليكة : سمعت عبد الله بن عمر يقول إذا أفطر : « اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي » وفي مسند الإمام أحمد وسُنَن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا تُرد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حين يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة ، وتُفتح

لها أبواب السماء ، ويقول : بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين » . ا هـ .

أسباب النزول :

أخرج ابن أبي حاتم : .. : أن أعرابياً قال : يا رسول الله - صلى الله عليك وسلم - أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبي ﷺ . فأنزل الله : ﴿ **وإذا سألك عبادي عنِّي** .. ﴾ الآية إذا أمرتهم أن يدعوني ، فدعوني استجبت . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : سأل أصحاب رسول الله ﷺ : أين ربنا ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وإذا سألك عبادي عنِّي فإني قريب** ... ﴾ . وقال ابن جريج عن عطاء أنه بلغه لما نزلت : ﴿ **وقال ربكم ادعوني أستجب لكم** ﴾ . قال الناس : لو نعلم أي ساعة ندعو ؟. فنزلت : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني** ... ﴾ .

المعنى الحرفي :

﴿ **وإذا سألك عبادي عنِّي فإنِّي قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ : هذا وعد صدق من الله لا خلف فيه ، غير أن إجابة الدعوة لا تعني بالضرورة قضاء الحاجة ، فإجابة الدعوة أن يقول العبد : يارب ، فيقول الله : لبيك عبدي . وهذا أمر موعود موجود لكل مؤمن ، وقضاء الحاجة : إعطاء المراد . وذا قد يكون ناجزاً ، وقد يكون بعد مدة ، وقد يكون في الآخرة ، وقد يكون الخيرة له في غيره . ﴿ **فلْيستجيبوا لي** ﴾ : إذا دعوتهم للإيمان والطاعة ، كما أني أجيبهم إذا دعوني لحوائجهم ﴿ **وليؤمنوا بي** ﴾ : بوجودي وأسمائي الحسنى ، وصفاتي العليا ، وقربي ، وإجابتي . ﴿ **لعلهم يرشدون** ﴾ : أي ليكونوا على رجاء من إصابة الرشد ، وهو ضد الغي .

أحاديث وآثار :

١ - روى الإمام أحمد عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال :

« ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إمّا أن يعجِّل له دعوته ، وإمّا أن يدَّخرها له في الآخرة وإمّا أن يصرف عنه من السوء مثلها » قالوا : إذن نُكثر . قال : « الله أكثر » .

٢ - روى البزار عن أنس عن النبي ﷺ قال :

« يقول الله تعالى : يا ابن آدم . واحدة لك ، وواحدة لي ، وواحدة فيما بيني وبينك .

فأمّا التي لي : فتعبدني لا تشرك بي شيئاً . وأمّا التي لك : فما عملت من شيءٍ ، أو عمل ، وَفَّيْتُكه . وأمّا الذي بيني وبينك : فمنك الدعاء ، وعليَّ الإجابة » .

٣ – أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال :

« القلوب أوعية . وبعضها أوعى من بعض . فإذا سألتم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة . فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل » .

٤ – أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« يُسْتجاب لأحدكم مالم يعجل . يقول : دعوت فلم يُستَجبْ لي » .

٥ – قالت عائشة رضي الله عنها :

« ما من عبد مؤمن يدعو الله بدعوة فتذهب حتى تُعجَّل له في الدنيا ، أو تؤخَّر له في الآخرة إذا لم يعجل ، أو يقنط . قال عروة : قلت : يا أمَّاه . كيف عجلته وقنوطه ؟ . قالت : يقول : سألت فلم أُعْط ، ودعوت فلم أُجَب » .

٦ – أخرج الإمام أحمد عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :
« إن الله تعالى ليستحيي أنْ يبسط العبد يديه يسأله فيهما خيراً فيردهما خائبتين » .

٧ – وأخرج الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

« يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني » .

٨ – في الصحيحين وفي مسند الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري قال :
كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة . فجعلنا لا نصعد شرفاً ، ولا نعلو شرفاً ، ولا نهبط وادياً ، إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير . قال : فدنا منا فقال : « يا أيها الناس : أربعوا على أنفسكم . فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً . إنما تدعون سميعاً بصيراً . إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته . يا عبد الله بن قيس : ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة : لا حول ولا قوة إلا بالله » .

﴿ أُحل لكم ليلةَ الصيام الرفثُ إلى نسائكم هُنَّ لِباس لكم وأنتم لِباس لهنَّ علم الله أنكم كنتم تَختانون أنفسكم فتاب عليكم وعَفَا عنكم . فالآن باشروهنَّ وابتغوا ما كَتب الله لكم . وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسود من

الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد . تلك حدود الله فلا تقربوها . كذلك يبيِّن الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾ .

المعاني العامة :

في هذه الآية رُخصةٌ من الله تعالى للمسلمين ، ورفعٌ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام . فإنه كان إذا أفطر أحدهم ، إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء ، أو ينام قبل ذلك . فمتى نام أو صلى العشاء ، حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة . فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة . فأنزل الله في هذه الآية رخصة .

وفي هذه الآية بيان لمكان الزوج من زوجته ، ومكان الزوجة من زوجها . كما أن فيها تحديد وقت الصوم ، وتحديد وقت الفطر ، وإباحة ما أبيح بين الوقتين . كما أن فيها إشارة إلى الاعتكاف . وما يحظر فيه . وختمت الآية بالتحذير من مجاوزة حدود الله . وتبيان فضل الله على هذه الأمة ، إذ بيَّن لها طريق النجاة في الدنيا والآخرة .

من أسباب النزول :

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة ، ثم إن أُناسا من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء – منهم عمر بن الخطاب – فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ . فأنزل الله تعالى ﴿ **عَلِمَ الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم** ﴾ .

المعنى الحرفي للآية :

﴿ **أُحلَّ لكم ليلة الصيامِ الرفثُ إلى نسائكم** ﴾ : الرفث هنا الجماع . والليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر . فصار المعنى : أبيح لكم إتيانكم نساءكم في ليلة صومكم . والدليل أن الجماع يدخل في كلمة الرفث هنا ، استعمال كلمة ﴿ **إلى** ﴾ . فدل على أن ما قبلها قد تضمّن معنى الإفضاء . ﴿ **هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنَّ** ﴾ : هذا استئناف ، وهو كالبيان لسبب الإحلال . وهو إنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قلّ صبركم عنهنَّ . وصعب عليكم اجتنابهنَّ . فلذا رُخص لكم في مباشرتهن . شُبهت الزوجة باللباس لزوجها ، وشُبه الزوج باللباس لزوجته ، بجامع المخالطة والمماسة والمضاجعة ، فناسب هذا الترخيص بالجامعة في ليل رمضان . لئلا

يشق عليهم ويحرجوا . ﴿ **علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم** ﴾ : أي تظلمونها بالجماع والأكل والشرب بعد العشاء ، أو بعد النوم فتنقصونها حظها من الخير . والاختيان من الخيانة . كالاكتساب من الكسب فيه زيادة وشدة . ﴿ **فتاب عليكم وعفا عنكم** ﴾ : أي ما فعلتموه قبل الرخصة ، وذلك من كمال رحمته جل جلاله ، ولعلم الله من قلوبهم الندم على المخالفة إذا واقعوها . ﴿ **فالآن باشروهنَّ** ﴾ : أي جامعوهنَّ في ليالي الصوم . وهو أمر إباحة . وسمِّيت المجامعة مباشرة لالتصاق بشرتيهما . ﴿ **وابتغوا ما كَتب الله لكم** ﴾ : أي واطلبوا ما قسم الله لكم ، وأثبت في اللوح من الولد بالمباشرة . وفي ذلك لفت نظر إلى أن المباشرة ليست لقضاء الشهوة وحدها . ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل . ويحتمل أن يكون المعنى : واطلبوا المحل الذي كتبه الله لكم وحلله ، وهو الفرج ، دون مالم يُكتَب لكم من المحل المحرم ، كالدبر وكالفرج حال الحيض والنفاس ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر** ﴾ : كما رخص لهم الجماع في ليلة الصيام ، فقد رخص لهم الأكل والشرب . وحدد نهاية الوقت المبيح ، وهو نهاية الليل ، وهو طلوع الفجر . والخيط الأبيض هو أول ما يبدو من الفجر المعترض المستطير . والخيط الأسود هو ما يمتد من سواد الليل . شبِّها بخيطين : أبيض وأسود لامتدادهما . وقوله تعالى : ﴿ **من الفجر** ﴾ : بيان أن الخيط الأبيض من الفجر لا من غيره . واكتفى به عن بيان الخيط الأسود لأن بيان أحدهما بيان للآخر .

قال ابن كثير : (وكان رجال إذا أرادوا الصوم ، ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض ، والخيط الأسود : فلا يزال يأكل حتى يتبيَّن له رؤيتهما . فأنزل الله : ﴿ **من الفجر** ﴾ . فعلموا أنما يعني الليل والنهار) وقوله تعالى : ﴿ **حتى يتبيَّن** ﴾ : فيه بيان أن إباحة الأكل والجماع والشرب يستمر حتى يتبيَّن الفجر . فإذا ما تبين دخول الفجر ارتفعت الإباحة . وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور ، لأنه من باب الرخصة ، والأخذ بها محبوب ، واستحباب تأخيره . ﴿ **ثم أتموا الصيام إلى الليل** ﴾ : أي ثم استمروا بالكف عن هذه الأشياء إلى دخول الليل . وعلامة ذلك ، غروب الشمس . ﴿ **ولا تباشروهنَّ وأنتم عاكفون في المساجد** ﴾ : أي وأنتم معتكفون فيها . بيَّن أن الجماع يحل في ليالي رمضان ، لكن لغير المعتكف . وفيه دليل على أن الاعتكاف لا يكون إلا في المسجد . وأنه لا يختص به مسجد دون مسجد . ومن المتفق عليه بين العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء مادام معتكفاً في

مسجده ولو ذهب إلى منزله لحاجة لابد له منها فلا يحل له أن يمكث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك ، من قضاء الغائط ، أو الأكل ، وليس له أن يقبِّل امرأته ، ولا أن يضمها إليه . ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه ولا يعود المريض . ولكن يسأل عنه وهو مارٌّ في طريقه . ﴿ **تلك حدود الله** ﴾ : أي الأحكام التي ذكرتْ أحكامه المحدودة . ﴿ **فلا تقربوها** ﴾ : بالمخالفة والتغيير . ﴿ **كذلك يبيّن الله آياته للناس**﴾ : أي شرائعه . فكما بيّن الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله ، كذلك يبيّن سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ . ﴿ **لعلهم يتقون** ﴾ : أي لعلهم يعرفون كيف يهتدون ، وكيف يطيعون ، وكيف يجتنبون المحارم .

أحاديث وآثار :

١ - أخرج الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال :

« أُحيلت الصلاة ثلاثة أحوال ، وأُحيل الصيام ثلاثة أحوال : فأما أحوال الصلاة فإن النبي ﷺ قدِم المدينة وهو يصلي سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس . ثم إن الله عز وجل أنزل عليه : ﴿ **قد نرى تقلُّب وجهك في السماء فلنولِّينَّك قبلة ترضاها** ﴾ الآية . فوجهه الله إلى مكة . هذا حال . قال : وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذن بها بعضهم بعضاً حتى نقَّسوا أو كادوا ينقِّسون . ثم إن رجلا من الأنصار يقال له : عبد الله بن زيد بن عبد ربه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم ، ولو قلت إني لم أكن نائماً لصدقت ، إني بينا أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت شخصاً عليه ثوبان أخضران . فاستقبل القبلة فقال : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، مثنى حتى فرغ من الأذان . ثم أمهل ساعة ، ثم قال مثل الذي قال ، غير أنه يزيد في ذلك : قد قامت الصلاة – مرتين –. قال رسول الله ﷺ : « علمها بلالا فلْيؤذّن بها » . فكان بلال أول من أذّن بها . قال : وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا رسول الله . قد طاف بي مثل الذي طاف به ، غير أنه سبقني . فهذان حالان . قال : وكانوا يأتون الصلاة وقد سبقهم النبي ﷺ ببعضها . فكان الرجل يشير إلى الرجل إذن كم صلى ؟ فيقول : واحدة ، أو اثنين . فيصليهما . ثم يدخل مع القوم في صلاتهم . قال : فجاء معاذ فقال : لا أجده على حال أبداً إلا كنت عليها ثم قضيت ما سبقني . قال : فجاء وقد سبقه النبي ﷺ ببعضها . قال : فثبت معه . فلما قضى رسول الله ﷺ قام فقضى ، فقال رسول الله ﷺ : « إنه قد سنَّ لكم معاذ

فهكذا فاصنعوا » . فهذه ثلاثة أحوال . وأما أحوال الصيام : فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام . وصام عاشوراء . ثم إن الله فرض عليه الصيام ، وأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ . فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكينا فأجزأ ذلك عنه . ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى : ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ . فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ، ورخّص فيه للمريض والمسافر . وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام . فهذان حالان .

قال : وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء مالم يناموا . فإذا ناموا امتنعوا . ثم إن رجلا من الأنصار يقال له : صرمة . كان يعمل صائماً حتى أمسى ، فجاء أهله فصلى العشاء ثم نام ، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح . فأصبح فرآه رسول الله ﷺ وقد جهد جهداً شديداً . فقال : « مالي أراك قد جهدت جهداً شديداً ؟ قال : يا رسول الله . إني عملت أمس ، فجئت حين جئت ، فألقيت نفسي فنمت ، فأصبحت حين أصبحت صائماً . قال : وكان عمر قد أصاب من النساء بعدما نام . فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك . فأنزل الله عز وجل : ﴿ **أُحلَّ لكم ليلةَ الصيام الرفثُ إلى نسائكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ثم أتموا الصيام إلى الليل** ﴾ .

٢ - أخرج البخاري عن رسول الله ﷺ :

« من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه » .

٣ - أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن عدي بن حاتم قال : « لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود** ﴾ : عَمَدت إلى عقالين . أحدهما أسود ، والآخر أبيض . قال : فجعلتهما تحت وسادتي قال : فجعلت أنظر إليهما . فلما تبيَّن لي الأبيض من الأسود أمسكت . فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت . فقال : إن وسادك إذاً لعريض . إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل » .

وجاء في بعض الألفاظ في بعض الروايات : « إنك لعريض القفا » . ففسره بعضهم بالبلادة .وهذا تفسير غير مقبول . وإنما معناه كما ورد في بعض الروايات : « إن

وسادك إذاً لعريض إن كان الخيط الأسود والأبيض تحت وسادتك » . فمن كان الليل والنهار تحت رأسه ينبغي أن يكون رأسه كبيراً جداً .

٤ – في الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « تسحَّروا فإن في السحور بركة » . وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ : « إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور » . وفي مسند الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « السحور أكلة بركة ، فلا تَدَعُوْهُ ، ولو أن أحدكم تجرَّع جرعة ماء ، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحّرين » .

٥ – في الصحيحين عن زيد بن ثابت قال : تسحَّرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة قال أنس : قلت لزيد : كم كان بين الأذان والسحور ؟ قال : « قدر خمسين آية » . وأخرج الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتزال أمتي بخير ما عجَّلوا الإفطار وأخَّروا السحور » .

٦ – في الصحيحين : قال رسول الله ﷺ : « إذا أقبل الليل من ههنا ، وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم » . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ : « لايزال الناس بخير ما عجَّلوا الفطر » . وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن أحب عبادي إليَّ ، أعجلهم فطراً » .

فوائد ومسائل :

١ – رأينا أن قوله تعالى : ﴿ **هُنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهنَّ** ﴾ : قد جاء في معرض البيان لحكمة إباحة حِل الجماع في ليلة الصوم . وهي رفع الحرج في هذه القضية . فمن خلال السياق عرفنا المراد الرئيسي من النص . وإذا نظرنا إلى النص مجرداً رأينا في النص تشبيهاً بليغاً . هذا التشبيه نفهم منه أشياء . فكون المرأة لباساً للرجل ، وكون الرجل لباساً للمرأة ، يقتضي هذا من كل منهما أن تتوافر فيه شروط اللباس ، من كونه ساتراً لا يكشف عورة ، ومن كونه طاهراً ليس فيه دنَس ، ومن كونه خاصاً بصاحبه ، ومن كونه متناسباً مع مكانة الإنسان .. فانظر كم في هذا القرآن من معانٍ من خلال النص ، ومن خلال السياق الجزئي ، ومن خلال السياق الكلي في السورة . وسنرى كذلك أنه من خلال السياق القرآني كله نفهم معاني . وبذلك نجد في هذا القرآن معاني متوَلدة من بعضها لا تنتهي .

٢ - فهم العلماء من قوله تعالى : ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود** ﴾ : أن صوم الوصال منفي . وقد ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن صوم الوصال . وهو أن يصل يوماً بيوم آخر ، أو أكثر . ولا يأكل بينهما شيئاً . قالت السيدة عائشة : نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم . فقالوا : إنك تواصل . قال : « إني لست كهيئتكم . إني يطعمني ربي ويسقيني » . وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« لا تواصلوا . قالوا : يا رسول الله إنك تواصل . قال فإني لست مثلكم . إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني . قال : فلم ينتهوا عن الوصال . فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليلتين . ثم رأوا الهلال . فقال : لو تأخر الهلال لزدتكم » . كالمنكِّل لهم . وثبت أن صوم الوصال من خصائصه ﷺ . وأنه كان يقوى على ذلك ، ويعان . والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسياً ، وإلا فلا يكون مواصلا مع الحسي . وصوم الوصال عند الحنفية مكروه تنزيهاً وقد ذكر ابن كثير تحقيقاً لطيفاً في موضوع صوم الوصال قال :

(وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السَّحر ، فله ذلك كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تواصلوا . فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السَّحر ... » أخرجاه في الصحيحين . وقال الإمام أحمد عن علي أن النبي ﷺ كان يواصل من السحر إلى السحر . وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة . وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم ، لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة . والله أعلم . ويحتمل أنهم يفهمون من النهي أنه إرشاد من باب الشفقة كما في حديث عائشة « رحمةً لهم ». فكان ابن الزبير وابنه عامر ، ومن سلك سبيلهم ، يتجشمون ذلك ويفعلونه ، لأنهم كانوا يجدون قوة عليه . وقد ذُكر عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والصبر . لئلا تتمزق الأمعاء بالطعام أولا . وقد روي عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ويصبح في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم . وقال أبو العالية : إنما فرض الله الصيام بالنهار . فإذا جاء الليل ، فمن شاء أكل ، ومن شاء لم يأكل »

٣ - في ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام ، إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام ، أو في آخر شهر الصيام كما ثبت في السنَّة عن رسول الله ﷺ « **أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان ، حتى توفَّاه الله عز وجل . ثم اعتكف أزواجه من بعده** » .

٤ – **قال الحنفية** : (والاعتكاف ثلاثة أقسام . **أولا** : واجب ، وهو الاعتكاف المنذور **ثانياً** : سُنَّة مؤكَّدة في العشر الأواخر من رمضان . وهو سنة كفاية . إذا قام به البعض سقط العتاب عن الباقين . **ثالثاً** : مستحبٌ في غيره من الأزمنة) ويبطل الاعتكاف المنذور بالوطء ولو خارج المسجد . ويبطل بالإنزال بدواعيه عامداً أو ناسياً . ثم المراد بالمباشرة المنهي عنها في الآية للمعتكف ما قاله ابن كثير : « إنما هو الجماع ودواعيه ، من تقبيل ، ومعانقة ، ونحو ذلك . فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به . فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يُدني إليَّ رأسه فأرجله ، وأنا حائض . وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان » .

٥ – **قال ابن كثير** : ومن جَعْلِهِ تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب أي في قوله : ﴿ حتى يتبيَّن ﴾ لمن أراد الصيام . يُستدلّ على أنه مَن أصبح جُنُباً فليغتسل ، وليتم صومه ، ولا حرج عليه . وهذا مذهب الأئمة الأربعة ، وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً . لما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلَمة رضي الله عنهما أنهما قالتا : « كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم » وفي حديث أُم سلمة عندهما « ثم لا يفطر ولا يقضي » .

٦ – وقع بعض المؤلفين ، وبعض العلماء السابقين في خطأ كبير : إذ أجازوا الأُكل بعد طلوع الفجر . إما بفهم خاطىء للتبيُّن في الآية ، وإما بحمل بعض الآثار على غير محملها ، وإما بسبب عدم النظر الدقيق إلى عامة النصوص ، وإما بفهم خاطىء للنصوص . ومهما كان الأمر ، فالذي عليه إجماع العلماء خلال العصور المتطاولة هو عدم حِل الأكل بعد الفجر . ومن الأسباب التي دعت بعضهم للوقوع في الخطأ ورود لفظ الفجر المستطيل والمستطير في الأفق . فظنوا أن المستطير هو ما بعد الفجر المعروف . والحقيقة أن الفجر المستطيل هو الفجر الكاذب . وهو الذي يكون عادة قبل الفجر المعروف بحوالي خمس عشرة دقيقة ، وهو ليس فجراً أصلًا .

قال رسول الله ﷺ : « الفجر فجران . فالذي كأنه ذنب السرحان لا يحرم شيئاً . وإنما المستطير الذي يأخذ الأفق . فإنه يحل الصلاة ويحرِّم الطعام » . قال ابن كثير : وهذا مرسل جيد . وقال ﷺ : « لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ، ولا الفجر المستطيل . ولكنه الفجر المستطير في الأفق » . وقد ورد في الصحيحين عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يمنعكم أذان بلال من سحوركم ، فإنه ينادي بليل . فكلوا

واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أُمّ مكتوم . فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر ».

فتاوى :

١ - قال النووي في المجموع :

إذا سافر المقيم فهل له الفطر في ذلك اليوم ؟ له أربعة أحوال :

- أن يبدأ السفر في ليل ، ويفارق عمران البلد قبل الفجر ، فله الفطر بلا خلاف .

- ألا يفارق العمران إلا بعد الفجر : مذهب الشافعي المعروف من نصوصه ، وبه قال مالك وأبو حنيفة ليس له الفطر في ذلك اليوم . وقال المزني : له الفطر . وهو مذهب أحمد وإسحق . وهو وجه ضعيف ، حكاه أصحابنا عن غير المزني من أصحابنا أيضاً . والمذهب الأول ...

- أن ينوي الصيام من الليل ثم يسافر ، ولا يعلم هل سافر قبل الفجر أو بعده ؟ قال الصيمري والماوردي وصاحب البيان وغيرهم : ليس له الفطر لأنه يشك في مبيح الفطر . ولا يباح بالشك .

- أن يسافر من بعد الفجر . ولم يكن نوى الصيام . فهذا ليس بصائم لإخلاله بالنية من الليل . فعليه قضاؤه . ويلزمه الإمساك هذا اليوم ...

أقول : تصح نية صوم رمضان بعد الفجر إلى ما قبيل منتصف النهار الشرعي في مذهب أبي حنيفة . فمن نوى في هذا الوقت ، صح صومه عند أبي حنيفة ، والحنفية لا يجيزون الإفطار يوم السفر لمن لم يتلبس بالسفر قبل الفجر .

٢ - يبدأ الصوم بتبيّن الفجر المستطير ، وهو الفجر الصادق الذي يكون بعد الفجر المستطيل - وهو الفجر الكاذب - بخمس عشرة دقيقة . والفجر الصادق هو الذي يمسك عنده الناس الآن ، خاصة وقد أصبح للناس ما يستطيعون به التبين بدقة في ثانيته الأولى . قال ابن قدامة في كتابه (المغني) بعدما ذكر قول الأعمش في جواز الأكل بعد تبيّن الفجر : (دلنا قول الله تعالى : ﴿ **حتي يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر** ﴾ : يعني بياض النهار من الليل . وهذا يحصل بطلوع الفجر) قال ابن عبد البر في قول النبي ﷺ : « إن بلالا يؤذّن بليل . فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أُمّ مكتوم » . دليل على أن الخيط الأبيض هو الصباح . وأن السحور لا يكون إلا قبل

الفجر . وهذا إجماع لم يخالف فيه إلا الأعمش وحده . فشذ ولم يعرّج أحد على قوله . والنهار الذي يجب صيامه : من طلوع الفجر إلى غروب الشمس . قال : هذا قول جماعة علماء المسلمين .

٣ – في السفر الذي يصح فيه قصر الصلاة وفطر المسافر استقرت الفتوى في المذاهب الأربعة على أنه السفر الذي هو في حدود (ثمانين كيلو متراً ونصف ، ومائة وأربعين متراً). ولا يضر نقصان المسافة عن المقدار المبيّن بشيء قليل كميل أو ميلين باتفاق الحنفية والحنابلة ، أما المالكية فقالوا : إن نقصت المسافة عن القدر المبيّن بثمانية أميال وقصَر الصلاة ، صحت صلاته ، ولا إعادة عليه على المشهور ، ويُستثنى من اشتراط المسافة أهل مكة ومنى ومزدلفة والمحصب إذا خرجوا في موسم الحج للوقوف بعرفة ، فإنه يُسمح لهم بالقصر في حال ذهابهم . وكذا في حال إيابهم إذا بقي عليهم عمل من أعمال الحج التي تؤدَّى في غير وطنهم ، وإلا أتموا . وأما الشافعية فقد قالوا : يضر نقصان المسافة عن القدر المبيّن . فإذا نقصت ولو بشيء يسير فإن القصر لا يجوز . على أنهم اكتفوا في تقدير المسافة بالظن الراجح . ولم يشترطوا اليقين . هذا ما استقرت عليه فتوى المذاهب الأربعة في شأن السفر المبيح للفطر وللقصر .

٤ – والفتوى في المذاهب الأربعة على أن الاستمناء باليد في نهار رمضان مفطر ، وصاحبه آثم ، وعليه القضاء .

٥ – ذكرنا أثناء الشرح تعريفاً للمرض الذي يجوز معه الإفطار . وهو يتمشى مع مذهب الحنفية . وننقل ههنا ما ذكره القرطبي لتعرف الاتجاهات الفقهية في هذا الشأن :

قال القرطبي : للمريض حالتان : إحداهما : ألا يطيق الصوم بحال . فعليه الفطر واجباً . الثانية : أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة . فهذا يستحب له الفطر ، ولا يصوم إلا جاهل . قال ابن سيرين : متى حصل الإنسان في حال يستحق بها اسم المرض صح الفطر قياساً على المسافر لعِلة السفر ، وإن لم تدعُ إلى الفطر ضرورة . وقال جمهور من العلماء : إذا كان به مرض يؤلمه ويؤذيه ، أو يخاف تماديه ، أو يخاف تزايده ، صح له الفطر . قال ابن عطية : وهذا مذهب حذّاق أصحاب مالك ، وبه يناظرون . وأما لفظ مالك : فهو المرض الذي يشقّ على المرء ويبلغ به .

وقال ابن خويز منداد : واختلفت الرواية عن مالك في المرض المبيح للفطر . فقال مرة : هو خوف التلف من الصيام . وقال مرة : شدة المرض والزيادة فيه ، والمشقة الفادحة . وهذا صحيح مذهبه . وهو مقتضى الظاهر . لأنه لم يخص مرضاً من مرض . فهو مباح في كل مرض ، إلا ما خصّه الدليل من الصداع ، والحُمى ، والمرض اليسير الذي لا كلفة معه في الصيام . وقال الحسن : إذا لم يقدر من المرض على الصلاة قائماً ، أفطر . وقال النخعي : وقالت فرقة لا يفطر بالمرض إلا من دعته ضرورة المرض نفسه إلى الفطر ، ومتى احتمل الضرورة معه لم يفطر . وهذا قول الشافعي رحمه الله تعالى .

قلت (القائل القرطبي) : قول ابن سيرين أعدل شيء في هذا الباب إن شاء الله تعالى . قال البخاري : اعتللت بنيسابور عِلّة خفيفة ، وذلك في شهر رمضان . فعادني إسحاق ابن راهويه في نفر من أصحابه فقال لي : أفطرت يا أبا عبد الله ؟ فقلت : نعم . فقال : خشيت أن تضعف عن قبول الرخصة . قلت : حدثنا عبدان عن ابن المبارك عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : من أي المرض أفطر ؟ قال : من أي مرض كان . كما قال الله تعالى : ﴿ **فمن كان منكم مريضاً** ﴾ . قال البخاري : وهذا الحديث لم يكن عند إسحاق . وقال أبو حنيفة : إذا خاف الرجل على نفسه وهو صائم ، إن لم يفطر أن تزداد عينه وجعاً ، أو حمَّاه شدة ، أفطر .

فصل في الصوم عند الأمم :

رأينا أن الله عز وجل قال : ﴿ **كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم** ﴾ . فالصوم شريعة الله عز وجل لكل الأمم في الماضي . لأن كل الأمم قد أرسل لها رسل عليهم الصلاة والسلام ولكنَّ الأمم حَرّفت ، وبدّلت ، ونسيت وتناست . فأرسل الله عز وجل محمداً ﷺ بهذا القرآن الذي فيه كل الكتب ، والذي صحّح الإرث كله لمن عقل . ومما يدلنا على أن الله أرسل رسلا لكل الأمم قوله تعالى : ﴿ **وإن مِن أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ ، ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولا** ﴾ ثم إنك تجد في إرث كل أمة بقايا ، أو شذرات ، تدلك على الوحي . من ذلك أنك تجد بقايا فكرة الصوم موجودة في الديانات القديمة المشهورة . وقد عقد الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه (الأركان الأربعة) فصلا عن الصوم في الديانات القديمة ، استقاه من كتاب (سيرة النبي ﷺ) لسليمان الندوي ، الذي استقاه من دائرة المعارف البريطانية . وعقد فصلا عن الصوم عند اليهود ، استقاه من دائرة المعارف اليهودية . وعقد فصلا عن الصوم عند النصارى ، استقاه من دائرة معارف الأديان والأخلاق . وهذه هي الفصول الثلاثة :

الصوم في الديانات القديمة :

« .. لذلك اشتملت جميع الأديان ، والشرائع المعروفة في التاريخ على الصوم ، وطالبت به جميع من كان يدين بها . فمن أقدم الديانات التي لايزال عدد كبير من الناس يدين بها ، الديانة الهندية البرهمية . ويحدّث عنها الأستاذ T.M.P. Mahadevan رئيس قسم الفلسفة في جامعة مدراس الهند ، وهو يشرح الصوم ومكانته في الشريعة الهندوكية ، والمجتمع الهندي :

ومن الأعياد ، والأيام المحتفل بها في السنة ، ما خُصِّصَت للصوم الذي تُقصد به تزكية النفس . إن كل طائفة من الطوائف الهندكية تخصص لنفسها أياماً تقضيها في الدعاء والعبادة ، ويصومها أكثر أفرادها كذلك . فيكفّون عن الطعام ، ويسهرون الليل كله ، ويبيتون يتلون الكتب المقدسة ، ويراقبون الله . ومن أعمّ هذا الصيام ، وأكثرها انتشاراً في الطوائف المختلفة (ويكنته إيكاوشى) الذي ينسب إلى (وشنو) فلا يصوم ذلك اليوم أتباع (وشنو) فحسب ، بل يصومه أكثر الناس . فيصومون نهاره ويسهرون ليله .

ومن الأيام ما يصومها النساء فقط ، ويدعون الإلٰهة (مَظْهر صفات الله النسويّة) في مختلف مظاهرها . وتسمى هذه الأيام لأهميتها الخاصة بـ (بَرَت) ، أو العهد . وقد خصصت لتزكية الروح . وغايتها تغذية الروح بالغذاء الروحاني .

ولا يزال البراهمة يصومون في اليوم الحادي عشر ، من كل شهر هندي . وهكذا يبلغ عدد الأيام التي تُصام عند البراهمة (٢٤) يوماً في كل سنة ، إذا حافظوا عليها وتقيدوا بها . وقد قامت الديانة الجينيّة في الهند بالتشدد في شرائط الصوم وأحكامه . فأتباعها يواصلون أربعين يوماً بالصوم .

... ويظهر الصوم عند المصريين القدماء بجوار أعيادهم الدينية . وكان صوم اليوم الثالث من شهر (تهسمو فيريا) اليوناني خاصاً بالنساء عند اليونان . ولا تخلو الصحف المجوسية عن الأمر بالصوم ، والحثّ عليه ، ولو لطبقة خاصة . وتدل كلمة وردت في بعض كتبهم المقدسة على أن صوم خمسة أعوام كان فريضة على الرؤساء الدينيين .

الصوم عند اليهود :

أما اليهود ، فقد كان الصوم يعتبر رمزاً للحداد والحزن عندهم في العهد البابلي .

وكان يُلجأ إليه ، إذا هدد خطر ، أو إذا كان كاهن أو (مُلهَم) يُعدُّ نفسه لإلهام ، أو (نبوة) ، وكان اليهود يصومون مؤقتاً إذا اعتقدوا أن الله ساخط عليهم ، غير راضٍ عنهم . أو إذا حلت بالبلاد نكبة عظيمة ، أو خطب كبير أو إذا أصيبت البلاد بوباء فاتك ، أو بجدب عام ، وفي بعض الأحيان ، عندما يعزم الملوك على مشروع جديد .

أيام الصيام المحددة الدائمة ، قديمة ، ومحدودة في التقويم اليهودي ، علاوة على يوم الكفارة : يوم الصوم المقرر الوحيد في الديانة الموسوية . وكانت هنالك أيام معينة للصوم الدائم ، وهي ذكرى حوادث أليمة ، وقعت لليهود في أيام الأسر في (بابل) ، وهي تقع في الشهر العاشر (تبت) (tebet) ، ويرى بعض ربيّي (التلمود) أنَّ صيام هذه الأيام إجباري ، عندما يعيش الشعب الإسرائيلي تحت قسوة الحكومات الأجنبية ، وفي اضطهاد . ولا تلزم عندما يتمتع الإسرائيليون بأمن ورخاء .

وزيدت إلى أيام الصيام هذه أيام أخرى ، تصام تذكاراً لكوارث ومآسي ، نزلت باليهود وأضيفت إلى الأولى على مر الأيام . وهي لا تعتبر إلزامية ، ولم تنل الحظوة الكافية عند الجمهور . ومع اختلاف يسير يبلغ عددها إلى خمسة وعشرين يوماً .

وهنالك أيام صيام شعبية ، محلية ، تختلف باختلاف الأقاليم والمناطق التي يسكنها اليهود منذ زمن بعيد . وهي تذكار كذلك لكوارث وخطوب ، أُصيبت بها هذه الشعوب في أوقات مختلفة ، واضطهاد ، وقسوة تعرضوا لها من بعض الحكومات ، وأيام صيام تصومها بعض الطبقات دون بعض في ذكرى وقائع ومحن في تاريخ اليهود ، وفي ذكرى مآتم وأفراح في حياتهم الشخصية . وصوم أول يوم من السَنة شائع في كثير من الطبقات . وهنالك أيام صيام تشرَّع ، ويأمر بها الربِّيون ، إذا تعرض الشعب لخطر ، أو تأخر المطر ، أو أصيبت البلاد بالمجاعة ، أو صدرت مراسيم قاسية ، أو قوانين غليظة . وأيام الصيام الشخصية المختارة ، التي يفضلها بعض الأفراد دون بعض ، شائعة في تاريخ اليهود منذ زمن مبكر . وهي أيام صوم تذكارية لبعض الحوادث الفردية ، أو ككفارة عن بعض المعاصي والآثام ، أو لجلب رحمة الله وعفوه عند خطر داهم ، أو بلاء نازل . وصوم تلك الأيام لا يشجعها الربِّيون ، ولا يوافقون عليها إذا كان الصائم رجلا علمياً ، أو أستاذاً معلِّماً ، حتى لا يشوش ذلك خاطره ، أو يضعف صحته . وهنالك صوم يصام على إثر رؤية مفزعة . ولما كانت الشريعة اليهودية لا تسمح بالصوم في أيام الأعياد ، (فالتلمود) يبيح هذا الصوم في هذه الأيام ، بشرط أن يكفِّر عنه بصوم آخر في أيام عادية ..

والصوم عند اليهود يبتدىء من الشروق عند ظهور أول نجوم الليل ، إلا صوم يوم الكفارة ، واليوم التاسع من شهر (آب) فإنه يستمر من المساء إلى المساء وليس هنالك أحكام وتقاليد للصيام العادية . وقد رُغِّب في الصدقة وإطعام المساكين ، وخصوصاً توزيع العشاء المعتاد التقليدي .

إن الأيام التسعة الأولى من شهر (آب) وبعض أيام بين اليوم السابع عشر من شهر (تموز) وبين اليوم العاشر من شهر (آب) تعتبر أيام صوم جزئي فيحرُم فيها تناول اللحوم ، وتعاطي الخمور فقط .

الصوم عند المسيحيين :

أما الصوم عند المسيحيين فيطول شرحه وتفصيله ، لأن الديانة المسيحية هي أقل الديانات تشريعاً فقهياً . وأحكامها كلية ، تشمل أدوار التاريخ ، والمجتمعات المسيحية ، والطوائف الدينية كلها ، وأكثرها تطوراً مع الزمن والعوامل السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية أحياناً . ولذلك يصعب أن يطلق عليها اسم شريعة إلهية . وقد حاولنا أن نقدم صورة موجزة عن الصوم عند المسيحيين ، وما مر به من أدوار ، وأطوار .

المسيح صام أربعين يوماً قبل أن يبدأ رسالته ، ومن المرجّح أنه كان يصوم يوم الكفارة ، الذي كان الصوم المفروض في الشريعة الموسوية . ككل يهودي مخلص إنه لم يشرع أحكاماً للصوم ، إنه خلف المبادىء ، وترك كنيسة تُقنِّن قوانين لتطبيقها ، وليس لأحد أن يزعم أنه أصدر قوانين عن الصوم رأساً . إننا نقرأ في المصادر المسيحية حديثاً عن صوم (بولس) والمسيحيين الأولين ، إن المسيحيين الذين كانوا من السلالة الإسرائيلية ، ظلوا يصومون يوم الكفارة . وينوّه به الراهب ليوك Luke ، كيوم يُحتفل به . ولكن المسيحيين الذين ينتمون إلى أصول أخرى ، لم يُلحوا على ذلك .

وبانتهاء القرن المسيحي الأول ، ونصف قرن بعد وفاة القديس (بولس) نواجه رغبة مُلحة في تقنين القوانين للصوم . وقد كان ذلك موكولا إلى تقوى الصائم . نرى الرهبان ، وبعض رجال الكنيسة يقترحون صياماً ليقاوم به المسيحيون الإغراءات (المادية والجنسية) . وكان يسود في ذلك العصر شعور بالواجب ، وتحذير عن أن يظل الصوم عملا خارجياً لا يؤثر في نفس الصائم . ويتحدث القديس (إيرينيس) عن أنواع من الصيام ، منها ما يستغرق اليوم . ومنها ما يستغرق يومين ، أو بضعة أيام . ومنها ما يستغرق أربعين ساعة

متوالية . وقد استمر هذا الوضع مدة طويلة . وكان صوم (جمعة الآلام ، أو الصلبوت) صوماً شعبياً عاماً . وكان صوم يوم الأربعاء ، ويوم الجمعة في كل أسبوع شائعاً في بعض الأقطار في القرن الثاني المسيحي . وكان الذين ينتظرون الاصطباغ (التعميد) ، يصومون يوماً أو يومين . وكان يشترك فيه الذين يأخذون الاصطباغ والذي يتولى ذلك .

وهنالك خلافات جزئية في مناهج الصوم ، وأحكامة في الطوائف المسيحية . وقد نال الصوم قسطاً كبيراً من التنظيم ، والتقنين في فترة بين القرن الثاني ، والقرن الخامس المسيحيين . فقد أصدرت الكنيسة قائمة أحكام وتوجيهات عن الموضوع . وقد اتَّسم الصوم بصلابة وشدة في القرن الرابع ، فقد انتقل من طور الرقة والتوسع والمرونة ، إلى طور الصلابة ، والغلظة ، والتدقيق . وقد حدد اليومان اللذان يسبقان (عيد الفصح) بالصوم في هذا العصر . وكان الصوم في هذين اليومين ينتهي في نصف الليل . والمرضى الذين لا يستطيعون أن يصوموا في هذين اليومين ، كان يُسمح لهم أن يصوموا يوم (السبت) . وقد سُجلت في تاريخ المسيحية ، والمسيحيين في القرن الثالث أيام الصوم ، وكان هنالك اختلاف في نهاية الصوم . فكان بعضهم يُنهي ويفطر عند صوت الديك . وبعضهم إذا أرخى الليل سدوله .

أما صوم أربعين يوماً ، فلا يوجد له أثر إلى القرن الرابع الميلادي . وكانت هنالك عادات وأوضاع للصوم تختلف باختلاف البلاد التي يسكنها المسيحيون . فكان في (روما) صيام يختلف عن الصيام في (لانان) و (الإسكندرية) . وكان بعضهم يُمسك عن تناول الحيوانات ، خلافاً لغيره . وبعضهم يجتزىء بالسمك والطيور ، وبعضهم يُضرب عن البيض والفواكه ، وبعضهم يجتزىء بالخبز اليابس ، وبعضهم يكف عن كل ذلك ، وبتاريخ المسيحية ، أنواع من الصوم يطول عدّها ، منها ما كان يستغرق ثلاث ساعات ، وأربعاً ، يمسك فيها الصائم عن الأكل والشرب . وقد حدّدت أيام مختلفة في القرون الوسطى للصوم في العالم المسيحي ، تطورت مع تقدم الزمن ، وهي تختلف باختلاف الأقاليم والبلاد ، التي تحكم عليها الكنيسة المسيحية .

وبعد الإصلاح ، حددت الكنيسة الإنجليزية أيام الصوم . ولم تقنن قوانين وحدوداً للصائمين . تاركة ذلك لضمير الفرد ، وشعوره بالمسؤولية . ولكن قوانين البرلمان الإنجليزي في عهد (إدوارد السادس) و (جيمس الأول) و (مرسوم اليزابيت) : فرض الإمساك عن اللحوم في أيام الصوم ، وبرر ذلك بقوله : (إن صيد السمك ،

والتجارة البحرية ، يجب أن تُشجع وتَربح) . ا . هـ . من كتاب الأركان الأربعة لأبي الحسن الندوي من ص ١٨٧ - ١٩٣ أقول : هذا عرض للموجود من الصوم حسب روايات أهل النِّحل نفسها . وهي بمجموعها ، لا يصلح أن نعتمد عليها في ورد أو صدر ، لأن كل الشواهد تدل على ضياع الأصول والحقيقة ، إما بتعمد من عصبية ، أو بسبب من أوضاع تاريخية . ولكن هذا يدلنا بشكل عام على وحي قد نزل على الأمم هذه بقاياه . والإسلام جاء ليدل الإنسان على الطريق المستقيم .

كلمة في السياق :

مرت معنا الفقرة الأولى من المقطع الثالث من القسم الثاني في سورة البقرة . وهي فقرة الصوم . وهي الفقرة الوحيدة في هذا المقطع ، المبدوءة بصيغة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ . مما يشير إلى استمرارية التوجيهات وصلتها بالفقرة الأولى . من حيث تأثيرات عبادة الصوم على مجموع التكاليف ، والتكليف الأول الذي يأتي بعد آيات الصوم هو ما تضمنته الفقرة الثانية من تحريم أكل أموال الناس بالباطل ، ومن تحريم الرشوة . وهو التوجيه الأول بعد آيات الصيام التي دلت على أكثر من طريق يُحقَق بالتقوى : الصوم ، وتبيان الآيات . وهذا يشير إلى أن مظهر التقوى الأول ، استقامة الإنسان على أمر الله في موضوع حقوق الناس ، وفي موضوع الأموال . والملاحَظ أن بداية هذا القسم كانت : ﴿ **يا أيها الناس كلوا ممَّا في الأرض حلالا طيباً ولا تتبعوا خُطُوات الشيطان** ﴾ . وقد جاء في هذا المقطع كلام عن الصوم الذي يساعد على تربية النفس ، ثم نهي عما هو من قبيل الحرام واتّباع خطوات الشيطان فلننتقل إلى عرض الفقرة الثانية من المقطع الثالث من القسم الثاني من سورة البقرة .

الفقرة الثانية :

وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

المعنى الحرفي للآية :

﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ : أي لايأكل بعضكم مال بعض بالوجه

الذي لم يبحه الله ولم يشرعه من مثل السرقة ، والغصب ، وغير ذلك . ﴿ **وتدلوا بها إلى الحكّام** ﴾ لها تفسيران ، الأول : لا تلقوا أمرها والحكومةَ فيها إلى الحكـام . كأن يكون على رجل مال وليس عليه بيِّنة . فيجحد المال ، ويخاصم إلى الحكام ، وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه آثم ، آكل حرام . يخاصم وهو يعلم أنه ظالم . والتفسير الثاني : وتلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة . ﴿ **لتأكلوا فريقاً من أموال الناس** ﴾ : أي لتأكلوا بواسطة التحاكم طائفةً من أموال الناس ﴿ **بالإثم** ﴾ : أي بطريق الإثم . إما بشهادة الزور ، أو بالأيْمان الكاذبة ، أو بالصلح مع العلم بأن المقضي له ظلم . ﴿ **وأنتم تعلمون** ﴾ : أنكم على الباطل . وارتكاب المعصية مع العلم أقبح ، وصاحبها بالتوبيخ أحق .

فوائـــد :

١ – الحاكم لا يكون آثماً إذا قضى حسب الظاهر . ولم يكن مرتشيًا . والإثم في هذه الحالة على المبطِل . ورد في الصحيحين عن أُمّ سلمة أن رسول الله ﷺ قال : « ألا إنما أنا بشر . وإنما يأتيني الخصم . فلعل بعضكم أن يكون ألْحن بحجته من بعض ، فأقضي له . فمن قضيْتُ له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها » . قال ابن كثير : « فدلت هذه الآية الكريمة ، وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغيِّر الشيء في نفس الأمر فلا يحل في نفس الأمر حراماً هو حرام . ولا يحرم حلالا هو حلال . وإنما هو مُلزِم في الظاهر فإن طابق في نفس الأمر فذاك . وإلا فللحاكم أجره ، وعلى المحتال وزره » .

٢ – عند قوله تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ قال القرطبـي : (الخطاب بهذه الآية يتضمَّن جميع أمة محمد ﷺ . والمعنى : لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق . فيدخل في هذا : القمار والخداع ، والغصوب ، وجحد الحقوق ، ومالا تطيب به نفس مالكه ، أو حرَّمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه . كمهر البغيِّ ، وحلوان الكاهن ، وأثمان الخمور ، والخنازير ، وغير ذلك) .

وقال قوم : المراد بالآية ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ أي في الملاهي ، والقيـان ، والشرب ، والبطالـة . فيجـيء على هذا إضافـة المال إلى ضمير المالـكين .

٣ – في الآية نهيان : إذ ﴿ **وتدلوا بها** ﴾ معطوفة على ﴿ **ولا تأكلوا** ﴾ . فهـي

مجزومة . النهي الأول : عن أكل الأموال بالباطل . والنهي الثاني : عن أكل الأموال بالباطل عن طريق الحكام . إما باستغلال ظاهر ، أو برشوةِ قاضٍ . وكل ذلك حرام . ولا تظهر التقوى بشيء كما تظهر بالتورع عن أكل الحرام . لأن النفس بطبيعتها تحب المال كثيراً . فإذا خالف الإنسان هواه في ذات الله ، فذلك علامة التقوى .

الفقرة الثالثة

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

أسباب النزول :

١ - قال معاذ بن جبل : يا رسول الله . ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلىء . ثُم لايزال ينقص حتى يعود كما بدأ ، لا يكون على حالة واحدة كالشمس . فنزل : ﴿ **يسألونك** ﴾ .

٢ - **عن جابر قال** : « كانت قريش تدعي الحمس . وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام . وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام ... » . وقال محمد بن كعب : كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت فأنزل الله هذه الآية .

وقال عطاء : كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم ، دخلوا منازلهم من ظهورها . ويرون أن ذلك أدنى إلى البر . فقال الله : ﴿ **وليس البر بأن تأتوا ...** ﴾ .

وقال الحسن البصري : كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً وخرج من بيته يريد سفره خرج له ، ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره ، لم يدخل البيت من بابه . ولكن يتسوَّره من قِبل ظهره . فقال الله تعالى : ﴿ **وليس البر بأن ...** ﴾ .

المعنى الحرفي :

﴿ **يسألونك عن الأهلَّة** ﴾ : عن أسباب انتقالها من حال إلى حال .وهذه قضية

كونية ، تُعرف من خلال دراسة الكون العلمية . والدين لم يأت ليعلِّم الناس قوانين الظواهر الكونية . بل ليعلِّم الناس عقائدهم وعباداتهم ، ومناهج حياتهم... ولذلك كان الجواب بما ينسجم مع طبيعة الرسالة ، ومهمة الرسول ، وتعليم القرآن . ﴿ **قل هي مواقيت للناس والحج** ﴾ : أي هي معالم . يؤقِّت بها الناس صومهم ، وعِدّة نسائهم ، وأيام حيضهن ، ومدة حملهن ، ومحالّ ديونهم ، وغير ذلك . كما أنها معالم للحج ، يعرف بها وقته . وربط العبادات الإسلامية بمظاهر كونية كالشمس والقمر أدعى إلى المعرفة السهلة وأبعد عن التلاعب من أي مصدر كان ﴿ **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها** ﴾ أي وليس البر بتحرجكم من دخول الباب في بعض أحوالكم , إذ هذه قضية غير معقولة المعنى ، وأعمال البر كلها معقولة المعنى . ﴿ **ولكن البر من اتقى** ﴾ : ما حرَّم الله . فهل حرَّم الله عليكم دخول البيوت من أبوابها . فإذا لم يفعل فليس ما تفعلونه براً . وهذه هنا من تمام تصفية التصرفات كلها حتى تكون أثراً عن اتباع كتاب الله وهداه .

﴿ **وأتوا البيوت من أبوابها** ﴾ : معناها ظاهر . ولكنها في سياقها تفيد ما قاله النسفي أي : وباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا . ﴿ **واتقوا الله** ﴾ : فيما أمركم به ، ونهاكم عنه . ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ : أي لتفوزوا في أمر دنياكم وأخراكم .

المعنى العام :

في الآية موضوعان : موضوع الأهِلَّة . وموضوع دخول البيوت من أبوابها . والصلة بينهما من وجهين رئيسيين :

أولاً : لما سألوا عن الأهلَّة كان الجواب كأنه ما يلي : معلوم أن كل ما يفعله الله تعالى لا يكون إلا لحكمة . فدعوا السؤال عن السبب . وانظروا في الحكمة ، ثم انظروا فيما هو أليق بكم كهذه الخصلة التي تفعلونها مما ليس من البر في شيء ، وأنتم تحسبونها براً .

ثانياً : لقد سألتم عن أسباب انتقال القمر من حال إلى حال . ولم ينزل الدين من أجل هذا . إذ سبيل هذا العلم بظواهر الكون من خلال التأمل والتجربة ومعرفة الأسباب . ففعلكم هذا يشبه إتيانكم البيوت من ظهورها . فكما أنكم أخطأتم هذا الموضوع بتصوّركم . فقد أخطأتم في سؤالكم . وكما أن الصواب أن تأتوا البيوت من أبوابها ، فكذلك الصواب فى هذا الموضوع أن تأتوا الأمور من وجوهها فتتعرفوا على ظواهر هذا الكون .

فالتقوى في هذا الموضوع ذات شقين : أن تعرفوا حكمة الأشياء . وهذا سبيله الدِّين . وأن تعرفوا حقيقة الأشياء الحسيَّة عن طريق ذلك . ووجهه وبابه الدراسة والتأمل والعلم الكوني .

فوائـد :

١ – أفادت الآية أن جميع أفعاله تعالى حكمة وصواب . فعلينا الاعتقاد بذلك من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك .

٢ – أخرج الحاكم في مستدركه وصححه قوله ﷺ :

« جعل الله الأهلَّة مواقيت للناس . فصوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته . فإن غُمَّ عليكم فعدوا ثلاثين يوماً » .

٣ – بمناسبة قوله تعالى عن الأهلة : ﴿ **قل هي مواقيت للناس والحج** ﴾ قال القرطبي : لا خلاف بين العلماء أن من باع معلوماً من السلع بثمن معلوم إلى أجل معلوم من شهور العرب ، أو إلى أيام معروفة العدد ، أن البيع جائز . وكذلك قالوا في السَلَم إلى الأجل المعلوم . واختلفوا في من باع إلى الحصاد أو إلى الدياس ، أو إلى العطاء وشبه ذلك .

فقال مالك : ذلك جائز لأنه معروف . وبه قال أبو ثور . وقال أحمد : أرجو أن لا يكون به بأس . وكذلك إلى قدوم الغزاة . وعن ابن عمر أنه كان يبتاع إلى العطاء .

وقالت طائفة : ذلك غير جائز ، لأن الله تعالى وقّت المواقيت ، وجعلها علماً لآجالهم في بيعاتهم ومصالحهم . كذلك قال ابن عباس ، وبه قال الشافعي والنعمان . قال ابن المنذر : قول ابن عباس صحيح .

٤ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وليس البرُ بأن تأتوا البيوت من ظهورها** ﴾ قال القرطبي : في هذه الآية بيان أن مالم يشرعه الله قربة ، ولا ندب إليه ، لا يصير قربة بأن يتقرب به متقرب . **قال ابن خويز منداد** : (إذا أشكل ما هو بر وقربة ، بما ليس هو بر ولا قربة أن ينظر في ذلك العمل . فإن كان له نظير في الفرائض والسنن ، فيجوز أن يكون ، وإن لم يكن فليس ببر ولا قربة . قال : وبذلك جاءت الآثار عن النبي ﷺ . وذكر حديث ابن عباس قال : « بينما رسول الله ﷺ يخطب ، إذا هو برجل قائم في

الشمس . فسأل عنه فقالوا : هو أبو إسرائيل . نذر أن يقوم ولا يقعد ، ولا يستظل ، ولا يتكلم ، ويصوم. فقال النبي ﷺ : مروه فليتكلم ، وليستظل ، وليقعد ، وليتم صومه » . فأبطل النبي ﷺ ما كان غير قربة مما لا أصل له في شريعته . وصحح ما كان قربة مما له نظير في الفرائض والسُنن) .

محل الآية في السياق العام :

رأينا أن السياق العام كله إما في شرح التقوى ، أو في بيان الطرق المؤدية إليها ، أو في تبيان آثارها .

وهذه الآية تصحح مفهومين خاطئين ، يمكن أن يقع فيهما الناس . والتقوى خلافهما :

المفهوم الأول : الخلط بين معرفة الحكمة ، ومعرفة القانون الكوني . والخلط بين مهمة الدين ، ومهمة العلم التجريبي والتأملي .

فجاءت الآية لتبيِّن أن معرفة الحكمة من خلق الأشياء جزء من الدين . وأما معرفة الأشياء الحسية ، فطريقها شيء آخر . فالدين يبيِّن الحكمة والحُكْم . وقد أعطاك الله أيها الإنسان ما تستطيع به أن تعرف الأشياء ، وتسخِّرها . فاسلك لذلك طريقه ضمن هداية الله إياك ، وتوجيهه ، وتنفيذ أوامره .

المفهوم الثاني : التصرف المعقَّد غير المعقول المعنى . يظنه بعض الناس ديناً . والدين ما نص عليه الشارع ، وما كلف به الإنسان ، لا ما اخترعه لنفسه ، سواء شدد على نفسه به أو رخَّص . فالآية في محلها إذن تصفية لقضية التقوى من التطلعات الخاطئة ، أو التصرفات الغالية .

فائدة في صلة هذه الآية بما بعدها من المقطع :

قال صاحب الظلال : والتسلسل في السياق واضح بين الحديث عن الأهلَّة ، وأنها مواقيت للناس والحج ، والحديث عن القتال في الأشهر الحرم ، وعن المسجد الحرام ، والحديث عن الحج والعمرة وشعائرهما .

كلمة في السياق :

تأتي الآن فقرة تتحدث عن القتال ، والإنفاق . وتأخذ هذه الفقرة محلها في تصحيح

التصورات عن التقوى . فكما حدث قديماً فسيحدث في هذه الأمة تصورات خاطئة عن التقوى . ومن نظر إلى مفاهيم الناس عن التقوى في عصرنا ، أدرك بعض أسرار هذا السياق فما أكثر الذين يفهمون أن التقوى لا صلة لها بقتال ، أو إنفاق ، أو علم ، أو جمع مال . ومن ثم فمجيء آيات القتال والإنفاق في سياق بناء التقوى . تقوى الأفراد والمجتمع واضح الملامح .

لاحظ الآن أن الأمر : ﴿ **وقاتلوا** ﴾ . وبعده الأمر : ﴿ **وأنفقوا** ﴾ وبعده الأمر ﴿ **وأتموا الحج والعمرة** ﴾ ومن قبل ﴿ **وأتوا البيوت من أبوابها** ﴾ . ومن قبل : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ . هذه الأوامر والنواهي جاءت بعد ثلاث مرات ذكرت فيها الكلمة : ﴿ **كُتب** ﴾ . ومن بعد ثلاث مرات ذكرت فيها قضية التقوى كهدف : ﴿ **لعلهم يتقون** ﴾ ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ . مما يشير إلى أن الأوامر والنواهي في هذا السياق لها صلة ببناء التقوى . تقوى الفرد وتقوى الأمة .

والملاحظ أنه يأتي ههنا أمر بالقتال . وفي القسم الثالث فيما بعد ستذكرفريضة القتال . فما السر في ذلك ؟ .

السر أن هذه آتية في سياق . وتلك في سياق . فتلك آتية في سياق إقامة الإسلام كله . فالإسلام لا يقوم بلا جهاد لتكون كلمة الله هي العليا ، سواء قاتلَنَا الناس أو لم يقاتلونا . أما هذه فآتية في سياق بناء التقوى . فلا تقوى لأحد بلا جهاد وإنفاق . ثم هذه خصت من يقاتلوننا بالذكر . فالأمر هنا لتحقيق فريضة عَينيَّة . وهناك لتحقيق فريضة كفائية . وليس الأمر كما فهمه بعضهم من أن القتال المشروع في الإسلام هو القتال الدفاعي . بل هو أحد أنواع القتال المفروضة .

« مقدمة في القتال »

كثيرون من الناس لا يفهمون النصوص ، ولا يمتلكون القدرة على فهمها . فتراهم يفهمون النصوص فهماً مبتسراً ، أو فهما خاطئاً ، فيعطلون العمل بنص غير منسوخ ويفهمون نصاً آخر فهما غير صحيح . ومن أكثر ما حدث في هذا الشأن ، ما حدث في فهم آيات القتال ، وآيات السلام .

فمثلا هناك قتال مفروض فرض عين ، وقتال مفروض فرض كفاية . وهناك حالات يجوز فيها السلام والعهد . وحالات لا يجوز . ويأتي أصحاب الفهوم الخاطئة ليلغوا

القتال المفروض فرض كفاية بحجة الآيات التي تذكر القتال المفروض فرض عين . ويحملون الآيات التي تجيز السلام على حالات لا يجوز فيها السلام .

فالقتال ابتداءً من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا فرض كفاية . والقتال إذا هو جمنا فرض عين . ثم إنه حيثما كنا قادرين على قهر خصمنا ، فلا نقبل منه إلا الحرب أو الجزية ، أو الإسلام . فإذا تساوت القوتان ، جاز السلام ، فإذا رجحت قوتهم جاز السلام كذلك على أن تكون النظرات التي تحكمنا نظرات إسلامية ، وسنرى ذلك كله تفصيلًا وإنما ذكرنا ذلك لأن الآيات التي بين أيدينا تحدثنا عما ينبغي فعله - إذا قوتلنا من قتال وسهر ومتابعة للعدو حتى نُخرجه من حيث أخرجنا ، وأن ننهي شوكته ليكون السلطان لله . وأنه يحق لنا أن نستعمل مع خصمنا الوسائل التي يستعملها معنا . فإن اعتدى بضرب القنابل على المدن الآمنة ، كان لنا أن نفعل ذلك معه ، هذا مع تبيان الأحكام الخاصة في القتال في الحَرم والأشهر الحرام . والآيات تبين أنه حيث أُخذت أرضنا فلا قرار . وحيث قوتلنا فمرحباً بالقتال . فالآيات هنا إذن تبين وضعاً من الأوضاع التي يمكن أن يواجهها المسلمون . وتبين لهم كيف ينبغي أن يواجهوها . وهناك آيات أخرى تبين أوضاعاً أخرى . ومهمة طالب العلم أن يحمل كل نص على الحالة التي ينطبق عليه النص . فلنر الفقرة الرابعة على ضوء المقدمة .

الفقرة الرابعة

وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ

قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

كلمة في هذه الفقرة :

بين الكلام عن القتال والإنفاق صلة . لاحتياج القتال إلى مال . وقد جاءت آية الإنفاق بين آيات القتال ، وآيات الحج . والحج نوع جهاد ، ويحتاج إلى مال . وقد جاءت آيات القتال ، وآية الإنفاق لتصفي قضية التقوى من التصورات الخاطئة - كما فعلت الآية السابقة على هذه الفقرة - ولتعطي المسلم التصورات الصحيحة عن التقوى ، ولتوجهه إلى التقوى في كل حال . في سلمه وحربه . إن هناك تصورات كثيرة خاطئة تصححها هذه الآيات . منها : أن يظن الإنسان أن من التقوى ألا يقاتل ، وألا يُقدِّم إلا السلام للآخرين في كل حال .

ومنها : أن يظن الإنسان أن التقوى لا يرافقها غَلَبة ، ولا نصر ، ولا ظهور .

ومنها : أن يركن الإنسان إلى السلام ، والعمل ، والأمن ، والحين حين جهاد . إن آيات هذه الفقرة جاءت لتصحيح ذلك كله ، وتصحيح غيره . كما أنها تعطينا بياناً وهداية في شؤون كثيرة .

المعنى :

﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم** ﴾ : أي قاتلوا الذين يناصبونكم القتال دون مَنْ ليس من أهل المناصبة من الشيوخ ، والصبيان ، والرهبان ، والنساء ، وليكن قتالكم في سبيل الله ، لا في سبيل غيره . ومن سبيل الله في القتال ، أن يكون القتال لتكون كلمة الله هي العليا فقط . ﴿ **ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ : أي لا تعتدوا في قتالكم ، بارتكاب ما نُهيتم عنه في القتال ، من المثلة ، وقتل النساء ، والصبيان ، والشيوخ ، الذين لا رأي لهم ، ولا قتال فيهم ، والرهبان وأصحاب

الصوامع ، وتحرِيق الأشجار ، وقتل الحيوان لغير مصلحة ، والغلول . فكل ذلك تجاوز لأمر الله في القتال ، واعتداء . والله لا يحب المعتدين ، الذين يتجاوزون حدوده . هذا الاتجاه في تفسير الآية هو الذي رجحه ابن كثير ، وردّ الاتجاه الذي يقول إن هذه الآية منسوخة . ذكر ابن كثير : (عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم** ﴾ : قال : هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة . فلما نزلت ، كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله . ويكفّ عمن كفّ عنه ، حتى نزلت سورة براءة . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، حتى قال – أي الرازي – هذه منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ . (سورة التوبة) وفي هذا نظر . لأن قوله تعالى : ﴿ **الذين يقاتلونكم** ﴾ : إنما هو تهييج، وإغراء بالأعداء الذين همهم قتال الإسلام وأهله . أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم) .

ثم استشهد ابن كثير بالآية التالية للآية الأولى على صحة ما ذهب إليه بعدم النسخ : ﴿ **واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم** ﴾ . فهي تشبه الآية التي قيل عنها إنها ناسخة ، وهي قوله تعالى : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ . يبقى أن يقال : إن هذه الآية قد يفهم منها معنى زائد على آية براءة . وهو أن الذين يناجزوننا القتال ، يُقدَّم قتالهم على غير المناجزين ، مع حِل قتال الجميع وإذ يقاتل المسلمون الكفرة غير المعاهدين ، فلا اعتداء . والآية على هذا الفهم فيها أمر بقتال كل كافر غير معاهد . لأن كل كافر إنما هو مقاتل لنا إن استطاع . وعلى كلٍّ فإن قتال من يقاتلنا فريضة والآية نص في ذلك وهي ليست منسوخة .

أحاديث :

١ – روى الإمام مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اغزوا في سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الوليد ، ولا أصحاب الصوامع » .

٢ – في الصحيحين عن ابن عمر قال : « وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة . فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان » .

٣ – **قال** ﷺ : « إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة . قاتلهم أهل تَجبر وعداوة فأظهر الله أهل الضعف عليهم . فعمدوا إلى عدوِّهم ، فاستعملوهم ، وسلَّطوهم

فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة » رواه الإمام أحمد . قال ابن كثير : هذا حديث حسن الإسناد . ومعناه أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء ، فاعتدوا عليهم ، واستعملوهم فيما لا يليق بهم ، أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء . اهـ . كلام ابن كثير . لكني أفهم من الحديث أن الكافر إذا ظهَرتَ عليه فلا تسلمه مقاليد الأمور ، ولا تستعمله على المسلمين . فإذا فعلت فإنك تستحق سخط الله .

وههنا أسئلة :

إذا كان الراهب ، أو المرأة ، أو الشيخ ، أو الصبي يشارك في المعركة برأيه ، أو بفعله ، فما حكم قتله ؟ الفتوى على جواز القتل .

بعض العمليات الفدائية المعاصرة قد يقتل فيها النساء ، والشيوخ والأطفال تبعاً بسبب أنها تكون عن طريق التسلل والخفاء ، لعدم التكافؤ بين المسلمين وعدوهم . فما حكم ذلك ؟ . الفتوى على الجواز إذا تعيَّن ذلك طريقاً للصراع مع الكفر وأهله .

في الحرب الحديثة نرمي العدو من بُعد . فنرمي مُدُنه ، ومُستعمراته ، وقُراه . فما حكم ذلك ؟. الفتوى على الجواز إن كان هو يفعل بنا ذلك أو يستحلُّه ويعمل له .

وهناك أسئلة كثيرة أخرى يمكن أن تُثار بمناسبة الحديث عن القتال في عصرنا . وأدبنا في هذا التفسير ألا نستقصي المسائل حرصاً على الاختصار. ولأن هذا التفسير جزء من سلسلة الأساس في المنهج التي منها (الأساس في السنَّة وفقهها) وهناك معنا أجوبة على الكثير من المسائل . فللتنويه بذلك أشرنا هذه الإشارة .

﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ : أي حيث وجدتموهم . والثقف : الوجود على وجه الأخذ والغلَبة ﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ : أخرجوكم من مكة ، فأخرجوهم منها . وأخرج اليهود فى عصرنا المسلمين من فلسطين . فليخرجوهم منها . قال ابن كثير : (أي لتكن همتكم منبعثة على قتالهم ، كما همتهم منبعثة على قتالكم . وعلى إخراجهم من بلادكم التي أخرجوكم منها قصاصاً) .

يفهم من هذا أن المسلم لا يستكين . فإذا أراد عدو الله أن يؤذيه ، أو أراد به شراً من أجل أن يميت فيه روح الإسلام فإنه يقابل ذلك بما يكافئه . ولمَّا كان ما أمر الله به في هذه الآية فيه إزهاق النفوس ، وقتل الرجال . نبَّه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه

من الكفر بالله والشرك به ، والصدّ عن سبيله والعمل على تكفير أهل الإيمان وفتنتهم عن دينهم أبلغ وأشد ، وأعظم ، وأطم من القتل . فمن استعظم أن يقتل أعداء الله الذين يكفّرون المسلمين وذراريهم فإنه لم يعرف دين الله لذلك قال تعالى بعد ما تقدم : ﴿ **والفتنة أكبر من القتل** ﴾ : أي وإقامتهم على شركهم وكفرهم ، وإنزالهم المحنة والبلاء بأهل الإيمان لإيمانهم ، أعظم من القتل الذي يحل بهم منكم . ﴿ **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه** ﴾ : أي لا تبدؤا بقتالهم في الحرم حتى يبدؤا .

وفي الآية دليل لمن ذهب إلى أن المسجد الحرام يقع على الحرم كله . ﴿ **فإن قاتلوكم فاقتلوهم** ﴾ : فإن بدأوكم بالقتال فيه فلكم حينئذٍ قتالهم ، وقتلهم . ﴿ **كذلك جزاء الكافرين** ﴾ : القتل . نفهم من ذلك أن الكفر جريمة . بل هو أعظم الجرائم على الإطلاق . ومن ثم جاز لنا أن نقاتل الكافرين ابتداءً لارتكابهم أكبر جريمة على الإطلاق ، وهي الكفر . كما جاز لنا قتلهم ابتداءً إلّا أن يسلموا ، أو يخضعوا بدفع الجزية ، إلا وثنيي العرب . فإنهم لا يقبل منهم إلا الإسلام ، أو القتل . ﴿ **فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ : أي فإن انتهوا عن الشرك والقتال ، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة ، فإن الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله تعالى . فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، إلا ما إستثناه من الشرك . فهو غفور لما سلف من طغيانهم ، رحيم بقبول توبتهم وإيمانهم . ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ : أي شرك وكفر غالبان ، ظاهران ، عاليان . بحيث يقدران على فتنة المسلم عن دينه . ﴿ **ويكون الدين لله** ﴾ : أي يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان .

فبالله هل نحن مسلمون حقاً ، والكفر والشرك ، والفتنة هم الأعلون . والإسلام وأهله هم الأضعفون . ولا قتال ، ولا جهاد ؟.

﴿ **فإن انتهوْا فلا عدوان إلا على الظَّالمين** ﴾ قال عكرمة وقتادة : الظالم الذي أبى أن يقول لا إله إلّا الله . فصار معنى الآية : فإن امتنعوا عن الكفر فلا تقاتلوهم فإنه لا عدوان إلا على الظالمين . ولم يبقوا ظالمين بعد أن أسلموا . سمى جزاء الظالمين عدواناً للمشاكلة ، من باب ﴿ **من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه** ﴾ . وفي قوله تعالى : ﴿ **فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾ أكبر رد على من فهم أن قوله تعالى : ﴿ **ولا تعتدوا** ﴾ في أول هذه الآيات أن المراد بها تبدؤوا غيركم بالقتال . ثم فهم الآيات كلها بأن المراد منها ، القتال الدفاعي فقط .

في الصحيحين عنه ﷺ « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . فإذا قالوها عصموا منِّي دماءهم وأموالهم إلا بحقها . وحسابهم على الله » .

وهذا في مشركي العرب خاصة . أما غير مشركي العرب ، فالقتال ، أو الإسلام ، أو الجزية كما سنرى في محله . ولا شك أن المراد بالسياق من خلال أسباب النزول قريش أولا ولكن كما هو معلوم فإن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ .

فائــدة :

من تطبيقاته ﷺ لقوله تعالى : ﴿ **فلا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه** ﴾ ما حدث يوم الحديبية ، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يقاتل ولم ينوِ القتال حتى بلغه إشاعة مقتل عثمان ، فعندئذٍ بايع أصحابه على القتال تحت الشجرة ، خاصة بعد أن اتضح تألب قريش ، ومن والاهم على قتاله . ثم تمَّ صلح الحديبية . وتبين أن عثمان لم يقتل ولم يكن قتال .

حديث : جاء في الصحيحين عنه ﷺ : « إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض . فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . ولم يحل إلا ساعة من نهار . وإنها ساعتي هذه ، حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . ولا يعضد شجره ، ولا يختَلى خلاه . فإن أحد ترخَّص بقتال رسول الله فقولوا إن الله أذن لرسوله ، ولم يأذن لكم » .

فمن فهم هذا الحديث ، وعرف أن المشركين هم الذين بدأوا بالقتال في المسجد الحرام إذ قتلوا حلفاء رسول الله ﷺ بني خزاعة . عرف كيف يطبق هذه الآيات على الوضع الخاص في زمنه ﷺ . وكيف يجمع بين قوله تعالى : ﴿ **وأخرجوهم من حيث أخرجوكم** ﴾ وبين ﴿ **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه** ﴾ . فالحرم له أحكامه الخاصة ولرسوله ﷺ خصوصياته . والأمر : ﴿ **أخرجوهم** ﴾ عام . ويدخل فيه الحرم بالنسبة لرسول الله ﷺ وحده . وقوله تعالى : ﴿ **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام** ﴾ عام استثني منه رسول الله ﷺ .

﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام** ﴾ : أراد المشركون القتال قبيل صلح الحديبية في الشهر الحرام وهو ذو العقدة . ثم تمَّ الصلح . وكان من جملة بنوده ، أن يرجع المسلمون عامهم ذاك ويعتمروا في عام لاحق . فلما خرج المسلمون لعمرة القضاء . وكان ذلك في ذى القعدة أيضاً . وقريش هي قريش . أنزل الله هذه الآية مبيناً فيها أن

هذا الشهر بذلك الشهر ﴿ **والحرمات قصاص** ﴾ : أي وهتكه بهتكه . يعني تهتكون حرمته عليهم كما هتكوا حرمته عليكم إذ كل حرمة يجري فيها القصاص . فمن هتك حرمة ، أي حرمة كانت ، اقتص منه بأن تهتك له حرمة . فحين هتكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك . ولا تبالوا . وهذا كله مع الالتزام بالعهود ، والوعود ، والاستقامة على أمر الله . ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ . أي فعاقبوه بعقوبة مماثلة لعدوانه ، بعدوان مثل عدوانه . ﴿ **واتقوا الله** ﴾ : في كل حال . وفي حال كونكم منتصرين على من اعتدى عليكم . فلا تعتدوا إلى مالا يحل لكم . ﴿ **واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ : بالنصر ، والتأييد في الدنيا والآخرة .

فوائـد :

١ - اتجه بعضهم إلى أن قوله تعالى : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ نزل بمكة . وأنه منسوخ بآية القتال . وقد رد هذا القول ابن جرير . وقال : بل الآية مدنية بعد عمرة القضاء . وعزا ذلك إلى مجاهد رحمه الله .

٢ - أخرج الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال :

« لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام ، إلا أن يُغزىٰ ، وتغزوا . فإذا حضره أقام حتى ينسلخ » . قال ابن كثير . هذا إسناد صحيح .

والذي يبدو أن رسول الله ﷺ كان يفعل هذا مراعاة لأعراف سائدة بما لا يعطل قضية الجهاد . وبما لا تتضرر منه مصلحة المسلمين .

٣ - نفهم من قوله تعالى : ﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص** ﴾ : أنه إذا خالف غير المسلمين عُرفاً عاماً فإن المسلمين في هذه الحالة يستطيعون أن يردوا بالمثل . و نتساءل الآن في عصرنا بعد أن أصبح صاحب الضربة الأولى هو المنتصر هل ينتظر المسلمون الضربة الظالمة إذا تأكدوا من وجودها ؟ وهل تكفير أبنائنا الذي هو أشد من القتل يبيح لنا قتل أبناء الذين يكفرونهم إذا كانوا غير بالغين كنوع من أنواع الضغط على الكافرين ليراجعوا خططهم وطريقهم ؟ الجواب على السؤالين :

﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلُكة** ﴾ : التهلُكة والهلاك والهلك واحد . وفي هذا النص أمر ونهي . أمر بالإنفاق في سبيـل الله فدخل في ذلك التصدق

للجهاد وغيره . وأما النهي عن إهلاك النفس . فإذا نظرنا إلى النص مجرداً كان له معنى . وإذا نظرنا إليه من خلال الآية التي هو فيها ، أعطانا معنى آخر . وإذا نظرنا إليه أنه جزء من السياق أعطانا معنى جديداً . وكل هذه المعاني مرادة . وكلها قد ذكرها أئمة التفسير عند شرح هذه الآية . فإذا نظرنا إلى النص مجرداً فهمنا منه أنه نهي عن قتلنا أنفسنا . أي لا تقتلوا أنفسكم بأيديكم كما يقال : أهلك فلان نفسه بيده . إذا تسبب لهلاكها . وهل يدخل في ذلك لو أن الإنسان أمر المسلمين بمعروف ، أو نهاهم عن منكر فقتلوه ؟. الجواب : لا . بل هو مأجور . نص على ذلك فقهاء الحنفية . وهل يدخل في إلقاء النفس إلى التهلكة لو أن إنساناً هجم على الكافرين ملقياً نفسه عليهم فقتلوه ؟ .

قال الحنفية : إن كان بعمله هذا ينكي فيهم ، ويلقي الرعب في قلوبهم فهو مأجور . ولا يدخل في النهي . وإن كان لا ينكي فيهم بل يزيد من جرأتهم على المسلمين فلا يحل له ذلك . ويدخل في النهي .

وإذا نظرنا إلى هذا النهي وروده بعد الأمر بالإنفاق ، فهمنا منه أنه نهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله . لأنه سبب للهلاك . ذهب إلى ذلك كثير . أخرج البخاري عن حذيفة في الآية قال : « نزلت في النفقة » . وقال ابن عباس في الآية : « قال ليس ذلك في القتال . إنما هو في النفقة أن تمسك بيدك عن النفقه في سبيل الله . ولا تلقي بيدك إلى التهلكة ». وعن الضحاك بن أبي جبير قال : « كانت الأنصار يتصدقون وينفقون من أموالهم ، فأصابتهم سَنَة ، فأمسكوا عن النفقة في سبيل الله، فنزلت : **﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلُكة ﴾** ؛ وقال الحسن البصري : **﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾** : قال : « هو البخل ».

وإذا نظرنا إلى هذا النهي من خلال وروده بعد آيات القتال ، فهمنا منه أنه نهي عن ترك الجهاد . وأن ترك الجهاد هو الهلاك . وهكذا فسَّرها أبو أيوب الأنصاري . روى أبو داود والترمذي والنسائي عن أسلم أبي عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه . ومعنا أبو أيوب الأنصاري فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلُكة . فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية . إنما نزلت فينا . صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ، ونصرناه . فلما فشا الإسلام ، وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تحبباً . فقلنا قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه حتى فشا الإسلام وكثر أهله . وكنا قد آثرناه على الأهلين ، والأموال ، والأولاد . وقد

وضعت الحرب أوزارها . فنرجع إلى أهلينا ، وأولادنا فنقيم فيهما . فنزل فينا : ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلُكة** ﴾ . فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال ، وترك الجهاد) .

وقد لاحظنا أن هذه الاتجاهات الثلاثة الرئيسية في فهم هذا النص ، سببها ملاحظة النص مجرداً ، أو السياق القريب ، أو السياق العام . وهذا قد يكون أبرز مثال من خلال كلام أئمة التفسير لما حاولنا إبرازه سابقاً من أن هذا القرآن معانيه لا تتناهى . فمن خلال المعنى المجرد للنص ، ومن خلال السياق القريب ، والسياق العام ، والوحدة القرآنية ، ومن خلال عبارة النص ، ومن خلال إشارة النص ، تتولد معاني لا تتناهى . وكلٌّ يأخذ من كتاب الله على قدر ما قسمه الله له وهذه المعاني كلها حق . فما أكثر جناية من كفر بهذا القرآن .

وهناك اتجاهان آخران في فهم قوله تعالى : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلُكة** ﴾ : اتجاه يُفهم من خلال النص المجرد واتجاه من خلال السياق القريب .

الاتجاه الأول : تفسير الهلاك بالهلاك الأخروي . وذلك بالذنب ، والاستمرار عليه . وهو تفسير النعمان بن بشير رضي الله عنه . قال : « إنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يُغفَر له . فيلقي بيده إلى التهلكة . أي يستكثر من الذنوب فيهلك ». وكذلك فسَّرها البراء قال : « ولكن التهلُكة ، أن يذنب الرجل الذنب . فيلقي بيده إلى التهلكة ولا يتوب ».

والاتجاه الثاني : ذكره النسفي من جملة الأقوال في تفسير النهي في الآية . فقال : والمعنى : النهي ... عن الإسراف في النفقه حتى يُفقر نفسه ، ويضيع عياله . وكأنه أخذه من السياق . ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلُكة** ﴾ .

﴿ **وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** ﴾ ، والإحسان فسَّره رسول الله ﷺ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . والإحسان فعل الحسن والأحسن . فالأمر بالإحسان هنا يقتضي أن ننفق ، وأن نجاهد ، وأن يكون ذلك بإتقان وإحسان مع الإخلاص لله والمراقبة .

المعنى العام للآية :

أمر الله عز وجل المؤمنين في هذه الآية بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه

القربات ، ووجوه الطاعات . وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء ، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم . ونهاهم عن البخل وترك الجهاد . إذ بذلك هلاكهم وقوة عدوهم عليهم . ثم عطف الأمر بالإحسان . وهو من أعلى مقامات الطاعة . وبذلك انتهت هذه الفقرة . لتبدأ فقرة جديدة مضمونها الحج والعمرة .

وقد تحدثنا في ابتداء هذه الفقرة ، عن محل هذه الفقرة في السياق العام . وأنه تصحيح لمفاهيم خاطئة عن التقوى . وقد رأينا ذلك من خلال الشرح . ونقول هنا : إن هذه الفقرة جزء من الهدى الذي أنزله الله فى كتابه لهداية المؤمنين ، في شؤونهم كلها . ومن صفات المتقين أنهم يهتدون بهذا القرآن . فلا تقوى إلا بقتال ، وإنفاق ، وعمل مكافىء لعمل أعداء الله ضدنا ، وانتقام من أعداء الله ، وبذل جهد لنُصرة دين الله ، ومن لم يفهم التقوى كذلك لم يفهم كتاب الله .

فوائــد :

١ - في تعامل المسلمين مع بعضهم ، هناك مقامان . مقام العدل ، ومقام الفضل . فمن ضربك من المسلمين ، جاز لك أن تقتص منه . والأولى أن تعفو رحمة وفضلا . إلا إذا أصبحت الإساءة خُلقاً لصاحبها ، فالأولى الانتصار منه . كما نص على ذلك ابن العربي . وأما في تعاملنا كأمَّة مع أعداء الله ، إذا كنا نمتلك القدرة ، فمقام واحد ، الرد بالمثل : ﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ . وهذا حيث لا نستطيع الإخضاع ابتداءً من خلال الجهاد .

٢ - ستتضح لنا قضية القتال في الإسلام من خلال النصوص شيئاً فشيئاً . وسنرى كيف يحمل كل نص على ما يدخل فيه . وههنا نقول كلمة باختصار : لقد كلِّفت هذه الأمة أن تبذل جهداً متواصلا لإقامة دين الله في العالم كله . وهذا من الفرائض بحسب الاستطاعة . وقد توجد ظروف غير مكافئة ، يكون المسلمون فيها ضعفاء ، فلهم في هذه الحالة ألا يقاتلوا . ولكن إذا هوجمت أراضيهم ، فلابد من القتال . وتختلف شدة الفرضية فيما إذا كان وراءهم أحد ، أم لا ؟ فالحالة الثانية أشدّ في الفرضية . فلابد في هذه الحالة من القتال . ويصبح القتال في هذه الحالة فرض عين على كل قادر رجلا كان أو امرأة . وفي هذه الحالة لا يشترط التكافؤ ولا غيره ، ولا يصح للإنسان الفرار ، ولو كان أعداء الإسلام أضعاف أضعافه ، على خلاف حالة الهجوم ، وحالة ما إذا كان

وراءنا من نتحيز له . والأمر دقيق سنراه في محله . والتضحيات في هذه الحالة لا تضيع . لأن مثل هذا يعطي الكافرين دروساً في ألا يدخلوا مع المسلمين في تجربة .

٣ - عند قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم** ﴾ يقول صاحب الظلال : (إنه القتال لله ، لا لأي هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها الطويلة . القتال في سبيل الله . لا في سبيل الأمجاد ،والاستعلاء فى الأرض ، ولا فى سبيل المغانم والمكاسب ، ولا فى سبيل الأسواق والخامات ، ولا في سبيل تسويد طبقة على طبقة ، أو جنس على جنس . إنما هو القتال لتلك الأهداف التي من أجلها شُرع الجهاد في الإسلام . القتال لإعلاء كلمة الله في الأرض ، وإقرار منهجه في الحياة ، وحماية المؤمنين به أن يُفتَنوا عن دينهم ، أو أن يجرفهم الضلال والفساد . وما عدا هذه ، فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام ، وليس لمن يخوضها أجر عند الله ، ولا مقام) .

٤ - رأينا أنه من المستثنين من الأمر بالقتال ، الذين لا يقاتِلون . فدخل فى ذلك أصناف من الناس . وفي هؤلاء الأصناف يقول القرطبي :

(والقتال لا يكون في النساء ، ولا في الصبيان ، ومن أشبههم ، كالرهبان والزمنى ، والشيوخ ، والأجراء ، فلا يُقتلُون . وبهذا أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه يزيد ابن أبي سفيان حين أرسله إلى الشام . إلا أن يكون لهؤلاء إذاية . أخرجه مالك وغيره . وللعلماء فيهم صورٌست :

الأولى : النساء . إن قاتلن ، قُتلن ، قال سحنون : في حالة المقاتلة وبعدها . لعموم قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم** ﴾ ﴿ **واقتلوهم حيث ثقفتموهم** ﴾ . وللمرأة آثار عظيمة في القتال . منها الإمداد بالأموال ، ومنها التحريض على القتال . وقد يخرجن ناشرات شعورهن ، نادبات مثيرات معيِّرات بالفرار . وذلك يبيح قتلهن . غير أنهن إذا حصلن فى الأسر ، فالاسترقاق ، أنفع لسرعة إسلامهن ورجوعهن عن أديانهن . وتعذّر فرارهن إلى أوطانهن بخلاف الرجال .

الثانية : الصبيان . فلا يقتلون للنهي الثابت عن قتل الذريَّة ، ولأنه لا تكليف عليهم ، فإنْ قاتل الصبي قُتل .

الثالثة : الرهبان لا يُقتلون ولا يُسترقون . بل يترك لهم ما يعيشون به من أموالهم .

وهذا إذا انفردوا عن أهل الكفر . لقول أبي بكر ليزيد . (وستجد أقواماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله . فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له) . فإن كانوا مع الكفار في الكنائس ، قتلوا . ولو ترهَّبت المرأة ، فروى أشهب أنها لا تُهاج . وقال سحنون : لا يغيّر الترهب حكمها . قال القاضي أبو بكر بن العربي : والصحيح عندي رواية أشهب ، لأنها داخلة تحت قوله : فذرهم وما حَبسوا أنفسهم له .

الرابعة : الزَّمنى . قال سحنون : يُقتلون . وقال ابن حبيب : لا يُقتلون . والصحيح أن تعتبر أحوالهم . فإن كانت فيهم إذاية قتلوا ، وإلا تركوا وما هم بسبيله من الزمانة ، وصاروا حالا على حالهم وحشوة .

الخامسة : الشيوخ . قال مالك في كتاب محمد : لا يُقتلون . والذي عليه جمهور الفقهاء : إن كان شيخاً كبيراً ، هَرِماً ، لا يطيق القتال ، ولا يُنتفع به في رأي ، ولا مدافعة ، فإنه لا يقتل . وبه قال مالك ، وأبو حنيفة . وللشافعي قولان : أحدهما ، مثل قول الجماعة . والثاني : يقتل هو والراهب . والصحيح الأول . لقول أبي بكر ليزيد ولا مخالف له . فثبت أنه إجماع . وأيضاً فإنه ممن لا يقاتِل ، ولا يُعين العدو . فلا يجوز قتله كالمرأة . وأما إن كان ممن تُخشى مضرَّته بالحرب أو الرأي ، أو المال فهذا إذا أُسِرَ يكون الإمام فيه مخيراً بين خمسة أشياء : القتل ، أو المن ، أو الفداء ، أو الاسترقاق ، أو عقد الذمة على أداء الجزية .

السادسة : العُسفاء . وهم الأجراء والفلاحون . فقال مالك في كتاب محمد : لا يقتلون . وقال الشافعي : يُقتل الفلاحون ، والأجراء ، والشيوخ ، والكبار ، إلا أن يُسلموا ، أو يؤدوا الجزية . والأول أصح . لقوله ﷺ في حديث رباح بن الربيع : « الحق بخالد بن الوليد ، فلا يَقْتُلَنّ ذريَّة ، ولا عسيفاً » . وقال عمر بن الخطاب : « اتقوا الله في الذريَّة والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب » . وكان عمر بن عبد العزيز لا يقتل حرَّاثاً . ذكره ابن المنذر .

وحتى لا يُدخِل أحدٌ أصنافاً يجب قتلهم في هؤلاء الذين مُنعنا من قتلهم .

يقول القرطبي :

(فأما المرتدون ، فليس إلا القتل أو التوبة . وكذلك أهل الزيغ والضلال . ليس إلا السيف أو التوبة . ومن أسرّ الاعتقاد بالباطل ، ثم ظهر فهو كالزنديق ، يقتل ولا يستتاب . وأما الخوارج على أئمة العدل ، فيجب قتالهم حتى يرجعوا إلى الحق)

٥ - في قوله تعالى : ﴿ **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه** ﴾ : يقال : إن هذه الآية تنطبق على حالة مضت وانقضت . وهي حالة كون مكة دار حرب في أول الإسلام . أما الآن ، فالإجماع قد تقرر بأن عدواً لو استولى على مكة وقال لأقاتلنكم وأمنعكم من الحج ، ولا أبرح من مكة . فقد وجب قتاله ، وإن لم يبدأ بالقتال .

٦ - عند قوله تعالى : ﴿ **والحُرمات قصاص** ﴾ : قال الألوسي : (واستدل الشافعي بالآية على أن القاتل يقتل بمثل ما قَتل به من محدد ، أو خنق ، أو حرق ، أو تجويع ، أو تغريق ، حتى لو ألقاه في ماء عذب ، لم يُلقَ في ماء ملح . واستدل بها أيضاً على أن من غصب شيئاً يلزمه رد مثله . ثم إن المِثل قد يكون من طريق الصورة ، كما في ذوات الأمثال . وقد يكون من طريق المعنى ، كالقيمة فيما لا مِثل له) .

وبمناسبة هذه الآية ذكر القرطبي مسألة ما إذا كان لإنسان حق عند آخر والآخر يجحده . فهل يحق لصاحب الحق إذا وقع بيده مال للآخر ، سواء كان من جنس ماله ، أو من غير جنسه ، أن يأخذ صاحب الحق حقه دون علم الآخر ، حتى ولو كان المال أمانة عنده ؟ . ذكر القرطبي الأقوال في ذلك وذكر من جملة من جوَّز الأخذ ، الشافعي . أقول : والفتوى عند الحنفية على ذلك .

٧ - عند قوله تعالى : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلُكة** ﴾ . قال القرطبي : (وقال محمد بن الحسن : لو حمل رجل واحد على ألف رجل من المشركين وهو وحده ، لم يكن بذلك بأس إذا كان يطمع في نجاة ، أو نكاية في العدو . فإن لم يكن كذلك فهو مكروه . لأنه عرَّض نفسه للتلف في غير منفعة للمسلمين ، فإن كان قصده تجرئة المسلمين عليهم حتى يصنعوا مثل صنيعه ، فلا يبعد جوازه ، ولأن فيه منفعة للمسلمين على بعض الوجوه ، وإن كان قصده إرهاب العدو وليعلم صلابة المسلمين في الدين فلا يبعد جوازه ، وإذا كان فيه نفع للمسلمين ، فتلفت نفسه لإعزاز دين الله ، وتوهين الكفر فهو المقام الشريف الذي مدح الله به المؤمنين في قوله ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم** ﴾ الآية (سورة التوبة) . إلى غيرها من آيات المدح التي مدح الله بها من بذل نفسه . وعلى ذلك ينبغي أن يكون حكم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أنه متى رجا نفعاً في الدين فبذل نفسه فيه حتى قُتل ، كان في أعلى درجات الشهداء . قال الله تعالى : ﴿ **وأمر بالمعروف وانهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إن**

ذلك من عزم الأمور ﴾ (سورة لقمان) .

وقد روى عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب . ورجل تكلم بكلمة حق عند سلطان جائر فقتله » .

٨ - عند قوله تعالى : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ . قال الألوسي :

(واستدل بالآية على تحريم الإقدام على ما يخاف منه تلف النفس ، وجواز الصلح مع الكفار والبغاة إذا خاف الإمام على نفسه ، أو على المسلمين) .

الفقرة الخامسة :

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

كلمة في الفقرة والسياق :

١ – بهذه الفقرة المعدودة الآيات عرض علينا القرآن موضوع المناسك وقد مرّ معنا من قبل كيف أن إبراهيم وإسماعيل دعوا الله عز وجل : ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ . وهذا ربنا يتفضل على ذريَّة إبراهيم وإسماعيل وعلى العالم كله فيريهم مناسك الحج والعمرة . ويدلهم مع ذلك على أحكام ، ويهديهم إلى آداب ، ويبيّن لهم حِكماً كثيرة ويذكرهم . وكل ذلك في آيات معدودات تَسع مالا يخطر على بال بشر . وبشكل معجز لا يتطاول إليه أحد من البشر – إلا إذا كان مجنوناً أو كالمجنون .

٢ – في الآيات أمر بإتمام الحج والعمرة . وإذن فهناك أمور واضحة ، متى ذكر الحج والعمرة فهي معروفة . ومن ثَمَّ فالآية تأمر بالإتمام . وهذا يوحي بأن المعاني الآتية ، لها صلة بهذا الإتمام ، ومن الإتمام إيقاع الحج في أشهر الحج . ومن الإتمام الوقوف بالمزدلفة بعد الإفاضة من عرفات ، ومن الإتمام أن تكون الإفاضة من عرفات بعد الوقوف بها . لا كما كانت قريش تفعل ، ومن الإتمام ألا يرافق الحج رفث ، أو جدال ، أو فسوق ، ومن الإتمام الاستغفار والدعاء فى أمر الدنيا والآخرة ، وكثرة الذكر ، ومن الإتمام إقامة أيام منى بأداء حق الله فيهن وفي منى .

٣ - ومن الآيات عرفنا أشياء كثيرة . كجواز التمتع ، وماذا يفعل المحصر ، وماذا يفعل المتمتع ، ولمن يجوز التمتع . وعرفنا جواز التجارة في الحج . وبعض عادات الجاهلية ، وجواز التعجل فى النفر من منى . وعرفنا كثيراً من الآداب والأخلاق . وكل ذلك بعض ما في هذه الفقرة التى تشرح بعض معالم الرحلة إلى كعبة إبراهيم ، وتبيّن كثيراً من معالم الحكمة في شريعة الحج ، حيث يتجمع المسلمون في عرفات ، لينطلقوا منها في أعظم مظاهرة لتعظيم بيت الله . معلنين الحرب قبل ذلك على الشر في رجمهم المكان الذي وسوس فيه الشيطان لأبينا إبراهيم عليه السلام .

٤ - وإذا كنا ذكرنا من قبل أن مقاطع القسم الأول مهدت لمعاني القسم الثاني . فإن باستطاعتنا هنا أن نذكر أن مقطع إبراهيم عليه السلام ، ومقطع القبلة ، والمقطع الذي جاء فيه ذكر الصفا والمروة . كل ذلك قد وطّأ لهذه الفقرة التى كانت بدايتها : ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ . وإن البداية لتشعرنا وكأنها استمرار لحديث سابق .

٥ - والمناسبة بين هذه الفقرة وما قبلها واضحة كوضوح المناسبة بين الحج والقتال . فالقتال يحتاج إلى بذل جهد ومال . والحج بذل جهد ومال . وتجد الصلة بين الحج والجهاد في كثير من النصوص من مثل : « ولكن أفضل الجهاد حج مبرور » .

أما محل هذه الفقرة في السياق الكبير فدقيقة جداً .

من المعلوم أن الإسلام أركان وبناء .

فالأركان : الشهادتان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج . والبناء أحكام الإسلام . وتفصيل ذلك في أول كتابنا (الإسلام) .

وقد بدأت سورة البقرة بذكر أركان ثلاثة . الإيمان بالغيب ، والصلاة ، والإنفاق . وذكرت أن القرآن هو الهدى للمتقين . فذكرت من الأركان ، وذكرت الأصل في البناء .

وسارت السورة لتعمق هذا وهذا . وذكرت الصوم في بداية هذا المقطع كطريق للتقوى .

فزادت ركناً رابعاً . وبنت عليه بعد ذلك قضايا في الأموال ، والتصورات ، والسلوك ، والجهاد . ليأتي الركن الخامس في نفس القسم الذي ذكر فيه الصوم . ففي

جولة من السورة ، ذكرت ثلاثة أركان ، وبناء . وفي جولة أخرى ذكر ركنان ، وبناء . ليتضح الإسلام كله شيئاً فشيئاً ، ولتتضح التقوى شيئاً فشيئاً بطريق مدهش متشابك لا يشبه طرق البشر في الشرح والعرض ؛ وبطريق مُربٍ ، لا يشبه طرق البشر في التربية . وذلك أن هذا الإسلام مشروح في الكتاب والسنَّة ، وهو واسع كبير لم يترك شاردة ولا واردة إلا وقد بيَّن حكم الله فيها . وما يطالب به كل مسلم من هذا الإسلام يختلف باختلاف استعداده ومسؤولياته . والذي يطالب به كل مسلم هو أن يكون تقياً باطناً وظاهراً ، حقيقة وسلوكاً .

وإذا كان من أهداف القرآن البيان ، فمن أهدافه إيصال المؤمن إلى التقوى . وهذه الطريقة التي رأيناها في سورة البقرة تجمع بين البيان والعرض . وبين التربية التي تخلّص من الشوائب . فإذا جاءت الآية فإنها تأتي بعد أن يكون ما قبلها مهَّد لها نفسياً وعقلياً . ويأتي ما بعدها يغذيها ويقويها . إن أرض نفسك تفلحها آية ، وتبذر بها آية ، وتسقيها آية . فإذا كانت أرض نفسك صالحة ، ظهر الثمر .

إن هذا القرآن عجيب ، مدهش ، لا يشبهه شيء من كتب البشر . ومع ذلك يكفر به كثيرون مما يدل على أن العلة في الإنسان .

ومن مظاهر ارتباط هذه الفقرة بالسياق العام ، ما نلاحظ من أن الجولة الأولى من السياق ابتدأت بالأركان الثلاثة التي تلازم الإنسان كالإيمان ، والصلاة ، والإنفاق ، ثم جاء الصوم وهو طريق سنوي لتحقيق التقوى ، ثم جاء الحج ، وهو ركن العمر ، ولا شك أنه طريق من طرق التقوى . فكما أن في الصوم يعتاد الإنسان على التقوى من حيث إن بالصوم يكف الإنسان في فترة معيَّنة عن أعتى شهواته . وبالتالي يعتاد على ضبطها . فكذلك بالحج يعتاد على الاستسلام لله في كل أمر . ويعتاد على تعظيم الله . ﴿ **ومن يعظِّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ﴾ (سورة الحج) : وبالصلاة اليومية ، وبالإنفاق اليومي والسنوي ، وبالصوم السنوي ، والنافلة ، وبالحج العمري ، وبالاتِّباع الكامل لكتاب الله ، وبالعبادة ، وبالجهد الفردي ، وبعمل الدولة المسلمة تقوم التقوى في المجتمع الإسلامي على مستوى الفرد ، وعلى مستوى المجتمع ، وعلى مستوى الدولة .

المعنى الحرفي لآيات الفقرة :

﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ : أي وأدوهما تامين شرائطهما ،وفرائضهما لوجه

الله تعالى بلا توانٍ ، ولا نقصان . هذا الاتجاه الأول فى تفسير هذا النص . الاتجاه الثاني : أي : إذا شرعتم في الحج أو العمرة فأتموهما . فهو دليل على أن من شرع فيهما ألزمه إتمامهما

قال ابن كثير : ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع فى الحج والعمرة ملزم ، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها كما هما قولان للعلماء . وفسر عليّ رضي الله عنه الإتمام فقال : « أن تحرم من دويرة أهلك » . وفسره سفيان الثوري : « أن تحرم (أي تنوي) من أهلك لا تريد إلا الحج والعمرة . وتهل من الميقات (أي تلبي وتنشيء الإحرام) ليس أن تخرج (أي ابتداءً) لتجارة ، ولا لحاجة . حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت لو حججت ، أو اعتمرت وذلك يجزيء ، ولكن الإتمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره ومرجع هذا القول إلى القول الأول . أي الإتمام بمعنى : الأداء الكامل . ويدخل في ذلك أن تكون النفقة حلالا .

ويقتضي المقام أن نعرّف الحج والعمرة .

الحج لغة : القصد إلى معظَّم . وشرعاً : زيارة مكان مخصوص ، في زمن مخصوص ، بفعل مخصوص . وهو فرض في العمر مرة على من استطاع الزاد والراحلة ، فائضة عن حاجات أهله .

أما العمرة ففيها خلاف : هل هي واجبة ، أو مستحبة . وهي إحرام وطواف وسعي بين الصفا والمروة ، ثم تحلل .

﴿ فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ﴾ : قال النسفي : يقال أحصر فلان إذا منعه أمر من خوف ، أو مرض ، أو عجز ، وحصر إذا حبسه عدو عن المضي .

وعند الحنفية ، الإحصار يثبت بكل منع ، من عدو ، أو مرض ، أو غيرهما . ويشهد لهم الحديث الذي رواه الإمام أحمد ، وأصحاب السنن عنه ﷺ : « من كسر أو وجع ، أو عرج فقد حل ، وعليه حجة أخرى » . وعند الشافعي : الإحصار بالعدو وحده . وهذان الاتجاهان في تفسير الإحصار عليهما مدار الاختلاف بين العلماء ، قال النسفي : وظاهر النص يدل على أن الإحصار يتحقق في العمرة أيضاً . لأنه ذكر عقبهما . فإذا أحصر الإنسان بعد تلبسه بالإحرام ، فماذا يفعل ؟ . قال تعالى : **﴿ فما استيسر من الهدي ﴾** . أي فما تيسر من الهدي . والهدي . جمع هدية .وهدية البيت ، بعير ، أوبقرة ، أو شاة من المعز والضأن . فصار المعنى العام : فإن منعتم من المضي إلى

البيت وأنتم محرمون بحج أو عمرة ، فعليكم إذا أردتم التحلل أن تهدوا إلى البيت ماتيسر من بعير أو بقرة أو شاة . والمناسبة بين ذكر الإحصار وما قبله واضحة . فبعد أن أمر بإتمام الحج والعمرة ذكر ما يمكن أن يعرض دون هذا الإتمام . وما هو الحل لو حدث هذا العارض . ﴿ ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدْي محِلَّه ﴾ . هل هذا الخطاب مرتبط بما قبله مباشرة فيكون خطاباً للمحصَرين ، أو هو معطوف على ﴿ وأتموا ﴾ فيكون خطاباً للحجاج والمعتمرين ؟ فإن كان الخطاب للمحصرين ، وهو الذي رجحه ابن جرير ، وهو مذهب الحنفية ، كان المعنى : لا تحلوا من إحرامكم بحلق الرأس حتى تعلموا أن الهدْي الذي بعثتموه إلى الحرم قد بلغ محله ، أي : مكانه الذي يجب نحره فيه ، وهو الحرم . إذ عند الحنفية لا يذبح دم الإحصار إلا في الحرم . وعلى الاتجاه الثاني يكون المعنى : ولا يجوز لكم أن تحلقوا رؤوسكم بعد إحرامكم حتى تنحروا هديكم يوم النحر . وذلك يكون بعد الإفاضة من عرفات ثم مزدلفة . وبعد رمي جمرة العقبة في يوم النحر . والمحصر على من فهم النص هذا الفهم كالشافعية ينحر حيث أحصر . ولكن لا إحصار عندهم إلا من عدو . واستدلوا لمذهبهم بنحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية خارج الحرم . والقضية خلافية . والربط بين هذا النص والذي قبله على الاتجاه الأول قد رأيناه . وأما على الاتجاه الثاني ، فإن السياق يكون قد اتجه بعد الأمر بالإتمام إلى التفصيل في الأحكام .

وقد فهمنا من النص السابق أن التحلل من الإحرام إنما يكون بالحلق . وهذا يعني أنه لا حلق أثناء الإحرام . فإذا وجدت الضرورة فما العمل ؟. قال تعالى :

﴿ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نُسُك ﴾

أي : فمن كان منكم به مرض يحوجه إلى الحلق ، أو به أذى من رأسه كالقمل ، والجراحة التى تحوج إلى الحلق ، فعليه إذا حلق فدية . هذه الفدية إما صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع من بر أي : ما يعدل كيلوين حنطة ، أو يذبح شاة . وهو المراد بالنسك . ومذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يخير في هذا المقام ، إن شاء صام ، وإن شاء تصدق ، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء . أي ذلك فعل أجزأه . وإذا كان النص في معرض بيان الرخصة ، فقد جاء بالأسهل فالأسهل . أخرج الإمام أحمد عن كعب بن عجرة قال : أتى عليَّ النبي ﷺ وأنا أوقد تحت قدر . والقمل يتناثر على وجهي ، أو قال حاجبي فقال : « يؤذيك هوام رأسك » ؟ قلت : نعم . قال : « فاحلقه وصم ثلاثة أيام ، أو أطعم ستة مساكين ، أو

انسك نسيكة » . قال أيوب : - أحد رواة الحديث - لا أدري بأيتهن بدأ . وبعض الروايات الصحيحة تعيِّن البداءة بالنسيكة ، ثم بالإطعام ، ثم بالصوم . ولذلك قال ابن كثير : ولما أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك ، أرشده إلى الأفضل فقال : « انسك شاة ، أو أطعم ستة مساكين ، أو صُمْ ثلاثة أيام » . فكلٌّ حسن في مقامه . وهذه الذبيحة لا يشترط لها مكان معين . ولكن يجب التصدق بها للفقراء .

أمرتنا الآية التي ندرسها ، أولا بإتمام الحج والعمرة . وبيَّنت لنا ماذا نفعل في حالة الإحصار . ثم بيَّنت لنا كيف أن التحلل من الإحرام إنما يكون بالحلق . فلا حلق مع الإحرام . فإذا وجدت ضرورة للحلق ، فقد بيَّنت الحكم .

والآن ينتقل السياق إلى موضوع جديد . وذلك أنه في الأحوال العادية ، المسلم مخير بين أن يحج مفرِداً بالحج ، أو يقرن الحج بعمرة . فيعتمر أولا ، ثم يبقى محرماً . فيقوم بأعمال الحج ثم يتحلل من الجميع، أو أن يعتمر أولاً ثم يتحلل من عمرته . ثم يحرم من الحرم بحج . هذه أشكال ثلاثة للحج . فجاء السياق بنص له علاقة بهذا الموضوع . قال تعالى : ﴿ **فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي** ﴾ : ولكي نفهم النص لابد من لفت النظر إلى مسألة . وهي أنه في زمن النبوة لم يكن يفرق بين حج القران ، وحج التمتع . بل يطلق اسم التمتع والقران كل منهما على الآخر . لأن المعنى اللغوي يسعهما . ولكنه بعد ذلك أخذ كل من الاسمين معناه الاصطلاحي . فصار للقران مضمون غير مضمون التمتع . فالتمتع : أن يتحللِ الإنسان بين عمرته وحجه . فيتمتع أياماً بين عمرته وحجه بإحلاله . والقران : ألَّا يتمتع بين عمرته وحجه ، بل يجمع بينهما . ولكن هذا التفريق بهذه الدقة لم يكن موجوداً زمن النبوة . ولذلك فإن قوله تعالى : ﴿ **فمن تمتع بالعمرة إلى الحج** ﴾ . يشمل في هذه الحالة القران والتمتع بالاصطلاح المعروف حالياً . فإذا اتضح هذا صار بالإمكان أن نفهم كلام ابن كثير في شرح الآية :

أي : فإذا تمكنتم من أداء المناسك . فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج وهو يشمل من أحرم بهما أو أحرم بالعمرة أولا . فلما فرغ منها أحرم بالحج ... فليذبح ما قدر عليه من الهدْي ، وأقله شاة . وقد ذكر ابن كثير الدليل على أنه لم يكن يفرق بين القران والتمتع في زمن رسول الله ﷺ . قال : (فإن من الرواة من يقول : تمتع رسول الله ﷺ . وآخر يقول : قرن . ولا خلاف أنه ساق هدياً) . أي كان قارناً . وقد كان

عمر ينهى عن التمتع . وتعليل ابن كثير لذلك هو : لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها ، محرِّماً لها . إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين معتمرين كما قد صرح به رضي الله عنه . في الصحيحين عن عمران بن حصين قال : لما نزلت آية المتعة في كتاب الله ، وفعلناها مع رسول الله ﷺ . ثم لم ينزل قرآن يحرمها ، ولم ينه عنها حتى مات . قال رجل برأيه ما شاء . قال البخاري : يقال إنه عمر . والقران عند الحنفية أفضل . لأنه أشق . والتمتع عند الحنابلة أفضل للحض عليه من رسول الله ﷺ . وقال المالكية : إن الإفراد أفضل . والإجماع منعقد على جواز كل من التمتع أو القران ، أو الإفراد .

وهل دم التمتع ، أو القران ، دم شكر ، أو جزاء ؟ . وإذا كان هذا أو هذا ، فماذا يترتب على ذلك من جواز ذبحه قبل يوم النحر ، أو فيه ؟ . ومن حِلِّ أكل صاحبه منه أوْلا ؟ . الجواب : الحنفية يقولون : إن هدي المتعة نسك ، يؤكل منه . ويذبح يوم النحر والشافعية قالوا : يذبح قبل يوم النحر . ولا يجوز الأكل منه . وسُمّي الجمع بين العمرة والحج في أشهره - سواء فُصِل بين ذلك بإحلال أولا - تمتعاً لانتفاع المسلم بالتقرّب بالعمرة إلى الله قبل انتفاعه بالتقرب بالحج . وخص الفقهاء اسم التمتع بمن أحلّ من إحرامه بعد العمرة بسبب ما ينتفع به الحاج من استباحة ما كان محرماً عليه إلى أن يحرم بالحج .

فهمنا من النص أن المتمتع أو القارن عليه أن يذبح . فإذا لم يجد فماذا يفعل ؟ . قال تعالى : ﴿ **فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة** ﴾ أي : فمن لم يجد الهدي ، فعليه صيام ثلاثة أيام في وقت الحج وهو أشهره ما بين إحرام العمرة ويوم النحر ، وسبعة إذا فرغ من أفعال الحج . فصار مجموع الصيام البديل عن الهدي عشرة كاملة وذكره ﴿ **كاملة** ﴾ بعد عشرة ، إما إشارة إلى وقوعها بدلا كاملا عن الهدي في الثواب ، أو لرفع أي إيهام يمكن أن يتصور في أنها أقل من عشرة . أو هي للتأكيد . وفي وقت الأيام الثلاثة خلاف كثير . فبعضهم جوَّز صيامها من أول شوال إذا كان الإنسان متلبساً بالعمرة . ومنهم من جوَّز صيامها بعد يوم النحر في ثلاثة أيام التشريق . والمفتَى به عند علماء الشافعية والحنفية أنه إذا لم يصم الثلاثة أيام حتى يوم النحر ، فإنه لا يجزئه إلا الهدي . ولاشك أن صيام الثلاثة أيام قبل التلبس بإحرام العمرة مردود . بقي إذن الوقت المحدد لصيام الثلاثة أيام ما بين التلبس بإحرام العمرة إلى يوم النحر . قال ابن عباس : « إذا لم يجد هدياً فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة . فإذا كان يوم عرفة الثالث فقد تم صومه . وسبعة إذا رجع إلى أهله » .

وأما السبعة أيام ، فليس شرطاً أن تصام بعد العودة إلى الوطن . بل بمجرد فراغه من أفعال الحج يستطيع البدء بها . على أن لا تكون يوم النحر لأنه لم يفرغ من أفعال الحج . ويحرم فيه الصوم . ولا في أيام التشريق لعدم جواز صومها عند الشافعية ، أو لكراهة صومها تحريماً عند الحنفية . روى مسلم عن رسول الله ﷺ قال : « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل » .

ولنرجع إلى السياق :

﴿ **ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام** ﴾ أي : هذه الرخصة في التمتع هي للآفاقي الذي هو خارج المواقيت . أما من كان داخل المواقيت ، فلا يحل له القران أو التمتع ، هذا مذهب الحنفية . وقال الشافعي : إنهم أهل الحرم ، ومن كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة . لأن من كان كذلك ، يعد حاضراً لا مسافراً فهؤلاء عند الشافعي لا يحل لهم التمتع . وكان ابن عباس يقول : يا أهل مكة لا متعة لكم . أحلت لأهل الآفاق ، وحرمت عليكم . إنما يقطع أحدكم وادياً ، أو يجعل بينه وبين الحرم وادياً . ثم يهل بعمرة . ﴿ **واتقوا الله** ﴾ : فيما أمركم به ، ونهاكم عنه في الحج وغيره . ﴿ **واعلموا أن الله شديد العقاب** ﴾ أي : لمن خالف أمره ، وارتكب ما عنه زجره .

فائدة : في آيات القتال قال تعالى : ﴿ **واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ : وههنا قال : ﴿ **واعلموا أن الله شديد العقاب** ﴾ . فهذان أمران أمرنا بهما في حق معرفة الله . كما أمرنا أن نعلم أنه لا إله إلا الله . ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾ (سورة محمد) فمن لم يحقق في قلبه العلم بهذا كله لا يكون عارفاً بالله .

﴿ **الحج أشهر معلومات** ﴾ أي : وقت الحج أشهر معروفات عند الناس لا يشكلن عليهم . وهي شوال ، وذو القعدة ، وعشر ذي الحجة . وفائدة توقيت الحج بهذه الأشهر أن شيئاً من أفعال الحج ، لا يصح إلا فيها . وكذا الإحرام عند الشافعي رحمه الله ، وعند الحنفية ينعقد قبلها ، لكنه مكروه . قال ابن عباس : من السنَّة ألا يحرم بالحج إلا في أشهره . قال ابن جرير : وصحّ إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث كما تقول العرب : رأيته العام ، ورأيته اليوم . وإنما وقع ذلك في العام ، واليوم . وذهب الإمام مالك إلى أن ذا الحجة كله من أشهر الحج . وبناءً عليه فقد كره العمرة في بقية ذي الحجة . ﴿ **فمن فرض فيهنّ الحج** ﴾ قال ابن جرير : أجمعوا على أن المراد من

الفرض ههنا ، الإيجاب والإلزام . وقال ابن عباس في تفسيره : « من أحرم بحج أو عمرة » ﴿ **فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج** ﴾ أي : من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث ، وهو الجماع ودواعيه ، من المباشرة ، والتقبيل ، ونحو ذلك ، وكذلك التكلم به بحضرة النساء . ويدخل فيه الكلام الفاحش . وليتجنب الفسوق : وهو المعاصي عامة . ويدخل في ذلك السباب . لقوله ﷺ في الحديث الصحيح : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » . ومن الفسوق التنابز بالألقاب لقوله تعالى : ﴿ **بئس الاسم الفسوق** ﴾ (سورة الحجرات) . واختار ابن جرير أن الفسوق هنا هو ارتكاب ما نهي عنه في الإحرام من قتل الصيد ، وحلق الشعر ، وقلم الأظافر ، ونحو ذلك . وهي داخلة فيما ذكرنا .

فائدة : في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من حجّ هذا البيت ، فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه » .

وكما يجتنب الرفث والفسوق ، فإنه يجتنب الجدال . والجدال هو المراء مع الرفقاء والخدم ، والسائقين . وإنَّما أمرنا باجتناب الرفث والفسوق والجدال – وهو واجب الاجتناب في كل حال – لأنه مع الحج أسمج كلبس الحرير في الصلاة ، والتطريب في قراءة القرآن .

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ :

« من قضى نسكه ، وسلم المسلمون من لسانه ويده ، غفر له ما تقدم من ذنبه » .
﴿ **وما تفعلوا من خير يعلمه الله** ﴾ : لما نهاهم عن إتيان القبيح قولا ، وفعلا .وحثهم على فعل الجميل . وأخبرهم أنه عالم به . وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة . ففي هذا النص إخبار منه تعالى بعلمه الجزئيات والكليات ومن السياق يفهم أن في النص حثاً على الخير ، عقيب النهي عن الشر . فكأنه أمرهم أن يستعملوا مكان القبيح من الكلام ، الحسن . ومكان الفسوق ، البر والتقوى . ومكان الجدال ، الوفاق والأخلاق الجميلة . ثم أمرهم بالتزود إذا سافروا لحجهم . قال تعالى : ﴿ **وتزوَّدوا** ﴾ . في البخاري عن ابن عباس قال : « كان أهل اليمن يحجون ولا يتزوَّدون . ويقولون : نحن المتوكلون . فأنزل الله : ﴿ **وتزوَّدوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾ » . وكان ابن عمر يقول : « إن من كرم الرجل ، طيب زاده في السفر » . ﴿ **فإن خير الزاد التقوى** ﴾ : لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا . أرشدهم إلى زاد الآخرة ، وهو استصحاب التقوى

إليها . فكأن معنى قوله تعالى في هذا المقام : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾ : تزودوا ، واتقوا الاستطعام ، وإبرام الناس ، والتثقيل عليهم . وتزودوا للمعاد ، باتقاء المحظورات . فإن خير زاد الآخرة اتقاؤها .

قال مقاتل بن حيان : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وتزودوا** ﴾ . قام رجل من فقراء المسلمين فقال : يا رسول الله . ما نجد ما نتزوده . فقال رسول الله ﷺ : « تزود ما تكف به وجهك عن الناس . وخير ما تزودتم التقوى » . رواه ابن أبي حاتم . ﴿ **واتقون يا أولي الألباب** ﴾ أي : واتقوا عقابي ونكالي ، وعذابي لمن خالفني ، ولم يأتمر بأمري يا ذوي العقول والأفهام . فهم من النص أن قضية اللبّ الذي هو العقل ، تقوى الله . ومن لم يتقه فكأنه لا لب له . ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** ﴾ أي : ليس عليكم إثم في أن تبتغوا في مواسم الحج عطاءً وتفضلا . وهو النفع والربح بالتجارة والكِراء ، روى البخاري عن ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية قال : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية . فتأثموا أن يتَّجروا في الموسم . فنزلت : ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** ﴾ . وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة التيمي قال : قلت لابن عمر : إنا نُكرَىٰ . فهل لنا من حج ؟ قال : أليس تطوفون بالبيت وتأتون المُعَرَّفَ ، وترمون الجمار ، وتحلقون رؤوسكم ؟ قال : قلنا بلى . فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني ، فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية : ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** ﴾ . وأخرج ابن جرير عن أبي صالح مولى عمر . قال : قلت يا أمير المؤمنين : كنتم تتَّجرون في الحج ؟. قال : وهل كانت معايشهم إلا في الحج ؟!! ..

وقال النسفي من أئمة الحنفية عند هذه الآية : ونزل في قوم زعموا أن لا حج لحمَّال ، وتاجر . وقالوا : هؤلاء ، الداجُّ وليسوا بالحاج ﴿ **ليس عليكم جناح ...** ﴾ . لكن قال الحنفية في كتبهم : (من نوى الحج والتجارة لا ثواب له إن كانت نية التجارة غالبة أو مساوية) . والظاهر أنه لا ثواب كاملا . وإلا فلا يقول قائل : إن من تاجر ولم يشارك في أفعال الحج ، كمن تاجر وشارك في أفعاله . وهذا من باب الحض على تغليب نية الآخرة على عمل الدنيا .

﴿ **فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام** ﴾ : دلَّ قوله تعالى : ﴿ **فإذا أفضتم من عرفات** ﴾ على وجوب الوقوف في عرفات . والإفاضة من عرفات

إنما تكون لمزدلفة . فدل ذلك على أن الوقوف بمزدلفة من شعائر الحج . ونلاحظ أن في الفقرة تسلسلًا في أفعال الحج . فقد رأينا أن في قوله تعالى : ﴿ **فمن فرض فيهن الحج** ﴾ ما يشير إلى الإحرام الذي هو الركن الأول من أركان الحج . ويأتي بعد ذلك الوقوف بعرفات . وهو الركن الثاني من أركان الحج ، ثم الإفاضة إلى المزدلفة ، وهو النسك الذي يلي الوقوف بعرفات .

وقبل أن نشرح الآية شرحاً حرفياً فلنقرأ هذه النقول :

قال علي بن أبي طالب : (بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم ﷺ فحجَّ به حتى إذا أتى عرفة ، قال : عرفت . وكان قد أتاها مرة قبل ذلك . فلذلك سميت عرفة) . وقال عطاء : « إنما سميت عرفة ، أن جبريل كان يُري إبراهيم المناسك ، فيقول : عرفت ، عرفت . فسميت عرفات » .. وروي نحوه عن ابن عباس ، وابن عمر ، وأبي مجلز .

وعرفة موضع الوقوف في الحج . وهي عمدة أفعال الحج . ولهذا روى الإمام أحمد وأصحاب السنن ، بإسناد صحيح إلى رسول الله ﷺ قال : « الحج عرفات - ثلاثاً - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك . وأيام منى ثلاثة . فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه . ومن تأخر فلا إثم عليه » . ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة ، إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر . لأن النبي ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال : « لتأخذوا عني مناسككم » . وهذا مذهب مالك ، وأبي حنيفة ، والشافعي رحمهم الله . وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة ، مستدلا بقوله عليه السلام : « من شهد صلاتنا هذه ، فوقف معنا حتى ندفع - وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلا أو نهاراً - فقد تم حجه ، وقضى تَفَثه » . رواه الإمام أحمد وأهل السنن . وصححه الترمذي .

وأما المشعر الحرام ، فإنه المزدلفة . قال ابن عمر : (المشعر الحرام : المزدلفة كلها) قال ابن كثير : (والمشاعر : هي المعالم الظاهرة . وإنما سميت المزدلفة : المشعر الحرام ؛ لأنها داخل الحرم . وهل الوقوف بها ركن في الحج ، لا يصحّ إلا به ، كما ذهب إليه طائفة من السلف ، وبعض أصحاب الشافعي ؟.. أو واجب كما هو أحد قولي الشافعي يجبر بدم ؟ .. أو مستحب ؛ لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر في ذلك . ثلاثة أقوال للعلماء) . ا هـ .

قال ابن جريج : قلت لعطاء : أين المزدلفة ؟ . قال : (إذا أفضت من مأزمي عرفة فذلك إلى محسر . قال : وليس المأزمان مأزما عرفة من المزدلفة . ولكن مفضاهما قال : فقف بينهما إن شئت . قال : وأحب أن تقف دون قزح . هلم إلينا من أجل طريق الناس) . وسمي المشعر الحرام : مزدلفة ، لأن الناس يزدلفون فيها إلى بيت الله . ويتقربون إليه بذلك . وسمي جمعا لأن الناس يجمعون فيها بين الصلاتين . صلاة المغرب والعشاء .

المعنى الحرفي للنص :

﴿ فإذا أفضتم من عرفات ﴾ : أي دفعتم أنفسكم بكثرة من عرفات . **﴿ فاذكروا الله ﴾** أي : بالتلبية ، والتهليل ، والتكبير ، والثناء ، والدعوات . أو بصلاة المغرب والعشاء . **﴿ عند المشعر الحرام ﴾** : عند جبل قزح في المزدلفة . ولا يعني هذا أنه لا يصح الوقوف إلا عند الجبل . بل المزدلفة كلها موقف إلا بطن محسر . ولكن خير الموقف ما كان عند قزح . والدفع من عرفات إنما يكون بعد الغروب . والوقوف الواجب في مزدلفة عند الحنفية بعد الفجر . والدفع من مزدلفة إلى منى قبل شروق الشمس . هكذا فعل رسول الله ﷺ .

فوائـد :

١ - ذكر حتى الآن في هذه الآية من مناسك الحج : الإحرام ، والوقوف بعرفات ، والوقوف بالمزدلفة . والإحرام الركن عند الحنفية هو نية الحج والتلبية . أما لبس غير المخيط ، وكونه من الميقات ، فواجبان . والوقوف - الركن - بعرفات عند الحنفية ، الكون في عرفات ولو لحظة ما بين الزوال والفجر نائماً ، أو مستيقظاً ولو ماراً إذا كان ناوياً الحج . وأن يكون جزء منه بالليل ، وجزء منه في النهار ؛ فهذا واجب . ويجب عندهم تأخير المغرب إلى العشاء ، وصلاتهما في المزدلفة . والوقوف في مزدلفة عندهم واجب . والوقوف الواجب : هو الكون في المزدلفة بعد الفجر ، وقبل الشمس ، ولو لحظة واحدة .

٢ - روى الحاكم في مستدركه ، وابن مردويه عن المسور بن مخرمة قال : « خطبنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات فحمد الله ، وأثنى عليه ثم قال : أما بعد - وكان إذا خطب خطبة قال أما بعد - فإن هذا اليوم الحج الأكبر . ألا وإن أهل الشرك والأوثان

كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها ، وإنا ندفع بعد أن تغيب الشمس . وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها . وإنا ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفاً هدينا هدي أهل الشرك » . هذا لفظ ابن مردويه .

وفي صحيح مسلم عن جابر في وصف حجته ﷺ : « فلم يزل واقفاً – يعني بعرفة – حتى غربت الشمس . وبدت الصفرة قليلا حتى غاب القرص . وأردف أسامة خلفه ، ودفع رسول الله ﷺ وقد أرخى للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى : « أيها الناس : السكينة ، السكينة » كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد . حتى أتى مزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين . ولم يسبح بينهما شيئاً (أي لم يتنفل) . ثم اضطجع حتى طلع الفجر . فصلى الفجر حين تبيَّن له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة . فدعا الله ، وكبَّره ، وهلَّله ، ووحَّده . فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً . فدفع قبل أن تطلع الشمس » .

هذان الحديثان يفسران لنا النص الذي بين أيدينا . الدفع من عرفات ، وذكر الله عند المشعر الحرام على الكمال والتمام .

وبمناسبة الكلام عن الحج نحب أن نتحدث عن ضرورة الفقه ، فنحن نلاحظ في هذه السورة حديثاً عن الحج . ولكن ليس حديثاً عن كل ما له علاقة به . بل هناك حديث عنه في (سورة آل عمران) وحديث عما له علاقة به في (سورة المائدة) ، وكلام في (سورة براءة) ، وكلام في (سورة الحج) ،. فالكلام عن الحج متفرق في القرآن . ومنه ما له علاقة في الأحكام ، ومنه ما له علاقة بنواح أخرى من العظة والتذكير . والكلام في كتب السنَّة عن الحج متفرّق فيها . وهو يشمل الأحكام وغيرها . وفي كتب السنَّة لا تذكر الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع مع شرحها . فاقتضى ذلك وجود الكتب التي تتحدث عن الأحكام المتعلقة بالحج ، المأخوذة من الكتاب ، ومن السنَّة عامة جامعة الشيء إلى نظيره ، ضمن تبويب ، وتأليف . وهذا هو الفقه . وهذا هو سبب وجوده ، وسبب وجود كتبه . وسيختلف حتماً الفقهاء في الفهم لكتاب الله ، أو لسنَّة رسوله ﷺ . لأنه توجد نصوص يختلف الناس في بعض تفسيراتها ، أو في بعض تطبيقاتها . ويختلفون في بعض طرق الاعتماد للسنَّة ؛ لأسباب

متعددة . وتجدُّ مسائل ليس فيها نص صريح في الكتاب والسنَّة تتعلق بهذه الأبواب لابد من ذكرها في مواطنها ليسهل الرجوع إليها لمن يريد . هذا كله يمثل الضرورة لوجود الفقه ، ولوجود المدارس الفقهية . فمن غلا في الكتاب ، فألغى السنَّة ضل . ومن غلا ، فضلل الأمة بسبب المدارس الفقهية فقد ضل . ومن ألغى دراسة الكتاب والسنَّة بحجة الفقه ، فقد جعل الفرع أصلا ، فلا بد من دراسة الكتاب ، ولابد من دراسة السنَّة ، ولابد من دراسة للفقه .

ولنعد إلى السياق

﴿ **واذكروه كما هداكم** ﴾ أي : اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة . أو اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه ، ولا تعدلوا عنه . هذا تنبيه لنا على ما أنعم الله به علينا من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج وغيرها . ولا يعرف مقدار هذه الهداية إلا من قارن بين ما كان عليه الناس في الجاهلية وما جاء به الإسلام ، وإلا من قارن بين الإسلام وغيره من الأديان . وسنعرض لهذا الموضوع شيئاً فشيئاً في هذا التفسير . ﴿ **وإن كنتم من قَبله لمن الضالين** ﴾ : الضمير في (**قبله**) يعود على الهدى ، على القول الراجح . وقيل يعود إلى القرآن . وقيل يعود إلى الرسول . والكل متقارب ومتلازم وصحيح . إنه بدون هذا الهدى ، كنا ضالين عن مشاعر إبراهيم ودينه . وكنا ضالين عن طريق الله . وعما يقربنا إليه . وكنا ضالين عن السلوك الصحيح في شؤون الحياة . وكنا ضالين عن المعرفة الحق لله ، والغيب ، والإنسان ...

قال النسفي : ﴿ **وإن كنتم من قَبلِه لمن الضالين** ﴾ « أي : الجاهلين . لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه » .

﴿ **ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم** ﴾ :

أخرج البخاري عن عائشة قالت : كانت قريش ، ومن دان دينها ؛ يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحمس . وسائر العرب يقفون بعرفات . فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ، ثم يقف بها ، يفيض منها . فذلك قوله : ﴿ **من حيث أفاض الناس** ﴾ قال ابن كثير : وكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم . واختاره ابن جرير . وحكى عليه الإجماع .

والآن نتساءل ، لماذا جاءت : ﴿ **ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس** ﴾ هنا مع أنه

عز وجل قد تحدث من قبل عن الوقوف بعرفات . ففصل في الحديث عن عرفات ، بالوقوف في مزدلفة ؟. الجواب - والله أعلم - يكمن في ترتيب هذا القول على ما قبله مباشرة : ﴿**واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين**﴾ . فمن نماذج ضلالهم التي هداهم الله عز وجل إلى تركها هذا الوضع الشاذ الذي كانت عليه قريش بأن تميز نفسها عن الناس ، فلا تقف بعرفات مع أهمية الوقوف فيها وفي ذلك ما فيه من تميز باطل وفي ذلك ما فيه من الإخلال بالحكمة في وقوف الناس عامة في عرفات لينطلقوا بأعظم مظاهرة تعرفها البشرية ، معظِّمة الله وشعائره ، وبيته . ومهينة عدو الله ، إبليس . وإذن فهذه الآية أمر من ناحية . وفي هذا الأمر نموذج على الهداية من الضلال المذكور سابقاً . بقي أن نعرف أن (ثم) التي هي حرف عطف ، تعطف هذه الآية على ماذا ؟ الظاهر أنها تعطفها على قوله تعالى : ﴿**واتقون يا أولي الألباب**﴾ فيكون الترتيب من حيث المعنى (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب .. ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس . واستغفروا الله إن الله غفور رحيم . فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) .

المعنى الحرفي :

﴿ **ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس** ﴾ أي : ثم لتكن إفاضتكم من حيث أفاض الناس من عرفات . فهذا أمر لقريش خاصة بسبب الوضع الشاذ الذي كان لها ، ولكل إنسان عامة . ﴿**واستغفروا الله إن الله غفور رحيم**﴾ أي : واستغفروا الله من مخالفتكم في الموقف ، ونحو ذلك من جاهليتكم ، أو من التقصير في أعمال الحج إن الله غفور لكم إذا استغفرتموه ، رحيم بكم ، يعلم ضعفكم .

فوائـد :

١ - من مظاهر الحج في الجاهلية أن المرأة من غير أهل الحرم كانت تطوف عارية عرياً تاماً إلا إذا كستها أمرأة من أهل الحرم ، ومن مظاهر الحج عندهم أن قريشاً كانت تميِّز نفسها عن بقية الناس فلا تقف مع الناس في عرفات ، وأن السعي بين الصفا والمروة كان سعياً بين صنمين إساف ونائلة ، وأن البيت كان محفوفاً بالأصنام من فوقه ومن حوله ، قارن ذلك كله بالحج في الإسلام ، لترى فضل الله على الإنسان في هدايته إلى معالم العبادة الصحيحة ، وسنرى ، في سورة الحج موضوع الحج عند الأمم لندرك الفارق الكبير بين عبادة تُربِّي وتُهذِّب ، وتكمِّل وتحقِّق بالكمالات في كل حركة

وشعيرة ، وبين عبادة ينتكس فيها الإنسان ويرتكس . ورأينا فيما نقلنا عن الصوم عند الأمم كيف أن نوعاً من الناس يدعون في صيامهم ما يزعمون أنه مظهر صفات الله النسوية في مختلف مظاهرها فأي جهل وجاهلية يكون عليها الإنسان بلا إسلام ؟

٢ - يلاحظ أنه ما من عبادة أمرنا الله عز وجل بها إلا وقد أمرنا الله بذكره عقبها رأينا ذلك في آيات الصوم ونراه في آيات الصلاة بمجموعها .

ونراه هنا في بحث الحج ، وما ذلك إلا ليبقى العبد في عبادة دائمة ، ولنلاحظ أنه هنا في آيات الحج أمرنا بالاستغفار مع الأمر بالإفاضة من عرفات . فكأن المراد من ذلك أن يستشعر العبد قصوره في هذه المواطن كي لا يستشعر عُجْباً بعد أداء العبادة . وبمناسبة الأمر بالاستغفار نذكر ثلاثة أحاديث في الاستغفار وهي الفائدة الثالثة .

ا - قال ﷺ : « من لازم الاستغفار ، جعل الله له من كل هَمّ فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

ب - قال ﷺ : « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة . ومن قالها في يومه ، فمات دخل الجنة » . أخرجاه في الصحيحين

ج - في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن أبا بكر قال : « يا رسول الله ؛ علمني دعاءً أدعو به في صلاتي . فقال : قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً . ولا يغفر الذنوب إلا أنت . فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني . إنك أنت الغفور الرحيم » .

﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً . فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق * ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار * أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ﴾ :

بعد الإفاضة من مزدلفة إلى منى ، يرمي الحجيج عادة جمرة العقبة . فإذا رموها ، ذبحوا هديهم ، ثم حلقوا ، وقد حل لهم كل شيء إلا النساء . ثم يطوفون طواف الإفاضة ، وقد حل لهم كل شيء حتى النساء . ولم يبق عليهم إلا المبيت في منى ، ورمي

الجمرات وطواف الوداع وأن يذكروا الله ، وألا يشتغلوا بعادة من عادات الجاهلية . وإذ كان التحلل من الإحرام قد تعقبه غفلة ؛ فقد نبّه في الآيات على الذكر الكثير ، ونبه على خُلق خطر ، وهو حصر الدعوات في هذه الأيام بطلب الدنيا ، ونبّه على أفضل دعوة يُدعى بها في تلك الأيام .

وهل المراد بقوله تعالى : ﴿ **فإذا قضيتم مناسككم** ﴾ المراد به قضاء المناسك كلها ، فيكون هذا توجيهاً لما ينبغي أن يكون عليه الوضع عند القفول ؟. أو المراد به قضاء المناسك يوم النحر بما في ذلك طواف الإفاضة ؟. أو المراد به قضاء المناسك يوم النحر دون طواف الإفاضة ؟.

يدل على الأخير أن رسول الله ﷺ كان يدعو في طوافه : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . فإذا اعتبرنا هذا تطبيقاً للآية كان المراد بقضاء المناسك ؛ الذبح يوم النحر . ويمكن أن يراد بالآية قضاء المناسك بما في ذلك الطواف . ويدل عليه ما ذكره النسفي : « كانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى ، وبين الجبل ، فيعدون فضائل آبائهم ، ويذكرون محاسن أيامهم » . وقال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم . فيقول الرجل منهم : كان أبي يطعم ، ويحمل الحمالات ، ويحمل الديّات . ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم . فأنزل الله على محمد ﷺ :

﴿ **فاذكروا الله كذِكْركُم آباءكم أو أشد ذكراً** ﴾ .

لكن الأرجح عندنا أن الآيات لها علاقة بما بعد قضاء مناسك يوم النحر ، ماعدا الطواف ، وعلى هذا فيكون ذكر المناسك هنا من باب ذكر الكل وإرادة الجزء .

المعنى الحرفي :

﴿ **فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذِكْركُم آباءكم أو أشد ذكراً** ﴾ :

فإذا قضيتم مناسك يوم النحر فاذكروا الله ذكراً مثل ذكركم آباءكم . والمعنى : فأكثروا من ذكر الله ، وبالغوا فيه كما تفعلون في ذكر آبائكم . ومفاخرهم وأيامهم أو كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه . و (أو) في النص ﴿ **أو أشد ذكراً** ﴾ لتحقيق المماثلة في المخبر عنه أو أزيد منه . ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنّة الإجابة، وذم من

لا يسأله إلا في أمر دنياه ، وهو معرض عن أخراه . وذلك أن قوماً من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون : اللهم اجعله عام غيث ، وعام ولاد حسن . لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً . فأنزل الله فيهم : ﴿ **فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا** ﴾ أي : من الذين يشهدون الحج من لا يسأل الله إلا حظوظ الدنيا كالجاه والدنيا وغير ذلك . ﴿ **وماله في الآخرة من خلاق** ﴾ أي : من نصيب لأن همه مقصور على الدنيا ، لكفره بالآخرة . ﴿ **ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ أي : ومن الذين يشهدون الحج من يقول : ربنا آتنا في الدنيا نعمة ، وعافية ، وعلماً ، وعبادة ، ونحو ذلك ، وفي الآخرة عفواً ، ومغفرة ، وجنة ، ونحو ذلك . واحفظنا من عذاب جهنم . فصار المعنى العام : أكثروا ذكر الله ودعاءه . لأن الناس من بين مقل لا يطلب بذكر الله إلا أغراض الدنيا ، ومكثر يطلب خير الدارين . فكونوا من المكثرين الذكر ، الطالبين خيري الدنيا و الآخرة . ﴿ **أولئك** ﴾ أي : الداعون بالحسنتين . ﴿ **لهم نصيب مما كسبوا** ﴾ أي : من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة ، وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة . ﴿ **والله سريع الحساب** ﴾ : وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم ، وكثرة أعمالهم ، ليدل على كمال قدرته ، ووجوب الحذر من نقمته .

فوائـد :

١ - روى الحاكم في مستدركه عن سعيد بن جبير قال : « جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إني آجرت نفسي من قوم على أن يحملوني ، ووضعت لهم من أجرتي على أن يَدَعوني أحج معهم . أفيجزي ذلك ذلك . فقال : أنت من الذين قال الله : ﴿ **أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب** ﴾ » .

٢ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما مررت على الركن إلا رأيت عليه ملكاً يقول : آمين . فإذا مررتم عليه فقولوا : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

٣ - **قال ابن كثير** : (فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا ، وصرفت كل شر . فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي ، من عافية ، ودار رحيبة وزوجة حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هين ، وثناء جميل ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين . ولا منافاة بينهما . فإنها كلها مندرجة في

الحسنة في الدنيا . وأما الحسنة في الآخرة ؛ فأعلى ذلك دخول الجنة ، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات ، وتيسير الحساب ، وغير ذلك من أمور الآخرة . وأما النجاة من النار ؛ فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا ؛ من اجتناب المحارم والآثام ، وترك الشبهات والحرام ، وقال القاسم أبو عبد الرحمن : « من أُعطي قلبا شاكراً ، وجسداً صابراً فقد أوتي في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ووقي عذاب النار » .

٤ – وإذا كانت هذه الدعوة ﴿ **ربنا آتنا في الدنيا حسنة ...** ﴾ قد علمنا أن نقولها في أشرف المواطن ، وفي أنقى الأحوال ، وأحسنها . فإنه من المناسب أن ندعو الله بها دائماً ، وفي كل أحوالنا . وبهذا وردت السنَّة :

روى البخاري عن أنس بن مالك قال : كان النبي ﷺ يقول : « اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . وفي مسند الإمام أحمد سأل قتادة أنساً : أي دعوة كان أكثر ما يدعوها النبي ﷺ ؟. قال : يقول : « اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . وفي صحيح مسلم : (وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة ، دعا بها . وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه) . أخرج ابن أبي حاتم عن أبي طالوت قال : « كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت : إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم . فقال : اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وتحدثوا ساعة حتى إذا أرادوا القيام قال : يا أبا حمزة إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم . فقال : أتريدون أن أشقق لكم الأمور . إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقاكم عذاب النار ؛ فقد آتاكم الخير كله » وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ . فقال له رسول الله ﷺ : « هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه ؟. قال : نعم ؛ كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا . فقال رسول الله ﷺ : « سبحان الله . لا تطيقه – أو لا تستطيعه – فهلا قلت : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، قال : فدعا الله فشفاه » ورواه مسلم .

روى الإمام الشافعي عن عبد الله بن السائب أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين ركن بني جمح ، والركن الأسود : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

ولنعد إلى السياق :

﴿ واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجَّل في يومين فلا إثم عليه . ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى . واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾

في النص السابق على هذه الآية رأينا أمراً بالذكر بعد قضاء مناسك يوم النحر ، وبعد يوم النحر تأتي أيام التشريق الثلاثة ، والنسك الذي يتم بها هو رمي الجمار الثلاثة يوميا فيها ، ورمي الجمار نفسه ذكر . لأنه طاعة لله . ويرافقه ذكر ودعاء . والدعاء ذكر . جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره : «إنما جُعل الطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة ، ورمي الجمار ، لإقامة ذكر الله عز وجل » .

فإذا اتضح هذا عرفنا أن المراد بالأمر بالذكر في الأيام المعدودات – والله أعلم – إقامة نسك هذه الأيام ، وهو رمي الجمار وما يرافقه ، بدليل قوله تعالى بعد الأمر بالذكر : **﴿فمن تعجَّل في يومين﴾** مما يشير إلى أن الأمر له علاقة بالمبيت بمنى ، وما يرافق ذلك .

المعنى الحرفي :

﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ : قال ابن عباس : (الأيام المعدودات : أيام التشريق) . وأيام التشريق هي الأيام الثلاثة بعد يوم النحر . بدليل الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : «يوم عرفة ، ويوم النحر ، وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام . وهي أيام أكل وشرب » . فدل أن أيام التشريق بعد يوم النحر . وذكر التعجل في يومين دليل على أنها ثلاثة . وذكر الله فيها رمي الجمار ، والذكر أثناء الرمي . والدعاء بعده **﴿ فمن تعجَّل في يومين ﴾** : من هذه الأيام الثلاثة ، فلم يمكث حتى يرمي في اليوم الثالث فيذكر الله بالرمي فيه واكتفى برمي الجمار في يومين من هذه الأيام الثلاثة **﴿ فلا إثم عليه ﴾** أي : فلا يأثم بهذا التعجل . **﴿ ومن تأخر ﴾** حتى رمى في اليوم الثالث . **﴿ فلا إثم عليه لمن اتقى ﴾** أي : لا يأثم بهذا التأخير . فالمؤمن مُخيّر في التعجل والتأخر . وإن كان التأخر أفضل ، فقد يقع التخيير بين الفاضل والأفضل كما خيّر المسافر بين الصوم والإفطار ، وإن كان الصوم أفضل . ثم ختم الله عز وجل آيات المناسك بأمرين : التقوى ، والعلم بالحشر فقال : **﴿ واتقوا الله ﴾** في جميع الأمور والأحوال ، خاصة وأنتم قد أديتم حجكم الذي به ترجعون كيوم ولدتكم أمهاتكم .

﴿ واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ أي : تجمعون إليه حين تبعثون من قبوركم ، فاعلموا هذا خاصة وقد رأيتم نموذجا من الحشر الدنيوي الاختياري في مواقفكم بعرفات وغيرها مما يذكركم بالحشر الأخروي الإجباري .

فوائد ومسائل وآثار :

١ - .. مر معنا في هذا القسم قوله تعالى ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ وفي كل من الأمرين نلحظ إرادة وجه الله عز وجل ، والعمل له بما شرع ، وهذا مفرق الطريق بين الإسلام وغيره ، فلم يزل الناس ولا يزالون يقاتلون ويحجون ، ولكن أن يكون القتال لله وفي سبيله ، وأن يكون الحج لله وفي شريعة الحق ، فذلك هو ميزة المسلم فكل أعماله لله وبأمره وضمن شريعته وفي ذلك كمال الإنسان .

٢ - في مقطع إبراهيم عليه السلام رأينا الحكمة في بناء الكعبة : ﴿ **أن طهرا بيتيَ للطائفين والعاكفين والركّع السجود** ﴾ فهذا البيت بُنيَ للطواف والعكوف ، والركوع والسجود ، وجاء بعد مقطع إبراهيم عليه السلام مقطع القبلة لنرى أول مظهر من مظاهر القيام بحقوق البيت ، وفي هذا القسم يأتي الأمر بالحج والعمرة ليستكمل المسلم إقامة أمر الله في شأن البيت ، ونلاحظ أنه قد جاء الأمر بالحج والعمرة متأخراً كثيراً عن مقطع إبراهيم ، وذلك ليأتي بعد كل المقدمات اللازمة له ، ففي الحج تعظيم البيت ، وفيه رمي الجمار ، حيث وسوس إبليس ، والحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام ، فمحله بعد الصوم ، وحتى لا تغلب قدسية الحج واجبَ القتال في الحرم إذا اقتضى الأمر جاء الأمر بالحج مسبوقاً بمقطع إبراهيم ، ومقطع القبلة ، ومقطع الصفا والمروة ، ومقطع النهي عن متابعة خطوات الشيطان ، وسبق في مقطعه بموضوع الصوم وحكمة وجود الأهلّة ، وموضوع القتال والإنفاق .

٣ - ومن خلال الحج ندرك مظهرا من مظاهر جعل الله إبراهيم إماما ﴿**قال إني جاعلك للناس إماما**﴾ فالسعي بين الصفا والمروة إحياء لفعل أمنا هاجر سرية إبراهيم عليه السلام ، ورمي الجمار إحياء لفعل إبراهيم إذ رجم إبليس عندما وسوس أثناء إقامة إبراهيم أمر الله في شأن الذبح . والطواف بالبيت فيه تحقيق الحكمة من بناء البيت .

٤ - واضح أن المقصد الأعظم في الحج هو الطواف بالبيت ، وإنما بيَّن رسول الله

ﷺ أهمية الوقوف بعرفات حتى لا يظن أنها ركن ثانوي في الحج ولكن الوقوف في عرفات نفسه إنما هو لتعظيم البيت إذ ذلك الوقوف هو مركز التجمع للانطلاق نحو البيت .

٥ – مما مر معنا ندرك بعض أسرار هذه الرحلة الربانية التي تبدأ بالنية ، والتجرد عن لبس المخيط ، والتلبية وتنتهي بطواف الوداع والذكر . فالتجرد من اللباس تجرد من الدنيا ، والوقوف في عرفات استعداد للانطلاق نحو البيت بلا ذنب ، ورمي جمرة العقبة قبل الطواف ، ثم رمي الجمار بعده إشارة إلى الصراع المستمر ضد الشيطان ، وأن يكون طواف الإفاضة بعد الحلق والذبح والتحلل الجزئي بالعودة إلى اللباس العادي ليكون الطواف على أكمل الحالات ظاهراً وباطناً والحج كله تربية للتسليم الذي هو طابع الإسلام لله رب العالمين .

٦ – الأيام الخمسة . يوم عرفات ، ويوم النحر ، وأيام التشريق الثلاثة لها أحكام خاصة . منها ما هو مشترك بين الحجاج وغيرهم . ومنها ما هو خاص بالحجاج . ومنها ما هو خاص بغيرهم .

فما تختص به ، وهو مشترك بين الحجاج وغيرهم ، تكبير التشريق بعد الصلوات المكتوبات . وأشهر أقوال العلماء فيه أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق . وهو آخر النفر الآخر . قال فقهاء الحنفية : يجب تكبير التشريق من بعد صلاة فجر عرفة ، إلى ما بعد عصر رابع أيام العيد فور كل صلاة ، سواء كان إماماً ، أو مقتدياً ، أو منفرداً ، ذكراً كان أو أنثى – ولكن المرأة لا تجهر به – مسافراً كان أو قروياً . والتكبير عندهم أن يقول مرة واحدة : الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ؛ والله أكبر الله أكبر ولله الحمد .

ومن خصوصيات يوم عرفة لغير الحاج استحباب صيامه . أما الحاج فلا يستحب له . ليقوى على الوقوف .

ومن خصوصيات يوم النحر وأيام التشريق عدم جواز صيامها لأحد ، ومن خصوصيات يوم النحر لغير الحاج ، الأضحية . أما الحاج فلأنه مسافر لا تجب عليه . ولكن من خصوصياته ذبح الهدْي في ذلك اليوم .

ومن خصوصيات يوم النحر لغير الحاج صلاة العيد . أما الحاجّ فلأنه مسافر ، ولأن

منى ليست مصراً فلا تجب عليه .

ومن خصوصيات يوم النحر ، وأيام التشريق ؛ التكبير الجهري المطلق فيه للحجاج وغيرهم . وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكبر في قبته ، فيكبر أهل السوق بتكبيره حتى ترتج منى تكبيراً .

ومن خصوصيات يوم عرفات للحاج أنه يوم أداء ركن الوقوف . ومن خصوصيات ليلة النحر ، أنها ليلة الإفاضة من عرفات ، والجمع بين الصلاتين بمزدلفة ، ومن خصوصيات يوم النحر أنه يوم الوقوف بمزدلفة ما بين الفجر والشمس ، ويوم الإفاضة إلى منى ، ورمي جمرة العقبة فيه .

وهو يوم الذبح ... ويوم الحلق ... ويوم طواف الإفاضة .

ومن خصائص أيام التشريق للحاج . أن فيها المبيت بمنى ، ورمي الجمرات . وبانتهاء الكلام عن مناسك الحج يبدأ السياق موضوعاً جديداً ، هو الموضوع الختامي للقسم الثاني في سورة البقرة . وهو موضوع الفقرة السادسة .

كلمة بين يدي الفقرة السادسة :

بعد آية البر خوطب المؤمنون مرتين بصيغة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ ودُلّوا في كل مرة على طريق مؤدٍ إلى التقوى . وبعد الخطاب الأول ذكر شيء له علاقة بالتقوى كثمرة من ثمارها . وبعد الخطاب الثاني ذكرت أشياء لها علاقة بالتقوى كثمرة من ثمارها ، أو أثر من آثارها . ثم جاء الكلام عن الحج ، وهو طريق من طرق الوصول إلى التقوى . وقد ختمت آياته بالأمر بالتقوى كما رأينا . وبالكلام عن الحج تكون سورة البقرة قد تحدثت عن أركان الإسلام الخمسة . الثلاثة الأولى في آياتها الأول . وفي القسم الثاني تحدثت عن الصيام والحج ، كما تحدثت عن اتباع الهدى المتمثل بالكتاب الذي هو الثمرة المباشرة للتقوى . وعن مجموعة أمور مرتبطة بهذا الموضوع . والمفروض بعد هذا البيان المتسلسل العجيب أن يصفو الإنسان لله خالصاً . ولا نقصد بالإنسان هنا . الكافر الخالص ، لأن ذلك انتهى أمره كما رأينا في مقدمة سورة البقرة بل المراد هو الإنسان المنتسب للإسلام ولكن الواقع أن الناس يبقون صنفين . فصنف يبقى منافقاً مع كل هذا البيان . وصنف يخلص لله خلوصاً تاماً . والحديث عن هذين الصنفين هو الذي يختم به القسم الثاني وهو مضمون الفقرة السادسة .

الفقرة السادسة :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

هذه الآيات عامة في المنافقين كلهم ، وفي المؤمنين كلهم . هذا قول قتادة ، ومجاهد ، والربيع بن أنس ، وغير واحد . قال ابن كثير : وهو الصحيح .

المعنى الحرفي :

﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله** ﴾ أي : يروقك ، ويعظم في قلبك . ومنه الشيء العجيب الذي يعظم في النفس . ﴿ **في الحياة الدنيا** ﴾ : يعجبك حلو كلامه في أمر الدنيا ، أو في كل ما هو من معنى الدنيا . ودخل في ذلك علومها ، وأمورها .. ﴿ **ويُشهد الله على ما في قلبه** ﴾ أي : يحلف ويقول : الله شاهد على ما في قلبي من الإسلام ، ومحبة الله والرسول . ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ، ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق . **قال ابن عباس** : معناه : إذا أظهر للناس الإسلام ، حلف وأشهد الله لهم أن الذي في قلبه موافق للسانه . ﴿ **وهو ألدُّ الخصام** ﴾ : وهو شديد العداوة للمسلمين . هذا إذا فسرنا الخصام بالمخاصمة . أما إذا اعتبرنا الخصام جمع خصم . فيكون المعنى : وهو أشد الخصوم خصومة . والألدُّ في اللغة : الأعوج . وهكذا المنافق في حال خصومته ، يكذب ، ويزور على الحق ، ولا يستقيم معه ، بل يفتري ، ويفجر .

روى البخاري عن رسول الله ﷺ : « إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِم » .

﴿ **وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل** ﴾ : ذاك قوله ،

وهذا فعله . فهو أعوج المقال ؛ كاذبه ، سيء الفعال ، كلامه كذب ، واعتقاده فاسد ، وأفعاله قبيحة . ﴿ **وإذا تولى ...** ﴾ أي : إذا كان له سلطان . فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل . أو أنه يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر ، فيهلك الحرث والنسل . والمهم أن المنافق ليس له هِمَّة إلا الفساد في الأرض ، وإهلاك الحرث : وهو محل نماء الزرع والثمار ، والنسل : وهو نتاج الحيوانات ؛ إهلاك للناس لأنه لاقوام للناس إلا بهما . وسعى في الآية بمعنى قَصَدَ . وما أصدق هذا في منافقي عصرنا . يحلفون أنهم مسلمون ، وأنهم لا يريدون إلا الخير ، وهم شديدو الخصومة للإسلام والمسلمين . وإذا كانت لهم سلطة لم يكن لهم همٌّ إلا في الإفساد بالخروج عن الشريعة ، وإهلاك الحرث والنسل بسبب الظلم تحت شعاراتهم الخبيثة ولقد رأينا من آثار حكمهم هلاك الحرث وهلاك النسل . ﴿ **والله لا يحب الفساد** ﴾ : ولا أهله فهو لا يحب مَن هذه صفته ، ولا من يصدر منه ذلك .

﴿ **وإذا قيل له اتق الله أخذته العِزَّة بالإثم** ﴾ أي : إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله ، وقيل له : اتق الله ، وانزع عن قولك ، وفعلك ، وارجع إلى الحق ، امتنع ، وأبى ، وأخذته الحميَّة ، والغضب بالإثم . أي : بسبب ما اشتمل عليه من الآثام . أو أخذته العزة من أجل الإثم الذي في قلبه ، وهو الكفر ، أو حملته النخوة وحمية الجاهلية على الإثم الذي يُنهى عنه ، وألزمته ارتكابه ﴿ **فحسبه جهنم** ﴾ : أي هي كافيته عقوبة . ﴿ **ولبئس المهاد** ﴾ : أي ولبئس الفراش جهنم .

﴿ **ومن الناس من يَشْري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد** ﴾ : لما أخبر عز وجل عن المنافقين بصفاتهم الذميمة . ذكر صفات المؤمنين الحميدة .

من أسباب النزول :

قال ابن عباس ، وأنس بن مالك ، وأبو عثمان النهدي ، وعكرمة ، وجماعة : « نزلت في صهيب بن سنان الرومي . وذلك أنه لما أسلم بمكة ، وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله . وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل . فتخلص منهم وأعطاهم ماله . فأنزل الله هذه الآية . فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له : ربح البيع . فقال : وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم . وما ذاك . فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية » .

قال سعيد بن المسيب : أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي ﷺ . فاتبعه نفر من قريش . فنزل عن راحلته ، وانتثل ما في كنانته ، ثم قال : يا معشر قريش : قد علمتم أني من أرماكم رجلا . وأنتم والله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بكل سهم في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ، ثم افعلوا ما شئتم وإن شئتم دللتكم على مالي وقنيتي بمكة ، وخليتم سبيلي . قالوا : نعم . فلما قدم على النبي ﷺ قال : « ربح البيع » . قال : ونزلت : ﴿ **ومن الناس من يَشْري ...** ﴾ .

وفي رواية ابن مردويه عن أبي عثمان النهدي عن صهيب قال : لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش : يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك . وتخرج أنت ومالك . والله لا يكون ذلك أبداً . فقلت لهم : أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني ؟ . قالوا : نعم . فدفعت إليهم مالي ، فخلوا عني . فخرجت حتى قدمت المدينة . فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « ربح صهيب ، ربح صهيب - مرتين - » . وبهذه المناسبة نقول : ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في صهيب ، وذكروا كذلك أن آية : ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ...** ﴾ : نزلت في الأخنس بن شريق .

والقاعدة : أن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ . فالعبرة لعموم اللفظ ، وما يمكن أن يدخل تحته من أفراد . ويكون سبب النزول فرداً من هذه الأفراد . وفي موضوعنا هذا نستطيع أن نقول : إن الأخنس بن شريق كان نموذجاً على ذاك النوع المنافق من الناس . وكان صهيب يمثل نموذج المؤمن الذي تنطبق عليه هذه الآية . ولكن العبرة للعموم . ولذلك قال ابن كثير في هذه الآية :

وأما الأكثرون ، فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله . واستشهد على ذلك أنه لما حمل هشام بن عامر بين الصفين ، أنكر عليهم بعض الناس فرد عليه عمر ابن الخطاب ، وأبو هريرة ، وغيرهما ، وتلوا هذه الآية : ﴿ **ومن الناس من يَشْري ...** ﴾ .

قال النسفي بمناسبة الكلام عن هذه الآية : نزلت في صهيب ... أو فيمن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر حتى يقتل .

المعنى الحرفي للآية الأخيرة :

﴿ **ومن الناس من يَشْرى نفسه** ﴾ . أي يبيعها . ﴿ **ابتغاء مرضات الله** ﴾ أي : مبتغياً في ذلك رضوان الله . ﴿ **والله رؤوف بالعباد** ﴾ : إذ ييسرهم لهذا المقام ، ويلطف بهم ليتحققوا به ، ويثيبهم على ذلك .

فائـــدة :

أخرج ابن جرير عن نَوْف البكالي – وكان ممن يقرأ الكتب ، قال : « إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل : قوم يحتالون على الدنيا بالدين . ألسنتهم أحلى من العسل . وقلوبهم أمرّ من الصبر . يلبسون للناس مسوك (أي جلود) الضأن ، وقلوبهم قلوب الذئاب . يقول الله تعالى : فعليَّ يجترؤون ، وبي يغترون حلفت بنفسي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران » قال القرطبي : تدبرتها في القرآن ، فإذا هم المنافقون . فوجدتها : ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ...** ﴾ .

وبهذه الآيات ينتهي القسم الثاني من أقسام سورة البقرة . ونلاحظ تشابهاً بينها وبين نهاية مقدمة السورة . ونهاية القسم الأول . ونلاحظ أنه ذُكِر في الفقرة الأخيرة صنفان من الناس ، منافق ومؤمن . وفي مقدمة سورة البقرة ذكر : مؤمن ، وكافر ، ومنافق . فإذا تذكرنا المجموعة الأخيرة في القسم الثاني : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً** ﴾ : وهي في الكافرين . أدركنا مظهراً من مظاهر التكامل والتناسق في السورة إذ ذكرت هذه الفقرة منافقاً ومؤمناً فقط وبانتهاء القسم الثاني نصل إلى القسم الثالث الذي يبدأ بالأمر بالدخول في الإسلام كله ، بعد أن وضعت السورة كل الأسس التي يحتاجها بناء الإسلام .

كلمة في القسم الثاني وما سبقه من السورة :

لقد أكمل القسم الثاني معاني القسم الأول ، ومعاني مقدمة سورة البقرة فتكاملت المعاني في المقدمة والقسمين لتوصلنا إلى القسم الثالث ، ومن مظاهر هذا التكامل أنه بانتهاء القسم الثاني مرت معنا أركان الإسلام الخمسة وهي في العقائد والعبادات ، وإذ كانت العبادات لا تقبل بلا أكل الحلال فقد مر معنا شيء عن أكل الحلال ، وإذ كانت العقائد والعبادات هي أساس الاستقامة وإذ كان الشيطان بالمرصاد لسالك طريق الاستقامة ؛ فقد جاء التعريف بخطوات الشيطان والنهي عنها ، وإذ كان يُخشى على هذه

الأمة أن تقع فيما وقعت فيه أمم أخرى ؛ فقد نبهت على ذلك ؛ وإذ كانت هناك أمم ستسعى لإضلال هذه الأمة ؛ فقد نُبِّهت هذه الأمة على نماذج من وسائل هؤلاء وأقاويلهم وكل ذلك يأتي سابقاً للقسم الثالث الذي يبدأ بالدعوة إلى الدخول في الإسلام كله ، وذلك بعد أن ذكرت كل المقدمات اللازمة لهذه الدعوة وقبول تفصيلاتها .

لقد بدأت السورة في تصنيف الناس إلى متقين ، وكافرين ، ومنافقين ، ثم دعت الناس جميعاً للسير في طريق العبادة لله ليكونوا من المتقين وسار السياق موضحاً ، وقاصاً ، وواعظاً ، ولافتاً النظر ، ومناقشاً للآخرين ، ومؤكداً معاني ، وذاكراً نماذج ، وداعياً إلى تفصيلات حتى استقر السياق على آية البر التي حددت المواصفات الرئيسية للمتقين ، من إيمان ، لصلاة ، لزكاة ، لإنفاق ، لصبر ، لوفاء عهد .

ثم نادى السياق المؤمنين مرتين : مرة في شأن القصاص ، ومرة في شأن الصيام . وبيَّن أن القصاص طريق للتقوى . وأن الصيام طريق للتقوى ، وذكرت الوصية بين النداءين ، ثم ذكر الصيام والحج . وهما الركنان الرابع والخامس في الإسلام . وبدونهما لا يكون الإنسان تقيًّا ، ومعهما تتأكد التقوى . وما بين الكلام عن الصيام والحج ذكرت قضايا تصحح مفاهيم عن التقوى . فذكر القتال ، والإنفاق في سبيل الله . وذكر غير ذلك . والصلة بين القتال والإنفاق ، وبين الصوم والحج واضحة . فالصوم صبر . قال ﷺ : « الصوم نصف الصبر » . والقتال يحتاج إلى صبر . والحج بذل جهد ومال . وإنفاق المال في الجهاد من هذا النوع .

ثم بعد الحج ذكر السياق صنفين من الناس ليعلم أن التقي هو من باع نفسه كلها لله ، وأن المنافق شأنه غير ذلك .

فالسياق تدرج في تربيتنا حتى نصل إلى مقام بيع النفس في سبيل الله . وقبل ذلك حذرنا أن نكون من نوع آخر ، ظاهره مسلم ، وباطنه منافق خبيث حتى إذا وصلنا إلى مقام بيع النفس لله فصفت النفس خالصة لله ، يبدأ قسم جديد بأمر جديد ، بخطاب جديد :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾ أي : في الإسلام كله .

القسم الثالث
من أقسام سورة البقرة

ويمتد من الآية (٢٠٨ - ٢٨٤)

القسم الثالث من أقسام سورة البقرة

يبدأ هذا القسم بالآية (٢٠٨) وينتهي بنهاية الآية (٢٨٤) حيث تأتي بعده مباشرة خاتمة السورة . يبدأ القسم بآيةٍ هي مفتاح سياقه كله وهي : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافَّة ..** ﴾ . فهذه الآية دعوة إلى الدخول في الإسلام كله . والإسلام : عقائد ، وعبادات ، وشعائر ، ومناهج حياة وغير ذلك . فإذا صفت النفس وخلصت كما رأينا في السياق ﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ..** ﴾ فقد أصبح عندها استعداد لأن تلتزم بأحكام الإسلام كلها ، وأن تفهم هذه الأحكام ، وأن تستسلم لله فيها . فجاء هذا القسم دعوة للدخول في الإسلام كله ، ونهياً عن متابعة خطوات الشيطان ، وعرضاً لكثير من أحكام الإسلام .

فبعد مقدمة واعظة يذكر القسم أحكاماً في الإنفاق . ويقرر فريضة القتال ، ويعرض لأحكام في الخمر والميسر ، وفي شأن اليتامى ، وفي شأن الزواج ، وفي شأن الحيض ، وفي شأن الأَيْمان . ويفصِّل في أحكام كثيرة ، لها صلة بالطلاق ، وأحكام الوفاة ، وكثير من الأمور الزوجية ، وبعض أحكام الصلاة ، ويذكر القسم أموراً لها صلة بالسياسة ، والحرب ، والاقتصاد .

إن من أعظم مشكلات العالم المعاصر : قضايا الأسرة ، والاجتماع ، والأحوال الشخصية وقضايا السلم والحرب ، وقضايا الاقتصاد ، والقسم حديث عن هذا كله وعن غيره ، وكل ذلك يأتي في سياق الأمر بالدخـول في الإسلام جميعـاً . وفي ذلك درس ، أيّ درس للواهمين بأن الإسلام يقبل شريكاً في تغطيته لشؤون الحياة .

يتألف القسم من مقطعين كبيرين : الأول منهما يبدأ بقوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ . وينتهي بالآية (٢٥٣) : ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض . منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدُس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد** ﴾ .

والمقطع الثاني يبدأ بقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ .

وينتهي بآخر آية في القسم :

﴿ لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ .

والذي دلنا على بداية القسم ونهايته ، المعاني أولاً ، ثم بعض العلامات . فمثلاً سُبق هذا القسم بفقرة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس ..** ﴾ . كما سُبق القسم الأول والثاني . فتلك علامة . ولقد ذكر في الآية الأولى منه ؛ النهي الذي ورد في بداية القسم الثاني : ﴿ **ولا تتَّبعوا خُطوات الشيطان** ﴾ . فكان ذلك علامة ثانية . ودلناعلى المقطع الأول ، عرض المعاني فيه . فإنه لم يرد فيه ما يدل على فصل بين فقراته ، ودلنا على المقطع الثاني فيه ، أنه كله في شأن المال ، أو فيما يخدم أمراً مرتبطاً بذلك فلنر المقطع الأول .

المقطع الأول :

يمتد هذا المقطع من الآية (٢٠٨) وينتهي بنهاية الآية (٢٥٣) وفيه مواضيع متعددة ، وفقرات كثيرة . وسنعرضه فقرة .. فقرة .

الفقرة الأولى :

تمتد هذه الفقرة من الآية (٢٠٨) إلى نهاية الآية (٢٢٠) . وهذه هي :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ

ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

كلمة في هذه الفقرة :

تبدأ هذه الفقرة بمقدمة آمرة ، ناهية ، واعظة . هي بمثابة المقدمة للقسم كله وللمقطع الذي هي فيه . ثم تأتي آيتان هما بمثابة التمهيد لفريضة القتال ، ثم تأتي فريضة القتال ، ثم سؤال عن أحكام في القتال ، ثم قاعدة ، ثم أسئلة وأجوبتها .

تبدأ الفقرة بالأمر بالدخول في الإسلام كله . والنهي عن اتباع خطوات الشيطان . ودواء الزلل إن حدث ، ثم تذكّر بيوم القيامة ، وبعض ما يكون فيه ، ثم تحذّر من

كفران نعمة الوحي ، والبينات والمعجزات ، وتحذّر من سلوك طريق الكافرين في أمر تزيين الدنيا ، وكل ذلك مقدمة لتفصيلات الأحكام الإسلامية في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله ، ثم تأتي آية فيها تبيان لحكمة إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتذكير بمنّة الله على من يشاء هدايته ، وصلة ذلك بتفصيل الأحكام الإسلامية في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله لا تخفى .

وبعد هذا تأتي آيتان بين يدي الآية التي تذكر فريضة القتال ، آية تصحح مفهوماً خاطئاً هو أن يتصور متصور أنه لا ابتلاء ، ولا شدة . وآية حول الإنفاق ، وصلته بالقتال لا تخفى . وتأتي الآية التي تفرض القتال ، ثم آية في تفصيل الجواب حول موضوع مرتبط بالقتال ، وفيها ما هو كالتعليل لفريضة القتال . وفي هذا السياق تأتي آية لتصحيح مفهوم الرجاء الذي يغلط فيه أكثر الخلق ، فتبين أن الذين يرجون رحمة الله هم من اجتمع لهم إيمان ؛ وهجرة ؛ وجهاد ، حيث تكون الهجرة والجهاد واجبين ، ثم تأتي أجوبة على ثلاثة أسئلة : سؤال حول الخمر والميسر ، وهما داء العسكريين في العالم كله . وسؤال حول الإنفاق ، وهو لابد منه للقتال . وسؤال عن اليتامى . والحرب تخلف يتامى كثيرين . وبهذا تنتهي الفقرة ، وتبدأ فقرة جديدة .

لاحظ الآن أن آخر آية في المقطع الأول من هذا القسم فيها : ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات . ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر** ﴾ . لاحظ هذه الآية ، ولاحظ أن هذه الفقرة التي هي مقدمة المقطع ، ومقدمة القسم فيها كلام عن البينات ، وعن الاختلاف ، وعن القتال .

﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات** ﴾ .

﴿ **وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم** ﴾ .
﴿ **كتب عليكم القتال** ﴾ . وهذا يؤكد أن ما ذكرناه هو بمجموعه فقرة مترابطة . وأن تحديدنا لبداية المقطع ونهايته ، كان صحيحاً .

ولنبدأ عرض آيات الفقرة :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ .

المعنى العام :

يقول الله تعالى آمراً عباده المؤمنين به ، المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عزى الإسلام ، وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك زواجره ما استطاعوا من ذلك ، وأن يجتنبوا ما يأمر الشيطان به . ثم خاطبهم جل جلاله محذراً بأنهم إن عدلوا عن الحق بعدما قامت عليهم الحجج ، فليعلموا أن الله عزيز في انتقامه ، ولا يفوته هارب ، ولا يغلبه غالب . ينتصر ممن كفر به . حكيم في أحكامه ، ونقضه وإبرامه .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافَّة** ﴾ : أي في الإسلام جميعاً . قاله ابن عباس وأبو العالية ، والربيع بن أنس . وهو الذي رجحه ابن كثير . ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ : بالاقتداء به ، والائتمار بأمره ، والاتباع لوساوسه . ﴿ **إنه لكم عدو مبين** ﴾ : أي ظاهر العداوة . قال مطرف : (أغشّ عباد الله لعبيد الله الشيطان) . وما أوضح عداوته لمن تأمل ما يدعو إليه !!. وأي عدو أعدى ممن يدعوك إلى النار ، ويوصلك إليها ؟ . ﴿ **فإن زللتم** ﴾ : أي ملتم عن الدخول في السلم ﴿ **من بعد ما جاءتكم البينات** ﴾ : أي الحجج الواضحة ، والشواهد اللائحة على أن ما دعيتم إلى الدخول فيه هو الحق . ﴿ **فاعلموا أن الله عزيز** ﴾ : أي غالب لا يمنعه شيء من عذابكم . ﴿ **حكيم** ﴾ : في أمره وحجته ، لا يعذب إلا بحق .

فائــــدة :

قرأ قارىء الآية الأخيرة ، وختمها بـ (غفور رحيم) . فقال أعرابي منكراً على القارىء : (الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل والعصيان ، لأنه إغراء عليه) . فانظر ما أدقَّ هذا الفهم ، وما أعظم هذا القرآن الذي لا يكون شيء فيه إلا على غاية الحكمة ، والعلو . ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ، وقضي الأمر وإلى الله تُرجع الأمور** ﴾ . هذا الخطاب فيه تهديد للكافرين ، وللذين يتبعون خطوات الشيطان ، وللذين يزلون عن طريق الله . هذا تهديد لهم بيوم القيامة ، لفصل القضاء بين الأولين والآخرين . فيجزي كل عامل بعمله . إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فالصلة بين الآية وما قبلها واضحة .

المعنى الحرفي :

﴿ **هل ينظرون** ﴾ : أي ما ينتظرون . ﴿ **إلا أن يأتيهم الله في ظلل** ﴾ الظلل : جمع ظلة ، وهي ما أظلك . ﴿ **من الغمام** ﴾ أي : السحاب ﴿ **والملائكة** ﴾ : معطوف على لفظ الجلالة ، أي وتأتي الملائكة . ﴿ **وقُضي الأمر** ﴾ : أي وتم أمر إهلاك من يستأهل الهلاك بالحكم عليه بالعذاب . وفرغ منه . ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ : فهو مرجعها كلها . إذ هي كلها بعلمه ، وإرادته ، وقدرته . وإذ ملك العباد بعض الأمور في الدنيا ، فإنها يوم القيامة إليه جميعاً .

فـوائـد :

١ - ذكر ابن جرير بهذه المناسبة حديثاً طويلاً لبعضه علاقة بالاية وهذه فقرة منه : « أن الناس إذ اهتموا لموقفهم في العرصات ، تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً ، واحداً ، من آدم فمن بعده . فكلهم يحيد عنها ، حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ .فإذا جاءوا إليه قال : أنا لها ، أنا لها . فيذهب فيسجد لله تحت العرش ، ويشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد فيشفِّعه الله ويأتي في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا ، وينزل من فيها من الملائكة ، ثم الثانية ، ثم الثالثة إلى السابعة . وينزل حملة العرش ، والكروبيون وقال : وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام ، والملائكة ، ولهم زجل من تسبيحهم يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان الحيّ الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت . سبوح قدّوس ، ربّ الملائكة والروح ، سبوح قدّوس ، سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذي السلطان والعظمة ، سبحانه سبحانه أبداً أبداً » .

٢ - يدور صراع كبير بين اتجاهين حول هذه الآية عند قوله تعالى : ﴿ **إلا أن يأتيهم الله** ﴾ : اتجاه يحارب أي تقدير في فهم الآية . والاتجاه الثاني يقدر محذوفاً هنا أخذاً من آية النحل إذ يقول تعالى هناك : ﴿ **أو يأتي أمر ربك** ﴾ فيقولون هذه الآية شبيهة بالآية تلك . فتلك من باب البيان لها . وعلى هذا فالتقدير هنا : هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمر الله بفصل القضاء ، وبالتعذيب وبالبأس ، في ظلل من الغمام ، وتأتي الملائكة ؟ والجميع متفقون على تنزيه الله عن صفات الحوادث . وأنه ليس كمثله شيء في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله . ولنا عودة على هذا الموضوع .

٣ – إن مجيء هذه الآية هنا بعد الأمر بالدخول في الإسلام كله ، وعدم اتباع خطوات الشيطان ، يشير إلى أن الإنسان ما لم يتذكر موقفه بين يدي الله يوم القيامة ، فإنه لا يقيم أمر الله ونهيه . وإنَّ لفت النظر إلى هذا الموضوع بعد تلك الآية يدل على أن علينا أن نرقِّي مشاعر الإنسان في تذكر اليوم الآخر ، حتى يمكن أن يكون وقَّافاً عند حدود الله ، وما لم يستطع المسلم أن يرتقي بقلبه إلى مثل هذه التصورات ، يكون بعيداً ، ولا تظهر قدرة المربين كقدرتهم على نقل الإنسان إلى هذه الأحوال . قال حنظلة : (نكون عند الرسول ﷺ فيذكرنا بالجنة والنار فكأنا رأي عين) ، أخرجه مسلم .

٤ – إن من مصادر الخطأ في باب المعرفة ، أن نتجاوز قدرنا في باب التصورات والقوانين فنُخضع الذات الإلهية ، وصفاتها لتصورات مقيسة على الخلق . إذ كل ما خطر ببالك ، فالله بخلاف ذلك . أو نُخضع عالم الآخرة ، لقوانين الحياة الدنيا . فللآخرة قوانينها الخاصة التي قد تتفق مع قوانين الحياة الدنيا أو لا تتفق . ﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدِّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ .

ما الرابط بين هذه الآية وما قبلها ؟ جاء قبلها أمر بالدخول في الإسلام كله . ونهي عن اتباع خطوات الشيطان ، وتهديد لنا في حالة الزلل ﴿ **من بعد ما جاءتكم البينات** ﴾ .

وهل يكون مع الحجج الواضحة زلل ؟ . نعم يكون . وهل تستبدل أمة النعمة بالكفران ؟ . نعم تستبدل . وهل يعاقب الله أمة أنعم عليها بأن هداها ، وبعث لها رسلاً ؟. نعم يعاقب . فهؤلاء بنو إسرائيل ، سلهم كم أنزل عليهم من آية بينة . ومع ذلك بدَّلوا نعمة الله من بعد ما جاءتهم . فكيف كان الأمر ؟ . كان العقاب . لأن جلال الله عظيم . فيا هذه الأمة : إيَّاكِ وقد جاءتك البينات أن تستبدِلي نعمة الله ، فقومي بحق الله بتنفيذ أمره واجتناب نهيه . ولا تتبدَّلي نعمة الله عليك كفراً ، فتحرِّفي ، وتبدِّلي ، وتفسقي أو تكفري . فإن فعلت فإن الله سيعاقبك كما عاقب بني إسرائيل .

المعنى العام :

يذكر تعالى مخبراً عن بني إسرائيل ، كم شاهدوا مع موسى من آية بينة ، أي حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به . كاليد ، والعصا ، وفلقه البحر وضربه الحجر ، وما كان

من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر ، ومن إنزال المنّ والسلوى ، وغير ذلك من الآيات البينات ، الدالات على وجود الفاعل المختار ، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه . ومع هذا أعرض كثير منهم عنها . وبدّلوا نعمة الله كفراً . فاستبدلوا بالإيمان بها ، الكفر بها والإعراض عنها . فاستحقوا بذلك عقوبة الله في الدنيا ، وعقوبته في الآخرة .

المعنى الحرفي :

﴿ **سَلْ** ﴾ : أي اسأل ، وهو أمر للرسول ﷺ أو لكل أحد . ﴿ **بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة** ﴾ : على أيدي أنبيائهم . وهي معجزاتهم . ﴿ **ومن يبدّل نعمة الله** ﴾ : وتبديلهم إياها ، أن الله أظهرها لتكون أسباب هداهم . فاختاروا الضلال بدل الهدى . وأعظم نعم الله : آياته وشريعته . فآياته سبب الهدى ، والنجاة من الضلالة . وشريعته سبب الهدى في كل شأن . ﴿ **من بعد ما جاءته** ﴾ : أي من بعد ما عرفها ، وصحت عنده ﴿ **فإن الله شديد العقاب** ﴾ : أي لمن استحق عقابه .

فـائـدة :

يدخل في تبديل نعمة الله : أن نستبدل بقانون إسلامي قانوناً غير إسلامي ، وبدستور الإسلام دستوراً غير إسلامي ، وبنظام الله نظامَ البشر ، وبالأخلاق الإسلامية الأخلاق الجاهلية ، وبمفاهيم الإسلام مفاهيم الجاهلية . وقد فعلت أمتنا هذا كله . فهل تستغرب بعد ذلك عقاباً ينزله الله بنا ؟! اللهم إنا نسألك رحمتك .

﴿ **زُيِّنَ للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة . والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ .

قد يتساءل متسائل : ما أسباب الزلل ؟ . وما أسباب استبدال نعمة الله بغيرها ؟ في هذه الآية الجواب . فإذا أدركنا هذا ، عرفنا الرابطة بين هذه الآية وما قبلها في الفقرة .

إن سبب الزلل ، واستبدال نعمة الله كفراً ، إنما هو الحياة الدنيا ، وزينتها ، وشهواتها ، والكبر الموجود في قلوب الكافرين مما يجعلهم يحتقرون أهل الإيمان ، ويزدرونهم ، فيستكبرون بالتالي عن متابعتهم ، أو الكون منهم . وذلك أول خطوة من خطوات الشيطان . ولئن فات أهل الإيمان شيء من الدنيا وحظها بسبب الالتزام بشرع

الله ، فإن الله يُعوضهم عن ذلك الآخرة . وقد يعطي الله عباده المؤمنين ، الدنيا والآخرة .

المعنى العام :

يخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين ، الذين رضوا بها ، واطمأنوا إليها ، وجمعوا الأموال ، ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها مما يرضي الله عنهم . وسخروا من الذين آمنوا ، الذين أعرضوا عنها ، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم ، وبذلوه ابتغاء وجه الله . فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم . فكانوا فوق أولئك في محشرهم ، ومنشرهم ، ومستقرهم ، ومأواهم . فاستقروا في الدرجات ، في أعلى عليين . وخلد أولئك في الدركات ، في أسفل سافلين . ومن شأنه جل جلاله أن يرزق من يشاء من خلقه ، ويعطيه عطاءً كثيراً ، جزيلاً بلا حصر ، ولا تعداد في الدنيا والآخرة .

المعنى الحرفي :

﴿ **زُيِّنَ للذين كفروا الحياة الدنيا** ﴾ : المزيِّن على الحقيقة ؛ هو الله الخالق لكل شيء . وقد زين الحياة الدنيا للكافرين عقوبة لهم ، بأن جعل عندهم استعداداً للاستغراق في شهواتها ، وبأن سلط عليهم الشيطان ، يحسِّنها في أعينهم ، ويحببها إليهم بوساوسه . فيصبحون ، ولا يريدون غيرها . ﴿ **ويسخرون من الذين آمنوا** ﴾ : أي وهم يسخرون ممن لاحظّ له فيها . أو ممن يطلب غيرها ، وهم أهل الإيمان . ﴿ **والذين اتقوا** ﴾ : أي تحققوا بالتقوى حالاً وعملاً ﴿ **فوقهم يوم القيامة** ﴾ : لأن المتقين في جنة عالية . وهم في نار هاوية . ﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ : أي بغير تقتير . فمن شأنه جل جلاله أن يوسّع على من أراد التوسعة عليهم في الدنيا وفي الآخرة . وإذا وسّع على أحد في الدنيا ، فإنما ذلك ابتلاء ليستخرج شكر المؤمن ويستدرج الكافر ، وإذا ضيّق على أحد في الدنيا ، فإن كان كافراً فلعله يرجع ، وإن كان مؤمناً فليصبر ، وليعلم عباده أن التوسعة في الدنيا ليست ملازمة للكرامة .

فوائـــد :

١ - الفارق الرئيسي بين أهل الكفر ، وأهل الإيمان في الهدف أن الكافر ليس له هدف إلا في الدنيا : مال ، شهوات ، جاه ... أما المؤمن ، فليس له هدف إلا وجه

الله ، ونيل رضوانه في الآخرة ، والدنيا بالنسبة له طريق ومعبر ومَمَر .

٢ - في مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال : « الدنيا دار من لا دار له . ومال من لا مال له . ولها يجمع من لا عقل له » . ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعثَ الله النبيِّن مبشِّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ .

المعنى العام :

كان الناس على ملَّة آدم حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم الرسل ، وتتابع إرسال الرسل بالتبشير والإنذار . وأنزل مع الرسل الكتاب المَرْجِعَ للناس في شؤونهم كلها ، وجعل الكتاب من الوضوح والحجة بحيث لا يُمترى فيه ، ومع ذلك اختلف الناس بعدما قامت الحجج عليهم . وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض . أما أهل الإيمان فإن الله عز وجل تولى هدايتهم إلى الحق عند الاختلاف ، فكانوا على ماجاءت به الرسل قبل الاختلاف . فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف ، واعتزلوا الاختلاف . وكانوا بذلك شهداء على الناس في كل عصر ، وحجة على الخلق . وذلك شأن الله . يهدي من يشاء من خلقه إلى صراطه المستقيم عدلاً ، وفضلاً .

المعنى الحرفي :

﴿ **كان الناس أُمة واحدة** ﴾ : أي متفقين جماعة واحدة على الإسلام الخالص من بعد آدم . ثم حدث الخلاف . ويدل على ذلك ما جاء في الآية بعد ﴿ **ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** ﴾ . ويدل على ذلك القول الأصحّ عن ابن عباس قال : « كان بين نوح وآدم ، عشرة قرون . كلهم على شريعة الحق ، فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » . ﴿ **فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾ . أي فأرسل الرسل عليهم السلام مبشرين بالثواب للمؤمنين ، ومنذرين بالعقاب للكافرين . ﴿ **وأنزل معهم الكتاب بالحق** ﴾ : **قال النسفي** : (أي أنزل مع كل واحد منهم كتابه بتبيان الحق) ﴿ **ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** ﴾ : أي ليحكم الكتاب بين الناس في دين الإسلام الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق ، فيرجعون إلى الإسلام ، ويبقون عليه . ﴿ **وما اختلف فيه** ﴾ : أي في الحق . ﴿ **إلا الذين أوتوه** ﴾ : أي إلا الذين أوتوا هذا

الحق المتمثل بكتاب الله وهدي الرسل . ﴿ **من بعد ما جاءتهم البينات** ﴾ : من بعد ما قامت الحجج عليهم على صدقه . ﴿ **بغياً بينهم** ﴾ : هذا سبب خلافهم : حسداً بينهم ، وظلماً لحرصهم على الدنيا ، وقلة إنصاف منهم . ﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه** ﴾ أي : فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلف فيه من اختلف بإذنه وقال ابن جرير : (أي بعلمه بهم ، وبما هداهم له) . ﴿ **والله يهدي من يشاء** ﴾: من خلقه . ﴿ **إلى صراط مستقيم** ﴾ : لا عِوَجَ فيه ظاهراً وباطناً ، عقائد وعبادات ، ومناهج حياة ، شعائر وشرائع ومشاعر .

فـوائـد

١- قال أبو العالية : (في هذه الآية : المخرج من الشبهات ، والضلالات ، والفتن) . وذلك أن هذه الآية بينت أن سبب الاختلاف هو الحسد . فمن أراد الحق فعليه أن يتحرّر من الحسد . ومن أراد الحق ، فليحقق الإيمان في نفسه . فإن الله – عز وجل – يهدي أهل الإيمان إلى الحق في قضايا الاختلاف ، رحمة بهم .

٢ – بمناسبة هذه الآية يروي عبد الرزاق حديثاً يرويه أبو هريرة تفسيراً لقوله تعالى : ﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه** ﴾ : قال عليه الصلاة والسلام : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة . نحن أول الناس دخولاً الجنة . بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا . وأوتيناه من بعدهم . فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه . فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه . فهدانا الله له . فالناس لنا فيه تبع . فغداً لليهود ، وبعد غد للنصارى » . يفهم من الحديث أنه ما من قضية اختلف فيها الناس من أمر الدين ، إلا وفي كتابنا بيان الحق فيها .

٣ – في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السمٰوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك . إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » . وفي الدعاء المأثور : « اللهم أرِنا الحق حقاً ، وارزقنا اتّباعه . وأرِنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه . ولا تجعله ملتبساً علينا فنضلّ . واجعلنا للمتقين إماماً » .

٤ – قال تعالى في الآية : ﴿ **وأنزل معهم الكتاب بالحق** ﴾ . يقول المفسرون :

« المقصود هنا جنس الكتاب » . فهل يفهم من ذلك أن كل رسول أنزل معه ما يمكن أن يسمى كتاباً ، إما حقيقة وإما مجازاً ؟ . فإذا كان الأمر كذلك ، وعلمنا أنه ما من أمة ، إلا وأرسل لها رسول ، كما نصّ القرآن . عرفنا سر وجود كتب فيها معان إسلامية عند أمم كالفرس ، والهنود ، وغيرهم . غير التوراة ، والإنجيل ، والزبور . ولكنها خولطت ، وغيرت ، وبدِّلت ، كما حدث للتوراة ، والإنجيل ، والزبور .

٥ - الصلة ما بين هذه الآية وما قبلها واضح . فالمقطع دعوة إلى الدخول في الإسلام كله . وعدم اتباع خطوات الشيطان . وهذه الآية تزيد هذا المعنى وضوحاً . إذ الدخول في الإسلام كله هو الوضع الصحيح للبشرية والدخول في الإسلام كله ، اتباع للكتاب كله ، وتحكيم له في كل شيء ، والدخول في الإسلام كله يقتضي أن تكون صورة الإسلام المبينة في الكتاب واضحة ، وترك اتباع خطوات الشيطان يقتضي عدم الاختلاف في الكتاب . ويقتضي ترك الحسد والبغي ، والدخول في الإسلام كله يحتاج إلى هداية خاصة من الله . وهذه يعطيها الله لأهل الإيمان . فلنؤمن . فالارتباط بين هذه الآية ، وما قبلها على غاية الوضوح . وتأتي الآن آيتان فيهما تصحيح مفهوم ، وإجابة على سؤال . وهما بمثابة التمهيد لفرضية القتال .

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خَلَوْا من قبلكم مسَّتْهم البأساء والضراء وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب * يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل . وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ . ارتباط الآيتين بما قبلهما واضح . وذلك أن الدخول في الإسلام كله يقتضي صراعاً . ويستتبع تضحيات ، ومواقف . ويقابل من أعداء الله بمجابهة ، ويترتب على ذلك ما يترتب . وإذا كان كثيرون من الناس قد يتوهمون أن حمل دين الله يقتضي أن يعيش الإنسان في منتهى الراحة ، والدعة ، والأمن . فإن الآية الأولى جاءت لتصحيح هذا المفهوم .

ثمَّ تأتي الآية التالية لتبين جانباً من دين الله كرد على سؤال له علاقة في الإنفاق .

وارتباط هذا بما بعده واضح ، فالارتباط بين الصبر والتحمل ، والرغبة بالنصر والإنفاق ، وبين القتال ، الذي هو موضوع المجموعة التالية لا يحتاج إلى مزيد تأمل .

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتِكُم مَثل الذين خَلَوا من قبلكم مستهم البأساء

والضراء وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب ﴾ .

المعنى العام :

ينكر الله عز وجل على المؤمنين أن يتصوروا أن دخول الجنة يكون دون ابتلاء ، أو اختبار ، أو احتمال . ويبين جل جلاله أن الابتلاء هو سُنَّة الله في الذين قبلنا من الأمم . وابتلاء الله إنما يكون بالأمراض ، والأسقام ، والآلام والمصائب ، والخوف من الأعداء ، والفتنة عن الدين . وبيَّن الله عز وجل أن من سُنَّة الله أن يستمر هذا الابتلاء حتى يصل الضيق والشدة إلى منتهاه . ويكاد يفرغ صبر أهل الإيمان ويتساءلون : متى يكون النصر . عندئذٍ يُنزل الله نصره ، ويبعث فرجه .

المعنى الحرفي :

﴿ **أم حسبتم** ﴾ : أم هنا بمعنى : بل . والتقدير : (بل حسبتم) . والهمزة فيها للتقرير ، وإنكار الحسبان ، واستبعاده . والحسبان : الظن . بدأت الآية بإنكار مثل هذا التصور . ﴿ **أن تدخلوا الجنة** ﴾ : أي أن تستأهلوا دخول الجنة . ﴿ **ولما يأتكم** ﴾ : أي ولم يأتكم . وفي (لما) هنا معنى التوقع يعني أن إتيان ذلك متوقَّع منتظر . ﴿ **مَثل الذين خلوا من قبلكم** ﴾ : أي حال الذين مضوا من قبلكم من النبيين والمؤمنين . والتي هي مَثلٌ في الشدة . ﴿ **مستهم البأساء والضراء وزُلزلوا** ﴾ : هذا بيان للمثل . وهو استئناف . كأن قائلاً قال : كيف ذلك المثل ؟ . فقيل : مسّتهم .. والبأساء : الفقر . والضراء : السقم . ومعنى زُلزلوا : حُركوا بأنواع البلايا ، وأُزعجوا إزعاجاً شبيهاً بالزلزلة ؛ بالفزع والخوف . ﴿ **حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟** ﴾ : أي بلغ بهم الضجر إلى الغاية التي قالوا بها : ﴿ **متى نصر الله ؟** ﴾ . لم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك . ومعناه : طلب النصر ، وتمنّيه ، واستطالة زمان الشدة . والجواب : ﴿ **ألا إن نصر الله قريب** ﴾ .

فـوائـــد :

١ - في الحديث الصحيح عن خبَّاب بن الأَرتّ قال : « قلنا يا رسول الله : ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا . فقال : إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه . ويمشط بأمشاط الحديد ما بين

عظمه ولحمه ، لا يصرفه ذلك عن دينه » . ثم قال : « والله ليُتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . ولكنكم قوم تستعجلون » .

٢ – في حديث أبي رزين : « عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيثه . فينظر إليهم قانطين ، فيظل يضحك . يعلم أن فرجهم قريب » .

٣ – عندنا صورة تاريخية كاملة عن سُنَّة الله هذه ، من خلال سيرة رسولنا ﷺ وأصحابه . وقد قصَّ علينا القرآن الكثير عمن قبلنا . ولكن تبقى سيرة رسولنا ﷺ وأصحابه (رضي الله عنهم) هي النموذج العملي ، الكامل التفاصيل على هذه السنَّة .

ففي سورة الأحزاب وصف الله حالهم يوم الأحزاب : ﴿ **وزُلزلوا زلزالا شديداً** ﴾ . وفي سورة الحشر ، وصف الله المهاجرين فقال : ﴿ **والذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ...** ﴾ .

٤ – مما سأل عنه هرقل أبا سفيان من أمر رسولنا ﷺ هذا السؤال قال : هل قاتلتموه ؟ . قال : نعم . قال : فكيف كانت الحرب بينكم ؟ . قال : سجالاً . يدال علينا ، ونُدال عليه . قال : كذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لها العاقبة . ﴿ **يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل . وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم** ﴾ .

يلاحظ أنه في هذا المقطع قد ذكر القرآن ستة أسئلة وُجهت لرسول الله ﷺ . وذكر السياق جوابها ، وهذا أولها . ومجيء الأسئلة ضمن هذا السياق غير مستغرب ، فما دامت بداية السياق لها علاقة في الدخول بكل شرائع الإسلام ، وعدم اتباع خطوات الشيطان فشيء عادي أن يأتي في السياق أسئلة عن بعض شرائع الإسلام ، والأجوبة عليها . وفي هذه الآية سؤال عن كيفية الإنفاق ، ومحالِّه ، والأفضلية فيه ؟ فجاء الجواب مبيِّناً ذلك ، ومبيِّناً ترتيب الأفضلية بما ينسجم مع الفطرة حيث يُقدم الأقرب ، كما جاء في الحديث : « أمك ، وأباك ، وأختك ، وأخاك ، ثم أدناك .. أدناك » . والأحوج : اليتيم أولاً ، ثم المسكين ، ثم ابن السبيل . وليس من داع يدعو إلى القول بأن هذه الآية منسوخة ، لأنها في نفقة التطوع . لذلك علق ابن كثير على قول السدي بأن الآية منسوخة بآية الزكاة قال : (وفيه نظر) . وصاحب السؤال في هذه

الآية : عمرو بن الجموح رضي الله عنه وكان له مال عظيم . فسأل ماذا ننفق من أموالنا ؟ وأين نضعها ؟ . فكان الجواب هذه الآية !! ..

المعنى الحرفي :

﴿ **يسألونك ماذا ينفقون ؟** ﴾ : هذا هو السؤال ؛ وظاهر السؤال أنه ماذا يكون الإنفاق ؟ . فجاء الجواب متضمناً هذا ، ومتضمناً بيان المصرف . ﴿ **قل ما أنفقتم من خير** ﴾ : هذا بيان لما ينفقونه . وهو كل خير . والخير في كثير من آيات القرآن يأتي بمعنى المال . وهو هنا كذلك – والله أعلم – ﴿ **فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾ : هذا بيان المصرف . تلا ميمون بن مهران هذه الآية ثم قال : « هذه مواضع النفقة ؛ ما ذكر فيها طبلاً ولا مزماراً ، ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان » . فكأنه يشير بهذا إلى قوم ينفقون الكثير على الزينة لمسجد ولغيره ، يتقربون فيه إلى الله ، مع وجود من يحتاج . فهو ينكر مثل هذا – والله أعلم – ﴿ **وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم** ﴾ : أي مهما صدر منكم من فعل معروف فإن الله يعلمه ، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة . ثم تأتي في السياق مجموعة جديدة بعد أن سُبقت معانيها بتمهيد . ﴿ **كُتب عليكم القتال وهو كُره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون * يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه . قل قتالٌ فيه كبير . وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهلِه منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدِدْ منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهُم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم** ﴾ .

في هذا المجموعة ، فريضة ، وسؤال له علاقة بهذه الفريضة . وقاعدة عامة مرتبطة بهذه الفريضة . والفريضة ، فريضة القتال . وهذه الفريضة تأتي بالأهمية بعد الأركان الخمسة مباشرة لقوله ﷺ : « الإسلام ثمانية أسهم : الإسلام سهم ، والصلاة سهم ، والزكاة سهم ، والصوم سهم ، والحج سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهي عن المنكر سهم ، والجهاد سهم ، وقد خاب من لا سهم له » . وفي كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) بينا أن بين الجهاد ، وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوعاً من

الترادف ، والتلازم . فالجهاد أمر بمعروف خارج حدود أرض الإسلام . والأمر بالمعروف جهاد على الأرض الإسلامية ، ونلاحظ أنه في السياق العام في سورة البقرة قد جاءت هذه الفريضة بعد ما ذكر الحج . فالإيمان بالغيب ذكر أولاً . ثم الصلاة ، ثم الإنفاق الذي منه الزكاة ثم الصوم ، ثم الحج وههنا تذكر فريضة القتال . ويلاحظ أن هذه الفريضة قد ذكرت في سياق الأمر بالدخول بشرائع الإسلام عامة ، وسنرى أنه بدونها لا يبقى إسلام . ومن ثَمَّ نفهم حكمة ذكرها في هذا السياق . وإذ تكون أول فريضة منصوص عليها في السياق الجديد يفهم من ذلك أهميتها في موضوع الدخول في الإسلام كله فمن أراد أن يحقق أمر الله في الدخول في الإسلام كله فعليه أن يقاتل أو ينوي القتال :

﴿ كُتِبَ عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

المعنى العام :

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام ، مع علمه تعالى بشدة هذه الفريضة عليهم ، وكثرة مشقتها لما يترتب عليها من قتل ، أو جرح . ولما يكون فيها من مشقة سفر وتنقل ، ومجالدة عدو . ولكن الله عز وجل لا يفرض ما يفرض مراعاة لما يحب عباده أو يكرهون . بل مراعاة لما هو المصلحة لهم في دنياهم وأخراهم . إذ قد يكره العبد شيئاً ، وفيه الخير . وقد يحب شيئاً وفيه الشر . والله وحده هو الذي يعلم ، وغيره لا يعلم . فمن ثَمَّ هو الذي يشرع . ولا حق لغيره أن يشرع . وفي موضوعنا : ترك القتال ، يعقبه استيلاء الكفرة على البلاد والحكم . ويترتب عليه تعطيل أحكام الله . ويترتب عليه اغتيال العقيدة ، والشريعة . وفي القتال تكون كلمة الله هي العليا . وفي ذلك الخير كل الخير .

المعنى الحرفي :

﴿ كُتبَ عليكم القتال ﴾ : أي فرض **﴿ وهو كُره لكم ﴾** أي : وهو مكروه لكم . ووضع المصدر محل اسم المفعول لتبيان فرط الكراهية . **﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾** : ككراهة للقتال ، مع أن فيه إحدى الحسنيين : إما الظفر والغنيمة ، وإما الشهادة والجنة . **﴿ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾** : كحبنا

للقعود عن القتال مع ما فيه من الذلّ ، والفقر ، واستئصال الحق ، وحرمان الغنيمة والأجر . ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ : أي هو أعلم بما هو خير لكم . وهو أعلم بعواقب الأمور منكم . والأعلم بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم . فاستجيبوا له وانقادوا لأمره .

فـوائـد :

١ – قال الزهري : (الجهاد واجب على كل أحد غزا ، أو قعد ، فالقاعد عليه إذا استُعين ، أن يعين ، وإذا استُغيث أن يُغيث . وإذا استُنفر أن ينفر ، وإن لم يُحتج إليه ، قعد) . قال ابن كثير : ولهذا ثبت في الصحيح : « من مات ولم يغزُ ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات ميتة جاهلية » . وقال ﷺ يوم الفتح : « لا هجرة بعد الفتح . ولكن جهاد ونية . وإذا استنفرتم فانفروا » .

٢ – من أقوال الفقهاء في الجهاد : « الجهاد فرض كفاية ابتداء وإن لم يبدأنا الكفار بالقتال » . « وإياك أن تتوهم أن فرضيته تسقط عن أهل الهند بقيام أهل الروم مثلاً ، بل يفرض على الأقرب فالأقرب من العدو إلى أن تقع الكفاية ، فلو لم تقع إلا بكل الناس فُرض عيناً » . « والكلام كله في القتال ابتداء ولو لم يهاجمنا الكفار فآية : ﴿ **قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليَجِدُوا فيكم غلظة** ﴾ . (سورة التوبة)

تدل على أن الجهاد فرض على كل من يلي الكفار من المسلمين على الكفاية فلا يسقط بقتال الروم ممن يليهم عن أهل الهند مثلاً » .

«ويكون القتال فرض عين إن هجم العدو فيخرج الكل من ذكر وامرأة ومديون وغيرهم ، ولو بلا إذن زوج أو أب أو صاحب دين ، ويأثم الزوج والأب ونحوهما من المنع » . « ويجب أن لا يأثم من عزم على الخروج وقعوده لعدم خروج الناس وتكاسلهم أو قعود السلطان أو منعه » . (راجع حاشية ابن عابدين) .

٣ – تحدث الفقهاء عن صورة ما إذا كنا عاجزين عن مكافأة العدو فذكروا أنه يفترض علينا في هذه الحالة أن نعد العدة ونأخذ بالأسباب الموصلة إلى مكافأتهم وسيأتي معنا في هذا التفسير مزيد بيان في شأن القتال .

٤ – إن القاعدة العامة : أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . فإذا كان قتال الكافرين حتى تكون كلمة الله هي العليا في العالم فريضة . فإن كل المقدمات اللازمة

لذلك تكون من باب الفرائض ، من التكوين الجهادي إلى التنظيم المناسب الذي يقيم دولة الإسلام في كل قطر إسلامي ، إلى وحدة الأقطار الإسلامية إلى التصنيع والتخطيط إلى التعبئة الشاملة .

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتالٌ فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فَيَمُت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

سبب النزول :

أخرج ابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله : أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح . فلما ذهب ينطلق ، بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ فحبسه فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش ، وكتب له كتاباً ، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا . وقال : « لا تُكرهنَّ أحداً على السير معك من أصحابك » . فلما قرأ الكتاب ، استرجع وقال : سمعاً وطاعة لله ولرسوله . فخبَّرهم الخبر ، وقرأ عليهم الكتاب . فرجع رجلان وبقي بقيتهم . فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه . ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب ، أو من جمادى . فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام . فأنزل الله : **﴿ يسألونك عن الشهر الحرام .. ﴾** .

المعنى العام :

لما أكثر المشركون في تعيير المسلمين بالقتل في الشهر الحرام ، وإذ اشتد ذلك على المسلمين . وخاصَّة على من شاركوا في القتل ، أنزل الله عز وجل مبيناً أن الصدّ عن سبيل الله ، وعن المسجد الحرام ، وإخراج أهل المسجد الحرام منه ، وأن الكفر بالله أكبر من القتلِ في الشهر الحرام . وأن فتنة المسلم عن دينه حتى يُرَد إلى الكفر أكبر من القتل . فليكفّ المشركون عن استغلال هذه الحادثة ، وليطمئن المسلمون . ثم بين الله عز وجل حقيقةً : وهي أن أهل الكفر مقيمون على أخبث الكيد ، وأعظمه لأهل الإسلام . وهم مستمرون في قتال أهل الإسلام حتى يرتدوا عن الإسلام . وفي هذا كله بيان لحكمة القتال إذ بدون قتال تكون الفتنة عن دين الله ، ويكون استحلال كل

شعيرة ، وتكون الرِدة الشاملة عن دين الله . ثم بين الله عز وجل عقوبة من يرتد عن دينه ، إذ جزاؤه حبوط العمل ، والخلود في النار .

المعنى الحرفي :

﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه** ﴾ : السائل – كما قال عروة بن الزبير – هم وفد من مشركي قريش بعد الحادثة التي ذكرناها كسبب نزول . سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : أيحل القتال في الشهر الحرام ؟ . فالسؤال إذن عن القتال في الشهر الحرام . والجواب : ﴿ **قل قتالٌ فيه كبير** ﴾ : أي فيه إثم كبير . قال النسفي : وأكثر الأقاويل على أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ . وسواء كان النسخ ، أو لم يكن . فإنه يفهم من الآية أن المسلمين يحل لهم الجهاد في كل وقت . ﴿ **وصدٌّ عن سبيل الله** ﴾ : أي منع عن صراط الله . ﴿ **وكفرٌ به** ﴾ : أي وكفر بالله . ﴿ **والمسجد الحرام** ﴾ : أي وصدّ عن المسجد الحرام فالمسجد الحرام معطوف على سبيل الله . ﴿ **وإخراج أهله منه** ﴾ : أي وإخراج أهل المسجد الحرام ، وهم رسول الله ﷺ والمؤمنون من المسجد الحرام . ﴿ **أكبر عند الله** ﴾ : هذا خبر لكل ما سبق . فصار المعنى : أن الصدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام ، وإخراج أهل المسجد الحرام منه ، والكفر بالله ، أكبر عند الله من القتل في الشهر الحرام . فهِمَ من هذا أن ما فعلته السَرِية أقل مما فعله المشركون فما فعلته السرية إذن عدل ، وليس ظلماً . ﴿ **والفتنة أكبر من القتل** ﴾ : أي تعذيب الكفارللمسلمين ليفتنوهم عن دينهم أشد قبحاً ، وأعظم من القتل في الشهر الحرام . بله غيره . ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم** ﴾ : إلى الكفر . و (حتى) هنا معناها التعليل . أي يقاتلونكم ليردوكم . وهو إخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين . وأنهم لا ينفكّون عنها حتى يردوهم عن دينهم ﴿ **إن استطاعوا** ﴾ أي : إن استطاعوا أن يردوكم عن دينكم فلن يقصروا . والتعبير يشعر بعدم استطاعتهم بفضل الله . ﴿ **ومن يرتدد منكم عن دينه** ﴾ : أي ومن يرجع منكم عن الإسلام . ﴿ **فيمت وهو كافر** ﴾ : أي فيمت مرتداً . ﴿ **فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة** ﴾ : لما يفوتهم بالردة مما للمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام وفي الآخرة من الثواب ، وحسن المآب . ﴿ **وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ خلوداً أبدياً . لأنهم ماتوا على الكفر . والكافر لا يخرج من النار أبداً .

فـائـدة :

١ - فهم من هذه الآية حكمة فرض القتال ، وسبب وجوب قتال الكافرين . وذلك أنهم يصدون عن سبيل الله ، ويكفرون به ، ويفتنون المسلمين عن دينهم ويحرصون على تكفير المسلمين ، واستئصال الإسلام ؛ فمن ثَمَّ فرض الله علينا قتالهم .

٢ - احتج الشافعي رحمه الله بهذه الآية على أن الردة لا تحبط العمل حتى يموت عليها صاحبها . وقال الحنفية : إن الردة تحبط العمل مباشرة ، لقوله تعالى : ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله** ﴾ . (سورة المائدة) وسبب الخلاف يرجع إلى خلاف أصولي فعند الشافعي : المطلق يُحمل على المقيَّد . وعند الحنفية أن المطلق لا يُحمل على المقيَّد . ويتفرع على الخلاف في الحبوط المباشر للعمل ، أو عدمه ما يلي قال الشافعي : (إن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام لم يحبط عمله ، ولاحَجه الذي فرغ منه . بل إن مات على الردة ، فحينئذٍ تحبط أعماله . وقال مالك : تحبط بنفس الردة . ويظهر الخلاف في المسلم إذا حجّ ، ثم ارتد ، ثم أسلم . فقال مالك : يلزمه الحج . لأن الأول قد حبط بالردة . وقال الشافعي : لا إعادة عليه . لأن عمله باق) . ا.هـ من القرطبي .

وقال الحنفية : بمجرد الردة ينفسخ عقد نكاحه . وإذا عاد إلى الإسلام يلزمه عقد جديد على من كانت زوجته . وقال الشافعي : لا يلزمه عقد جديد إن عاد إلى الإسلام .

﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله** ﴾ هؤلاء الذين اجتمعت لهم هذه الصفات الثلاثة ﴿ **أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم** ﴾ .

هذه هي القاعدة التي ختم الله بها هذه المجموعة . وهي تبين أن من اجتمع له الإيمان والهجرة - حيث تجب الهجرة - والجهاد في سبيل الله . فهذا الذي يستأهل رحمة الله ، ويرجوها . وفي ذلك من الحض على الجهاد ، ومن التخويف من تركه الكثير ، وأكثر الناس عن هذه الآية غافلون . فهم يرجون رحمة الله - وهذا طيب - ولكن لا يفكرون في الجهاد ولا يهاجرون إذا وجبت الهجرة .

سبب نزول الآية :

إن المحنة التي مرت بها السَّرية إذ بقوا فترة وهم في حيرة وقلق قبل نزول الآية السابقة من أن يكونوا قد أثموا ، إذ قتلوا في الشهر الحرام - جعلتهم يتطلعون إلى غزوة أخرى

يكون لهم أجر فيها لا نزاع فيه . فأنزل الله فيهم هذه الآية ، فوضعهم على أعظم الرجاء . لا فيما يأتي فقط . بل فيما مضى ، كذلك قال ابن إسحق : (فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان ؛ حين نزل القرآن طمعوا في الأجر ، فقالوا يا رسول الله : أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا** ... ﴾ . فوضع الله منهم ذلك على أعظم الرجاء) .

فــوائــد :

١ - إن مجيء هذه الآية في نهاية هذه المجموعة ، وفي سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله . يصحح مفهوماً خاطئاً يمكن أن يقع فيه المسلمون ، وهو الرجاء بلا هجرة ولا جهاد . وفيه تهديد لمن ترك بعض شرائع الإسلام ولو أدَّى بعضاً .

٢ - كانت الهجرة في أول الدعوة الإسلامية مفروضة إلى المدينة . وبعد فتح مكة قال ﷺ « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » . أي لا هجرة بعد فتح مكة منها . لأنها أصبحت دار إسلام . ولكن ما حكم الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام ؟. ومن دار البدعة إلى دار السنَّة ؟

قال الحنفية : إنها واجبة من دار الحرب إلى دار الإسلام ، ومن دار البدعة إلى دار السنَّة ، وقال الشافعية : حيثما استطعت أن تعلن بالإسلام وتجهر به فأقم . فوجودك يجعل مكانك دار إسلام . ولكن حيث لا يستطيع الإنسان أن يجهر بدينه ، أو حيث يخشى على نفسه ، أو أهله الفتنة هل تجب عليه الهجرة أو لا ؟ . الظاهر إن كان يستطيع الهجرة إلى حيث يأمن فإنه يجب عليه .

ونعود إلى السياق :

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ، قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون * في الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم ﴾ .

ههنا ثلاثة أسئلة وأجوبتها . سؤال حول الخمر والميسر . وسؤال ثان حول الإنفاق . وسؤال ثالث حول اليتامى . والأسئلة الثلاثة جاءت في سياق الأمر بالدخول

في شرائع الإسلام كلها . وهذه أسئلة عن أحكام الإسلام في أمور ثلاثة وأجوبتها .

﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر ، قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ . روى الإمام أحمد عن عمر أنه قال : « اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً » . فنزلت هذه الآية التي في البقرة : ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر ...** ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه . فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً . فنزلت الآية التي في النساء : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارى** ﴾ . فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربن الصلاة سكران . فدعي عمر . فقرئت عليه . فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً . فنزلت الآية التي في المائدة . فدعي عمر فقرئت عليه . فلما بلغ : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ : قال عمر : انتهينا ، انتهينا . وفي رواية ابن أبي حاتم بعد قوله انتهينا : إنها تُذهب المال ، وتذهب العقل » . قال النسفي :(نزل في الخمر أربع آيات . نزل بمكة : ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكَراً ورزقاً حسنا ..** ﴾ . (سورة النحل) فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال . ثم إن عمر ونفراً من الصحابة قالوا : يارسول الله ! أفتنا في الخمر ، فإنها مُذهبة للعقل ، مُسلبة للمال . فنزل : ﴿ **يسألونك عن الخمر ..** ﴾ . فشربها قوم ، وتركها آخرون . ثم دعا عبد الرحمن بن عوف جماعة ، فشربوا ، وسكروا . فأمّ بعضهم فقرأ : « قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون .. » . فنزل : ﴿ **لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ . فقلّ من يشربها . ثم دعا عتبان بن مالك جماعة ، فلما سكروا منها ، تخاصموا ، وتضاربوا . فقال عمر : اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً . فنزل : ﴿ **إنما الخمر والميسر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ . فقال عمر : انتهينا يارب .

المعنى الحرفي :

﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر** ﴾ : عن تعاطيهما ، وعن حكم الله فيهما . والخمر : مصدر خَمّره خمراً إذا ستره . وسُمِّيت بذلك ، لسترها العقل . والميسر : القمار ، مصدر من يسر كالموعد من وعد . يقال : يسرته ، إذا قمرته . واشتقاقه من اليسر ، لأنه أخذ من مال الرجل بيسر ، وسهولة : بلا كد ، ولا تعب . أو من اليسار . لأنه سلب اليسار . ﴿ **قل فيهما إثم كبير** ﴾ : أي يحتويان آثاماً عظيمة بسبب التخاصم والتشاتم ، وقول الفحش والزور . ولما في الخمر من زوال العقل وفقدان

الاتزان . ولما يترتب على شربها من أخطاء وجرائم . ولما يترتب على شربها من نقصان أوقات الصحو للعبادة ولإقامة الدنيا . ولما في الميسر من خراب البيوت ، وتحطيم الأعصاب ، ووجود العداوة . ﴿ **ومنافع للناس** ﴾ ومنافع الخمر من حيث إن فيها أحياناً بعض النفع للجسد في بعض حالاته ، وفيها لذة لمن اعتادها ، وفيها مصالح اقتصادية في الزرع والتسويق والتجارة . ومنافع الميسر مثل ارتفاق الفقراء ، ونيل المال بلا تعب ، وقيام كثير من المؤسسات عليها وقد يستفيد من ذلك خلق كثير . ﴿ **وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ . فإذا قورنت المنافع بالمضار الآثمة فإن المضار أكثر . والذي يقول هذا هو الله المحيط علماً بكل شيء والذي وحده يملك الحكم الخالي من كل نقص ، أو جهل . وهكذا ينتهي الجواب عند هذا الحد . فكانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر والميسر على البتات . ولم تكن مصرِّحة بل معرِّضة . ولكنه التعريض الكافي لرفع الهمم إلى تركها ، ولإشعار المسلم بالمكان الأردأ لهاتين القضيتين . إذ ذكر الإثم مشعر بالخطأ ولكن بما يترتب عليهما ، وبما تحتويانه . فأصحاب الشرب والقمار ، يقترفون فيهما الآثام من وجوه كثيرة . ومن ثَمَّ يأثم متعاطيهما قبل التحريم القطعي . فمن الذي يستطيع أن يشرب الخمر ، ويلعب الميسر ، ولا يفعل أثراً محرماً من آثارهما ؟!

فـوائـــد :

١ - إن الميسر نقلٌ للملكية غير معقول . فأن تنتقل الملكية بضربة نَرْد ، أو باستقرار رقم ، أو ما أشبه ذلك . فذلك كله غير معقول في نقل الملك . لأنه لم يرافقه مقابل . ثم إن الميسر يتساقط حوله ، وحول مؤسساته آلاف من الناس ، يربحون دون أن يقدموا إنتاجاً حقيقياً للأمة .

٢ - **صفة الميسر في الجاهلية :**

قال النسفي : (كانت لهم عشرة أقداح : سبعة منها عليها خطوط ، وهي : الفذ وله سهم . والتوأم : وله سهمان . والرقيب : وله ثلاثة ، والحلس : وله أربعة . والنافس : وله خمسة ، والمسبِل : وله ستة ، والمعلّى : وله سبعة وثلاثة أغفال لا نصيب لها . وهي : المنيح ، والسفيح ، والوغد . فيجعلون الأقداح في خريطة ، ويضعونها على يد عدل . ثم يجلجلها ، ويدخل يده ، ويخرج باسم رجل ، قِدْحاً قدحاً منها . فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح . ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئاً ، وغُرِّم ثمن الجزور كله . وكانوا يدفعون تلك

الأنصباء إلى الفقراء ، ولا يأكلون منها ، ويفتخرون بذلك . ويذمون من لم يدخل فيه) . فأنت تلاحظ من صفة الميسر هذه أن ما يسمى باليانصيب اليوم الذي قد يكون قسم منه للفقراء ، والقسم الكبير منه يذهب إلى المؤسسات ، وإلى من يربح من أصحاب بعض الأرقام . هو من الميسر المحرم . ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قل : العفو** ﴾. أخرج ابن أبي حاتم أن معاذ بن جبل ، وثعلبة (رضي الله عنهما) أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول ﷺ ، إن لنا أرقاء وأهلين من أموالنا . فأنزل الله : ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قل : العفو** ﴾ .

والسؤال هنا – والله أعلم – عن مقدار ما ينفقون ، وما يتركونه لأنفسهم . فكان الجواب أن ينفقوا ما فضل عن مقدار حاجة أنفسهم وأهليهم . فلا ينفق الإنسان ما يجهده ، أو يجهد أهله ، ثم يقعد يسأل الناس . روى مسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : (قال رجل يا رسول الله! عندي دينار . قال : « أنفقه على نفسك » . قال : عندي آخر . قال : « انفقه على أهلك » . قال : عندي آخر . قال : « أنفقه على ولدك » . قال : عندي آخر . قال : « فأنت أبصر ») . وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى . واليد العليا خير من اليد السفلى . وابدأ بمن تعول » . وهل الأمر بإنفاق العفو كان فرضاً في أول الإسلام ثم نسخت الفريضة بآية الزكاة ، وبقي إنفاق العفو على الندب ؟ . قاله ابن عباس ، ولم يذكر النسفي غيره . أو أن الأمر بإنفاق العفو كان مندوباً في الأصل ، وبقي على الندب ثم جاءت آية الزكاة لتحدد المفروض ؟ . أو أن الأمر بإنفاق العفو كان فرضاً ، وجاءت آية الزكاة لتحدد هذا العفو الواجب ، فآية الزكاة إذن مبيِّنة ؟ . قاله مجاهد وغيره . قال ابن كثير : وهو أَوْجَه ، وعلى كل حال ، فالزكاة هي فريضة المال ، وفي المال واجبات أخرى . ويبقى إنفاق ما زاد عن الحاجة نافلة . وفي الحديث : « ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك . ولا تلام على كفاف » .

﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون * في الدنيا والآخرة** ﴾ : أي مثل هذا التبيين المارّ بيّنه الله لكم لعلكم تتفكرون فيما يتعلق بالدارين . فتأخذون بما هو أصلح لكم ، أو تتفكرون في الدارين ، فتؤثرون أبقاهما ، وأكثرهما منافع . فصار المعنى العام : كما فصّل لكم هذه الأحكام ، وبيّنها ، وأوضحها ، كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ، ووعده ، ووعيده ، لعلكم تتفكرون في شأن الدنيا ، وفنائها . وأنها دار بلاء ، ثم دار فناء . وإقبال الآخرة ، وبقائها . وأنها دار جزاء ، ثُمَّ دار بقاء فتعلمون

فضل الآخرة على الدنيا ، وتؤثرون الآخرة عليها . نفهم من هذا أن من حكم نزول القرآن العظيم بآياته كلها ، إثارة تفكير الإنسان . فمن لم يستثر القرآن تفكيره في أمر الدنيا والآخرة ، فإنه لا يكون قد حقق الحكمة من هذا البيان الواضح في القرآن .

﴿ ويسألونك عن اليتامى، قل : إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم ﴾ .

عن ابن عباس قال : لما نزلت : **﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾** (سورة الأنعام) و **﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾** . (سورة النساء) انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه . فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله ، أو يفسد . فاشتد ذلك عليهم . فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ . فأنزل الله : **﴿ ويسألونك عن اليتامى ، قل : إصلاح لهم خير .. ﴾** . رواه أبو داود والنسائي .

المعنى الحرفي :

﴿ يسألونك عن اليتامى ... ﴾ أي: عن مخالطتهم في الطعام والشراب ، بجعل الطعام والشراب مشتركاً بين اليتيم ووصيِّه ، وأمثال ذلك . والجواب **﴿ قل : إصلاح لهم خير ﴾** : أي مداخلتهم على وجه الإصلاح خير لهم ولأموالهم وخير من مجانبتهم ويحتمل أن يكون المراد بالإصلاح عزل طعامهم وشرابهم على حِدة . **﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾** : أي وإن خلطتم طعامكم بطعامهم ، وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم ، لأنهم إخوانكم في الدين . قالت عائشة : « إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي على حِدة حتى أخلط طعامه بطعامي ، وشرابه بشرابي » . **﴿ والله يعلم المفسد ﴾** : لأموالهم . **﴿ من المصلح ﴾** : لها . أي : يعلم من قصده ونيته الإفساد ، أو الإصلاح ، فيجازيه على حسب مداخلته ، فاحذروه .

﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ : العنت هو المشقة ، والحرج . أي : لو شاء الله لضيَّق عليكم ، وأحرجكم . ولكنه وسَّع عليكم ، وخفف عنكم ، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن . بل جوَّز الأكل منه للفقير بالمعروف ، إما بشرط ضمان البدل ، لمن أيسر ، أو مجَّاناً ، كما سيأتي بيانه في سورة النساء . **﴿ إن الله عزيز ﴾** . أي : غالب . يقدر أن يُعنِت عباده ويحرجهم إن شاء ويعاقبهم إن خالفوا في الدنيا وفي الآخرة . **﴿ حكيم ﴾** : لا يكلف عباده إلا وسعهم .

كلمة في السياق :

ما الصلة بين الأسئلة الثلاثة ، والآيات التي قبلها مباشرة ؟ . إن المجموعة التي سبقت هذه الأسئلة كان موضوعها الرئيسي هو القتال . وآخر آية منها تحَدثت عن الهجرة والجهاد . ادرس ظواهر الهجرة فى العالم ، تجد أنها تنتشر بسببها عادتا شرب الخمر ، والميسر ، ثم هي تحتاج إلى أعلى درجات الإنفاق . وتجد كثرة اليتامى أثناءها . وادرس حياة الجند ، وقضايا القتال تجد أن القتال يحتاج إلى أعلى درجات الإنفاق . وأن اليتامى يكثرون بسبب القتال ، وأن أكثر جنود العالم يسكرون ويقامرون فأن تأتي هذه الأسئلة ، ويجاب عليها في هذا السياق ، فلذلك أسبابه الكثيرة . وكنا ذكرنا من قبل ، أن الموضوع الرئيسي للقسم الثالث كله في مقطعيه هو الدخول في الإسلام كله . ومن ثَمَّ نعرف سرّ ذكر الأسئلة في هذا السياق ، والإجابة عليها . فإذا جاءت فريضة القتال في هذا السياق ، أو جاء التمهيد لتحريم الخمر . أو جاءت الإباحة لمخالطة اليتامى . فكل ذلك جامعه أنه من الإسلام الذي يأمر السياق بالدخول فيه كله .

فصول شتى :

فصل في أن الإسلام هو السلام :

يلاحظ أن قوله جل جلاله : ﴿ **ادخلوا في السلم كافَّة** ﴾ قد فسر في أنه أمر بالدخول في الإسلام . وسنرى أنه في أكثر من مكان في القرآن يعبر عن الإسلام ؛ بالسلام . كقوله تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً** ﴾ (سورة النساء) أي : لا تقولوا لمن قال لكم لا إله إلا الله ، لست مؤمناً . وفي ذلك دليل على أنه لا سلام إلا بهذا الإسلام . صحيح أن الإسلام فرض القتال على المسلمين ، وأن الجهاد في الإسلام هو بذل الجهد في القتال من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا . ولكن ذلك كله من أجل أن يعمّ السلام العالم . فعندما تكون كلمة الله هي العليا في العالم كله . عندئذٍ يتحقق السلام على هذه الأرض في صوره كلها . السلام في محيط الأسرة ، والسلام في نفس الفرد ، والسلام بين المسلمين وغير المسلمين ممن يعيشون في ظل الدولة المسلمة ، والسلام بين العامل ورب العمل ، والسلام بين الحاكم والمحكوم ، وذلك لا يكون إلا إذا كانت كلمة الله هي الحاكمة . وكلمة الله حق وعدل . فالله عز وجل كلَّف كل إنسان أن يدخل في الإسلام ليحقق السلام في ذاته ، وكلَّف المسلمين أن يُخضعُوا العالم لكلمة الله ليتم السلام بانتصار الإسلام .

فصل في الحذر من الدراسات الموجهة في شأن الأديان :

رأينا قوله تعالى : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشِّرين ومنذرين** ﴾ ورأينا اتجاهات المفسرين فيها . وبهذه المناسبة نحب أن نشير إلى نقطة مهمة هي : إن الغالبية العظمى من الدارسين في الآثار ، والباحثين عن الديانات ، والمشتغلين بالمقارنة بين الأديان ، ينطلقون من نظرة مسبقة . وعلى ضوء ذلك يبحثون ، ويحللون ، ويعللون . وأسوأ هؤلاء أصحاب الفكر الشيوعي . فهؤلاء ينطلقون من نظريتهم في التطور التاريخي ليضعوا الأحداث في بوتقتها . فليست المكتشفات ، ولا الآثار ، ولا الروايات هي التي توجه النظرية ، أو المقارنة بل كل شيء يُكتشف هو لصالح هذه النظرية . ومن ثَمَّ فإن علينا أن نكون حذرين جداً ونحن نقرأ كل دراسة للتاريخ القديم ، وكل دراسة مقارنة للأديان .

الفقرة الثانية من المقطع الأول من القسم الثالث :

تتألف هذه الفقرة من خمس آيات . من الآية (٢٢١) إلى نهاية الآية (٢٢٥) وهذه هي :

وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

كلمة في الفقرة :

رأينا أن قسمًا من الفقرة السابقة كان بمثابة المقدمة للقسم كله . وكان قسم منها فيه تكليف عليه طابع الفعل بينما هذه الفقرة عليها طابع الترك في التكليف . فهي تنهى عن نكاح المشركين ، والمشركات . وتنهى عن جماع الزوجة في الحيض . وتنهى عن إتيان المرأة في دبرها . وتنهى أن تكون الأيْمان حائلاً دون البر والإصلاح . فإذا كانت الفقرة الأولى فى أجواء : ﴿ **ادخلوا في السلم كافَّة** ﴾ فهذه الفقرة في أجواء : ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ . ولو أنك فتشت عن نهي يسبق قوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا ..** ﴾ يمكن أن تربط به هذا النهي فإنك تجد أول نهي على نفس الوزن هو : ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ .

ولكن حتى قوله تعالى : ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ جاء بعد الأمر بالدخول في شرائع الإسلام كلها . ولذلك ، فإن هذه الفقرة تعرض علينا مجموعة من شرائع الإسلام في موضوع النكاح ، والحياة الزوجية ، والأيْمان . وفيها نهيان ، وسؤال وجوابه ، وقاعدة . أما النهيان : فلهما صلة بموضوع تحريم الزواج بأهل الشرك ، وبموضوع اتخاذ الأيْمان حائلاً دون البر والإصلاح . وأما السؤال : فحول علاقة الرجل بزوجته في فترة الحيض . وأما القاعدة : فحول الوظيفة الحياتية بين الرجال والنساء . والصلة بين آيات الفقرة سنراها . والصلة بين النهي الأول ، وقضايا القتال ، من حيث إن القتال قد يوجِد تطلعات عند أصحابه للزواج بالمشركات ، أو لتزويج المشركين . وعلى كل فكما قلنا فإن الفقرة آتية في سياق الدخول في شرائع الإسلام كلها فهي تفصيل لبعض هذه الشرائع . ولنبدأ تفسير الفقرة . ﴿ **ولا تَنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تُنحكوا المشركين حتى يؤمنوا**

ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم . أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ . هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوّجوا المشركات ، أو يزوجوا المشركين . والحكمة في ذلك ، أن معاشرة أهل الشرك ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة . والله يريد بشرعه ، وبما أمر ونهى أن يسير المؤمنون في طريق الجنة ، والمغفرة . فعلى المؤمن أن يكون متذكراً يقظاً . إذ لم تنزل الآيات وتبين إلا لهذا .

المعنى الحرفي :

﴿ **ولا تَنكحوا المشركات** ﴾ أي : لا تَتَزَوَّجُوهُنَّ . ﴿ **حتى يؤمنَّ** ﴾ أي : إلا إذا آمنّ ﴿ **ولأَمَة مؤمنة** ﴾ أي : لعبدة رقيقة مؤمنة . ﴿ **خير من مشركة ولو أعجبتكم** ﴾ : أي : أحسن من حرة مشركة ، ولو كان الحال أن المشركة تعجبكم ، وتحبونها . ﴿ **ولا تُنكحوا المشركين** ﴾ أي : ولا تُزَوِّجوا المشركين بمسلمة ﴿ **حتى يؤمنوا** ﴾ أي : حتى يدخلوا في الإسلام ﴿ **ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم** ﴾ أي : ولرجل مؤمن ولو كان عبداً رقيقاً خير من مشرك ، وإن كان رئيساً ، سريّاً . ﴿ **أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه** ﴾ هذه حكمة التحريم . والإشارة في ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المشركين والمشركات . والمعنى أن أهل الشرك يدعون إلى الكفر والدنيا فقط . وذلك عمل أهل النار . فحقهم ألا يُوالوا ، وألا يُصاهروا . أما المؤمنون ، وهم أولياء الله . فإنهم دُعاة إلى الجنة ، والمغفرة ، وما يوصل إليها . فهم الذين تجب موالاتهم ، ومصاهرتهم . إذ إنهم هم الذين يدعون إلى ما يدعو الله له من الجنة ، والمغفرة بأمر الله ، وبعلمه . ﴿ **ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ أي : يتعظون .

فـوائـد :

١ – غير المسلم ، مشرك . النصارى أشركوا ، واليهود أشركوا ، والمجوس مشركون والبراهمة والبوذيون ، وكل أصحاب دين غير الإسلام . وكذلك الملحدون ، وشرك الملحدين من باب أنهم أعطوا المادة والطبيعة ، صفات الله . فهي عندهم الخالقة ، والرازقة ، والمحيية ، والمميتة ، وهكذا . وقد حرَّم الله عز وجل على المسلمين نكاح المشركات جميعاً إلا يهودية ، أو نصرانية بقوله تعالى : ﴿ **والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾ . (سورة المائدة) ولكنه حرم على المسلمة أن تتزوج إلا من

مسلم . قال رسول الله ﷺ : « نتزوج نساء أهل الكتاب ، ولا يتزوجون نساءنا » . قال ابن جرير : (وهذا الخبر وإن كان في إسناده مافيه ، فالقول به ، لإجماع الجميع من الأمة عليه) . وقد حكى ابن جرير أن الإجماع منعقد على إباحة تزوج الكتابيات وقال : وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس بالمسلمات . وروي عن شقيق قال : (تزوج حذيفة يهودية . فكتب إليه عمر : خلّ سبيلها . فكتب إليه : أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها ؟ . فقال : لا أزعم أنها حرام ، ولكني أخاف أن تعافوا المؤمنات منهن) . قال ابن جرير : وهذا إسناد صحيح . فإذا اتضح هذا . فهل ذكر المشركين والمشركات في الآيات هنا خاص بغير أهل الكتاب ؟ أو أنه يدخل فيه أهل الكتاب ، ثم أخرج منهم أهل الكتاب بآية المائدة ؟ قولان للعلماء . ولا يترتب على هذا الخلاف عمل .

والحكمة - والله أعلم - في تحريم الزواج بالمشركة ، وحله بالكتابية ، أن الكتابية تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، نوع إيمان على خلاف المشركة . والحكمة في تحريم غير المسلم على المسلمة ، أن الزواج نوع سيادة . ولا سيادة لكافر على مسلم ، أو مسلمة .

٢ - فى الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها . فاظفر بذات الدين تربت يداك » . وفي صحيح مسلم ، عن جابر ، عن رسول الله ﷺ : « الدنيا متاع ؛ وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » .

٣ - لا يجوز نكاح المرتدة عن الإسلام . ولا يجوز تزويج المرتد . وهذه قضية دقيقة في عصرنا . فلا بد لراغب الزواج ، أو التزويج أن يتأكد من عدم وجود نوع من أنواع الردة .

٤ - ذكر السدي سبباً لنزول قوله تعالى : ﴿ **ولأَمَةٌ مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم** ﴾ . قال : نزلت في عبد الله بن رواحة . كانت له أَمةٌ سوداء . فغضب عليها ، فلطمها . ثم فزع ، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرها . فقال له : « ما هي » . قال : تصوم ، وتصلي ، وتحسن الوضوء ، وتشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . فقال : « يا أبا عبد الله هذه مؤمنة » . فقال : والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها . ففعل . فطعن عليه ناس من المسلمين . وقالوا : نكح أمته . وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم . فأنزل الله : ﴿ **ولأَمَة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم** ﴾ . ﴿ **ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم** ﴾ .

﴿ ويسألونك عن المحيض ، قل : هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن . فإذا تطهّرن فأتوهن من حيث أمركم الله . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ : روى الإمام أحمد عن أنس : أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ، ولم يجامعوها في البيوت (أي لا يجتمعون بها أصلاً) فسأل أصحابُ النبيِّ ﷺ النبيَ ﷺ فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ويسألونك عن المحيض** .. ﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ « اصنعوا كل شيء إلا النكاح » .

المعنى الحرفي :

﴿ **ويسألونك عن المحيض** ﴾ أي : عن الأحكام التي تترتب على الحيض . وتعريف الحيض في كتب الحنفية : « دم يخرج من رحم آدمية تم لها من العمر تسع سنين فأكثر ، ولا داء بها ، ولا حَبَل ، ولم تبلغ خمساً وخمسين سنة . وأقله ثلاثة أيام بلياليها ، وأكثره عشرة أيام بلياليها . والناقص عن أقله ، والزائد عن أكثره ، أو على العادة ، وجاوز أكثره : استحاضة » . والجواب : ﴿ **قل : هو أذى** ﴾ أي : شيء يستقذر ويؤذي من يقرب صاحبته ، ويؤذيها اقترابه . ﴿ **فاعتزلوا النساء في المحيض** ﴾ أي : فاجتنبوا مجامعتهن ﴿ **ولا تقربوهنّ** ﴾ : مجامعين ، أو ولا تقربوا مجامعتهن ﴿ **حتى يطْهُرن** ﴾ : أي : حتى ينقطع الحيض وتغتسل ، أو تتيمم من عذر .

قال ابن كثير : (وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء ، أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه إلا أن أبا حنيفة رحمه الله يقول : فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض – وهو عشرة أيام عنده – إنها تحل بمجرد الانقطاع . ولا تفتقر إلى غسل) اهـ . ونضيف أنه عند الحنفية إذا انقطع لأقل من عشرة ، لا يجوز وطؤها حتى تغتسل ، أو يمضي عليها وقت صلاة بعد الطهر ولم تغتسل . ﴿ **فإذا تطهرن** ﴾ : أي بالماء ، أو بما ينوب منابه ﴿ **فأتوهن** ﴾ : أي فجامعوهن . والأمر هنا للندب . وهو إرشاد إلى غشيانهن بعد الطهر . ﴿ **من حيث أمركم الله** ﴾ . أي : في الفرج ، ولا تعدوه إلى غيره . وفيه دلالة على تحريم الوطء في الدبر . ﴿ **إن الله يحب التوّابين** ﴾ أي : من الذنب ، وإن تكرر غشيانه . فالتواب هو الذي يتوب مرة ، فمرة ، فمرة ، كلما تكرر ذنب ، أحدث له توبة . ﴿ **ويحب المتطهرين** ﴾ المتنزهين عن الأقذار ، والأذى ، أو المتطهرين بالماء ، أو المتنزهين من أدبار النساء . أو من الجماع في الحيض . أو من الفواحش ، أو من هذا كله .

فــوائــد :

١ - يخطىء بعض الناس ، فيظن أن الطهر من الحيض هو انقطاع الدم ، وعدم ظهوره في الخارج . والواقع أنه قد لا يظهر الدم في الخارج ، ولا يكون طهر . فالعبرة هي في الانقطاع الفعلي من الداخل . وعلامة ذلك أن تدخل المرأة القطن في داخل فرجها . فإذا خرج عليه الطهر الخالص ، أو لم يظهر عليه شيء أصلاً عندئذٍ تكون قد طهرت .

٢ - قال ابن كثير : (ثم ذهب كثير من العلماء ، أو أكثرهم إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج) . قال النسفي : (ثم عند أبي حنيفة ، وأبي يوسف : يجتنب ما اشتمل عليه الإزار . ومحمد رحمه الله لا يوجب إلا اعتزال الفرج) .

روى أبو داود عن عمارة بن غراب أن عمة له حدثته أنها سألت عائشة قالت : إحدانا تحيض وليس لها ولزوجها فراش إلا فراش واحد قالت : أخبرك بما صنع رسول الله ﷺ . دخل فمضى إلى مسجده - قال أبو داود : تعني مسجد بيتها - فما انصرف حتى غلبتني عيني . فأوجعه البرد . فقال : « ادني مني » . فقلت : إني حائض . فقال : « اكشفي عن فخذيك . فكشفت فخذي . فوضع خده وصدره على فخذي . وحنيت عليه حتى دفىء ونام ﷺ » . وعن مسروق قال : قلت لعائشة : ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضاً ؟ . قالت : كل شيء إلا الجماع .

والذين ذهبوا إلى أنه لا يحل إلا ما فوق الإزار أدلة ، مأخذهم أنه حريم الفرج ، فهو حرام لئلا يتوصل إلى تعاطي ما حرم الله ، الذي أجمع العلماء على تحريمه . وهو المباشرة في الفرج . ومن أدلتهم ما ورد في الصحيحين عن ميمونة قالت : « كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه ، أمرها فأتزرت وهي حائض » ، هذا لفظ البخاري .

٣ - من أتى امرأته وهي حائض ، فقد أثم . وعليه التوبة ، والاستغفار . وهل يلزمه مع ذلك كفارة أو لا ؟. فيه قولان ، أحدهما : نعم ، لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض يتصدق بدينار ، أو نصف دينار . وفي لفظ للترمذي : « إذا كان دماً أحمر فدينار . وإن كان دماً أصفر فنصف دينار » . وللإمام أحمد أن رسول الله ﷺ جعل في الحائض نصاب دينار . فإن أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل فنصف دينار . والقول الثاني - وهو الصحيح - من

مذهب الشافعي . وقول الجمهور : أنه لا شيء في ذلك . بل يستغفر الله عز وجل . لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث . فإنه قد روي مرفوعاً كما تقدم ، وموقوفاً ، وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث .

٤ - ويحل مضاجعتها ، ومواكلتها بلا خلاف . قالت عائشة : (كان رسول الله ﷺ يأمرني فأغسل رأسه ، وأنا حائض . وكان يتكيء في حجري وأنا حائض . فيقرأ القرآن) . وفي الصحيح : (كنت أتعرق العرق « العرق هو العظم إذا كان عليه لحم » ، وأنا حائض فأعطيه النبي ﷺ فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه . وأشرب الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب منه) . وقالت : (كنت أنا ورسول الله ﷺ في الشعار الواحد ، وأنا حائض ، طامث . فإن أصابه مني شيء غسل مكانه . لم يَعْدُه « أي لم يتجاوزه » ، وصلى فيه) . وأما ما رواه أبو داود عن عائشة أنها قالت : (كنت إذا حضت ، نزلت عن المثال « الفراش » على الحصير . فلم تقرب رسول الله ﷺ ولم تدنُ منه حتى تطهر) . فهو محمول على التنزه ، والاحتياط .

﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدّموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشّر المؤمنين ﴾ .

هذا بيان وتوضيح لقوله تعالى : ﴿ **فأتوهن من حيث أمركم الله** ﴾ أي : إن المأتى الذي أمركم الله به هو مكان الحرث لا مكان الفرث ، تنبيها على أن المطلوب الأصلي في الإتيان هو طلب الأولاد ، لا قضاء الشهوة فحسب . فلا تأتوهن إلا من المأتى الذي نيط به هذا المطلوب .

المعنى الحرفي :

﴿ **نساؤكم حرث لكم** ﴾ أي : نساؤكم مواضع حرث لكم . وهذا مجاز ، شبهه بالمحارث تشبيهاً لما يلقى في أرحامهن من النطَف التي فيها النسل - بالبذور والولد بالنبات . ﴿ **فأتوا حرثكم أنّى شئتم** ﴾ أي : جامعوهن متى شئتم ، أو كيف شئتم ، باركة ، أو مستلقية ، أو مضطجعة بعد أن يكون المأتى واحداً . وهو موضع الحرث . وهو تمثيل . أي فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم . لا يحظر عليكم جهة دون جهة . ﴿ **وقدّموا لأنفسكم** ﴾ ما يجب تقديمه من الأعمال

الصالحة ، وما هو خلاف ما نهيتم عنه ، أو هو طلب الولد ، أو التسمية على الوطء ، أو القبلة والمداعبة قبل الجماع . ﴿ **واتقوا الله** ﴾ : بعدم اجترائكم على مناهيه . ﴿ **واعلموا أنكم ملاقوه** ﴾ أي : صائرون إليه ، فمحاسبكم على أعمالكم جميعاً ، فاستعدوا للقائه . ﴿ **وبشّر المؤمنين** ﴾ : أي بما أعد الله لهم في الآخرة .

سبب نزول هذه الآية :

عن جابر بن عبد الله قال : إن اليهود قالوا للمسلمين : من أتى امرأة وهي مدبرة جاء الولد أحول . فأنزل الله : ﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم** ﴾ . قال ابن جريج في الحديث : فقال رسول الله ﷺ : « مقبلة ومدبرة ، إذا كان ذلك في الفرج » . أخرجه ابن أبي حاتم . وعن ابن عباس : (كان هذا الحي من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود وهم أهل كتاب – وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم . فكانوا يقتدون كثيراً من فعلهم . وكان من أمْر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف . وذلك أستر ما تكون المرأة . فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم . وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً منكراً . ويتلذذون بهن مقبلات ، ومدبرات ، ومستلقيات . فلما قدم المهاجرون المدينة ، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار . فذهب يصنع بها ذلك . فأنكرته عليه ، وقالت : إنما كنا نؤتى على حرف ، فاصنع ذلك ، وإلا فاجتنبني . فسرى أمرهما ، فبلغ رسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿ **نساؤكم حرث لكم ..** ﴾ أي : مقبلات ، ومدبرات ، ومستلقيات . يعني بذلك موضع الولد) . قال ابن كثير : تفرد به أبو داود ، ويشهد له بالصحة ما تقدم من الأحاديث . ولا سيما رواية أم سلمة . فإنها مشابهة لهذا السياق . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : (جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله : هلكت . قال : « ما الذي أهلكك ؟ » قال : حولت رحلي البارحة . قال : فلم يرد عليه شيئاً . قال : فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **نساؤكم حرث لكم ...** ﴾ . أقبل ، وأدبر ، واتق الدبر والحيضة) . ورواه الترمذي من طريق آخر وقال : حسن غريب .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : أنزلت هذه الآية : ﴿ **نساؤكم حرث لكم** ﴾ في أناس من الأنصار ، أتوا النبي ﷺ فسألوه ؟ . فقال النبي ﷺ « ائتها على كل حال إذا كان في الفرج » .

فـــوائـــد :

١ – عن حفصة أم المؤمنين : أن امرأة أتتها فقالت : إن زوجي يأتيني مجبّية ومستلقية ، فكرهته . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « لا بأس إذا كان في صمام واحد » .

عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ :

« استحيوا . إن الله لا يستحيي من الحق . لا يحل أن تأتوا النساء فى حشوشهن » .

روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال : « الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى » .

وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ : « لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها » . وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ : « ملعون من أتى امرأته في دبرها » .

وإتيان النساء في أدبارهن حرام . أجمع على ذلك الأئمة الأربعة بالنقول الثابتة عنهم . وما عدا ذلك فمردود .

٢ – إن ما بين قوله تعالى : ﴿ **نساؤكم حرث لكم** ﴾ . وما بين الآية قبلها : ﴿ **ويسألونك عن المحيض** .. ﴾ . وما بين النص قبله ارتباط واضح . فوقت الحيض ليس أوان بذار . والمشركة ليست أرضاً صالحة للبذرة الصالحة .

٣ – ورد معنا في تفسير الآية الأخيرة أنه مما فسر به قوله تعالى : ﴿ **وقدموا لأنفسكم** ﴾ : التسمية قبل الجماع . وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال باسم الله . اللهم جنّبنا الشيطان ، وجنّب الشيطان ما رزقتنا . فإنّه إن يُقدّر بينهما ولد في ذلك ، لم يضره الشيطان أبداً » .

٤ – ورد في هذه الفقرة قوله تعالى عن الحيض : ﴿ **هو أذى فاعتزلوا النساء** .. ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **فأتوهن من حيث أمركم الله** ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **فأتوا حرثكم أنى شئتم** ﴾ . وهذا كله من الكنايات اللطيفة ، والتعريضات المستحسنة عما لا ينبغي التصريح به إلا في حالة الضرورة . فعلى كل مسلم أن يتأدب بها . ويتكلف مثلها في المحاورات ، والمكاتبات .

٥ - يلاحظ في هذا السياق المبدوء بـ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافَّة** .. ﴾ أنه قد جاء حتى الآن - ولا يوجد بعدها غيرها - ستة مرات ، يسألونك . ثلاث مرات بلا واو . ثم مع الواو ثلاثاً . قال النسفي في تعليل ذلك : (لأن سؤالهم عن تلك الحوادث الأول كأنه وقع في أحوال متفرقة . فلم يؤت بحرف العطف . لأن كل واحد من السؤالات ، سؤال مبتدأ . وسألوا عن الحوادث الأخر في وقت واحد . فجيء بحرف الجمع لذلك .

٦ - أيهما أشد حرمة : إتيان الرجل زوجته في فرجها وهي حائض أو نفساء ؟ . أو إتيانها في دبرها ؟ المسألة خلافية . والقائلون بأن إتيان الحائض في الفرج أشد حرمة قالوا : لو أن رجلاً ازداد شبقه ، ولم يجد سبيلاً إلى صرف شهوته لا بتبطين ، ولا تفخيذ ، فإنه يأتي زوجته في دبرها ، ولا يأتيها في فرجها أثناء حيضها ، أو نفاسها . والحرمة واقعة ، والاستغفار واجب .

ولنعد إلى السياق :

﴿ **ولا تجعلوا الله عُرضة لأَيمانكم أن تَبرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم * لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم** ﴾ . هذا معنى جديد في سياق الأمر بالدخول في شرائع الإسلام كافة . وهو بيان لجزء من شرائع الله في موضوع الأيمان . ومجيئه بين الكلام عن النكاح ، والطلاق واضح الحكمة ، لأن الطلاق نوع يمين ، ولأن حلف الإنسان في حياته الأسرية كثير .

المعنى العام :

يقول تعالى : لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم ، إذا حلفتم على تركها . ثم بيَّن الله عز وجل أنه لا يعاقبنا ، ولا يلزمنا بما صدر منا من الأَيمان اللاغية ، ولكن يؤاخذنا على ما تعمدنا من الإثم في الأيمان .

المعنى الحرفي :

﴿ **ولا تجعلوا الله عُرضة لأيمانكم** ﴾ : العرضة فُعلة ، بمعنى مفعول . وهي اسم ما تعرضه دون الشيء . فيتعرض دونه ، ويصير حاجزاً ، ومانعاً منه . تقول : فلان

عرضة دون الخير . كان الرجل يحلف ألا يفعل بعض الخيرات من صلة رحم أو إصلاح ذات البين ، أو إحسان إلى أحد ، ثم يقول : أخاف الله أن أحنث في يميني . فيترك البر ، إرادة أن يبرَّ في يمينه . فقيل لهم : ﴿ **ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم** ﴾ أي حاجزاً لما حلفتم عليه . والمقصود باليمين في الآية المحلوف عليه . وإنما سمي يميناً لتلبسه باليمين . كقوله ﷺ : « من حلف على يمين - أي على محلوف عليه - فرأى غيرها خيراً منها ، فليُكفِّر عن يمينه » . فصار المعنى : ولا تجعلوا اسم الله مانعاً لكم عن ما حلفتم عليه من أن تفعلوا البر ، أو تتقوا .. ﴿ **أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس** ﴾ : هذا بيان للأمور المحلوف عليها . والتي لا ينبغي أن يبرّ الإنسان بيمينه إذا حلف ألا يفعلها : البر ، والتقوى والإصلاح بين الناس . ويدخل في البر والتقوى كل شرائع الإسلام . ويدخل في الإصلاح بين الناس كل بذل جهد يؤلف بين القلوب على الحق . وذهب بعضهم إلى أن اللام ﴿ **لأَيْمانكم** ﴾ للتعليل وعلى هذا يكون معنى الآية : ولا تجعلوا الله لأجل أيمانكم به مانعاً لأن تبروا ، وتتقوا ، وتصلحوا بين الناس . إذ فعلكم هذا قلب لما ينبغي . فالله عز وجل يريد ممن آمن به أن يندفع في البر والتقوى ، والإصلاح بين الناس وهذه هي ثمرة الإيمان بالله . فإذا فعلتم غير هذا ، قلبتم الحقائق . ﴿ **والله سميع** ﴾ لأيمانكم . ﴿ **عليم** ﴾ : بنياتكم . ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم** ﴾ اللغو : هو ما لا يعتدّ به من كلام ، وغيره . ولغو اليمين : هو الذي لا يعتدّ به في باب الأيمان . وتعريفه عند الحنفية : أن يحلف الرجل على شيء يظنه على ما حلف . والأمر بخلافه . وعند الشافعية : هو ما يجري على لسانه من غير قصد للحلف . نحو : لا والله ، وبلى والله . ومعنى النص : لا يعاقبكم الله بلغو اليمين الذي يحلفه أحدكم . ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** ﴾ أي : ولكن يعاقبكم بما اقترفته قلوبكم من إثم القصد إلى الكذب في اليمين . وهو أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله ، وهو اليمين الغموس ، التي تغمس صاحبها في النار . ﴿ **والله غفور حليم** ﴾ : حيث لم يؤاخذكم باللغو في أيمانكم . وحيث يقبل التوبة النصوح عن أي ذنب .

فـوائـــد :

١ - قال الحنفية : الأيمان ثلاثة : غموس ، ومنعقدة ، ولغو ، فالغموس أن يحلف كاذباً عمداً . ولا كفارة فيها إلا التوبة والاستغفار . واللغو : أن يحلف على أمر يظنه كذلك ، وليس كذلك . والمنعقدة : أن يحلف على مستقبل آت . وهذا القسم فيه الكفارة إن حنث فيه : فاللغو لا إثم فيها ، ولا كفارة . ولكن الأدب أن لا يحلف . قال

الشافعي : ما حلفتُ بالله كاذباً ولا صادقاً . والمنعقدة فيها الكفارة كما سنرى في سورة المائدة إن شاء الله . والغموس فيها الإثم . والواجب فيها : التوبة فقط عند الحنفية ، والتوبة والكفارة عند الشافعي . تعلق الإمام الشافعي بوجوب الكفارة بالآية المارة آنفاً . لأن كسب القلب : العزم ، والقصد . والمؤاخذة غير مبينة هنا . وبينت في المائدة . فكان السياق ثمة بياناً هنا . ورد الحنفية : بأن المؤاخذة هنا مطلقة ، وهي في دار الجزاء . والمؤاخذة ثَمَّ مقيدة بدار الابتلاء ، فلا يصح حمل البعض على البعض .

٢ - في الصحيحين عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف فقال في حلفه : باللات ، والعزى . فليقل : لا إله إلا الله » . قال ابن كثير : (فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية ، قد أسلموا ، وألسنتهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد . فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص ، كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد ، لتكون هذه بهذه) .

٣ - رأينا أن ليمين اللغو تعريفاً عند الشافعية وآخر عند الحنفية . ومدار التعريفين على كلام عائشة ، (رضي الله عنه) ومن وافقها . قالت عائشة في إحدى الروايات عنها في تعريف اللغو : هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق ، فيكون على غير ما حلف عليه . وفي رواية أخرى : هو قوله : والله ، وهو يرى أنه صادق ، ولا يكون كذلك .

٤ - وفي حديثٍ مرسل عن الحسن ، إسناده حسن . قال : « مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون - يعني يرمون - ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه . فقام رجل من القوم فقال : أصبت والله ، وأخطأت والله . فقال الذي مع النبي ﷺ للنبي ﷺ : حنث الرجل يا رسول الله ؟ قال : « كلا أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة » .

٥ - أخرج أبو داود عن سعيد بن المسيب : أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث ، فسأل أحدهما صاحبه القسمة . فقال : إن عدت تسألني عن القسمة مالي في رتاج الكعبة . فقال له عمر : إن الكعبة غنية من مالك . كفر عن يمينك ، وكلم أخاك . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب عز وجل ، ولا في قطيعة الرحم ، ولا فيما لا تملك » .

٦ - روى البخاري عن رسول الله ﷺ قال : « والله لأن يلجَّ أحدكم بيمينه في

أهله آثمُ له عند الله من أن يعطي كفارته التي افترض الله عليه » . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال : « إني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين ، فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير ، وتحللتها » . وفي الصحيحين أنَّ رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة : « يا عبد الرحمن بن سمرة : لا تسأل الإمارة . فإنك إن أعطيتها من غير مسألة ، أعنت عليها . وإن أعطيتها عن مسألة ، وُكِلْت إليها . وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها ، فأت الذي هو خير ، وكفِّر عن يمينك » . وفي صحيح مسلم عنه ﷺ قال : « من حلف على يمين ، فرأى غيرها خيراً منها ، فليكفر عن يمينه ، وليفعل الذي هو خير » .

كلمة في الفقرة الثانية وسياقها :

منعت هذه الفقرة من نكاح المشركات والمشركين . وحضّت على نكاح المؤمنين والمؤمنات . وبالنكاح يوجد وضع ما بين الزوجين . ومن ثَمَّ تحدثت الفقرة عن حرمة الوطء في الحيض ، وحله بعد الطهر والتطهر حقيقة ، أو حكماً . وبينت الفقرة أنه متى اجتنب الإنسان الحيض والدبر ، فإن أي وضعية من وضعيات الجماع ، تحل له . وفي هذا السياق الذي فيه كلام عن أنواع الطهارة ، والذي يتحدث عن أمور هي من مكامن الضعف البشري . جاء قوله تعالى : ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ .

وفي الحياة الزوجية ، والعائلية ، تكثر الأيْمان . والحياة الزوجية معرَّضة للفساد ومن ثَمَّ جاءت آيتان في الأيْمان . ثم تأتي فقرة لاحقة ، تبدأ بكلام عن نوع من الأَيْمان ، يؤثر على الحياة الزوجية ، وهو ما يسمى بالإيلاء كما سنرى إن شاء الله . ثم ينتقل السياق إلى الكلام عن الطلاق ، وصلة ذلك ببعضه لا تخفى :

فصول شتى :

فصل في الأسرة :

رأينا في الفقرة السابقة بعضاً مما له علاقة في موضوع الأسرة في الإسلام . والفقرة السابقة واللاحقة تشكلان بعضاً من دستور الأسرة في الإسلام . وفي هذا المقام ، عن موضوع الأسرة يقول صاحب الظلال . والأسرة هي المحضن الطبيعي الذي يتولى حماية الفراخ الناشئة ورعايتها ، وتنمية أجسادها وعقولها وأرواحها ، وفي ظله تلتقي

مشاعر الحب والرحمة والتكافل ، وتنطبع بالطابع الذي يلازمها مدى الحياة ، وعلى هديه ونوره تتفتح للحياة وتفسر الحياة وتتعامل مع الحياة . والطفل الإنساني هو أطول الأحياء طفولة . تمتد طفولته أكثر من أي طفل آخر للأحياء الأخرى . ذلك أن مرحلة الطفولة هي فترة إعداد وتهيؤ وتدريب للدور المطلوب من كل حي باقي حياته . ولما كانت وظيفة الإنسان هي أكبر وظيفة . ودوره في الأرض هو أضخم دور .. امتدت طفولته فترة أطول ، ليحسن إعداده وتدريبه للمستقبل .. ومن ثَمَّ كانت حاجته لملازمة أبويه أشد من حاجة أي طفل لحيوان آخر . وكانت الأسرة المستقرة الهادئة ألزم للنظام الإنساني وألصق بفطرة الإنسان وتكوينه ودوره في هذه الحياة . وقد أثبتت التجارب العملية أن أي جهاز آخر غير جهاز الأسرة لا يعوّض عنها ، ولا يقوم مقامها ، بل لا يخلو من أضرار مفسدة لتكوين الطفل وتربيته ، وبخاصة نظام المحاضن الجماعية التي أرادت بعض المذاهب المصطنعة المتعسفة أن تستعيض بها عن نظام الأسرة في ثورتها الجامحة الشاردة المتعسفة ضد النظام الفطري الصالح القويم ، الذي جعله الله للإنسان . أو التي اضطرت بعض الدول الأوروبية اضطراراً لإقامتها ، بسبب فقدان عدد كبير من الأطفال لأهليهم في الحرب الوحشية المتبربرة ، التي تخوضها الجاهلية الغربية المنطلقة من قيود التصور الديني ، والتي لا تفرق بين المسالمين والمحاربين في هذه الأيام ، أو التي اضطروا إليها بسبب النظام المشؤوم الذي يضطر الأمهات إلى العمل ، تحت تأثير التصورات الجاهلية الشائهة للنظام الاجتماعي والاقتصادي المناسب للإنسان . هذه اللعنة التي تحرم الأطفال حنان الأمهات ورعايتهن في ظل الأسرة ، لتقذف بهؤلاء المساكين إلى المحاضن التي يصطدم نظامها بفطرة الطفل وتكوينه النفسي ، فيملأ نفسه بالعقد والاضطرابات .. وأعجب العجب أن انحراف التصورات الجاهلية ينتهي بناس من المعاصرين إلى أن يعتبروا نظام العمل للمرأة تقدماً وتحرراً وانطلاقاً من الرجعية ، وهو هو هذا النظام الملعون ، الذي يضحي بالصحة النفسية لأعلى ذخيرة على وجه الأرض .. الأطفال .. رصيد المستقبل البشري .. وفي مقابل ماذا ؟ في مقابل زيادة في دخل الأسرة . أو في مقابل إعالة الأم ، التي بلغ من جحود الجاهلية الغربية والشرقية المعاصرة وفساد نظمها الاجتماعية والاقتصادية أن تنكل عن إعالة المرأة التي لا تنفق جهدها في العمل ، بدل أن تنفقه في رعاية أعز رصيد إنساني وأغلى ذخيرة على وجه الأرض .

ومن ثَمَّ نجد النظام الاجتماعي الإسلامي ، الذي أراد الله به أن يدخل المسلمون في السلم ، وأن يستمتعوا في ظله بالسلام الشامل ... يقوم على أساس الأسرة ، ويبذل لها

من العناية ما يتفق مع دورها الخطير .. ومن ثَمَّ نجد في سور شتى من القرآن الكريم تنظيمات قرآنية للجوانب والمقومات التي يقوم عليها هذا النظام . وهذه السورة واحدة منها .

فصل في نكاح غير المسلمات :

عند قوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات** ﴾ ، ذكر القرطبي الاتجاهات الفقهية في مجموعة مسائل لها صلة في نكاح غير المسلمات . فبالنص أن المشركة لا يجوز نكاحها وكذلك المشرك ، وبالنص في سورة المائدة أبيح لنا نكاح الكتابيات فتعيّنت حرمة نكاح المسلمة من مشرك وجاز نكاح المسلم من الكتابية . قال القرطبي بعد أن نقل قول ابن عمر في عدم جواز نكاح الكتابية : قال النحاس : (وهذا قول خارج عن قول الجماعة الذين تقوم بهم الحجة ، لأنه قد قال : بتحليل نكاح أهل الكتاب من الصحابة ، والتابعين جماعة ، منهم : عثمان ، وطلحة ، وابن عباس ، وجابر ، وحذيفة ، ومن التابعين : سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومجاهد ، وطاووس ، وعكرمة ، والشعبي ، والضحاك ؛ وفقهاء الأمصار عليه) .

قال القرطبي : (واختلف العلماء في نكاح إماء أهل الكتاب . فقال مالك : لا يجوز نكاح الأمة الكتابية ... وقال أبو حنيفة وأصحابه : يجوز نكاح إماء أهل الكتاب) .

قال القرطبي : (واختلفوا في نكاح نساء المجوس . فمنع مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة ، وإسحاق من ذلك . وقال ابن حنبل : لا يعجبني .. وقال ابن القصار : قال بعض أصحابنا : يجب على أحد القولين ، أنّ لهم كتاباً أن تجوز مناكحتهم) .

وقال القرطبي : (وروى ابن وهب عن مالك أن الأمة المجوسية لا يجوز أن توطأ بملك اليمين . وكذلك الوثنيات ، وغيرهن من الكافرات . وعلى هذا جماعة العلماء ، إلا ما رواه يحيى بن أيوب عن ابن جريج عن عطاء وعمرو بن دينار أنهما سئلا عن نكاح الإماء المجوسيات ؟ . فقالا : لا بأس بذلك ..) وأطال القرطبي برد هذا القول . ومما مر ندرك أن الإجماع منعقد على حرمة تزويج المسلمة بكافر ، وندرك دليله : وهو أن النص حرم زواج المسلمة بالمشرك ولم يأتِ مُخصِص ولا ناسخ .

فصل في النكاح بِوَليّ :

من المعارك الفقهية ، معركة هل يجوز للمرأة البالغة أن تزوج نفسها بغير ولي . ومن

حُجج القائلين بالمنع قوله تعالى : ﴿ **ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا** ﴾ . فقد أسند النكاح إلى الأولياء . ومن حجج المجيزين أن هناك آيات أسندت النكاح إلى المرأة : ﴿ **فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن** ﴾ . وكل من الطرفين وَجّه حجج الآخر . وهو موضوع سيمر معنا تفصيلاً في كتاب (الأساس في السنَّة وفقهها) إن شاء الله . وممن ذهب إلى الجواز : أبو حنيفة . قال القرطبي : (وكذلك كان أبو حنيفة يقول : « إذا زوجت المرأة نفسها كفؤاً ، بشاهدين ، فذلك نكاح جائز » . وهو قول زفر . وإن زوجت نفسها غير كفءٍ ، فالنكاح جائز ، وللأولياء أن يفرِّقوا بينهما) .

فصل في النكاح عند الحنفية :

الزواج عند الحنفية أفضل من التفرغ للعبادة . وهو واجب عندهم متى تاقت نفس الإنسان للجماع . وفريضة إن تيقن الإنسان أنه سيقع في الزنا إن لم يتزوج . وسُنَّة حال الاعتدال . ومكروه لخوف الجور . وحرام إن تيقن من نفسه الجور . ويتم بإيجاب ، وقبول بالألفاظ المعتمدة لذلك ، بحضور شاهدين ، حُرَّيْن . أو حر ، وحُرَّتَيْن ، مكلفين ، سامعين قولهما معاً ، فاهمين أنه نكاح مسلم لنكاح مسلمة كما صح نكاح مسلم ذمية عند ذميين ، ولو مخالفين لدينها . فلو قال مسلم بالغ عاقل لمسلمة بالغة عاقلة : زوجيني نفسك على مهر قدره كذا . فقالت : زوّجتك . وكان الشاهدان حاضرين ، وسمعا كلام الطرفين ، انعقد العقد .

فصل في سبب الحيض ومدته :

الحيض عند المرأة سببه عدم تلقيح البويضة عند الأنثى . فالبويضة إذا لم تأتها النطفة تنفجر . ويتسبب عن ذلك خروج هذا الدم المعروف . وواضح أن المرأة خلال فترة حيضها ليست جاهزة للحمل . بل لا تحمل المرأة إلا في الطهر . ومن ثَمَّ ربط جواز وطئها فيه ، على أن المنع من الوطء حال الحيض له أكثر من حكمة . أولها عدم نظافة المحل . وهذا بعض ما حمل عليه المفسرون كلمة الأذى في قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن المحيض قل : هو أذى** ﴾ . فالأذى على هذا الاتجاه نفسي ، عملي . ولكن الأمر فيما يبدو أوسع من ذلك . فالنساء اللواتي يأتيهن أزواجهن في الحيض يشتكين من آلام ، وأوجاع كثيرة . فالأذى حاصل للزوج . وحاصل للمرأة على اختلاف في نوع الأذى ، ودرجته ، وطبيعته عند كل من الرجل والمرأة . وأقل الحيض عند الشافعية والحنابلة يوم . وأكثره خمسة عشر يوماً . فما نقص عن يوم ، أو زاد عن خمسة عشر

يوماً فهو استحاضة عندهم . وقال الحنفية : أقلة ثلاثة أيام . وأكثره عشرة أيام . فما نقص عن الثلاثة أيام فليس حيضاً . وما زاد عن عشرة فهو استحاضة . وإذا كان لها عادة فاستمر معها الدم حتى جاوز العشرة . فما زاد عن عادتها فهو استحاضة أما إذا لم يتجاوز العشرة فكله حيض . وعند المالكية تفصيلات يُرجع إليها في كتبهم .

الفقرة الثالثة في المقطع الاول من القسم الثالث :

وتمتد هذه الفقرة من الآية (٢٢٦) إلى نهاية الآية (٢٤٢) وهذه هي :

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾

وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ

أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ
وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ
يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا
تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ
ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى
ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ
بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ
مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ
فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

كلمة في هذه الفقرة وسياقها :

من الكلام عن الأيمان إلى الحديث عن الإيلاء : وهو يمين في قضية خاصة هو : أن يحلف الإنسان ألا يقرب زوجته أربعة أشهر ، أو أكثر على خلاف في ذلك ، إلى الكلام عن الطلاق ، إلى الكلام عن الوفاة وهما الصورتان الرئيسيتان لتصفية الحياة الزوجية ثم العودة إلى ذكر صور في الطلاق ، ثم كلام عن الصلاة ، ثم عودة إلى حديث الوفاة والطلاق . ثم تأتي خاتمة الفقرة . وبهذه الفقرة ، والفقرة السابقة يستكمل الحديث عما له علاقة في شؤون الأسرة . نكاح ، فحياة زوجية ، فاستقرار ، ففراق بطلاق أو موت . فإن كان طلاق فكيف تصفّى الحياة الزوجية ؟ .. وإن كان موت فما العمل ؟ .. وهناك صور يتم فيها الطلاق قبل الدخول أصلاً .. فما العمل ؟ .

وفي هذا السياق يأتي أمر بالصلاة حال الأمن والخوف . مما تستشعر به أن أحكام الإسلام لا تقوم ، ولا تقام إلا بصلاة . ثم تختم الفقرة بعودة إلى قضية الوفاة والطلاق . فتذكير بنعمة الله علينا بالبيان .

تبدأ الفقرة بقوله تعالى : ﴿ **للذين يُؤلون من نسائهم ..** ﴾ . ثم بعد سياق طويل يأتي قوله تعالى : ﴿ **والذين يتوفون منكم ..** ﴾ . ثم بعد سياق طويل يتأتي قوله تعالى : ﴿ **والذين يتوفون منكم ..** ﴾ . فكأن الآيتين معطوفتان على قوله تعالى : ﴿ **للذين يؤلون ..** ﴾ . مما يشعر أن السياق واحد ، وأن الحديث عن الطلاق والوفاة سياقه واحد ، وفقرته واحدة . وفيما بين قوله تعالى : ﴿ **للذين يؤلون ...** ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **والذين يتوفون منكم** ﴾ . الأولى يأتي قوله تعالى : ﴿ **والمطلقات ..** ﴾ ثم بعد سياق طويل يأتي قوله تعالى : ﴿ **والوالدات ..** ﴾ . فتصفية الحياة الزوجية لا تقتصر على إنهاء الزواج . وإنما تبين الآيات كيف يكون حال الأولاد الرضَّع . وفي الفقرة كلام عن الخلع ، وعن العودة إلى الزوج الأول ، وشروطها وعن زواج المرأة من آخر إذا توفى زوجها ، وغير ذلك من المواضيع التي تفصل في أمور الحياة الزوجية وتصفيتها ، وغير ذلك من شؤون سنراها تفصيلاً . فلنبدأ تفسير الفقرة :

﴿ **للذين يُؤْلُونَ من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءُوا فإن الله غفور رحيم** *

وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾ . هاتان الآيتان تأتيان بعد آيتي الأَيْمان ، وقبل الآيات التي تفصِّل أحكام الطلاق ، وصلتهما بما قبلهما واضحة . فما قبلهما كلام عن الأَيْمان . وههنا حديث عن نوع خاص من الأَيْمان : وهو حلف الرجل ألا يقرب زوجته مدة ما . والكلام عن هذا النوع من الأَيْمان يوصل إلى الكلام عن الطلاق الذي ستفصَّل أحكامه بعد هاتين الآيتين . وهذا كله يأتي ضمن السياق الذي يدعو إلى الدخول في شرائع الإسلام كلها . وعدم اتباع خطوات الشيطان في أي أمر .

الإيلاء :

الإيلاء : الحلف . فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة ، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر ، أو أكثر منها ؟ فإن كانت أقل ، فله أن ينتظر انقضاء المدة ، ثم يجامع امرأته . وعليها أن تصبر . وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة . ومن آيتي الأَيْمان السابقة ندرك أنه يستحب له أن يكفّر عن يمينه ويفيء فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر ، فهل تقع بمضي الأربعة أشهر تطليقة بائنة ؟ أو تطليقة رجعية ؟ أو لا يقع طلاق ، وللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر إما أن يفيء - أي يجامع - وإما أن يطلّق . فيجبره الحاكم على هذا ، أو هذا . لئلا يضرّ بها ؟ . ثلاثة أقوال للعلماء .

ذهب الشافعي إلى الأخير . وعلى هذا كثير من الصحابة ، والتابعين . وذهب إلى الأول أبو حنيفة . وعلى هذا كثير من الصحابة ، والسلف . وذهب إلى أنه تطليقة رجعية بعض التابعين . وعلى قول الشافعية تكون الطلقة رجعية ، سواء طلقها هو ، أو طلقها عليه الحاكم . وله رجعتها في العدة .

المعنى الحرفي :

﴿ **للذين يؤلون من نسائهم** ﴾ أي : للذين يحلفون على ترك الجماع من نسائهم . ﴿ **تربص أربعة أشهر** ﴾ : ترقب أربعة أشهر . ﴿ **فإن فاءُوا** ﴾ : للعلماء قولان فيها ، الأول قول الشافعية : فإن رجعوا إلى ما كانوا عليه من الجماع بعد الأربعة أشهر كان بها . وإلا فإن عليه أن يطلق ، أو يطلق عليه الحاكم . والقول الثاني ، قول الحنفية : فإن رجعوا إلى الوطء خلال الأربعة أشهر ، ولم يصرُّوا على ترك الوطء كان بها ، وإلا فإذا استمروا على الترك أربعة أشهر فإن يمينهم يعتبر طلاقاً بائناً . ﴿ **فإن الله غفور رحيم** ﴾ : لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين . ﴿ **وإن عزموا الطلاق** ﴾ :

قال الحنفية : بأن استمروا على ترك الوطء ، ولم يفيئوا خلال الأربعة أشهر . وقال الشافعي : بعد مضي الأربعة أشهر ﴿ **فإن الله سميع عليم** ﴾ سميع للإيلاء ، عليم بالنيات . وهو وعيد على إصرارهم وتركهم الفيئة . وفي مجيء آيتي اليمين قبل هذا ، عظة لمن يؤلي من زوجته أن يراجع نفسه . .

فـوائـد :

١ - في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ آلى من نسائه شهراً . فنزل لتسع وعشرين ، وقال : « الشهر تسع وعشرون » وهذه عملية تأديبية منه عليه الصلاة والسلام اقتصر فيها على ما يحتاجه التأديب .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ **للذين يؤلون من نسائهم** ﴾ . دليل على أن الإيلاء يختص بالزوجات ، دون الإماء ، كما هو مذهب الجمهور فإذا آلى من أمته فلا يترتب عليه أن تطالبه إذا انقضت مدة ما بحقوق وإذا فاء فعليه الكفارة .

٣ - على الحالف المولي إذا فاء خلال الأربعة أشهر ، الكفارة . وإذا فاء بعد الأربعة أشهر على مذهب الشافعية ، التكفير ، لعموم وجوب التكفير على كل حالف . وهو مذهب الجمهور . وهذا إذا كان يمينه على التأبيد . أما إذا كان مؤقتاً بالأربعة أشهر فلا كفارة عليه .

٤ - جعل الأربعة أشهر هي الحدّ في الإيلاء ، دليل على أن الأربعة أشهر هي الحد بين الضرار بالمرأة بترك الجماع ، وعدمه . وبهذه المناسبة يروي الفقهاء الأثر الذي رواه الإمام مالك بن أنس رحمه الله فى الموطأ عن عبد الله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل ، فسمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسودَّ جانبه ... وأرّقني أن لا خليل ألاعبه
فوالله لولا الله أني أراقبه ... لحرِّك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة رضي الله عنها كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : ستة أشهر ، أو أربعة أشهر . فقال عمر : لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك .

٥ - فهم الشافعي أن الفاء بقوله تعالى : ﴿ **فإن فاءُوا** ﴾ للتعقيب . ومن ثَمَّ قال : الطلاق بعد مضي المدة . أما الحنفية فقالوا : إن الفاء للتفصيل ، والتفصيل يعقب المفصل ، كما تقول : أنا نزيلكم هذا الشهر . فإن أحمدتكم أقمت عندكم .

ولنعد إلى السياق :

توصل هاتان الآيتان إلى مجموعة تبدأ بالآية (٢٢٨) : ﴿ **والمطلقات يتربصْنَ** ... ﴾ . إلى نهاية الآية (٢٣٣) أي إلى نهاية آية : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين** .. ﴾ .

وفي هذه المجموعة كلام عن الطلاق . وعدة المطلقة ، وغير ذلك . وكل ذلك يأتي ضمن السياق الذي يدعو إلى الدخول بشرائع الإسلام عامة . وقد رأينا الصلة المباشرة بين هذه المجموعة ، وما قبلها مباشرة . ولنبدأ بشرح المجموعة وتفسيرها شيئاً فشيئاً : ﴿ **والمُطلَّقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتُمن ما خلق الله في أرحامهن إن كُن يؤمنَّ بالله واليوم الآخر . وبُعُولتهن أحق بردِّهنَّ في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهنَّ مثل الذي عليهنَّ بالمعروف وللرجال عليهنَّ درجة والله عزيز حكيم** ﴾ .

المعنى العام :

هذا أمر من الله سبحانه للمطلَّقات المدخول بهن من ذوي الأقراء ، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء . أي تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء، ثم تتزوج إن شاءت . وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم ، الأمَة إذا طُلقت فإنها تعتد عندهم قرأين لأنها على النصف من الحرة . والقرء لا يتبعّض ، فكمِّل لها قرءان .

ولما كانت الثلاثة قروء متعلقة بالحيض ، ولا يُعرف إلا من جهتها ، ولما كانت من جملة الحكم في القروء ، استبراء الرحم من الحمل ، ولا يعرف إلا من جهتها فقد حرَّم الله على المرأة أن تكتم الحق في أمر الحيض والحبل استعجالاً منها لانقضاء العدة ، أو رغبة منها في تطويلها لما لها في ذلك من المقاصد . فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان : ثم بين الله عز وجل أن زوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها إذا كان مراداً - بردها - الإصلاح والخير . وهذا في الرجعيَّات . وأما المطلقات البوائن فسيأتي حكمهن بعد . ثم بيَّن الله عز وجل أن للنساء من الحق على الرجال مثل ما للرجال عليهن . فليؤدِّ كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف . ولكن للرجال عليهن درجة زائدة في الفضيلة في الخلق ، والمنزلة ، وطاعة الأمر ، والإنفاق ، والقيام بالمصالح . ويفسر هذه الدرجة قوله تعالى : ﴿ **الرجال قوَّامون على النساء بما فضَّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾ . ثم بين الله أنه عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره ، حكيم في أمره ، وشرعه ، وقدره .

المعنى الحرفي :

﴿ **والمطلّقات يتربَّصْنَ بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾ : المراد بالمطلقات هنا المدخول بهن أما غير المدخول بهن فسيأتي حكمهن في سورة الأحزاب . والمراد بهن كذلك ذوات الأقراء على الخلاف في القرء . هل هو الطهر ، أو الحيض ؟ . أما غير ذوات الأقراء ممن لا يحضن ، فسيأتي حكمهن في سورة الطلاق . وقوله تعالى : ﴿ **يتربصن بأنفسهن** ﴾ . خبر في معنى الأمر . وأصل الكلام : ولتتربص المطلقات . وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر ، وإشعار بأنه مما يجب أن يُتلقَّى بالمسارعة إلى امتثاله . فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص . فهو يخبر عنه وجوداً . وفي ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص الذي هو الترقب ، وزيادة بعث . لأن أنفس النساء طوامح إلى الرجال . فأمرن أن يقمعنَها ، ويغلبْنها على الطموح ، ويجبرْنها على التربص . والقروء جمع قرء . وهو من ألفاظ الأضداد . يستعمل للحيض ، ويستعمل للطهر وقد اختلف السلف والخلف ، والأئمة في المراد بالأقراء على قولين . أحدهما أن المراد بها الأطهار . وهو مذهب مالك ، والشافعي وكثير . والقول الثاني أن المراد بالأقراء ، الحيض . وهو مذهب أبي حنيفة وأصح الروايتين عن الإمام أحمد ، ومذهب كثيرين غيرهم . ويؤيد هذا ما رواه أبو داود ، والنسائي أن رسول الله ﷺ قال لفاطمةبنت حُبيش : « دعي الصلاة أيام أقرائك » . ﴿ **ولا يحلّ لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن** ﴾ من الولد ، أو دم الحيض وذلك إذا أرادت فراق زوجها ، فكتمت حملها لئلا ينتظر بطلاقها أن تضع . ولئلا يشفق على الولد فيترك تسريحها . أو كتمت حيضها فقالت وهي حائض قد طهرت ، استعجالاً للطلاق . فكل هذا محرم عليهن . ﴿ **إن كنَّ يؤمنَّ بالله واليوم الآخر** ﴾ . لأن من آمن بالله واليوم الآخر ، لا يجترىء على ارتكاب الحرام . ففي هذا تهديد لهن على خلاف الحق . ودلّ هذا ، وما قبله على أن المرجع في هذا إليهن . لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن . ويتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك . فرد الأمر إليهن . وتُوعدْن فيه لئلا يخبرن بغير الحق . ﴿ **وبعولتهن أحق بردهن في ذلك** ﴾ أي : وأزواجهن أولى برجعتهن في مدة ذلك التربص . أي في العدة . دل هذا على أن الطلاق الرجعي لا يحرم الوطء ، حيث سماه زوجاً بعد الطلاق . ودل على أن الرجل إن أراد الرجعة ، وأبتها المرأة ، وجب إيثار قوله على قولها . وكان هو أحق بها . ولا يفهم من النص أن لها حقاً في الرجعة . فالرجعة حق خالص للرجل . ﴿ **إن أرادوا إصلاحاً** ﴾ : أي إن أراد الأزواج بالرجعة إصلاحاً لما بينهم ، وبينهن ، وإحساناً إليهنّ ، ولم يريدوا مضارَّتهن . ﴿ **ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف** ﴾ أي : ويجب لهن من الحق على

الرجال من المهر ، والنفقة ، وحسن العشرة ، وترك المضارة مثل الذي يجب لهم عليهن من الأمر والنهي بالوجه الذي لا ينكر في الشرع ، وعادات الناس . فلا يكلف أحد الزوجين صاحبه ما ليس له . والمراد بالمماثلة ، مماثلة الواجبِ الواجبَ في كونه حسنة . لا في جنس الفعل . فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه ، أو طبخت له ، أن يفعل نحو ذلك . ولكن يقابله بما يليق بالرجال . قال ابن عباس : (إني لأحب أن أتزين للمرأة ، كما أحب أن تتزين لي المرأة . لأن الله يقول : ﴿ **ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف** ﴾) . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . ﴿ **وللرجال عليهن درجة** ﴾ : زيادة في الحق ، وزيادة في الفضيلة ، بسبب القوامة عليها ، وبسبب الإنفاق ، وملك النكاح ، وإن اشتركا في اللذة ، والاستمتاع ﴿ **والله عزيز** ﴾ : لا يُعترض عليه في أموره ﴿ **حكيم** ﴾ : لا يأمر إلا بما هو صواب ، وحسن .

فــوائــد :

١ - الطلاق ثلاثة أنواع : حسن ، وأحسن ، وبدعي . فالأحسن أن يطلقها طلقة رجعية فقط في طهر لم يجامعها فيه ثم يتركها حتى تمضي عدتها ، وهو أحسن بالنسبة لما بعده ، وأما الحسن فهو أن يطلقها ثلاث تطليقات في ثلاثة أطهار لاوطء فيها ، أو في ثلاثة أشهر فيمن لا تحيض ، كل طلقة في شهر ولو رافقه وطء ، لأن كراهة الطلاق مع الوطء فيمن تحيض لتوهم الحبل ، وهو مفقود هنا عند الآيسة أو الصغيرة أو الحامل .

وأما البدعي الذي يأثم فيه صاحبه فهو ما خالف الحسن والأحسن كأن يطلقها ثلاثاً أو اثنتين دفعة واحدة ، أو يطلقها في طهر جامعها فيه ، أو طلقها وهي حائض ، فتجب رجعتها لو طلقها وهي حائض ، رفعاً للمعصية . فإذا طهرت طلقها .

٢ - الطلاق قسمان : رجعي وبائن . والبائن قسمان : بينونة كبرى وبيونة صغرى . فالطلاق الرجعي : تبقى فيه المرأة على عصمة الرجل حتى تنقضي عدتها فيستطيع أن يراجعها في العدة بلا عقد جديد ، فالطلاق الرجعي لا يحرم الوطء ، وللزوج مراجعتها في العدة بغير رضاها . وتثبت الرجعة بقوله : راجعتك ورجعتك ورددتك وأمسكتك ، وبكل فعل تثبت فيه حرمة المصاهرة من الجانبين ، ويستحب أن يُشهد على الرجعة . وأما البينونة الصغرى بحيث لا تحل له إلا بعقد جديد ، فذلك كأن يطلقها قبل أن يدخل بها ، أو يطلقها طلاقاً رجعيّاً حتى انقضت عدتها أو ما استعملت فيه ألفاظ الكنايات بنية الطلاق كقوله لزوجته : هي عليّ حرام .

وأما البينونة الكبرى : فهي التي لا تحلّ له إلا بعد أن تتزوج زوجاً غيره ثم يطلقها فتنقضي عدتها ثم يعقد عليها عقداً جديداً ، وذلك كأن طلقها ثلاثاً .

وسيأتي في هذا التفسير مزيد بيان في شأن الطلاق وكذلك في قسم السنة من هذه السلسلة وأما الصور الكثيرة لقضايا الطلاق فمحلها في كتب الفقه .

٣ - رأينا أن القرء هو الطهر على مذهب الشافعية . فإذا طلقها زوجها في طهر ، فهل يعتبر هذا الطهر من الثلاثة أطهار عنده ؟ . الجواب : نعم . وعلى هذا فمتى دخلت في الحيضة الثالثة ، تَبِينُ من زوجها عنده . قال ابن كثير : (وأقل مدة تصدق فيها المرأة في انقضاء عدتها ، اثنان وثلاثون يوماً ، ولحظتان) . وهذا على القول بأن المراد بالقرء ، الطهر .

ورأينا أن القرء هو الحيض على مذهب الحنفية . فإذا طلقها زوجها وهي حائض ، فهل يُعتد بهذه الحيضة من الأقراء عندهم ؟ الجواب : لا . فلابد من ثلاث حيضات كاملات حتى تطهر . وعلى هذا القول ، فأقل وقت تصدق فيه المرأة في انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يوماً ولحظة .

وعلى القول بأن المراد بالقرء الحيض ، فهل تبين بمجرد الطهر ؟ أو حتى تطهر ، ويمضي وقت تستطيع أن تغتسل فيه ؟ الجواب : إن وقت الاغتسال متمم للطهر . فلو حدث أنه قد جاءها زوجها لحظة طهرها ، وقبل أن يمر وقت تستطيع أن تغتسل فيه ، فإنها لازالت زوجته . ويستطيع مراجعتها . عن علقمة قال : (كنا عند عمر رضي الله عنه . فجاءته امرأة فقالت : إن زوجي فارقني بواحدة ، أو اثنتين، فجاءني وقد نزعت ثيابي ، وأغلقت بابي - (أي لتغتسل) - فقال عمر لعبد الله بن مسعود : أراها امرأته ما دون أن تحل لها الصلاة قال وأنا أرى ذلك) .

٤ - **عند قوله تعالى : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾** : نقل ابن كثير حديثين يذكران بعض أوجه التقابل في الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء هما :

أ - في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع : « فاتقوا الله في النساء . فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله . ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح . ولهن رزقهن ، وكسوتهن بالمعروف » .

ب - وفي حديث بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أنه قال : يا رسول الله : ما حق زوجة أحدنا ؟ . قال : « أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبّح ، ولا تهجر إلا في البيت » .

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

المعنى العام :

الآية الأولى : ﴿ **الطلاق مرتان ..** ﴾ : رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته ، وإن طلقها مائة مرة مادامت في العدة . فلما كان

هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاثة طلقات . وأباح الرجعة في المرَّة والثنتين . وأبانها بالكلية في الثالثة . وبيَّن تعالى في الآية أنه لا يحلّ للأزواج أن يضاجروهن ، ويضيقوا عليهن ليفتدين منهم بما أعطوهن من الأصدقة ، أو ببعضه . ثم بيَّن فيها أنه إذا تشاقق الزوجان ، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل ، وأبغضته ولم تقدر على معاشرته ، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها . ولا حرج عليها في بذله له . ولا حرج عليه في قبول ذلك منها . ثم بيَّن الله عز وجل أن هذه الشرائع التي شرعها لنا هي حدوده ، فلا يصح تجاوزها ومن تعداها فإنه هو الظالم . والظالم عند الله له ما له من العذاب . ثم بيَّن الله عز وجل في الآية الثانية أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين ، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجا غيره . أي حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح . فلو وطئها واطىء في غير نكاح ، ولو في ملك اليمين لم تحل للأول ، لأنه ليس بزوج . وهكذا لو تزوجت ، ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول . فإذا طلقها الزوج الثاني بعد الدخول بها فإنها تحل لزوجها الأول بعد انقضاء العدة . فإذا شاءا أن يعودا إلى الحياة الزوجية فلهما ذلك بعقد جديد . ثم بيَّن الله عز وجل في الآية ، أن شرائعه ، وحدوده بيَّنها لقوم يتصفون بالعلم . أما الجاهليون ، فإنهم جهلة . لا يعرفون حراماً ، ولا حلالاً . ثم بيَّن تعالى في الآية الثالثة للرجال أنه إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً ، له فيه رجعتها . فإما أن يمسكها . أي يرتجعها إلى عصمة نكاحه بالمعروف وهو أن يُشهد على رجعتها ، وينوي عشرتها بالمعروف . أو يسرحها . أي يتركها حتى تنقضي عدتها . ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن . من غير شقاق ولا مخاصمة ، ولا تقابح . ثم نهى الله عز وجل عن الإمساك بقصد الإضرار . وذلك أن الرجل كان يطلق المرأة . فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً ، لئلا تذهب إلى غيره ، ثم يطلقها ، فتقعد فإذا شارفت على انقضاء العدة ، طلق ، لتطول عليها العدة . ثم نهى الله عز وجل عن التلاعب ، واللعب بآيات الله بأن لا تؤخذ آيات الله وأحكامه بمنتهى الجد . ثم أمرنا تعالى أن نتذكر نعمته علينا بإرسال رسوله بالهدى والبينات وإنزاله الكتاب ، والسنَّة يأمرنا فيهما ، وينهانا ، ويتوعدنا على ارتكاب المحارم . ثم أمرنا بالتقوى فيما نأتي ، وفيما نذر . ثم أمرنا أن نعلم أن علم الله محيط بكل شيء . فلا يخفى عليه شيء من أمورنا السرية ، والجهرية . وسيحاسبنا على ذلك . ثم يبيِّن الله عز وجل في الآية الرابعةحكم الرجل يطلق امرأته طلقة ، أو طلقتين . فتنقضي عدتها ، ثم يبدو له أن يتزوجها ، وأن يراجعها . وتريد المرأة ذلك ، فيمنعهم أولياؤها من ذلك . فنهى الله أن يمنعوها . ثم بيَّن

الله عز وجل فيها ، أن هذا الأمر الذي نهاهم عنه . من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن ، إذا تراضوا بينهم بالمعروف يأتمر به ، ويتَّعظ به ، وينفعل له الذي يؤمن بشرع الله ، ويخاف وعيد الله ، وعذابه في الدار الآخرة ، وما فيها من الجزاء . ثم بيَّن تعالى أن اتّباع شرع الله في رد المَوْليات إلى أزواجهن ، وترك الحميّة في ذلك أزكى للأنفس ، وأطهر للقلوب . ثم بيَّن الله تعالى أنه يعلم من المصالح فيما يأمر به ، وينهى عنه . ونحن لا نعلم الخير فيما نأتي وما نذر ، إلا بتعليم الله إيانا .

المعنى الحرفي للآيات :

﴿ **الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان** ﴾ : روى الإمام أحمد : قال رجل : يا رسول الله : أرأيت قول الله : ﴿ **الطلاق مرتان** ﴾ فأين الثالثة ؟ . قال : « التسريح بالإحسان » . والطلاق بمعنى التطليق . كالسلام ، بمعنى التسليم ، وقوله تعالى : ﴿ **الطلاق مرتان** ﴾ أي : التطليق الشرعي ، تطليقة بعد تطليقة ، على التفريق ، دون الجمع والإرسال دفعة واحدة . ولم يُرد بالمرتين ، التثنية . ولكن التكرير كقوله تعالى : ﴿ **ثم ارجع البصر كرتين** ﴾ . (سورة الملك) أي **كرّة بعد كرّة** . وهو دليل على أن الجمع بين الطلقتين والثلاث في طهر واحد بدعة لأن الله تعالى أمرنا بالتفريق فإنه وإن كان ظاهر النص الخبر ، فمعناه الأمر . فصار المعنى : الطلاق مرة ، فمرة . ثم إما أن يراجعها ، ويمسكها بمعروف . وإما أن يطلقها الثالثة . فإذا طلقها الثالثة ، بانت منه بينونة كبرى . فلا تحل له كما سنرى إلا بعد أن تتزوج من غيره ، ويدخل بها ، ثم يطلقها ، وتنقضي عدتها .

سبب النزول :

في الأثر الصحيح : « كان الرجل أحق برجعة امرأته ، وإن طلقها ما شاء مادامت في العدة . وإن رجلاً من الأنصار غضب على امرأته فقال : والله لا آويك ، ولا أفارقك ، قالت : وكيف ذلك ؟ . قال : أطلقك . فإذا دنا أجلك ، راجعتك . ثم أطلقك .فإذا دنا أجلك راجعتك . فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ . فأنزل الله عز وجل : ﴿ **الطلاق مرتان** ﴾ . قال : فاستقبل الناس الطلاق ، من كان طلق . ومن لم يكن طلق » . رواه عبد بن حُميد في تفسيره ، والترمذي ، والحاكم ، وابن مردويه . قال ابن عباس : (إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين ، فليتق الله في ذلك – أي في الثالثة – فإما أن يمسكها بمعروف . فيحسن صحابتها ، أو يسرحها بإحسان . فلا يظلمها من حقها

شيئاً) . وقد مر معنا من قبل أحسن الطلاق ، والطلاق الحسن ، والطلاق البدعي . ومرَّ معنا الطلاق الرجعي ، والبائن بينونة صغرى ، وكبرى فلا نعيده . ﴿ **ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألَّا يقيما حدود الله . فإن خفتم ألَّا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به** ﴾ أي :ولا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما أعطيتموهن من المهور شيئاً إلا في حالة واحدة : وهي أن يعلم الزوجان عدم استطاعتهما إقامة حدود الله فيهما يلزمهما من واجب الزوجية بسبب من الزوجة . فعندئذٍ رخّص الله لها أن تفتدي نفسها بدل ما أوتيت من مهر مقابل أن يخلعها . ورخّص للرجل أن يأخذ . والضمير بقوله تعالى ﴿ **فإن خفتم ألَّا يقيما حدود الله** ﴾ يعود إلى الجماعة المسلمة المتمثلة بقضاتها ، وحكامها ، وأهل الرأي فيها . ودل قوله تعالى : ﴿ **إلا أن يخافا ألَّا يقيما حدود الله** ﴾ على أن طلب المرأة الخلع من غير موجب حرام عليها . وقد روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما قوله ﷺ : « أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » . وقد احتج كثير من الأئمة بقوله تعالى : ﴿ **ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألَّا يقيما حدود الله** ﴾ على أن الخلع لم يشرع إلا في هذه الحالة . حتى قال الأوزاعي ومالك : لو أخذ منها شيئاً ، وهو مضارّ لها ، وجب ردّه إليها . وكان الطلاق رجعياً . قال مالك : وهو الأمر الذي أدركت الناس عليه . وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق ، وعند الاتفاق ، بطريق الأولى والأحرى . وهذا قول جميع أصحابه قاطبة .

سبب النزول :

ذكر ابن جرير أن هذا النص نزل في شأن ثابت بن قيس بن شماس ، وامرأته . وهو أول خلع في الإسلام . ولنذكر روايتين عن هذه الحادثة الواردة بأسانيد كثيرة .

عن ابن عباس (أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ فقالت : والله ما أعتب على ثابت بن قيس في دين ، ولا خلق . ولكني أكره الكفر في الإسلام . لا أطيقه بغضاً . فقال لها النبي ﷺ : « تردين عليه حديقته ؟ . » قالت : نعم . فأمره النبي ﷺ أن يأخذ بستانه ، ولا يزداد) . رواه ابن ماجه بإسناد جيد مستقيم . وروى ابن جرير عن عكرمة ، عن ابن عباس : (إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبد الله بن أُبيّ . أتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله : لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبداً . إني

رفعت جانب الخباء فرأيته قد أقبل في عدة . فإذا هو أشدهم سواداً ، وأقصرهم قامة ، وأقبحهم وجهاً . فقال زوجها : يا رسول الله ! إني أعطيتها أفضل مالي . حديقة لي . فإن ردت عليّ حديقتي . قال : « ما تقولين ؟ » . قالت : نعم . وإن شاء زدته . قال : ففرق بينهما) .

﴿ **تلك حدود الله فلا تعتدوها** ﴾ : الإشارة في ﴿ **تلك** ﴾ إلى ما حد الله من أحكام سابقة في النكاح ، واليمين ، والإيلاء ، والطلاق . ومعنى فلا تعتدوها . أي : لا تجاوزوها بالمخالفة . أي : قفوا عندها . ﴿ **ومن يتعدّ حدود الله** ﴾ : أي يتجاوزها بعدم الوقوف عندها ﴿ **فأولئك هم الظالمون** ﴾ : الذين يظلمون أنفسهم فيضرونها في الدنيا والآخرة .

فـوائـد :

١ - من حوادث الخلع في زمن عمر ما رواه ابن جرير « أن عمر أُتي بامرأة ناشز . فأمر بها إلى بيت كثير الزبل (أي حبسها به) ثم دعا بها فقال : كيف وجدت ؟ . فقالت : ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التي كنتَ حبستني . فقال لزوجها : اخلعها ولو من قرطها » وفي رواية « فحبسها فيه ثلاثة أيام » ومن حوادث الخلع زمن عثمان ما حدثت به الربيع بنت معوّذ قالت : « كان لي زوج يقلّ عليَّ الخير إذا حضرني ، ويحرمني إذا غاب عني . قالت : فكانت مني زلة يوماً فقلت له : أختلع منك بكل شيء أملكه ؟ . قال : نعم ، قالت : ففعلت . قالت : فخاصم عمي معاذ بن عفراء إلى عثمان ، فأجاز الخلع . وأمره أن يأخذ عقاص رأسي ، فما دونه » أو قالت : « ما دون عقاص رأسي »

٢ - هل يجوز في الخلع أن يأخذ الرجل أكثر مما أعطاها ؟ قال أصحاب أبي حنيفة : إن كان الإضرار من قبلها ، جاز أن يأخذ منها ما أعطاها . ولا يجوز الزيادة عليه . فإن ازداد جاز في القضاء . وإن كان الإضرار من جهته ، لم يجز أن يأخذ منها شيئاً . فإن أخذ جاز في القضاء . **وقال الإمام أحمد** : لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها . وقال الأوزاعي : القضاة يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها . ومذهب مالك ، والشافعي أنه يجوز له أن يأخذ كل ما يتفقان عليه من كثير ، أو قليل . ولو كان ما بيدها . حتى لا يترك لها سوى عقاص شعرها .

٣ - هل يعتبر الخلع طلاقاً ؟ . قال الحنفية : إن الخلع تطليقة بائنة . وهو مذهب مالك ، والشافعي في الجديد . ومذهب أحمد والشافعي في القديم : أن الخلع فسخ ، وليس بطلاق . وعلى هذا ، فمن طلق امرأته تطليقتين ، ثم اختلعت منه ، يجوز له أن يتزوجها .

٤ - وليس للخالع أن يراجع المختلعة في العدّة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة . واتفق الجميع على أن للمختلع أن يتزوجها في العدة .

٥ - روى النسائي في سننه عن محمود بن لبيد قال : أُخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً . فقام غضبان ، ثم قال : « أيُلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » . حتى قام رجل فقال : يا رسول الله : ألا أقتله ؟ ، قال ابن كثير فيه انقطاع . **ولنعد إلى الآيات** : ﴿ **فإن طلقها فلا تحل له من بَعْدُ حتى تنكح زوجاً غيره** ﴾ : أي فإن طلقها مرة ثالثة بعد المرتين ، فلا تحلّ له من بعد التطليقة الثالثة حتى تتزوج غيره . والحكمة في ذلك ، أنه لما أقدم على فراق لم يُبق للندم مخلصاً لم تحل له إلا بدخول فحل عليها ليمتنع من ارتكابه . ولابد في هذا الزواج من أن يجامعها الزوج الثاني . إن هذه الإصابة شرطت بحديث العسيلة الذي سنذكره بعد قليل إن شاء الله . وقد استدل الحنفية على مذهبهم بعدم اشتراط الولي في نكاح الكبيرة بإسناد النكاح للمرأة بهذا النص ﴿ **حتى تنكح زوجاً غيره** ﴾ .

﴿ **فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنَّا أن يقيما حدود الله** ﴾ : أي فإن طلقها الزوج الثاني بعد الوطء فلا إثم عليهما أن يرجع كل واحد منهما إلى صاحبه الأول بالزواج متى انقضت عدتها من الثاني إن كان في ظنهما أنهما يقيمان حقوق الزوجية . ولم يقل إن علما أن يقيما . لأن اليقين مغيَّب عنهما لا يعلمه إلا الله . ﴿ **وتلك حدود الله يبيِّنها لقوم يعلمون** ﴾ : أي وتلك شرائع الله ، وأحكامه . يوضحها لقوم يفهمون ما يبيّن لهم .

فــوائــد :

١ - روى الإمام أحمد عن عائشة ، قالت : « دخلت امرأة رفاعة القرظي ، وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ فقالت : إن رفاعة طلقني البتة . وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني . وإنما عنده مثل الهُدْبَة ، وأخَذَت هُدْبَة من جلبابها . وخالد بن سعيد بن

العاص بالباب لم يؤذن له . فقال : يا أبا بكر ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله ﷺ . فما زاد رسول الله ﷺ عن التبسم : فقال رسول الله ﷺ : « كأنك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة ؟ لا ، حتى تذوقي عُسيْلته ، ويذوق عُسيْلتك » . وكون ذوق العسيلة شرطاً لصحة العودة إلى الأول مذكور في أحاديث صحيحة ، وحسنة كثيرة . وليس المراد بالعسيلة المني . لما رواه الإمام أحمد والنسائي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « ألا إن العسيلة الجماع » .

٢ – وينبغي أن يكون الزوج الثاني راغباً في المرأة ، قاصداً لدوام عشرتها كما هو المشروع من التزويج . فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول . فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذمه . ومتى صرح بمقصوده في العقد ، بطل النكاح عند جمهور الأئمة . روى الإمام أحمد ، والنسائي عن عبد الله بن مسعود قال : (آكل الربا ، وموكله ، وشاهداه ، وكاتبه إذا علموا به . والواصلة ، والمستوصلة ، ولاوي الصدقة ، والمتعدي فيها ، والمرتد على عقبيه أعرابياً بعد هجرته ، والمحلِل ، والمحلَّل له ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيامة) . والأحاديث الصحيحة ، والحسنة في ذمّ المحلل ، والمحلَّل له كثيرة . وقد اشتدّ بعض الصحابة في هذا الموضوع ، حتى إنهم لم يرتبوا على زواج المحلل أي أثر . وإن كان بدون تآمر بين الزوج الأول والمحلل . حتى إنهم رووا عن عثمان أنه فرق بين المحلل والزوجة . والفتوى في هذا الموضوع على مذهب الحنفية أنه إذا لم يشترط التحليل في العقد ودخل بها المحلِل ثم طلقها فانقضت عدتها حلت لزوجها الأول بعقد جديد .

٣ – اختلف الأئمة – رحمهم الله – فيما إذا طلق الرجل امرأته طلقة ، أو طلقتين ، وتركها حتى انقضت عدتها ، ثم تزوجت بآخر . فدخل بها ، ثم طلقها . فانقضت عدّتها . ثم تزوجها الأول . هل تعود إليه بما بقي من الثلاث كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وهو قول طائفة من الصحابة رضي الله عنهم ، أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق . فإن عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث كما هو مذهب أبي حنيفة ، وأصحابه رحمهم الله . وحجتهم أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث فلأن يهدم ما دونها بطريق الأولى والأحرى . ﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن** ﴾ : أي إذا طلقتم النساء طلاقاً رجعياً ، فبلغن آخر عدتهن ، وشارفن منتهاها ، إذ الأجل يقع على المدة كلها ، وعلى آخرها . ﴿ **فأمسكوهن بمعروف أو سرّحوهن بمعروف** ﴾ :

أي : إما أن تراجعوهن من غير رغبة ضرار بالمراجعة ، أو تخلوهن حتى تنقضي عدتهن . فَبِيَنَّ من غير ضرار . ﴿ **ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا** ﴾ : أي ولا تمسكوهن مضارين بأن تراجعوهن لا عن حاجة ، ولكن لتطوّلوا العدة عليهن لتظلموهن ، أو لتلجؤهن إلى الافتداء . ﴿ **ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه** ﴾ : أي ومن يمسكهن ضراراً فقد ظلم نفسه بتعريضها لعقاب الله . ﴿ **ولا تتخذوا آيات الله هُزُواً** ﴾ : أي جدوا بالأخذ بها ، والعمل بما فيها ، وارعوها حق رعايتها . وإلا فقد اتخذتموها هزواً . يقال لمن لم يجد في الأمر ، إنما أنت لاعب ، وهازىء . ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم** ﴾ : بالإسلام ، وبنبوة محمد ﷺ . ﴿ **وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به** ﴾ أي : اذكروا ما أنزل الله عليكم من القرآن والسنَّة يذكركم به ، ويخوفكم . وتذكر ذلك إنما يكون بالشكر ، وبالقيام بالحق . ﴿ **واتقوا الله** ﴾ : فيما امتحنكم به . ﴿ **واعلموا أن الله بكل شيء عليم** ﴾ : من ذكركم ، وتقواكم ، واتعاظكم ، وغير ذلك . وهو أبلغ وعد ، ووعيد .

فـائـدة :

قال مسروق في قوله تعالى : ﴿ **ولا تتخذوا آيات الله هُزُواً** ﴾ : (هو الذي يطلق في غير كنهه . ويضارّ امرأته بطلاقها ، وارتجاعها لتطول عليها العدة) . وقد فهم مسروق هذا من السياق . وقال الحسن ، وقتادة ،وعطاء الخراساني ، والربيع ، ومقاتل في تفسيرها : (هو الرجل يطلق ويقول كنت لاعباً ، أو يعتق ، أو ينكح ويقول : كنت لاعباً . فأنزل الله : ﴿ **ولا تتخذوا آيات الله هزواً** ﴾ فألزم الله بذلك) . وروى أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث جدهن جد ، وهزلهن جد . النكاح ، والطلاق ، والرجعة » . قال الترمذي : حسن غريب . ﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن** ﴾ : أي وإذا طلقتم النساء فانقضت عدتهن وإذا سأل سائل : لماذا فسرنا قوله تعالى : ﴿ **فبلغن أجلهنّ** ﴾ في الآية السابقة بمقاربة انتهاء العدة . وههنا بانقضاء العدة ؟ . نقول : دل السياق على افتراق البلوغين . فههنا أعقب النص النكاح . وهذا يكون بعد العدة . وهناك أعقب النص الرجعة . وهذا يكون في العدة . ﴿ **فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف** ﴾ : العضل : هو المنع ، والتضييق . والخطاب للأولياء الذين لا يتركون مولياتهم يتزوجن من أزواجهن الأُوَل . وسموا أزواجاً باعتبار ما كان . فصار المعنى : فلا تمنعوهن أن يتزوجن أزواجهن الأُوَل اللَّائي يرغبن فيهم ، ويصلحون لهن إذا تراضى

الخُطَّاب والنساء ، ضمن حدود المعروف ، والمعروف هنا هو ما يحسن في الدين . والمروءة من شرائط ذلك . ﴿ **ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ : لأن الموعظة تنجح فيهم فقط ﴿ **ذلكم أزكى لكم وأطهر** ﴾ أي : ترك العضل والضرار أفضل ، وأطيب ، وأزكى لأنفسكم ، وأطهر لها من أدناس الآثام . ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ . ومن ثَمَّ فهو الذي يحكم ، ويأمر ، وينهى ، ويشرع . وليس لكم شيء من ذلك فما أجهل من نازع الله حق التشريع ، وحق الأمر والنهي ، وحق الحكم .

فـوائـد :

١ - استشهد كل من الشافعية والحنفية بهذه الآية على مذهبيهما المتعارضين في موضوع جواز تزويج البالغة نفسها بدون ولي ، كما هو مذهب الحنفية . أو عدم جواز ذلك إلا بولي كما هو مذهب الشافعية . استشهد الحنفية بقوله تعالى : ﴿ **أن ينكحن أزواجهن** ﴾ . فقالوا : أسند النكاح إليها . فدل على انعقاد النكاح بعبارة النساء . وقال الشافعية : نزلت هذه الآية في الرجل ، يطلق امرأته طلقة ، أو طلقتين . فتنقضي عدتها ، ثم يبدو له أن يتزوجها ، وأن يراجعها . وتريد المرأة ذلك . فيمنعها أولياؤها من ذلك . فنهى الله أن يمنعوها . فدل ذلك عندهم على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها . وأنه لابد في النكاح من ولي . وفي الحديث : « لا تزوج المرأة المرأة ، ولا تزوج المرأة نفسها . فإنَّ الزانية هي التي تزوج نفسها » وفي الأثر الآخر : « لا نكاح إلا بولي مرشد وشاهدَيّ عدل » . وبسط هذا الموضوع في الجزء الثاني من هذا الكتاب (الأساس في السنَّة وفقهها) .

٢ - نزلت هذه الآية في معقل بن يسار المزني وأخته . وذلك أنه زوَّج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت . ثم طلقها تطليقة ، لم يراجعها حتى انقضت عدتها . فهويها ، وهويته . ثم خطبها مع الخطّاب . فقال له : يا لكع ابن لكع . أكرمتك بها ، وزوجتكها فطلقتها . والله لا ترجع إليك أبداً آخر ما عليك . قال : فعلم الله حاجته إليها ، وحاجتها إلى بعلها ، فأنزل الله : ﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن** ﴾ إلى قوله ﴿ **وأنتم لا تعلمون** ﴾ . فلما سمعها معقل قال : سمعاً لربي وطاعة . ثم دعاه فقال : « أزوجك ، وأكرمك » . رواه الترمذي ، وصححه . وزاد ابن مردويه : وكفّرتُ عن يميني .

٣ - فسر فقهاء الحنفية المعروف في قوله تعالى : ﴿ **إذا تراضوا بينهم بالمعروف** ﴾ : أنه مهر المثل ، والكفء . لأنه عند عدم كفاءة الرجل فللأولياء أن يعترضوا .

﴿ **والوالدات يُرضِعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يُتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تُكلَّف نفس إلا وسعها لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالا عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جناح عليهما . وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير** ﴾ .

المعنى العام :

في هذه الآية إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة وهي سنتان . ثم بيَّن عز وجل على والد الطفل نفقة الوالدات ، وكسوتهن بالمعروف . أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار ، بحسب قدرته في يساره ، أو توسطه ، أو إقتاره . لأن القاعدة العامة في الشريعة الإسلامية التكليف بقدر الوسع . ثم بيَّن الله عز وجل أنه لا يجوز للمرأة أن تدفع الولد عنها ، لتضر أباه بتربيته . كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار بها . وكما أن عدم الضرار واجب على الوالد ، فكذلك الوارث ، يجب عليه عدم الضرار بزوجة المتوفى . ثم يبيِّن الله عز وجل أنه إذا اتفق والدا الطفل على فطامه ، قبل الحولين ، ورأيا في ذلك مصلحة له ، وتشاورا في ذلك ، وأجمعا عليه ، فلا جناح عليهما في ذلك . ثم بيَّن الله عز وجل أنه إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد إما لعذر منها ، أو لعذر له ، فلا جناح عليها في بذله ، ولا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن . واسترضع لولده غيرها ثم أمرنا الله عز وجل أن نتقيه في جميع أحوالنا ، وأن نعلم أنه لا يخفى عليه شيء من أحوالنا وأقوالنا .

المعنى الحرفي :

﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين** ﴾ : هذا خبر في معنى الأمر . أي وليرضع الوالدات أولادهن حولين كاملين . وهذا الأمر على وجه الندب ، أو على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمه . أولم توجد له ظئر ، أو كان الأب عاجزاً عن

الاستئجار . ومعنى كاملين : تامين . ويمكن أن يراد بالوالدات هنا ، الوالدات المطلقات . وإيجاب النفقة ، والكسوة ، لأجل الرضاع . ﴿ **لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾ : هذا بيان لمن توجه إليه الحكم . أي هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاعة . **قال النسفي** : والحاصل أن الأب يجب عليه إرضاع ولده دون الأم . وعليه أن يتخذ له ظئراً ، إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه . وهي مندوبة إلى ذلك . ولا تجبر عليه . ولا يجوز استئجار الأم ما دامت زوجة ، أو معتدة . ﴿ **وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف** ﴾ : أي وعلى الذي يولد له وهو الوالد ، رزقهن وكسوتهن بلا إسراف ولا تقتير . وتفسيره ما يعقبه . وهو لا يكلف واحد منهما ما ليس في وسعه . ولا يتضاران. وإنما قيل على المولود له ، دون الوالد ، ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم إذ الأولاد للآباء والنسب إليهم لا إليهن . فكان عليهم أن يرزقوهن ، ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأظآر . ﴿ **لا تكلَّف نفس إلا وسعها** ﴾ التكليف : إلزام ما يؤثر فيه الكلفة . والوسع هو ، الوِجْد ، أو قدر الإمكان . أي لا يُلزم الله نفساً إلا بقدر وجْدها وإمكانها . ﴿ **لا تضار والدة بولدها** ﴾ لا : هنا ، ناهية . أي لا تضار والدة زوجَها بسبب ولدها . وهو أن تعنف به ، وتطلب منه ما ليس بعدل من الرزق والكسوة ، وأن تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد ، وأن تقول بعدما أَلِفَها الصبي : اطلب له ظئراً . وما أشبه ذلك . ﴿ **ولا مولود له بولده** ﴾ : أي : ولا يضارّ مولود له ، امرأته بسبب ولده . بأن يمنعها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها ، أو يأخذه منها ، وهي تريد إرضاعه . ويمكن أن يفهم النص ﴿ **لا تضار ..** ﴾ فهماً آخر ، إذا فهمنا لا تضار ، بمعنى تضر . فيكون المعنى على هذا : لا تضرّ والدة ولدها . فلا تسيء غذاءه ، وتعهده . ولا تدفعه إلى الأب بعدما ألفها . ولا يضر الوالد به ، بأن ينتزعه من يدها ، أو يقصِّر في حقها ، فتقصِّر هي في حق الولد . وإنما قيل : بولدها ، وبولده : لأنه لما نهيت المرأة عن المضارَّة ، أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه ، وكذلك الوالد . ﴿ **وعلى الوارث مثل ذلك** ﴾ أي : وعلى وارث الصبي عند عدم وجود الأب ، مثل الذي كان على أبيه في حياته ، من الرزق والكسوة . ووارث الصبي في الأصل هو كل من يرثه لو مات . ولذلك كان مذهب ابن أبي ليلى أن نفقة الصبي على كل من يرثه . وعند الحنفية الرحم المحرم أولى به ، فعليه النفقة . وعند الشافعية : النفقة على من بينه وبين الصبي وِلاد إذ لا نفقة إلا بهذا عنده . ﴿ **فإن أرادا فِصالاً عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جُناح عليهما** ﴾ : أي : فإن أراد الأبوان فِطاماً صادراً عن تراضٍ بينهما

وتشاور بينهما فلا إثم عليهما في ذلك ، زادا على الحولين ، أو نقصا . وهذه توسعة بعد التحديد ، والتشاور استخراج الرأي . وذكر التشاور في الآية ، ليكون التراضي عن تفكر . فلا يضر الرضيع . واعتبر اتفاقهما . لأن للأب التبعة والولاية . وللأم الشفقة ، والعناية . ويؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي . ولا يجوز لواحد منهما أن يستبدّ بذلك من غير مشاورة الآخر . وهذا فيه احتياط للطفل ، وإلزام للنظر في أمره . وهو من رحمة الله بعباده . ﴿ **وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم ، فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف** ﴾ : أي وإن أردتم حين عجز الأم ، أو إبائها أن تسترضعوا المراضع أولادكم ، فلا إثم عليكم إذا سلمتم هذه المراضع ما أردتم إيتاءه لهن من الأجرة بالمعروف الذي هو هنا طيب النفس ، والسرور ، وتسليم الأجرة للمرضع ابتداءً مندوب ، وليس شرط جواز . أو إذا سلمتم الأمهات أجورهن على ما مضى بالمعروف . ﴿ **واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير** ﴾ : فلا تخفى عليه أعمالكم ، وهو مجازيكم بها . وههنا أمران . أمر بالتقوى وأمر بمعرفة الله . وهما متلازمان .

فـوائـد :

١ - جاءت هذه الآية في سياق آيات الطلاق . فإذا فهمناها من خلال السياق . فإن الآية تكون حديثاً عن موضوع لابد من حله ، وهو موضوع الولد من حيث رضاعه ، وتربيته : إن الأم المطلقة من شأنها أن ترضع ولدها حولين كاملين . وفي مقابل ذلك لها النفقة . وهذه النفقة تجب لها إذا كانت زوجة ، أو معتدة بحكم الزوجية . أما بعد انفصام الزوجية ، فبحكم قيامها على تربية الطفل ، وانحباسها من أجل مصلحته . والشورى ، والرغبة الصالحة في الإحسان هما الأصل في العلاقة من أجل الطفل . وإذا مات الأب ، تنتقل النفقة على من تجب نفقة الطفل عليه . وإذا حدث ما يمنع الأم من الاستمرار في الرضاع ، يسلم الطفل إلى مرضع أخرى . وفي مقابل ذلك ، فعلى الأب أجرة الإرضاع للمرضع الجديد .

٢ - رأينا أن التشاور بين الأب والأم في شأن الطفل واجب لتحصيل ما هو مصلحة للطفل . ونفهم من ذلك ، أدباً عاماً ، هو أن كل ما فيه مصلحة لأكثر من إنسان ، ينبغي أن تقام فيه الشورى . وتجتمع فيه الآراء . فكيف إذا كان ذلك مصلحة الإسلام ، والمسلمين ومن ثَمَّ فإننا نعتبر هذه الآية أصلاً في موضوع كثير من الأمور في

سير الحركة الإسلامية .

٣ - رأينا أن الرضاعة الكاملة سنتان . وقد رأى علقمة امرأة ترضع بعد الحولين . فقال : لا ترضعيه . وكأنه يرى أن ما زادْ على السنتين ربما أضرّ بالولد ، إما بنفسه ، أو بعقله ، أو بجسمه هذا مع كون الرضاع بعد السنتين مباحاً . والاتجاه الغالب عند الفقهاء أن الرضاعة بعد السنتين لا يترتب عليها حكم من ناحية الحل والحرمة في شأن الزواج .

٤ - قال فقهاء الحنفية في شأن الحضانة والنفقة : « ونفقة الأولاد الصغار على الأب إذا كانوا فقراء ، وليس على الأم إرضاع الصبي إلا إذا تعيَّنت ، فيجب عليها . ويستأجر الأب من ترضعه عندها فإن استأجر زوجته أو معتدته لترضع ولدها لم يجز ، أما بعد انقضاء العدة فهي أولى من الأجنبية ، إلا أن تطلب زيادة أجر » . « وإذا اختصم الزوجان في الولد قبل الفرقة أو بعدها فالأم أحق بحضانته ثم أمها ... ومن لها الحضانة إذا تزوجت بأجنبي سقط حقها فإن فارقته عاد حقها .. ويكون الغلام عندهن حتى يستغني عن الخدمة وتكون الجاريةعند الأم والجدة حتى تحيض .. » .

* * * *

﴿ والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جُناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير * ولا جناح عليكم فيما عرَّضتم به من خِطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم . علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهُن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً . ولا تعزموا عُقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله . واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حليم ﴾ .

المعنى العام :

في الآية أمر الله النساء اللائي يُتوفَّى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر ، وعشرة أيام . وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن ، وغير المدخول بهن بالإجماع . ومستند الإجماع هذه الآية ، وحديث ابن مسعود الذي سنذكره بعد . ولم يخرج عن هذا الحكم إلا المتوفَّى عنها زوجها وهي حامل . فقد اختُلف في عدتها . هل عدتها وضع حملها ، لآية سورة الطلاق ؟ . أو أبعد الأجلين من الوضع ، أو أربعة أشهر وعشراً ؟ .

وسنرى ذلك إن شاء الله . ويستفاد من الآية وجوب الإحداد على الزوجة المتوفَّى عنها زوجها مدة عدتها كما سنرى . فإذا انتهت عدتها ، فلا عليها أن تتزين ، وتتصنَّع ، وتتعرَّض للزواج الحلال الطيب . وفي الآية الثانية يبيح الله لنا التعريض بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح . كما يبيح لنا إضمار الخطبة لهن في أنفسنا دون الاتفاق السري ، ومن باب أولى الجهري على التزوج بعد العدة . وإباحة الله لنا هذا لعلمه جل جلاله بأنفسنا ، وتطلعاتها . كما حرم الله في الآية عقد النكاح علناً حتى تنقضي العدة . وختم الله الآية بأن توعدنا على ما يقع في ضمائرنا من أمور النساء . وأرشدنا إلى الخير دون الشر . مع عدم اليأس من رحمته ، والتقنيط من عائدته جل جلاله .

المعنى الحرفي :

﴿ **والذين يُتوفون منكم** ﴾ أي تُستوفى أرواحهم . ﴿ **ويذرون أزواجاً** ﴾ أي : ويتركون زوجات . ﴿ **يتربَّصْن بأنفسهن أربعة أشهرٍ وعشراً** ﴾ أي : وزوجات الذين يتوفون منكم يعتددن بعدهم بأنفسهن أربعة أشهر وعشرة أيام بلياليهن . ﴿ **فإذا بلغن أجلهن** ﴾ أي : فإذا انقضت عدتهن ﴿ **فلا جُناح عليكم** ﴾ : أيتها الأمة أو أيتها الجماعة المتمثلة بأئمتها ، وقضاتها . يفهم من ذلك أن الأمة بمجموعها مكلفة بإقامة أحكام الله ، ومن مثل هذا النص عرف موضوع فرض الكفاية وفرض العين ﴿ **فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف** ﴾ أي : من التعرض للخُطّاب بالوجه الذي لا ينكره الشرع . ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ : يعلم بواطن الأمور كما يعلم ظاهرها . ﴿ **ولا جُناح عليكم فيما عرَّضتم به من خِطبة النساء** ﴾ : الخطبة طلب النكاح . والتعريض : أن تقول : إنك لجميلة ، أو صالحة ، من غرضي أن أتزوج ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ، ولا يصرح بالنكاح . فلا يقول : إني أريد أن أتزوجك . والفرق بين الكناية والتعريض : أن الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له . والتعريض : أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره . فكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ﴿ **أو أكننتم في أنفسكم** ﴾ أي : لا إثم عليكم فيما سترتم ، وأضمرتم في قلوبكم .

﴿ **علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرّاً** ﴾ أي : علم الله أنكم ستذكرونهن لا محالة . ولا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهن فاذكروهن . ولكن لا تواعدوهن سراً . أي : لا تأخذ ميثاقها أن لا تتزوج غيرك . لا تقل لها إني عاشق ،

فعاهديني أن لا تتزوَّجي غيري . لا تحدثها عن الجماع ، وقدرتك عليه لتثير شهوتها . فتأخذ منها وعداً . ﴿ **إلا أن تقولوا قولاً معروفاً** ﴾ أي : لا تواعدوهن مواعدةً قطُّ ، إلا معروفة غير منكرة ، كأن يقول لوليها : لا تسبقني بها . يعني : لا تزوجها حتى تعلمني .

﴿ **ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله** ﴾ : العزم هو القطع . وذكر العزم هنا مبالغة في النهي عن عقد النكاح . لأن العزم على الفعل يتقدمه . فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى . والمراد بالكتاب هنا : العدة . وسميت العدة كتاباً ، لأنها فرضت بالكتاب . فصار المعنى : ولا تعزموا عُقدة النكاح حتى تنقضي عدتها ، بأن يبلغ التربص المكتوب عليها أجله . أي : غايته ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم** ﴾ من : العزم على ما لا يجوز ﴿ **فاحذروه** ﴾ : أن تعزموا على ما حرم عليكم . ﴿ **واعلموا أن الله غفور حليم** ﴾ : لا يعاجل في العقوبة ، يمهل ، ولا يهمل ، ويتوب على من تاب ، ويعفو عن كثير .

فـوائـد :

١ - التعريض بالخِطبة في العدة للمتوفى عنها زوجها ، وللمطلقة البائنة أما المطلقة طلاقاً رجعياً ، فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها أثناء العدة . والدليل على جواز التعريض للمطلقة ما قاله النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمر بن حفص آخر ثلاث تطليقات ، فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم . وقال لها : « فإذا حللت ، فآذنيني » . فلما حلت ، خطب عليها أسامة ابن زيد مولاه . فزوجها إياه .

٢ - من تزوج امرأة في عدتها ، فدخل بها ، فإنه يفرق بينهما . وهل تحرم عليه أبداً ؟ . قولان : الجمهور على أنها تحرم عليه على التأبيد . وما هي عقوبتهما في هذه الحالة ؟ . لكون العقد يورث شبهة . فإنه لا يقام عليها حد الرجم . ولكن تعزر ، والتعزير مفوض لرأي القاضي ، وكذلك الرجل يعزر ولا يحد ولكن قد يصل التعزير على رأي بعض العلماء إلى القتل .

٣ - قلنا : إن الإجماع منعقد على وجوب العدة على من توفي عنها زوجها ، سواء كانت مدخولاً بها ، أو لا . والدليل على أن غير المدخول بها هذا حكمها ما رواه أهل السنن ، والإمام أحمد وصححه ، والترمذي : (أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج

امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ، ولم يفرض لها ؟ . فترددوا إليه مراراً في ذلك . فقال : أقول فيها برأيي . فإن يك صواباً فمن الله ، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه . لها الصداق كاملاً - وفي لفظ - لها صداق مثلها ، لا وكس ، ولا شطط . وعليها العدة ، ولها الميراث . فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال : سمعت رسول الله ﷺ قضى به في بروع بنت واشق . ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً) .

٤ - ذكر سعيد بن المسيب وأبو العالية ، وغيرهما : أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً ، هي احتمال اشتمال الرحم على حمل . فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً كما جاء في حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين وغيرهما : « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك ، فينفخ فيه الروح » . فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر ، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه. وقال قتادة: سألت سعيد بن المسيب: مابال العشرة؟. قال: فيه ينفخ الروح!..

٥ - كان ابن عباس يرى أن الحامل إذا توفي عنها زوجها أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع ، أو أربعة أشهر وعشراً ، للجمع بين الآية التي مرت معنا ، وقوله تعالى : ﴿ **وأُولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ . ولكن روى أبو عمرو بن عبد البر : أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة كما هو قول أهل العلم قاطبة . وحديث سبيعة مخرَّج في الصحيحين من غير وجه وهو : « أنها توفي عنها زوجها سعد بن خولة ، وهي حامل . فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته . وفي رواية : فوضعت حملها بعده بليال . فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب . فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك . فقال لها : ما لي أراك متجملة ، لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر . قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك ، جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيت ، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك ؟ . فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي . وأمرني بالتزويج إن بدا لي » .

٦ - الزوجة إذا كانت أَمَة ، وتوفي عنها زوجها ، فالجمهور على أن عدتها شهران وخمسة أيام .

٧ - أما عدة أم الولد : إذا توفي عنها سيدها فمذهب أحمد في رواية عنه أن عدتها

أربعة أشهر وعشر . وفي رواية أخرى لأحمد وهو مذهب كثير أن عدتها نصف عدة الحرة . وقال أبو حنيفة وغيره : تعتد بثلاث حيض . وقال مالك ، والشافعي ، وأحمد في المشهور عنه : عدتها حيضة . وقال الليث : ولو مات ، وهي حائض ، أجزأتها . وقال مالك : فلو كانت ممن لا تحيض ، فثلاثة أشهر . وقال الشافعي والجمهور : شهر ، وثلاثة أحب .

٨ - قالت زينب بنت أم سلمة في وصف إحداد المرأة الجاهلية : (كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً ، ولبست شر ثيابها ، ولم تمسّ طيباً ولا شيئاً حتى تمر بها سنة ، ثم تخرج فتعطى بعرة فترمي بها . ثم تؤتى بدابة حمار ، أو شاة ، أو طير ، فتفتض به . فقلما تفتض بشيء إلا مات) . أي من نتنها . والافتضاض مسح الفرج به . والظاهر أن الحيوانات التي تموت من الافتضاض هي ما كانت من نوع الطيور والحيوانات الصغيرة .

٩ - الإحداد : هو ترك الزينة من الطيب ، ومن لبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب ، وحلي ، وغير ذلك . وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً . ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحداً . بل يستحب لها أن تتزين . وهل يجب الإحداد في عدة البائن ؟ فيه قولان .

في الصحيحين من غير وجه عن أم حبيبة ، وزينب بنت جحش أُمّ المؤمنين : (أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج ، أربعة أشهر وعشراً » . وفي الصحيحين عن أم سلمة أن امرأة قالت : يا رسول الله : إن ابنتي توفي عنها زوجها ، وقد اشتكت عينها أفنكحلها ؟. فقال : « لا » ، كل ذلك يقول : لا مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : « إنما هي أربعة أشهر وعشراً . وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة » . وهذا منع من التكحل الذي هو مظنة الزينة ، لا من التداوي . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا إحداد على كافرة ، ولا على صغيرة ، لعدم التكليف ، ولا على أَمَةٍ مسلمة لنقصها .

١٠ - رأينا أن الخطاب في قوله تعالى : ﴿ **فلا جُناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف** ﴾ : إنما هو لمجموع الأمّة ، وقد رأينا أن الضمير في قوله تعالى : ﴿ **فإن خفتم ألّا يقيما حدود الله** ﴾ : يرجع إلى الأمّة المسلمة ممثلة بقضاتها وحكامها وأهل الرأي فيها ، وسنرى مثل ذلك في القرآن كثيراً وهذا يدل على أن الأمة بمجموعها مكلفة بإقامة

كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، ومكلفة بإقامة أحكام الله عز وجل . فإذا حدث تفلت في هذا فعلى جماعة المسلمين العمل من أجل إرجاع الأمور إلى نصابها ، فمن أوائل الشروط لإعطاء تجمع ما صفةَ جماعة المسلمين أن يعمل من أجل ذلك بطريقه . وإذ كان حسن البنا رحمه الله قد بدأ هذا الطريق وسار فيه وأقام جماعة تتوافر فيها جميع شروط الجماعة فإنه في حدود علمنا تكون جماعته - إن أحسنت - هي أقرب الجماعات الموجودة حالياً لأن تكون جماعة المسلمين .

ولنعد إلى السياق :

﴿ لا جُناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن ، أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهنّ على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين * وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى . ولا تنسوا الفضل بينكم . إن الله بما تعملون بصير ﴾ .

المعنى العام :

أباح الله تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها ، وقبل الدخول بها . وقبل الفرض لها إن كانت مُفَوِّضة . وإذ كان في هذا انكسار لقلبها فقد أمر تعالى بإمتاعها : وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله ، على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره . وفي الآية الثانية أوجب الله نصف المهر المفروض إذا طَلَّقَ الزوج قبل الدخول إلا أن تعفو المرأة فلا تأخذ شيئاً ، أو يعفو الزوج فيدفع المهر كاملاً . ثم ندب الله الجميع ، رجالاً ونساءً للعفو . ونهاهم عن نسيان الإحسان ، وذكّرهم أن الله لا يخفى عليه شيء من أمورهم ، وأحوالهم . وسيجزي كل عامل بعمله .

المعنى الحرفي :

﴿ لا جُناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ﴾ : المسّ : هو الجماع . وفرض الفريضة : تسمية المهر . هذه الآية فيمن طلق امرأته ، ولم يكن سمّى لها مهراً ، ولا جامعها . فإنه لا إثم عليه . ولكن أمره الله : **﴿ ومتعوهن على الموسع قَدَرُه ، وعلى المقتر قدره ﴾** الموسع : هو الغني الذي له سعة . والمقتر :

هو الضيّق الحال . والمتعة عند الحنفية : درع وملحفة وخمار . أي جلباب وثوب وخمار ، وهي عند الحنفية وجمهور العلماء واجبة . قال النسفي : (ولا تجب المتعة عندنا إلا لهذه . وتستحب لسائر المطلقات) . ومعنى ﴿ **قدره** ﴾ في الآية : مقداره الذي يطيقه . ﴿ **متاعاً بالمعروف** ﴾ : أي تمتيعاً بالوجه الذي يحسن في الشرع والمروءة . ﴿ **حقّاً على المحسنين** ﴾ أي : واجباً على المسلمين ، إذ هم المحسنون . وليس ذكر الإحسان هنا علامة على التبرع . إذ دل على وجوب المتعة أكثر من شيء في الآية . ثم بيَّن حكم التي سُمِّيَ لها مهر في الطلاق قبل المسّ ، قال : ﴿ **وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن** ﴾ أي : من قبل أن تجامعوهن . ﴿ **وقد فرضتم لهن فريضة** ﴾ أي : والحال أنكم قد سميتم لهن مهراً ﴿ **فنصف ما فرضتم** ﴾ أي : فعليكم أن تدفعوا لهن نصف المهر . ﴿ **إلا أن يعفون** ﴾ أي : إلا إذا عفون لكم عن حقوقهن . ﴿ **أو يعفو الذي بيده عُقدة النكاح** ﴾ : الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج . فيدفع في هذا الحال المهر كاملاً . فصار المعنى : أن الواجب شرعاً : هو النصف ؛ إلا أن تُسقط هي الكل ، أو يعطي هو الكل تفضلاً . ﴿ **وأن تعفوا أقرب للتقوى** ﴾ : هذا خطاب للجميع . أي : عفو الزوج بإعطاء المهر خير له ، وعفو المرأة بإسقاطه كله خير لها ، فالعفو أقرب للتقوى تحصيلاً ، وتحقيقاً ، وحالاً . ﴿ **ولا تنسوا الفضل بينكم** ﴾ أي : ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض . ﴿ **إن الله بما تعملون بصير** ﴾ فيجازي كل عامل بعمله .

فـــوائـــد :

١ - قال ابن عباس : (متعة الطلاق ، أعلاه : الخادم . ودون ذلك : الورِق ، ودون ذلك الكسوة . وقال : إن كان موسراً ، أمتعها بخادم ، أو نحو ذلك . وإن كان معسراً : أمتعها بثلاثة أثواب) . وقال الشعبي : (أوسط ذلك : درع ، وخمار ، وملحفة ، وجلباب) . وكان شريح يُمتِّع بخمسمائة . ومتَّع الحسن بن علي بعشرة آلاف . وقال الشافعي في الجديد : (لا يُجْبَر الزوج على قدرٍ معلومٍ ، إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة . وأحب ذلك أن يكون أقل ما يجزىء في الصلاة) . وقال في القديم : (لا أعرف في المتعة قدراً إلا أنني أستحسن ثلاثين درهماً كما روي عن ابن عمر) .

٢ - المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ، ولم يفرض لها . فإن كان قد دخل

بها ، وجب لها مهر مثلها إذا كانت مُفَوِّضة . وإن كان قد فرض لها ، وطلقها قبل الدخول : وجب لها عليه شطره ، فإن دخل بها استقر الجميع .

٣ - رأينا أن المطلقة إذا سُمِّيَ لها صداقٌ ثم فارقها قبل دخوله بها ، فإنه يجب لها نصف ما سُمِّيَ من الصداق . وهذا أمر مجمع عليه . وعند الأئمة الثلاثة : أبي حنيفة ، ومالك ، وأحمد أن الخلوة بها حكمها حكم الجماع ، ولو لم يحدث جماع . فيجب عندهم جميع الصداق إذا خلا بها الزوج ، وإن لم يدخل بها . وهو مذهب الشافعي في القديم ، وبه حكم الخلفاء الراشدون . ولكن الشافعي ذهب في الجديد إلى مذهب ابن عباس الذي يقول : في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ، ولا يمسها ، ثم يطلقها ، ليس لها إلا نصف الصداق . قال الشافعي بهذا أقول : وهو ظاهر الكتاب .

٤ - أخرج ابن أبي حاتم عن النبي ﷺ قال : « وَليُّ عقدة النكاح الزوج » وأخرج عن عيسى بن عاصم قال : سمعت شريحاً يقول : سألني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عُقدة النكاح ؟ فقلت له : هو وَليُّ المرأة . فقال علي : بل هو الزوج . ومن حجج الحنفية على من قال : إن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي كمالك : أن الولي لا يملك التبرع بحق الصغيرة . فكيف يجوز حمل الآية عليه ، وهو لا يملك العفو .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا تنسوا الفضل بينكم** ﴾ ذكر ابن كثير كلاماً أخرجه ابن مردويه عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال : « ليأتين على الناس زمان عضوض ، يعضّ المؤمن على ما في يديه ، وينسى الفضل . وقد قال تعالى : ﴿ **ولا تنسوا الفضل بينكم** ﴾ . شرار يبايعون كل مضطر » . وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر ، وعن بيع الغرر . فإن كان عندك خير ، فعد على أخيك ، ولا تزده هلاكاً إلى هلاكه . فإن المسلم أخو المسلم لا يحزنه ، ولا يحرمه » . وذكر ابن كثير كلاماً لعون ابن عبد الله . آخره له علاقة بقوله تعالى ﴿ **ولا تنسوا الفضل بينكم** ﴾ . هو :

عن أبي هارون قال : (رأيت عون بن عبد الله في مجلس القرظي . فكان عون يحدثنا ، ولحيته ترش من البكاء ويقول : صحبت الأغنياء . فكنت من أكثرهم هماً حين رأيتهم أحسن ثياباً ، وأطيب ريحاً ، وأحسن مركباً . وجالست الفقراء ، فاسترحت بهم . وقال : ﴿ **ولا تنسوا الفضل بينكم** ﴾ إذا أتاه السائل ، وليس عنده شيء فليدع له) .

﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالاً أو رُكباناً . فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ : هاتان الآيتان في شأن الصلاة . وردتا بعد آيات في الطلاق فما الحكمة في ذلك ؟ .

أولاً : جاءت هذه الآيات في حيز الأمر بالدخول في الإسلام كله . وإذا سار السياق في أحكام حياتية كثيرة فقد ناسب التذكير بالصلاة في هذا المقام ، ليعلم أن الصلاة هي الابتداء، وهي الوسط ، وهي الانتهاء . وأنها ضرورية . ومحلها في الإسلام لا يصح أن ينسى .

ثانياً : إنه بلا معرفة بالله لا يدخل الإنسان في الإسلام كله . وبلا صلاة لا تكون معرفة بالله ، ولا دخول في الإسلام كله . قال تعالى : **﴿وأَقِمِ الصلاة لذكري ﴾** . (سورة طه) وقال : **﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾** (سورة العنكبوت) فلا دخول في الإسلام كله إلا بصلاة ومن ثَمَّ ذكرت الصلاة في هذا السياق .

ثالثاً : إن مجيء الأمر بالصلاة بين أحكام الطلاق وغيرها من شؤون النساء ، يشعر أن هذه الأحكام تحتاج إلى صلاة في كل حال ، في السلم والحرب ، حتى تقوم . وأن المسلم الذي لا يقيم الصلاة في كل حال ، لا يقيم أحكام الله الأخرى .

رابعاً : مجيء هاتين الآيتين هنا توطئة لما بعد آيات الطلاق . وربط لما بعد آيات الطلاق ، بما قبل آيات الطلاق والنكاح . فبعض الأسئلة التي ذُكرت في الآيات السابقة على آيات النكاح ذكرت فريضة القتال . وما بعد آيات الطلاق كلام عن القتال . وفي هاتين الآيتين أمر بالصلاة وإقامتها حتى في القتال . وهكذا الإسلام ؛ كل متكامل. يتغذى كل جزء منه من الآخر ، ويخدم كل جزء منه الآخر . وقيامه جميعاً مرتبط بعدم نسيان جزء منه . ولا إسلام إلا بصلاة ، هذا ما اتضح لي من الحكمة في مجيء هاتين الآيتين في هذا المقام ، والله أعلم .

المعنى العام :

- في الآية الأولى ، أمر الله تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها ، وحفظ حدودها ، وأدائها في أوقاتها . وأمر بالقيام لله فيها خاشعين ، ذليلين ، مستكينين بين يديه. ولما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها ، وشدّد الأمر

بتأكيدها . وذكر في الآية الثانية : الحال التي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل : وهي حال القتال ، والتحام الحرب . فأمر في هذا الحال أن نصلي بقدر الوسع ، على أي حال قدرنا عليها ، راجلين ، أو راكبين . مستقبلين القبلة ، أو غير مستقبليها . إيماءً إن لم نستطع غير ذلك . فإذا انتهت تلك الحال ، فعلينا أن نقيم الصلاة كما أمرنا ، بركوعها ، وسجودها ، وقيامها ، وقعودها ، وخشوعها ، وهجودها . وذلك هو الشكر الذي يقابل نعمة الله علينا ، أن علّمنا وهدانا ، بعد إذ كنا ضلّالاً جاهلين .

المعنى الحرفي :

﴿ **حافظوا على الصلوات** ﴾ أي : داوموا عليها بمواقيتها ، وأركانها ، وشرائطها ﴿ **والصلاة الوسطى** ﴾ أي : صلاة العصر . وهي وسطى لأنها بين صلاتي الليل ، وصلاتي النهار . وخصصت بالذكر لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم . أو استرواحهم في وقتها للراحة بعد تعب . ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾ أي : قوموا في صلاتكم لله خاشعين ذاكرين . ﴿ **فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً** ﴾ أي : فإن كان بكم خوف من عدو ، أو غيره ، فصلوا راجلين ، أو راكبين ، مستقبلي القبلة ، وغير مستقبليها . ﴿ **فإذا أمنتم** ﴾ أي : إذا زال خوفكم . ﴿ **فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون** ﴾ أي : فصلوا صلاة مثل ما علمكم ما لم تكونوا تعلمونه من صلاة الأمن ويحتمل المعنى الذي ذكرناه في المعنى العام .

فــوائــد :

١ - اختلف المفسرون كثيراً في تفسير الصلاة الوسطى في الآية . فقيل : المغرب ، وقيل : العشاء ، وقيل : مجموع الصلوات الخمس ، وقيل : الفجر ، وقيل : بل صلاة الجماعة . وقيل : صلاة الجمعة ، وقيل : صلاة الخوف ، وقيل : صلاة عيد الفطر ، وقيل : صلاة عيد الأضحى ، وقيل : الوتر ، وقيل : الضحى ، وقيل : بل هي مبهمة ، كما أبهمت ليلة القدر في الحول ، أو الشهر ، أو العشر ليحفظوا الكل . قال سعيد بن المسيب : (كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا - وشبك بين أصابعه -) . قال ابن كثير : (وكل هذه الأقوال فيها ضعف ... وإنما المدار ، ومعترك النزاع ، في الصبح ، والعصر . وقد ثبتت السنّة بأنها العصر . فتعين

المصير إليها) . ومن الأدلة على أنها صلاة العصر ، ما رواه الإمام أحمد عن علي قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر . ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً » . ثم صلاها بين العشاءين : المغرب والعشاء . وروى مثله البخاري ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي .. وروى مسلم عن البراء بن عازب قال : نزلت : (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر) فقرأناها على رسول الله ﷺ ما شاء الله . ثم نسخها الله عز وجل ، فأنزل : ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** ﴾ . فقال له زاهر - رجل كان مع شقيق -: أفهي العصر ؟ . قال : قد حدثتك كيف نزلت ، وكيف نسخها الله عز وجل) . وفي ذكر الوسطى هنا معنى بليغ جداً . إذ هو أكبر رد على بعض طوائف الباطنية ، التي تزعم أنه لم يفرض علينا إلا صلاتين . فإذا اعتبرنا أن الواو تقتضي المغايرة . فقد ثبتت الصلوات الخمس بهذا النص . إذ أقل عدد فرد ، يكون له وسط . والطرفان جمع هو الخمس . وقد وردت آثار تؤكد الأمر بالمحافظة على العصر . ففي الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « من فاتته صلاة العصر ، فكأنما وتر أهله وماله » وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ قال : بكّروا بالصلاة في يوم الغيم . فإنه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله » . وفي الحديث الصحيح : « إن هذه الصلاة عرضت على الذين من قبلكم فضيَّعوها . ألا من صلَّاها ، ضُعِّف له أجره مرتين . ألا ولا صلاة بعدها حتى تروا الشاهد » .

٢ - روى الإمام أحمد ، وغيره - والحديث صحيح - عن زيد بن أرقم قال : كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾ : فأمرنا بالسكوت . وفي الصحيح عن ابن مسعود قال : كنا نسلم على النبي ﷺ قبل أن نهاجر إلى الحبشة وهو في الصلاة ، فيرد علينا . فلما قدمنا ، سلمت عليه ، فلم يرد عليَّ . فأخذني ما قرب ، وما بعد . فلما سلم قال : « إني لم أرد عليك إلا أني كنت في الصلاة ، وإن الله يحدث من أمره ما يشاء ، وإن ما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة » . وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس . إنما هي التسبيح ، والتكبير ، وذكر الله » . فهذه الأحاديث كلها تفسر قوله تعالى : ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾ .

٣ - فصّل الله صلاة الخوف في سورة النساء . ولكن تلك الصلاة إذا لم يكن

التحام ، أما في حالة الالتحام ، فأمام المسلمين سعة أن يصلّوا - كما نصت الآية هنا - كيف قَدِرُوا . أو يؤخروا الصلاة كما فعل رسول الله ﷺ يوم الخندق . وكما فعل المسلمون يوم فتح (تُستُر) في عهد عمر . وهذه نقول حول هذا وهذا : (قال مالك عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها - (أي كما وردت في سورة النساء) - ثم قال : (فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم ، أو ركباناً مستقبلي القبلة ، أو غير مستقبليها) . قال نافع : لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ . ورواه البخاري . وهذا لفظ مسلم . ولمسلم أيضاً عن ابن عمر قال : (فإن كان خوف أشد من ذلك ، فصلِّ راكباً ، أو قائماً ، تومىء إيماءً) . وقال جابر بن عبد الله : (إذا كانت المسايفة ، فليومىء برأسه إيماءً حيث كان وجهه . فذلك قوله تعالى : ﴿ **فرجالاً أو ركباناً** ﴾) . قال مالك بن أنس : (حضرت مناهضة حصن « تُستُر » عند إضاءة الفجر ، واشتد اشتعال القتال . فلم يقدروا على الصلاة . فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار . فصليناها ونحن مع أبي موسى ، ففتح لنا . قال أنس : وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها) . هذا لفظ البخاري ، وقد أخّر رسول الله ﷺ صلاة العصر يوم الخندق إلى ما بعد غيبوبة الشمس .

٤ - هل للزحف ، والهجوم حكم المسايفة ؟ . يمكن أن يستدل على أن له نفس الحكم إذا اقتضى الزحف أو الهجوم الاستعجال بقوله ﷺ لأصحابه لما وجههم إلى بني قريظة : « لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة » . فمنهم من أدركته الصلاة في الطريق ، فصلوا ، وقالوا لم يُرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير . ومنهم من أدركته فلم يصل إلا في بني قريظة فلم يعنف واحداً من الفريقين .

٥ - **قال الأوزاعي** : (إن كان تهيأ الفتح ، ولم يقدروا على الصلاة ، صلوا إيماءً كل امرىء لنفسه . فإن لم يقدروا على الإيماء أخَّروا الصلاة حتى ينكشف القتال ويأمنوا . فيصلوا ركعتين - أي إن كانت صلاة الفجر ، أو كانوا مسافرين ... - فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين . فإن لم يقدروا لا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا) . وكلام الأوزاعي أنهم يصلون ركعة واحدة في سجدتين اتجاه لكثير من السلف ، أن صلاة الخوف في بعض حالات الشدة ركعة واحدة . ومن ذلك ما رواه مسلم عن ابن عباس قال : (فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً ، وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة) . قال ابن كثير : (وبه قال الحسن البصري ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم) .

٦ - روى أحمد وأبو داود بإسناد جيد ، عن عبد الله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلي ليقتله ، وكان نحو عرفة ، أو عرفات . فلما واجهه ، حانت صلاة العصر . قال : فخشيت أن تفوتني ، فجعلت أصلي وأنا أومىء إيماءً .

٧ - في بعض البلدان يشتد الأمر على المسلمين ، لدرجة أنه لا يستطيع أحد أن يجهر بصلاته . حتى لو جهر قُتل ، كما حدث في أسبانيا ، وفي بعض البلدان لو جهر حيل بينه وبين العمل ، أو سرِّح من عمله إن كان له عمل وإن لم يسرح مباشرة سرِّح فيما بعد إما تحقيقاً ، أو بغلبة الظن فما الحكم في هذه الأحوال ؟ . وهل يصح لمسلم ينوي خدمة الإسلام في مثل هذه الظروف أن يجمع الصلوات كلها ؟ وإذا خاف على نفسه أن يكشف أمره فهل يصح أن يومىء إيماءً وهو سائر أو ماشٍ أو متكىء ؟ جواب هذه القضايا يحتاج إلى تفصيلات فمحلها في القسم الثاني من هذه السلسلة (الأساس في السُنَّة وفقهها) .

﴿ والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجا وصيَّة لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جُناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم * وللمطلقات متاع بالمعروف حقّاً على المتقين * كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ . هذه الآيات خاتمة الكلام في الأحكام حول موضوع الطلاق ، وموضوع الوفاة بالنسبة للزوجة . وهذا كله يأتي في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله .

المعنى العام :

في الآية الأولى اتجاهان للمفسرين : الأول يقول بأنها منسوخة . والذين قالوا بالنسخ منهم من قال إنها منسوخة بالآية المارة : ﴿ **والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربَّصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً** ﴾ ومنهم من قال : نسختها آية الميراث .

والاتجاه الثاني أنها غير منسوخة ، وإنما فيها معنى جديد : وهو أنه يستحب للمتوفى أن يوصي لزوجته بالسكنى في بيته إلى نهاية السنة . فيكون إبقاء المرأة في بيتها أربعة أشهر وعشراً ، فرضاً . ويكون السماح لها في البقاء إلى نهاية السنة مندوباً . وروى البخاري عن مجاهد في تفسير قوله تعالى : ﴿ **والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجاً**

يتربَّصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ : قال : (كانت هذه للمعتدّة ، تعتدّ عند أهل زوجها واجب . فأنزل الله : ﴿ **والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج** .. ﴾ قال : جعل الله تمام السنة سبعة أشهر ؛ وعشرين ، وصية إن شاءت سكنت في وصيتها ، وإن شاءت خرجت . وهو قول الله : ﴿ **غير إخراج فإن خرجن فلا جُناح عليكم** ﴾ . فالعدة أربعة أشهر وعشر واجب عليها ، وهذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كما قال الجمهور ، حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة أشهر وعشر . وإنما دلت على أن ذلك من باب الوصاية بالزوجات أن يُمكَّن من السكن في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً إن اخترن ذلك . ولهذا قال : ﴿ **وصيَّة لأزواجهم** ﴾ : ولا يُمْنَعْنَ من ذلك لقوله : ﴿ **فإن خرجن فلا جُناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف** ﴾ . قال ابن كثير : (وهذا القول له اتجاه ، وفي اللفظ مساعدة له . وقد اختاره جماعة منهم أبو العباس بن تيميّة . وردّه آخرون منهم الشيخ أبو عمرو بن عبد البر . والجميع متفقون على أن العِدة الواجبة أربعة أشهر وعشر ، أو وضع الحمل . والجميع متفقون على أنه لا يجب عليها أن تعتد سنة . يبقى الخلاف هل يندب لزوجها أن يوصي لها بالبقاء في بيت الزوجية تتمة السنة ؟ فعلى القول بأنها منسوخة ، لا يندب له . ولكنه لو أوصى ، وأجازت الورثة فلها حق البقاء تتمة السنة . وعلى القول بأنها غير منسوخة يندب له ولها حق البقاء تتمة السنة . والذي نذهب إليه هو مذهب الجمهور في أن الآية منسوخة . لأنه إذا لم نقل بالنسخ ، نعطي وارثاً من الورثة ؛ وصية زائدة على حقه الشرعي . والرسول ﷺ يقول : « لا وصيّة لوارث » . ولكنا في الوقت نفسه نقول : لو لاحظت الورثة ذلك فإنه يكون حسناً .

- وفي الآية الثانية توكيد لوجوب المتعة الذي مر معنا من قبل . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما نزل قوله تعالى : ﴿ **متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين** ﴾ . قال رجل : إن شئت أحسنت ففعلت . وإن شئت لم أفعل . فأنزل الله هذه الآية : ﴿ **وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين** ﴾ . وفي الآية الثالثة منّ الله عز وجل علينا بتبيان آياته في إحلاله ، وتحريمه . وفروضه ، وحدوده فيما أمرنا به ، ونهانا عنه . فبيّنه ، ووضحه ، وفسره ، ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجنا إليه . وبيَّن أن ذلك كله من أجل أن نعقل ، فلا عقل ، ولا فهم ، ولا تدبر إلا إذا فهم الإنسان آيات الله .

المعنى الحرفي :

﴿ **والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول** ﴾أي : والذين تقبض أرواحهم منكم ، ويتركون أزواجاً . فليوصوا لأزواجهم وصية ، أن يمتعن تمتيعاً بالبقاء في بيوتهن ، والنفقة عليهن سنة كاملة . ﴿ **غير إخراج** ﴾أي : لا يخرجن خلالها . والمعنى أن حق الذين يُتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا ، بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً . أي ينفق عليهن من تركته ، ولا يخرجن من مساكنهن . وكان ذلك مشروعاً في أول الإسلام ، ثم نسخ بقوله تعالى : ﴿ **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربَّصن بأنفسهم أربعة أشهر وعشراً** ﴾ . والناسخ متقدم عليه تلاوة ، ومتأخر نزولاً . ﴿ **فإن خرجن فلا جُناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف** ﴾ : من التزين والتعرض للخُطَّاب والزواج ، فالمعروف : هو كل ما ليس بمنكر شرعا . ﴿ **والله عزيز حكيم** ﴾ : يحكم بما شاء وحكمه كله حِكم . ﴿ **وللمطلقات متاع بالمعروف** ﴾ : إن أريد بها المطلقات الرجعيات ؛ يكون المعنى واجباً على أهل التقوى نفقتهن في عدتهن . وإن أريد بالمطلقات ممن لم يُسَمَّ لهن مهر ، ولم يُدْخَل بهن ، يكون المعنى : هذه المتعة واجبة على أهل التقوى . وإن أريد بهن متعة المطلقات مما سوى ذلك ، فيكون المعنى ﴿ **حقاً على المتقين** ﴾ بإيجابهم ذلك على أنفسهم . ﴿ **كذلك يبيِّن الله لكم آياته لعلكم تعقلون** ﴾ أي : كمثل هذا البيان ، يوضح الله لكم آياته من أجل أن تعقلوا ، فتفهموا ، وتعملوا .

فــوائــد :

١ - قال ابن كثير عن الآية الأولى : (قال الأكثرون : هذه الآية منسوخة بالتي قبلها وهي قوله تعالى : ﴿ **يتربَّصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً** ﴾ . قال البخاري : (قال ابن الزبير : قلت لعثمان بن عفان : ﴿ **والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجاً** ﴾ وقد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها ؟ . قال : يا ابن أخي : لا أغير شيئاً من مكانه) . ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان : إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة أشهر ، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها . وبقاء رسمها بعد التي نسختها ، يوهم بقاء حكمها ؟ . فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي . وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها فأثبتها كما وجدتها .

٢ - على القول بأن الآية الأولى في هذا النص منسوخة بآية الميراث ، يثور سؤال : ما دامت المرأة من أصحاب الفروض . فهل يحق لها أن تقضي عدتها في بيت

زوجها ؟. أو يكون ذلك زائداً على ما فرض الله لها ؟ . هذه القضية محل خلاف بين العلماء ، وللشافعي قولان في هذا الموضوع - موضوع وجوب السكنى في منزل الزوج للمتوفى عنها زوجها - والذين يذهبون إلى وجوب السكنى في منزل الزوج للمتوفى عنها زوجها ، يعتبرون ذلك من جملة الحقوق . وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج بما رواه مالك في موطئه أن الفُرَيْعَة بنت مالك بن سنان - وهي أخت أبي سعيد الخدري - رضي الله عنهما أخبرتها - أي لزينب بنت كعب - أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة . فإن زوجها خرج في طلب أعبُد له أَبَقوا حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم ، فقتلوه . قالت : فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة ، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ، ولا نفقة . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « نعم » . قالت : فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمر بي فنوديت له . فقال : « كيف قلت » ؟ . فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي . فقال : « امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله » . قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً . قالت : فلما كان عثمان بن عفان أرسل إليَّ فسألني عن ذلك . فأخبرته ، فاتبعه ، وقضى به) . قال الترمذي عن هذا الحديث : حسن صحيح .

كلمة أخيرة في الفقرة :

بدأت الفقرة في الكلام عن الإيلاء الذي قد يصل في بعض حالاته إلى الطلاق . ومنه وصلت الفقرة للكلام عن الطلاق الرجعي . ثم تحدثت عن الطلاق البائن بينونة كبرى ، وعن الخلع ، وعن شرط العودة إلى الزوج الأول بعد البينونة الكبرى .

ثم يعود إلى الحديث عن الطلاق الرجعي ، والأدب فيه . وإلى الطلاق البائن بينونة صغرى ، والعودة إلى الزوج بعقد جديد إذا رغب الزوج والزوجة البائنان عن بعضهما بالعودة إلى الزوجية .

ثم تعرّض السياق لحالة وجود الولد إذا تم طلاق ، وكيف ينبغي أن يفعل الزوجان البائنان في شأنه .

وبهذا انتهت المجموعة الأولى في الفقرة لتأتي مجموعة ثانية ، تتحدث عن تصفية الحياة الزوجية إذا حدثت وفاة بعد أن تحدثت المجموعة الأولى عن طريق تصفية الحياة الزوجية بالطلاق .

وقد تحدثت المجموعة الثانية عن عدة المرأة المتوفى عنها زوجها ، وعما يجوز ، وما لا يجوز أثناء العدة ، وعن حقها في الزواج بعد انتهاء العدة . ثم يعود السياق للحديث عن الطلاق . فيذكر مسألتين .

مسألة ما إذا تم الطلاق قبل المس وقبل فرض المهر . ومسألة ما إذا تم الطلاق قبل المس وبعد فرض المهر . ويذكر حكم هاتين المسألتين ثم تأتي آيتان في المحافظة على الصلوات ، والصلاة حال الخوف . ثم يعود السياق لذكر حكم منسوخ . وليؤكد حكماً قائماً . وليمنّ علينا بنعمة البيان .

وفي ذكر الحكم المنسوخ في نهاية السياق ، تسجيل للعناية في شأن المرأة في ابتداء الإسلام حتى أوصلها إلى الأحكام النهائية التي هي الأرفق بها . وفي توكيد حق المطلقة في خاتمة السياق تسجيل للعناية في المرأة في كل حال . وفي ذكر الصلاة في هذا السياق تسجيل بأن الأحكام لا تقوم بلا صلاة . وفي ذكر صلاة القتال في هذا السياق تذكير بوحدة المقطع خاصة وأن فقرة جديدة لها صلة بالقتال ستأتي . فكأن الآية تشعرنا بأن الكلام الذي بدأ عن القتال في الفقرة الأولى لا زال مستمراً . وإذا كان المقطع لا يزال مستمراً فلننتقل إلى فقرة جديدة .

الفقرة الرابعة والأخيرة من المقطع الأول من القسم الثالث :

تمتد هذه الفقرة من الآية (٢٤٢) إلى نهاية الآية (٢٥٣) .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ

مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

كلمة في هذه الفقرة :

تبدأ الفقرة بمجموعة لها صلة بالإنفاق والقتال . وهكذا نجد أن كل الأحكام التي مرت معنا في هذا المقطع آتية بين كلامين عن الإنفاق والقتال . فبدون ذلك لا تقوم أحكام الإسلام ، ولا يكون دخول في الإسلام كله . ثم تأتي مجموعة أخرى ، تعرض علينا صفحة من صفحات العبرة في تاريخ بني إسرائيل ، وهي كذلك في موضوع القتال ، وشروط إقامته . إنه حتى يقاتل شعب فإن نقطة البداية في ذلك هو وجود القيادة المتوافرة فيها الشروط المناسبة . إن المجموعة الثانية في هذه الفقرة فيها حديث عن ذلك ، وعن غيره . وتأتي الآية الأخيرة وفيها كلام عن القتال . ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد** ﴾ . وبهذا ينتهي المقطع ، وتنتهي هذه الفقرة . فقد بدأ المقطع بعد المقدمة ، والتمهيد بالقتال . وانتهى بالقتال . وإن دروس هذه الفقرة لأمتنا في هذه المرحلة لكثيرة . إذ ضعفت عند هذه الأمة إرادة القتال في سبيل الله . وفقدت القيادة الرشيدة التي تقودها في طريق القتال . وإن دروس هذه الفقرة في كل زمان ومكان لكثيرة . فلنأخذ ما استطعنا من دروس ذلك كله .

﴿ **ألم ترَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم * من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون** ﴾ .

المعنى العام :

في الآية الأولى يقص الله علينا قصة تجري مجرى المثل في التعجب . وفي القصة عبرة ودليل على أنه لن يغني حذر من قدر . وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه . فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الموت ، وطلباً لطول الحياة . فعوملوا بنقيض قصدهم . وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد . ثم أحياهم بعد موتهم . وكان في إحيائهم عبرة ، ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة ودليل على أن الموت والحياة بيد الله . وعقَّب الله على القصة بتذكير الناس بفضله عليهم فيما يريهم من الآيات الباهرات ، والحجج القاطعة ، والدلالات الدامغات . ثم بيَّن أنه مع هذا كله ، فإن أكثر الناس لا يقومون بشكر ما

أنعم الله به عليهم ، في دينهم ، ودنياهم .

وفي الآية الثانية أمر بالقتال ، وأمر بمعرفة الله . وبين معرفة الله والجهاد في سبيله تلازم . وبين الآية الأولى والثانية اتصال . فكما أن الحذر لا يغني عن القدر ، كذلك الفرار من الجهاد ، وتجنبه لا يقرِّب أجلاً ، ولا يبعده . بل الأجل المحتوم ، والرزق المقسوم مقدر ، مقنن ، لا يُزاد فيه ، ولا يُنقص .

وفي الآية الثالثة ، حث على الإنفاق في سبيل الله . وبين الجهاد بالنفس والمال تلازم ، وفي الآية بيان لما أعد الله – عز وجل – من مكافآت مضاعفة على الإنفاق . وبيان أن علينا أن ننفق ، ولا نبالي . فالله هو الرزاق ، يضيّق على من يشاء من عباده في الرزق ، ويوسعه على آخرين . له الحكمة في ذلك ، وإليه المرجع يوم القيامة فيجازي كلا بعمله ..

المعنى الحرفي :

﴿ **ألم ترَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت** ﴾ : هذا استفهام تقريري لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب أو سمع بأخبار الأولين ، التي فيها هذا الخبر ، وهو في الوقت نفسه تعجيب من شأنهم ، وخوطب به من لم يرَ ولم يسمع ، لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل . ﴿ **فقال لهم الله موتوا** ﴾ : أي فأماتهم الله . وإنما جيء به على هذه العبارة ، للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد ، بأمر الله ، ومشيئته . وتلك ميتة خارجة عن العادة . ﴿ **ثم أحياهم** ﴾ : ليعتبروا ، ويعلموا أنه لامفرَّ من حكم الله وقضائه . وفيه تشجيع للمسلمين على الجهاد ، وأن الموت إذا لم يكن منه بد ، ولم ينفع منه مفر ، فأولى أن يكون في سبيل الله . والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد ، ماأتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله . فحرّض على الجهاد بعد الإعلام بأن الفرار من الموت لايغني . ﴿ **إن الله لذو فضل على الناس** ﴾ : حيث أحيا أولئك ليعتبروا ، وليعتبر من سمع بقصتهم . ﴿ **ولكن أكثر الناس لايشكرون** ﴾ أي : لا يقوم أكثر الناس بشكر ما أنعم الله عليهم . ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله** ﴾ : هذا الأمر لنا معشر هذه الأمة . ﴿ **واعلموا أن الله سميع عليم** ﴾ أي : واعلموا أن الله يسمع مايقوله المتخلفون والسابقون ، عليم بما يضمره الجميع . ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً** ﴾ أي : من ذا الذي ينفق في سبيل الله نفقة طيبة ، بنفس طيبة . سمى ماينفَق في سبيل الله قرضاً ، لأن القرض ما يقبض ببدل مثله من بعد ، سمّي به لأن المقرض يقطعه

من ماله ، فيدفعه إليه ليأخذه منه بعدُ ، ففي استعمال القرض تنبيه على أن ذلك لايضيع عنده ، وأنه يجزيهم عليه لامحالة . ويدخل في هذا القرض ، النفقة في الجهاد . لأنه لما أمر بالقتال في سبيل الله - ويحتاج فيه إلى المال - حث على الصدقة لتتهيأ أسباب الجهاد ﴿ **فيضاعفه له أضعافاً كثيرة** ﴾ : لايعلم كنهها إلا الله . ﴿ **والله يقبض ويبسط** ﴾ أي : يقتّر الرزق على عباده ، ويوسّعه عليهم . فكأنه يقول : فلا تبخلوا عليه ، بما وسّع عليكم ، لايبدلكم الضيق بالسعة . ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ : فيجازيكم على ماقدمتم .

فـــوائـــد :

١ - بمناسبة هذه الآيات يذكر ابن كثير قول خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو في سياق الموت : (لقد شهدت كذا موقفاً . وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية ، أو طعنة ، أو ضربة . وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير . فلا نامت أعين الجبناء) .

٢ - في هرب هؤلاء من الموت ، اتجاهان للمفسرين . الاتجاه الأول : أنهم فروا من الجهاد . والاتجاه الثاني : أنهم فروا من الطاعون ، فعوقبوا بما منه فروا . ثم منّ الله عليهم بالحياة ، لتكون عبرة . وبمناسبة القول أنهم فروا من الطاعون يذكر ابن كثير الحديث الصحيح الذي فيه أدب المسلم في حالة انتشار وباء الطاعون وهذه هي رواية الإمام أحمد : « عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان (بسرغ) لقيه أمراء الأجناد : أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه . فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام - فذكر الحديث - فجاءه عبد الرحمن بن عوف ، وكان متغيباً لبعض حاجته فقال : إن عندي من هذا علماً . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه . وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » . فحمد الله عمر ثم انصرف . وفي رواية : « إن هذا السقم عُذب به الأمم قبلكم ، فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً » ولعل في هذا النص أول تأسيس لفكرة الحجر الصحي في تاريخ العالم .

٣ - أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً** ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يارسول الله : وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ . قال : « نعم ياأبا الدحداح » . قال : أرني يدك يارسول الله . قال : فناوله يده . قال : فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي . قال : وحائط له فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه ، وعيالها . قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم

الدحداح . قالت : لبيك . قال : اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل) .

٤ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : لما نزلت ﴿ **مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كَمَثَلِ حبة أنبتت سبع سنابل** ... ﴾ إلى آخرها . فقال رسول الله ﷺ : « ربّ زد أمتي » . فنزلت : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً** ... ﴾ . قال : « ربّ زد أمتي » . فنزلت : ﴿ **إنما يُوَفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ . (سورة الزمر) وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : (والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة » . وأخرج مثله الإمام أحمد عن أبي هريرة .

٥ - إن مجيء هذه الآيات ، والتي بعدها في موضوعها في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله ، دليل على أن الإسلام لا يقوم بلا قتال وبذل مال . وكل من يتصور غير ذلك يكون واهماً ومخطئاً .

٦ - ذكر ابن كثير مجموعة أقوال المفسرين في الألوف الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فأماتهم الله ثم أحياهم ، وليس في واحد منها نص يمكن أن يركن إليه بحيث يعتبر تفسيراً قطعياً للآية ، ومن جملة ماذكره أن هذه القصة حدثت في زمن نبي من بني إسرائيل ، اسمه حزقيال وبالرجوع إلى الترجمة العربية الحديثة لسفر حزقيال من أسفار العهد القديم نجد في الإصحاح السابع والثلاثين على لسان حزقيال مايلي :

« وأنزلني في وسط البقعة وهي ملآنة عظاماً ، وأمرَّني عليها من حولها ، وإذا هي كثيرة جداً على وجه البقعة ، وإذ هي يابسة جداً ، فقال لي : ياابن آدم أتحيا هذه العظام ؟ فقلت ياسيدُ الربُّ أنت تعلم ، فقال لي : تنبأ على هذه العظام وقل لها : أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب ، هكذا قال الرب لهذه العظام هاأنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون ، وأضع عليكم عصباً ، وأكسيكم لحماً ، وأبسط عليكم جلداً ، وأجعل فيكم روحاً فتحيون ، وتعلمون أني أنا الرب . فتنبأت كما أُمِرتُ ، وبينما أنا أتنبأ كان صوتٌ ، وإذا رعشٌ ، فتقاربت العظام كل عظم إلى عظمه ، ونظرت وإذا بالعصب واللحم كساها ، وبُسط الجلد عليها من فوق وليس فيها روح ، فقال لي : تنبأ للروح تنبأ ياابن آدم وقل للروح هكذا ، قال السيد الرب : هلمَّ يا روح من الرياح الأربعة ، وهبَّ على هؤلاء القتلى ليحيوا فتنبأت كما أمرني فدخل فيهم الروح فَحَيَوْا وقاموا على أقدامهم ، جيش عظيم جداً جداً » يقول صاحب الظلال : « لا أحب أن نذهب في تيه التأويلات عن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت من هم ؟ وفي

أي أرض كانوا وفي أي زمان خرجوا ؟ فلو كان الله يريد بياناً عنهم لبين كما يجئ القصص المحدد في القرآن ، إنما هذه عبرة وعظة يراد مغزاها ... إنما يراد هنا تصحيح التصور عن الموت والحياة ، وأسبابهما الظاهرة ، وحقيقتهما المضمرة ... يراد أن يقال : إن الحذر من الموت لايجدي، وإن الفزع والهلع لايزيدان حياة، ولا يمدان أجلاً ولا يردّان قضاءً... » . قضاءً ...» .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ

غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

المعنى العام :

بعد المجموعة السابقة التي بيَّن الله جل جلاله فيها أن الحذر لا يغني من القدر ، وأن الموت والحياة بيد الله ، وبعد الأمر بالقتال والإنفاق في سبيل الله ، تأتي هذه المجموعة التي تبين أن الفئة القليلة المؤمنة تتغلب على الفئة الكثيرة الكافرة . وأنه لابد من جهاد ، وإلا لعم الفساد .

في الآية الأولى بيان لحال وصل إليها بنو إسرائيل ، من ذهاب بلادهم ، وسبي أولادهم . فطلبوا نتيجة لذلك من نبي لهم أن ينصب عليهم ملكاً يقاتلون تحت إمرته . وبفراسة النبي سألهم عما يتوقعه منهم ، أنهم لو فرض عليهم القتال فسينكصون . ولكنهم أصروا . وكان واقع الحال ماتوقعه منهم ، أن الأكثرية منهم نكصوا عن القتال .

ـ وفي الآية الثانية تم التعيين نزولاً عند رغبتهم في أن يكون لهم ملك . وكان التعيين بناءً على الخصائص المناسبة للحال . فهم يحتاجون إلى ملك يجتمع له العلم بالشريعة ، وفن القتال ، والقوة الجسدية كي يقوم بأعباء القيادة . وكان طالوت ذلك الرجل . ولكنهم اعترضوا تعنتاً ، وكان الأولى بهم التسليم والطاعة لو كانوا مؤمنين حقاً . وسبب اعتراضهم أنهم يتصورون أن الملك لا يستحقه أحد إلا بنسب أو مال . فبين لهم أن هذا اصطفاء الله واختياره ، وتلك مشيئته ، وهو واسع الفضل . يختص برحمته من يشاء . عليم بمن يستحق الملك ، ممن لايستحقه .

ـ وفي الآية الثالثة يبيّن الله عز وجل أنه قد أعطاهم معجزة . هي مجيء التابوت ، تحمله الملائكة ، كآية تزيد طمأنينتهم ، ليزدادوا إيماناً بنبيهم ، وليطمئنوا إلى

إمرة طالوت . وفي التابوت ما يتباركون به . وهو آثار من موسى وهارون . ومجيء المعجزة في هذه الحال لا تبقي شكّاً لمؤمن أن الله هو الذي اصطفى طالوت وأن نبيهم صادق ، وأن طالوت يستأهل ما أقامه الله فيه . فالمفروض بعد هذا أن يكونوا على منتهى الطاعة والاندفاع في القتال .

ــ وفي الآية الرابعة يبيّن الله عز وجل الظرف الذي وضع فيه طالوت قومه . عندما خرج بهم للقتال ، فالقتال يحتاج إلى انضباط . وفي فن الحرب يستحيل أن يكسب جيش لا انضباط فيه معركةً . فكانت أول عملية قام بها طالوت - بأمر الله - هو اختبار انضباط هذا الجيش ، بقضية تخالف الأهواء . وهي أنه كلفهم حين مرورهم على نهر الشريعة - الذي يسمى الآن نهر الأردن - ألا يشربوا منه إلا في حدود الغَرفة الواحدة ، فلم يلتزم بهذا الأمر إلا القليل . هذا القليل هو وحده الذي سمح له طالوت بتجاوز النهر . إذ هم المؤمنون حقاً . والمطيعون حقاً ، والراغبون في الجهاد حقاً . فلما جاوزوا النهر ، رأوا قلتهم ، فلما رأوا قلتهم ظهرت فيهم الظاهرتان الموجودتان دائماً في هذه الأحوال ، حتى عند أهل الإيمان . ظاهرة الذين يعطون الأسباب أكثر من حجمها ، فهؤلاء قالوا بأنهم لا يستطيعون أن يربحوا المعركة ضد جالوت وجنده ، والظاهرة الثانية ظاهرة المؤمنين المتوكلين ، الذين لا يغفلون الأسباب . ولكن يعطونها حجمها ، مع الثقة الكاملة بالله ، فهؤلاء قالوا بأن الفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة إذا وجدت مشيئة الله . وقد وعد الله الصابرين بأن يكون معهم . فإذا صبرنا فنحن الغالبون .

ــ وفي الآية الخامسة ، يصف الله عز وجل التقاء الجمعين . وحال أهل الإيمان بالافتقار إلى الله في تلك الساعة الحاسمة ، ودعائهم الله عز وجل أن يصبرهم ويثبت أقدامهم وينصرهم . وهذا منتهى الافتقار لله . حيث طلبوا منه الصبر ، والتثبيت ، والنصر . فلم يقولوا لله : علينا كذا ، وعليك كذا . بل طلبوا منه أن يعينهم على ماكلفهم ، وأن يعطيهم ثمرة ذلك .

- وفي الآية السادسة بيان النتيجة . وهي النصر ، وقتل جالوت على يد داود الذي جمع الله له النسب والعلم ، والقوة الجسدية ، وآتاه الملك ، والحكمة بعد طالوت ، ثم ختمت الآية بالقاعدة التي تبيّن حكمة مشروعية القتال في الإسلام ، وهي أنه لولا أن الله تعالى يدفع بعض الناس ببعض ، ويكف بذلك فساداً ، لغلب المفسدون وفسدت

الأرض ، وهلك الحرث والنسل . فلولا أن أهل الإيمان يقاتلون أهل الكفر ، ولولا أن أهل الإيمان يوقفون أهل الفساد عند حدهم ، لفسدت البلاد والعباد .

المعنى الحرفي

﴿**ألم ترَ إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى**﴾ الملأ :هم الأشراف لأنهم يملئون القلوب جلالة ، والعيون مهابة . و ﴿ **من بعد موسى** ﴾ أي من بعد موته ﴿ **إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا مِلِكاً نقاتل فى سبيل الله** ﴾ أي :حين قالوا لنبي لهم أَنهِضْ للقتال معنا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه ، وننتهي إلى أمره ﴿ **قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا** ﴾ أي : هل قاربتم إن فرض عليكم القتال ألا تقاتلوا . أي : هل الأمر كما أتوقعه ، أنكم لا تقاتلون وتجبنون ، فأدخل (هل) الاستفهامية التي تفيد التقرير ، والتثبيت للإشعار بما هو متوقع عنده ﴿ **قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا** ﴾ أي : ردوا على نبيهم بقولهم : وأي داع لنا إلى ترك القتال وأي غرض لنا فيه ، والحال أنه أخذت منا البلاد ، وسبيت الأولاد . يعنون إذا بلغ الأمر منا هذا المبلغ فلا بد من الجهاد ﴿ **فلما كُتب عليهم القتال تولوا إلا قليلامنهم** ﴾ أي :فلما أجيبوا إلى ملتَمسهم بفرض القتال عليهم ، أعرضوا عنه إلا القليل . أي لم يفوا بما وعدوا . بل نكل عن الجهاد أكثرهم . ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ :هذا وعيد لهم على ظلمهم بترك الجهاد ﴿ **وقال لهم نبيّهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً** ﴾ أي :لما طلبوا من نبيهم أن يُعيِّن لهم ملكاً منهم ، عيَّن لهم طالوت ، وأفهمهم أن هذا الأمر ليس باجتهاد من عنده ، بل باصطفاء من الله . فهو أمرني به لما طلبتم مني ذلك . ﴿ **قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه . ولم يُؤت سَعة من المال** ﴾ أي قالوا معترضين على هذا التعيين : كيف ومن أين يمتلك علينا . والحال إنه لايستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك ، وأنه فقير ، ولابد للملك من مال يعتضد به ، وإنما قالوا ذلك لأن الملك كان في سبط يهوذا ، كما قال المفسرون . وهذا اعتراض منهم على نبيهم ، وتعنت . وكان الأوْلى بهم طاعة وقول معروف . فأجابهم نبيهم قائلا : ﴿ **إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم** ﴾ : أي إن الله اختاره عليكم . وهو أعلم بالصالح منكم . ولا اعتراض على

حكمه . ثم ذكر مصلحتين ، هما أنفع مما ذكروا من النسب ، والمال . وهما العلم المبسوط . قالوا: كان أعلم بني إسرائيل بالحرب ، والديانات في وقته . وأطول من كل إنسان برأسه ومنكبه . والبسطة : السعة والامتداد . **قال النسفي** : والملك لابد أن يكون من أهل العلم . فإن الجاهل ذليل مزدرى ، غير منتفع به . وأن يكون جسيماً ، لأنه أعظم في النفوس ، وأهيب في القلوب » .

وقال ابن كثير : « أي : وهو مع هذا أعلم منكم ، وأنبل ، وأشكل منكم ، وأشد قوة ، وجداً في الحرب ، ومعرفة بها . أي أتم علماً ، وقامة منكم . ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم ، وشكل حسن ، وقوة شديدة في بدنه ونفسه » ﴿ **والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم** ﴾ أي : واسع الفضل والعطاء . يوسع على من ليس له سعة من المال ، ويغنيه بعد الفقر . وهو عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه ، فيصطفي من شاء .

﴿ **وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت** ﴾ أي : قال لهم نبيهم : إن علامة بركة ملك طالوت عليكم ، أن يرد عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم . ﴿ **فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة** ﴾ أي : في التابوت سكون ، وطمأنينة لكم من ربكم ، وفيه بقية مما تركه موسى ، وهارون . وذكر الآل للتفخيم . وفسَّر النسفي هذه البقية بأنها رضاض الألواح ، وعصا موسى ، وثيابه ، وشيء من التوراة ، ونعلا موسى ، وعمامة هارون عليهما السلام ، ونقول ابن كثير عن المفسرين تجمع ماقاله النسفي . دل ذلك على التبرك بآثار الأنبياء . إذ ذلك من تعظيم حرمات الله ، وإتيان التابوت كان بواسطة الملائكة . قال ابن عباس : (جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض ، حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون) ﴿ **إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي : في رجوع التابوت إليكم علامة أن الله قد ملَّك طالوت عليكم إن كنتم مصدقين بالله ، واليوم الآخر ، والرسل .

قال النسفي عن التابوت : وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قدَّمه . فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ، ولايفرون .

﴿ **فلما فصل طالوت بالجنود** ﴾ أي : حين خرج من بلده إلى جهاد العدو بجنده . ﴿ **قال إن الله مبتليكم بنَهَر** ﴾ أي : مختبركم . أي : يعاملكم معاملة المختبر بتميز المحق في الجهاد ، من المدعي . قال ابن عباس : وهو نهر بين الأردن وفلسطين . يعني نهر الشريعة المشهور . ثم جاء بيان الاختبار : ﴿ **فمن شرب منه فليس مني** ﴾ أي : فمن شرب كرعاً ، فليس من أتباعي ، وأشياعي . فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه . ﴿ **ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده** ﴾ أي : ومن لم يذقه فإنه مني . ثم رخَّص لهم في اغتراف الغرفة باليد دون الكرع . والغرفة ، هي المغروف . فصارت الرخصة ، أنه من اغترف بيده فشرب فلا بأس عليه . ﴿ **فشربوا منه إلا قليلا منهم** ﴾ أي : فشربوا كرعاً إلا القليل .

﴿ **فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه** ﴾ أي : فلما جاوز طالوت النهر هو ومن آمن معه ممن نجحوا في الاختبار . روى البخاري ، وابن جرير عن البراء بن عازب قال : (كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة ، وبضعة عشر ، على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر . وماجازه معه إلا مؤمن) .

﴿ **قالوا لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده** ﴾ أي : لاقوة لنا على جالوت وجنوده . استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم ، لكثرته ، وقوته . وقلتهم ، وضعفهم . ﴿ **قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله** ﴾ أي : قال الذين يوقنون بالشهادة - وهم العالمون حقاً - تشجيعاً ، وتثبيتاً ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله** ﴾ أي : إن النصر من عند الله ، ليس عن كثرة عدد ، ولا عُدد فكثيرة هي الحالات التي انتصرت بها فئة قليلة على فئة كثيرة بنصر الله . ﴿ **والله مع الصابرين** ﴾ : ينصرهم ، ويعينهم ، ويوفقهم . شجعوهم ، وطالبوهم بالصبر . ﴿ **ولما برزوا لجالوت وجنوده** ﴾ أي : لما واجه حزب الإيمان ، وهم قليل من أصحاب طالوت ، لعدوهم أصحاب جالوت ، وهم عدد كثير . ﴿ **قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً** ﴾ أي : أنزل ، واصبب علينا صبراً على القتال من عندك . ﴿ **وثبت أقدامنا** ﴾ أي : في لقاء العدو . جنبنا الفرار ، والعجز ، بتقوية قلوبنا ، وإلقاء الرعب في صدور عدونا . ﴿ **وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ أي : أعنا عليهم ، واهزمهم . دل ذلك على أن أدب المؤمنين في المعركة ، الافتقار إلى الله ، ودعاؤه بما يقتضيه الحال من التثبيت ، والنصر . ﴿ **فهزموهم بإذن الله** ﴾ : أي فهزم طالوت والمؤمنون معه ،

جالوت وجنده بقضاء الله ونصره. فغلبوهم وقهروهم. ﴿ **وقتل داودُ جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء** ﴾ أي: آتى الله داود الملك في مشارق الأرض المقدسة، ومغاربها حتى إنه لم تجتمع بنو إسرائيل على مَلِك كما اجتمعت على داود. وآتاه مع الملك، الحكمة. أي: النبوة. وعلمه زيادة على ذلك ماشاء الله أن يخصه به من العلوم، من مثل صنعة الدروع، وغير ذلك. وفي ذكر ماأكرم الله به داود بعد ذكر قتله لجالوت، إشارة إلى أن البلاء في الجهاد يستحق به صاحبه الخير الكثير عند الله. ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾ أي: ولولا أن الله تعالى يدفع بعض الناس ببعض، فيدفع الكافرين بالمؤمنين، وينصر المؤمنين على الكافرين، فيكف بذلك فسادهم، لغلب المفسدون، وفسدت الأرض بغلبة الكفار، وقتل الأبرار، وتخريب البلاد، وتعذيب العباد. ﴿ **ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾ أي: ذو منّ عليهم، ورحمة بهم. يدفع عنهم ببعضهم بعضاً فساد العالم. وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه، في جميع أفعاله وأقواله. وإن فضله كما هو كائن على البشر بذلك. فإن فضله عام على عوالمه كلها، وخلقه جميعاً.

فــوائــد :

١ – دلت الآيات على أنه لا يحمي حمى الإسلام والمسلمين إلا جهاد وقتال. وأن الجهاد والقتال يحتاجان إلى إمرة، وطاعة، وانضباط، وإيمان، وافتقار إلى الله. كما دلت الآيات على أن الهجوم هو الطريق للنصر.

٢ – مجيء هذه المجموعة في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله، وانتهاء المجموعة بقاعدة ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**﴾ يدل على أن الإسلام كله لايقوم إلا بقتال، وإن طريق الإسلام والمسلمين دائماً هو هذا الذي قصَّه الله علينا في قصة طالوت: إمرة، وجهاد. والإمرة التي لاتجاهد، لاتحقق ماينبغي منها. وإن الإمرة تُختار على أساس الخصائص المناسبة للوضع القائم لا على أساس آخر.

٣ – لاتنطبق هذه الآيات على واقعة، كما تنطبق على مسلمي فلسطين. فقد أُخرجوا من ديارهم، وأموالهم. وإن طريقهم لهذا: إمرة، وجهاد. أمير مؤمن، وصف مؤمن. وغير ذلك ليس طريقاً.

فصل في بعض الروايات الكتابية لقصة طالوت وجالوت :

ذكرنا في كتابنا (من أجل خطوة إلى الأمام) مجموعة ملاحظات حول نصوص أسفار العهد القديم ، والجديد تنفي الثقة بثبوت ما في هذه الأسفار ، سواء في ذلك الملاحظات العلمية ، أو الملاحظات في الدلالة على أن هذه النصوص كتبت بعد آجال طويلة بلا سند معروف متصل إلى غير ذلك ، وهذا وأمثاله يبين لنا أنه قد حدث التحريف والتبديل بسبب الغفلة والنسيان ، فضلا عن التحريف والتبديل المتعمَّدين في هذه الأسفار ، ولذلك فالنقل عنهما ليس لإثبات حجة بل إما لنقض الخطأ أو للاستئناس . ومن الأخطاء التي وقع فيها نساخ هذه الأسفار أن حادثة امتحان طالوت لجنده أثناء عبور النهر تنسب في هذه الأسفار إلى جدعون ولايروونها عن طالوت فإما أن الحادثة تكررت وإما أن هناك خطأً في النسبة :

في سفر القضاء « وقال الرب لجدعون كل من يَلَغُ بلسانه من الماء كما يَلَغُ الكلب فأوقفه وحده ، وكذا كل من جثا على ركبتيه للشرب . وكان عدد الذين ولغوا بيدهم إلى فمهم ثلاث مائة رجل ، وأما باقي الشعب جميعاً فجثوا على رِكبهم لشرب الماء ، فقال الرب لجدعون : بالثلاث مائة الرجل الذين ولغوا أخلصكم .... وأَمْسَكَ الثلاث مئة رجل » إن هذه الحادثة إما أنها تكررت في حياة بني إسرائيل مرة في زمن جدعون ومرة في زمن طالوت ، أو أن النسّاخ غلطوا لتقادم العهد بين الحوادث والنسخ .

إن قصة طالوت وجالوت مذكورة في سفري صموئيل الأول والثاني من أسفار العهد القديم ، ولانطمع أن نجد في السفرين كثيراً من الصواب ، ولكن فيهما من الصواب ما دلنا عليه القرآن ، وفيهما من الخطأ مادلنا عليه القرآن ، وفيهما ماسوى ذلك مما يسعنا السكوت عنه . ومما في هذين السفرين :

« وكان تابوت الله في بلاد الفلسطينيين سبعة أشهر » .

« وكان من يوم جلوس التابوت في قرية يعاريم أن المدة طالت وكانت عشرين سنة » .

« فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة وقالوا له :

..... اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب » .

« وكان رجل من بنيامين اسمه قيس بن .... وكان له ابن اسمه شاؤل شاب حسن ولم يكن رجل في بني إسرائيل أحسن منه ، كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب » .

« فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق ، فقال صموئيل

لجميع الشعب : أرأيتم الذي اختاره الرب إنه ليس مثله في جميع الشعب » .

« وأما بنو بليعال فقالوا كيف يخلصنا هذا فاحتقروه ولم يقدموا له هدية » .

« وتجمَّع الفلسطينيون لمحاربة إسرائيل . ثلاثون ألف مركبة وستة آلاف فارس وشعب كالرَّمل الذي على شاطىء البحر في الكثرة » .

« فقال شاؤل لأخيًّا قدِّم تابوت الله كان في ذلك اليوم مع بني إسرائيل » .

وجمع الفلسطينيون جيوشهم للحرب ... واجتمع شاؤل ورجال إسرائيل ونزلوا في وادي البطُم واصطفوا للحرب للقاء الفلسطينيين » .

« فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جُليات من جَتَّ ، طوله سِتة أذرع وشبر ، وعلى رأسه خوذة من نحاس ، وكان لابساً درعاً حرشفياً ، ووزن الدرع خمسة آلاف مثاقل نحاس ، وجرموقا نحاس على رجليه ، ومزارق نحاس بين كتفيه ، وقناة رمحه كنول النساجين وسنان رمحه ست مائة مثاقل ... فوقف ونادى ... اختاروا لأنفسكم رجلا ولينزل إليَّ ... وكان الفلسطيني يتقدم ويقف صباحاً ومساءً أربعين يوماً » .

« فقال داوود لشاؤل لايسقط قلب أحد بسببه عبدك يذهب ويحارب هذا الفلسطيني ، فقال شاؤل لداوود لاتستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطيني لتحاربه لأنك غلام ... » .

ومدَّ داوود يده إلى الكف وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع وضرب الفلسطيني في جبهته فارتزَّ الحجر في جبهته وسقط على وجهه إلى الأرض ، فتمكن داوود من الفلسطيني بالمقلاع والحجر وضرب الفلسطيني وقتله ولم يكن سيف بيد داوود ، فركض داوود ووقف على الفلسطيني وأخذ سيفه واخترطه من غمده ، وقتله وقطع به رأسه فلما رأى الفلسطينيون أن جبارهم قد مات هربوا » .

أقول : يرى القارىء في سفريّ صموئيل من المبالغات ، والأخطاء ، وما يتنافى مع العقل أو العلم . إن اليهود أمة لم تحفظ إرث أنبيائها ، ولعل من أهم العِبَر التي نأخذها من قصة طالوت وداوود هنا : أن القيادة في الأزمات ينبغي أن تكون بحسب الخصائص التي تناسب المرحلة ولنعد إلى سياق المقطع :

فبعد المجموعتين الأوليين من الفقرة الرابعة يأتي في هذا السياق ، سياق الأمر بالدخول في شرائع الإسلام كلها : آيتان تشكلان خاتمة الفقرة الرابعة وخاتمة المقطع الأول من القسم الثالث في سورة البقرة : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين * تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلَّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ماجاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر . ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد** ﴾ .

المعنى العام :

في الآية الأولى إشارة إلى الآيات التي مرت معنا ، من إماتته الألوف ، وإحيائهم . ومجيء التابوت تحمله الملائكة ، وانتصار القلة المؤمنة المستضعفة ، على الكثرة الكافرة . وأن هذه الآيات يقصها الله على رسوله بالحق . أي : بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما حدث ، وفي ذلك إشعار أن ما بأيدي أهل الكتاب مخلوط ، وفي الآية كذلك خطاب لرسول الله ﷺ فى تأكيد رسالته ، وتقريرها . كيف ومثل هذه الآيات تشهد على رسالته، حيث يخبر بها من غير أن يقرأ كتاباً ، أو يسمع من أهل الكتاب .

وفي الآيه الثانية : إشارة إلى جماعة الرسل التي ذكرت قصصها في هذه السورة ،من آدم إلى داود ، والتي ثبت علمها عند رسول الله ﷺ ، وأن الله عز وجل فضَّل بعض الرسل على بعض ، وخصّ بعضهم بخصائص . فمنهم من كلمه ، كموسى ، ومحمد ﷺ ، ومنهم من رفعه درجات على غيره . كأولي العزم من الرسل مثلا . ومن هذه الخصوصيات ، ومن هذا الرفع ، ما آتاه عيسى من الحجج ، والدلائل القاطعات على صحة ما جاء به بني إسرائيل ،تأييده بجبريل عليهما السلام . ثم يبين الله عز وجل أنّ الاقتتال الكائن بين البشر بمشيئته . وكذلك اختلافهم بمشيئته . وهذا لا ينفي الاختيار . فالحجة قائمة على من ظلم ، وكفر ، ولكن مشيئة الله ، وإرادته محيطتان بكل شيء لا يخرج شيء عن مشيئته وإرادته ، لأنه لا خالق سواه . وإذا كان الاختلاف قد وصل إلى درجة الكفر ، فلابد من قتال . هكذا شاء الله . وهو يفعل ما يريد . والحكمة في ذلك ما مر ، أنه لولا القتال لفسدت الأرض ، وإذن فيا أهل الإيمان قاتلوا من كفر .

وههنا لابد من توضيح قضيتين : **الأولى** أن الذين جاءتهم البينات من أمم الأنبياء

انقسموا قسمين بعد أنبيائهم ، فمنهم من كفر ، ومنهم من آمن . فكان لابد من قتال .وإن الأمة الإسلامية بعد رسولها ، قد وقع لها ما وقع لغيرها . فلا بد من قتال . إنه يوجد الآن على الأرض الإسلامية مؤمنون ، وكافرون . والكافرون من أبناء المسلمين أنفسهم . فلابد إذن من قتال لهؤلاء .

والقضية الثانية : أن هذه الآية هي التي ختم بها المقطع الأول في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله . فكأنها تشير إلى أن المسلمين الذين أمروا بالدخول في الإسلام كله سينقسمون قسمين . قسماً يبقى على إيمانه وإسلامه . وقسماً سيكفر . وسيكون قتال من أجل ألا يعمّ الفساد . تلك مشيئة الله . وقد أمر أهل الإيمان أن يفعلوا وقتال المرتدين مقدّم على أي قتال آخر . وحفظ رأس المال مقدم على التفكير في الربح .

كلمة في السياق :

إن الآية قبل الأخيرة جاءت تعليقاً على المجموعتين الأوليين في الفقرة . فكلا المجموعتين السابقتين ، كان فيها خطاب لرسول الله ﷺ ﴿ **ألم ترَ** ﴾ . لتأتي هذه الآية مخاطبة رسول الله ﷺ ، مؤكدة أن ماأنزل عليه حق ، ومؤكدة رسالته بمناسبة ذكر هاتين القصتين المجهولتين ، إلا عند أهل الكتاب . وإذا كانت المجموعتان السابقتان مرتبطين بالسياق العام كما رأينا فهذه الآية كذلك لها علاقة بالسياق العام من حيث إنه مادام ماينزله الله حقاً ، ومادام محمد رسول الله ﷺ فلابد من الدخول في دينه كله ، الإسلام جميعاً . وإذ ذكرت الآية الأولى أن محمداً ﷺ من المرسلين ، تأتي الآية الثانية لتبين مقامات الرسل، وخصوصيات بعضهم.وأن الجميع جاءوا بالبينات. وأن الأتباع منهم من آمن ، ومنهم من كفر ، ومن ثم كان القتال . ومن ثم كان هذا القتال بمشيئة الله ، ومن ثَم نعلم حكمة فرضية القتال علينا . فإذ أُرسل محمد ﷺ وجاء بالبينات ، فعلى الخلق جميعاً متابعته ، ومن لم يتابع فقد استحق أن يُقاتَل ، فإما أن يسلم ، وإما أن يخضع بدفع الجزية . ومن أسلم وارتد فجزاؤه القتل ، وإذا سيطر المرتدون . فعلى من يستطيع قتالهم أن يقاتلهم .

المعنى الحرفي :

﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ : الإشارة في (تلك) إلى ماسبق هذه

الآية في المجموعتين السابقتين . بدليل أن كلاً من المجموعتين بدىء بتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بقوله تعالى : ﴿ **ألم تر** ﴾ وهذه الآية يتوجه الخطاب فيها إلى رسول الله ﷺ . ولأن في كل من المجموعتين ذكرت خارقة للعادة . ومعنى نتلوها : نقصُّها . والحق : هو الأمر المطابق للواقع . ﴿ **وإنك لمن المرسلين** ﴾ : بدليل ماتخبر به من الحق الذي ماكنت لتعرفه ، لولا أنك رسول من عند الله ، وأن الله يوحي إليك ﴿ **تلك الرسل** ﴾ إشارة إلى المرسلين الذين منهم رسول الله محمد ﷺ ﴿ **فضلنا بعضهم على بعض** ﴾ : بالخصائص ، وراء الرسالة . فهم يستوون في الرسالة ، ويتفاوتون بالفضل كالمؤمنين . يستوون في صفة الإيمان ، ويتفاوتون في الطاعات بعد الإيمان . ﴿ **منهم من كلَّم الله** ﴾ أي : منهم من فضّله الله بأن كلمه من غير سفير ، كموسى ، ومحمد ﷺ ، وكذلك آدم ، ورد في تكليم الله إياه حديث في صحيح ابن حبان عن أبي ذر . ﴿ **ورفع بعضهم درجات** ﴾ أي : ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء . فكان بعد تفاوتهم في الفضل ، أفضل منهم بدرجات كثيرة . وهو محمد ﷺ إذ إنه مفضّل على كافة الرسل ، بإرساله إلى الخلق عامة . وبأنه خاتم النبيين ، وبأنه أوتي مالم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة ، المتزايدة على الدهر . وفي إبهامه ، وعدم ذكره صراحة ، تفخيم ، وبيان أنه العَلَمُ الذي لايشتبه على أحد . والمتميز الذي لايلتبس ﷺ . وقد يكون المراد تفاوت منازلهم عند الله . وقد يكون المراد اختلاف منازلهم الآن ، كما ورد في حديث الإسراء . حيث إن بعضهم في السماء الدنيا ، وبعضهم في الثانية ، وهكذا . والله أعلم . ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البينات** ﴾ أي : الحجج ، والدلائل القاطعات . كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه ، والأبرص ، وغير ذلك . ﴿ **وأيدناه بروح القُدُس** ﴾ أي : قويناه بجبريل . ﴿ **ولو شاء الله مااقتتل الذين من بعدهم** ﴾ أي : ولو شاء الله مااختلف الذين من بعد الرسل ، فاقتتلوا . والقتال سببه الاختلاف . فذكر في الآية المسبب . فدخل السبب ضمناً . ولذلك فسرنا اقتتلوا باختلفوا ﴿ **من بعد ماجاءتهم البينات** ﴾ أي : من بعد ماجاءتهم المعجزات ، والآيات الواضحات كان المفروض ألا يختلفوا . ﴿ **ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر** ﴾كان المفروض ألا يختلفوا لوضوح الحق ، ولكنهم اختلفوا . ثم بيّن الاختلاف بأن آمن بعضهم ، وكفر الآخر . ﴿ **ولو شاء الله مااقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد** ﴾ أي : لو شئت ألا يقتتلوا لم يقتتلوا . إذ لايجري في ملكي إلا مايوافق مشيئتي . ثم أثبت - سبحانه - الإرادة لنفسه . وأثبت أن إرادته - تعالى - مطلقة .

فــوائــد :

١ - أثبت الله عز وجل في الآية الأخيرة تفاضل الأنبياء . فما الجمع بين هذه الآية والحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : « استبَّ رجل من المسلمين ، ورجل من اليهود ، فقال اليهودي في قَسَم يقسمه : لا والذي اصطفى موسى على العالمين . فرفع المسلم يده ، فلطم بها وجه اليهودي فقال : أي خبيث . وعلى محمد ﷺ . فجاء اليهودي إلى النبي ﷺ ، فاشتكى على المسلم . فقال رسول الله ﷺ : لاتفضلوني على الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش . فلا أدري أفاق قبلي ، أم جوزي بصعقة الطور ؟ . فلا تفضلوني على الأنبياء » . وفي رواية : « لاتُفاضلوا بين الأنبياء » . قال ابن كثير : (فالجواب من وجوه . **أحدها** : أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل . وفي هذا نظر .. **الثاني** : أن هذا ماقاله من باب الهضم والتواضع . **الثالث** : أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر . **الرابع** : لاتفضلوا بمجرد الآراء والعصبية . **الخامس** : ليس مقام التفضيل إليكم . وإنما هو إلى الله عز وجل. وعليكم الانقياد ، والتسليم له ، والإيمان به) .

٢ - إن أوسع المخلوقات مشيئة هو الإنسان . ومع ذلك فإن مشيئته مقيدة بعالم الأسباب ، فهو لايستطيع ألا يتنفس ؛ وهو مقيد بقوانين هذا العالم ؛ ومشيئته لاتنفذ إلا ضمن استطاعته التي أعطاه الله إياها ، ومشيئته يمكن أن تعاكسها مشيئات الآخرين . والذات الإلهية منزهة عن هذا كله ، فمشيئته تعالى غير مقيدة ، ومشيئته نافذة . ومشيئته لايمكن أن تعاكسها مشيئات الآخرين ، وإن من يتصور غير هذا يكون قد شبّه مشيئة الله بمشيئة خلقه . هذا هو مذهب أهل السنَّة والجماعة ، أنه لا شيء إلا بمشيئة الله . وهذه الآية تشهد بما لايقبل جدلا على صحة هذا المذهب ، ولكن كيف نجمع بين كون كل شيء بمشيئة الله وبين اختيار الإنسان . بين كون أفعال الإنسان بمشيئة الله ، ومع ذلك فالله يحاسبه عليها ؟ . والجواب أن عموم المشيئة لايتعارض مع الاختيار فالقاعدة أن مشيئة الله على وفق علمه ، مع اعتقادنا أزلية العلم والمشيئة . والعلم كاشف ، لامجبر . فالله عز وجل عَلِم ، وأراد ، والعلم كاشف لا مجبر فكون الله عز وجل علم ما سيفعله فلان بمحض اختياره ، وأراده ، وأبرزه بقدرته ، فذلك شأنه ، ولايُسأل عما يفعل . ولايعني هذا أنه أجبر . فالإنسان مختار ، يشهد على ذلك إرادته ،

وعقله . وإرسال الله له الرسل ، وهو يُحاسب على هذا الاختيار . وهذا الكلام في مثل هذا المقام يكفي . ومن أوسع أبواب الضلال ، قياس شأن الخالق ، على حال المخلوق والحمد لله رب العالمين .

كلمة في الفقرة والمقطع :

كنا ذكرنا من قبل أن القسم الثالث في سورة البقرة يتألف من مقطعين . وقد انتهى معنا عرض المقطع الأول ، وقد رأينا أن المقطع الأول يتألف من أربع فقرات ، ورأينا أن التكليف التفصيلي الأول فيه كان في شأن القتال ، وكان في آخر آية في المقطع ذكر لسبب من أسباب القتال . فاجتمع في المقطع في بدايته ، ووسطه ، ونهايته كلام عن القتال ، وأسبابه ، وبعض أحكامه .

وقد حدثنا المقطع بعد مقدمته الواعظة عن أحكام كثيرة ، ونبهنا إلى أشياء كثيرة . وكلها جاءت في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله ، والنهي عن اتّباع خطوات الشيطان .

فعرفنا أحكاما في شأن الخمر ، والميسر ، واليتامى ، والإنفاق ، والزواج ، والحياة الزوجية ، والإيمان ، والإيلاء ، والطلاق ، والخلع ، وواجبات الزوجة المتوفى عنها زوجها ، ووجوب المحافظة على الصلوات الخمس ، والصلاة حال القتال . وعرفنا أن الطريق للخروج من الضياع ، والقهر ، والغلبة هو الإمرة المؤمنة ذات الخصائص المناسبة ، والقتال . وكما أن للقتال محله في إقامة الإسلام ، فإن للإنفاق محله في هذا الشأن . ولذلك رأينا ذكراً للإنفاق في مقدمة السورة ، وذكراً له في المقطع الأول من القسم الثاني . وكذلك في المقطع الثالث . ورأينا ذكراً له في المقطع الأول من القسم الثالث ورأينا تلازم الحديث عن القتال مع الحديث عن الإنفاق في كثير من المواطن ، فاتضح لنا محل الإنفاق في التقوى ، ومحله في إقامة الإسلام كله . وهذا يقتضي تفصيلا في شأنه . ومن ثم فإن الفقرة الأولى في المقطع الثاني من هذا القسم كانت حديثاً عن الإنفاق في سبيل الله وحديثاً عن مرتكزاته من إيمان بالله ، واليوم الآخر .

إن المقطع القادم ، وهو المقطع الثاني من القسم الثالث يتحدث عن قضايا مالية في فقرات ثلاث . والفقرة الأولى منه في الإنفاق بعد أن قدمت السورة لذلك بأن عرفتنا على محل الإنفاق في دين الله . إنْ في قضية التقوى ، أو في قضية إقامة الإسلام كله وترك اتباع خطوات الشيطان . فإلى المقطع الثاني من القسم الثالث .

المقطع الثاني من القسم الثالث :

يمتد هذا المقطع من الآية (٢٥٤) إلى نهاية الآية (٢٨٤) . حيث تأتي بعده مباشرة خاتمة السورة . ويتحدث هذا المقطع عن ملامح النظام المالي في الإسلام . فالنظام المالي في الإسلام نظام زكوي ، غير ربوي . ذو معاملات منضبطة بقيود الشرع . والفقرة الأولى في هذا المقطع تتحدث عن الإنفاق ، والفقرة الثانية تتحدث عن الربا ، والفقرة الثالثة تتحدث عن الديْن ، ويختم المقطع بآية تعلن أن المالكية لله ، وأن الله سيحاسب .

وبين آيات الإنفاق يأتي حديث عن الإيمان بالله ، واليوم الآخر . فهو يبدأ بالأمر بالإنفاق ، ثم يتحدث عن الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، ثم يرجع الحديث إلى الإنفاق . وهكذا حتى تتم الفقرة الأولى . فيأتي حديث عن الربا ، ثم تأتي آية الديْن ، فآية أخرى ، فالآية الأخيرة . الآية الأولى في المقطع : أمر بالإنفاق مما رزق الله ، والآية الأخيرة فيها إعلان المالكية لله ؛ فبين الآية الأولى والأخيرة صلة واضحة وفي سياق الكلام عن الله ، واليوم الآخر ، يأتي كلام عن الحرية الدينية ، وبذلك فإن هذا المقطع ، والذي قبله يحدثنا عن أهم الأمور في حياة الإنسان : قضايا الأسرة ، والقتال ، والسياسة ، والاقتصاد ، والحياة العامة . وكل ذلك يأتي في سياق قوله تعالى :

﴿ ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافّة ولاتتبعوا خطوات الشيطان .﴾

الفقرة الأولى من المقطع

تمتد هذه الفقرة من الآية (٢٥٤) إلى نهاية الآية (٢٧٤) وهذه هي :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا

تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ

جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾

يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ

وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾

لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

كلمة في هذه الفقرة :

تبدأ الفقرة بالأمر بالإنفاق ، ثم يأتي كلام عن الله تعالى ، هو أروع كلام عن الله عرفته البشرية . وكأنه بمثل هذه الروعة في الحديث عن الله تقوم الحجة على كل إنسان ، ومن ثم يأتي النهي عن الإكراه على الدين ؛ لأن الحجة قد قامت على الإنسان . ثم يأتي كلام عن الله ، وكلام عما تقوم به الحجة في شأن اليوم الآخر ، ثم يعود الكلام إلى الحديث عن الإنفاق .

ومجيء الكلام عن الله ، والتدليل على اليوم الآخر ، مرتبط بطرفي الفقرة . أي بالإنفاق . وذلك واضح . فالرسول ﷺ يقول : « والصدقة برهان » . برهان على ماذا ؟. برهان على الإيمان بالله واليوم الآخر ، فالمال حبيب للنفس ، وهو عديل الروح

كما يقولون . فما لم يعرف الإنسان الله فيحبه . ومالم يؤمن باليوم الآخر فيحب العمل من أجل الثواب فيه ، فإنه يصعب عليه أن ينفق . ومن ثم كان الحديث عن الله في هذه الفقرة أعظم منه في أي مكان آخر من كتاب الله . أليس فيه آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله . إن من يقرأ هذه الفقرة ملاحظاً البداية والنهاية والوسط سيجد نفسه مندفعاً للإنفاق .

ولقد رأينا أولى آيات سورة البقرة هي :

﴿ **الٓمٓ . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون** ﴾ وفيما مرّ من السورة ، مرت تفصيلات كثيرة حول الصلاة . وههنا تأتي تفصيلات كثيرة حول الإنفاق وقد أخر الكلام عن الإنفاق ليكون بجانب مايقابله من أكل الربا ، وليكونا بجانب الحديث عن ضرورة الضبط في المعاملات ، ومجيء ذلك كله في أواخر السورة يشعر بالاحتياجات التربوية الكثيرة للنفس البشرية ، لتستقيم على أمر الله في شأن المال .

ومجيء ذلك كله في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله يشعر بأنه مالم يقم أمر المال على شرع الله فإن الناس لا يكونون قد دخلوا في الإسلام كله . وفي مثل هذا وغيره ، تظهر دقائق من أسرار الإعجاز لمن عقل . ولنبدأ عرض الفقرة .

﴿ **يأأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لابيع فيه ولاخلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون** ﴾

المعنى العام :

يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله ، سبيل الخير ، ليدّخروا ثواب ذلك عند ربهم ، ومليكهم . وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا من قبل أن يأتي يوم القيامة ، يوم لا يباع أحد من نفسه ، ولا يفادى بمال لو بذله ، ولو جاء بملء الأرض ذهباً . ولاتنفعه صداقة أحد ، أو نسابته ، أو شفاعته ؛ إن كان كافراً . ثم يقرر الله أنه لاظالم أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافراً .

المعنى الحرفي :

﴿ **يأأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم** ﴾ : هذا أمر عام بالإنفاق في الجهاد ،

والإنفاق الواجب كالزكاة ، وصدقة الفطر ، والنفقة على من تجب إعالتهم ، وعلى من عرفت حاجتهم ، وغير ذلك من النفقات الواجبة ودخل في ذلك الإنفاق النافلة . لأن الأمر كان بالإنفاق مما رزقنا الله ، وليس كل مارزقنا الله إيّاه أوجب فيه نفقة مفروضة . ومن هنا نفهم حكمة تأخير هذه الفقرة . إذ جاءت بعد أن عرضت علينا السورة صوراً من الإنفاق الواجب والمندوب . ﴿ **من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة** ﴾ الخلة : الصداقة . والشفاعة للمؤمنين ثابتة بنصوص كثيرة . فالشفاعة المنفية في هذا اليوم إنما هي الشفاعة للكافرين ، أو أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة التي لم يُأذن بها . فصار المعنى : أنفقوا من قبل أن يأتي يوم القيامة . يوم لاتقدرون فيه على تدارك مافاتكم من الإنفاق . لأنه لابيع فيه حتى تبتاعوا ماتنفقونه . ولأنه لا صداقة بين كافر وكافر . فالجميع يتبرأون من بعضهم ، والجميع لامقام لهم عند الله ، فينتفعون من صداقتهم ، ولأنه لاشفاعة يومئذٍ تنفع عنده إلا بإذنه . ولم يأذن أن يشفع لكافر . فإذا كان الأمر كذلك فأنفقوا لله ، وفي سبيله ، وفي محال الإنفاق ، لاتراعوا في ذلك إلا أن يكون ذلك لوجه الله خالصاً فهذا وحده ينفعكم . ﴿ **والكافرون هم الظالمون** ﴾ أي : والكافر هو الظالم نفسه ، بتركه التقديم ليوم حاجته . حصر الله عز وجل الظلم بأهل الكفر ، لأنه لا أظلم منهم في مواقفهم من ربهم ، ودينه ، ورسله ، وأهله . ولا أظلم منهم لأنفسهم ، إذ أوردوها النار . وأي شيء أفظع من النار : السجن الأبدي للكافرين . وإن في هذه الآية لدواء لمن مرض قلبه بالإعجاب بالكافرين **وبعدالتهم** فالكافر هو الظالم مهما ظهر على يده من بعض حيثيات العدل قال عطاء بن دينار : (الحمد لله الذي قال والكافرون هم الظالمون . ولم يقل والظالمون هم الكافرون) . لأنه لايوجد من لايظلم نفسه نوع ظلم إلا من عصم الله .

كلمة في السياق :

١ - تُذكرنا هذه الآية ﴿ **أنفقوا مما رزقناكم** ﴾ بقوله تعالى في أول سورة البقرة : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ فإذا كانت هذه الفقرة لها علاقة بالإنفاق ، فإننا ندرك سراً من أسرار السياق . إذ نجد في هذه الفقرة تفصيلا لما أُجمل في بدايات سورة البقرة .

٢ - نحب أن نذكِّر بمعنى طرقناه أكثر من مرة . هو أننا إذا نظرنا إلى بعض الآيات من خلال السياق العام ، فإنها تدلنا على معان ، وإذا نظرنا إليها منفردة تدلنا على معان ، وإذا نظرنا إلى كلمة منها على انفراد نأخذ معان ، وهكذا جعل الله كتابه ، لا تنتهي

معانيه . نقول هذا بمناسبة أننا قلنا إن الكلام عن الله ، وأدلة اليوم الآخر ، قد جاء بين الأمر بالإنفاق قبله ، والحضّ على الإنفاق بعده . لأن موضوع الإنفاق في سبيل الله مرتبط بالإيمان بالله ، واليوم الآخر . فغير المؤمن بالله واليوم الآخر لا ينفق إلا إذا عاد عليه الإنفاق بمنفعة ما . أما المؤمن ، فإنه ينفق لأن الله أمر . ولأن الله سيثيبه في الدنيا والآخرة على ما أنفق . إننا عندما ننظر إلى الآيات الواردة بين آيات الإنفاق ، نجد في كل آية على انفراد معاني في موضوعها ، ذات دلالات زائدة على مانفهم من محلها في السياق . وإن كانت تخدم غرضه فلنلاحظ هذا كله فيمايأتي . ولنلاحظ كيف تخدم الآية السياق القريب ، والسياق العام .

﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم. لا تأخذه سِنَة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسِع كرسيه السمٰوات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم** ﴾ من كان هذا شأنه ألّا يُنفق الإنسان في سبيله ، ومن كان هذا شأنه كيف لا يدخل الإنسان في دينه . إذا فهمنا هذه العبارة ، أدركنا حكمة مجيء هذه الآية بين قوله تعالى : ﴿ **أنفقوا** ﴾ . وبين قوله تعالى بعدها : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ** ﴾ وإذا أدركنا مجيئها في سياق الدخول في الإسلام كله فالذين لايعرفون الله ، هم الذين يظنون أنه لادخل لله في شؤون عباده ، أو أن تشريعه ليس هو الأكمل . كيف وهو القيوم ، المحيط علماً .

حديث وتعليق :

روى مسلم والإمام أحمد عن أُبيّ بن كعب أن النبي ﷺ : « أي آية في كتاب الله أعظم » ؟ . قال : الله ورسوله أعلم . فرددها مراراً ، ثم قال : آية الكرسي . قال ﷺ : « ليهنك العلم أبا المنذر » . وعند أحمد زيادة : « والذي نفسي بيده ، إن لها لساناً وشفتين ، تقدّس الملك عند ساق العرش » .

وإنما كانت أعظم آية في كتاب الله لاشتمالها على توحيد الله وتعظيمه ، وتمجيده ، وصفاته العظمى ، بما لم يجتمع في آية أخرى . ولا مذكور أعظم من ربّ العزة . فما كان ذكراً له ، كان أفضل من سائر الأذكار . ومن ثَم نعلم أن أشرف العلوم ، علم التوحيد . وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة ، فيها خمسة معان رئيسية . وإنما

ترتبت الجمل في آية الكرسي بلا حرف عطف ، لأنها وردت على سبيل البيان . **القسم الأول** منها بيان لتوحيده وقيامه بتدبير خلقه ، وكونه مهيمناً عليه ، غير ساهٍ عنه **والثاني** : بيان لكونه مالكاً لما يدبّره . **والثالث** : بيان لكبرياء شأنه . **والرابع** : بيان لإحاطته بأحوال خلقه . **والخامس** : بيان لسعة علمه ، وتعلقه بالمعلومات كلها ، وتعريف على جلاله ، وعظم قدره .

المعنى الحرفي :

﴿ **الله لا إله إلا هو** ﴾ : هذا إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق . ﴿ **الحي القيوم** ﴾ أي : الحي في نفسه ، الذي لايموت أبداً ، الباقي الذي لاسبيل عليه للفناء . والدائم القيام بتدبير خلقه ، وحفظه . فهو قائم بنفسه ، غير مفتقر لغيره . وأما غيره فقائم به ، مفتقر إليه . فجميع الموجودات مفتقرة إليه ، وهو غني عنها . ولا قوام لها بدون أمره . وجودها مفتقر إليه ، وصفاتها مفتقرة إليه ، واستمرارها مفتقر إليه . ﴿ **لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم** ﴾ السِّنة : هي النعاس وهو مايتقدم النوم من الفتور ، ومعنى لاتأخذه أي لاتغلبه، والنوم أقوى من النعاس،وقد نفى هذا،وهذا وذلك توكيد للقيوم لأن من جاز عليه النعاس ، والنوم ، استحال أن يكون قيوماً . فهو جل جلاله لا يعتريه نقص ، ولا غفلة ، ولاذهول عما خلقه . بل هو قائم على كل نفس بما كسبت . شهيد على كل شيء ، لايغيب عنه شيء ، ولاتخفى عليه خافية ، ﴿ **له مافي السمٰوات ومافي الأرض** ﴾ : هذا إخبار بأن الجميع مِلكه ، ومُلكه . فالجميع عبيده ، وتحت قهره وسلطانه . ﴿ **من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه** ﴾ : أي ليس لأحد أن يشفع عنده إلا بإذنه . وهذا من عظمته ، وجلاله ، وكبريائه . فلا يتجاسر أحد أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة ، كما في حديث الشفاعة : « آتي تحت العرش فأخرّ له ساجداً . فيدعني ماشاء الله أن يدعني . ثم يقال : ارفع رأسك وقل تُسمع ، واشفع تُشفَّع . قال : فيحد لي حداً ، فأدخلهم الجنة » . ﴿ **يعلم مابين أيديهم وماخلفهم** ﴾ أي : يعلم ماكان قبلهم ، ومايكون بعدهم . والضمير لما في السمٰوات والأرض . ولم يقل : أيديها ، وخلفها ، لأن فيهما العقلاء . وفي هذا التعبير بيان لإحاطة علمه بجميع الكائنات ، ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها . مامن حركة إلا وهو يعلم ماقبلها ، وما بعدها . ولاشيء إلا ويعلم ماقبله ومابعده . فسبحانه سبحانه . ﴿ **ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾ : المراد بالعلم هنا ، المعلوم . فصار المعنى : لايطلع أحد من

علم الله على شيء إلا بمشيئة الله ، وتعليمه . فما عرفه الإنسان من عالم الغيب ، وماعرفه الإنسان من عالم الشهادة ، وقوانين هذا الكون ، وكيفية تسخيره ، إلا بمشيئة الله ، وتعليمه . فهو الذي علَّم الإنسان مالم يعلم . وهو الذي علَّم كل شيء ماعلم .

وهناك وجه آخر . قال ابن كثير : ويحتمل أن يكون المراد : لايطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته ، إلا بما أطلعهم الله عليه . ﴿ **وَسِعَ كرسيُّه السمٰوات والأرض** ﴾ : للعلماء في تفسير الكرسي هنا أقوال . منهم من فسّره بالعلم ، ومنهم من فسّره بالعرش ، ومنهم من فسّره بمخلوق عظيم محيط دون العرش ، ومنهم من فسّره بالقدرة ، ومنهم من فسره بالملك . وقد قدم ابن كثير ذكر تفسير الكرسي هنا بالعلم ، نقلًا عن ابن عباس . ومن عادته في هذه الحالة ، أن يقدم الأرجح عنده . ثم نقل قول ابن أبي حاتم : ووري عن سعيد بن المسيب مثله . ونستطيع أن نقول : إن أجود مايفسر به الكرسي ، إن أخرجناه عن لفظه هذا التفسير . وإما إذا لم نخرجه عن لفظه ، فأجود مايقال فيه ، ماقاله ابن كثير ، والصحيح ، أن الكرسي غير العرش . والعرش أكبر منه ، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار ، وإذن صار معنى النص على القول الأول : أحاط علمه السمٰوات والأرض . وعلى القول الثاني : إن كرسيه الذي هو دون العرش ، محيط بالسمٰوات ، والأرض . ومن كان مثل هذا خلقه ، ماأعظمه . ﴿ **ولا يئوده حفظهما** ﴾ أي : لا يثقله ، ولا يشق عليه حفظ السموات والأرض ، ومن فيهما ، وما بينهما . بل ذلك سهل عليه ، يسير لديه . وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على جميع الأشياء ، فلا يعزب عنه شيء ، ولايغيب عنه شيء . والأشياء كلها متواضعة ، ذليلة بين يديه ، صغيرة بالنسبة إليه ، محتاجة ، فقيرة . ﴿ **وهو العلي العظيم** ﴾ العلي في ملكه وسلطانه ، العظيم في عزه وجلاله . أو العلي المتعالي عن الصفات التي لاتليق به . العظيم المتصف بالصفات التي تليق به . فهما جامعان لكمال التوحيد . قال ابن كثير : (فقوله : ﴿ **وهو العلي العظيم** ﴾ كقوله : ﴿ **وهو الكبير المتعال** ﴾ وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح ، الأجود فيها طريقة السلف الصالح . أمرّوها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه) .

فـوائـد :

١ – روى الحافظ أبو يعلى وغيره عن عبد الله بن خليفة ، عن عمر رضي الله عنه قال : أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : ادعُ الله أن يدخلني الجنة . قال : فعظم

الرب تبارك وتعالى ، وقال : « إن كرسيه وسع السموات والأرض . وإن له أطيطاً كأطيط الرحل الجديد من ثقله » وقال ابن كثير : عبد الله بن خليفة ليس بذاك المشهور . وفي سماعه عن عمر نظر . وقال كذلك عن هذا الحديث : (وعندي في صحته نظر) .

نقلنا هذا الحديث ، وتعليقات ابن كثير عليه ، لئلا يظن ظان ، أن هذا الحديث صحيح لاعتماده من قبل بعض المفسرين .

٢ - أخرج ابن مردويه ، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي . فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده . ما السمٰوات السبع ، والأرضون السبع عند الكرسي . إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة . وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » .

٣ - عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قَرأ دبر كل صلاة مكتوبة ، آية الكرسي ، لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت » . رواه النسائي وابن حبان ، قال ابن كثير عن إسناد ابن حبان : فهو إسناد على شرط البخاري . وخطّأ من زعم أن الحديث موضوع .

٤ ـ روى الإمام أحمد، والترمذي ـ وقال حسن صحيح ـ، وأبو داود، عن رسول الله ﷺ : في هاتين الآيتين : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ و ﴿ **الٓمٓ . الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ « إن فيهما اسم الله الأعظم » .

٥ - نقل ابن كثير ، بمناسبة آية الكرسي ، ثلاث وقائع متشابهة . وقعت لأبي أيوب ، ولأبيّ بن كعب ، ولأبي هريرة . نكتفي بنقل واقعة أبي هريرة التي ذكرها البخاري ، تعليقاً بصيغة الجزم . ورواها النسائي : قال أبو هريرة : (وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان . فأتاني آت ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ . قال : دعني فإني محتاج ، وعليّ عيال ، ولي حاجة شديدة . قال : فخليت عنه ، فأصبحت . فقال النبي ﷺ : « ياأباهريرة : مافعل أسيرك البارحة ؟ » . قلت : يا رسول الله ! شكا حاجة شديدة وعيالاً ، فرحمته وخليت سبيله . قال : « أما إنه كذبك ، وسيعود » . فعرفت أنه سيعود ، لقول رسول الله ﷺ . « أنه سيعود » فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام . فأخذته ، فقلت :

لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني ، فإني محتاج ، وعليَّ عيال ، فرحمته ، وخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ : « يا أبا هريرة مافعل أسيرك البارحة ؟ » قلت يا رسول الله شكا حاجة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله فقال : « أما إنه كذبك وسيعود» فرصدته الثالثة فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. وهذا آخر ثلاث مرات ، تزعم أنك لاتعود ، ثم تعود . فقال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها . قلت: وما هي؟ قال : إذا أويت إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسي : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ حتى تختم الآية . فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولايقربك شيطان حتى تصبح . وكانوا أحرص شيء على الخير . فقال النبي ﷺ : « أما إنه صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاثة يا أبا هريرة ؟.» قلت : لا . «قال ذاك شيطان ») .

٦ - روى الإمام أحمد عن أنس :

أن رسول الله ﷺ سأل رجلًا من صحابته ، فقال : « أي فلان : هل تزوجت ؟ قال : لا . وليس عندي ماأتزوج به . قال : « أوليس معك قل هو الله أحد ؟ » . قال بلى . قال : « ربع القرآن . قال : أليس معك إذا زلزلت ؟ قال : بلى . قال : « ربع القرآن . قال أليس معك إذا جاء نصر الله ؟ » قال : بلي . قال : « ربع القرآن » .

٧ - روى الإمام أحمد عن أبي ذرّ قال : أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد ، فجلست ، فقال : « يا أباذرّ : هل صليت ؟ . قلت : لا . قال : « قم فصل » . قال : فقمت ، فصليت ، ثم جلست . فقال : « يا أبا ذرّ : تعوَّذ بالله من شر شياطين الإنس ، والجن » . قال : قلت يارسول الله : أو للإنس شياطين ؟ . قال : « نعم » . قال : قلت يارسول الله : الصلاة ؟ . قال : « خير موضوع . من شاء أقل ، ومن شاء أكثر» . قال: قلت يا رسول الله! فالصوم ؟ . قال: «فرض مجزي وعند الله مزيد». قلت: يا رسول الله! فالصدقة؟. قال: «أضعاف مضاعفة» قلت: يا رسول الله! فأيها أفضل ؟ . قال : « جهد من مقل . أو سر إلى فقير » . قلت : يارسول الله : أي الأنبياء كان أول ؟ . قال : « آدم » . قلت : يارسول الله : ونبي كان ؟ . قال : « نعم نبي مكلَّم » . قلت : يارسول الله : كم المرسلون ؟ قال : « ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً - وقال مرة : وخمسة عشر - » . قلت : يارسول الله : أي ماأنزل عليك أعظم ؟ . قال : آية الكرسي ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ ورواه النسائي .

٨ - ذكر ابن كثير بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لا تأخذه سِنَة ولانوم** ﴾ الحديث الصحيح عن أبي موسى قال : **قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : « إن الله لا ينام. ولا ينبغي عليه أن ينام. يخفض القسط ويرفعه. يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار. حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »** .

ثم ذكر ابن كثير روايات إسرائيلية ، نبه عليها . وبعضها منسوب كذباً لرسولنا ﷺ . من هذه الروايات مافيه سؤال من موسى للملائكة : (هل ينام الله) ؟ . قال ابن كثير : وهو من أخبار بني إسرائيل . وهو مما يعلم أن موسى عليه السلام لايخفى عليه مثل هذا من أمر الله عز وجل . فإنه منزه عنه . والذي نقوله بهذه المناسبة : إن الروايات عن بني إسرائيل فيها من سوء الأدب مع الله ورسله الكثير ، وفيها من الجهل بالله ورسله الكثير . فإذا ما أردنا أن ننقل ، فلننقل مع البيان الناصع ، والرد القاطع ، أو فلننقل ما يتفق مع الحق ، مع عزوه إلى مصادره ، دون أن نحمل أنفسنا مسؤوليته . وأجود مانقله ابن كثير في هذا الموضوع مما لايتنافى مع عصمة الأنبياء ماأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس : أن بني إسرائيل قالوا : ياموسى هل ينام ربك ؟ . قال : اتقوا الله . فناداه ربه عز وجل : ياموسى : سألوك هل ينام ربك . فخذ زجاجتين في يديك . فقم الليلة . ففعل موسى . فلما ذهب من الليل ثلث ، نعس . فوقع لركبتيه ، ثم انتعش فضبطهما . حتى إذا كان آخر الليل ، نعس ، فسقطت الزجاجتان ، فانكسرتا . فقال : ياموسى : لو كنت أنام ، لسقطت السمٰوات والأرض ، **فهلكت كما هلكت الزجاجتان في يديك»** .

قال ابن عباس : فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ آية الكرسي . أي لكي لايسأل جاهل عن مثل هذا الموضوع .

﴿ **لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم** ﴾ كأنه من خلال آية الكرسي قامت الحجة على كل إنسان بهذا الدين . إذ من يستطيع أن يصف الله بهذا الوصف ، وبمثل هذا الكمال إلا الله . فجاءت هذه الآية .

سبب النزول :

روى ابن جرير ، وأبو داود ، والنسائي عن ابن عباس قال :

كانت المرأة تكون مُقِلّاة ، فتجعل على نفسها ، إن عاش لها ولد ، أن تهوّده. فلما أجليت بنو النضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار . فقالوا : لاندع أبناءنا فأنزل الله عز وجل : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبيَّن الرشد من الغيّ** ﴾ . وخصوص السبب لايمنع عموم اللفظ .

المعنى العام :

يقول تعالى : لاتكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام . فإنه بيِّن واضح . جلية دلائله وبراهينه . لايحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام ، وشرح صدره ، ونوّر بصيرته ، دخل فيه على بيّنة . ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه ، وبصره، فإنه لايفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً. ثم بين الله عز وجل أنه من خلع الأنداد ، ومايدعو إليه الشيطان من عبادة كل مايعبد من دون الله . ووحّد الله فعبده وحده . وشهد أن لا إله إلا هو فقد ثبت في أمره ، واستقام على الطريقة المثلى ، والصراط المستقيم ، واستمسك من الدين بأقوى سبب ، لا ينفصم أبداً . ثم وصف الله ذاته بالسمع والعلم . فهو سميع يسمع كل شيء فيسمع من آمن ولمن آمن عليم باعتقاد الجميع .

المعنى الحرفي :

﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ أي : لا إجبار على الدين الحق ، وهو دين الإسلام . فليس الإكراه على دين الله من دين الله . ﴿ **قد تبيَّن الرشد من الغيّ** ﴾ أي : تميّز الهدي من الضلال . قد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة . ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت** ﴾ : الطاغوت : من الطغيان . وهو كل ماجاوز الحد . والشيطان هو وراء كل تجاوز للحد . فالكفر به ، كفر بكل شر عليه البشر من شرك بالله ، أو احتكام لغير الله ، أو استنصار بغير الله .

والكفر بالطاغوت : رفضه ، واحتقاره ، وازدراؤه ، وعدم طاعته ، وإهانته . ﴿ **ويؤمن بالله** ﴾ ويصدق به حق التصديق . بإعطاء ذلك لوازمه ﴿ **فقد استمسك بالعروة الوثقى** ﴾ الوثقى : تأنيث الأوثق . والأوثق : هو الأشد . واستمسك ، بمعنى : تمسّك . والعروة : هي المعتصم ، والمتعلق . وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد

المحسوس ، حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه فيحكم اعتقاده . والمعنى : فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد عقد لنفسه من الدين عقداً وثيقاً ، لا تحله شبهة . ﴿ **لا انفصام لها** ﴾ أي : لا انقطاع لهذه العروة التي تمسك بها من آمن بالله ، وكفر بالطاغوت شبَّه من آمن بالله ، وكفر بالطاغوت ، بالمستمسك بالعروة القوية التي لاتنفصم . لأنها في نفسها محكمة مبرمة ، قوية . وربطها قوي شديد . ودخل في الإيمان بالله ، الإيمان برسوله ، وكتابه ، ودينه . لأن ذلك كله من لوزام الإيمان . ﴿ **والله سميع عليم** ﴾ : يسمع كل شيء ، ويعلم كل شيء . فأسمعوه من أنفسكم خيراً ، وأحكموا أمر الإيمان بالله ، والكفر بالطاغوت .

فـوائـــد :

١ - لاحظنا أن الاستمساك بالعروة الوثقى ، كفر بالطاغوت ، وإيمان بالله . وقد ذكر في الآية ، الكفر بالطاغوت مقدماً على الإيمان بالله ، لغموض هذا الجانب في حياة الناس . وهكذا قال المربون الإسلاميون : التخلية ، ثم التحلية . وبقدر ما تتخلى ، تتحلى . بقدر مايكون الكفر بالطاغوت قوياً ، يكون الإيمان قوياً .

٢ - من المعلوم أن هناك اتفاقاً بين الفقهاء ، أن العربي الوثني لايقبل منه إلا الإسلام ، أو القتل . وأما الذمي العربي ، فيجوز أن تؤخذ منه الجزية . ولكنه لايقرّ في جزيرة العرب . أما غير العرب ، فإنه يعرض عليهم الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال . على خلاف حول غير اليهود والنصارى. والشيء الذي تم عليه العمل خلال العصور، هو ما ذكرناه. ونتيجة لهذه الأحكام ، وجد من يقول إن آية : ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ منسوخة . والمسألة مرتبطة بموضوع تخصيص العام هل يعتبر نسخاً أو بياناً . ومن الناحية العملية ، لا يترتب على هذا الاختلاف شيء . فالقتال شيء ، والإكراه على الدخول في الإسلام شيء آخر . أمرنا أن نقاتل الكافرين، وحرم علينا إكراههم، إلا عربياً وثنياً. فهذا ليس أمامه إلا الإسلام أو القتل لأن الحجة في حقه أظهر .

٣ - قال عمر رضي الله عنه « إن **الجبت** : السحر . والطاغوت : الشيطان . وإن الشجاعة والجبن غرائز، تكون في الرجال. يقاتل الشجاع عمن لايعرف. ويفر الجبان من أمه . وإن كرم الرجل دينه ، وحسبه ، وخُلُقه ، وإن كان فارسياً ، أو نبطياً » رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

٤ - في الحديث الصحيح : « عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل » . وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « أَسْلِمْ » . قال : إني أجدني كارهاً . قال : «وإن كنت كارهاً » .

قد يفهم فاهم أن هذين الحديثين يتنافيان مع قوله تعالى ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ وليس هذا صحيحاً . فالحديث الأول في الأسارى الذين يقدم بهم إلى بلاد الإسلام في الوثاق ، والأغلال ، والقيود ، والأكبال . ثم بعد ذلك يسلمون ، وتصلح أعمالهم ، وسرائرهم . فيكونون من أهل الجنة . وليس في الحديث مايدل على الإكراه . وأما الحديث الثاني فليس فيه مايدل على الإكراه . بل إن رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام . فأخبره بأن نفسه ليست قابلة له بل هي كارهة فقال له : أسلم وإن كنت كارها فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص .

٥ - عن عبد الله بن سلام : إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه : رأيت كأني في روضة خضراء . قال ابن عون : فذكر خضرتها ، وسعتها - وفي وسطها عمود حديد . أسفله في الأرض ، وأعلاه في السماء . في أعلاه عروة . فقيل لي : اصعد عليه . فقلت : لا أستطيع . فجاءني منصف - قال ابن عون : هو الوصيف - فرفع ثيابي من خلفي فقال : اصعد ، فصعدت حتى أخذت بالعروة . فقال : استمسك بالعروة فاستيقظت ، وإنها لفي يدي . فأتيت رسول الله ﷺ فقال : أما الروضة ، فروضة الإسلام . وأما العمود ، فعمود الإسلام . وأما العروة ، فهي العروة الوثقى . أنت على الإسلام حتى تموت » . أخرجاه في الصحيحين . ومن ثَم كان الصحابة يقولون عن عبد الله بن سلام : من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا .

٦ - كنا ذكرنا قبل تفسير آية الكرسي شيئاً عن الصلة بين آية الكرسي ، وهذه الآية فبعد أن ذكر الله في آية الكرسي صفاته العُليا بهذا البيان ، ناسب أن يبين أن الإيمان به ، والكفر بالطاغوت هو المقام الصحيح . وأن هذا ينبغي أن يكون على طواعية. لأن الأمر أوضح من أن يكون ملتبسا .. فالله غني عن خلقه ، لا يريد استكراههم ، وهو سيحاسبهم .

٧ - في كتابنا (الله جل جلاله) رأينا كيف أن ظواهر الكون تدلنا على الله وصفاته بمحض التفكر . ورأينا أن ما دلتنا عليه ظواهر الكون عقلا ، هو الذي يتفق مع ماورد في الإسلام نقلا في هذا الموضوع . فالكلام عن الله عز وجل في الكتاب الكريم بمثل هذا

الكمال هذا وحده دليل على أن هذا الدين ، دين الله . وأن هذا القرآن ، كتابه . ونلاحظ هنا مايلي : بعد أن جاءت آية الكرسي التي هي أجمع آية في كتاب الله لصفاته . وكان فيها هذا البيان الرفيع لشأن الله العظيم . بمثل هذا الإعجاز البالغ جاء قوله تعالى بعدها ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشْدُ من الغيّ** ﴾ فقوله تعالى : ﴿ **قد تبيّن الرشد من الغي** ﴾ بعد آية الكرسي ، فيه إشارة عظيمة لما ذكرناه من أن الكلام عن الله بمثل هذا البيان ، والكمال ، دليل وحده ، وحجة كاملة في أن هذا الكتاب كتابه ، وأن هذا الدين دينه .

﴿ **الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ .

المعنى العام :

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام ، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر ، والشك ، والريب ، والشهوة ، إلى نور الحق ، الواضح ، الجلي ، المبين ، السهل ، النيرّ . وأن الكافرين ، إنما وليهم الشيطان ، يزين لهم ماهم فيه من الجهالات ، والضلالات ، واتباع الشهوات . ويخرجهم ، ويحيد بهم عن طريق الحق ، إلى الكفر ، والإفك. فجزاؤهم على ذلك: الخلود الأبدي في النار. والملاحظ أنه وحّد النور وجمع الظلمات ؛ لأن الحق واحد ، والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة .

المعنى الحرفي :

﴿ **الله ولي الذين آمنوا** ﴾أي : الله يتولى أمور مريدي الإيمان ، يوفقهم ويرعاهم ، وينصرهم . ومن ذلك : ﴿ **يخرجهم من الظلمات إلى النور** ﴾ أي : يخرجهم من كل ظلمة إلى نور الإيمان والهداية . وجمعت الظلمات ، لأنها كثيرة : ظلمة الكفر ، وظلمة النفاق ، وظلمة الشهوة ، وظلمة البدعة .

وهذه بشارة لمريدي الإيمان بأن الله يخرجهم من الشبه إن وقعت لهم بما يهديهم ، ويوفقهم له من حلها ، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين . ﴿ **والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت** ﴾ أي : ومريدوا الكفر ، والمصممون عليه ، يتولى أمورهم الشياطين . وكون الطاغوت خبراً لجمع ، فإنه يدل على جمع . فما أكثر شياطين الإنس والجن الذين شأنهم مع هؤلاء المصممين للكفر ، والمريدين له ماأخبر تعالى : ﴿ **يخرجونهم من النور إلى**

الظلمات ﴾ أي : يخرجونهم من نور الفطرة ، والعقل ، والإسلام ، إلى ظلمات الشك ، والشبهة ، والشهوة . ﴿ **أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ : خلوداً أبدياً .

فــوائــد :

١ - في كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) ذكرنا أن الخروج من الظلمات إلى النور ، لا يكون إلا بالله ، أخذاً من هذه الآية . وذلك بصلاة الله وملائكته علينا ، أخذاً من قوله تعالى : ﴿ **هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ (سورة الأحزاب) وقلنا هناك : إن علينا أن نعمل مايستدعي صلاة الله وملائكته علينا من الأعمال التي وردت في الكتاب ، أو السنَّة بأنها تستدعي ذلك . كالصبر ، والاسترجاع ، والصلاة على رسول الله ﷺ ، وحبس النفس بعد الصلاة ، والإنفاق في سبيل الله .

٢ - قلنا إن الفقرة الأولى من هذا المقطع مبدوءة بالأمر بالإنفاق ، ومنتهية بالحض على الإنفاق . ويتوسط فيها كلام عن الله ، وأدلة اليوم الآخر ، لصلة ذلك بالإنفاق . وقد رأينا آية الكرسي تحدثنا عن الله ، وهي مبدوءة بكلمة : (الله) وكذلك هذه الآية وبين ذلك آية لا إكراه . فماذا نستطيع أن نضيف هنا حول السياق ؟.

ا - إن الآية السابقة نهتنا عن الإكراه ، وحضتنا على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله . وهذه الآية تبشرنا أن إرادة ذلك توصلنا إلى الهدى . وإذ كان الهدى متوقفاً على الإرادة ، فذلك حكمة النهي عن الإكراه على الإسلام .

ب - رأينا أن الكمال في الكلام عن الله ، وصفاته العليا في آية الكرسي ، دليل على أن هذا الكتاب حق من عند الله ، فهو دليل إذن على الله أصلا . والآية هذه تدلنا على الله من خلال توفيقه مريدي الإيمان إلى الإيمان ، وتسليطه الشياطين على مريدي الكفر ، فيضلونهم .

ج - وإذا كان الله ولي الذين آمنوا .. أفلا ينبغي أن يبذل هؤلاء المؤمنون أموالهم في سبيله جل جلاله . وإذا كان ربنا كذلك .. أفلا ينبغي أن ندخل في الإسلام كله ، ونقيم شرائعه كلها .

﴿ ألم ترَ إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يُحيي ويُميت قال أنا أُحيي وأُميت . قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأْتِ بها من المغرب فَبُهتَ الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين ﴾ .

المعنى العام :

ألم ترَ يامحمد إلى الذي يجادل إبراهيم في وجود ربه ، وربوبيته وذلك أنه أنكر أن يكون ثَم إلّه غيره . وما حمله على هذا الطغيان ، والكفر الغليظ ، والمعاندة الشديدة ، إلا تجبّره ، وطول مدته في الملك . وكان طلب من إبراهيم دليلا على وجود الرب الذي يدعو إليه . فقال إبراهيم : إنما الدليل على وجوده ، وربوبيته ، ظاهرة الإحياء والإماتة . فظاهرة الإحياء والإماتة تدل على الله بما لايقبل جدلا ، إذ كيف تعلل ظاهرة الحياة ، والإماتة بدون الله . وقد تحدثنا في كتابنا (الله جل جلاله) عن ظاهرة الإحياء . وكيف أنها تدل على الله بما لايقبل جدلا ، فليراجع البحث هناك ، وقد استدل إبراهيم بهذه الظاهرة على وجود ربه ، وربوبيته ، لأنها أقرب الظواهر البديهية على وجود ربنا عز وجل ، فعند ذلك قال المحاجُّ : أنا أحيي وأميت . قال قتادة ، ومحمد بن إسحق ، والسدي ، وغير واحد : وذلك أني أُوتى بالرجلين ، قد استحقا القتل . فآمر بقتل أحدهما ، فيقتل . وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل . وليس هذا جواباً لما قال إبراهيم ، ولا في معناه ، لأنه غير مانع لوجود الصانع . وإنما أراد أن يدّعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ، ويوهم أنه الفاعل لذلك ، وأنه هو الذي يحيي ويميت . ولهذا قال إبراهيم لما ادّعى هذه المكابرة : **﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾** أي إذا كنت تدعي أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته، وتسخير كواكبه وحركاته . فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق . فإن كنت إلّهاً كما ادّعيت ، فأتِ بها من المغرب ؟ . فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، بهت . أي : أُخرس فلا يتكلم . وتلك سنَّة الله تعالى أنه لايلهم الظالمين حجة ، ولابرهاناً . بل حجتهم داحضة عند ربهم ، ومن ثَم فإن أبسط المؤمنين يقيم الحجة على أكثر الكافرين عناداً .

المعنى الحرفي :

﴿ ألم ترَ إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه ﴾ : الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد بالرؤية هنا : الرؤية القلبية والعلمية . والمحاجّة : هي المجادلة ، والمخاصمة ، ومجادلته كانت في

وجود ربه ، وربوبيته التي تقتضي الطاعة والعبودية والخضوع . والاستفهام فيه معنى التعجيب . وأي عجب أكبر من أن يبطر الإنسان النعمة . فبدلا من أن يشكر المنعم ، يكفر . وذلك أن سبب محاجة هذا الإنسان ، إبراهيم : ﴿ **أن آتاه الله الملك** ﴾ أي : لأن الله آتاه الملك . أي : إن إيتاءه الملك أبطره ، وأورثه الكبر ، فحاجَّ إبراهيم . ﴿ **إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت** ﴾ : هذا مضمون الحوار الذي تمَّ بين إبراهيم ، ونمرود . فكأن نمرود قال : من ربك ؟. فقال إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت ﴿**قال**﴾ نمرود : ﴿**أنا أحيي وأميت**﴾ : يريد– عليه اللعنة– أنه يعفو عن القتل، ويقتل. وجوابه هذا دليل على انقطاعه عن الخصومة ، وعجزه عن الجواب . فلما عاند اللعين حجة الإحياء بتخلية واحد ، وقتل آخر . كلّمه من وجه لايعانَد – وكانوا أهل تنجيم – فقال : إن مقتضى الربوبية : السيطرة ، والهيمنة على هذا الكون ، بتسخير أجرامه . فإن كنت رباً ، فغير حركة الشمس . ﴿ **قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق ، فأتِ بها من المغرب** ﴾ : **كلّمه** بحركة الشمس كما تبدو للناظر ﴿ **فَبُهِتَ الذي كفر** ﴾ أي : تحير ، ودهش . ﴿ **والله لايهدي القوم الظالمين** ﴾ أي : لا يوفقهم ولا يلهمهم حجة في مناقشة أهل الحق .

فـــوائـــد :

١ – دلت الآية على إباحة الكلام في علم التوحيد ، والمناظرة فيه . لأنه قال : ﴿ **ألم ترَ إلى الذي حاجَّ إبراهيم ...**﴾ والمحاجة تكون بين اثنين . فدل على أن إبراهيم حاجّه أيضاً ولو لم يكن مباحاً ، لما باشرها إبراهيم عليه السلام . لكون الأنبياء عليهم السلام معصومين عن ارتكاب الحرام . ولأنا أمرنا بدعاء الكفرة إلى الإيمان بالله وتوحيده . وإذا دعوناهم إلى ذلك لابد أن يطلبوا منا الدليل . وذا لايكون إلا بعد المناظرة . فمعرفة الأدلة على وجود الله ، ومعرفة الأدلة على بعثة الرسول ﷺ ، ومعرفة الأدلة على صحة دين الإسلام ، وإقامة الحجة بذلك على الكافرين . كل ذلك مطلوب محمود . وقد جمعنا في ذلك سلسلة الأصول الثلاثة : (الله جل جلاله) و (الرسول ﷺ) و (الإسلام) من أجل هذا .

٢ – محل هذه الآية في السياق واضح . ففي الآيات السابقة حديث عن الله . وفي هذه الآية عرض مناقشة بين رسول وكافر ، حول وجود الله ، وربوبيته ، وقيام الحجة

على الكافر بهذا ، وبيان أن الكافر لا حجة له ، والكافرون جميعاً لا حجة لهم . وخلال ذلك ذكرت ظاهرتان تدلان على الله : ظاهرة الحياة ، وظاهرة الهيمنة والتسخير. وكلاهما يدل على الله بما لايقبل جدلا من عاقل . فالسياق كما نرى ، سائر في طريق التعريف بالله ، والتدليل على وجوده ضمن سياق الأمر بالإنفاق في سبيله . وبعد الحديث عن الله بشكل مباشر ، يأتي حديث عن الله بما يخدم قضية الإيمان باليوم الآخر .

فصل في عصر إبراهيم عليه الصلاة والسلام والكلام على ما أبهمه القرآن :

لم يقدم لنا علم الآثار شيئاً يمكن من خلاله أن نحدد زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والنصوص الإسلامية ساكتة عن هذا الموضوع ، والروايات الكتابية لايمكن الاعتماد عليها في هذا الشأن أو غيره ، وقد نقل عباس محمود العقاد في كتابه (إبراهيم أبو الأنبياء) كل ماتوافر أمامه من معلومات حول سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ومن جملة مانقله كلام كثير من الشرّاح الذين حاولوا أن يستفيدوا من علم الآثار ، مضافاً إلى ماورد في كتب العهد القديم ليلقوا ضوءاً على عصر إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فذكر كيف أن بعضهم اعتبر عام (٣٠٠٠) قبل الميلاد هو الزمن الذي وجد فيه إبراهيم . بينما اعتبر بعضهم أن عام (٢٠٠٠) قبل الميلاد كان عصر إبراهيم ، وبعضهم اعتبر إبراهيم عليه الصلاة والسلام أحدث عهداً من ذلك ، وبعضهم اعتبر أن حمورابي هو الملك الذي دخل في حوار وصراع مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وحدد عصره بأنه القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وليس في ذلك كله ماتقوم به الحجة ، ويتحدث العقاد عن الكتب المعتمدة عند اليهود ، وهي أسفار موسى الخمسة التي يسميها بعضهم التوراة وهي حصيلة دمج ثلاث نسخ ، بعضها كتب في أيام المملكة الإسرائيلية ، وبعضها كتب في المنفى بين النهرين ، وبعضها كتب قبل الميلاد بثلاثة قرون ، ومن الكتب المعتمدة عند اليهود مايسمى بالمشنا ، والذي منه التلمود ، ويقول العقاد : وقد حصر المشنا في القرن الثاني للميلاد ودونت بعد الاعتماد على الرواية أو التعليقات المتفرقة » و« وزيدت على المشنا في العصور الحديثه كتب من قبيلها تسمّى بالتصافوت ... ومعناها الإضافات ... وانتهى تمحيص المشنا القديمة إلى اختيار طائفة من الأحكام المتفق عليها تسمى الجمارة أي التكملة . ومن مرويات المشنا والجمارة تجتمع كتب التلمود ... وتعرف بعض المأثورات الإسرائيلية باسم « المدراش » أو الدراسات » .

ومن كتب المدراش ينقل العقاد بعض قصة إبراهيم ، وبعض ماجرى بين إبراهيم عليه الصلاة والسلام والنمرود ، وبعض مانقله يتفق إلى حد كبير مع ماذكره القرآن ، ولذلك فقد شكك بعضهم أن تكون هذه مترجمة عن العربية ، وأيا ماكان الأمر فلا هذه الروايات ثابتة نقلا ، ولاهي صالحة حتى للاستئناس لنعرف شيئاً ما عن تفصيلات عصر إبراهيم عليه الصلاة والسلام أو لنعرف شيئاً عن الملك الذي حاجّه إبراهيم .

ومن عدم ذكر القرآن الكريم لتفصيلات هذه الشؤون تدرك أن العبرة المرادة من النص لاتحتاج إلى مثلها . وهذا الكلام ينطبق على النص اللاحق وغيره من أمثاله ، فالله عز وجل الذي جعل كتابه معجزاً جعله بذلك حجة على كل شيء ، ولئن حاول المفسرون أن يقدموا بياناً لكثير مما أبهمه القرآن فإنهم في كثير من الأحيان لم يستندوا على ماتقوم به حجة فمثلا سنرى في تفسير الآية اللاحقة كيف أن بعض المفسرين قال عن الرجل الذي أماته الله ثم أحياه أنه حزقيال ، وبعضهم قال : إنه أرميا ، وبعضهم قال : إنه عزير . وعن القرية قالوا : إنها بيت المقدس بعد تخريبها من بختنصر ، والأمر كله مرجعه إلى استقراءات لنصوص كتابية ، هذه النصوص نفسها لاتقوم بها حجة ، فكيف إذا بنيت الأقوال على استقراءات منها .

إن من رحمة الله بهذه الأمة أن جعل الحجة على صدق كتابه قائمة في نفس كتابه ، فلا ينبغي لأحد يفسر كتاب الله ألا يحتاط في شأن التفسير فيجعل للذين في قلوبهم مرض مدخلا يلجون منه للاعتراض على المسلمين .

إن كثيرين من المسلمين ولعوا في البحث عن المبهمات ؛ حتى أصبح الكلام عنها مقصوداً ، والسؤال عنها عادة مع أن كثيراً مما أبهمه القرآن إنما أبهم لأن الفائدة فيما فصّل، فتركت الاستفادة من الأصل ، وصار الناس يبحثون عما لا فائدة فيه . إن العبرة في القصة الآتية عن الرجل الذي أحياه الله بعد ما أماته هي في معرفة قدرة الله على البعث ، لتأكيد الإيمان باليوم الآخر ، فإذا غفل القلب عن هذا ، وبحث عن اسم الرجل ، ولون حماره ، فإنه يكون قد ترك ما من أجله خوطب إلى ما ليس مكلفاً به .

ولنعد إلى التفسير :

﴿ أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها . قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها . فأماته الله مائة عام ثم بعثه . قال كم لبثت . قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال

بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس . وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبيّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ .

المعنى العام :

هذه الآية معطوفة على التي قبلها . ففي الآية الأولى تعجيب من أن يجادل إنسان في ربوبية الله ، وبيان لانقطاع حجته أمام دلائل الفطرة . وفي هذه الآية تعجيب أن يستبعد إنسان قدرة الله على تقليب الأحوال فيحيي قرية خربة ، ليجعلها عامرة . وإذا قطعت فى الآية السابقة الحجة الجدال ، فههنا قطع الاستبعاد - فعل الله بهذا الإنسان ، إذ أماته مائة عام ثم أحياه ، ليرى أن ما استبعده قد حدث . فعلم من خلال المشاهدة لفعل الله في تغيير الأشياء من حال إلى حال ، قدرة الله على كل شيء ، وهذا الذي شاهده صاحب القصة يشاهده كل منا خلال التاريخ برؤيته تقلب الأحوال أحياناً على حسب التوقعات ، وأحياناً على خلاف التوقعات ضمن سنن الله . فمن لم يرَ قدرة الله من خلال مشاهداته لتصريف أمور خلقه ، تكون رؤيته كليلة .

وصاحب القصة إما (عزير) على القول المشهور الراجح ، وإما (أرميا) على قول . وإما (الخضر) على قول ، وإما (حزقيل) ، وإما أنه رجل من بني إسرائيل . وأما القرية .. قال ابن كثير : فالمشهور أنها بيت المقدس . مر عليها بعد تخريب بختنصر لها ، وقتل أهلها . ولم يذكر الله في كتابه ، ولا رسوله في سنته اسم الرجل أو القرية . لأن العبرة في المضمون .

المعنى الحرفي :

﴿ أو كالذي مرَّ على قرية ﴾ أي : أو أرأيت مثل الذي مرَّ على قرية . فهو مَثل معطوف على المثل السابق . وفيه تعجيب ، كما في المثل السابق تعجيب . **﴿ وهي خاوية على عروشها ﴾** : أي : وهي ساقطة مع سقوفها ، أو سقطت عليها الحيطان ، وكل مرتفع عرش . سقطت السقوف ثم سقطت الجدران ، أو هي خالية . ليس فيها أحد ، وسقوفها وجدرانها ساقطة على عرصاتها . فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة **﴿ قال أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها ﴾** : وذلك ، لما رأى من دثورها ، وشدة خرابها ، وبُعدها عن العَود إلى ماكانت عليه . وهل سؤاله من باب الاستبعاد . فيكون ذلك كفراً .

وصاحبه كافراً في الأصل – ولا يكون عزيراً المشهور باستقامته ؟ أو أنه من باب الاعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء ، واستعظام لقدرة المحيي ؟ أو أراد أن يعاين إحياء الموتى ، ليزداد بصيرة ؟ أو أنه سؤال عن سنّة الله في إحياء أمثال هذه ؟ وفي هذه الحالات ، يكون المتسائل مؤمناً وهو الأرجح . فيكون المعنى : كيف يحيي الله هذه القرية بعد هذا الموت فيها لاساكن ، ولا سكن . ﴿ **فأماته الله مائة عام ثم بعثه** ﴾ أي : أحياه . ﴿ **قال كم لبثت** ﴾ : القائل هنا ملك ، عن الله . قال : كم مكثت ؟ ﴿ **قال لبثت يوماً أو بعض يوم** ﴾ : قال ذلك مجتهداً . ويبدو أنه مات ضحى ، وبعث قبل غيبوبة الشمس . فقال يوماً ، أو بعض يوم . إذ رأى الشمس باقية . فظنها أنها شمس ذلك اليوم . ﴿ **قال بل لبثت مائة عام** ﴾ .

بعد هذا القول ، أراه عَجيبَيْن : طعامه لم يتغير ، بينما حماره تفرقت عظامه ونخرت . ﴿ **فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه** ﴾ أي : لم يتغير . ﴿ **وانظر إلى حمارك** ﴾ : كيف تفرقت عظامه ونخرت . وكيف يحييه الله وأنت تنظر . ﴿ **ولنجعلك آية للناس** ﴾ أي : دليلا على المعاد ، ودليلا على قدرة الله ﴿ **وانظر إلى العظام كيف ننشزها** ﴾أي كيف نحركها ، ونرفع بعضها إلى بعض للتركيب . ﴿ **ثم نكسوها لحماً** ﴾ أي : ثم نكسو العظام لحماً . ﴿ **فلما تبيَّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير** ﴾ : أي : فلما تبينت له قدرة الله ، قال : أعلم علم يقين ورؤية ، أن الله على كل شيء قدير ، فلا يعجز الله شيء .

فـــائـــدة :

نلاحظ أن السياق قد استمر في الكلام عن الله ، بالكلام عن قدرته على إحياء الموتى . فالكلام عن إحياء الموتى يأتي في سياق الكلام عن الله عز وجل في هذه الآية والتي تليها ، وفي هذا كله تذكير بالله ، واليوم الآخر ، لتأتي بعد ذلك آيات الإنفاق .

﴿ وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى . قال أوَلم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ .

المعنى العام :

يقول تعالى : واذكروا إذ سأل إبراهيم ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى . وقال العلماء : إن

إبراهيم لم يسأل ذلك شكّا ، أو تعنتاً ، وإنما سأله ؛ ليترقى بذلك من علم اليقين ، إلى عين اليقين . وأن يرى ذلك مشاهدة بعد أن رآه إيماناً ويقيناً . فسأله الله عز وجل – وقد علم أنه أثبت الناس إيمانا – : ﴿ **أوَلم تؤمن** ﴾ : فأجابه بالإيجاب . وبيّن إبراهيم سبب السؤال – والله أعلم به – أنه يسأل ذلك ليزداد سكوناً ، وطمأنينة ، فأمره الله عز وجل أن يأتي بأربعة طيور ، فيقطعها ، ويجزئُها . وأن يجعل على كل جبل جزءاً . قال ابن عباس : وأخذ رؤوسهن بيده . ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن ، كما أمره الله عز وجل . فجعل ينظر إلى الريش من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض ، حتى قام كل طائر على حدته ، وأتينه يمشين سعياً ، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها . وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه ، فإذا قدم له رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته . ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ **واعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾ أي : عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع منه شيء . وما شاء كان بلا ممانع ،لأنه القاهر لكل شيء . وحكيم في أقواله ، وأفعاله ، وشرعه ، وقدره .

المعنى الحرفي :

﴿ **وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أَوَلَمْ تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي** ﴾ : أي : سألت ذلك إرادة زيادة طمأنينة القلب . وذلك أن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب ، وأزيد للبصيرة . وإذا ما اجتمع علم الضرورة أي البديهة مع علم الاستدلال ، حصل عين اليقين . ﴿ **قال فخذ أربعة من الطير** ﴾ قال ابن كثير : اختلف المفسرون في هذه الأربعة ، ماهي . وإن كان لا طائل تحت تعيينها . إذ لو كان في ذلك مهم لنصّ عليه القرآن . ﴿ **فصرهن إليك** ﴾ أي : أمِلْهن ، واضممهن إليك ، وقطعهن . ﴿ **ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً** ﴾ أي : ثم جزئهن ، وفرّق أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك ، وفي أرضك . ﴿ **ثم ادعهن** ﴾ أي : قل لهن تعالين بإذن الله . ﴿ **يأتينك سعياً** ﴾ أي : يأتينك ساعيات مسرعات في طيَرانهن ، أو مشيهن على أرجلهن . وإنما أمره بضمها إلى نفسه بعد أخذها ليتأملها ويعرف أشكالها ، وهيآتها وحُلاها لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء ، ولا يتوهم أنها غير تلك . ﴿ **واعلم أن الله عزيز** ﴾ لايمتنع عليه مايريده . ﴿ **حكيم** ﴾ فيما يدبر . لايفعل إلا مافيه الحكمة .

فـــوائـــد :

١ – روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من

إبراهيم إذ قال ﴿ **رب أرني كيف تحيي الموتى قال أوَلَمْ تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي** ﴾ » قال ابن كثير : فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لاعلم عنده بلا خلاف . قال الخطابي : ليس في قوله : نحن أحق بالشك من إبراهيم ، اعتراف بالشك على نفسه ، ولا على إبراهيم . لكن فيه نفي الشك عنهما . يقول : إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، فإبراهيم أولى بأن لايشك . قال ذلك على سبيل التواضع ، والهضم للنفس .

٢ - روى الحاكم وغيره :

« التقى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص . فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص : أي آية في القرآن أرجى عندك : قال عبد الله بن عمرو : قول الله عز وجل : ﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا ...** ﴾ الآية . (سورة الزمر)فقال ابن عباس : لكن أنا أقول : قول الله عز وجل : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى** ﴾ . فرضي من إبراهيم قوله بلى . قال : فهذا لما يعترض في النفوس ، ويوسوس به الشيطان » قال الحاكم صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

ثم عاد السياق إلى الإنفاق :

﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لايتبعون ماأنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم** ﴾ .

بهذه الآيات يعود السياق إلى الإنفاق ، وقد جاءت هذه الآيات بعد آية تحدثت عن قدرة الله على الإحياء ؛ وهذا يذكر بإحيائه الموتى يوم القيامة . ومن قبل رأينا أن الآيات السابقة كانت حديثاً عن الله وصفاته ، ورعايته عباده . ثم قبل ذلك كان الأمر بالإنفاق . فكان تسلسل الآيات أمراً بالإنفاق في سبيل الله من قبل أن يأتي يوم القيامة . ثم كان حديثاً عن الله وقدرته التي لا يعجزها أن تقيم القيامة . والآن يأتي بيان جزاء الإنفاق في هذه الآيات ، ومن ذا الذي يستحق هذا الجزاء ، مع توجيهات في هذا الشأن .

المعنى العام :

- **في الآية الأولى** ، مثل ضربه الله لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله ، وأن الحسنة تضاعف إلى سبعمائة ضعف . وصيغ هذا المعنى بصيغة مَثَل : ﴿ **كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة** ﴾ . ليكون أبلغ في النفوس . فإن في هذا إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينمِّيها الله عز وجل لأصحابها ، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة ، ثم بيَّن الله عز وجل أنه يضاعف الحسنات لمن يشاء بحسب إخلاصه بعمله ، وأن فضله واسع كثير . وأنه عليم بمن يستحق ، ومن لا يستحق .

- **وفي الآية الثانية** ، يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون أموالهم في سبيله ثم لايتبعون ما أنفقوا في الخيرات ، والصدقات منًّا على من أعطوه . فلا يمنُّون به على أحد ، لا بقول ، ولا بفعل . ولا يؤذونه ، بأن يفعلوا مع من أحسنوا إليه مكروهاً . وبين أن من كان كذلك ، فله الجزاء الجزيل ؛ الذي عبّر عنه تعالى بقوله : ﴿ **لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ : أي ثوابهم على الله ، لا على سواه . ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على ماخلفوه من الأولاد ، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها . لا يأسفون عليها ؛ لأنهم صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك . وهذه العبارة تستعمل في القرآن عادة ، في معرض مكافأة أولياء الله ، فدل ذلك على أن من أنفق فلم يمنّ ولم يؤذ ؛ كان من أولياء الله . فهذا المقام إذن ، مقام ولاية .

- **وفي الآية الثالثة** بين الله عز وجل أن القول المعروف ، كالكلمة الطيبة ، للمسلم . وأن العفو عن أخيك ، إذا ظلمك ظلماً قولياً ، أو فعلياً ، خير في ميزان الله ، من الصدقة المتبوعة بالأذى ، ثم وصف الله عز وجل ذاته بأنه غني عن عباده ؛ فلم يأمرهم بالإنفاق افتقاراً . فهو يخلف على من أنفق من خزائنه الملأى ، وأنه حليم يحلم عنهم ويغفر ويصفح ، ويتجاوز عن عباده إن شاء .

المعنى الحرفي :

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ﴾ . أي : مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة أخرجت ساقاً ، يتشعب منه سبع شعب لكل واحد سنبلة ... وهذا التمثيل تصوير للأضعاف ، كأنها ماثلة بين عيني الناظر . والتمثيل يصح وإن لم يوجد على سبيل الفرض والتقدير . وقيد بعضهم سبيل الله الذي تضاعف فيه الصدقة بأنها الجهاد والحج . والنصوص تشهد على أن المضاعفة للإنفاق كله ، كما سنرى . فسبيل الله هنا ، أوسع من أن يكون جهاداً وحجاً فقط . **﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾** أي : يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء ، لا لكل منفق . لتفاوت أحوال المنفقين . ويمكن أن تفهم بمعنى : أو يزيد على سبعمائة ضعف لمن يشاء . **﴿ والله واسع عليم ﴾** أي : واسع الفضل ، والجود . عليم بنيات المنفقين . **﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لايتبعون ماأنفقوا منًّا ولا أذى ﴾** المن : هو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ، ويريه أنه اصطفاه ، وأوجب عليه حقاً له . ولذلك كان آدابهم : إذا صنعتم صنيعة فانسوها . والأذى هو أن يتطاول عليه بسبب ما أعطاه . **﴿ لهم أجرهم عند ربهم ﴾** : أي ثواب إنفاقهم . **﴿ ولا خوف عليهم ﴾** : من بخس الأجر ، أو فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ، أو من العذاب . **﴿ ولاهم يحزنون ﴾** : على ماخلفوه ، أو على فوت أجر ، أو على فوت ثواب . **﴿ قول معروف ﴾** أي : رد جميل ، أو كلمة طيبة . **﴿ ومغفرة ﴾** أي : عفو عن السائل إذا أثقل . أو مغفرة من الله بسبب الرد الجميل المذكور سابقاً . **﴿ خير من صدقة يتبعها أذى ﴾** كالتطاول ، والكلام المسيء . **﴿ والله غني ﴾** : لاحاجة له إلى منفق يمنّ ، ويؤذي . **﴿ حليم ﴾** : عن معاجلة من يمن ويؤذي بالعقوبة .

فــوائــد :

١ - روى الإمام أحمد عن ابن مسعود أن رجلا تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله . فقال رسول الله ﷺ : « لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة » . وروى مثله النسائي ، ومسلم .

٢ - روى مسلم ، والإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل

عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ماشاء الله . يقول الله : إلا الصوم . فإنه لي ، وأنا أجزي به . يدع طعامه ، وشرابه من أجلي . للصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، الصوم جنة ، الصوم جنة » . هذا لفظ أحمد .

ولنلاحظ في الحديث قوله ﷺ : « إلى سبعمائة ضعف ، إلى ماشاء الله » . لندرك أن عند الله المزيد . وهذا يرجح أنه يدخل في تفسير قوله تعالى : ﴿ **والله يضاعف لمن يشاء** ﴾ الزيادة على السبعمائة .

ثم يأتي في موضوع الإنفاق قوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر . فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لايهدي القوم الكافرين * ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطَل والله بما تعملون بصير * أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** ﴾ .

المعنى العام :

– **في الآية الأولى** ، نهي لنا أن نبطل صدقاتنا بالمن والأذى ، كما يفعل ذلك المرائي الذي لايؤمن بالله ، واليوم الآخر . ويُظهر أنه يريد وجه الله . وإنما قصده مدح الناس له . أو شهرته بالصفات الجميلة ، ليُشكرَ بين الناس ، أو يقال إنه كريم ، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية مع قطع نظره عن معاملة الله ، وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه . ثم ضرب الله مثلا لذلك المرائي ومشابهته في بطلان الصدقة ، بذاك الذي يتبع نفقته منّاً أو أذى ، فمثله كمثل صخر أملس عليه تراب ، فأصاب الصخر مطر شديد . فترك المطر الشديد هذا الصخر أملس يابساً ، لاشيء عليه من ذلك التراب . بل قد ذهب كله . أي وكذلك أعمال المرائين وأمثالهم ، تذهب وتضمحل عند الله ، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب. ولكنهم لا يجدون ثواب شيء مما أنفقوه عند الله. ثم بيَّن الله عز

وجل أن من شأنه ألا يهدي الكافر ، مادام مختاراً لطريق الكفر ، ومصمّماً عليه .

- **وفي الآية الثانية** ، ضرب الله مثلا للمؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله عنهم في ذلك . ومن أجل أن يُثبِّتوا أنفسهم على طريق الإيمان بالله واليوم الآخر ، بفعل ما يقربهم إلى الله . فمثل هؤلاء ، كمثل بستان في مكان مرتفع من الأرض . أصابها مطر شديد ، فآتت ثمرتها ضعفين بالنسبة إلى غيرها من الجنان . فإن لم يصبها مطر شديد ، أصابها رذاذ ، وهو اللين من المطر . فشأن هذه الجنة ، أنها لا تمحل أبداً لأنها إن لم يصبها المطر الشديد ، فالرذاذ . وأيًّا ما كان فهو كفايتها .

وكذلك عمل المؤمن ، لايبور أبداً . بل يتقبله الله ، ويكثره ، وينمّيه ، لكل عامل بحسبه . ثم بين الله عز وجل بأن الله لايخفى عليه من أعمال عباده شيء .

- **وفي الآية الثالثة** ، ينكر الله عز وجل أن يكون المؤمن من ذلك الطراز الذي يفعل الحسن ، ثم يغرقه بالسيئات فيبطله . فإذا ما احتاج إليه في أضيق الأحوال ، لم يحصل منه شيء ، وخانه أحوج ماكان إليه . والمثل الذي ضربه لذلك مثل رجل تكون له جنة من نخيل وأعناب ، وأصابه الكِبَر ، وأولاده وذريته ضعاف ، عند آخر عمره . فجاءه إعصار فيه نار فاحترق بستانه . فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله ، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه . وكذلك الكافر ومن يعمل مايحبط عمله يكون يوم القيامة ، إذا رُدَّ إلى الله عز وجل ، ليس له خير فيستعتب ، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه . ولا يجده قدّم لنفسه خيراً يعود عليه . كما لم يغن عن هذا ولده . وحرم أجره غداً أفقر ماكان إليه ، كما حرم هذا جنته عندما كان أفقر ماكان إليها عند كبره ، وضعف ذريته . وهذا من أصعب الأحوال . ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه : « اللهم اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سني ، وانقضاء عمري » رواه الحاكم . ثم بيّن الله عز وجل في نهاية الآية أنه يبين لنا آياته من أجل أن نتفكر فنعتبر ، ونفهم الأمثال ، والمعاني ، وننزلها على المراد منها .

المعنى الحرفي :

﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ : معنى رئاء الناس . أي : من أجل أن يراه الناس . صار المعنى : يأيها الذين آمنوا لاتبطلوا ثواب صدقاتكم بالمنّ والأذى إبطالا مثل إبطال

المنافق الذي لا أجر له على إنفاقه ؛ لأنه ينفق ماله رئاء الناس ، ولايريد بإنفاقه رضا الله ، ولا ثواب الآخرة . ﴿ **فمثله كمثل صفوان عليه تراب** ﴾ أي : مثل هذا المرائي ، وأشباهه ممن يبطلون ثواب أعمالهم ، ومثل نفقتهم التي لاينتفعون بها البتة ، كمثل حجر أملس ، عليه تراب . فالصفوان : هو الحجر الأسود . قيل بأنه جمع صفوانة . وقيل إنه مفرد . ﴿ **فأصابه وابل فتركه صلداً** ﴾ : الوابل هو المطر العظيم القطر . والصلد : هو الأجرد النقي من التراب الذي كان عليه . ﴿ **لايقدرون على شيء مما كسبوا** ﴾ أي : لا يجدون ثواب شيء مما أنفقوا . ﴿ **والله لايهدي القوم الكافرين** ﴾ ماداموا مختارين للكفر .

﴿ **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم** ﴾ هذا مثل لمن ينفقون جامعين بين ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيت أنفسهم . ومعنى : ﴿ **وتثبيتاً من أنفسهم** ﴾ : ينفقون تثبيتاً من أنفسهم لأنفسهم . فهو مصدّق بالإسلام ، متحقق به ، موقن به . ومن أجل أن تُثبِّت نفسه ذاتها على ماهي عليه من الحق . فإنها تعمل الأعمال الصالحة ، وتنفق في سبيل الله . فالمعنى دقيق . وعبارات المفسرين في شرح (تثبيتاً) تدور حول حيثية من الحيثيات المذكورة . فقالوا في تفسيرها : تصديقاً للإسلام ، وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم . لأنه إذا أنفق المسلم ماله في سبيل الله ، علم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ، ومن إخلاص قلبه . وهذا يعني أنهم يثبتون إيمانهم بفعلهم هذا أمام الله من تلقاء أنفسهم . ومنهم من فسر التثبيت بالتثبت . فهم متثبتون ، ومتحققون أن الله سيجزيهم على ذلك وافر الجزاء ، من باب الحديث الصحيح المتفق على صحته : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً ... » أي يؤمن أن الله شرعه . ويحتسب عند الله ثوابه . وقالوا غير ذلك . وإنما قدمنا المعنى الأول لأنه من باب : « والصدقة برهان » . فهؤلاء يبرهنون على إيمانهم بالله بإنفاقهم المال الذي هو عزيز ، وحبيب للنفس في سبيل الله ، دون أي غرض آخر . ﴿ **كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أُكُلها ضعفين . فإن لم يصبها وابل فطَلّ** ﴾ : الجنة : البستان . والربوة : المكان المرتفع . والبستان في المكان المرتفع ، أزكى شجراً وأحسن ثمراً . والوابل : المطر الشديد ، العظيم القطر . والطل : المطر الصغير القطر . وهو يكفي هذه البستان ، لعلوها وكرم منبتها . وقد مثل الله عز وجل نفقة هؤلاء في زكاتها عند الله بمثل هذه الجنة . إما أنها تؤتي أكلها ضعفين ، بسبب الوابل . أو تؤتي أكلها العادي ، بسبب الطل . أو أنه جل جلاله مثّل حالهم عند الله ، بالجنة على الربوة . ونفقتهم

الكثيرة والقليلة ، بالوابل والطل . وكما أن كل واحد من المطرين ، يضعف أُكُل الجنة ، فكذلك نفقتهم ، كانت كثيرة ، أو قليلة ، بعد أن يطلب بها رضى الله تعالى ، زاكية عند الله ، زائدة في زلفاهم ، وحسن حالهم عنده . ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ أي : يرى أعمالكم على إكثار وإقلال ، ويعلم نياتكم وما فيها من رياء وإخلاص.
﴿ **أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات** ﴾ أي : أيريد أحدكم أن تكون له بستان من نخيل وأعناب . تجري من تحت هذه البستان الأنهار ، ولصاحب الجنة ، في هذه الجنة من كل الثمرات ، وخص النخيل والأعناب بالذكر ، لأنهما أكرم الشجر ، وأكثر منافع ، وإن كانت محتوية على سائر الأشجار تغليباً لهما على غيرهما . ثم أردفهما بذكر كل الثمرات . ﴿ **وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء** ﴾ أي : أيريد أن تكون له جنة . والحال أنه قد أصابه الكبر ، وأولاده صغار . ﴿ **فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت** ﴾ الإعصار في اللغة : ريح تستدير في الأرض ، ثم تسطع نحو السماء كالعمود . والمراد هنا وضع مركب يجتمع فيه الإعصار مع النار . أي : فأصاب هذه البستان إعصار ناري فأحرقها . الجواب : إنه لا أحد يريد ذلك . فإذا كنا لانريد ذلك . فلا نحبط أعمالنا الصالحة ، برياء ، أو منٍّ ، أو أذى ، حتى لا نتحسر مثل هذه الحسرة يوم القيامة . إذ نكون أحوج مانكون إلى الحسنات ، ولا حسنات . ﴿ **كذلك يبيِّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** ﴾ أي : كهذا البيان الذي مر فيما تقدم ، يبيِّن الله الآيات في التوحيد والدين ، لعلكم تتفكرون فتنتبهون ، قبل أن لا ينفع الانتباه ..

فــوائــد :

١ – في صحيح مسلم عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ، ولاينظر إليهم ، ولايزكيهم ، ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى . والمسبل إزاره . والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » . وروى ابن مردويه عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ قال: « لايدخل الجنة عاق ، ولا منان ، ولا مدمن خمر ، ولامكذّب بقدر » . وروى النسائي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « لايدخل الجنة مدمن خمر ، ولا عاق لوالديه ولا منان » .

٢ – روى البخاري عن عبيد الله بن عمير قال : قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ : « فيمن ترون هذه الآية نزلت ﴿ **أيود أحدكم أن تكون له جنة**

من نخيل وأعناب ﴾؟ . قالوا : الله أعلم . فغضب عمر . فقال : قولوا : نعلم أو لا نعلم . فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء ياأمير المؤمنين فقال عمر : ياابن أخي . قل ولا تحقر نفسك . فقال ابن عباس : لرجل غني يعمل بطاعة الله . ثم بعث الله له الشيطان ، فعمل بالمعاصي ، حتى أغرق أعماله ».

وبعد أن حررنا الله في المجموعة السابقة من أن يكون في صدقاتنا دَخَل ، أو يرافقها دَخَل يفسدها .. تأتي مجموعة جديدة ، تحدثنا عن نوعية ما ينبغي إنفاقه ، وعن صدقة السر ، وصدقة العلانية ، وعن الذين تنبغي الصدقة لهم . ثم تختم آيات الإنفاق بقاعدة فيها بشارة . ويأتي خلال ذلك كلام عن نواح أخرى ، مرتبطة بالموضوع . وهذه هي المجموعة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ

أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

المعنى العام :

في الآية الأولى يأمر الله عباده المؤمنين بالإنفاق من أطيب المال ، وأجوده وأنفسه . ونهاهم عن التصدق برذالة المال ، ودنيئه ، وخبيثه . فإن الله طيب لايقبل إلا طيباً . وذلك أن الإنسان نفسه لو أُعْطي دنيء المال لم يأخذه ، إلا إذا تغاضى فيه ، وتساهل . فالله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا لله ماتكرهون . ثم أمرهم الله عز وجل بأن يعلموا بأن الله غني عن جميع خلقه . وجميع خلقه فقراء إليه . وهو واسع الفضل ، لاينفد ماالديه . فمن تصدق بصدقة من كسب طيب ، فليعلم أن الله غني ، واسع العطاء ، كريم ، جواد . وسيجزيه بها ، ويضاعفها له أضعافاً كثيرة . وأن يعلموا أنه الحميد . أي : المحمود في جميع أفعاله ، وأقواله ، وشرعه ، وقدره ، لا إله إلا هو ، ولا ربّ سواه .

وفي الآية الثانية يبيّن الله عز وجل أن الشيطان يخوفنا الفقر لنمسك ما بأيدينا فلا ننفقه في مرضاة الله . ومع نهيه إيانا عن الإنفاق خشية الإملاق ، يأمرنا بالمعاصي ، والمآثم ، والمحارم ، ومخالفة الخلّاق . وفي مقابلة ما يأمرنا به الشيطان من الفحشاء . الله يعدنا مغفرة منه . وفي مقابلة مايخوفنا الشيطان من الفقر ، الله يعدنا فضله . ثم بين الله عز وجل أنه الواسع الذي يوسع على من يشاء ، العليم بالأفعال ، والنيّات . ومن سعة فضله ، ماذكره في الآية الثالثة من أنه يؤتي من يشاء الحكمة . وذلك أثر عن علمه المحيط إذ لايوفِّق الإنسان إلى فعل الأحكم في كل شيء ؛ إلا المحيط علماً بكل شيء . ومن ثم بينت الآية الثالثة أنه هو الذي يعطي الحكمة من شاء من عباده ، فما هي الحكمة ؟ . وما هي قيمتها ؟ . الحكمة : وضع الأمور في مواضعها ، وهذا لايكون إلا بفقه في دين

الله ، وتوفيق من الله بألا يقول الإنسان كلمة إلا في محلها ، ولايعمل عملا إلا في محله ، فيُلْهم الحكيم وضع الأمور في مواضعها في إطار تعامله مع زوجته ، وأولاده ، وأهله ، وأرحامه ، وجيرانه ، وعمله ، ومسؤولياته ، سواء كانت على مستوى ضيق ، أو واسع . وإن الإنسان ليتصرف التصرف الأخرق في إطار الأسرة ، فتخرب بيوت . ويتصرف تصرفاً على مستوى دولة إن كان مسؤولا ، فتخرب أوطان . ومن ثم كانت قيمة الحكمة عظيمة جداً ، ولذلك قال تعالى في هذه الآية : ﴿ **ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾ .

ثم ذيل الله تعالى هذه الآية بتبيان أنه لا ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لبّ ، وعقل يعي به الخطاب ومعنى الكلام .

وفي الآية الرابعة يخبر تعالى أنه عالم بجميع مايفعله العاملون من الخيرات من النفقات ، والمنذورات . وفي ذلك إشعار بمجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين ، ابتغاء وجهه ، ورجاء موعوده . وفيها وعيد لمن لايعمل بطاعته ، بأن خالف أمره ، وكذّب خبره ، وعبد معه غيره بقوله : ﴿ **وما للظالمين من أنصار** ﴾ أي : يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته . **وفي الآية الخامسة** ، ثناء على صدقة السر ، وصدقة الجهر . وأشعر أن صدقة السر أفضل . لأنهاأبعدعن الرياء ، وأبعد عن كسر القلوب . وبيّن أن من موجبات تكفير السيئات ، بذل الصدقات . وختم الآية بتذكيرنا أنه لايخفي عليه سرنا ، وجهرنا . وأنه سيجزينا عليه .

وفي الآية السادسة بيان لعدم ربط الصدقات بموضوع الهداية . فلنتصدق ولو لم يترتب على ذلك هداية من نتصدق عليهم ، ولو لم يكونوا مهتدين . وهذا في غير الزكاة ، وصدقة الفطر ؛ إذ لاتجوزان إلا للمسلمين . أو أن مقدمة الآية تشير إلى أن الرسول عليه البلاغ . ومن اهتدى فلنفسه والذي يخلق الهداية ، ويوفق إليها ، هو الله . ثم حصر الله عز وجل ، فجعل الذي ينتفع بالإنفاق صاحبه . ثم بين أن المسلم ينفق في سبيل الله ، وليس عليه بعد ذلك مايكون من عمل المتصدَّق عليه ، سواء كان بَراً ، أو فاجراً . مستحقاً ، أو غيره . فهو مثاب على قصده . فإن الله عز وجل وعد من أنفق خيراً أن يوفيه له كاملا ، وبذلك ختمت الآية .

وفي الآية السابعة بين الله عز وجل أنّ أحق الخلق بالصدقات هم المهاجرون الذين انقطعوا إلى الله ، وإلى رسوله . وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم مايغنيهم . ولا

يستطيعون سفراً للتسبب في طلب المعاش . وهم مع هذا متعففون ، يظنهم الجاهل بأمرهم وحالهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم وفعالهم . إلا أن سيماهم تدل ذوي الألباب على حاجتهم . ومن صفاتهم أنهم لا يلحون في المسألة ، ولا يكلفون الناس مالا يحتاجون إليه ثم ختم الله عز وجل الآية بقوله : ﴿ **وماتنفقوا من خير فإن الله به عليم** ﴾ أي : لايخفى عليه شيء منه . وسيجزي عليه أوفر الجزاء ، وأتمه يوم القيامة أحوج مايكون الإنسان إليه .

وفي الآية الثامنة يثني الله عز وجل على الذين ينفقون في سبيله ، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقاف ، من ليل أو نهار . وفي جميع الأحوال من سر وجهر ، وبيّن ما لهم عند الله في مقابل ذلك . وأن لهم أجراً ، وأمناً ، وفرحاً .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم** ﴾ أي : أنفقوا من جياد مكسوباتكم . وفيه دليل على وجوب الزكاة في أموال التجارة . ﴿ **ومما أخرجنا لكم من الأرض** ﴾ أي من الحب ، والثمر ، والمعادن . والتقدير : من طيبات ماأخرجنا لكم من الأرض . وهذه الآية من أدلة الحنفية على وجوب الزكاة في كل ما يخرج من الأرض قليلاً أو كثيراً ، مخزوناً أو غير مخزون . وفي كل مكان يدور فيه الخلاف حول الواجب ، أو عدمه . يبقى الندب قائماً . ﴿ **ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون** ﴾ : المراد بالتيمم : هو القصد . أي : ولا تقصدوا المال الردىء تخصونه بالإنفاق منه . ﴿ **ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه** ﴾ . أي : وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم ، إلا أن تتسامحوا في أخذه ، وتترخّصوا فيه . ﴿ **واعلموا أن الله غني حميد** ﴾ أي : واعرفوا أن الله غني عن صدقاتكم ، مستحق للحمد لكمالاته ، ولإنعامه .

فـــوائـــد :

١ - روي الحاكم وغيره في سبب نزول الآية عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « نزلت في الأنصار كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر ، فعلقوه على حبل بين الاسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ ، فيأكل فقراء المهاجرين منه . فيعمد الرجل منهم إلى الحشف (أي ردىء التمر) فيدخله مع أقناء

البسر ، يظن أن ذلك جائز . فأنزل الله : ﴿ **ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون** ﴾ .

٢ - فهم بعضهم قوله تعالى : ﴿ **أنفقوا من طيبات ماكسبتم** ﴾ : أن المراد به الأمر بالإنفاق من الكسب الحلال . ولاشك أن الإنفاق من الحلال نحن مطالبون به شرعاً . ولكن الآية معناها ، ماذكرناه بدليل سبب النزول . ولذلك قال عبد الله بن مغفل في هذه الآية ﴿ **ولا تيمّموا الخبيث** ... ﴾ : (كسب المسلم لايكون خبيثاً . ولكن لايتصدق بالحشف ، والدرهم الزيف ، وما لاخير فيه) .

وبهذه المناسبة ننقل حديثاً ، وفتوى ، حول الإنفاق من الحرام .

أما الحديث فما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قسَّم بينكم أخلاقكم ، كما قسَّم بينكم أرزاقكم . وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لايحب . ولايعطي الدين إلا لمن أحب . فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه . والذي نفسي بيده ، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه . ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه . قالوا : وما بوائقه يانبي الله ؟ . قال : غشّه ، وظلمه ، ولا يكسب عبد مالا من حرام ، فينفق منه ، فيبارك له فيه . ولا يتصدق به ، فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار . إن الله لايمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن . إن الخبيث لا يمحو الخبيث » .

وأما الفتوى : يقول فقهاء الحنفية : من تصدَّق بدرهم حرام ينوي به القربة لله ، يكفر . وإذا علم به الفقير ، فدعا له ، يكفر . ومن أمّن على دعائهما يكفر . فمن كان عنده مال حرام فلينفقه بنية التخلص منه لابنية الصدقة .

﴿ **الشيطان يعدكم الفقر** ﴾ : في الإنفاق . أي : يقول لكم : إن عاقبة إنفاقكم ، أن تفتقروا . والوعد يستعمل للخير ، وللشر . ﴿ **ويأمركم بالفحشاء** ﴾ أي : يغريكم على البخل ، ومنع الصدقات ، إغراء الآمر بالمأمور . ﴿ **والله يعدكم مغفرة منه وفضلا** ﴾ أي : والله يعدكم مغفرة لذنوبكم ، وكفارة لها . وأن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم في الدنيا والآخرة . ﴿ **والله واسع عليم** ﴾ : يوسع على من يشاء ، عليم بالأفعال ، والنيّات .

فـــائــدة :

روى النسائي والترمذي ، وابن حبان ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه – وهو حديث حسن – قال رسول الله ﷺ : « إن للشيطان لمّة بابن آدم ، وللملك لمّة . فأما لمّة الشيطان ، فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق . وأما لمّة الملك ، فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق . فمن وجد ذلك ، فليعلم أنه من الله . ومن وجد الأخرى ، فليتعوَّذ من الشيطان . ثم قرأ : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء . والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً** ﴾ ﴿ **يؤتي الحكمة من يشاء** ﴾ الحكمة : علم الكتاب والسنَّة ، والعمل بهما . ووضع الأمور في مواضعها . ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾ أي : ومن يعطه الله الحكمة ، فقد أعطاه من الخير أعظمه . ﴿ **وما يذَّكّر إلا أولوا الألباب** ﴾ أي : وما يتعظ بمواعظ الله ، إلا ذوو العقول السليمة .

فــوائــد :

١ – الصلة بين هذه الآية وما قبلها أنها ندب إلى أن نضع الإنفاق في محله .

٢ – للمفسرين عبارات كثيرة في شرح الحكمة . ومرجعها إلى ماذكرناه . قال ابن عباس : (الحكمة : القرآن) . يعني تفسيره – أما مجرد القراءة والحفظ – فإنه قد قرأه البَرُّ ، والفاجر . وقال مجاهد في تفسيرها : (العلم ، والفقه ، والقرآن) . وقال أبو مالك : (الحكمة : السنَّة) .

ويشهد لهذا كله الحديث الصحيح الذي رواه ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لاحسد إلا في اثنتين . رجل آتاه الله مالا ، فسلطه على هلكته في الحق . ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ويعلّمها » . رواه البخاري ومسلم ، وغيرهما . فهذا الحديث يشهد على أن الحكمة يدخل فيها الفقه في الكتاب والسنَّة ، والدين عامة ، ويشهد على أن الحكمة : العلم بكتاب الله ، وصف الله عز وجل كتابه بأنه حكيم : ﴿ **والقرآن الحكيم** ﴾ (سورة يسٓ) ويشهد على أن المراد بالحكمة السنَّة قوله تعالى :

﴿ **واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة** ﴾ (سورة الأحزاب) وما كن يسمعن في بيوتهن مع القرآن ، إلا السنَّة .

وقال إبراهيم النخعي : الحكمة : الفهم . وقال زيد بن أسلم : الحكمة : العقل وقال مالك : وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هي الفقه في دين الله . وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله . ومما يُبيّن ذلك تجد الرجل عاقلا في أمر الدنيا . إذا نظر فيها . وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه ، عالماً بأمر دينه ، بصيراً به ، يؤتيه الله إياه ، ويحرمه هذا . فالحكمة : الفقه في دين الله .

وقال مجاهد : الحكمة : الإصابة في القول . وقال أبو العالية : الحكمة : خشية الله . فإن خشية الله رأس كل حكمة . والأمر الجامع لهذا كله ، هو ما فسرنا به الحكمة ، أنها العلم بالكتاب والسنَّة والعمل بهما ، ووضع الأمور في مواضعها . فمن اجتمع له هذا فقد اجتمعت له الحكمة .

٣ - قال السدي : (الحكمة : النبوة) . ولاشك أن أحكم الحكماء هم الأنبياء ، ولكن كما قال ابن كثير : والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور ، لاتختص بالنبوة . بل هي أعمّ منها ، وأعلاها النبوة . والرسالة أخص . ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع ، كما جاء في بعض الأحاديث : « من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه ، غير أنه لايوحى إليه » .

ونختم هذه الفائدة بتفسير ابن عباس للحكمة في الآية . قال : المعرفة بالقرآن ، ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله .

﴿ **وما أنفقتم من نفقة** ﴾ : في سبيل الله ، أو في سبيل الشيطان . ﴿ **أو نذرتم من نذر** ﴾ : في طاعة الله ، أو في معصيته . ﴿ **فإن الله يعلمه** ﴾ أي : لايخفى عليه . وهو مجازيكم عليه . ﴿ **وما للظالمين** ﴾ : الذين يمنعون الصدقات ، أو ينفقون أموالهم في المعاصي ، أو ينذرون في المعاصي ، أو لايفون في النذور . ﴿ **من أنصار** ﴾ أي : ليس لهم من ينصرهم من الله ، ويمنعهم من عقابه .

فـــائــدة :

لايجب الوفاء بالنذر عند الحنفية ، إلا إذا كان المنذور من جنسه واجب ، ولا شك أن الإنفاق من جنسه واجب ، وهو الزكاة ، وصدقة الفطر ، فمن نذر أن يتصدق ، فقد وجب عليه أن يتصدق . وسنبحث مسائل النذر عند قوله تعالى : ﴿ **وليوفوا نذورهم** ﴾ في سورة الحج ، إن شاء الله .

﴿ **إن تبدوا الصدقات فَنِعِمَّا هي** ﴾ أي : إن تظهروا الصدقات فنعم شيء إظهارها . ﴿ **وإن تُخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم** ﴾ . أي : وإن تُسِرُّوا بها ، مع إصابة مصارفها من الفقراء ، فالإخفاء خير لكم . قالوا : المراد بهذه الخيرية في صدقة السر ، صدقات التطوع . والجهر في الفرائض أفضل ، لنفي التهمة . حتى إذا كان المزكي ممن لا يعرف باليسار ، كان إخفاؤه أفضل . والمتطوع إن أراد أن يقتدي به الناس ، كان إظهاره أفضل . ﴿ **ويكفِّر عنكم من سيئاتكم** ﴾ : في حالتي الإسرار والجهر بالصدقة . ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ أي : عالم بما تبدون وما تخفون .

فـــوائـــد :

١ - قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : جعل الله صدقة السر في التطوع ، تفضل علانيتها ؛ يقال بسبعين ضعفاً . وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها ؛ يقال بخمسة وعشرين ضعفاً .

٢ - ومما ورد في صدقة السر :

ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لاظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل قلبه مُعلّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ماتنفق يمينه » .

وروى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « لما خلق الله الأرض ، جعلت تميد ، فخلق

الجبال ، فألقاها عليها ، فاستقرت . فتعجبت الملائكة من خلق الجبال . فقالت : يا ربّ : هل في خلقك شيء أشدّ من الجبال ؟ قال : نعم . الحديد . قالت : ياربّ فهل من خلقك شيء أشدّ من الحديد ؟ . قال : نعم . النار : قالت : ياربّ فهل من خلقك شيء أشدّمن النار ؟ . قال : نعم . الماء . قالت : ياربّ . فهل من خلقك شيء أشدّ من الماء ؟ . قال : نعم . الريح . قالت : ياربّ . فهل من خلقك شيء أشدّ من الريح ؟ . قال : نعم . ابن آدم يتصدق بيمينه ، فيخفيها من شماله » .

وقد مرّ معنا عند الكلام عن آية الكرسي حديث أبي ذر قال : قلت : يارسول الله . أي الصدقة أفضل ؟ . قال : « سر إلى فقير ، أو جهد من مقل » .

٣ - قال الشعبي في هذه الآية : ﴿ **إن تبدوا الصدقات ...** ﴾ : أنزلت في أبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما . أما عمر ، فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي ﷺ . فقال له النبي ﷺ : « ماخلفت وراءك لأهلك ياعمر » ؟ قال : خلفت لهم نصف مالي . وأما أبو بكر . فجاء بماله كله ، يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه إلى النبي ﷺ . فقال له النبي ﷺ : « ما خلفت وراءك لأهلك ياأبا بكر » ؟. فقال : عِدَةُ الله ، وعِدَةُ رسوله . فبكى عمر رضي الله عنه ، وقال : بأبي أنت وأمي ياأبا بكر . والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقاً .

﴿ **ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ أي : لايجب عليك أن تجعل الناس مهديين ، وإنما عليك أن تبلغهم النواهي فحسب . فالتوفيق إلى الهدى أو خلقه لله تعالى . وما مناسبة هذا النّص لآيات الإنفاق ؟ يبين هذا سبب النزول . روى النسائي عن ابن عباس قال : كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا ، فرخّص لهم . فنزلت هذه الآية : ﴿ **ليس عليك هداهم ...**﴾ .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن النبي ﷺ : أنه كان يأمر بأن لايتصدق إلا على أهل الإسلام ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **ليس عليك هداهم ...** ﴾ فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين . وإنما تصح الصدقة على غير المسلمين إذا كانت صدقة تطوع . وإذا صحت الصدقة على غير المسلم . فمن باب أولى على الفاسق

المسلم . ﴿ **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم** ﴾ الخير هنا : المال . أي : وما تنفقوا من مال فهو لأنفسكم . لاينتفع به غيركم . فلا تلاحظوا إلا الله في إنفاقكم . ولا تروا لأنفسكم على الناس فضلا بإنفاقكم عليهم . ﴿ **وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله** ﴾ أي : وليست نفقتكم إلا من أجل رضوان الله ، وطلب ماعنده . فإذا كان الأمر كذلك ، فأعطوه حقه من هضم نفس ، وعَدمِ منّ أو أذى . وقال بعض المفسرين : هذا نفي ، معناه النهي ﴿ **وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ وما تنفقوا من مال يوفكم الله ثوابه أضعافاً مضاعفة ، دون أن تنقصوا منه شيئاً فلا عذر لكم أن ترغبوا عن الإنفاق ، ولا عذر لكم ألا يكون على أحسن الوجوه ، وأجملها .

فـــائـــدة :

قال عطاء الخراساني : إذا أعطيت لوجه الله ، فلا عليك ماكان عمله . ويؤيد هذا ، ماورد في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال رجل لأتصدقنّ الليلة بصدقة . فخرج بصدقته ، فوضعها في يد زانية . فأصبح الناس يتحدثون : تُصدِّق على زانية. فقال: اللهم لك الحمد، على زانية؟ لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد غني . فأصبحوا يتحدثون : تُصدِّق الليلة على غني . قال : اللهم لك الحمد ، على غني ؟ لأتصدقن الليلة بصدقة ، فخرج بصدقته ، فوضعها في يد سارق . فأصبحوا يتحدثون : تُصدِّق الليلة على سارق . فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، وعلى غني ، وعلى سارق، فأُتي فقيل له : إن صدقتك قد قبلت . وأما الزانية ، فلعلها أن تستعفف بها عن زناها ، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله ، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته » .

ولكن لاينبغي أن يغيب عنا ، أنه لئن رخص الله لنا أن ننفق على كل خلق الله ، فلقد ندبنا أن نخصّ بها الأقرب ، والأتقى ، والأورع . مر معنا مثل هذا من قبل . وفي الآية التالية بيان .

﴿ **للفقراء الذين ...** ﴾ أي : هذه الصدقات ، الأوْلى أن تدفعوها للفقراء الذين اتصفوا بالصفات التالية : الإحصار في سبيل الله ، والعجز عن الكسب ، والتعفف ،

والسيما الدالة ، وعدم الإلحاح في المسألة . فإذا اجتمعت هذه الصفات ، فأصحابها أوْلى الناس بالصدقات . فإذا اجتمعت أربع صفات منها ، يكون أصحابها في الدرجة الثانية . فثلاثة ، فدرجة ثالثة . فاثنتان ، فدرجة رابعة . فواحدة مع الفقر ، فصاحبها أولى . ثم الفقراء فيما بعد . فإذا اتضح هذا ، فلنشرح الآية :

﴿ **للفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله** ﴾ أي : الذين أحصرهم الجهاد ، فمنعهم من التصرف . ﴿ **لايستطيعون ضرباً في الأرض** ﴾ . أي : لايستطيعون سفراً للتسبب في طلب المعاش . والضرب في الأرض : هو السفر . وسبب احتباسهم ، إما انقطاع للعلم ، أو عدم حيلة ، أو تفرغ لأمر من أمور المسلمين . ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفُّف** ﴾ أي : يحسبهم الجاهل بحالهم ، مستغنين من أجل تعففهم عن المسألة . ﴿ **تعرفهم بسيماهم** ﴾ . أي : بصفاتهم التي تدل على حالهم ، من صفرة الوجوه ، ورثاثة الحال . ﴿ **لا يسألون الناس إلحافاً** ﴾ أي : إلحاحاً . والإلحاح : هو لزوم المسؤول وعدم مفارقته إلا بشيء يُعطاه . قيل في تفسير هذه الصفة : إنهم لايسألون أصلا . وقيل إنهم إن سألوا ، سألوا بتلطف . ﴿ **وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم** ﴾ أي : وما تنفقوا من مال ، فإن الله يعلمه ، ولا يضيع عنده .

فـــوائـــد :

١ - قلنا من اجتمعت له هذه الصفات ، فهو أوْلى الناس بالصدقات . ثم الأقل فالأقل . ولذلك نلاحظ أن رسول الله ﷺ لفت النظر إلى من اتصف ببعض هذه الصفات ، كي نخصه . ومن ذلك مارواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس المسكين بهذا الطَّوَّاف الذي ترده التمرة ، والتمرتان ، واللقمة ، واللقمتان ، والأُكلة ، والأُكلتان . ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » .

٢ - وهناك مظهر من مظاهر الإلحاف ، لايعتبر من باب الإلحاف اللغوي ولكنه إلحاف شرعي . وذلك أن الإلحاح أثر من آثار الطمع . ولذلك أدخل الشارع في باب الإلحاف ما كان أثراً عن الطمع . وذلك أن يسأل الإنسان ، وله مايملك . ومما ورد في

ذلك : روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائي عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال : سرحتني أمي إلى رسول الله ﷺ : أسأله . فأتيته ، فقعدت . قال فاستقبلني فقال : من استغنى أغناه الله ، ومن استعف أعفه الله ، ومن استكفى كفاه الله ، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف » قال : فقلت : ناقتي الياقوتة خير من أوقية . فرجعت فلم أسأله . وروى ابن مردويه عن رسول الله ﷺ قال : « من سأل وله أربعون درهماً فهو ملحف ، وهو مثل سف الملّة » يعني الرمل . ورواه النسائي كذلك .

٣ - ويحرم على الإنسان أن يسأل أصلا إذا كان له مايكفيه . قال رسول الله ﷺ : « من سأل وله مايغنيه ، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً ، أو كدوحاً في وجهه » قالوا : يارسول الله : وما غناه ؟ قال : « خمسون درهماً ، أو حسابها من الذهب » . رواه أحمد ، وأصحاب السنَن الأربعة .

﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾ أي : الذين ينفقون أموالهم في كل الأحوال ، والأوقات ، لحرصهم على الخير ، مسرين ومعلنين ، في ليل أو نهار . فكلما نزلت بهم حاجة محتاج ، عجلوا قضاءها ولم يؤخروه ، ولم يتعللوا بوقت ، ولاحال . فهؤلاء لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون . وقد مر معناها من قبل . والملاحظ أن الجواب هنا مسبوق بالفاء . وذلك لتضمن ماقبله معنى الشرط . فكأننا نفهم من ذلك أن الذين لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، هم من تحققوا بهذه الصفة ، من كونهم منفقين في كل حال .

روى ابن مردويه عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب كان له أربعة دراهم . فأنفق درهماً ليلا ، ودرهماً نهاراً ، ودرهماً سراً ، ودرهماً علانية .

وبهذا ننتهي من الكلام عن الفقرة الأولى في المقطع الثاني ، لتأتي معنا فقرة تتحدث عن الربا ، والصلة بين هاتين الفقرتين واضحة جداً . فالجانب المقابل للإنفاق في سبيل الله ، هو الربا . فبقدر مايدل الإنفاق في سبيل الله على النفس الخيرة ، يدل الربا على النفس الشريرة الجشعة المستغلة . فإذ حضّ الله على الإنفاق ، كان من المناسب أن يحذّر عما يقابله . ولذلك تلاحظ أنه لم يفصل بين نهاية الفقرة السابقة ، وبداية الفقرة

اللاحقة بفاصل من نداء وغيره . بل تظهر الفقرة التالية ، وكأنها استمرار لما قبلها ، فلننتقل للحديث عن الفقرة الثانية .

الفقرة الثانية من المقطع الثاني من القسم الثالث

تمتد هذه الفقرة من الآية (٢٧٥) إلى نهاية الآية (٢٨١) . وهذه هي :

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾

وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

كلمة في هذه الفقرة :

قلنا إن الملامح الرئيسية للنظام المالي في الإسلام قد تحدث عنها هذا المقطع وأن هذه الملامح هي : أن الإسلام نظام زكوي ، لا ربوي . وأنه ذو معاملات منضبطة . وإذا كان هذا المقطع يعطينا هذا بشكل عام ، فإنه يعرض مايعرضه على تسلسل معين .

إن الإنفاق يدلل على نفسية مؤمنة بالله ، واليوم الآخر . فهو عَلَم على نفسية مُؤْثِرة . بينما يقف في الصف المقابل لذلك المرابون الذين لا يعطون أموالهم إلا بمقابل من الربح دون أن يتحملوا حتى احتمال الخسارة . فهم مصاصوا دماء ومستغلون .

وفي وسط آيات الربا ، يذكر الله الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، لينتشل المرابي من حمأة ما هو فيه . وينتهي الحديث عن الربا بالتذكير باليوم الآخر . ومن عادة المدافعين عن الربا ، أنهم دائماً يتساءلون عن البديل . ومن ثَم تأتي آية الديْن ، وهي آية السَلم لتدل على البديل كما سنرى .

وكل ذلك يأتي في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله ، والنهي عن اتباع خطوات الشيطان .

ولنقدم لتفسير آيات الربا بكلام لصاحب الظلال :

« الوجه الآخر المقابل للصدقة التي عرض دستورها في الدرس الماضي .. الوجه الكالح الطالح هو الربا !

الصدقة عطاء وسماحة ، وطهارة وزكاة ، وتعاون وتكافل .. والربا شح وقذارة ودنس ، وأثرة وفردية .. والصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا رد . والربا استرداد للديْن ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه . من جهده إن كان قد عمل بالمال الذي استدانه فربح نتيجة لعمله هو وكده ، ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر ، أو كان قد أخذ المال للنفقة منه على نفسه وأهله ولم يستربحه شيئاً ..

ومن ثَم فهو – الربا – الوجه الآخر المقابل للصدقة .. الوجه الكالح الطالح ، لهذا عرضه السياق مباشرة بعد عرض الوجه الطيب ، السمح ، الطاهر ، الجميل ، الودود ! عرضه عرضاً منفّراً ، يكشف عما في عملية الربا من قبح وشناعة ، ومن جفاف في القلب وشر في المجتمع ، وفساد في الأرض وهلاك للعباد . ولم يبلغ من تفظيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية مابلغ من تفظيع الربا . ولابلغ من التهديد في اللفظ والمعنى مابلغ التهديد في أمر الربا – في هذه الآيات وفي غيرها في مواضع أخرى – ولله الحكمة البالغة . فلقد كانت للربا في الجاهلية مفاسده وشروره . ولكن الجوانب الشائهة القبيحة من وجهه الكالح ما كانت كلها بادية في مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت في عالمنا الحاضر ، ولا كانت البثور والدمامل في ذلك الوجه الدميم مكشوفة كلها كما كشفت اليوم في مجتمعنا الحديث . فهذه الحملة المفزعة البادية في هذه الآيات على ذلك النظام المقيت ، تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع في حياة البشرية ، أشد مما كانت متكشفة في الجاهلية الأولى . ويدرك – من يريد أن يتدبر حكمة الله ، وعظمة هذا الدين ، وكمال هذا المنهج ، ودقة هذا النظام – يدرك اليوم من هذا كله مالم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مرة . وأمامه اليوم من واقع العالم مايصدّق كل كلمة تصديقاً حيّاً مباشراً واقعاً . والبشرية الضالة التي تأكل الربا وتؤكله تنصب عليها البلايا الماحقة الساحقة من جراء هذا النظام الربوي ، في أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها .. وتتلقى – حقّاً – حرباً من الله تصبّ عليها النقمة والعذاب .. أفراداً وجماعات ، وأمماً وشعوباً ، وهي لا تعتبر ولا تفيق ! .

وحينما كان السياق يعرض في الدرس السابق دستور الصدقة كان يعرض قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي يريد الله للمجتمع المسلم أن يقوم عليه ،

ويحب للبشرية أن تستمتع بما فيه من رحمة .. في مقابل ذلك النظام الآخر الذي يقوم على الأساس الربوي الشرير القاسي اللئيم .

إنهما نظامان متقابلان : النظام الإسلامي . والنظام الربوي ! وهما لايلتقيان في تصور ! ولايتفقان في أساس ؛ ولا يتوافقان في نتيجة .. إن كلا منهما يقوم على تصور للحياة والأهداف والغايات يناقض الآخر تمام المناقضة . وينتهي إلى ثمرة في حياة الناس تختلف عن الأخرى كل الاختلاف .. ومن ثَم كانت هذه الحملة المفزعة ، وكان هذا التهديد الرعيب ! .

إن الإسلام يقيم نظامه الاقتصادي — ونظام الحياة كلها — على تصور مُعين يمثل الحق الواقع في هذا الوجود . يقيمه على أساس أن الله سبحانه هو خالق هذا الكون . فهو خالق هذه الأرض وهو خالق هذا الإنسان .. هو الذي وهب كل موجود وجودَه ..

وأن الله — سبحانه — وهو مالك كل موجود — بما أنه هو موجده — قد استخلف الجنس الإنساني في هذه الأرض ؛ ومكنه مما ادخر له فيها من أرزاق وأقوات ومن قوى وطاقات ، على عهد منه وشرط . ولم يترك له هذا الملك العريض فوضى ، يصنع فيه ما يشاء كيف شاء . وإنما استخلفه فيه في إطار من الحدود الواضحة .

استخلفه فيه على شرط أن يقوم في الخلافة وفق منهج الله ، وحسب شريعته ، فما وقع منه من عقود ، وأعمال ، ومعاملات ، وأخلاق ، وعبادات ، وفق التعاقد فهو صحيح نافذ ، وما وقع منه مخالفاً لشروط التعاقد فهو باطل . فإذا أنفذه قوة وقسراً فهو إذن ظلم واعتداء لايقرّه الله ولا يقرّه المؤمنون بالله . فالحاكمية في الأرض — كما هي في الكون كله — لله وحده . والناس — حاكمهم ومحكومهم — إنما يستمدون سلطاتهم من تنفيذهم لشريعة الله ومنهجه ، وليس لهم — في جملتهم — أن يخرجوا عنها ، لأنهم إنما هم وكلاء مُستخلَفون في الأرض بشرط وعهد ، وليسوا مُلّاكاً خالقين لما في أيديهم من أرزاق .

من بين بنود هذا العهد أن يقوم التكافل بين المؤمنين بالله ، فيكون بعضهم أولياء بعض ، وأن ينتفعوا برزق الله الذي أعطاهم على أساس هذا التكافل — لا على قاعدة

الشيوع المطلق كما تقول الماركسية . ولكن على أساس الملكية الفردية المقيدة - فمن وهبه الله منهم سعة أفاض من سعته على من قُدِر عليه رزقه . مع تكليف الجميع بالعمل كل حسب طاقته واستعداده وفيما يسره الله - فلا يكون أحدهم كَلًّا على أخيه ، أو على الجماعة وهو قادر كما بينا ذلك من قبل . وجعل الزكاة فريضة في المال مُحدّدة . والصدقة تطوعاً غير محدّدة. وقد شرط عليهم كذلك أن يلتزموا جانب القصد والاعتدال ، ويتجنبوا السرف والشطط فيما ينفقون من رزق الله الذي أعطاهم ؛ وفيما يستمتعون به من الطيبات محدودة بحدود الاعتدال . وتظل فضلة من الرزق معرضة لفريضة الزكاة وتطوع الصدقة . وبخاصة أن المؤمن مطالب بتثمير ماله وتكثيره .

وشرط عليهم أن يلتزموا في تنمية أموالهم وسائل لاينشأ عنها الأذى للآخرين ، ولا يكون من جرائها تعويق أو تعطيل لجريان الأرزاق بين العباد ، ودوران المال في الأيدي على أوسع نطاق « كي لايكون دولة بين الأغنياء منكم » ...

وكتب عليهم الطهارة في النية والعمل ، والنظافة في الوسيلة والغاية ، وفرض عليهم قيوداً في تنمية المال لاتجعلهم يسلكون إليها سبلا تؤذي ضمير الفرد وخُلُقه ، أو تؤذي حياة الجماعة وكيانها .

وأقام هذا كله على أساس التصور الممثل لحقيقة الواقع في هذا الوجود ؛ وعلى أساس عهد الاستخلاف الذي يحكم كل تصرفات الإنسان المستخْلَف في هذا الملك العريض . ومن ثَم فالربا عملية تصطدم ابتداء مع قواعد التصور الإيماني إطلاقا ، ونظام يقوم على تصور آخر . تصور لانظر فيه لله سبحانه وتعالى . ومن ثم لارعاية فيه للمبادىء والغايات والأخلاق التي يريد الله للبشر أن تقوم حياتهم عليها .

إنه يقوم ابتداء على أساس أن لاعلاقة بين الله وحياة البشر . فالإنسان هو سيد هذه الأرض ابتداء ، وهو غير مقيّد بعهد من الله ، وغير ملزم باتباع أوامر الله !! ثم إن الفرد حُرّ فى وسائل حصوله على المال ، وفى طرق تنميته ، كما هو حُرّ فى التمتع به . غير ملتزم في شيء من هذا بعهد من الله أو شرط ، وغير مقيد كذلك بمصلحة الآخرين ومن ثم فلا اعتبار لأن يتأذى الملايين إذا هو أضاف إلى خزانته ورصيده مايستطيع إضافته . وقد

تتدخل القوانين الوضعية أحياناً في الحد من حريته هذه - جزئياً - في تحديد سعر الفائدة مثلاً ، وفي منع أنواع من الاحتيال والنصب والغصب والنهب والغش والضرر . ولكن هذا التدخل يعود إلى مايتواضع عليه الناس أنفسهم ، وماتقودهم إليه أهواؤهم ، لاإلى مبدأ ثابت مفروض من سلطة إلهية !

كذلك يقوم على أساس تصور خاطىء فاسد . هو أن الغايات للوجود الإنساني هي تحصيله للمال - بأية وسيلة - واستمتاعه به على النحو الذي يهوى ! ومن ثم يتكالب على جمع المال وعلى المتاع به ، ويدوس في الطريق كل مبدأ وكل صالح للآخرين !!

ثم ينشىء في النهاية نظاماً يسحق البشرية سحقاً ، ويشقيها في حياتها أفراداً وجماعات ودولا وشعوباً ، لمصلحة حفنة من المرابين ، ويحطمها أخلاقياً ونفسياً وعصبياً ، ويحدث الخلل في دورة المال ، ونمو الاقتصاد البشري نمواً سوياً .. وينتهي - كما انتهى في العصر الحديث - إلى تركيز السلطة الحقيقية والنفوذ العملي على البشرية كلها في أيدي زمرة من أحط خلق الله ، وأشدهم شراً ، وشرذمة ممن لايرعون في البشرية إلًّا ولا ذمّة ، ولا يراقبون فيها عهداً ولا حرمة .. وهؤلاءهم الذين يداينون الناس أفراداً ، كما يداينون الحكومات والشعوب - في داخل بلادهم وفي خارجها - وترجع إليهم الحصيلة لجهد البشرية كلها ، وكد الآدميين وعرقهم ودمائهم ، في صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم فيها جهداً . وهم لايملكون المال وحده .. إنما يملكون النفوذ .. ولما لم تكن لهم مبادىء ، ولا أخلاق ، ولا تصور ديني وأخلاقي على الإطلاق ، بل لما كانوا يسخرون من حكاية الأديان ، والأخلاق ، والمثل والمبادىء ، فإنهم بطبيعة الحال يستخدمون هذا النفوذ الهائل الذي يملكون في إنشاء الأوضاع والأفكار والمشروعات التي تمكنهم من زيادة الاستغلال ، ولا تقف في طريق جشعهم وخسَّة أهدافهم .. وأقرب الوسائل هي تحطيم الأخلاق البشرية ، وإسقاطها في مستنقع آسن من اللذائذ والشهوات ، التي يدفع الكثيرون آخر فلس يملكونه ، حيث تسقط الفلوس في المصائد والشباك المنصوبة ! وذلك مع التحكم في جريان الاقتصاد العالمي وفق مصالحهم المحدودة ، مهما أدى هذا إلى الأزمات الدورية المعروفة في عالم الاقتصاد ، وإلى انحراف

الإنتاج الصناعي والاقتصادي كله عما فيه مصلحة المجموعة البشرية إلى مصلحة المموِّلين المرابين ، الذين تتجمع في أيديهم خيوط الثروة العالمية !.

والكارثة التي تمت في العصر الحديث – ولم تكن بهذه الصورة البشعة في الجاهلية – هي أن هؤلاء المرابين – الذين كانوا يتمثلون في الزمن الماضي في صورة أفراد أو بيوت مالية كما يتمثلون الآن في صورة مؤسسي المصارف العصرية – قد استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها ، وبما يملكون من وسائل التوجيه والإعلام في الأرض كلها .. سواء في ذلك الصحف والكتب والجامعات والأساتذة ومحطات الإرسال ودور السينما وغيرها .. أن ينشئوا عقلية عامة بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك المرابون عظامهم ولحومهم ، ويشربون عرقهم ودمائهم في ظل النظام الربوي .. هذه العقلية العامة خاضعة للإيحاء الخبيث المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعي المعقول ، والأساس الصحيح الذي لا أساس غيره للنمو الاقتصادي ، وأنه من بركات هذا النظام وحسناته كان هذا التقدم الحضاري في الغرب . وأن الذين يريدون إبطاله جماعة من الخياليين – غير العمليين – وأنهم إنما يعتمدون في نظرتهم هذه على مجرد نظريات أخلاقية ومُثُل خيالية لارصيد لها من الواقع ، وهي كفيلة بإفساد النظام الاقتصادي كله لو سمح لها أن تتدخل فيه ! حتى ليتعرض الذين ينتقدون النظام الربوي من هذا الجانب للسخرية من البشر الذين هم في حقيقة الأمر ضحايا بائسة لهذا النظام ذاته ! ضحايا شأنهم شأن الاقتصاد العالمي نفسه . الذي تضطره عصابات المرابين العالمية لأن يجري جرياناً غير طبيعي ولا سَوِي . ويتعرض للهزات الدورية المنظمة ! وينحرف على أن يكون نافعاً للبشرية كلها ، إلى أن يكون وقفاً على حفنة من الذئاب قليلة .

إن النظام الربوي نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة – وقد بلغ من سوئه أن تنبه لعيوبه بعض أساتذة الاقتصاد الغربيين أنفسهم ، وهم قد نشأوا في ظله ، وأُشربت عقولهم وثقافتهم تلك السموم التي تبثها عصابات المال في كل فروع الثقافة والتصور والأخلاق . وفي مقدمة هؤلاء الأساتذة الذين يعيبون هذا النظام من الناحية الاقتصادية البحتة « دكتور شاخت » الألماني ومدير بنك الرايخ الألماني سابقاً . وقد كان مما قاله في

محاضرة له في دمشق ١٩٥٣ أنه بعملية رياضية (غير متناهية) يتضح أن جميع المال في الأرض صائر إلى عدد قليل جداً من المرابين . ذلك أن الدائن المرابي يربح دائماً في كل عملية ، بينما المدين معرّض للربح والخسارة . ومن ثَم فإن المال كله في النهاية لابد بالحساب الرياضي – أن يصير إلى الذي يربح دائماً ! وأن هذه النظرية في طريقها للتحقق الكامل . فإن معظم مال الأرض الآن يملكه – ملكاً حقيقياً – بضعة ألوف ! أما جميع الملاك ، وأصحاب المصانع الذين يستدينون من البنوك ، والعمال وغيرهم ، فهم ليسوا سوى أجراء يعملون لحساب أصحاب المال ، ويجني ثمرة كدّهم أولئك الألوف .

وليس هذا وحده كل ما للربا من جريرة . فإن قيام النظام الاقتصادي على الأساس الربوي يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين في التجارة والصناعة علاقة مقامرة ومشاكسة مستمرة . فإن المرابي يجتهد في الحصول على أكبر فائدة . ومن ثم يمسك المال حتى يزيد اضطرار التجارة والصناعة إليه فيرتفع سعر الفائدة ؛ ويظل يرفع السعر حتى يجد العاملون في التجارة والصناعة أنه لافائدة لهم من استخدام هذا المال ، لأنه لا يدرّ عليهم مايوفون به الفائدة ويفضل لهم منه شيء .. عندئذٍ ينكمش حجم المال المستخدَم في هذه المجالات التي تشتغل فيها الملايين ، وتضيق المصانع دائرة إنتاجها ، ويتعطل العمال ، فتقل القدرة على الشراء . وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد ، ويجد المرابون أن الطلب على المال قد نقص أو توقف ، يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطراراً . فيقبل عليه العاملون في الصناعة والتجارة من جديد ، وتعود دورة الحياة إلى الرخاء .. وهكذا دواليك تقع الأزمات الاقتصادية الدورية العالمية . ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة .!

ثم إن جميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين . فإن أصحاب الصناعات والتجار لايدفعون فائدة الأموال التي يقترضونها بالربا إلا من جيوب المستهلكين ، فهم يزيدونها في أثمان السلع الاستهلاكية فيتوزع عبؤها على أهل الأرض لتدخل في جيوب المرابين في النهاية . أما الديون التي تقترضها الحكومات من بيوت المال لتقوم بالإصلاحات والمشروعات العمرانية فإن رعاياها هم الذين يؤدون فائدتها للبيوت الربوية

كذلك . إذ إن هذه الحكومات تضطر إلى زيادة الضرائب المختلفة لتسدد منها هذه الديون وفوائدها . وبذلك يشترك كل فرد في دفع هذه الجزية للمرابين في نهاية المطاف .. وقلما ينتهي الأمر عند هذا الحد ، ويكون الاستعمار هو نهاية الديون .. ثم تكون الحروب بسبب الاستعمار ! ونحن هنا – في ظل القرآن – لانستقصي كل عيوب النظام الربوي فهذا مجاله بحث مستقل – فنكتفي بهذا القدر لنخلص منه إلى تنبيه من يريدون أن يكونوا مسلمين إلى جملة حقائق أساسية بصدد كراهية الإسلام للنظام الربوي المقيت :

الحقيقة الأولى : التي يجب أن تكون مستيقنة في نفوسهم أنه لا إسلام يبيح قيام نظام ربوي في مكان . وكل مايمكن أن يقوله أصحاب الفتاوى من رجال الدين أو غيرهم سوى هذا دجل وخداع . فأساس التصور الإسلامي – كما بينا – يصطدم اصطداماً مباشراً بالنظام الربوي ، ونتائجه العملية في حياة الناس وتصوراتهم وأخلاقهم .

والحقيقة الثانية : أن النظام الربوي بلاء على الإنسانية – لا في إيمانها وأخلاقها وتصورها للحياة فحسب – بل كذلك في صميم حياتها الاقتصادية والعملية . وأنه أبشع نظام يمحق سعادة البشرية محقاً ، ويعطّل نموها الإنساني المتوازن ، على الرغم من الطلاء الظاهري الخدّاع ، الذي يبدو كأنه مساعدة من هذا النظام للنمو الاقتصادي العام ! .

والحقيقة الثالثة : أن النظام الأخلاقي والنظام العملي في الإسلام مترابطان تماماً ، وأن الإنسان في كل تصرفاته مرتبط بعهد الاستخلاف وشرطه ، وأنه مُختَبر ومُبتلَى ومُمتحَن في كل نشاط يقوم في حياته ، ومحاسَب عليه في آخرته . فليس هناك نظام أخلاقي وحده ، ونظام عملي وحده ، وإنما هما معاً يؤلفان نشاط الإنسان ، وكلاهما عبادة يؤجر عليها إن أحسن ، وإثْم يؤاخذ عليه إن أساء . وأن الاقتصاد الإسلامي الناجح لا يقوم بغير أخلاق ، وأن الأخلاق ليست نافلة يمكن الاستغناء عنها ثم تنجح حياة الناس العملية .

والحقيقة الرابعة : أن التعامل الربوي لا يمكن إلا أن يُفسد ضمير الفرد وأخلاقه ،

وشعوره تجاه أخيه في الجماعة ، وإلا أن يفسد حياة الجماعة البشرية وتضامنها بما يبثّه من روح الشر ، والطمع والأثرة والمخاتلة والمقامرة بصفة عامة . أما في العصر الحديث فإنه يُعَد الدافع الأول لتوجيه رأس المال إلى أحط وجوه الاستثمار . كي يستطيع رأس المال المستدان بالربا أن يربح ربحاً مضموناً ، فيؤدي الفائدة الربوية ويفضل منه شيء للمستدين ، ومن ثَم فهو الدافع المباشر لاستثمار المال في الأفلام القذرة والصحافة القذرة ، والمراقص والملاهي والرقيق الأبيض وسائر الحرف والاتجاهات التي تحطم أخلاق البشرية تحطيماً .. والمال المستدَان بالربا ليس همّه أن ينشيء أنفع المشروعات للبشرية ، بل همُّه أن ينشيء أكثرها ربحاً . ولو كان الربح إنما يجيء من استثارة أحط الغرائز وأقذر الميول .. وهذا هو المشاهد اليوم في أنحاء الأرض . وسببه الأول هو التعامل الربوي !! ..

والحقيقة الخامسة : أن الإسلام نظام متكامل . فهو حين يحرم التعامل الربوي يقيم نظمه كلها على أساس الاستغناء عن الحاجة إليه ، وينظم جوانب الحياة الاجتماعية بحيث تنتفي منها الحاجة إلى هذا النوع من التعامل ، بدون مساس بالنمو الاقتصادي والاجتماعي والإنساني المطرد .

والحقيقة السادسة : أن الإسلام – حين يُتاح له أن ينظم الحياة وفق تصوره ومنهجه الخاص – لن يحتاج عند إلغاء التعامل الربوي ؛ إلى إلغاء المؤسسات والأجهزة لنمو الحياة الاقتصادية العصرية نموها الطبيعي السليم . ولكنه فقط سيطهرها من لوثة الربا ودنسه . ثم يتركها تعمل وفق قواعد أخرى سليمة . وفى أول هذه المؤسسات والأجهزة : المصارف والشركات وما إليها من مؤسسات الاقتصاد الحديث .

والحقيقة السابعة : – وهي الأهم – ضرورة اعتقاد من يريد أن يكون مسلماً بأن هناك استحالة اعتقادية في أن يحرّم الله أمراً لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه ! كما أن هناك استحالة اعتقادية كذلك في أن يكون هناك أمر خبيث ويكون في نفس الوقت ذاته حتمياً لقيام الحياة وتقدمها .. فالله سبحانه هو خالق هذه الحياة ، وهو مستخلف الإنسان فيها ، وهو الآمر بتنميتها وترقيتها ؛ وهو المريد لهذا كله الموفّق إليه . فهناك

استحالة إذن في تصور المسلم أن يكون فيما حرّمه الله شيء لاتقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه . وأن يكون هناك شيء خبيث هو حتمي لقيام الحياة ورقيّها .. وإنما هو سوء التصور ، وسوء الفهم والدعاية المسمومة الخبيثة الطاغية التي دأبت أجيالا على بث فكرة : أن الربا ضرورة للنمو الاقتصادي والعمراني ، وأن النظام الربوي هو النظام الطبيعي . وبثّ هذا التصور الخادع في مناهل الثقافة العامة ، ومنابع المعرفة الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها .. ثم قيام الحياة الحديثة على هذا الأساس فعلا بسعي بيوت المال والمرابين . وصعوبة تصور قيامها على أساس آخر . وهي صعوبة تنشأ أولاً من عدم الإيمان . كما تنشأ ثانياً من ضعف التفكير وعجزه عن التحرر من ذلك الوهم الذي اجتهد المرابون في بثّه وتمكينه بما لهم من قدرة على التوجيه ، وملكية للنفوذ داخل الحكومات العالمية ، وملكية لأدوات الإعلام العامة والخاصة .

والحقيقة الثامنة : أن استحالة قيام الاقتصاد العالمي اليوم وغداً على أساس غير الأساس الربوي .. ليست سوى خرافة ، أو هي أكذوبة ضخمة تعيش لأن الأجهزة التي يستخدمها أصحاب المصلحة في بقائها أجهزة ضخمة فعلا ! وأنه حين تصح النية ، وتعزم البشرية – أو تعزم الأمم المسلمة – أن تسترد حريتها من قبضة العصابات الربوية العالمية ، وتريد لنفسها الخير والسعادة والبركة ، مع نظافة الخلق وطهارة المجتمع ، فإن المجال مفتوح لإقامة النظام الآخر الرشيد ، الذي أراده الله للبشرية ، والذي طُبق فعلا ، ونمت الحياة في ظله فعلا ، وما تزال قابلة للنمو تحت إشرافه وفي ظلاله ، لو عقل الناس ورشدوا !! .

وليس هناك مجال تفصيل القول في كيفيات التطبيق ووسائله .. فحسبنا هذه الإشارات المجملة . وقد تبين أن شناعة العملية الربوية ليست ضرورة من ضرورات الحياة الاقتصادية ، وأن الإنسانية التي انحرفت عن النهج قديماً حتى ردها الإسلام إليه ، هي الإنسانية التي تنحرف اليوم الانحراف ذاته ، ولا تفيء إلى النهج القويم الرحيم السليم .

المعنى العام للمجموعة الأولى في فقرة الربا :

لما ذكر الله تعالى ، الأبرار المؤدين النفقات ، المخرجين الزكوات ، المتفضلين بالبرّ ، والصدقات لذوي الحاجات ، والقرابات ، في جميع الأحوال ، والأوقات ، شرع في ذكر أكَلَة الربا ، وأموال الناس بالباطل . وأنواع الشبهات . فأخبر في الآية الأولى من هذه الفقرة كيف أن أكَلَة الربا لايقومون من قبورهم يوم القيامة إلى بعثهم ، ونشورهم ، إلا كما يقوم المصروع حال صرعه ، وتخبط الشيطان له . ذلك التخبط المعرف ، المنكر . وإنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه . إذ اعترضوا على الله في تحريمه الربا ، من أنه - في زعمهم - شبيه بالبيع . وهذا اعتراض منهم على شرع الله مع علمهم بتفريق الله بين هذا ، وهذا . إذ هذا محرم ، أفظع تحريم . وهذا مباح . والله هو العليم الحكيم الذي لا معقِّب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل ، وهم يُسألون . وهو العالم بحقائق الأمور ، ومصالحها . وما ينفع عباده فيبيحه لهم . ومايضرهم فينهاهم عنه . وهو أرحم بهم من الوالدة بطفلها . ثم بيَّن الله عز وجل أنه من بلغه نهي الله عن الربا ، فانتهى ، فله ماكان أكل من الربا قبل التحريم . أي : قبل نزول هذا النص . ومن فعل الربا بعد بلوغه نهْي الله عنه ، فقد استوجب العقوبة ، وقامت عليه الحجة ، واستحق الخلود في النار .

وفي الآية الثانية من هذا المقطع يخبر تعالى أنه يمحق الربا . أي : يذهبه ، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركة ماله . فلا ينتفع به . بل يعدمه في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة . بينما هو جل جلاله ، يبارك وينمي ، ويكثر الصدقات ، بأن يضاعف لأصحابها أجورهم . وإنما ذكر بركة الصدقة يوم القيامة ، ولم يذكر تنمية الأموال المزكاة في الدنيا - مع أنه كائن - تبياناً لقصد أصحابها ، وإشعاراً بأن الدنيا هينة ، وأن الآخرة هي الهدف . **ثم ختم الله عز وجل هذه الآية بتبيان أنه لا يحب كل كفور القلب ، أثيم القول والفعل . والمناسبة بين بداية الآية وخاتمتها ، هي : أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة . فهو جحود لما عليه من النعمة ، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل .**

ثم جاءت الآية الثالثة التي أثنى بها الله على المؤمنين بربهم ، المطيعين أمره ، المؤدين شكره ، المحسنين إلى خلقه ، المقيمين الصلاة ، والمؤدين الزكاة ، ثم أخبر عما أعدَّهم من الكرامة . وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون .

وقد ختمت الآية الثالثة بقوله تعالى : ﴿ **لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ كما ختمت الفقرة السابقة ، إشارة إلى أن هذه الفقرة امتداد لما قبلها . فالمقطع واحد .

وقبل أن نتحدث عن المعنى الحرفي للآيات ، نحب أن نعرّف الربا ، وحكمة تحريمه .

الربا هو فضل مال ، خال عن العِوَض في معاوضة مال بمال ، وأنواعه كثيرة . روى الحاكم عن ابن مسعود رسول الله ﷺ : « **الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها أن ينكح الرجل أمّه . وإن أربى الربا عِرْض الرجل المسلم** » . **قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين . وروى ابن ماجه عن أبي هريرة قال** : قال رسول الله ﷺ : « **الربا سبعون جزءاً . أيسرها أن ينكح الرجل أمه** » .

ولا شك أنه يدخل في هذه الأنواع الكثيرة ، أنواع من الربا معنوية . كالاستطالة في عرض المسلم .

قال ابن كثير : وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم. وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : (ثلاث ، وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهداً ، ننتهي إليه : الجد ، والكلالة ، وأبواب من الربا) يفهم من هذا أن هناك أبواباً من الربا تحتاج إلى فقه أهل الاجتهاد حتى تعرف على ضوء نصوص الكتاب والسنّة . ولا ننسى أن ما أدى إلى الحرام ، فهو محرم .

وكما حرم الله الربا ، حرم المسالك المفضية إليه ، والوسائل الموصلة إليه . وتتفاوت أنظار المجتهدين بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم . فأدخل بعضهم في أبواب الربا ، ما لم يدخله غيره . والذي يدل على أن الوسائل التي تفضي إلى الربا محرمة ، ما رواه أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، والإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا » . قال : قيل له الناس كلهم ؟ . قال : « من لم يأكله منهم ناله من

غباره » . ومن أبواب الربا : ربا الفضل . ومن أبوابه ربا النَسَاء . ومن أبوابه بيع العينة .

ومن أبوابه ماكان ظاهره بيعاً ، وحقيقته رباً . فالعبرة في العقود للمعاني لا للألفاظ والمباني . ومن أبوابه المخابرة . وهي المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض . والمزابنة . وهي : اشتراء الرطب في رؤوس النخل ، بالتمر على وجه الأرض . والمحاقلة وهي : اشتراء الحب في سنبله في الحقل ، بالحب على وجه الأرض .

وأدخل الحنفية في الربا ، كل ما كان من أنواع البيوع الفاسدة .

وأما البيع ، فإنه معاوضة مال بمال . وله أنواع كثيرة . والفارق بينه ، وبين الربا ، واضح . **فالربا أعلى مظاهر الاستغلال والجشع . والبيع ضرورة ، لابد منها للحياة الاقتصادية ولنضرب مثالين ، لنرى نتائج الربا الخبيثة . والحكمة في تحريمه .**

المثال الأول : يستقرض المزارع بالربا ، ليشتري بذراً ، يبذره في أرضه البعل وقد يأتي ذلك العام ، عام جدب . فيخسر البذر ، ويخسر ثمنه ، ويجب عليه وفاء الدين والربا . ولما كان لايستطيع أن يدفع شيئاً ، فإن عليه أن يؤجل الدين مع ربا العام القادم . وعليه أن يستقرض للبذار من جديد ، بربا كذلك . فإذا ما جاء عام جدب آخر تضاعف عليه ، ربا السنة الأولى ثلاث مرات . وربا السنة الثانية مرتين ، وعليه أن يستقرض بربا من أجل أن يبذر للسنة الثالثة . ويستغلّ المرابون احتياجه ، فيرفعون سعر الربا فإلى أي حد – لو جاء موسم جيد – يستطيع أن يفي بما **استقرض**، وبرباه ، وبنفقات عياله . إن ثمرات جهده ، خلال السنين تذهب إلى صندوق المرابي دون مقابل من جهد شخصي ، ودون أن يتحمل رأس المال في مقابل ربحه ، **أيَّ شيء من الخسارة** .

والمثال الثاني : نفرض أن مرابياً واحداً كان موجوداً ببلدٍ ، واحتاج الناس أن يستقرضوا من هذا المرابي بالربا . ولنفرض أنه يملك عشرين مليوناً . وأقرض بالربا بأرخص الأسعار . وليكن بخمسة بالمائة . فإذا ماأقرض العشرين مليوناً ، فإن العشرين تصبح خلال سنة واحداً وعشرين مليوناً ، وفي سنة ثانية ، وثالثة .. وكل ذلك وهو جالس . ورأس المال مضمون الربح . ولا يتحمل أي خسارة . والجميع يجهدون . فإذا استمر الأمر . فلا بد أن يأتي يوم ، تصبح فيه كل رؤوس الأموال في البلد في صندوق المرابي ، والجميع مدينون له .

ولا يستطيعون وفاءً . فإما أن يثوروا ، ويقتلوه ، وينهبوا ماله . وإما أن يصبحوا أجراء ، عبيداً عنده . وفي كل حالة فإن المسألة، هكذا . المستدينون بالربا يكدحون ، ويشقون ، ليملأوا خزينة المرابي ، فإذا ما طبقنا هذا على مستوى عالمي كبير ، أو على مستوى صغير نجد أن مآل الربا خطير ، عدا عن كونه يمثل تصرفاً وحشياً من قِبَل المرابي إذ لايستقرض الإنسان بالربا إلا وهو محتاج . وقد استغل المرابي احتياج هذا الإنسان بوحشية وجشع وطمع ، بدلا من أن يرحمه فيساعده ، أو يقرضه . أو على الأقل أن يتعامل معه بمنطق المضاربة ، أو السَلَم كما سنرى . ومن ثَم فقد حُرم الربا في الإسلام تحريماً قطعياً . وقد رأينا أن أدنى أبوابه ، كأن يزني الرجل بأمه . وفي الحديث : « درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم ، أشد من ستة وثلاثين زنية » . أخرجه الإمام أحمد والطبراني في الكبير .

المعنى الحرفي للمجموعة الأولى :

﴿ **الذين يأكلون الربا لايقومون** ﴾ إذا بُعثوا من قبورهم . ﴿ **إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ : المس : الجنون . والخبط : هو الضرب على غير استواء ، كخبط العشواء . والمعنى : أنهم يقومون يوم القيامة مختلين كالمصروعين . تلك سيماهم ، يُعرفون بها عند أهل الموقف . ﴿ **ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا** ﴾ أي : ذلك العقاب بسبب أنهم قالوا إنما البيع مثل الربا . ولم يقل إنما الربا مثل البيع ، مع أن الكلام في الربا لا في البيع ، لأنه جيء به على طريقة المبالغة . وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا ، أنهم جعلوه أصلا ، وقانوناً في البيع ، حتى شبهوا به البيع . ﴿ **وأحلَّ الله البيع ، وحرم الربا** ﴾ : هذا إنكار لتسويتهم بينهما . إذ الحِل مع الحرمة ضدان . فأنى يتماثلان . وفي هذا النص دليل على أن القياس يهدمه النص . لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم ، إحلال الله وتحريمه . ﴿ **فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله** ﴾ أي : فمن بلغه وعظ من الله ، وزجر بالنهي عن الربا ، فتبع النهي وانتهى ، فلا يؤاخذ بما مضى منه . لأنه أخذ قبل نزول التحريم . وأمره إلى الله ، يحكم في شأنه يوم القيامة . وليس من أمره إليكم من شيء ، فلا تطالبوه به . وفي هذا بعث لهمة هؤلاء كي ينفقوا . ﴿ **ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ أي : ومن عاد إلى الربا

مستحلاًّله ، فأولئك أصحاب النار خالدون فيها لأنهم بالاستحلال صاروا كافرين . لأن من أَحل ما حرم الله عز وجل عليه فهو كافر . فلذا استحق الخلود . أما من لم يستحل ، وتاب ، فأرجع ما أخذه من رباً إلى أهله ، أو أنفقه - لابنية القربة - إن لم يعلم أصحابه . فالمرجو أن يتوب الله عليه . ومن لم يستحل ، ولم يتب ، فأمره إلى الله . إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه . ﴿ **يمحق الله الربا** ﴾ أي : يذهب ببركته ، ويهلك المال الذي يدخل فيه . ﴿ **ويُرْبِي الصدقات** ﴾ . أي : ينميها ، ويزيدها . أي يزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة ، ويبارك فيه . ﴿ **والله لا يحب كل كفَّار أثيم** ﴾ . أي : لا يحب كل عظيم الكفر ، باستحلال الربا ، متمادٍ بالإثم بأكله . ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ أي : إذا اجتمعت لهم هذه المعاني كلها . ﴿ **لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ .

فــوائــد :

١ - روى البخاري عن ابن عباس قال : « آخر مانزل على رسول الله ﷺ آية الربا » .

وروى البخاري عن عائشة قالت : « لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا ، قرأها رسول الله ﷺ على الناس ثم حرّم التجارة في الخمر » .

وما الصلة بين الربا ، وتحريم التجارة في الخمر ؟ .

قالوا : لما حرم الربا ووسائله ، حرم الخمر وما يُفضي إليه .

٢ - قال عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة : « وكل رباً في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين . وأول رباً أضع ، ربا العباس » . قال ابن كثير : ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حل الجاهلية بل عفا عما سلف . وبهذه المناسبة نتساءل : هل الحكم اللاحق ، مسؤول عن رد المظالم التي حدثت في عهد سابق ، ومحاسبة من خالفوا أمر الله في عهد سابق ؟ . يبدو أن الدولة الإسلامية أمامها خيارات واسعة في هذا الشأن .

٣ - روى الإمام أحمد ، وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الربا وإن كثر فإن عاقبته

تصير إلى قل » .

٤ - روى مسلم ، والترمذي ، والنسائي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولايصعد إلى الله إلا الطيب - فإن الله يقبلها بيمينه ، فيربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوّه حتى يكون مثل أُحد » .

ولننتقل إلى المجموعة الثانية في فقرة الربا :

﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتَظلِمون ولا تُظْلَمون * وإن كان ذو عسرة فَنَظِرَةٌ إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * واتقوا يوماً تُرْجَعون فيه إلى الله ثم تُوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون ﴾ .

المعنى العام :

في الآية الأولى يأمر الله المؤمنين بتقواه ، وينهاهم عما يقربهم من سخطه ويبعدهم عن رضاه ، بأن يخافوه ، ويراقبوه فيما يفعلون . وأن يتركوا ما لهم على الناس من زيادة على رؤوس الأموال في حالة ابتلائهم بالربا ، ومخالطتهم له إن كانوا مؤمنين بما شرع الله لهم من تحليل البيع وتحريم الربا ، وغير ذلك .

وفي الآية الثانية تهديد شديد ، ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار ، بأن أعلن على أصحاب ذلك الحرب من الله ورسوله ، والحرب من رسول الله ، حرب عقوبة دنيوية ، ولذلك قال ابن عباس : فمن كان مقيماً على الربا لاينزع عنه ، كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيبه . فإن نزع ، وإلا ضرب عنقه . والحرب من الله ، مظهرها العقوبة الربانية في الدنيا ، والعقوبة الأخروية . قال ابن عباس : يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب . ثم بين الله عز وجل أن من تاب فله رأس ماله فقط . لا يَظْلم بأخذ زيادة ، ولا يُظلم بأن ينقص من رأس ماله .

وفي الآية الثالثة يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لايجد وفاءً . لا كما كان أهل الجاهلية يفعلون . يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين : إما أن تقضي ، وإما أن تربي .

ثم ندب الله عز وجل إلى أكثر من ذلك . وهو أن يترك الدائن رأس المال بالكلية . ووعد على الوضع عنه ، الخير والثواب الجزيل . وفي الآية الأخيرة في الفقرة ، يعظ الله عباده ويذكرهم زوال الدنيا ، وفناء مافيها من الأموال ، وغيرها . والمصير إلى الآخرة والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ، ويحذرهم عقوبته .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا** ﴾ أي : يا أيها الذين آمنوا ، خافوا الله ، واتركوا بقايا الربا ، ولا تطالبوا بها . فإذا كانت بقايا الربا قبل التحريم يجب أن تترك . فمن باب أولى أن تستأصل معاني الربا ، وألا تستأنف أبداً . ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي : إن كنتم مؤمنين ، كاملي الإيمان ، فإن دليل كماله ، امتثال المأمور به . ﴿ **فإن لم تفعلوا** ﴾ . أي : فإن لم تتركوا بقايا الربا . ﴿ **فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ : أي : فاعملوا مستيقنين بحرب الله ، ورسوله . وإنما قال بحرب من الله ورسوله ، ولم يقل بحرب الله ورسوله ، لأن الأول أبلغ . لأن المعنى : فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله . ﴿ **وإن تبتم** ﴾ : من ممارسة الربا . ﴿ **فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون** ﴾ المديونين بطلب الزيادة عليها . ﴿ **ولا تُظلمون** ﴾ : بالنقصان منها .

فـوائـد :

١ - ذكر زيد بن أسلم أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير بن ثقيف ، وبني المغيرة ، من بني مخزوم . كان بينهم ربا في الجاهلية . فلما جاء الإسلام ، ودخلوا فيه ، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم . فتشاوروا ، وقالت بنو المغيرة : لا نؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام . فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية . فكتب بها رسول الله ﷺ إليه : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ . فقالوا : نتوب إلى الله ، ونذر مابقي من الربا . وذكر هذا ابن جريج ومقاتل وابن حبان والسدي .

٢ - قال الحسن وابن سيرين : « والله إن هؤلاء الصيارفة ، لأكلة الربا ، وإنهم قد أوذِنوا بحرب من الله ورسوله . ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم . فإن تابوا ، وإلا وضع فيهم السلاح » أقول : اجعل هذا الكلام في عصرنا في أصحاب البنوك الربوية ، والأنظمة التي تحميها .

٣ - قال قتادة تعليقاً على آية : ﴿ **فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ : أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون . وجعلهم بهرجاً أين ماكانوا ، فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا . فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه . فلا يلجئنكم إلى معصيةٍ فاقة .

٤ - من روايات خطبة الوداع أن رسول الله ﷺ قال :

« ألا إن كل ربا كان في الجاهلية موضوع عنكم كله . لكم رؤوس أموالكم ، لا تَظلمون ، ولا تُظلمون . وأول ربا موضوع ، ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله » .

﴿ **وإن كان ذو عسرة** ﴾ ذو العسرة أي : ذو الإعسار . أي : وإن وقع غريم من غرمائكم في الإعسار . ﴿ **فنَظِرَة إلى ميسرة** ﴾ أي : فالحكمُ إنظاره إلى يساره . ﴿ **وأن تصدقوا خير لكم** ﴾ أي : وإن تتصدقوا برؤوس أموالكم ، أو ببعضها على من أعسر من غرمائكم خير لكم يوم القيامة . ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ للعلم هنا مدلول أوسع من مدلوله النظري . المراد به هنا : العلم الذي يرافقه العمل . فصار التقدير : وتصدقكم خير لكم إن كان عندكم علم بخيرية هذا عند الله ، فتعملون به .

فـوائـد :

١ - روى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله ، فلييسر على معسر ، أو ليضع عنه » . وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة .

٢ - روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كان تاجر يداين الناس

فإذا رأى معسراً ، قال لفتيانه ، تجاوزوا عنه ، لعل الله يتجاوز عنا . فتجاوز الله عنه » .

٣ - روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من أراد أن تستجاب دعوته ، وأن تكشف كربته ، فليفرج عن مُعْسرٍ » .

٤ - روي الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أَنْظَر معسراً إلى ميسرته ، أنظره الله بذنبه إلى توبته » . ومن حديث رواه ابن عباس ، وأخرجه الإمام أحمد قوله ﷺ : « من أنظر معسراً ، أو وضع عنه، وقاه الله من فيح جهنم » .

٥ - روى الإمام أحمد عن بريدة قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة » . قال : ثم سمعته يقول : « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة » . قلت : سمعتك يارسول الله تقول : من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة . ثم سمعتك تقول : من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة ، قال له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين . فإذا حل الدين فأنظره ، فله بكل يوم مثلاه صدقة » **﴿ واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ثم تُوفَّى كل نفس ماكسبت ﴾** . أي : توفَّى جزاء ماعملت . **﴿ وهم لايظلمون ﴾** . أي : بنقصان الحسنات ، وزيادة السيئات .

فائدة :

القول الراجح عند العلماء ، أن هذه الآية آخر آية نزلت من كتاب الله . قال ابن جريج : يقولون إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال ، وبدىء يوم السبت ، ومات يوم الاثنين . وروي مثله عن سعيد بن جبير وفي رواية عن ابن عباس بعد أن ذكر أنها آخر ما نزل أن بَيْنَ نزولها ، وموت النبي ﷺ واحداً وثلاثين يوماً .

فوائد من الظلال حول فقرة الربا :

— ١ —

إن الربا الذي كان معروفا في الجاهلية والذي نزلت هذه الآيات وغيرها لإبطاله ابتداءً كانت له صورتان رئيسيتان : ربا النسيئة ، وربا الفضل .

فأما ربا النسيئة فقد قال عنه قتادة : « إن ربا أهل الجاهلية يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى ، فإذا حل الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخَّر عنه » .

وقال مجاهد : « كانوا في الجاهلية يكون للرجل على الرجل الديْن ، فيقول : لك كذا وكذا وتؤخِّر عني . فيؤخِّر عنه » .

وقال أبوبكر الجصاص : « إنه معلوم أن ربا الجاهلية إنما كان قرضاً مؤجلا بزيادة مشروطة . فكانت الزيادة بدلا من الأجل . فأبطله الله تعالى » .

وقال الإمام الرازي في تفسيره : « إن ربا النسيئة هو الذي كان مشهوراً في الجاهلية لأن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره إلى أجل ، على أن يأخذ منه كل شهر قدراً معيناً ، ورأس المال باق بحاله . فإذا حل طالبه برأس ماله . فإن تعذر عليه الأداء زاده في الحق والأجل » .

وقد ورد في حديث أسامة بن زيد – رضي الله عنهما – أن النبي – ﷺ – قال : « لا رِباً إلا في النسيئة » (رواه البخاري ومسلم) .

أما ربا الفضل فهو أن يبيع الرجل الشيء بالشيء من نوعه مع زيادة . كبيع الذهب بالذهب . والدراهم بالدراهم . والقمح بالقمح . والشعير بالشعير .. وهكذا .. وقد أُلحق هذا النوع بالربا لما فيه من شبه به ؛ ولما يصاحبه من مشاعر مشابهة للمشاعر المصاحبة لعملية الربا .. وهذه النقطة شديدة الأهمية لنا في الكلام عن العمليات الحاضرة ..

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبُر بالبُر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح .. مِثلا بمثل .. يداً بيد .. فمن زاد أو استزاد فقد أربى ، الآخذ والمعطي فيه سواء » ... (رواه الشيخان) وعن أبي سعيد الخدري أيضاً قال : جاء بلال إلى النبي ﷺ بتمر برنيٍ فقال له النبي ﷺ « من أين هذا ؟ » قال : كان عندنا تمر رديء فبعت منه صاعين بصاع . فقال : « أوَّه ! عين الربا . عين الربا . لاتفعل . ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر ، ثم اشتر به » . (متفق عليه) فأما النوع الأول فالربا ظاهر فيه لايحتاج إلى بيان ، إذ تتوافر فيه العناصر الأساسية لكل عملية ربوية . وهي : الزيادة على أصل المال . والأجل الذي من أجله تؤدى هذه الزيادة . وكون هذه الفائدة شرطاً مضموناً

في التعاقد . أي ولادة المال للمال بسبب المدة ليس إلا ..

وأما النوع الثاني ، فمما لاشك فيه أن هناك فروقاً أساسية في الشيئين المتماثلين هي التي تقتضي الزيادة . وذلك واضح في حادثة بلال حين أعطى صاعين من تمره الرديء وأخذ صاعاً من التمر الجيد .. ولكن لأن تماثل النوعين في الجنس يخلق شبهة أن هناك عملية ربوية إذ يلد التمر التمر ، فقد وصفه ﷺ بالربا ، ونهى عنه . وأمر ببيع الصنف المراد استبداله بالنقد . ثم شراء الصنف المطلوب بالنقد أيضاً . إبعاداً لشبح الربا من العملية تماماً ! ..

وكذلك شرط القبض : « يداً بيد » .. كي لايكون التأجيل في بيع المثل بالمثل ، ولو من غير زيادة ، فيه شبح من الربا ، وعنصر من عناصره !

إلى هذا بلغت حساسية الرسول ﷺ بشبح الربا في أية عملية . وبلغت حكمته في علاج عقلية الربا التي كانت سائدة في الجاهلية . فأما اليوم فيريد بعض المهزومين أمام التصورات الرأسمالية الغربية والنظم الرأسمالية الغربية أن يقصروا التحريم على صورة واحدة من صور الربا – ربا النسيئة – بالاستناد إلى حديث أسامة رضي الله عنه ، وإلى وصف السلف للعمليات الربوية في الجاهلية وأن يحلّوا – دينيًا – وباسم الإسلام ! – الصور الأخرى المستحدثة التي لاتنطبق في حرفية منها على ربا الجاهلية !

ولكن هذه المحاولة لاتزيد على أن تكون ظاهرة من ظواهر الهزيمة الروحية والعقلية .. فالإسلام ليس نظام شكليات . إنما هو نظام يقوم على تصور أصيل . فهو حين حرم الربا لم يكن يحرم صورة منه دون صورة . إنما كان يناهض تصوراً يخالف تصوره ، ويحارب عقلية لاتتمشى مع (أحكامه) . وكان شديد الحساسية في هذا إلى حد تحريم ربا الفضل إبعاداً لشبح العقلية الربوية والمشاعر الربوية من بعيد جداً .

ومن ثَم فإن كل عملية ربوية حرام . سواء جاءت في الصور التي عرفتها الجاهلية أم استحدثت لها أشكال جديدة . مادامت تتضمن العناصر الأساسية للعملية الربوية ، أو تتسم بسمة العقلية الربوية .. وهي عقلية الأثرة والجشع والفردية والمقامرة . ومادام يتلبس بها ذلك الشعور الخبيث . شعور الحصول على الربح بأية وسيلة !

(٢)

وبمناسبة قوله تعالى ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ يقول

صاحب الظلال :

« فهذه الحرب معلنة – كما قال أصدق القائلين – على كل مجتمع يجعل الربا قاعدة نظامه الاقتصادي والاجتماعي . هذه الحرب معلَنةٌ في صورتها الشاملة الداهمة الغامرة . وهي حرب على الأعصاب والقلوب . وحرب على البركة والرخاء . وحرب على السعادة والطمأنينة .. حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض . حرب المطاردة والمشاكسة . حرب الغبن والظلم . حرب القلق والخوف .. وأخيراً حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول . الحرب الساحقة الماحقة التي تنشأ من جرائم النظام الربوي المقيت .

فالمرابون أصحاب رؤوس الأموال العالمية هم الذين يوقدون هذه الحروب مباشرة أو عن طريق غير مباشر . وهم يلقون شباكهم فتقع فيها الشركات والصناعات . ثم تقع فيها الشعوب والحكومات . ثم يتزاحمون على الفرائس فتقوم الحرب ! أو يزحفون وراء أموالهم بقوة حكوماتهم وجيوشها فتقوم الحرب ، أو يثقل عبء الضرائب والتكاليف لسداد فوائد ديونهم ، فيعم الفقر والسخط بين الكادحين والمنتجين ، فيفتحون قلوبهم للدعوات الهدامة فتقوم الحرب ! وأيسر مايقع – إن لم يقع هذا كله – هو خراب النفوس ، وانهيار الأخلاق ، وانطلاق سعار الشهوات ، وتحطيم الكيان البشري من أساسه ، وتدميره بما لا تبلغه أفظع الحروب الذرية الرهيبة .

إنها الحرب المشبوبة دائماً . وقد أعلنها الله على المتعاملين بالربا .. وهي مسعرة الآن ؛ تأكل الأخضر واليابس في حياة البشرية الضالة ؛ وهي غافلة تحسب أنها تكسب وتتقدم كلما رأت الإنتاج المادي الذي تخرجه المصانع .. وكانت هذه التلال حَرِية بأن تسعد البشر لو أنها نشأت من منبت زكي طاهر ؛ ولكنها – وهي تخرج من منبت الربا الملوث – لاتمثل سوى ركام يخنق أنفاس البشرية ، ويسحقها سحقاً ، في حين تجلس فوقه شرذمة المرابين العالميين ، لاتحسّ آلام البشرية المسحوقة تحت هذا الركام الملعون !..

– ٣ –

فأما تنمية المال فلها وسائلها الأخرى البريئة النظيفة . لها وسيلة الجهد الفردي ، ووسيلة المشاركة على طريقة المضاربة وهي إعطاء المال لمن يعمل فيه ، ومقاسمته الربح والخسارة ، ووسيلة الشركات التى تطرح أسهمها مباشرة في السوق – بدون سندات

تأسيس تستأثر بمعظم الربح - وتناول الأرباح الحلال من هذا الوجه ، ووسيلة إيداعها في المصارف بدون فائدة - على أن تساهم بها المصارف في الشركات والصناعات والأعمال التجارية مباشرة أو غير مباشرة - ولا تعطيها بالفائدة الثابتة - ثم مقاسمة المودعين الربح على نظام معين أو الخسارة إذا فرض ووقعت .. وللمصارف أن تتناول قدراً من الأجر في نظير إدارتها لهذه الأموال .. ووسائل أخرى كثيرة ليس هنا مجال تفصيلها .. وهي ممكنة وميسرة حين تؤمن القلوب ، وتصح النيات على ورود المورد النظيف الطاهر ، وتجنب المورد العفن النتن الآسن .

الفقرة الثالثة من المقطع الثاني من القسم الثالث

إذ حرم الله الربا ، فقد فتح أبواباً ، تحل محل الربا المحرم . من ذلك بيع السَلَم . ومن ذلك القرض المضمون بالرهن ، أو بالكفيل ، أو بذمة الدولة . ومن ذلك شركة المضاربة . والذين يفرضون الربا على هذه الأمة ، المحاربون لله ورسوله هؤلاء - زيادة على كونهم يثبتون إثمهم ، وحربهم لله ورسوله بذلك - فإنهم يثبتون عجزهم كذلك عن التفكير . فلو أن حكومة من الحكومات ، انطلقت من خلال مصارف شركة المضاربة . ومن خلال مصارف السَلَم . ومن خلال مصارف القرض الحسن . ثم لو حاولت أن توجد صيغ التعامل مع العالم الخارجي على أسس إسلامية مستمدة من كل المدارس الفقهية لكان الوضع مختلفاً . لكن العجز عن التفكير ، والعجز عن التنفيذ ، والجهل والتقليد ، وأشياء أخرى ، كلها حالت دون قيام ذلك . ونرجو أن يتم ذلك كله في المستقبل .

تأتي هذه الفقرة بعد آيات الربا لتذكر البديل عن الربا من ناحية ، ولتذكر نموذجاً على المعاملات المنضبطة في النظام الإسلامي من ناحية . وهي تكمل موضوع الدخول في الإسلام كله من خلال تبيان أحكام الإسلام ، والتربية على الالتزام .

تتألف الفقرة من آيتين في الديْن وآية فيها إعلان المالكية لله والمحاسبة . والآية الأخيرة بمثابة درس الختام للفقرة ، وللمقطع ، وللقسم . فهي خاتمة الفقرة من حيث إن الفقرة توجيه في أمر المال الذي هو ملك الله . ومن حيث إن الديْن مظنة الهلاك . فالتذكير بمحاسبة الله ، يناسب ذلك . وهي بمثابة درس الختام في المقطع . إذ إن المقطع بدأ بقوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم** ﴾ . فأن يختم المقطع بالتذكير بمالكية الله ، فذلك هو المناسب .

وهي بمثابة درس الختام في القسم الذي يدعو إلى الدخول في الإسلام كله ، لتذكّر بمالكية الله لنا وحسابه إيانا ، فنقيم شرعه ، ودينه كاملا .

* * *

الفقرة الثالثة :

تمتدّ الفقرة بآياتها الثلاث من الآية (٢٨٢) إلى نهاية (٢٨٤) . وهذه هي :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ

وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

كلمة في هذه الفقرة :

بهذه الآيات ينتهي القسم الأخير من سورة البقرة . ولم يبق إلا خاتمتها والصلة بين هذه الفقرة وما قبلها واضحة . هي صلة القضايا المالية ببعضها . فالفقرة الأولى في الإنفاق ، والفقرة الثانية فيما يقابله وهو الربا . وهذه الفقرة في ضبط التعامل بين الناس في الديون والبيوع . ويختم هذا القسم بالإعلان أن الله هو مالك ما في السموات وما في الأرض . فيتصرف الإنسان في ملكه ضمن ما أمر . وليكون ظاهر الإنسان وباطنه مستقيما على أمر الله . لأن الله سيحاسبه على الظاهر والباطن . وقدرة الله محيطة بكل شيء

المعنى العام :

- الآية الأولى هي آية الدين وهي أطول آية في كتاب الله . وفي الآية إرشاد لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها ، وأضبط للشاهد فيها . ومما يدخل في المعاملات المؤجلة بيع السلف ، أو السَلَم المشهور . حتى إن ابن عباس اعتبر الآية فيه . والأمر بكتابة الدين أمر إرشاد لا أمر إيجاب كما ذهب إليه بعضهم . وأمر أن يتولى الكتابة كاتب . وأمر لهذا الكاتب أن يكتب بالعدل . والقسط ، والحق . ولا يجور في كتابته على أحد . ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان . ثم أمر من يعرف الكتابة ألا يمتنع من الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ، إذا لم يترتَّب على ذلك ضرر يصيبه . فكما علمه الله مالم يعلم ، فليتصدق على غيره ممن لايحسن الكتابة . ثم أُعطي حق الإملاء على الكاتب للمدين ، وأُمر المدين أن يذكر ما في ذمته من الدين كاملا فلا ينقص منه شيئاً وليتّق الله في ذلك . وفي الحالات التي يكون فيها المدين محجوراً عليه ، أو صغيراً ، أو مجنوناً ، أو عيّاً ، أو جاهلا لا يعرف الخطأ من الصواب ، فقد أعطي حق الإملاء لوليه ، وأمر وليه أن يملي

بالعدل والقسط . ثم أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثيق . وأمر أن يكون الشهود إما رجلين ، أو رجلا وامرأتين . وهذا النوع من الشهود ، إنما يكون في الأموال ، وما يقصد به الأموال . وأقيمت المرأتان مقام الرجل في هذا الباب لاحتمال نسيان إحداهما ، فتحتاج إلى أخرى من جنسها ، تذكّرها . إذ قد لايتاح دائماً للرجل أن يخلو بها . ليذكّرها ، لعدم كونه محرماً ، والمرأة أقدر على تذكير المرأة ، ثم أمر الله أن يكون الشهود عدولا ، وطالب المسلمين إذا دعوا لتحمل الشهادة أن يستجيبوا ومن ثم قال الجمهور إن تحمل الشهادة فرض كفاية . ومن شهد ودعي لأداء الشهادة ، فقد فرض عليه أداؤها وتكون الشهادة فرض عين على إنسان إذا تعين لإثبات الحق . ثم أتم الله إرشاده بأن أمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً إلى الأجل المحدد . ونهانا عن السآمة والملل في ذلك . ثم بيّن الحكمة من الأمر بالكتابة والإشهاد ، وغير ذلك مما مر بأن هذا أعدل ، وأثبت للشاهد. إذ إنه حين يرى خَطَّه يتذكر فلا ينسى . وأن هذا أقرب إلى عدم الريبة . ثم إن الأمر بالكتابة لا يدخل فيه بيع الحاضر يداً بيد . فلا بأس بعدم الكتابة ، لانتفاء المحذور في تركها . وفي هذا دليل على أن بيع السَلَم يدخل في الأمر بالكتابة . ثم أمر الله على سبيل الندب ، والإرشاد بالإشهاد على كل بيع . وليست المسألة من باب الوجوب . ثم نهى الكاتب ، والشاهد أن يضرا أحداً . بأن يكتب الأول خلاف ما أملي عليه . وأن يشهد الثاني بخلاف ما سمع . أو يكتم الحق . أو أن المراد بالنهي ، عدم الإضرار بالكاتب ، والشهيد بأن يُحْملا على الكتابة ، أو الشهادة في وقت ، أو في حال يضر بهما . ثم بيّن تعالى أنه إن وقعنا في مخالفة ماأمرنا به ، أو نهينا عنه ، فإنه فسق كائن بنا ، ولازم لنا ، لانحيد عنه ، ولا ننفك عنه ، ثم أمر بتقواه . وذلك بالخوف منه ، ومراقبته ، واتباع أوامره . ووعدنا على التقوى أن يعلمنا ، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها ، وعواقبها . فلا يخفى عليه شيء من الأشياء . بل علمه محيط بجميع الكائنات . فإذا تولى تعليمنا ، فذلك الخير كل الخير لنا .

وفي الآية الثانية . أرشدنا الله - عزوجل - إلى أنه في حالة كوننا مسافرين ، وتداينا إلى أجل مسمى ، ولم نجد كاتباً يكتب لنا ، أو لم نجد أدوات الكتابة ، فليكن بدل الكتابة ، رهان مقبوضة في يد صاحب الحق ، ثم بين الله - عز وجل - حكماً عاماً ، وهو أنه في حالة ائتمان بعضنا بعضاً ، فلا بأس ألا نكتب ، وألا نشهد . ولكن على من أؤتمن ، أن يؤدي الأمانة ، وأن يخشى الله ويتقيه . ثم نهانا عز وجل أن نخفي الشهادة ،

فلا نظهرها عند الاحتياج إليها ، أو عند الطلب منا أن نؤديها . ثم بيّن أن من يكتم الشهادة فذلك دليل فجور قلبه ، ثم هددنا بأن الله يعلم أعمالنا كلها . فلنحرر أعمالنا على مقتضى شرعه .

ثم يختتم هذا القسم كله بالآية الثالثة . فيخبر الله تعالى فيها أن له ملك السمٰوات والأرض وما فيهن ، وما بينهن . وأنه المطلع على ما فيهن ، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر ، والضمائر ، وإن دقّت وخفيت . وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه ، وما أخفوه في صدورهم فيعذب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء وأنه على هذا وغيره قادر . فإذا عرفنا أن هذه الآية ختام هذا المقطع ، عرفنا صلتها بفقراته كلها . فما بين قوله تعالى في أول هذا المقطع : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم...** ﴾ وبين قوله تعالى في هذه الآية : ﴿**لله ما في السمٰوات وما في الأرض**﴾ صلة واضحة . ومابين أمره تعالى بالإنفاق في سبيله ، وعدم المنّ والأذى صلة واضحة مع : ﴿ **وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه ...** ﴾ . وما بين النهي عن الربا ، وبين الآية صلة واضحة . فمالك السمٰوات والأرض له أن يحرّم ، أو يحل . وما بين آية الديْن ، وما بعدها ، وهذه الآية كذلك صلة واضحة . إذ كتمان الشهادة ، أو مضارة الشهيد ، وأمثال ذلك مرتبط بإبداء مافي الأنفس ، أو إخفائه .

فائدة حول السياق في هذا المقطع :

نستطيع الآن ، بعد ذكر المعنى العام لهذه الفقرة – وقبل ذكر المعنى الحرفي – أن نذكر مزيداً من الصلة بين فقرات هذا المقطع فنقول :

١ – إن هذا المقطع يمثل التوجيهات الربانية الرئيسية في موضوع الاقتصاد الإسلامي الذي يقوم على مبدأ الصدقات الإجبارية والطوعية ، والذي يقوم على أساس غير ربوي ، والذي يقوم على أسس ضبط التعامل بين الناس على مبادىء العدل والحق ، والذي يقوم على أساس الاعتراف لله بمالكيته لكل شيء . هذا الاقتصاد الذي يقوم على أساس تربية الضمير والوجدان.

٢ – إن ذكر فقرة عن الربا بين آيات الإنفاق وآية الديْن ذو مغزى كبير إذ من هذا السياق ندرك البديل عن النظام الربوي . إن الله الذي حرم الربا ، فتح للمسلمين طرق الخلاص منه . هذه الطرق إذا وجدت بشكل عفوي قضت على الربا ،

بشكل عفوي . وإذا كان للربا مؤسسات ووجد لها مؤسسات قضت على الربا :

هذه الطرق هي : ١ - الزكوات والصدقات . ٢ - القرض الحسن . ٣ - بيع السَلَم ، والبيع بالتقسيط . ٤ - شركة المضاربة . ولقد جاءت آيات الربا بعد الأمر بالصدقات . وذيلت بإنظار المعسر . ففيها إشارة إلى القرض . وجاء بعدها آية الديْن ، التي فتحت باب السَلَم ، وباب البيع بالتقسيط .

المعنى الحرفي للفقرة :

﴿ ياأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمىً فاكتبوه ﴾ . أي : ياأيها الذين آمنوا إذا داين بعضكم بعضاً إلى مدة معلومة ، فاكتبوا الديْن . وإنما أمر بكتابة الديْن لأن ذلك أوثق ، وآمن من النسيان ، وأبعد من الجحود . والمعنى : إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه . والأمر للندب على قول الجمهور . ويدخل في ذلك بيع السلف . روى مجاهد عن ابن عباس في آية الديْن قال : أنزلت في السلم إلى أجل معلوم . وروى البخاري عن ابن عباس قال : أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه . ثم قرأ : **﴿ ياأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾** . كما يدخل في ذلك البيع بالتقسيط والبيع إلى أجل . وقد ذكر ابن عباس الصلة بين هذه الآية ، والتي قبلها فقال كما ذكره النسفي : لما حرم الله الربا ، أباح السلف . واستدل الحنفية بهذه الآية على اشتراط الأجل في السَلَم لقوله تعالى فيها : **﴿ إلى أجل مسمى ﴾** . وبقوله ﷺ : « من أسلف فليسلف في كيل معلوم ، ووزن معلوم ، إلى أجل معلوم » . رواه البخاري ومسلم **﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾** : هل معنى الآية ، وليكتب بالعدل كاتب ، أو ليكتب كاتب عدل ؟ . قولان للمفسرين . وعلى القول الثاني يكون معنى النص : وليكتب بين المتداينين كاتب مأمون على ما يكتب . يكتب بالاحتياط . لا يزيد على ما يجب أن يكتب ، ولا ينقص . وفيه دليل على أن يكون الكاتب فقيهاً ، عالماً بالشروط ، حتى يجيء مكتوبه معدلاً بالشرع . وفي المعاملات الدولية المعاصرة ، وفي المعاملات التجارية المالية ، ينبغي أن تراعى في الكاتب شروط أخرى . وفي النص أمر للمتداينين بتخير الكاتب ، وألا يستكتبوا إلا فقيهاً ديِّناً حتى يكتب ما هو متفق عليه . **﴿ ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ﴾** : أي : ولا يمتنع واحد من الكتاب أن يكتب مثلما علمه الله كتابة الوثائق . لا يبدل ، ولا يغير . فليكتب تلك الكتابة ، لا يعدل عنها . **﴿ وليملل**

الذي عليه الحق ﴾ . الإملال والإملاء بمعنى واحد . أي : **ولا يكن** المملي إلا من وجب عليه الحق . لأنه هو المشهود على ثباته في ذمته ، وإقراره به . فيكون ذلك إقراراً على نفسه بلسانه . **﴿ وليتق الله ربه ﴾** . أي : وليتق - الذي عليه الدين - الله . فلا يمتنع عن الإملاء . فيكون جحوداً لحق الآخرين . **﴿ ولا يبخس منه شيئاً ﴾** : أي : ولا ينقص من الحق الذي عليه شيئاً في الإملاء ، فيكون جحوداً لبعض الحق **﴿ فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يملّ هو ﴾** : السفيه هنا هو المجنون .. لأن السَفَه خفة في العقل ، أو المحجور عليه ، لتبذيره وجهله بالتصرف . والضعيف هنا هو الصغير . وغير المستطيع هنا هو العاجز عن الإملاء ، إما لعيّ ، أو خرس ، أو جهل باللغة . فإن كان الذي عليه الحق واحداً من هؤلاء **﴿ فليملل وليه بالعدل ﴾** . أي : فليمل الذي يلي أمره ، ويقوم به بالصدق والحق . **﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم ﴾** . أي : واطلبوا أن يشهد لكم على الدين شهيدين من المسلمين ، والحرية والبلوغ شرطان مع الإسلام . وشهادة الكفار بعضهم على بعض مقبولة . **﴿ فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ﴾** . أي فإن لم يكن الشهيدان رجلين ، فليشهد رجل وامرأتان . قال الحنفية : وشهادة الرجال مع النساء تُقبل ، فيما عدا الحدود ، والقصاص . **﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾** . أي : ممن تعرفون عدالتهم . **﴿ أن تضلّ إحداهما فتذكِّر إحداهما الأخرى ﴾** : هذا بيان لحكمة كون المرأتين في باب الشهادة هنا برجل . والمعنى : وذلك من أجل أنه إذا نسيت إحداهما الشهادة ذكرتها الأخرى :

يقول صاحب الظلال :

« أنه لابد من شاهدين على العقد **﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾** والرضى يشمل معنيين :

الأول : أن يكون الشاهدان عدلين مرضيين في الجماعة . **والثاني** : أن يرضى بشهادتهما طرفا التعاقد .. ولكن ظروفاً معينة قد لاتجعل وجود شاهدين أمراً ميسورا . فهنا ييسر التشريع فيستدعي النساء للشهادة ، وهو إنما دعا الرجال لأنهم الذين يزاولون الأعمال عادة في المجتمع المسلم السويّ ، الذي لاتحتاج المرأة فيه أن تعمل لتعيش ، فتجور بذلك على أمومتها وأنوثتها وواجبها في رعاية أثمن الأرصدة الإنسانية وهي الطفولة الناشئة الممثلة لجيل المستقبل ، في مقابل لُقيمات أو دُريهمات تنالها من العمل ، كما تضطر إلى ذلك المرأة في المجتمع النكد المنحرف الذي نعيش فيه اليوم ؛ فأما حين

لايوجد رجلان فليكن رجل واحد وامرأتان .. ولكن لماذا امرأتان ؟ إن النص لايدعنا نحدس ! ففي مجال التشريع يكون كل نص محدداً واضحاً معللا : ﴿ **أن تضل إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى** ﴾.. والضلال هنا ينشأ من أسباب كثيرة . فقد ينشأ من قلة خبرة المرأة بموضوع التعاقد ، مما يجعلها لاتستوعب كل دقائقه وملابساته . ومن ثم لايكون من الوضوح في عقلها بحيث تؤدي عنه شهادة دقيقة عند الاقتضاء ، فتذكّرها الأخرى بالتعاون معها على تذكر ملابسات الموضوع كله . وقد ينشأ من طبيعة المرأة الانفعالية . فإن وظيفة الأمومة العضوية البيولوجية تستدعي مقابلا نفسياً في المرأة حتماً . تستدعي أن تكون المرأة شديدة الاستجابة الوجدانية الانفعالية لتلبية مطالب طفلها بسرعة وحيوية لاترجع فيهما إلى التفكير البطىء .. وذلك من فضل الله على المرأة وعلى الطفولة .. وهذه الطبيعة لا تتجزأ ، فالمرأة شخصية موحدة هذا طابعها – حين تكون امرأة سوية – بينما الشهادة على التعاقد في مثل هذه المعاملات في حاجة إلى تجرد كبير من الانفعال ، ووقوف عند الواقع بلا تأثر ولا إيحاء . ووجود امرأتين فيه ضمانة أن تذكّر إحداهما الأخرى – إذا انحرفت مع أي انفعال – فتتذكر وتفىء إلى الوقائع المجردة » .

﴿ **ولايأبَ الشهداء إذا ما دعوا** ﴾ أي : ولا يرفض الشهداء إذا دعوا لأداء الشهادة ، أو لتحملها أن يفعلوا حتى لاتهلك الحقوق . ﴿ **ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله** ﴾ أي : ولا تملوا أن تكتبوا الدين ، أو الحق على أي حال كان الحق ، من صغر ، أو كبر . قال الحنفية : وفيه دلالة جواز السلم في الثياب . لأن مايكال أو يوزن ، لا يقال فيه الصغير والكبير . وإنما يقال في الذرعي ، إلى وقته الذي اتفق الغريمان على تسميته . ﴿ **ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا** ﴾ . أي : ذلك الكتب أعدل عند الله ، وأعون على إقامة الشهادة ، وأقرب من انتفاء الريب للشاهد ، والحاكم ، وصاحب الحق . فإنه يقع الشك في المقدار ، والصفات . فإذا رجعوا إلى المكتوب زال الشك . ﴿ **إلا أن تكون تجارةً حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جُناح ألا تكتبوها** ﴾ . أي : إلا أن تتبايعوا بيعاً ناجزا ، يداً بيد . فلا بأس ألا تكتبوه . لأنه لايتوهم فيه ، مايتوهم في التداين . ﴿ **وأشهدوا إذا تبايعتم** ﴾ : هذا أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً ، ناجزاً كان ، أو إلى أجل . لأنه أحوط ، وأبعد من وقوع الاختلاف . والأمر للندب . ﴿ **ولايضارّ كاتب ولا شهيد** ﴾ : هذا نهي للكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى مايطلب منهما . وعن

التحريف ، والزيادة ، والنقصان ، أو أنه نهي عن الضرار بهما بأن يعجلا عن مهم ، ويُلَزَّا ، أو لايعطى الكاتب حقه من الأجرة في حالة الكتابة بأجر . أو يحُمَّل مؤنة مجيئه من بلد إلى آخر . ﴿ **وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم** ﴾ : أي : وإن تضاروا ، فإن الضرار مأثم بكم . ﴿ **واتقوا الله** ﴾ : في مخالفة أوامره . ﴿ **ويعلمكم الله** ﴾ : شرائع دينه . ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾ : لايلحقه سهو ، ولاقصور . ﴿ **وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة** ﴾ أي : وإن كنتم أيها المتداينون مسافرين ،**فاستوثقوا** بالرهن ، بدل الإشهاد والكتب . قال النسفي : لما كان السفر مظنة لإعواز الكتب ، والإشهاد ، أُمر على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال من كان على سفر ، بأن يقيم التوثيق بالارتهان ، مقام التوثيق بالكتب والإشهاد . لا أن السفر شرط تجويز الارتهان . وذكر القبض بجانب الرهن دليل على اشتراط القبض حتى يتم الرهن ﴿ **فإن أمن بعضكم بعضاً** ﴾ أي : فإن أمن بعض الدائنين بعض المديونين بحسن ظنه به ، فلم يتوثق بالكتابة ، والشهود ، والرهن . ﴿ **فليؤدِّ الذي أؤتمن أمانته** ﴾ . أي دَيْنه وسمي الدين أمانة هنا ، مع أنه مضمون على خلاف الأمانة ، لائتمان الدائن المدين عليه ، بترك الارتهان منه . وفي النص تهييج للمديون على أن يكون عند ظن الدائن وأمنه منه وائتمانه له . وأن يؤدي إليه الحق الذي ائتمنه عليه فلم يرتهن منه . ﴿ **وليتَّق الله ربه** ﴾ : بأن لاينكر حقاً ، وأن يفي بما عليه . ثم توجه الخطاب للشهود ، بقوله تعالى : ﴿ **ولاتكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه** ﴾ أسند الإثم إلى القلب ، لأن كتمان الشهادة ، أن يضمرها في القلب ، ولايتكلم بها . فلما كان إثماً مقترفاً ، مكتسباً بالقلب ، أسند إليه . وإذ جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب ، فقد شهد له بأنه من أعاظم الذنوب . لأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح . ألا ترى أن الإيمان ، والكفر . والحسد ، والكبر ، كلها من أفعال القلب . وهي ماهي في شريعتنا . ﴿ **والله بما تعملون عليم** ﴾ . من كتمان الشهادة ، وإظهارها ، وغير ذلك من أعمالكم .

فائدة :

علق صاحب الظلال على آية الدين بقوله :

« وإن الإنسان ليقف في عجب وفي إعجاب أمام التعبير التشريعي في القرآن تتجلى الدقة العجيبة في الصياغة القانونية حتى مايبدّل لفظ بلفظ ، ولاتقدّم فقرة عن موضعها

أو تؤخر . وحيث لاتطغى هذه الدقة المطلقة في الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته . وحيث يربط التشريع بالوجدان الديني ربطاً لطيف المدخل عميق الإيحاء قوي التأثير ، دون الإخلال بترابط النص من ناحية الدلالة القانونية . وحيث يلحظ كل المؤثرات المحتملة في موقف طرفي التعاقد وموقف الشهود والكتاب ، فينفي هذه المؤثرات كلها ويحتاط لكل احتمال من احتمالاتها . وحيث لاينتقل من نقطة إلى نقطة إلا وقد استوفى النقطة التشريعية بحيث لا يعود إليها إلا حيث يقع ارتباط بينهما وبين نقطة جديدة يقتضي الإشارة إلى الرابطة بينهما ...

إن الإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغة الإيحاء والتوجيه . بل هو أوضح وأقوى . لأن الغرض دقيق يحرفه لفظ واحد ، ولاينوب فيه لفظ عن لفظ . ولولا الإعجاز ماحقق الدقة التشريعية المطلقة والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد .

ذلك كله فوق سبق التشريع الإسلامي بهذه المبادىء للتشريع المدني والتجاري بحوالي عشرة قرون ، كما يعترف الفقهاء المُحْدثون ؟..اهـ

﴿**لله ما في السمٰوات وما في الأرض**﴾ خلقاً وملكاً .. ﴿**وإن تُبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**﴾ . أي : وإن تظهروا مافي أنفسكم ، أو تُسرُّوه ، يحاسبكم به الله فيكافئكم ويجازيكم . قال النسفي : (ولا تدخل الوساوس وحديث النفس فيما يخفيه الإنسان . لأن ذلك مماليس في وسعه الخلو منه . ولكن مااعتقده ، وعزم عليه . والحاصل أن عزم الكفر كفر ، وخطرة الذنوب من غير عزم معفوة . وعزم الذنوب إذا ندم عليه ، ورجع عنه ، واستغفر منه مغفور . فأما إذا همّ بسيئة ، وهو ثابت على ذلك ، إلا أنه منع عنه بمانع ليس باختياره ، فإنه لايعاقب على ذلك عقوبة فعله . فبالعزم على الزنا – مثلا – لايعاقب عقوبة الزنا ﴿ **فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ : من المغفرة ، والتعذيب ، وغير ذلك .

فوائد :

١ – في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد ، وغيره عن رسول الله ﷺ « أنه ذكر رجلا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار . فقال ائتني بشهداء ، أشهدهم . قال : كفى بالله شهيداً . قال : ائتني بكفيل . قال : كفى بالله كفيلاً . قال : صدقت ، فدفعها إلى أجل مسمى . فخرج الرجل في البحر ، فقضى

حاجته ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجَّله . فلم يجد مركباً . فأخذ خشبة ، فنقرها ، وأدخل فيها ألف دينار ، وصحيفة معها إلى صاحبها . ثم زجّج موضعها ، ثم أتى بها البحر ، ثم قال : اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلاناً ألف دينار ، فسألني كفيلاً. فقلت: كفى بالله كفيلاً . وسألني شهيداً ، فقلت: كفى بالله شهيداً . فرضي بذلك ، وإني قد جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه بالذي أعطاني ، فلم أجد مركباً . وإني استودعتكها . فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده . فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً تجيئه بماله . فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطباً . فلما كسرها ، وجد المال ، والصحيفة . ثم قدم الرجل الذي كان تَسَلَّف منه ، فأتاه بألف دينار . وقال : والله مازلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه . قال : هل كنت بعثت إليّ بشيء ؟ . قال : ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت به . قال : فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة . فانصرف بألفك راشداً »

٢ - **قال ابن كثير** : جاء في الحديث : « إن من الصدقة أن تعين صانعاً ، أو تصنع لأخرق » . وفي الحديث الآخر : « من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » .

٣ - وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « يامعشر النساء ، تصدقن وأكثرن الاستغفار . فإني رأيتكن أكثر أهل النار » . فقالت امرأة منهن جزلة : ومالنا يارسول الله أكثر أهل النار ؟ . قال : « تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير . مارأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن » . قالت : يارسول الله : مانقصان العقل والدين قال : « أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل . فهذا نقصان العقل . وتمكث الليالي ولا تصلي ، وتفطر في رمضان . فهذا نقصان الدين » .

٤ - ورد في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم قال ﷺ : « ألا أخبركم بخير الشهداء ؟ . الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسْألها » .

فما الجمع بينه ، وبين الحديث الآخر الصحيح : « ألا أخبركم بشر الشهداء ؟ . الذين يشهدون قبل أن يستشهدوا » . وكذا قوله ﷺ : « ثم يأتي قوم تسبق أيْمانهم شهادتهم . وتسبق شهادتهم أيْمانهم » . وكذا قوله : « ثم يأتي قوم يشهدون ، ولا

يستشهدون » .

الجواب : أن الأول في الشهادة الحق . وأن هذه في شهادة الزور .

٥ - رأينا أن الجمهور حملوا الأمر بالإشهاد على البيع الناجز على الندب . ومما يشهد لذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد ، وأبوداود ، والنسائي « أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي ، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه . فأسرع النبي ﷺ ، وأبطأ الأعرابي ، فطفق رجال يعترضون الأعرابي ، فيساومونه بالفرس ، ولايشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ : فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال : إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه ، وإلا بعته . فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي ، قال : «أوليس قد ابتعته منك » . قال الأعرابي : لا والله مابعتك . قال النبي ﷺ : « بل قد ابتعته منك » . فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ ، والأعرابي وهما يتراجعان . فطفق الأعرابي يقول هلم شهيداً يشهد أني بعتك . فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي : ويلك إن النبي ﷺ لم يكن ليقول إلا حقاً ، حتى جاء خزيمة . فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ، ومراجعة الأعرابي يقول : هلم شهيداً يشهد أني قد بايعتك . قال خزيمة : أنا أشهد أنك قد بايعته . فأقبل النبي ﷺ على خزيمة ، فقال: « بم تشهد؟ » . فقال: بتصديقك يا رسول الله . فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة ، بشهادة رجلين » .

٦ - في قوله تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ . اتجاهان للمفسرين :الاتجاه الأول : أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **لايكلف الله نفساً إلا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾ . والقول الثاني : أنها غير منسوخة . وإنما قوله تعالى : ﴿ **لايكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ بيان لما يكون عليه الحساب . وهو مما يدخل تحت الوسع ، ويدخل تحت الكسب .

والمهم أن نعرف أن المؤاخذة في العزم ثابتة . وأما الخَطرة دون العزم ، فالجمهور على أنها معفو عنها . فإذا اتضح هذا ، فمسألة النسخ وعدمه ، إنما هي مسألة اصطلاحية ، تدور حول التخصيص ، هل هو نسخ ، أو بيان ، . مع الملاحظة أن القاعدة الكلية هي أن النسخ يكون في الأحكام ، لا في الأخبار . وقد أخذ أصحاب رسول الله ﷺ من هذه الآية أمر شديد ، حتى فرّج الله عنهم بأن أنزل الآيتين بعدها . ومما ورد في ذلك . ما رواه الإمام أحمد ، وغيره عن أبي هريرة قال : لما نزلت على

رسول الله ﷺ : ﴿ **لله ما في السموات وما في الأرض** ... ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله : فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب ، وقالوا يارسول الله : كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة . وقد أنزلت عليك هذه الآية ، ولا نطيقها . فقال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم ؛ سمعنا وعصينا ؟ . بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » . فلما أقرَّ بها القوم ، وذلّت بها ألسنتهم ، أنزل الله في أثرها : ﴿ **آمن الرسول** ... ﴾ إلى آخر الآيتين . فلما فعلوا ذلك نسخها الله .

وكما قلنا سابقاً ، إن كلمة النسخ هنا كلمة اصطلاحية . تفيد البيان المقيد ، لاأكثر . ولذلك نجد روايات عن ابن عباس تفيد النسخ ، وروايات تفيد عدم النسخ . لأن الأمر كما ذكرنا . وممن روي عنه عدم النسخ : مجاهد ، والضحاك ، والحسن البصري . واختاره ابن جرير . واحتج على أنه لايلزم من المحاسبة ، المعاقبة . وأنه تعالى قد يحاسب ؛ ويغفر . وقد يحاسب ؛ ويعاقب: بالحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يدنو المؤمن من ربه عزوجل حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه . فيقول له : هل تعرف كذا ؟ . فيقول : رب أعرف ، أعرف . حتى إذا بلغ ماشاء الله أن يبلغ ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا . وإني أغفرها لك اليوم قال : فيُعطى صحيفة حسناته ، أو كتابه بيمينه . وأما الكفار ، والمنافقون ، فينادى بهم على رؤوس الأشهاد : ﴿ **هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ (سورة هود) .

٧ - من الأحاديث التي تدل على أن الله لايحاسب على مادون العزم ما رواه أصحاب الكتب الستّة عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تجاوز لي عن أمتي ماحدّثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل » . وهذا في الخطرة الآثمة إذا رفضها القلب . أما إذا قبلها القلب ، وعزم على فعلها ، فالجمهور على أنه يأثم بذلك . ولكنه إن تركها لله ، فإن الله يأجره على ذلك . روى مسلم عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى قال : « إن الله كتب الحسنات ، والسيئات . ثم بيّن ذلك . فمن همّ بحسنة ، فلم يعملها ، كتبها الله عنده حسنة كاملة . وإن همّ بها فعملها ، كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة . وإن همّ بسيئة ، فلم يعملها ، كتبها الله عنده حسنة . وإن همّ بها فعملها ، كتبها الله عنده سيئة واحدة » .

والسؤال ، لو أنه عزم على السيئة ، وحاولها ، ولم ينجح في الوصول إليها ، الراجح أنه يأثم . ولكن دون إثم الفاعل .

وبهذا ينتهي الكلام عن آخر قسم من أقسام سورة البقرة . وبقي الكلام عن خاتمتها .

فصل في موضوع الأموال :

رأينا أن النظام الإسلامي المالي من أركانه : الإنفاق . ومن معالمه ، تحريم الربا . ومن معالمه ، المعاملات المنضبطة . ويدخل في الإنفاق ، الزكاة ، وصدقة الفطر . ويدخل فيه الوقف . ويدخل فيه الإنفاق الواجب . وتدخل فيه التطوعات عامة .

إن هذه المعاني عندما تنطلق في الحياة البشرية ، وتأخذ مداها ، موَجهة بالعلم ، وحسن التطبيق . ووضع الأمور في مواضعها . فإن مايمكن أن يترتب عليها من آثار ، لا يمكن إحصاؤها في حل المشكلات ، وإنقاذ الأوضاع ، وإيجاد حياة اقتصادية نشيطة . فوجوب الإنفاق ، وتحريم الربا يضطر أصحاب رؤوس الأموال لتشغيلها في السَلَم ، وشركات المضاربة ، أو إقراضها القرض الحسن ، مما يجعل رأس المال يتحرك ، ويحرك في غير ماتأثير ضار على الحياة الاقتصادية ، والاجتماعية . فإذا رافق هذا معاملات منضبطة ، تضبطها قواعد العدل ، والحق الإلهيين من خلال النصوص ، ومن خلال الفتوى البصيرة فإن الوضع الاجتماعي ، والاقتصادى للأمة ، يكون على غاية المتانة .

كلمة أخيرة في القسم الثالث :

لقد رأينا في هذا القسم كلاماً عن المرأة ، وكلاماً عن الرجل . ورأينا فيه كلاماً في الحرب ، والقتال ، والسياسة . ورأينا كلاماً عن شؤون مالية ، واقتصادية . ورأينا فيه كلاماً عن الصلاة والإنفاق . ورأينا فيه كلاماً عن الله ، واليوم الآخر . وكل ذلك جاء في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله . ومجيء ذلك في هذا السياق ، يشعرنا أنه لا انفصال بين أركان الإسلام ، وبقية الإسلام . وأنه لا انفصال بين التقوى ، وبين ماينبغي أن ينبثق عنها من التزام بالإسلام كله . وفي ذلك كله تصحيح لمفاهيم أكثر الخلق . إنه تصحيح لمفاهيم الذين يتصورون أن الدين الحق منفصل عن الدولة . وإنه تصحيح لمفاهيم الذين يتصورون أن الله – جل جلاله – لادخل له في شؤون هذا العالم.

وأنه تصحيح لمفاهيم الذين يتصورون أن التقوى مجرد صلاة فقط ، أو إقامة لأركان

الإسلام فقط . وإنه تصحيح لمفاهيم تضخمت بسببها معان ، وضمرت معان ، وفي ذلك من مظاهر الإعجاز الكثير . ولكن الإعجاز في هذا القرآن أوسع مدى .

خاتمة السورة ، وهي آيتان ، هما :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾

مما ورد في فضل هاتين الآيتين :

١ - أخرج مسلم ، والنسائي عن ابن عباس - وهذا لفظ النسائي - قال :« بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل ، إذ سمع نقيضاً فوقه . فرفع جبريل بصره إلى السماء ، فقال : هذا باب قد فتح من السماء ، مافتح قط . قال : فنزل منه ملك ، فأتى النبي ﷺ فقال له : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة . لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته » .

٢ - روى ابن مردويه عن معقل بن يسار ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أعطيت فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش ، والمفصَّل نافلة » .

٣ - روى الإمام أحمد بإسناد حسن عن عقبة بن عامر الجهني قال : قال رسول الله ﷺ « اقرأ الآيتين من سورة البقرة ، فإني أعطيتهما من كنز تحت العرش » .

٤ – وفي الصحيحين : قال رسول الله ﷺ « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة ، كفتاه » .

وقال عليٌّ رضي الله عنه : « لا أرى أحداً عقل الإسلام ، ينام حتى يقرأ آية الكرسي ، وخواتيم سورة البقرة . فإنها كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش » ، رواه ابن مردويه .

المعنى :

﴿ **آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه** ﴾ أي : صدَّق . روى الحاكم عن أنس أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية ، قال : « حق له أن يؤمن » . وهذا إخبار عن النبي ﷺ بذلك . ﴿ **والمؤمنون** ﴾ : هذا معطوف على الرسول ﷺ . أي : والمؤمنون آمنوا . ثم أخبر عن الجميع ، فقال : ﴿ **كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾ . فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد ، أحد ، فرد ، صمد . لا إله غيره ، ولا رب سواه . ويصدقون بجميع الأنبياء ، والرسل ، والكتب المنزّلة من السماء على عباد الله المرسلين . ﴿ **لانفرِّق بين أحد من رسله** ﴾ أي : يقولون هذا . فهم لايفرّقون بين رسول ، ورسول . فيؤمنون ببعض ، ويكفرون ببعض . بل الجميع عندهم صادقون ، بارّون ، راشدون ، مهديون هادون إلى سبيل الخير . ﴿ **وقالوا سمعنا وأطعنا** ﴾ . أي : سمعنا قولك ياربنا . وفهمنا . وأطعنا أمرك ، وقمنا به ، وامتثلنا العمل بمقتضاه . فجمعوا بهذا : الإيمان اللساني ، والطاعة . والسمع يقتضي علماً بما أنزل . والطاعة أثر عن الاستسلام لله ورسوله . وتتمة قولهم : سمعنا وأطعنا كما قصّه الله علينا : ﴿ **غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ أي : اغفر لنا . ياربنا ، وإليك مرجعنا ومآبنا . فهم يطلبون بعد الإيمان ، والعمل : المغفرة ، والرحمة ، واللطف . ويقرون بالبعث ، والجزاء ، إقرار المؤمن ، الخائف ، الوجل ، المشفق .

بهذه الآية وصف الله المؤمنين هذا الوصف الجامع كما رأينا . فهم مصدقون ، سامعون ، مطيعون ، شاعرون بالتقصير ، طالبون للمغفرة ، مشفقون من المصير . لقد أحاطت هذه الآية بصفات المؤمنين إحاطة كاملة ، شاملة . وذكر ابن جرير أنه لما نزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية ، قال جبريل : (إن الله قد أحسن الثناء عليك ، وعلى أمتك . فسل ، تعطه ...) .

وإذ وصف الله عزوجل المؤمنين في الآية السابقة هذا الوصف الجامع . فإنه في الآية

الثانية ، وصف شأنه ، وعدله . ثم علَّم المؤمنين أن يدعوه بما يناسب مقامهم ، وجلاله . قال تعالى : ﴿ **لايكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ . أي : لايكلف الله أحداً فوق طاقته . وهذا من لطفه تعالى بخلقه ، ورأفته بهم ، وإحسانه إليهم . فتكليفه لايكون إلا ضمن القدرة ، والطاقة بما يتيسر على الإنسان فعله ، دون مدى غاية الطاقة والمجهود وهذا النص هو المبين ، أو الناسخ لقوله تعالى : ﴿ **وإن تبدوا مافي أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ . كما رأينا . أي : هو – جل جلاله – وإن حاسب ، وسأل ، ولكن – لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه . فأما مالايملك الإنسان دفعه من وسوسة النفس ، والشيطان ، وحديثهما ، فهذا لايكلف به الإنسان . ولكنه يكلف برد ذلك ، وعدم قبوله ، وكراهيته . وهذا ضمن وسعه . والصلة بين هذا النص ، وما قبله ، واضحة . فالمؤمنون قاموا بحق ربهم . وربهم لم يكلفهم إلا ضمن طاقتهم . فلم يقوموا بحق الله لولا لطفه بهم . ولو شاء لأعنتهم . ولكنه رحيم ، لطيف . ثم بين الله عزوجل عدله في معاملة أنفس عباده ، فقال : ﴿ **لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾ أي : لها ماكسبت من خير . وعليها ما اكتسبت من شر . وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف . وإذ بيّن الله عزوجل لطفه ، وعدله ، أرشد عباده إلى سؤاله . وتكفّل لهم بالإجابة . فعلمهم أن يقولوا : ﴿ **ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ . أي : لاتؤاخذنا إن تركنا فرضاً أو أمراً على جهة السهو أو النسيان . أو أخطأنا الصواب في العمل جهلا منا ، أو من غير قصد منا ووقعنا في محظور .

﴿ **ربنا ولاتحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا** ﴾ . الإصْر : هو العبء يأصر صاحبه . أي : يحبسه في مكانه لثقله . فصار المعنى : لاتكلفنا من الأعمال الشاقة وإن طقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا ، من الأغلال ، والآصار التي كانت عليهم .

﴿ **ربنا ولا تحمِّلنا ما لاطاقة لنا به** ﴾ . أي : من التكاليف ، والمصائب ، والبلاء . لا تبتلنا بما لاقِبَلَ لنا به .

﴿**واعف عنَّا**﴾. أي: امح سيئاتنا بيننا وبينك، ومما تعلمه من تقصيرنا وزللنا ﴿ **واغفر لنا** ﴾ . أي : واستر ذنوبنا فيما بيننا وبين عبادك . فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة . ﴿ **وارحمنا** ﴾ . بأن توفقنا فيما يستقبل فلا توقعنا بذنب آخر . وارحمنا بأن تثقل ميزاننا مع إفلاسنا . ولهذا قالوا : إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء : أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه ، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم .

وأن يعصمه ، فلا يوقعه في نظيره . ﴿ **أنت مولانا** ﴾ . أي : أنت ولينا ، وناصرنا . وعليك توكلنا ، وأنت المستعان ، وإذ كنت مولانا ﴿ **فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ . أي : الذين جحدوا دينك ، وأنكروا وحدانيتك ، ورسالة نبيك ، وعبدوا غيرك ، وأشركوا معك من عبادك . فانصرنا عليهم . واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة . وكان معاذ بن جبل إذا ختم البقرة قال : آمين فاللهم آمين .

أيّ خاتمة أعظم من هذه الخاتمة ! التي أحاطت بصفات أهل الإيمان ، ووصفت الله بما يليق بذاته ، من فضل وعدل . وعلمتنا العبودية لله بهذه الدعوات التي أحاطت بالخير كله . فلئن كانت الآيات الأولى في سورة البقرة ، وصفت المتقين . فقد ختمت السورة بتبيان حال المؤمنين . فافطن للصلة بين البداية ، والنهاية بين قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ...** ﴾ في البداية وبين قوله تعالى في النهاية : ﴿ **كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾ .

بين قوله تعالى في البداية ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أُنزل من قبلك** ﴾ .

وبين قوله تعالى في النهاية ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون** ﴾ .

بين قوله تعالى في البداية : ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ . وبين قوله في النهاية ، واصفاً المؤمنين : ﴿**وقالوا سمعنا وأطعنا** ﴾ .

وافطن للصلة بين سورة البقرة كلها ، وقوله تعالى : ﴿ **لايكلِّف الله نفساً إلا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾ . وافطن لهذه الدعوات في نهايتها بعد تلك التكليفات فيها .

فوائد :

١ – قد استجاب الله لهذه الأمة ، هذه الدعوات التي وردت في آخر سورة البقرة . وقد ورد في ذلك أكثر من حديث صحيح . منه مايفيد أن الله عزوجل يقول بعد كل دعوة : (نعم) . ومنه مايفيد أن الله عزوجل يقول بعد كل دعوة : (قد فعلت) .

٢ – روى ابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه ، والطبراني : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

٣ – **قال ابن كثير** : (وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« بعثت بالحنيفية السمحة » .

٤ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ ولاتحملنا مالا طاقة لنا به ﴾ . ينقل ابن كثير ماأخرجه ابن أبي حاتم من قول مكحول فيما يدخل تحتها : (العزبة ، والغلمة) أي العزوبة ، وفرط الشهوة . وهذا يعني أن مكحولًا يرى ، أن أشد مايمتحن به الانسان ، فرط الشهوة ، مع عدم تيسر الزواج . ولنتذكر في هذه الحالة ، أن الصوم حَلّ . يقي المسلم جموح الشهوات .

كلمة عن سورة البقرة

١ – بعد أن انتهينا من استعراض سورة البقـرة . يحسن أن نتحدث عنها باختصار .

رأينا أن سورة البقرة تتألف من مقدمة ، وثلاثة أقسام ، وخاتمة .

أما المقدمة : فهي الآيات العشرون الأولى . وفيها أقسام الناس حسب التقسيم الرباني الإسلامي : متقين ، وكافرين ، ومنافقين ، وصفة كل منهم . وأما القسم الأول : فمن الآية (٢١) إلى نهاية الآية (١٦٧) . وفيها دعوة عامة إلى الناس جميعاً كي يسلكوا الطريق الموصل إلى تقوى الله. ويتركوا كل مايتاني ذلك.

وأما القسم الثاني: فمن الآية (١٦٨) إلى نهاية الآية (٢٠٧). وهو استمرار للقسم الأول في كونه دلالة على التقوى ، وتفصيلا في شأنها ، وتبياناً لأركانها ، وشروطها ، وما يدخل فيها . وموقف الناس منها . وغير ذلك من معان .

وأما القسم الثالث : فمن الآية (٢٠٨) إلى نهاية الآية (٢٨٤) . وفيه دعوة إلى الدخول في الإسلام كله . وتبيان لكثير من شرائع الإسلام . وتبيان ما يلزم لإقامة الإسلام كله . وفيه التوجيهات الرئيسية في قضايا المال . وفيه الملامح الرئيسية لنظام الاقتصاد في الإسلام . النظام القائم على الصدقات . والنظام غير الربوي . والنظام القائم على التعامل المنضبط . مع تقديم المالكية لله .

ثم تأتي الخاتمة التي يدخل فيها هذا كله . إذ مرجع هذا كله إلى الإيمان ، والسمع والطاعة والتوبة من التقصير . وهذا الذي عرضته الآية الأولى في الخاتمة ، ومرجع ما مر كله يعود إلى التكليف المستطاع للإنسان . وأن هذا التكليف بسببه يكون الجزاء ،

والعقاب . وهذا الذي ذكرته الآية الثانية من الخاتمة . وهذا والذي قبله ، لايتأتى إلا بعبودية كاملة ، وتوفيق من الله وهذا الذي علمتنا إياه الدعوات .

﴿ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحْمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمِّلنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ .

لقد جمعت هذه الدعوات الخاتمة ، كل التطلعات التي يتطلع إليها المؤمنون . وكان ذلك ختام السورة .

٢ - ورد عن رسول الله ﷺ في سورة البقرة قوله : « إن كادت لتستحصي القرآن كله » . وقد رأينا خلال استعراض السورة ، أنها استوعبت من المعاني مالا يحاط به . ولكن الأمر بالنسبة لسورة البقرة ، أوسع مما عرضناه فقد رأينا أن هذا القرآن يتألف من أربعة أقسام : قسم الطوال . وقسم المئين . وقسم المثاني . وقسم المفصّل ، كما ورد في حديث حسن . وقد رأينا في أول هذا التفسير ، كيف أن بقية قسم الطوال مرتبة على نسق مُعيّن ، مرتبط بنفس الترتيب الموجود في سورة البقرة . فسورة آل عمران ، تفصيل لمعان جاءت في أول البقرة . وسورة النساء ، تفصيل لمعان جاءت بعد ذلك . وهكذا قل في المائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، وبراءة .

وسنرى أن قسم المئين يتألف من ثلاث مجموعات . كل مجموعة تفصل في محاور من سورة البقرة على ترتيب وتسلسل موجودين في سورة البقرة . ثم يأتي قسم المثاني وهو يتألف من مجموعات كثيرة ، كل منها يفصّل في محاور من سورة البقرة على ترتيب وتسلسل موجودين في سورة البقرة . وكذلك قسم المفصّل . وسنرى ذلك في هذا التفسير واضحاً دون أن نتكلف في شأنه ، أو نتعسف . وبهذا كله يظهر لنا كيف تستوعب سورة البقرة معاني القرآن . وبهذا كله يظهر نوع من أنواع الإعجاز في القرآن . وما أكثر أنواع الإعجاز ، وما أكثر المعجزات في هذا القرآن . وسنرى بشكل واضح ، كيف أن كل مجموعة سور ، ستعرض معاني بتسلسل خاص ضمن قاعدة كلية . وسنرى كيف أن بعض المعاني نتيجة لذلك عُرضت على أشكال كثيرة ، وبطرق عرض متعددة . وسنرى أن لكل مجموعة خصائصها ، مع اشتراك الجميع في خصائص واحدة ، وكل ذلك سنراه في هذا التفسير بإذن الله . ونسأل الله أن يجعلنا كلنا لله . ذواتنا ، وأعمالنا ، وأقوالنا ، وكل شيء فينا .

فهرس المجلد الأول

الموضوع رقم الصفحة





* * *

* * *

